AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01223 6224

شفيق جبري

الجاحظ

معلم العقل والأدب

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

01-B415

Recd Jan 23rd

1825

PJ
7745
J3
Z76
1948

Jabrī, Shafīc
al-Jāhiz, mu'allim al-áql wa-al-adab.

شفيق جبري

٩/٥/١٩٤٨

الجاحظ

معلّم العقل والأدب

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

OCLC
40973886

B11773212
13090586

٧٠
٧٧

٨١٠,٩
جاحظ .ج

٦٩٢٥٩

مستهل القول

الحاجة إلى الأساليب الحديثة في الأدب مشتدة في عصرنا هذا فكأنما الأسماع قد مجّت ما نردد سنين طويلة وكأنما القلوب قد لفظت ما نمضغ.

على أننا لو نظرنا في أدب العرب لتبين لنا أن النفوس في كل عصر من عصور هذا الأدب كانت تتطلع إلى الأساليب الجديدة سواء أكانت هذه الأساليب في التقدم أم في اللغة نفسها فاللغة لم تكن إلا سلسلة تنتقل حلقاتها في كل عصر من العصور من شكل إلى شكل ، وقد يطول بنا الكلام على هذه الأطوار كلها و إنما أضرب أمثالاً يسيرة على سبيل التوضيح .

لقد كان النقد قديماً في لغة العرب ولكننا لا نجاوز عهد النابغة الذبياني مخافة أن نضيع في مجاهل لا مخرج لنا منها .

للعرب في الجاهلية مجالس أدب وأسواق ، أشهر هذه الأسواق سوق عكاظ التى كانت تقام في أول ذي القعدة فلا تزال يباع ويشترى فيها إلى حين الحج وكان قيامها بين نخلة والطائف .

شيخ النقدة في الجاهلية النابغة الذبياني وهو صاحب نعيم وترف كان يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك .

فالنابغة كان يضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فيحكم ، فلننظر في طراز هذا الحكم .

أول من أنشده الأعشى ثم حسان بن ثابت ثم أنشده الشعراء ثم أنشدته الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به   كأنه علم في رأسه نار

ولما سمع قول الخنساء قال : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فقام حسان وقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فخنس حسان لقوله .

هذا نمط من نقد النابغة . وإلى القارئ الكريم نمطاً آخر مثله :

قدم النابغة المدينة فدخل السوق فنزل عن راحلته ثم جثا على ركبتيه ثم اعتمد على عصاه ثم قال : ألا رجل ينشد ، فتقدم قيس بن الخطيم فجلس بين يديه وأنشده :

* أتعرف رسماً كاطراد المذاهب *

فلم يزده على نصف البيت حتى قال له النابغة : أنت أشعر الناس يا ابن أخي !

من هذه النماذج يتبين لنا أن النقد كان في بعض الأحايين مجرداً ، يحكم النابغة لشاعر من الشعراء من دون أن يوضح شيئاً من أسباب التفضيل والتمييز .

فلننتقل إلى صدر الإسلام ولنذكر في هذه المرة نوعاً من نقد النساء فقد كان للنساء مجالس حافلة ، من هذه المجالس مجلس سكينة بنت الحسين ومجلس عائشة بنت طلحة فكانت عائشة تفد على هشام فيبعث إلى مشايخ بني أمية فيحضرون ويسمرون عنده فلا يتذاكرون شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ولا يطلع نجم ولا يغور إلا سمته فكان مجلسها منضداً فيه الريحان والفواكه والطيب المجمر فتخلع على كل امرأة تحضر المجلس من نسوة قريش خلعة تامة من الوشي والخز ونحوهما ولم يكن لعائشة شبه في زمانها حسناً ودماثة وجمالاً وهيئة ومتانة وعفة .

وكذلك سُكينة بنت الحسين فقد كانت عفيفة ، سلمة ، برزة من النساء ، تجالس الأجلة من قريش ويجتمع إليها الشعراء وكانت ظريفة مزّاحة .

كانت أحسن الناس شَعَراً وكانت تصفف جمتها تصفيفاً لم ير أحسن منه حتى

عرف ذلك وكانت تلك الجمة تسمى « السكينية » وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلاً يصفف جمته السكينية جلده وحلقه .

كان يجتمع في منزل سكينة أمراء الغناء وهم معبد وابن سريج والغريض وحنين فتأذن للناس إذناً عاماً حتى تغص بهم دارها فتأمر لهم بالأطعمة فيأكلون و يسمعون الغناء وتجيز المغنين وربما أعطت بكل بيت ألف درهم .

هذا افتراء على السيدة سكينة

وقد كان لها ميل إلى الغناء فكانت تبعث إلى ابن سريج بشعر وتأمر أن يصوغ فيه لحناً يناح به فيصوغ اللحن ابن سريج وإذا اجتمع نسوة وذكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه ومجلسه وحديثه وتشوقن إليه بعثت إليه سكينة رسولاً فيوافي عمر مجلسهن فيحدثهن حتى مطلع الفجر .

كانت سكينة تنقد الغناء وتنقد الشعر ولما غنى الغريض وابن سريج * عوجي علينا ربة الهودج * قالت والله : ما أفرق بينكما وما مثلكما عندي إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت في أعناق الجواري لا يدرى أي ذلك أحسن .

فالذي يهمنا من شأن هذه المجالس صبغتها الأدبية فكانت سكينة تحكم بين رواة الشعر فقد اجتمع راوية جرير وراوية جميل وراوية نصيب وراوية الأحوص فافتخر كل رجل منهم بصاحبه وقال : صاحبي أشعر ، فحكّموا سكينة لما يعرفونه من عقلها و بصرها بالشعر فخرجوا يتهادون حتى استأذنوا عليها فأذنت لهم فذكروا لها الذي كان من أمرهم فقالت لرواية جرير : أليس صاحبك الذي يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

وأي ساعة أحلى من الطروق ؟ قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لرواية جميل : أليس صاحبك الذي يقول :

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أرى بصاحبك من هوى إنما يطلب عقله ! قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لرواية نصيب : أليس صاحبك الذي يقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت   فواحزنا من ذا يهيم بها بعدي

فما أرى همه إلا فيمن يعشقها بعده! قبحه الله وقبح شعره!
ثم قالت لراوية الأحوص: أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تراسلا وتواعدا   ليلاً إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذها   حتى إذا وضح الصباح تفرقا؟

قال: نعم، قالت: قبحه الله وقبح شعره، ألاّ قال: تعانقا! فلم تثن على أحد منهم في ذلك اليوم ولم تقدمه. وفي رواية أنها قالت لصاحب جميل: أليس صاحبك الذى يقول:

فياليتني أعمى أصم تقودني   بثينة لا يخفى عليّ كلامها؟

قال: نعم، قالت رحم الله صاحبك إنه كان صادقاً في شعره، وكان جميلاً كاسمه.
فالحكم في هذه المرة لم يكن مجرداً وإنما ذكرت فيه الأسباب التى من أجلها كان يرد الشعر أو يقبل، فكان نقد سكينة معنوياً يتعلق بالمعنى من حيث موافقته للذوق أو انحرافه عن الذوق. وعلى كل حال فإنه يختلف عن نقد النابغة الذي ذكرته، فإن فيه جولة للفكر، وعليه مسحة من الشعور.

هذا مجلس من مجالس نقد النساء للشعر في الصدر الأول للإسلام. فلنشهد مجلساً من مجالس بني أمية:

كان الأخطل يجيء وعليه جبة خز وحرز خز، في عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب، تنفض لحيته خمراً حتى يدخل على عبد الملك بغير إذن وربما دخل عليه وقد شرب فيكلم الخليفة ويخلط في كلامه ويقول:

إذا شرب الفتى منّا ثلاثاً   بغير الماء حاول أن يطولا

مشى قرشية لاعيب فيها   وأرخى من مآزره الفضولا

وبلغ من دالته على عبد الملك بن مروان أنه دخل عليه يوماً فاستنشده، فقال الأخطل: قد يبس حلقي فمر من يسقيني، فقال عبد الملك: أسقوه ماء فقال الأخطل:

شراب الحمار وهو عندي كثير ، فقال عبدالملك : فاسقوه لبناً، فقال: عن اللبن فطمت، فقال : فاسقوه عسلاً ، فقال الأخطل : شراب المريض ، فقال عبد الملك : فتريد ماذا ؟ قال : خمراً يا أمير المؤمنين ، قال : أو عهدتني أسقي الخمر لا أم لك ، لولا حرمتك بنا لفعلت بك وفعلت ، فخرج الأخطل فلقي فرّاشاً لعبد الملك فقال : ويلك إن أمير المؤمنين استنشدني وقد صحل صوتي فاسقني شربة خمر فسقاه ، فقال : اعدله بآخر ، فسقاه آخر فقال : تركتهما يعتركان في بطني ، اسقني ثالثاً ، فسقاه ثالثاً ، فقال : تركتني أمشي على واحدة اعدل ميلي برابع فسقاه رابعاً فدخل على عبد الملك فأنشده :

خف القطين فراحوا منك وابتكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غـير

فقال عبد الملك :

خذ بيده ياغلام فأخرجه ثم ألقى عليه من الخلع ما يغمره وأحسن جائزته وقال : إن لكل قوم شاعراً و إن شاعر بني أُمية الأخطل .

إني أرى أن الحكم على الأخطل لايخلو من صبغة سياسية لأن الأخطل كان هواه في خلفاء بني أُمية .

فلننتخب طرازاً آخر من النقد في ذلك العصر :

أنشد جرير قول عمر بن أبي ربيعة :

سائلا الربع بالبلى وقولا هجت شوقاً لي الغداة طويلا
أين حي حلوك إذ أنـ ـت محفوف بهم آهل أراك جميلا
قال : ساروا فأمعنوا فاستقلوا و برغمي لو استطعت رحيلا
سئمونا وما سئمنا مقاماً وأحبوا دماثة وسهولا

فقال جرير : إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشي .

إننا نستنبط من قول جرير أن النفوس تطلعت إلى أُسلوب حديث في الشعر غير الأسلوب الذي كان الشعراء يتبعونه في الجاهلية وهـذا التطلع يدلنا على طور

جديد ، فجرير وأمثاله كانوا يريدون أن يسمعوا أشياء لم تألفها أسماعهم ، والنفوس في كل عصر تميل إلى الشيء الطريف .

وقد كان في الإسلام مجالس أدب تشبه مجالس الأدب في الجاهلية ، منها مربد البصرة ومسجد الكوفة فكان يتوافق جرير والفرزدق بالمربد للهجاء وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها .

وكما كان لخلفاء بني أمية مجالس أدب فكذلك كان لخلفاء بني العباس أشباه هذه المجالس وربما كانت مجالس المنصور والمهدي والرشيد والمأمون وغيرهم من الخلفاء وأبناء الخلفاء والأمراء والوزراء أعمر وأحفل ولكني أتخطى الكلام على هذه المجالس فأذكر طرازاً من نقد الرواة في ذلك العصر فقد ظهر أبو عبيدة والأصمعي وأبو زيد الأنصاري وظهر حماد الراوية والمفضل الضبي وخلف الأحمر .

ولكن الجاحظ قد كفانا مؤنة الحكم على نقد هؤلاء الرواة ، فأجمل الكلام على خصائص هذا النقد فقال :

« طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لايعرف إلا غريبه ، فسألت الأخفش فلم يعرف إلا إعرابه ، فسألت أبا عبيدة فرأيته لا ينفذ إلا فيما اتصل بالأخبار » .

وقال في موضع آخر :

« ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الشعر إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه المشاهد والمثل » .

فالذي يستخلص من كلام الجاحظ أن الذوق الأدبي في النقد قد لوّن بألوان شتى فمرة كان الذوق يصبغ بصباغ نحويّ ومرة بصباغ لغويّ ومرة بصباغ إخباريّ . إن هذا الكلام على صحته في أكثر مواطنه لا يخلو من مبالغة صاحبه فيه في بعض الأحيان فالجاحظ قال : طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، ولكن الذي وصل إلينا من أمر الأصمعي أن له آراء في الشعر والنقد لا تدل على أنه

لا يعرف إلا غريب الشعر ، حتى كان الرشيد يقول له : يا أصمعي ما تطاق في الشعر.

فلننظر في نوع من أنواع نقده :

سئل عن بشار ومروان بن أبي حفصة أيهما أشعر ؟ فقال : بشار ، فسئل عن السبب في ذلك فقال : لأن مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره و بشار سلك طريقاً لم يسلك وأحسن فيه وتفرد به وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل .

فإذا دققنا فى هذا النقد وجدنا فيه ناحية جديدة فالنقد في هذه المرة مفصل فإذا حكم الناقد بين أسباب التفضيل والتمييز ، فبشار أشعر من مروان لأنه سلك طريقاً لم يسلكه غيره من الشعراء وهنا تعترضنا مسألة القديم والحديث فى الأدب ، فالشاعر المبرز إنما هو الذي يذهب مذهباً يتفرد فيه فلا يشبه غيره من المذاهب ، فرأي الأصمعي في بشار يشبه رأي جرير فى عمر بن أبي ربيعة فالنفوس قد ازداد تطلعها إلى نواح جديدة فى الشعر .

هكذا كان نقد بعض الرواة حتى جاء المؤلفون وشرعوا فى تأليف الكتب فى النقد فدخل النقد فى طور جديد من حيث الترتيب والتأليف ، من هؤلاء المؤلفين محمد بن سلاّم صاحب طبقات الشعراء فقد فصَّل الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين فأنزلهم منازل واحتج لكل شاعر بما وجده له من حجة وما قال فيه العلماء ولكن جوهر النقد لم يختلف عما كان عليه فى القديم فكان الحكم لشاعر من الشعراء لمتانة شعره أو لشرود قافيته أو لابتكار أسلوبه وكل هذا كان منه شيء فى القديم .

غير أن هؤلاء المؤلفين أخذوا يطعنون على ثقة بعض الرواة الذين أشرت إليهم وهذا أفق جديد فى التمحيص والتدقيق فمن قول ابن سلاّم فى الطعن على هؤلاء الرواة :

« فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قلَّت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا

أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم ثم كانت الرواة بعد فزادوا فى الأشعار وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون » .

ولو نبه ابن سلام وغيره من الذين طعنوا على ثقة بعض الرواة على كل الزيادات التى زادها هؤلاء الرواة لنقي الشعر العربي فلم يبق مجال لارتياب المرتابين بصحة بعض هذا الشعر . ووجه آخر في التمحيص أن القوم أخذوا يفرقون بين لسان حمير ولسان الحجاز . فقد أشار ابن سلام إلى قول أبي عمرو بن العلاء فى هذا الأمر :

ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا .

وهذان الأمران : زيادة الرواة واختلاف لسان حمير والحجاز ، هما المحوران اللذان يدور عليهما شك بعض أُدباء هذا العصر فى الأدب الجاهلي .

نعم ، جاء المؤلفون فى النقد كالجاحظ وابن قتيبة وقدامة بن جعفر وابن عبد ربه والآمدي والجرجاني وابن رشيق وغيرهم ولكن المجال لا يتسع للكلام على مذاهبهم كلها فأكتفي بالإشارة إلى ابن قتيبة صاحب كتاب الشعر والشعراء .

فمن قوله في بعض نقده :

« ولا نظرت إلى المتقدم منهم — أي من الشعراء — بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلاً حقه ، ووفرت عليه حظه فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ورأى قائله » .

لقد أخذ الفكر يتحرر فما كل قديم من الشعر مستحسن ولا كل حديث مستقبح والقديم كان قديماً بالقياس إلى عصرنا ، وهو حديث بالقياس إلى العصر الذي ظهر فيه ، فامرؤ القيس قديم في عصرنا هذا ، ولكنه حديث في عصره لأنه ابتدع أشياء لم تعرفها العرب .

جاء هؤلاء المؤلفون وفي جملتهم قدامة بن جعفر فوضع كتابه (نقد الشعر) فذكر فيه حد الشعر ، فقال في حده :

قول موزون مقفًّى يدل على معنى ؛ وذكر نعت اللفظ ونعت الوزن ونعت القوافي ، وذكر معاني الشعر كالمديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه وأشار إلى عيوب الوزن وعيوب القوافي وعيوب المعاني . والخلاصة أن النقد في هذه المرة تقيد وأصبح تابعاً لقواعد ، فمن شروط اللفظ مثلاً أن يكون سمحاً ، سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة . فهذه الكتب وأمثالها تشبه كتب الفن الشعري في لغات الإفرنجة فإن أصحابها لا ينظرون إلى آثار العقل والعاطفة إلا من حيث الصور الفنية . فمن نقد قدامة أن النابغة طعن على حسان بن ثابت بقوله :

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دما

وقال : لو قال حسان بالدجى لكان أحسن من قوله بالضحى إذ كل شيء يلمع بالضحى .

فقال قدامة : وهذا — أي نقد النابغة — خلاف الحق وعكس الواجب لأنه ليس يكاد يلمع بالنهار من الأشياء إلا الساطع النور ، الشديد الضياء ، فأما الليل فأكثر الأشياء مما له أدنى نور وأيسر بصيص يلمع فيه فمن ذلك الكواكب وهي بارزة لنا مقابلة لأبصارنا دائماً تلمع بالليل و يقل لمعانها بالنهار .

فمن هذا يتبين لنا أن النقاد أخذوا يتوسعون فى نقدهم فإذا فضلوا لفظاً على لفظ لمحوا إلى أسباب التفضيل ، وأعملوا فكرهم في التمييز .

ولكن الذي توسع فى قواعد الفن الشعري إنما هو ابن رشيق في كتاب العمدة ، على أنه مع توسعه لم يجاوز نقده الاقتصار على الصور الفنية ، فمن قوله في فضل الشعر :

« كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة ألا ترى أن الدرّ، وهو أخو اللفظ ونسيبه و إليه يقاس وبه يشبه، إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ولم

ينتفع به في الباب الذي له كسب ومن أجله انتخب وإن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً » .

فالشعر عبارة عن ألفاظ تشبه الدر على أن ابن رشيق كان يعرف أن العرب احتاجت إلى الشعر لتتغنى بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة ولكنه نظر إلى ظواهر الأكسية التي كانت تصون كرم هذه الأخلاق وطيب هذه الأعراق وصلاح تلك الأيام ونزوح تلك الأوطان ولم يتغلغل في بواطن هذا الكرم وهذا الطيب .

على أن المؤلفين لم يقتصروا على وضع قواعد الشعر وفنه فإنهم حلقوا في سماء أعلى فعدلوا عن النظر إلى العمل فأفردوا لنقد شاعر من الشعراء باباً خاصًّا وعملوا فيه كتاباً على حدة ، منهم القاضي الجرجاني صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبئ وخصومه » فالنقد في هذه المرة قد لبس برداً قشيباً وظهرت فيه آفاق جديدة ، من هذه الآفاق الكلام على عوامل البيئة والمزاج فطفق النقاد يعترفون بآثار البيئة والمزاج في نتائج الخواطر وثمرات القرائح ، فمن كلام القاضي الجرجاني :

« وقد كان القوم يختلفون في ذلك وتتباين فيه أحوالهم فيرقّ شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ، فإن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ودماثة الكلام بقدردماثة الخلقة وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الجلف منهم كزّ الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته وفي جرسه ولهجته ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك » .

إلا أن القاضي الجرجاني مع تنبيهه على تأثير البيئة في العبقرية لم يطبق هذا المذهب في نقده فلم يبين تأثير البيئة في شعر المتنبئ ونحن نعلم أن أبا الطيب المتنبئ طلب اللغة والأدب في البادية وصحب الأعراب فغادرت البادية في ذهنه صوراً ظهرت آثارها على شعره في جميع أطواره ، فالجرجاني اكتفى بالإشارة إلى عمل البيئة

في القرائح والخواطر ولم يذكر شيئاً من هذا العمل في شعر المتنبئ .

وإلى جنب هذا كله نوع آخر من النقد لا بأس بالإشارة إليه وهو أسلوب الذين كتبوا فى تراجم الشعراء والكتاب ، إننا نجد في معظم كتاباتهم أساليب متشابهة وألفاظاً متقاربة بحيث يخيل إلينا أن الشعراء أوالكتاب الذين يتكلم عليهم أصحاب هذه التراجم متماثلون في كال أدبهم وتمام عبقريتهم ، فمن قول الذين كتبوا في التراجم : فلان أحد أفراد الدهر في النظم والنثر ، فلان فرد دهره وشمس عصره ، فلان أعجوبة الزمان ونادرته وفريد عصره و باقعته ! فكأن الكتاب والشعراء كلهم أعاجيب الزمان ونوادره وآحاد الدهر وشموسه وكم اشتهيت أن أرى ليلاً مظلماً إلى جنب شمس من تلك الشموس !

من هذه الأمثال القليلة يتبين لنا كيف كان بعض النقد في الجاهلية وصدر الإسلام وفي زمن بني أمية و بني العباس فتارة كان هذا النقد مجرداً ليس فيه شيء من الحجج وتارة كان معنوياً فيه القليل من الفكر والشعور ، وحيناً كان سياسيًّا وحيناً كان فيه نزعة إلى تجديد الأدب ثم صبغ النقد بصباغ لغوي أو نحوي أو إخباري ثم اشتدت النزعة إلى التجديد ثم ألَّف النقدة كتبهم ومالوا إلى القليل من التمحيص ثم تحرر النقد فما كل قديم حسن ولا كل حديث قبيح ثم وضعوا له قواعد أشبه شيء بقواعد الفن الشعري ثم توسعوا فيه فظهرت عوامل حديثة في النقد ، عامل البيئة وعامل المزاج ثم وقف النقد الأدبي وقفته حتى طلع العصر الحديث .

وما أظن أن أدباً من الآداب قد نمت مذاهبه وامتدت ظلاله في العصور الأخيرة دون أن يكون للنقد الأثر الأبلغ في نمو هذه المذاهب وامتداد هذه الظلال . فالأدب الألماني في القرن التاسع عشر قد انبلج نوره من آفاق الناقد (لسينغ) وقد كان النقد روح الأدب الفرنسي من ثلاثة قرون ولم يحدث حادث في هذا الأدب وفي أذواق أهله من القرن السادس عشر حتى يومنا هذا إلا كان النقد مصدر هذا الحادث أو أصله. فإذا عرفنا كيف ننقد وضح ما خفي من جمال أدبنا وازداد رونق هذا الأدب .

وكما كان النقد يتنقل في كل عصر من العصور من طور إلى طور فكذلك اللغة فإنها لم تثبت على حال من أحوالها لا في جاهليتها ولا في إسلاميتها ولا في أمويتها ولا في عباسيتها ، فلنضرب مثلاً لذلك : في الجاهلية أسماء أُطلقت على مسميات ثم ماتت هذه الأسماء وولدت بعدها أسماء غيرها عفت على ما قبلها ، من هذا القبيل ما قاله صاحب الجمهرة (١) :

أسماء الأيام في الجاهلية : السبت شِيار ، والأحد أوَّل ، والاثنين أهون وأوهد ، والثلاثاء جُبار ، والأربعاء دُبار ، والخميس مؤنس ، والجُمُعة عَرُوبة .

وأسماء الشهور في الجاهلية : المؤتمر وهو المحرَّم وصفر وهو ناجر وربيع الأول وهو خُوَّان وربيع الآخر وهو وُبصان وجمادى الأولى الحَنين وجمادى الآخرة رُبَّى ورجب الأصم وشعبان العاذل ورمضان ناتِق وشوال وَعْل وذو القعدة وَرْنة وذو الحجة بُرَك .

هذا مثل الأسماء التي عاشت ثم ماتت ، فلنضرب مثلاً للأسماء التي كانت تدل على معنى خاص في عصر من العصور ثم جاء عصر فنقلها عن معناها الأول إلى معنى آخر : من هذا القبيل ما قاله ابن فارس في فقه اللغة (٢) :

كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدبهم ونسائكهم وقرابينهم ، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أُخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فعفى الآخر الأول ، فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وإن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً ، وكذلك الإسلام والمسلم إنما عرفت منه إسلام الشيء ، ثم جاء فى الشرع من أوصافه ما جاء ، وكذلك

(١) المزهر الجزء الأول ص ١٠٨ .

(٢) المزهر الجزء الأول ص ١٤١ .

كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر ، فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه وكان الأصل من نافقاء اليربوع ، ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم فسقت الرُطَبة إذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بأن الفسق الإفحاش في الخروج عن طاعة الله تعالى .

والشواهد على الألفاظ الإسلامية كثيرة فمن شاء التوسع في معرفتها فليرجع إلى كتب اللغة .

إنّا ندرك من هذا أن اللغة في الجاهلية والإسلام كانت تنبسط من طور إلى طور ولوخلصنا إلى العصر العباسى لأحطنا علماً بمقادير الألفاظ التي نبتت على جذع اللغة العربية ولم تكن من قبل على هذا الجذع .

***

إذا عرضنا اللغة في أي عصر من عصورها وجدنا أنها يتنازعها حزبان من أبنائها: حزب يحاول إبقاءها على حالتها وحزب يذهب بها مذهباً جديداً .

فالطائفة التي تحرص على إبقاء اللغة فى حالة ثابتة دون شيء من التبديل والتغيير تحتج بحجج شتى ، منها : تعلقها بمذاهب حضارتها وحرصها على تقاليدها واعتناؤها بتلفظ أولادها ورغبتها الغريزية في أن تكون لها لغة مصطفاة ثم إذا تعمقنا في البحث عن الأسباب التي من أجلها يحافظ المحافظون على لغتهم وجدنا أن لكتب الدين تأثيراً عظيماً كالتوراة والقرآن وإذا جاوزنا هذه الناحية إلى ناحية أبعد تجلت لنا شدة استمساك المحافظين بلغتهم بسبب الكتب الأدبية التى أولعوا بها لجمالها وحسنها فهذه هي أعظم الأسباب التي تدفع المحافظين إلى التمسك بمحافظتهم فهم يريدون صفاء اللغة وقد تجمع هذه الأسباب كلها كلمة واحدة وهي : ثقافة الفكر .

والحزب الآخر أي الحزب الذي يذهب باللغات مذهباً جديداً فإنه يتوسل إلى ذلك بثلاث وسائل : إما بقلب اللفظ وإما بقلب الصرف والنحو وإما بقلب المفردات ، إني لا أشغل القارئ بالبحث عن تغيير اللفظ وتغيير الصرف والنحو وإنما

أذكر له قلب المفردات فإن الأمة تكتسب كل يوم أموراً وأفكاراً حديثة وأنماطاً فى الحس والفهم جديدة فلا بدّ لها من أسماء جديدة لمسميات جديدة ، وهـذه الأسماء تؤدي فى الأغلب إلى انقراض كلمات لأن الأفكار الحديثة والألفاظ الدالة عليها تعفّي على آثار الألفاظ القديمة(١) .

وعلى ذكر الأسماء الجديدة التى تحتاج إليها الأمة لإطلاقها على المسميات الجديدة رأيت أن أعرب في هذا المقام مقالاً وقع عليه نظرى في جريدة « الطان » من سنين وهذا هو المقال :

« إذا طرحتك النوى مطارحها فكتب لك أن تزور باريز استطعت أن تذوق حلاوة الدنيا وتشعر بنضارة الحياة ، ومن محاسن باريز الفتيات العاملات اللواتي ينصرفن فى الصباح إلى العمل انصراف النحل إلى اجتناء الزهر ثم يفرغن من عملهن فيلهون ولا لهو العنادل على ملتفّ الأغصان . أطلق الفرنسيون على هـذه الفتيات اسم (Midinettes) فالاسم مشتق من كلمة (Midi) ومعناها الظهيرة لأنهن يفلتن فى الظهيرة كما تفلت الطيور من الأقفاص فيخرجن من المخازن والمعامل فيسرحن كما يسرح سرب المها ، فإذا سمعت أحاديثهن على الطريق فكأنك قد سمعت دوي النحل فترى الشوارع والمطاعم والمقاهي والملاهي مكتظة بهن فإذا رأيتهن رأيت الألوان على مختلفها وعرفت كيف تكون الابتسامات على الثغور وكيف تكون الخواطر على البال ، شعر قصير وشباب ناعم وقامة رشيقة وخلقة فتانة ، فهن نضارة باريز وغضارتها ولولاهنّ لما كان لباريز رونق وبهجة فكلمة (Midinette) العذبة ترد بطبيعتها على شق القلم وطرف اللسان ، أدمجها كبار الكتاب في رواياتهم فتأصلت في اللغة إلا أنها عرضت يوم الخميس الماضي على قاعة باريز الفتانة أي على الأكاديمية الفرنسية وليدة (ريشوليو) وكان لها أمل أن تحتفي بها لعذوبتها ونعومة صباها ولكنها لم تمهد لها سبيلاً في معجمها فقطبت فى وجهها واطّرحتها .

---

(١) رأي الأستاذ (دار مستتر) Darmesteter صاحب كتاب حياة الألفاظ .

وقد أسف صاحب المقال الأسف كله على اطّراح هذه الكلمة مبيناً أنه ليس من شأن الأكاديمية قلب الألفاظ المصطلح عليها واحتقارها ، و إنما مهمتها المحافظة على المصطلحات الكثيرة الدلالة . وقد أضاف الكاتب إلى كلامه : أن من الواجب الإقتداء « بما لرب » و« موليير » في المسامحة والاستئناس بالمصطلحات المستفيضة في طبقات الشعب ثم ختم مقاله بما يلي :

« اللغة التي لا يزيد غناها قليلاً فى كل يوم تفتقر وتنضب وقد كان كتابنا فى عصر التجديد لا يجهلون ذلك فكانوا يفتشون عن أسلوب فيه حياة وخفة وله طعم ولون و يقتبسون استعاراتهم عن مصطلحات الصيادين وعن كلام أمراء البحر وتعابير أصحاب المطابع فكانوا يجدون أنه من الضروري أن ينشأ على الجذع اللغوي القديم طعم على شرط أن يكون هـذا الطعم سهلاً دالاً على شيء قد ولده الاصطلاح ، فلم لا ننحو نحوهم ؟ » .

هذه حجج المحافظين والمجددين . فلننظر في أعمال الحزبين ، فإذا عمل حزب من الحزبين عمله على حدة وأعرض عن الحزب الآخر فماذا يحدث ؟

إذا انحصرت اللغة في ناحية واحدة سكنت حركتها ونضب معينها ولا ريب فى في أن الشعوب التي ليس لحضارتها تبديل تستطيع أن تحافظ على لغتها على وجه الدهر من دون أن يمس هذه اللغة شيء فإذا كان الفكر ثابتاً لا يتغير فاللفظ الذي يدل على هـذا الفكر يثبت ولا يتغير ولكن إذا بلغ الحرص على التقاليد مبلغاً يمنع اللغة عن تتبع مذاهب الأفكار والمعاني واستحكم التناقض بين أفكار الأمة و بين القوالب التي تفرغ فيها هذه الأفكار نفدت مادة اللغة فكلّت وهلكت ، على نحو ماحدث في اللغة اللاتينية المدرسية أي لغة الكتاب الرومانيين وطبقات الناس العالية ، فإن هـذه اللغة امتنعت عن تتبع اللغة العامية في نموها وتشددت في المحافظة على أسلوب مقدس ، وفي آخر الامبراطورية هلكت وتركت المجال للغة العامية الحية القوية التي

انفجرت من ينابيعها لغات شتى ولهجات مختلفة ، مستعدة للاستيلاء على الميراث الذي خلفته اللغة الفصحى .

و إذا عمل الحزب الذي يذهب باللغة مذهباً جديداً عمله على حدة دون الاستعانة بمذهب المحافظين ، فإن اللغة تقذف يومئذ مقاذف مختلفة ، فتتحول سريعاً ، فمرة تتعاقب عليها عدة بطون ، فتصل إلى حالة كثيراً ما تختلف عن الحالة السالفة حتى تكاد تكون لغة جديدة وأحياناً تتشعب إلى طائفة من اللغات وهذه اللغات تتشعب أيضاً إلى ما لا حدَّ له ، فقد قيل إن في جملة أهل اللغات المتوحشة بطناً من الناس يشهد لغات تولد ثم تموت لتولد على شكل آخر إلا أن هذا التغيير المستمر قد جاوز الحد حتى أصبح مخالفاً لأغراض اللغة وغايتها ، وأضاع على اللغة قسماً من فائدتها ومنفعتها ، ففي بعض لغات المتوحشين لا يفهم الشيوخ معاني كلام الأحداث ، فإن في هذا الأمر شيئاً غير طبيعي يشبه في علم اللغات عجائب المخلوقات في علم التاريخ الطبيعي ، ثم ما هو السبب في هذا التطور الذي لا نهاية له ؟ إن هو إلا جهل المتوحشين الذين يتكلمون بهذه اللغات وضعف عقولهم لأن اللغة تتأيد بالحضارة[1] .

هذه أمثال نستدل بها على اليسير من أطوار النقد واللغة . ومنها يتضح لنا أن الإسلام جاء بألفاظ لا عهد للجاهلية بها ، وأن النقد كان يصبغ بصباغ خاص على حسب ما يقتضيه روح العصر ، فلم يخل عصر من عصورنا من آثار التجديد فإن للطبيعة وللاجتماع عوامل لا مندوحة لها عن أن تعمل في الأدب ومادته ، و إذا كان للانتخاب الطبيعي وللتناحر على الحياة آثار في عالم المخلوقات الحية فإن عالم الأفكار وصورها لا يستطيع أن ينسلخ من هذه الآثار ، فلسنا نعجب كما قلت من أن يكون التجديد إنما هو روح العصر فقد وصلت إلينا آثار لغات الغرب، ووقفنا على هذه الآثار وقابلنا بين أساليب البحث في أدبنا و بين أساليب البحث في أدب الغرب فأدركنا

(١) رأي الأستاذ (دار مستتر) صاحب كتاب حياة الألفاظ .

نقصنا وعملنا على تتميم هذا النقص لأنّا قادرون على الكمال ، فليس في هذا غضاضة علينا فإن أدبنا بفضل الأساليب الحديثة فى البحث والتنقيب سينكشف لنا الغطاء عن كثير من محاسنه فنذوق منها ما لم نذق ، و إنما الشأن فى مجامع هذه الأمور أن نحافظ على روح لغتنا وعلى عبقريتها ، وأريد بهذه المحافظة أن تكون العربية لغتنا في بحثنا وتنقيبنا دون أن تفسدها العجمة .

أول عهدي بالجاحظ

من ثلاث وعشرين سنة اشتريت كتاب (الكامل) للمبرد وعلى هامشه فصول مختارة من كتب أبي عثمان ، قرأت أول هذه الفصول وهو مقتطف من كتابه في الحاسد والمحسود ، وقد فتنتُ بهذا الفصل الفتنة كلها ، حتى وصلت إلى قوله[(١)] :

« وما لقيت حاسداً قط إلّا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوّص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك » .

فاستوقفنى هذا الكلام ، فقلت في نفسي : ما أعلم صاحبه بطبيعة البشر ، ما ألصقه بمداخلهم ومخارجهم ، ما أكشفه لأغطية قلوبهم ، لا يكاد يخفى عليه شيء مما تشتمل عليه جوانحهم ، إنه لشديد التدقيق ، يقرأ على صفحات الوجوه ما كتب في أعماق الصدور . نعم ، لما وصلت إلى صفات الحاسد وهي : تغيّر اللون وتخوّص العين و إخفاء السلام وما شابه ذلك ، قلت في نفسي : لا يخلو الجاحظ من أن يكون محسوداً فى عصره ، حتى كان يقع نظره على حاسده ، فيتأمل فى وجهه ، ومن منّا لا يعرف الحاسد ، من منّا لا يرى تخوّص هذه العين وتغيّر هذا اللون فى كل يوم ؟ لقد قلت فى نفسي : لا يخلو الجاحَظ من أن يكون محسوداً فى عصره ، حتى اطلعت على ما رواه المسعودي فى هذا المعنى ، قال[(٢)] :

« ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أنه كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، فينسبه إلى نفسه ، فلا يرى الأسماع تصغي إليه ، ولا الإرادات تتيمم نحوه ، ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة ، وأقل فائدة ، ثم ينحله عبد الله بن المقفع

---

(١) الجزء الأول ص ٦ .

(٢) كتاب التنبيه والإشراف — طبع ليدن — ص ٧٦ .

أو سهل بن هارون ، أو غيرهما من المتقدمين ومن قد صارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا لشيء إلا لنسبتها إلى المتقدمين ، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ، ومنافسته على المناقب التي يخص بها ، ويعنى بتشييدها » .

لما قرأت هذا الكلام سهل عليّ أن أدرك السر فى إبداع الجاحظ فى وصف الحاسد ، وفهمت حينئذ ما قاله أحد كتاب الإفرنجة الكبار : روّض قلمك على كتابة أشياء شعرت بها . فالجاحظ أبدع فى وصف الحاسد ، ومعظم هذا الإبداع ناشئ عن أنه وصف شيئاً كان يشعر به ويعوذ بالله من شره . وإذا وصفت في كلامي على حياته ، شكواه اللؤم ، تكشف لنا ضجره من الحسد ، وبرمه به ، ولِمَ نجد الفرق فى التأثير بين الكتاب مثلاً أو بين الشعراء ؟ إني أعتقد أن هذا الفرق إنما مصدره فى الأغلب من الأحوال قوة الشعور وضعفه ، أو صدقه وكذبه .

ولكن هل فضّلت دراسة الجاحظ لأنه برّز في وصف الحاسد ، فلو كان الأمر كذلك فما أضيق مذاهب الجاحظ !

فلنستثر الذاكرة مرة ثانية : كنت أطالع كتاباً فرنسيًّا اسمه (الطريقة الأدبية[1]) تكلم صاحب هذا الكتاب على خطاب خطبه (رنان) Renan في « السوربون » في ٢٩ مارس سنة ١٨٨٨ ، قال صاحب الكتاب وهو يعني (رنان) :

« لقد بيّن الخطيب أن روح الإسلام الحقيقي إنما هو مخالف للعلم ، ولئن نشأ في العالم الإسلامي من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر أصحاب فكر وأهل عقول راجحة ، فهذا سببه أن الإسلام فى تلك العصور لم ينبسط سلطانه بعد ، فإن الخلفاء البارقة سيرتهم الذين كانوا فى عصر (الكارولنجيان) لم يتكامل إسلامهم ، وفلسفة اليونانيين العقلية هي التي أضاءت على عهدهم ، وكذلك الأمر فى الأندلس على زمن ابن رشد ، فقد كان اليونانيون وحدهم ينبوع العلم ، فالنهضة لم تكن عربية

(١) — للأستاذ بيزار Bezard — ص ٢٨ .

ولا إسلامية ، وفى اليوم الذي اشتد فيه الإسلام ، أي من بعد سنة ١٢٧٥ بوجه التقريب ، انحطت عقول المسلمين انحطاطاً يؤسف ويحزن . ثم ذكر صاحب هذا الكتاب كلاماً لرنان وهذا هو الكلام :

« إن الذي يميّز العالم الإسلامي إنما هو اعتقاد المسلمين أن البحث لاطائل فيه ، ولا شأن له ، وأنه قد يؤدي إلى الكفر ، فعلم الطبيعة يؤدي إلى الكفر لأن هذا العلم ينازع الله سلطانه ، وعلم التاريخ يؤدى إلى الكفر لأنه إذا امتد إلى العصور التي جاءت قبل الإسلام أحيا أضاليل قديمة ، فمعتقدات هذا شأنها تؤدي إلى النتائج الآتية : أن يصبح خمول الذهن وقلة المبالاة من الفضائل ، فكلمة : والله أعلم ، إنما هي فصل الخطاب فى كل مناظرة إسلامية » .

قرأت هذا الكلام وقلت فى نفسي : أصحيح أن الإسلام حال دون العلم ، حتى تغلغلت فى كتب الجاحظ وقرأت كتاب (الحيوان) من أوله إلى آخره فاهتديت فيه إلى أساليب في تحقيق صاحبه وتجربته في أمور العلم يحار فيها الإنسان ، فكأن الجاحظ عالم من علماء الحيوان ، فلا يمرّ بأمر من أمور الحيوان سواء أكان هذا الأمر صغيراً أم كان كبيراً إلا اهتم به ، وسيتبين هذا كله فى كلامي على علمه وعلى تحقيقه ، وإنما يكفيني فى مثل هذا المقام أن أذكر كلمته في التحقيق العلمي ، وهي تجمع لنا طائفة من مذهبه : ليس يشفيني إلا المعاينة[١] ، وأظن أن الكلام على هذا التحقيق سيطول ، فأرجئه إلى حينه . وهذه ناحية من نواحي الجاحظ الجليلة الشأن ، فإن كلمة مثل هذه الكلمة : ليس يشفيني إلا المعاينة ، إنما هي كلمة خالدة فى علم الطبيعة ، وهل علوم الطبيعة إلا نتائج المعاينة والتجريب والفرض والمقالة والتصنيف .

ولم لا أذكر من الآن أسلوباً من أساليبه فى التحقيق ، حتى نقارن بينه وبين

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٤٩ .

علماء الحيوان فى عصرنا هـذا ، وحتى نقول فى أنفسنا : أفيختلف أبو عثمان عن هؤلاء العلماء ؟ قال وهو يصف الظليم (١) :

« باب آخر وهو عندي أعجب من الأول ، وهو ابتلاعه الجمر ، حتى ينفذ إلى جوفه ، فيكون جوفه هو العامل في إطفائه ، ولا يكون الجمر هو العامل في إحراقه ، وأخبرني أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام ، وكنا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماع أو عيان ، أنه شهد محمد بن عبد الله يلقي الحجر فى النار ، فإذا عاد كالجمر قذف به قدامه ، فإذا هو يبتلعه ، كما يبتلع الجمر ، وكنت قلت له : إن الجمر سخيف ، سريع الانطفاء إذا لقي الرطوبات ، ومتى أطبق عليه شيء يحول بينه و بين النسيم خمد ، والحجر أشد إمساكاً لما يتداخله من الحرارة ، وأثقل ثقلاً ، وألزق لزوقاً وأبطأ انطفاء ، فلو أحميت الحجارة ؟ فأحماها ، ثم قذف بها إليه فابتلع الأولى ، فارتبت به ، فلما ثنّى وثلّث اشتد تعجبي له ، فقلت له : لو أحميت أواقي الحديد ، ما كان منها ربع رطل ونصف رطل ؟ ففعل ، فابتلعه فقلت : هـذا أعجب من الأول والثاني ! وقد بقيت علينا واحدة ، وهو أن ننظر أيستمرئ الحديد كما يستمرئ الحجارة ؟ ولم يتركنا بعض السفهاء وأصحاب الخرق أن نتعرف ذلك على الأيام ، وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته ، فلعل الحديد يكون قد بقي هنـاك لا ذائباً ولا خارجاً ، فعمد بعض ندمائه إلى سكين فأحمي ، ثم ألقاه إليه فابتلعه ، فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرف السكين من موضع مذبحه ، ثم خر ميتاً ، فمنعنا بخرقه من استقصاء ما أردنا » .

فيتبين مما رويته أن الذي يشغل بال الجاحظ إنما هو الاستقصاء ، وهل الاستقصاء خارج عن لوازم العلم ؟ فالذي يهم العالم إنما هو التنقيب عن الحقيقة .

فقد يكون الجاحظ حجة يحتج بها من يريد أن يثبت أن فى العرب علماء ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٠٦

و إنما عصرهم غير عصرنا ، وأدوات تحقيقهم غير أدواتنا ، ولو اطّرد العلم في ديارهم لبلغ المبالغ .

ولكن هل آثرت دراسة الجاحظ لناحيته العلمية ، أو لناحيته الفلسفية ؟ فأين نواحيه الأدبية الخالدة على تراخي الأحقاب ، وما كان هذا العلم ، وما كانت هذه الفلسفة لولا أدب أبي عثمان ؟ ما زلت أقلّب النظر في كتب الجاحظ ، وأنا لا أزداد تقليباً إلا ازددت له تهيباً ، وبه إعجاباً ، حتى وصلت إلى شيء من نواحيه الأدبية ، وأعجبها وأفتنها هذه اللغة التي ألقت إليه طاعتها ، فصرّفها في كل شيء ، فإذا كتب في العلم أجرى قلم العلماء ، وإذا كتب في الفلسفة بنى على أصول الفلاسفة ، وإذا كتب في الأدب كتب على أساليب الأدباء ، وعلى مناحيهم . وهـذه القدرة على اللغة هي التي أوحت إليه مذهبه الأدبي الذي قال فيه[1] :

« ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ... وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والجار ، أو في مخاطبة أهله ، وعبده ، وأمته ، أو في حديثه إذا حدث ، أو خبره إذا أخبر ، وكذلك من الخطإ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام ، وهو في صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل » .

فإن الرجل الذي يقرّر مثل هذا المذهب الأدبي لا بدّ له من أن يطالب نفسه به إذا كتب ، والجاحظ قرره وطالب به نفسه .

هذا أول عهدي بالجاحظ وهـذا شيء من الآثار الأول التي بقيت في البال من قراءة كتبه ، ولو شئت أن أستقصي هـذه الآثار لامتد الكلام ، فما سعة لغته بشيء إذا قسناها إلى قدرته على تصوير جلائل الموضوعات وصغائرها ، فسندرك بعد قراءة كتبه أنه لا يتعاظمه شيء من الموضوعات ، وأظن أن القدرة على تصوير صغائر الأمور كأمور الأكل والشرب واللبس ، وسائر ما يتعلق بحياتنا الخاصة ، لا تقل

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٤ .

عن القدرة على تصوير الدقائق من حياتنا العامة ، وما مرادي في هـذا الفصل أن أشبع القول في الجاحظ وخصائصه . وإنما غايتي أن أصف أول اتصالي بكتبه ، وأول ملء الخاطر من آثاره . ولقد فرغت من قراءة هذه الآثار ، وفي البال خاطر واحد لا أنساه . وهو أني ما قرأت سطراً من أي كتاب من كتبه إلا استوقفتني قراءته ، وحملتني على التفكير . فإذا أردنا أن نحيط بشيء من عبقرية لغتنا فلنبادر إلى كتب الجاحظ التي تعلم العقل أولاً ، والأدب ثانياً[١] .

---

(١) كلمة ابن العميد .

نواحي الجاحظ

لقد جمعت ذهني وتفرغت لإحصاء نواحي الجاحظ ، فما أعظم حيرة حرتها ، وما أشد دهشة دهشتها بعد النظر في فصول أبي عثمان ، إنه ليخرج من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، قد حشدت له المعاني من أقطارها ، وسيقت إليه الأفكار بأزمتها ، يصرفها كيف يشاء ، لا يخاف في تصريفها عثرة يعثرها ، أو كبوة يكبوها ، فالكلام عليه بعيد الغور ، دقيق المذهب ، لا يأمن صاحبه مزلة القدم ، فأنا أخاف إن حاولت أن أعرض جملة طرائفه ، أن لا أعرض شيئاً ، فيكون مثلي في ذلك كمثل ابن بطوطة ، فإنه لما وصل من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك وصفها فقال :[1]

« وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام ، تحدق بها البساتين الشريفة ، والجنات المنيفة ، وتخترق أرضها الأنهار الجارية ، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية ، وبها من حب الملوك ما ليس بسواها ، وبها يصنع الدبس المنسوب إليها ، وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ، ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد ، وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة ، وتصنع منه الحلواء ، ويجعل فيها الفستق واللوز ، ويسمون حلواءه بالملبن ، ويسمونها أيضاً بجلد الفرس ، وهي كثيرة الألبان ، وتجلب منها إلى دمشق ، وبينهما مسيرة يوم للمجدّ » .

لقد سها ابن بطوطة عن وصف أفخم شيء في بعلبك ، وهو قلعتها ولم يصف في رحلته إلا دبس بعلبك ، وأين هـذا الدبس من قلعتها التى تجلت فى بنائها عظمة الإنسان ، ولو تفرغ ابن بطوطة لوصفها لوجد مجال القول منبسطاً ، فليس يخطو المرء خطوة فيها إلا حارت عينه فى ظواهر عظمتها ، فكأنما ابن بطوطة أدرك حيرته ، فوقف قلمه ، ولم يجر هذا القلم إلا فى ذكر صغائر الأمور .

(١) رحلة ابن بطوطة — ص ٤٩ — مطبعة التقدم بمصر .

وأنا كلما حدثتني نفسي بالكلام على عجائب الجاحظ ، خطر بالبال في الحال دبس بعلبك ، فيحار العقل في هذه العجائب ، و يقف القلم في وصفها ، فلا يجري إلا في التلميح إلى نوادر الجاحظ ، وقد ألهتني هذه النوادر ، كما ألهى رحّالتنا دبس بعلبك ؛ فلما شرعت في حصر نواحيه ، تمثلت لي نادرة قرأتها في كتاب البخلاء قال أبو عثمان[(١)] :

« صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلاً ، فلما صرت قرب منزله ، وكان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي ، سألني أن أبيت عنده ، وقال : أين تذهب في هذا المطر والبرد ؟ ومنزلي منزلك ، وأنت في ظلمة وليس معك نار ، وعندي لبأ لم ير الناس مثله ، وتمر ناهيك به جودة لا تصلح إلا له ، فملت معه ، فأبطأ ساعة ، ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر ، فلما مددت قال : يا أبا عثمان ، إنه لبأ وغلظة ، وهو الليل وركوده ، ثم ليلة مطر ورطوبة ، وأنت رجل قد طعنت في السن ، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً ، وما زال الغليل يسرع إليك ، وأنت في الأصل لست بصاحب عشاء ، فإن أكلت اللبأ ولم تبالغ ، كنت لا آكلاً ولا تاركاً ، وحرشت طباعك ، ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك ، و إن بالغت بتنا في ليلة سوء من الاهتمام بأمرك ، ولم نُعدّ لك نبيذاً ولا عسلاً ، و إنما قلت هذا الكلام لئلاّ تقول غداً : كان وكان ، والله قد وقعت بين نابي أسد ، لأني لو لم أجئك به ، وقد ذكرته لك ، قلت : بخل به ، و بدا له فيه ، و إن جئت به ولم أحذرك منه ، ولم أذكرك كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق عليّ ولم ينصح ، فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً ، و إن شئت فأكلة وموتة ، و إن شئت فبعض الاحتمال ، ونوم على سلامة !! فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة، ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن، ولوكان معي من يفهم طيب ما تكلم به لأتى عليّ الضحك ، أو لقضى عليّ ، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب » .

---

(١) كتاب البخلاء — ١٠٣ — مطبعة الجمهور بمصر .

هل الجاحظ؟

لقد تمثلت لي هذه النادرة ، لأنها تدل على روح الجاحظ ، فإنه مطبوع على النوادر، شيخ قد طعن في السن ، يشكومن الفالج طرفاً ، إن أكل اللبأ و بالغ ، بات في أسوأ ليلة ، وربما كانت أكلة وموتة ، ومع هذا كله فقد أكل ولم يبال ، طمعاً في الضحك والنشاط والسرور ، تمثلت لي هذه النادرة ، فقلت في نفسي : أفيصيبني في الكلام على الجاحظ ما أصاب ابن بطوطة فى الكلام على بعلبك ، أفأغفل عن خصائص عبقريته ، فلا تأخذ العين إلا طرفاً واحداً من أطراف هذه العبقرية .

أي معنى لم يقم في صدر الجاحظ ، وأي فكر لم يزدحم على ذهنه ، كتب في كل شيء فى جلائل الأمور وصغائرها ، فلو نظرنا في طائفة من رسائله لتبين لنا اختلاف المعاني التي صوّرها ، والأفكار التي وضَّحها ، كتب في الأخلاق والفلسفة والدين والتأديب والاجتماع والعلم والطبيعيات والأدب وفلسفة اللغة وما شابه ذلك . وليست غايتي أن أستوفي الكلام على تصانيفه في هذا الفصل ، و إنما غايتي التنبيه على ازدحام موضوعاته ، حتى نعلم الميدان الذي جال فيه كل مجال . فأول أثر من آثار دراسة كتبه . حيرة يحارها المرء في خصب عبقريته ، فلا يعرف كيف يبدأ بالكلام على هذه العبقرية ، ولا كيف يفرغ من هذا الكلام ، ولا عجب في ذلك، فإن رجلاً يكتب له أن يعيش قرناً بوجه التقريب ، لم يقع في خلاله بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، إن رجلا يكتري دكاكين الورّاقين ، ويبيت فيها للنظر ، لا يعجب من خصب عقله .

ولكن فلنجتهد في الخروج من حيرتنا هذه ، ولنبين النواحي التي ينبغي لنا تفصيل الكلام عليها في هذا الكتاب .

أول هذه النواحي الكلام على حياة الجاحظ ، فسنذكر النواحي التي توطىء لنا سبيلاً إلى الاطلاع على تفاريق هذه الحياة ، وجملة هذه النواحي إنما هي معرفة ميلاد الجاحظ ، ومعرفة أهله ، وهيأته ، وابتداء تحصيله ، و بعض حالات عقله فى صباه ، وحرفته فى أول أمره ، وثروته ، وأعماله ، ولهوه ، واعتنائه بداره ، وأكابر الرجال

الذين لازمهم، وتعذيبه بسبب صحبته لأحد هؤلاء الأكابر، ومكاتبتهم له، وأسفاره إلى أنطاكية وإلى دمشق، وإلى مصر، وآثار هذه الأسفار، وطبيعة هذه الآثار، وعلته فى آخر حياته، وتأثير هذه العلة فى بعض كتاباته، وتعقب الناس له في علته، ومداراته إياهم، وضجره من لؤم أخلاقهم، ووفاته، وشكوى رجال العبقرية شرّ الحسد.

فإذا فرغنا من الكلام على حياة الجاحظ، تعرضنا للكلام على ثقافته، فذكرنا أساتيذه ونظرنا فى سيرتهم على سبيل الإيجاز، ثم أشرنا إلى رأي الجاحظ فى أساتيذه، وإلى طائفة من مذاهب أحد هؤلاء الأساتيذ وهو النظّام لتأثيره فى الجاحظ، ثم نبهنا على طبائع الكتب التي كان الجاحظ يطالعها، وعلى عناصر ثقافته اليونانية والفارسية، وعلى حاجة كل أدب من آداب الأمم إلى أدب غيره، ثم لمحنا إلى مقدار وَلَع الجاحظ بالكتب، وإلى تلخيصه معارف أهل عصره، وإلى طبيعة الثقافة فى زمنه.

فإذا قضينا حاجتنا من الكلام على ثقافته، شرعنا فى الكلام على عصره، وما غايتنا من هذا الكلام إلا معرفة مقدار ارتباط الجاحظ بعصره، أو مقدار انفصاله عن هذا العصر، فلا غنى لنا فى هذه المعرفة عن العلم بخصائص عصر الجاحظ!

أول هذه الخصائص حرية الفكر، ولما كان الدين مجال هذه الحرية لزمنا أن نشير إلى اختلاف جمهور المسلمين فى أمور الدين، وإلى الخلفاء الذين عاقبوا على الزندقة، والخلفاء الذين فتحوا باب المناظرات، وإلى ذكر نمط من هذه المناظرات، وإلى الغاية منها، فإذا فرغنا من هذا ضربنا مثلاً لحرية فكر الجاحظ فى التفسير وبينّا مقدار اتصاله بعصره من هذه الناحية، أي من ناحية حرية الفكر.

وإذا تم لنا وصف حرية الفكر في عصر الجاحظ نظرنا في النتيجة التي أدت إليها هذه الحرية وهي: الزندقة، فلا بدّ لنا في كلامنا على الزندقة من الكلام على منزلة النصارى واليهود في عيون المسلمين، فإذا عرفنا هذه المنزلة بحثنا عن أسباب استفاضة

الزندقة في المسلمين وعن بعض آثار هذه الزندقة التي ظهرت على طائفة من الشعر .

وبعد أن نفرغ من الكلام على الزندقة في عصر الجاحظ نتكلم على الانقلاب الفكري في ذاك العصر ، فنبين إشارة الجاحظ إلى هذا الانقلاب ، وتنبيهه على أدب الترجمة ، ثم نذكر اختلاط العرب بالأعاجم ، ثم نوضح أمر الثقافة التي فعلت فعلتها في ميراثنا الأدبي ، ثم نذكر طائفة من الخرافات المستفيضة في الجمهور على الرغم من استفاضة العلم ، ثم نلمح إلى مقدار اتصال الجاحظ بالناحية الثالثة من نواحي عصره .

فإذا وصفنا عصر الجاحظ على قدر الإمكان انتقلنا إلى ناحية جليلة من نواحي الجاحظ وهي ناحية التحقيق فنتكلم أولاً على تحقيقه على وجه عام ، ثم نتكلم على مذاهبه في التحقيق على وجه التفصيل .

أما تحقيقه فإننا نشير فيه إلى رأي بعض الإفرنجة في الجاحظ من جهة العلم ، ثم نحدد العالم ، ثم نذكر الأصول التي يبني عليها الجاحظ في التحقيق ، ثم نقابل بين هذه الأصول وبين أصول « باكون » Bacon و « ديكارت » Descartes ، ثم نبين شأن استعمال هذه الطريقة في العلوم ، ثم نذكر صفة من صفات الجاحظ وهي صفة التطلع لارتباطها بصفات العالِم ، ثم نستخرج من كتاب الحيوان طائفة من الأقوال العلمية .

فإذا أجملنا الكلام على تحقيق الجاحظ شرعنا في الكلام على هذا التحقيق على وجه التفصيل .

أول ما نذكر استعانته بالحواس في التحقيق ، فنبين لجوءه إلى التجربة والعيان ، فنذكر أصناف الحيوان التي جرب عليها أو عاينها ، ونذكر نماذج من تجربته وعيانه ، ثم نتكلم على خصائص هذه التجربة وهذا العيان .

ثم نبين لجوءه إلى السماع في التحقيق ، فنذكر طبقات الناس الذين كان يسمع أخبارهم ، ومقدار تمحيصه أو تدقيقه في سماع هذه الأخبار .

وإذا فرغنا من الكلام على استعانته بالحواس تكلمنا على استعانته بالعقل

في التحقيق ، فنوضح طبيعة نقده العلمي وخصائص هذا النقد ثم نوضح خصائص شكه وحججه .

ثم ننتقل فجأة من الكلام على تحقيقه إلى الكلام على مذهبه في الدين لارتباط الأصول التي يبني عليها في العلم بالأصول التي يبني عليها في الدين ، فننظر في أصل كلمة الاعتزال ، وفي الاحتجاج للاعتزال ، وفي القواعد التي أجمع عليها المعتزلة ، وفي طوائف المعتزلة ، وفي بعض طبقاتهم وفي الطائفة التي يعنينا أمرها وهي الجاحظية وفي رأي الجاحظ نفسه في المعتزلة .

ولما كانت عقيدة الجاحظ في الدين عرضة للطعن لزمنا أن ننظر في شعوره الديني فإذا تكلمنا على هذا الشعور ذكرنا بعض الذين ثلموه في دينه ، ثم نقبنا عن بعض مواضع من كلامه ظهرت عليها آثار الشعور الديني .

فإذا تكشف لنا شعوره الديني أفضنا في الكلام على مذهبه في التفسير والتأويل ، فبينا كيف يردُّ الغريب من الأحاديث وكيف يردُّ الغريب من تفسير الآيات ، ووضحنا كيف يحمل الكلام على ظاهره ، وكيف يحمله على باطنه ، وكيف يردّ المعترضين إلى الصواب ذاهباً مذهب المتكلمين ، أو سالكاً مسلك علماء اللغة في كشف الغطاء عن أسرار الكلام .

و بعد الفراغ من هذه النواحي كلها ، نواحي العلم والدين ، نتجرد لوصف آفاق الجاحظ الفنية ، وأولها ضحك الجاحظ ، وفي هذا الفصل يتجلى لنا ميل أبي عثمان إلى الضحك والإضحاك خوفاً من سآمة القارئ ، ويتكشف لنا سر هذا الولع بالإضحاك ، وربما تبين لنا إفراطه في هذا الباب في بعض المقامات .

و إذا عرفنا ولعه بالإضحاك ، سعينا في معرفة ولعه بالتهكم ، فتكلمنا على أصل الأمر في التهكم ، واستشهدنا بتهكم بعض كتاب الإفرنجة ، ثم نظرنا في طبع الجاحظ على التهكم ، وميله إليه ، ثم بينا بعض الأسباب التي من أجلها مال إلى التهكم ، ثم ضربنا أمثالاً لتهكمه وتكلمنا على طائفة من خصائص هذا التهكم .

و إذا فرغنا من وصف تهكمه ، تعرضنا لمذهبه في النقد الأدبي فأشرنا إلى تنبيهه على التوليد في الأدب ، وإلى قوة حججه أو ضعفها في هذا التنبيه ، وأشرنا إلى رأيه في أولية الشعر وإلى ضعف هذا الرأي ، ثم لمحنا إلى اهتمامه بالصنعة ، وإلى اهتمام بعض أدباء الإفرنجة بها ، ثم ذكرنا اعتناءه بتعظيم المعاني ، و إنزالها منازلها ، ثم ذكرنا ميله إلى المجددين في الشعر .

و بعد أن يتم لنا الكلام على مذهب الجاحظ في النقد نتفرع للكلام على مذهبه في الأدب ، فنتكلم على ميله إلى الأدب المجرد ، أي إلى حريته في الأدب ، ونتكلم على ما أدت اليه هذه الحرية ، كمسامحته في اللغة ، وكاستعماله اللحن ، والكلام غير المعرب ، واللفظ المعدول عن جهته ، ثم نبين اعتناءه بالمناسبة بين المعاني والألفاظ ، واعتناءه بالتنقيح ، واعتداله في هذا التنقيح دون شيء من المبالغة ، ثم نوضح الصفات التي جعلها للألفاظ ، وخصائص هذه الألفاظ ، ثم نذكر ميله إلى جعل الأدب ضرباً من الرياضة .

و إذا فرغنا من هذا كله انتقلنا إلى الإحاطة بتفكير الجاحظ ، فبينّا بعض الأبواب التى خاض فيها كالاجتماع ، والأخلاق والتربية والتعليم ، وكالعلوم الطبيعية و بينّا بعض الإخطاء أو الإصابة في كلامه على هذه العلوم ، وأشرنا إلى بحثه عن حياة الألفاظ .

ولم يبق من بعد هذا كله إلا تصوير فنه ولغته :

أما فنه فإننا نبحث فيه عن خصائصه ، فننظر في الأمور الآتية :

هل كان فنه مبنياً على العقل ؟ هل يميل فيه إلى الصور كالاستعارات والتشبيهات؟ وما هي طبائع هذه الصور ؟ هل كان الجاحظ شاعراً ؟ هل كان مصوراً ؟ ما هي دقائق تصويره ؟ هل يميل إلى الترديد ؟ هل يميل إلى استعمال اللفظ وضده ؟ وما هي أشكال عبارته .

وأما لغته فإننا نبحث عن تفقهه فيها ، و إنزاله اللفظة منازلها ، واستعماله لكل

معنى من المعاني اللفظ الذي خلق له ، كما أننا نبحث عن ألفاظه المحسوسة ، وعن بعض غموض في لغته ناشىء عن الألفاظ التاريخية ، وعن ميله إلى استعمال بعض الألفاظ الأعجمية ، ثم نبين مقدار شأن الألفاظ على وجه عام .

هذا ما نسعى في التنقيب عنه في دراستنا كتب الجاحظ ، وقد نزيد في مباحثنا أو ننقص منها على قدر ما يقتضيه المقام ، و إنما المهم أن ندرس آثار الجاحظ من النواحي التي تصوره لنا تصويراً متكاملاً .

وأسلوبنا في هذه الدراسة إنما هو الأسلوب الذي اتبعناه في دراسة شعر المتنبىء ، فإننا لا نتقيد بأحد ، و إنما ننظر في كتب الجاحظ ، فندون ما يلهمنا إياه هذا النظر المطلق . وعلى هذه الصورة نستطيع أن نطبع شعورنا بطابع خاص ، منسلخ من كل تقليد .

حياة الجاحظ

تفوتنا نواح كثيرة من نواحي الجاحظ التي تشرع لنا باباً إلى الوقوف على تفاريق حياته ، على أننا نستطيع أن نحيط بنبذ غير يسير من هذه الحياة ، ولكن هذه الإحاطة لا تنقع غليلاً قياساً إلى ما يعرفه أدباء الإفرنجه من أمور كتابهم وشعرائهم ، وأشباه هذه الطبقات ، على أن أمرنا لا يشبه أمرهم ، فإن آثار عقولنا مبعثرة ، وقد ضاع كثير من هذه الآثار ، وما حفظ منها قد يصعب وصول الأيدي إليه ، ولم يكتب لنا أن نكون أمة مجموعة الشمل من قديم الدهر ، يسلم كل عصر من العصور نتائج عبقريته إلى العصر الذي يليه ، حتى تطرد هذه العبقرية فيزيد لآخر في ميراث الأول ، فيضيف مستحدث الأدب إلى قديمه ، فما فاتنا في الماضي فعساه أن لا يفوتنا في الحاضر والآتي .

فلنشرع في ذكر ما اتصل بنا علمه من حياة الجاحظ[1] .

لم يذكر الأنباري ولا ابن عساكر، ولا ابن خلكان السنة التي ولد فيها الجاحظ، وإنما ذكروا السنة التي مات فيها وقالوا : نيف على تسعين سنة ، وذكر ياقوت في معجمه أن الجاحظ قال : أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت في أول سنة ١٥٠ وولد في آخرها .

ولكن ابن خلكان قال في كلامه على ميلاد أبي نواس : وذكره الخطيب أبو بكر في تاريخ بغداد وقال : ولد في سنة خمس وأربعين ، وقيل سنة ست وثلاثين ومائة .

وقال الأنباري قبل ابن خلكان : ولد أبو نواس سنة خمس وأربعين ومائة ، وقيل ولد سنة ست وثلاثين ومائة .

---

(١) استندت في الكلام على حياة الجاحظ إلى كتب ابن خلكان وابن عساكر وإلى معجم الأدباء لياقوت الرومي وإلى طبقات الأدباء للأنباري .

وقد ذكر بعض الذين طبعوا ديوان أبي نواس أن هـذا ولد في سنة إحدى وأربعين ومئة .

ومن هذا كله يتبين لنا أن رواية ميلاد الجاحظ لاتخلو من اضطراب ، ولكننا إذا علمنا أن الجاحظ مات في سنة ٢٥٥ وأنه شكا في أواخر أيامه كبر السن فقال : وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيهـا ، سهل علينا أن نقول إن الجاحظ ولد في سنة تسع وخمسين ومائة ، أو في سنة ستين ومائة بوجه التقريب .

أجمعوا على أن الجاحظ اسمه عمرو بن بحر بن محبوب ، وهو كناني ليثي ، نسبه إلى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة .

وقالوا : كان الجاحظ مولى أبي القلمّس عمرو بن قلع الكناني ، ثم الفقيمي .

ومنهم من أضاف إلى هذا : وهو كناني ، قيل : صليبة ، وقيل : مولى .

وكان جده أسود يقال له : فزارة ، وكان جمالاً لعمرو بن قلع الكناني .

أما كنيته فقد قال أبو بكر العمري ، سمعت الجاحظ يقول : نسيت كنيتي ثلاثة أيام ، فأتيت أهلي ، فقلت : بمن أكنى ؟ فقالوا : بأبي عثمان [(١)] .

هذا كل ما نعرفه من نسبه ، واسمه وكنيته ، وأظن أن هذه المعرفة لاتضيء ظلمة ، فإن ناحية نسبه غامضة .

غير أننا نعلم أن للجاحظ أقارب عاشوا بعده ، وأريد بهؤلاء الأقارب يموت بن المزرع وولده أبا نضلة ، أما يموت فقد ذكر عنه ابن خلكان أنه ابن أخت الجاحظ ، ولكن يموت يقول : الجاحظ خال أمي [(٢)] .

عاش يموت بن المزرع بعد وفاة الجاحظ ، وقدم بغداد سنة إحدى وثلاثمائة وهو شيخ كبير ، وحدث بها عن المازني ، والسجستاني ، والرياشي ، وعبد الرحمن ابن أخي الأصمعي ، وعن غيرهم ، وكان أديباً إخبارياً ، وله ملح ونوادر وحكايات ، وكان

---

(١) تاريخ ابن عساكر

(٢) تاريخ ابن عساكر

لا يعود مريضاً خوفاً من أن يتطير باسمه ، وكان يقول : بليت بالاسم الذي سماني به أبي ، فإذا عدت مريضاً فاستأذنت عليه فقيل : من هذا ؟ قلت : أنا ابن المزرع ، وأسقطت اسمي .

سافر يموت إلى مصر مراراً . ومات سنة أربع وثلاثمائة بطبرية الشام .

يتصل بعض نسبه بحكيم بن جبلة ، وحكيم هذا كان من أعوان علي بن أبي طالب وكان صاحب الشرطة في البصرة ، وقتل بالبصرة .

خلف يموت بن المزرع ولداً اسمه أبو نضلة مهلهل ، وكان شاعراً ذكره المسعودي في كتابه ، وذكره الخطيب في تاريخ بغداد فقال : هو شاعر ، مليح الشعر في الغزل وغيره ، وسكن بغداد .

وفيه يقول أبوه مخاطباً له في قصيدة(١) :

فَجُب في الأرض وابغ بها علوماً ولا تقطعك جائحة ثبوت
وإن بخل العليم عليك يوماً فذلّ له وديدنك السكوت
وقل : بالعلم كان أبي جواداً يقال : ومن أبوك ، فقل : يموت

ومن هذا كله نستطيع أن نستنبط أن من أقارب الجاحظ من اشتهر بمحبة العلم ، وبالملح والنوادر ، فكان بينهم وبين الجاحظ مشابه في هذا الباب ، فإن الجاحظ طلاّب للعلم مفتون بالنوادر .

كان الجاحظ مشوه الخلق ، وإنما قيل له الجاحظ لأن عينيه كانتا جاحظتين والجحوظ النتوء ، وكان يقال له أيضاً الحَدَقي ، ومن جملة أخباره أنه قال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني .

أين طلب الجاحظ العلم في صغره ؟

يظهر لنا أن الجاحظ كان في ابتداء أمره يحمل اللوح بيده ، ويغدو على كتّابه ،

---

(١) عن تاريخ ابن خلكان بتصرف يسير .

على نحو ما كانت عليه الحال في دمشق من ثلاثين سنة ، وعلى نحو حالنا في يومنا هذا ، فإن الكتاتيب لم يبطل أمرها في بعض القرى وأحياء المدن ، و إلى القارئ القصة التي رواها لنا وهي من آثار الكتّاب قال (١) :

« وأنا حفظك الله ، رأيت كلباً مرةً في الحي ، ونحن في الكتّاب ، فعرض له صبي يسمى مهديًّا من أولاد القصابين ، وهو قائم يمحو لوحه ، فعضّ وجهه ، فنقع ثنييه دون موضع الجفن من عينه اليسرى ، فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خده ، فرمى به ملقيًّا على وجهه ، وجانب شدقه ، وترك مقلته صحيحة ، وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه ، و بقي الغلام مبهوتًا قائمًا لا ينبس ، وأسكته الفزع ، و بقي طائر القلب ، ثم خيط ذلك الموضع ، ورأيته بعد ذلك بشهر ، وقد عاد إلى الكتّاب ، وليس في وجهه من الشتر إلاّ موضع الخيط الذي خيط ، فلم ينبح إلى أن برئ ، ولا هرّ ، ولا دعا بماء ، حتى إذا رآه صاح : ردوه ، ولا بال جرواً ، ولا عَلَقًا ، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير » .

ولئن دلتنا هذه القصة على أن الجاحظ طلب العلم في أول أمره في الكتّاب مع أبناء القصابين وغيرهم ، فلقد دلتنا على شيء أعظم من هذا كله ، فإني أرى فيها أثر عنصر من عناصر عبقرية الجاحظ ، فأبو عثمان نقريس من صغر أمره ، والنقريس النظّار المدقق ، والجاحظ مطبوع على التدقيق ، لا يريد أن يتفلّت منه أمر قبل الاهتمام به . على أن هذه القصة تشتمل على أشياء غير ما ذكرت ، فإنها تدل على قوة حفظ الجاحظ ، فقد رواها وهو ابن سبعين بوجه التقريب ، فلم يهمل في روايتها لونًا من الألوان ، أو حركة من الحركات ، أو هيأة من الهيآت ، ولكن فيها غير قوة الحفظ ، فإن كلمته : يمحو لوحه ، تتضمن سرًّا من أسرار لغته ، فهي تشبه الكلمة التي سبقت الإشارة إليها في حكايته مع محفوظ النقاش : أين تذهب في هذا المطر والبرد ، فبأي كلام نفصح في هذا اليوم عن فكرة مثل هذه الفكرة ؟

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني — ص ٥

أفنستطيع أن نجد أسهل من هذا التعبير : يمحو لوحه ، أين تذهب في هذا المطر والبرد ؟ على أن هذا المقام لا يتسع للخوض في مثل هذا البحث ، ولكني أحببت أن أشير إلى شأن الآثار التي يبقيها لنا الكاتب مما يتعلق بصباه وبحياته ، فإن هذه الآثار تكشف لنا الغطاء عن كثير من عبقريته .

وكما عرفنا أن الجاحظ نشأ في الكتّاب ، فقد عرفنا حالةً من حالات عقله في تلك الصبوة الغامضة ، فمن هذه الحالات طائفة من أوهامه ، قال(١) :

« وأما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش ، فإنهم يزعمون أن الخفاش إذا عض الصبي لم ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشي ، فما أنسى فزعي من سن الخفاش ، ووحشتي من قربه ! إيماناً بذلك القول ، إلى أن بلغت » .

ومن هذه الخرافات التي برئ إلى الله منها قوله(٢) :

« وزعم لي بعض العلماء ممن قد روى الكتب ، وهو في إرث منها ، أن حية يقال لها الدسّاس تلد ولا تبيض ، وأن أنثى النمور لم تضع نمراً قط إلاّ ومعه أفعى . والأعراب تزعم أن الكمأة تبقى في الأرض ، فتمطر مطرة صيفية ، فيستحيل بعضها أفاعي . فسمع هذا الحديث مني بعض الرؤساء الطائيين ، فزعم لي أنه عاين كمأة ضخمة فتأملها فإذا هي تتحرك ، فنهض إليها فقلعها ، فإذا هي أفعى . هذا ما حدثته عن الأعراب حتى برئت إلى الله من عيب الحديث » .

هذه معتقدات صبي ما لبث أن نشأ وترعرع ، فكان على العقل معتمده ، وإليه مستنده ، في كل أمر من أمور الدين والفلسفة والعلم ، فلم يبق من تلك المعتقدات أثر .

إلى أي حرفة كان ينحرف الجاحظ بعد خروجه من الكتاب ، فقد قيل لنا أنه رؤي يبيع الخبز والسمك بسيحان (نهر بالبصرة) .

وروي أنه كان في حداثته مشتغلاً بالعلم وأمه تمونه ، فجاءته يوماً بطبق كراريس

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص ١٦٧) .

(٢) « « (الجزء الرابع ص ٧٥) .

فقال : ما هذا ، قالت . هذا الذي تجيء به ، فخرج مغتمًّا ، وجلس في الجامع وموسى بن عمران جالس ، فلما رآه مغتما ، قال له : ما شأنك ؟ فحدثه الحديث ، فأدخله المنزل ، وقرب إليه الطعام ، وأعطاه خمسين ديناراً ، فدخل السوق ، واشترى الدقيق وغيره ، وحمله الحمالون إلى داره ، فأنكرت الأم ذلك ، وقالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكراريس التي قدمتها إلي ، ثم اتصل بعد ذلك بابن الزيات فأقطعه أربع مائة جريب في الأعالي ، قال الحاكم : وهي تعرف بالجاحظية إلى الآن[١] .

ولكن هل طال عهده ببيع الخبز والسمك ؟ فالذي نعلمه أنه جمع مالاً لا بأس به .

قال ميمون بن هارون قلت للجاحظ[٢] :

ألك بالبصرة ضيعة ؟ فتبسم وقال : إنما أنا وجارية ، وجارية تخدمها ، وخادم وحمار ، أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد وتسميد .

وربما اقتنى الخدم ومن جملة خدمه خادم اسمه نفيس[٣] :

وربما ابتاع من الخدم من كان يخدم أهل الثروة واليسار وأشباه الملوك[٤] .

وسيظهر لنا من رسائل الفتح بن خاقان إليه أنه كانت له مشاهرات ينالها من الخليفة .

ولقد جمع هذا المال ، وتقلد جلائل الأعمال ، فقد صدّر في ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ، ثم إنه استعفى ، فأعفي ، وكان سهل بن هارون يقول : إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب .

---

(١) ذكر المعتزلة لأحمد بن يحيي بن المرتضى — ص ٣٨ طبعة دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن . (٢) معجم الأدباء لياقوت — الجزء السادس ص — ٧٥ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٤٩ .

(٤) البيان والتبيين — الجزء الثاني — ص ١٧٦ .

وكان يتقلد خلافة إبراهيم بن العباس الصولي على ديوان الرسائل ، ويحكى أنه لما جاء إلى الديوان جاءه أبو العيناء ، فلما أراد الانصراف ، تقدم الجاحظ إلى حاجبه إذا وصل إلى الدهليز أن لا يدعه يخرج ، ولا يمكنه من الرجوع إليه ، فخرج أبو العيناء ففعل به ذلك ، فنادى بأعلى صوته : يا أبا عثمان قد أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك !

يميل الجاحظ إلى الهزل حتى في دواوين الخلفاء ، ولكنه لم يخلق لهذه الدواوين ، فقد خرج من ديوان الرسائل وفي نفسه عاملان : عامل الهزء وعامل الطموح ، فلنوضح هذا الأمر .

كان الجاحظ على نحو ما صوره لنا الفتح بن خاقان في رسالته إليه صاحب عظمة في نفسه ، يثق بعلمه و بمعرفته ، و إن رجلاً قد شعر من نفسه بهذه العظمة ، ليصعب عليه أن يكون في ديوان مسلوب الإرادة فيه ، يعمل لرجال ربما كان يعتقد أنه أرفع منهم منزلة ، وأعلى شأناً ، فما وسعه إلا ترك الديوان ، حتى يتبسط في أفق أعلى ، ويتفسح في جوّ أمد ، ليس بينه و بين شيء من مرادات نفسه حاجز يحجز ، أو حائل يحول ، يوفر على هذه النفس كرامة ، لا يستطيع أن يوفرها وهو راسف في قيد السلطان ، و يتمتع بقراءة كتب كانت غذاء روحه مدة قرن .

خرج الجاحظ من ديوان الخليفة لأنه صاحب اعتماد على نفسه ، يحب أن يعيش مطلقاً من كل قيد ، فلم يخلق لأمثال هذه الدواوين التي لا تخلو من القيد ، وخاصة أن الجاحظ رجل مطبوع على الهزء والسخرية ، ومن كان هذا شأنه قد يتعذّر عليه أن يجدّ ونفسه تبعثه على الهزل ، وأن ينقاد وطبعه يدفعه إلى الانطلاق ، فما أحب أن يقيد نفسه في الدواوين ، فإن رجلاً قد خبر عمل السلطان ، وكان رأيه في هذا العمل على الوجه الآتي[1] :

« وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه ، وقار به بخدمته ، فإن أولئك لباسهم

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الثاني — ص ٢٤٨ .

الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن لهم خول مملوءة ، قد لبسها الرعب ، وألفها الذل ، وصحب ترقب الاحتياج ، فهم مع ذلك في تكدير وتنغيص خوفاً من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب ، وتغيير الدول ، واعتراض حلول المحن ، فإن هي حلت ، وكثيراً ما تحلّ ، فناهيك بهم مرحومين ، يرق لهم الأعداء فضلاً عن الأولياء » .

لبعيد عادة عن ملابسة السلطان بنفسه ومقاربته بخدمته ، ولا سيما إذا كان قد شاهد المحن التي أشار إليها وشاهد بمن حلت ، وسنتكلم عليها في الآتي :

إن رجلاً يقول في مدح التجار[1] :

« أودع الناس بدناً ، وأهنأهم عيشاً ، وآمنهم سرباً ، لأنهم في أفنيتهم كالملوك على أسرتهم ، يرغب إليهم أهل الحاجات ، وينزع إليهم ملتمسو البياعات ، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم ، ولا يستعبدهم الضرع لمعاملاتهم ... »

لطمّاح إلى أفق يشبه أُفق التجار ، يتمتع فيه بدعة البدن ، وهناء العيش ، وأمن السرب .

ولئن نزعت بالجاحظ نفسه عن عمل يجد فيه الذل والملق والضرع ، فربما نزعت به هذه النفس إلى عمل يكون فيه صاحب الأمر النافذ ، يضرع الناس إليه ويذلون له ، بدلاً من أن يكون الضارع الذليل ، وما يتيسر له مثل هذا العمل إلا في ظلال الخلافة ، فكأنما وسوست له نفسه أن يذوق لذة هذه الخلافة ، فإذا صحت الرواية التي رواها ابن عساكر في تاريخه وهذه هي :

دخل رجل على الجاحظ فقال له : يا أبا عثمان ، كيف حالك ؟ فقال الجاحظ : سألتني عن الجملة[2] فاسمعها مني واحداً واحداً ، حالي أن الوزير يتكلم برأيي وينفذ أمري ويواتر الخليفة الصلات إلي ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها ، وأجلس على ألين الطبري ، وأتكئ على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الثاني ص ٢٤٨ .

(٢) في الأصل سألتني عن الجلة وفي نسخة عن المجلة .

يأتي الله بالفرج ، فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه ، قال : بل أحب أن تكون الخلافة لي ، و يعمل محمد بن عبد الملك بأمري ، ويختلف إلي ، فهذا هو الفرج ! » .

إذا صحت هذه الرواية فمعناها أن الجاحظ لم يجد لذة في التصدير في ديوان الرسائل لأنه لم يعمل بأمره ، و إنما كان يعمل بأمر الخليفة ، على حين يجد لذته في الانفراد بالأمر والنهي ، فهل أفصح عن أمانيه لما قال[1] :

« وليس شيءٌ ألذ ولا أسرَّ من عز الأمر والنهي ، ومن الظفر بالأعداء ، ومن عقد المنن في أعناق الرجال ، والسرور بالرياسة ، و بثمرة السيادة ، لأن هذه الأمور هي نصيب الروح ، وحظ الذهن وقسم النفس » ؟ !

ومهما يكن الأمر فإننا نحمد الله الذي لم يأْته بالفرج ، فلو أتاه لحرمت العربية شيئاً غير يسير ، بيد أنه إن فاتته الرياسة عن سبيل السلطان ، فقد أتته هذه الرياسة منقـادة إليه عن سبيل الأدب ، ولا شك في أن الأدب أخلد أثراً من كل سيادة وسلطان !

فالذي نراه أن الجاحظ عاش في نعمة ، وربما أعطى نفسه حقها من اللهو ، فقد كان المـكي يعشق جارية يقال لها سَنْدَرَة ، ثم تزوجها نهارية ، وقد دعا الجاحظ إلى منزلها غير مرة[2] .

عاش الجاحظ في نعمة ، وقد بقيت منه آثار فيها شيء يدل على التحقيق العلمي ، لكن هذا الشيءُ لا يخلو من الدلالة على اعتناء الجاحظ بداره ، فمرة كان يصرف هذه العناية إلى غرس الأشجار ، فمن قوله[3] :

ولقد أردت أن أغرس في داري أراكة ، فقالوا لى : إن الأراك إنما تنبت من حب الأراك ، يغرس في جوف طين ، في قواصر ، ويسقى الماء أياماً ، فإذا نبت الحب

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني — ص ٣٣ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس — ص ١٣٨ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٢٥ .

وظهر نباته فوق الطين ، وضعت القوصرة كما هي في جوف الأرض ، وتُكنُّ إلى أن تصير في جوف الأرض ، فإن الذرّ تطالبه مطالبة شديدة ، وإن لم تتحفظ منها بالليل والنهار أفسدتها ، فعمدت إلى مشارات من صُفْر من هذه المسارج ، وهي في غاية الملاسة واللين ، فكنت أضع القوصرة على الترس الذي فيه الأملس ، فأجد فيه الذرّ الكثير ، فكنت أنقل المشارة من مكان إلى مكان ، فما أفلح ذلك الحب » .

ومرّة كان يصرفها إلى تعليق الأبواب الثمينة ، فمن هذا قوله[1] :

« ومثل ذلك قول نجار كان عندي ، دعوته لتعليق باب ثمين كريم ، فقلت له : إن إحكام تعليق الباب شديد ، ولا يحسنه من مائة نجار نجار واحد ، قد يذكر بالحذق في نجارة السيوف ، والقباب ، وهو لا يكمل تعليق باب على تمام الإحكام ، والقباب عند العامة أصعب ، ولهذا أمثال ، فمن ذلك أن الغلام والجارية يشويان الجدي ، والحمل ، وهما يحكمان الشيّ وهما لا يحكمان شيّ جنب ، ومن لا علم له يظن أن شيّ البعض أهون من شيّ الجميع ، فقال لي : قد أحسنت حين أعلمتني أنك تبصر العمل ، فإن معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشقيق ، فعلّقه فأحكم تعليقه ، ثم لم يكن عندي حلقة لوجه الباب إذا أردت إصفاقه ، فقلت له أكره أن أجلسك إلى أن يذهب الغلام إلى السوق ، ويرجع ، ولكن اثقب لي موضعها ، فلما ثقبه وأخذ حقه ، وولّاني ظهره للانصراف ، والتفت إلي فقال : قد جودت الثقب ، ولكن انظر أي نجار يدق فيه الرزّة ، فإنه إن أخطأ بضربة واحدة شقّ الباب ، فعلمت أنه يفهم صناعته فهماً تامًّا » .

من هذا كله نستنتج أن الجاحظ ملم بكل أمر ، سواء أكان هذا الأمر صغيراً أم كان كبيراً ، فهو لا يشبه بعض العلماء الذين تقوى فيهم ملكة وتضعف ملكات ، حتى يكاد يصل بهم الضعف إلى البلاهة ، وإنما هو كامل من الكملة .

من هم الرجال الذين لازمهم في حياته ؟

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث — ص ٨٥ .

قال ياقوت في معجم الأدباء(١) :

« وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك خاصاً به ، وكان منحرفاً عن أحمد بن أبي داود ، للعداوة بين أحمد ومحمد ، ولما قبض على محمد ، هرب الجاحظ ، فقيل له : لم هربت ؟ فقال : خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور ، يريد ما صنع بمحمد و إدخاله تنورَ حديدٍ فيه مسامير ، كان هو صنعه ليعذِّب الناس فيه ، فعذب هو حتى مات ، يعني محمد بن الزيات » .

من هو محمد بن عبد الملك ومن هو أحمد بن أبي داود ، وما هي العداوة بينهما(٢) ؟

أما محمد بن عبد الملك فهو أبو جعفر المعروف بابن الزيات ، وزير المعتصم ، وهذه قصة وزارته :

كان أحمد بن عمار بن شاذي البصري وزير المعتصم ، فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال ، فقرأه الوزير عليه ، وكان في الكتاب ذكر الكلأ ، فقال له المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال : لا أعلم ، وكان قليل المعرفة بالأدب ، فقال المعتصم : خليفة أمي ، ووزير عامي !

وكان المعتصم ضعيف الكتابة ، ثم قال : أبصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد بن الزيات ، فأدخلوه إليه ، فقال له : ما الكلأ ؟ فقال : الكلأ العشب على الإطلاق ، فإن كان رطباً فهو الخلا ، فإذا يبس فهو الحشيش ، وشرع في تقسيم أنواع النبات ، فعلم المعتصم فضله ، فاستوزره وحكمه و بسط يده .

ولما مات المعتصم وقام بالأمر ولده الواثق هرون أقرَّ الواثقُ ابنَ الزيات على ما كان عليه في أيام المعتصم ، بعد أن كان ساخطاً عليه في أيام أبيه ، وحلف يميناً مغلظة أنه ينكبه إذا صار الأمر إليه ، فلما ولي ، أمر الكتّاب أن يكتبوا ما يتعلق بأمر البيعة فكتبوا فلم يرض بما كتبوه ، فكتب ابن الزيات نسخة رضيها ، وأمر بتحرير

---

(١) معجم الأدباء — الجزء السادس ص ٥٧ .

(٢) اعتمدت في الكلام عليهما على تاريخ ابن خلكان .

المكاتبات عليها ، فكفّر عن يمينه وقال : عن المال والفدية عن اليمين عوض ، وليس عن الملك وابن الزيات عوض .

فلما مات الواثق وتولى المتوكل ، كان في نفس المتوكلُ من ابن الزيات شيء ، وسببه أنه لما مات الواثق بالله أخو المتوكل أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق ، وأشار ابن أبي دواد الآتي ذكره بتولية المتوكل ، وقام في ذلك وقعد ، حتى عممه بيده ، وألبسه البردة وقبله بين عينيه ، وكان المتوكل في أيام الواثق يدخل على الوزير ابن الزيات فيتجهمه الوزير ، ويغلظ في الكلام ، متقرباً بذلك إلى قلب الواثق ، فأضمرها المتوكل في نفسه ، فلما ولي الخلافة خشي إن نكبه عاجلاً أن يسيّر أمواله ، فيفوته ، فاستوزره ليطمئن ، وجعل ابن أبي دواد يغريه ، ويجد لذلك عنده موقعاً ، حتى قبض المتوكل على ابن الزيات فلم يجد من جميع أملاكه وضياعه وذخائره إلا ما كانت قيمته مائة ألف دينار ، فندم على عمله ، وقال لابن أبي دواد : أطمعتني في باطل ، وحملتني على شخص لم أجد عنه عوضاً .

كان ابن الزيات قد اتخذ في أيام وزارته تنوراً من حديد ، وأطراف مساميره محدودة إلى الداخل ، وهي قائمة مثل رؤوس المسالّ ، وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالمال ، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة ، تدخل المسامير في جسمه ، فيجدون لذلك أشد الألم ، ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة ، وكان إذا قال له أحد منهم : أيها الوزير ارحمني ، فيقول له : الرحمة خور في الطبيعة !

فلما اعتقله المتوكل ، أمر بإدخاله في التنور ، وقيده بخمسة عشر رطلاً من الحديد ، فقال ابن الزيات : يا أمير المؤمنين ارحمني ، فقال له المتوكل : الرحمة خور في الطبيعة ! كما كان يقول للناس ، فلما كان في الحبس طلب دواة وبطاقة ، فأحضرتا إليه ، فكتب :

هي السبيل فمن يوم إلى يوم ... كأنه ما تريك العين في النوم

لا تجزعنّ رويداً إنها دول   دنيا تنقل من قوم إلى قوم

وسيّرها إلى المتوكل فاشتغل عنها ، ولم يقف عليها إلا في الغد ، فلما قرأها المتوكل أمر بإخراجه فجاؤا به إليه فوجدوه ميتاً ، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، وكانت مدة إقامته بالتنور أربعين يوماً ، فهذا هو التنور الذي خاف الجاحظ أن يكون فيه ثاني اثنين .

ولكن هل نجا الجاحظ من عذاب ابن أبي دواد بعد موت صاحبه ابن الزيات ؟ أظن أنه لم ينج من شيء من ذلك ، وقبل أن نبين ما صنع به ابن أبي دواد ، لا حرج علينا إن أوجزنا في كلمة على ابن أبي دواد .

قال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة، فاختلفوا في ذلك، ودخل أحمد بن أبي دواد ، فعدهم واحداً واحداً بأسمائهم ، وكناهم ، وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا استجلس الناس فاضلاً فمثل أحمد ، فقال أحمد : بل إذا جالس العالم خليفة ، فمثل أمير المؤمنين الذي يفهم عنه ويكون أعلم بما يقول منه .

هذا هو أحمد بن أبي دواد !

ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن أبي دواد قاضي القضاة : وعزل يحيي بن أكثم ، وقد خص به أحمد بن أبي دواد ، حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه .

ولما مات المعتصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دواد عنده ، ولما مات الواثق بالله وتولى أخوه المتوكل فلج ابن أبي دواد في أول خلافته ، فولي موضعه ولده أبو الوليد محمد ، وكثر ذاموه ، وقل شاكروه ، واستمر على مظالم العسكر ، والقضاء ، إلى سنة سبع وثلاثين ومائتين ، فسخط المتوكل على القاضي أحمد ، وعلى ولده محمد ، وصرف ولده عن المظالم ، ثم صرفه عن القضاء ، وأخذ من الولد مائة ألف وعشرين ألف دينار ، وجوهراً بأربعين ألف دينار ، وسيّره إلى بغداد من سرمن رأى ، وفوض القضاء إلى القاضي يحيي بن أكثم الصيفي .

كان بين قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد ، وبين الوزير ابن الزيات منافسات وشحناء ، وقد هجا بعض الشعراء الوزير ابن الزيات بقصيدة عدد أبياتها سبعون بيتاً ، فبلغ خبرها القاضي أحمد فقال :

أحسن من سبعين بيتاً هجا   جمعك معناهنّ في بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة   تغسل عنه وَضَر الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك ، ويقال إن بعض أجداد القاضي أحمد كان يبيع القار فقال :

ياذا الذي يطمع في هجونا   عرّضت بي نفسك للموت
الزيت لا يزري بأحسابنا   أحسابنا معروفة البيت
قيّرتم الملك فلم ننقه   حتى غسلنا القار بالزيت

قلت : لم ينج الجاحظ من شر ابن أبي دواد ، لأنه كان منحرفاً عنه ، ملازماً لعدوه ابن الزيات ، فماذا صنع به ابن أبي دواد ؟

قال أبو عبد الله المرزباني (١) :

« حدث إسحاق الموصلي وأبو العيناء قال : كنت عند أحمد بن أبي دواد بعد قتل ابن الزيات ، فجيء بالجاحظ مقيداً ، وكان من أصحاب ابن الزيات ، وفي ناحيته ، فلما نظر إليه قال : والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدداً للمساوي ، وما فتني باستصلاحي لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك إلّا لفساد طويتك ، ورداءة دخلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك ، فقال له الجاحظ : خفّض عليك ، أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خير من أن يكون لي عليك ، ولأن أُسيء وتحسن ، أحسن عنك من أن أحسن فتسيء ، وأن تعفو عني حال قدرتك ، أجمل من الانتقام مني ، فقال له ابن أبي دواد : قبحك الله ، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت

---

(١) معجم الأدباء لياقوت — الجزء السادس ص ٥٨ .

فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) ؟ قال: تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاضي، فقال : جيئوا بحداد ، فقال : أعز الله القاضي ، ليفك عني أو ليزيدني ، فقال : بل ليفك عنك ، فجيء بالحداد ، فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلاً ، فلطمه الجاحظ ، وقال : اعمل عمل شهر في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة ، فإن الضرر على ساقي ، وليس بجذع ولا ساجة ! فضحك ابن أبي دواد وأهل المجلس منه ، وقال ابن أبي دواد لمحمد بن منصور وكان حاضراً : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال : يا غلام ، صِرْ به إلى الحمام ، وأمط عنه الأذى ، واحمل إليه تخت ثياب ، وطويلة ، وخفًّا ، فلبس ذلك ، ثم أتاه فتصدَّر في مجلسه ، ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان » .

هذه طائفة من أكابر الرجال الذين كان يلازمهم ، ويتردد إليهم ، وقد بلغ من استئناس محمد بن عبد الملك الزيات بالجاحظ أن أبا عثمان كان يأكل معه في يوم من الأيام ، فجاؤوا بفالوذجة ، فتولع محمد بالجاحظ ، وأمر أن يجعل من جهته ما رقّ من الجام ، فأسرع الجاحظ في الأكل فتنظف ما بين يديه ، فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس ، فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً(١) .

ولقد رغب في مجالسة الأمراء ، والخلفاء ، وصحب هؤلاء الأمراء في أسفارهم ، وقد كانوا يكاتبونه ، ومن جملتهم الفتح بن خاقان الذي استوزره المتوكل ، وأمره على الشام ، وأمره أن يستنيب عنه ، وكان المتوكل لا يصبر عن الفتح قدر ساعة .

وقد كان للفتح بن خاقان خزانة كتب لم ير أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر داره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة ، قال أبو هفّان : ثلاثة لم أر قط ، ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم منهم : الجاحظ والفتح بن خاقان ، وإسماعيل بن إسحق القاضي(٢) .

(١) تاريخ ابن عساكر . (٢) فوات الوفيات — الجزء الثاني .

ومن رسائل الفتح بن خاقان إلى الجاحظ كتاب كتبه إليه يقول في فصل منه :[١]

« إن أمير المؤمنين يجد بك ، ويهش عن ذكرك ، ولولا عظمتك في نفسك ، لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك و بين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك ، فيما أنت مشغول به ، ومتوفر عليه ، وقد كان ألقى إليّ من هذا عنوانه ، فزدتك في نفسه زيادة كفّ بها عن تجشيمك ، فاعرف لي هذه الحال ، واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى ، وافرغ منه ، وعجل به إليّ ، وكن من جدا به على نفسه ، وتنال مشاهرتك ، قد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك سنة كاملة ، وهذا مما لم تحلم به نفسك ، وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنام ، ولولا أني أزيد في مخيلتك ، لعرّفتك ما يعتريني عند قراءتها والسلام » .

ولقد مدح الجاحظ جماعة منهم : إبراهيم بن رباح بن شبيب الجوهري الكاتب ، وكان والياً على الأهواز ، وأبو الفرج نجاح بن سلمة ، وسننظر في شعره ، وكان يكاتب جماعة منهم إبرهيم بن المدبر ، وكان إبرهيم هذا ينبسط مع أبي عثمان ، وكانا يجتمعان في كل ثلاثة أيام .

فلنصحب الجاحظ في أسفاره ، ولننقب عن الآثار التي خلفها بعد هذه الأسفار ، فقد كان أبو عثمان جوّاب آفاق ، كأنه دحا الأرض من خبرته بها ، فقد دخل البلدان في صحاري جزيرة العرب والروم والشام وغير ذلك ، وجارى الطرق ودخل البراري ، وأمعن فيها ، وضرب إلى المواضع الوحشية[٢] .

ومن ذا الذي يخامره شك في نعمة السفر ، ونتائجه في الأدب ؟ فقد يكون الضرب في مناكب الأرض مشحذة للذهن ، مصقلة للخيال ، لما في مشاهد الطبيعة من مختلف الصور ومتباين الألوان ، مما يكون مادة لرجال العبقرية ، يستمدون منها في الشعر والتصوير ، فقد اقتبس (شاتوبريان) من سفره إلى أميركة صوراً شتى ، وألواناً غريبة ، أسبغت على فكره وعلى لغته نعمة الشباب ، ومن أراد أن يعرف ما الذي

(١) معجم الأدباء لياقوت — الجزء السادس ص ٧٢ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ١٥ .

أوحاه السفر إلى « لوتي » فليقرأ كتبه التي صوّر فيها ما زاره من مختلف الأصقاع ، فقد رمى بطرفه في مشاهد هذا العالم المديد ؛ فأحيا في كتبه مصر القديمة ، وإفريقية المحرقة ، وقسطنطينية الساحرة ، وكان لبلاد فارس ولديار الشام صورة في هذه الكتب ، وأحيا عواصف بحر من البحور ، ولذّات جزيرة من الجزائر ، وكان يمزج عواطفه بكل ما وقعت عليه عينه .

ولو نظرنا في أدبنا نفسه لرأينا للسفر أثراً في بعض هذا الأدب ، فلو لم تحضر الهموم رحل أبي عبادة البحتري ، فيوجه عنسه إلى أبيض المدائن، لما كان من شعره هذه السينية الخالدة التي لا نجد سينية أفضل منها في شعر العرب .

أي شيء من إيوان كسرى لم يعرضه علينا البحتري ؟ أفاته شيء من صورة أنطاكية ؟ أم فاته شيء من موائل المنايا ، وتزجية الصفوف ، واخضرار لباس الجند واصفراره ، وعراك الرجال بين يدي كسرى ، وإشاحتهم برمح أو إلاحتهم بترس ، فكأنهم أحياء وكأنهم أموات ؟

أم فاته شيء من وصف مدامة كأنها مجاجة الشمس ، أو كأنها ضوء الليل ؟ حتى حار البحتري في هذه المشاهد كلها ، واغتلى ارتيابه في العسكر ، فكانت يده تتقراهم باللمس ، فليس يدري أهو في حلم قد أطبق عينيه في الشك ، أم هي أمانٍ غيرت ظنه ، فما تمالك في سحر هذه المشاهد ، وروعة هذه الصور ، أن أعانها بدموعه ، فبكى على إيوانٍ بزّ من بسط الديباج ، واستلّ من ستور الدمقس ، لم يكن بانيه نكساً في الملوك ، وصبا إلى قيان المقاصير بين حواء ولعساء ، وما تمالك أن بكى على رباع عمرت دهراً للسرور ، فصارت هذه الرباع للتعزي والتأسي !

ولو لم يغر المهلبي شعراء بغداد بأبي الطيب المتنبئ حتى تباروا في هجائه ، وأسمعوه ما يكره ، وتماجنوا به ، وتنادروا عليه ، لما اتخذ المتنبئ الليل جملاً ، وفارق دار السلام متوجهاً إلى حضرة أبي الفضل بن العميد ، وإلى أبي شجاع عضد الدولة ، فكان من رحلته إلى بلاد فارس هذه الأبيات التي وصف بها شِعْب بوّان فقال :

ملاعب جنة لو سار فيها   سليمان لسار بترجمان

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

طَبَت فرسـانَنا والخيـل حتى ... خشيت وإن كرمن ، من الحران

غـدونا تنفض الأغصان فيهـا ... على أعرافهـــا مثل الجمان

فسرتُ وقد حجبن الحرَّ عني ... وجئن من الضياء بمـا كفاني

وألقى الشرق منهـا في ثيابي ... دنانيراً تفر من البنـــان

لها ثمر تشير إليك منـــه ... بأشربةٍ وقفن بلا أوان

وأمواه تصل بهـا حصـاها ... صليل الحلي في أيدي الغواني

وكان لنا من هذه الأبيات صور ناطقة في الوصف أضفناها إلى ميراثنا الأدبي .

فالسفر مادة من مواد التصوير والشعر ، وفيه نعمة ربما كانت أكبر من هذه النعم كلها ، فما أحسن ما قاله أحد كتاب الإفرنجة في هذا المعنى ، وليس يحضرني اسمه ، فقد قال : يسافر الإنسان كي ينسى الحقائق ، وفي كلمته هذه معنى بعيد ، فكأنه يريد أن يقول إن الحياة تشتمل على حقائق لا تخلو من إيلام وإيجاع ، فإذا سافر المرء نسي ألمها ، وذهل عن وجعها ، لأن طرفه يلهو بأمور تكاد تكون عزاء النفس وسلوانها .

وإني أعتقد أن من جملة الأمور التي أعانت الجاحظ على حياته المنبسطة كثرة أسفاره التي كانت تجدّد من قوة نفسه ونشاطها .

سافر الجاحظ إلى أنطاكية وإلى دمشق وربما سافر إلى مصر ، ووضع كتاباً اسمه : كتاب البلدان ، وغير بعيد أنه وصف فيه الأمصار التي عرفها ، ولكن هذا الكتاب لم يسقط إلينا ، فلسنا نعلم خصائص الآثار التي خلّفها لنا بعد رحلته ، وإنما نعرف طائفة من هذه الآثار مبعثرة في تضاعيف ما تناهى إلينا من كتبه ، فإذا حكمنا عليه من هذه الناحية فلا يكون حكمنا قاطعاً ، وإنما يتعلق هذا الحكم بما وصل إلينا من آثار أسفاره دون غيرها مما نطلع عليه .

فمن آثار سفره إلى أنطاكية قوله[(١)] :

«إني رأيت الثلث الأعلى من منارة مسجد أنطاكية أظهر جدّة من الثلثين الأسفلين،

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥١

فقلت لهم : ما بال هذا الثلث الأعلى أجد وأطرى ؟ قالوا : لأن تِنِّيناً تَرفَّع من بحرنا هذا ، فكان لا يمر بشيء إلا أهلكه ، فمرّ على المدينة في الهواء ، محاذياً لرأس هذه المنارة ، وكان أعلى مما هي عليه ، فضرب به بذنبه ضربة حذفت من الجميع أكثر من هذا المقدار ، فأعادوه بعد ذلك ، ولذلك اختلف في المنظر » .

فمن هذا الكلام يظهر لنا أن ديدن الجاحظ في كل أمر من الأمور التدقيق والتنقيب فكانت له نفس طُلَعة لا تريد أن يفوتها شيء .

أما آثار سفره إلى دمشق و إلى مصر فإنها أغرب وأعجب ، وقد كان سافر إلى دمشق مع الفتح بن خاقان ، وذكر هذه الحكاية(١) :

« واحتاج أصحابنا إلى التسليم من عض البراغيث أيام كنا بدمشق ، ودخلنا أنطاكية فاحتالوا لبراغيثها بالأسرة ، فلم ينتفعوا بذلك ، لأن براغيثهم تمشي ، وبراغيثهم نوعان : الأبجل والبرد ، إنما سمو ذلك الجنس على شبيه بما حكى لي ثمامة عن يحيى بن خالد البرمكي فإن يحيى زعم أن البراغيث من الخلق الذي يعرض له الطيران فيستحيل بقاً ، كما يعرض الطيران للنمل ، وكما يعرض الطيران للدعاميص ، فإن الدعاميص إذا انسلخت صارت فراشاً ، فكأن أصحابنا قد لقوا من تلك البراغيث جهداً ، وكانت له بلية أخرى ، وذلك أن الذي تسهره البراغيث لا يستريح إلا أن يقتلها بالعرك والفتل ، و إلا أن يقبض عليها فيرمي بها من فوق السرير فيرى أنهن إذا صرن عشرين كان أهون عليه من أن تكون أحداً وعشرين ، وكان الرجل إذا رام ذلك من واحد منها انثنت يده ، وكانوا ملوكاً ، ومثل هذا شديد على أمثالهم ، فما زالوا في جهد منها حتى لبسوا قمص الحرير الصيني ، وجعلوها طويلة الأبدان والأردان ، فناموا مستريحين » .

هذه الآثار التي تركها لنا بعد سفره إلى بلد يكاد يكون جنة الدنيا ، فلسنا ندري أتغنى الجاحظ بغوطة دمشق ، أم نظر إلى مسجدها ، وهو يعلم مقدار افتخار الدمشقيين بمسجدهم ؟ فمن قوله(٢) :

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص١١٣ .
(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الأول)

«وقول الدمشقيين : ما تأملنا قط تأليف مسجدنا ، وتركيب محرابنا ، وقبة مصلانا ، إلا أثار لنا التأمل ، واستخرج لنا التفرس بين غرائب حسن لم نعرفها ، وعجائب صنعة لم نقف عليها ، وما ندري أجواهر مقطعاته أكرم في الجواهر ، أم تنضيد أجزائه في تنضيد الأجزاء» .

إنه ليعلم هذا كله ، فهل استماله شيء من المسجد ومحرابه ، وقبة مصلاه ، وجواهر مقطعاته ؟ أم آلمه عض البراغيث في دمشق ، فشغله هـذا العض عن كل حسن من محاسنها ؟ !

على أنه قد أشار إلى المسجد إشارة خفيفة فقال[1] :

«وقد رأيت مسجد دمشق حين استجاز هذا السبيل ملك من ملوكها ، ومن رآه فقد علم أن أحداً لايرومه ، وأن الروم لا تسخوا أنفسهم به ، فلما قام عمر بن عبد العزيز جلله بالجلال ، وغطاه بالكرابيس ، وطبخ سلاسل القناديل ، حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق وذهب إلى أن ذلك الصنيع مجانب لسنة الإسلام ، وأن ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهلة للقلوب ، ومشغلة دون الخشوع ، وأن البال لايكون مجتمعاً وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه» .

ولئن أبقت دمشق في ذهنه صورة البراغيث لقد أبقت مصر في هـذا الذهن العجيب صورة أبشع ، فمن قوله[2] :

«كنت بعجت بطن عقرب إذ كنت بمصر فوجدت فيـه أكثر من سبعين عقارب صغار ، كل واحد نحو أرزة ، حرره أبو بكر السروكني» .

غير أن هـذه العبارة لم تخل من اعتراض المعترضين ، فلم يجد فيها بعضهم دليلاً على أن الذي كان بمصر إنما هو الجاحظ ، والذي شككهم في سفر الجاحظ إلى مصر إنما هي هذه الجملة : حرره أبو بكر السروكني ، غير أن ظاهر العبارة يدل على أن

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٢٩

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٦

الذي كان بمصر إنما هو الجاحظ ، وأما أبو بكر فقد يجوز أنه حرر حجم العقرب . والعبارة نفسها من طبقة كلام الجاحظ ، والتجربة التي جربها وهي : بعج بطن العقرب ، من نماذج تجاريبه ، وهي شبيهة بالتجاريب التي قبلها ، كقوله ، وقد رأيت بعض الحيات وكسرتها لأتعرف ما فيها ، كل هذا ما يحملنا على أن نعتقد أن العبارة تشير إلى سفر الجاحظ إلى مصر . وإذا أضفنا إلى هـذا ما نعرفه من كثرة أسفاره ، وقد لمحت إلى هذه الأسفار ، وأضفنا إليه أيضاً ما ذكره صاحب صبح الأعشى[1] من أن للجاحظ رسالة في مدح مصر قال فيها : وإنما سميت مصر بمصير الناس إليها ، قوي اعتقادنا أن الجاحظ سافر إلى مصر ، إلا أن خبر سفره إلى مصر لا يخلو من بعض الاضطراب .

وكيف كان الأمر ، لم يكن الجاحظ في أسفاره شاعراً ، أي لم يصور لنا ألوان التربة التي زارها تصويراً فيه حياة وشعور ، وإنما كان يبحث عن بعض حقائق علمية . وسننظر في هذا في كلامنا على تحقيقه .

كيف انطفأ نور هـذا العقل الذي تطلع في قرن متكامل إلى كل ضرب من ضروب المعرفة ، حتى ازدحمت فيه المعارف على متباين أشكالها ، فكان لنا من مزدحمها كنز لا يفنى سجيس الليالي ؟

حكى أبو علي القالي عن أبي معاذ عبد الله الخولي المتطبب قال[2] :

« دخلنا يوماً بسر من رأى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده ، وقد فلج ، فلما أخذنا مجالسنا أتى رسول المتوكل إليه ، فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ؟ ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان ، أحدهما لو غرز بالمال ما أحس ، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث ؟ وأكثر ما أشكوه الثمانون » .

وقد حدث يموت بن المزرع شبه هذا الحديث فقال[3] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٣١٨ .

(٢) أمالي القالي — الجزء الأول ص ٥ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت — الجزء السادس ص ٧٩ .

« وجه المتوكل في السنة التي قتل فيها أن يحمل إليه الجاحظ من البصرة ، فقال لمن أراد حمله : وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذي شق مائل ، ولعاب سائل ، وفرج بائل ، وعقل حائل » ؟

وحدَّث المبرد قال[١] :

« دخلت على الجاحظ في آخر أيامه ، فقلت له كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقرب به لآلمه ؟ وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخ   كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب   دريس كالجديد من الثياب

وكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته ، والنصف الأيسر لو قرض بالمقاريض لما أحس به من خدره وشدة برده .

وكان يقول في مرضه[٢] : اصطلحت على جسدي الأضداد ، إن أكلت بارداً أخذ برجلي ، وإن أكلت حارًّا أخذ برأسي ، أنا من جانبي الأيسر مفلوج لو قرض بالمقاريض ما علمت ، ومن جانبي الأيمن منقرس فلو مر به الذباب لتألمت ، وبي حصاة لا ينسرح البول معها ، وأشد ما عليّ ست وتسعون سنة » .

هذه جملة الروايات التي تتعلق بفالجه ، وقد أثرت العلة في كتاباته ، حتى قال في كتاب الحيوان[٣] :

« وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه ، أول ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب » إلى أن قال :

« فإن وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، ومن تقطيع

---

(١) معجم الأدباء لياقوت — الجزء السادس ٧٩ .
(٢) مرآة الجنان — الجزء الثاني ص ١٨٤ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٦٩ .

نظام ، ومن وقوع الشيء في غير موضعه ، فلا تنكر بعد أن صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي .

ولكن الناس لم يسامحوه في هذه الحالة التي صورها ، فكانت طائفة منهم يتعقبونه ملتمسين المطاعن والمغامز ، فلم ينج الجاحظ من داء العبقرية ، وأريد بهذا الداء شر جماعة لا تهدأ أعصابهم إلا إذا تقلبوا في المناهش والملاسع .

فمن قول أبي عثمان في هذه الجماعة[١] :

« فإن كثيراً ممن يتكلف قراءة الكتب ، ومدارسة العلم ، يقفون من جميع هذا الكتاب (كتاب الحيوان) على الكلمة الضعيفة ، واللفظة السخيفة ، وعلى موضع من التأليف قد عرض له شيء من استكراه ، وناله بعض الاضطراب ، أو كما يعرض في الكتب من سقطات الوهم وفلتات الضجر ، ومن خطإ الناسخ وسوء تحفظ المعارض على معنى لعله لو تدبره بعقل غير مفسد ، ونظر غير مدخول ، وتصفحه وهو محترس من عوامل الحسد ، ومن عارض التسرع ، ومن أخلاق من عسى أن يتسع في القول بمقدار ضيق صدره ، ويرسل لسانه إرسال الجاهل بكنه ما يكون منه ، ولو جعل بدل شغله بقليل ما يرى من المذموم تنقله بكثير ما يرى من المحمود ، كان ذلك أشبه بالأدب المرضي ، والخيم الصالح ، وأشد مشاكلة للحكمة ، وأبعد من سلطان الطيش ، وأقرب إلى عادة السلف ، وسيرة الأولين ، وأجدر أن يهب الله تعالى له السلامة في كتبه ، والدفاع عن حجته يوم مناضلته خصومه ، ومقارعة أعدائه » .

من هذا يتبين لنا أن العلة قد أثرت في تأليف الجاحظ ، حتى انبرت جماعة لتطلب اللفظة السخيفة ، والكلمة الضعيفة في كتاب الحيوان ، فكان يضطر إلى مداراتهم واستمالتهم وإلى كثرة الاعتذار ، فمن قوله[٢] :

« ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان ، ويظهر اصطناع الكتب

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٢ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٥١ .

في هذا الدهر ، لما احتجت في مداراتهم واستمالتهم وتوفيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم ، مع كثرة فوائد هذا الكتاب ، إلى هذه الرياضة الطويلة ، وإلى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأن الذي أفيده إياهم أستفيده منهم ، وحتى كأن رغبتي في صلاحهم رغبة من رغب في دنياهم » .

فما زال الجاحظ في خاتمة حياته يشكو مرة علته ، ومرة شيئاً أشد من العلة ، وهو لؤم بعض الأخلاق ، حتى ورد الخبر بموته .

حدَّث أحمد بن يزيد بن محمد المهلبي عن أبيه قال[1] :

« قال لي المعتز بالله : يا يزيد ، ورد الخبر بموت الجاحظ ، فقلت : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام العز ، قال ، وذلك سنة ٢٥٥ ، قال لي المعتز : قد كنت أحب أن أشخصه إليّ وأن يقيم عندي ، فقلت له : إنه قد كان قبل موته عطلاً بالفالج » .

وكان موته بالبصرة وقعت عليه مجلداته المصفوفة وهو عليل فقتلته[2] .

وقد قال فيه أبو شراعة :

في العلم للعلماء أن يتفهموه مواعظ
وإذا نسيت وقد جمعت علا عليك الحافظ
ولقد رأيت الظرف دهراً ما حواه اللافظ
حتى أقام طريقه عمرو بن بحر الجاحظ
ثم انقضت أيامه وهو الرئيس الواعظ

✲ ✲ ✲

هذه خلاصة حياة تقلب صاحبها في كل أفق من آفاق العيشة ، وخبر كل أمر من أمور الدنيا ، خبر خشونة الحياة ونعيمها ، وامتحن ذل السلطان وعزه ، وتقلد جلائل الأعمال ، وصحب أصاغر الناس وأكابرهم ، وذاق اللذات بمجامعها ، ومدّ الله في أجله فكأنه يقول :

---

(١) تاريخ ابن عساكر . (٢) تاريخ ابن الوردي — الجزء الأول ص ٢٣٤ .

متى يأت هذا الموت لا تبق حاجة   لنفسي إلاّ قد قضيت قضاءها

إن حياة مثل حياة الجاحظ مزدحمة الحوادث ، قد يجد الإنسان في دقائقها كثيراً من العبر ، ولكني لا أمرّ إلا بعبرة واحدة أجعلها خاتمة الكلام على هذه الحياة ، لوجودنا أشباه هذه العبرة في حياة طائفة كبيرة من رجال العبقرية :

حبس الجاحظ نفسه على الأدب والعلم مدة قرن متكامل، وكان همه الأبعد التنقيب عن الحقيقة والتنبيه على الأضاليل ، على نحو ما نبينه في الإشارة إلى تحقيقه العلمي ، فما هو جزاء هذه العناية بالأدب و بالعلم ؟ جزاء هذا كله تعقب الناس إياه وهو في أشد علة ، فقليلاً ما نسامح ، وقليلاً ما نلاين ، وقد طبعنا على التعقب ، ولهجنا بما يؤدي إليه من لواذع القول ولواسع اللفظ ، ننظر إلى سيئة تسترها حسنات ، فلا تفترق العين إلا هذه السيئة ، ونغضي على الحسنات ، فنعمى عنها أو نتعامى ، وقد تؤلمنا المحاسن في كثير من الأحوال ، فلا نحب أن يبرع إلى جنبنا بارع ، هذه طبيعتنا ، وعبثاً نحاول أن نهذب هذه الطبيعة ، هل هذب العلم من أخلاقنا ؟ أفلا نزال في هذه الأخلاق أشباه أجدادنا الذين كانوا يأوون إلى الكهوف والغيران في شباب البشرية !

نعم ، هذا ما لقيه الجاحظ من الناس في أواخر أيامه ، وأغرب من هذا كله أنه ربما ألف كتاباً في باب من الأبواب فيتواطأ على الطعن فيه جماعة بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعة هذا الكتاب وفصاحته ، حتى كان ينسب كتبه إلى من تقدم عصرهم ، فيأتيه أولئك الطاعنون بأعيانهم ، فيكتبون كتبه المنسوبة إلى غيره بخطوطهم ، و يتدارسونها بينهم و يتأدبون بها ، و يستعملون ألفاظها ومعانيها ، ولو علموا أن هذه الكتب ألفها الجاحظ نفسه لما كان منهم إلا الطعن والقدح !

ثقافة الجاحظ

مر بنا أن الجاحظ طلب العلم في ابتداء أمره في كتاب ، والظاهر أن الكتاتيب كانت شائعة في عصر الجاحظ ، فكان يتردد إليها أكابر علماء اللغة أمثال النضر بن شميل وأبي محمد اليزيدي وأبي زيد الأنصاري أحد أساتيذ الجاحظ ، حتى قال النضر بن شميل : كنا ثلاثة في كتاب ، أنا وأبو زيد الأنصاري وأبو محمد اليزيدي .

فإذا كانت كتاتيبهم في تلك الأيام الطيبة على نحو كتاتيباً في هذه الديار ، لا تطلع عليها شمس ولا يهب في نواحيها نسيم ، فمن ظلمة الكتاب الذي ترعرع فيه الجاحظ انبلج ضياء أضاء مدارك العرب أحد عشر قرناً ، ولا ندري إلى أي قرن يمتد .

ولكن من ذا الذي يعلمنا كيف انصرف الجاحظ من بعد خروجه من الكتاب إلى التوسع في مذاهب الأدب والدين والعلم والفلسفة ؟ ومن ذا الذي رغبه في هذا التوسع ؟ فإننا نجهل هذا كله ، وإنما نعلم أن أبا عثمان قرأ على طائفة من العلماء لم تغب عنا أسماؤهم ، وإذا علمنا هذا هان علينا أن تعرف كيف نما عقل الجاحظ ، فلسنا نرتاب بأن لأساتيذه أثراً بليغاً في نمو عقله وامتداد ثقافته .

من هم أساتيذ الجاحظ ؟

سمع الجاحظ من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري ، وأخذ النحو عن الأخفش أبي الحسن وكان صديقه ، وأخذ الكلام عن النظّام ، وتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد[1]

لقد كشف لنا هذا النبأ الغطاء عن تثقيف الجاحظ ، فإذا بحثنا عن خصائص

(١) معجم الأدباء — الجزء السادس ص ٥٦ — مطبعة أمين هندية بمصر .

الرجال الذين روّضوا عقل أبي عثمان ، ونقبنا عن المذاهب التي عرفوا بها ، استنبطنا من مبحثنا أن للجاحظ أربع ثقافات : تفقهه في اللغة والأدب والدين والعلم .

أما اللغة ، وربما كانت هذه الناحية أعجب نواحي الجاحظ ، فقد أخذها عن أهلها الذين لم يفسد بيانهم شيء من العجمة ، فإذا ملك الجاحظ من زمام الفصاحة ما لم يملك غيره من الكتاب فإن لمخالطته عرب المربد سرًّا في هذه الفصاحة ، وسننظر في هذا كله في كلامنا على لغته .

وأما الأدب فقد خرجه فيه رجال كانوا مضارب الأمثال فيه ، وإذا قلنا الأدب أردنا بهذه اللفظة ما كانوا يريدونه بها في عصر الجاحظ ، فالأدب كان يتضمن أخبار العرب وأشعارهم وملحهم ونوادرهم وغرائبهم وما شابه ذلك .

وكذلك الدين والعلم والفلسفة فقد استضاء في هذا كله بضياء رجل كان مضرب المثل في مذهبه .

فلننظر في كل من أساتيذ الجاحظ نظرة عجيلة ، حتى نلم بعقول الذين ثقفوا رجلاً مثل الجاحظ ، فإن إلمامة من هذا الشكل تمهد لنا مجازاً إلى الاطلاع على أسرار عبقرية الجاحظ ، لأننا إذا علمنا أن أبا عثمان قرأ على أشباه النظّام وأبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري والأخفش أبي الحسن ، وأخذ اللغة عن عرب المربد ، سهل علينا بعد هذا كله أن ندرك سر هذه الآفاق التي تبسط فيها الجاحظ وإذا أضفنا إلى معرفتنا هذه ما نعرفه من طبيعة الكتب التي كان يطالعها في حياته ومن ولعه بالكتب على وجه عامّ لم تشكل علينا نشأة هذه العبقرية الفتانة .

من هو أبو عبيدة ، ومن هو الأصمعي ، ومن هو أبو زيد الأنصاري ، ومن هو الأخفش أبو الحسن ، ومن هو النظام ، وما هو رأي الجاحظ فى أساتيذه ؟

فلنبحث قبل كل شيء عن جماعة العلماء الذين تولوا تثقيف الجاحظ من ناحية الأدب ، وأريد بهذه الجماعة أبا عبيدة والأصمعي وأبا زيد الأنصاري والأخفش

أبا الحسن ، ولنذكر على سبيل الإيجاز آراء أهل عصرهم فيهم [١] .

أما أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري فهو الذي قال فيه الجاحظ نفسه : لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم منه .

وقد كان أبو نواس يتعلم منه و يقول فيه : ذاك أديم طوي على علم .

أقدمه هرون الرشيد من البصرة إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة ، وقرأ عليه أشياء من كتبه .

وقد كان الفضل بن الربيع يقول : هذا علاّمة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه ، إلا أنه كان سيئ العبارة مع فوائد كثيرة ، وعلوم جمة .

وقد كان جبّاهاً ، لم يكن بالبصرة أحد إلا وهو يداجيه و يتقيه على عرضه .

خرج مرة إلى بلاد فارس قاصداً موسى بن عبد الرحمن الهلالي ، فلما قدم عليه قال موسى لغلمانه : احترزوا من أبي عبيدة ، فإن كلامه كله دق ، ثم حضر الطعام ، فصب بعض الغلمان على ذيله مرقة ، فقال له موسى : قد أصاب ثوبك مرق ، وأنا أعطيك عوضه عشرة ثياب ، فقال أبو عبيدة : لا عليك ، فإن مرقك لا يؤذي ، أي ما فيه دهن ، ففطن لها موسى وسكت !

وكان الأصمعي إذا أراد الدخول إلى المسجد قال : انظروا لا يكون فيه ذاك ، يعني أبا عبيدة ، خوفاً من لسانه .

ولما مات أبو عبيدة لم يحضر جنازته أحد ، لأنه لم يكن يسلم من لسانه أحد ، لا شريف ولا غيره ، وكان وسخاً ، ألثغ ، مدخول النسب ، مدخول الدين ، يميل إلى مذهب الخوارج ، وكان لا يقبل شهادته أحد من الحكام .

كانت ولادته سنة عشر ومائة في الليلة التي توفي بها الحسن البصري .

وتوفي سنة تسع ومائتين بالبصرة ، وقيل سنة إحدى عشرة ، وقيل سنة عشر ، وقيل سنة ثلاث عشرة ومائتين .

---

(١) رجعت في الكلام عليهم إلى ابن الأنباري صاحب الطبقات وابن خلكان .

وكان سبب وفاته أن محمد بن القاسم بن سهل النوشجاني أطعمه موزاً فمات منه، ثم أتاه أبو العتاهية فقدم إليه موزاً فقال له أبو العتاهية : ما هذا يا أبا جعفر، قتلت أبا عبيدة بالموز وتريد أن تقتلني به ؟ لقد استحليت قتل العلماء !

وتصانيفه تقارب مائتي مصنف منها كتب في الحمام والحيات والعقارب والخيل والإبل والزرع ، أي في الموضوعات التي عالجها الجاحظ ذاته .

***

وأما الأصمعي فهو صاحب لغة ونحو، وإمام في الأخبار والنوادر والملح والغرائب، وهو من أهل البصرة ، قدم بغداد في أيام هرون الرشيد .

قيل لأبي نواس : قد أحضر أبو عبيدة والأصمعي إلى الرشيد ، فقال : أما أبو عبيدة فإنهم إن أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته .

كان حسن الإنشاد والزخرفة لرديء الأخبار والأشعار ، حتى يحسن عنده القبيح .

وقال عمر بن شبة : سمعت الأصمعي يقول : أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة .

وقال إسحق الموصلي : لم أر الأصمعي يدعي شيئاً من العلم فيكون أحد أعلم به منه .

وكان الشافعي يقول : ما عبّر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي .

وقد حرص المأمون على الأصمعي وهو بالبصرة أن يصير إليه ، فلم يفعل ، واحتج بضعفه وكبره . فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيّرها إليه ليجيب عنها .

كانت ولادته سنة اثنتين ، وقيل ثلاث وعشرين ومائة ، وتوفي في صفر سنة ست عشرة ، وقيل أربع عشرة ، وقيل سبع عشرة ومائتين بالبصرة ، وقيل بمرو .

***

وأما أبو زيد الأنصاري فهو من أئمة الأدب، وغلبت عليه اللغة والنوادر والغريب. كان ثقة في روايته ، وكان سيبويه إذا قال : سمعت الثقة ، أراد به أبا زيد الأنصاري . حدث أبو عثمان المازني قال : رأيت الأصمعي وقد جاء إلى حلقة أبي زيد المذكور

فقبل رأسه ، وجلس بين يديه ، وقال : أنت رئيسنا وسيدنا من خمسين سنة .

وكان الثوري يقول : قال لي ابن مناذر ، أصف لك أصحابك ، أما الأصمعي فأحفظ الناس ، وأما أبو عبيدة فأجمعهم ، وأما أبو زيد الأنصاري فأوثقهم .

ويروى عن أبي عبيدة والأصمعي أنهما سئلا عن أبي زيد الأنصاري ، فقالا : ما شئت من عفاف وتقوى و إسلام .

كانت وفاته بالبصرة في سنة خمس عشرة ، وقيل أربع عشرة ، وقيل ست عشرة ومائتين ، وعمّر عمراً طويلاً حتى قارب المائة ، وقيل عاش ثلاثاً وتسعين سنة ، وقيل خمساً وتسعين ، وقيل ستاً وتسعين .

وأما الأخفش أبو الحسن فهو من أكابر أئمة النحو في البصرة .

أخذ النحو عن سيبويه ، وكان أكبر منه ، وكان يقول : ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً إلا وعرضه عليّ ، وكان يرى أنه أعلم به مني ، وأنا اليوم أعلم به منه .

حكى أبو العباس ثعلب عن آل سعيد بن سالم ، قالوا : دخل الفرّاء على سعيد المذكور فقال لنا سعيد : قد جاءكم سيد أهل اللغة وسيد أهل العربية ، فقال الفرّاء : أما ما دام الأخفش يعيش فلا .

وكان الأخفش أجلع ، والأجلع الذي لا تنضم شفتاه على أسنانه ، والأخفش الصغير العينين ، مع سوء بصرهما ، وكانت وفاته سنة خمس عشرة ومائتين ، وقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين .

* * *

هذه جماعة العلماء الذين أخذ الجاحظ عنهم النحو واللغة والنوادر والغريب والأخبار والملح ، ولا ندري ماذا أخذ عنهم أيضاً .

وللجاحظ رأي في أساتيذه ، فإذا اتسع له مجال النقد نقدهم ولم يتهيب ، والظاهر أنه كان يستعصي عليه في بعض الأحايين فهم كلام أستاذه في النحو الأخفش أبي الحسن حتى قال له يوماً[1] .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٥ .

« أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعوني إليه قلّت حاجاتهم إليّ فيها، وإنما كانت غايتي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا، وإنما قد كسبت في هذا التدبير إذ كنت إلى التكسب ذهبت، ولكن ما بال إبراهيم النظّام، وفلان، وفلان، يكتبون الكتب لله بزعمهم، ثم يأخذها مثلي في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته، ولا يفهم أكثرها ؟ ! » .

من هذا يتبين لنا ناحية من نواحي عقول أساتيذ الجاحظ، فلئن كان الأخفش من أكابر النحويين لقد كان صاحب حيلة وفطنة، يعرف كيف يتصرف في جرّ مرغوب . وكما أن أبا عثمان نقد الأخفش في غمغمته في النحو، فقد نقد الأصمعي وأبا عبيدة والأخفش، في مقدار نظرهم في الشعر، فقد قال[1] :

« طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة، فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب، كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات . . . حتى قال الصاحب على أثر هذه الحكاية : فلله أبو عثمان، فلقد غاص على سر الشعر، واستخرج أرق من السحر » .

وقد كنت ذكرت هـذا الكلام في مستهل القول وبينت بعض انحرافه عن الصواب .

ما لنا ولهذا فإننا نتكلم على نقد الجاحظ لأساتيذه، ولسنا نتكلم على وجه الصواب أو الخطأ في هذا النقد .

---

(١) العمدة لابن رشيق — الجزء الثاني ص ٨٤ .

هذا ما تناهى إلينا من تخريج الجاحظ في الأدب ، و إلى جنب هؤلاء العلماء عالم في طبقة مختلفة عن طبقاتهم ، قد أثَّر في الجاحظ من ناحية غير الناحية التي أثَّروا فيها ، فلئن كان لأبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري والأخفش أبي الحسن ، أثر بليغ في تثقيف عقل الجاحظ من جهة الأدب ، لقد كان للنظَّام أثر أبلغ في تثقيف هذا العقل من جهة الدين والعلم .

والتلميذ محمول على تقليد أستاذه ، وربما قلده في حركاته وسكناته وفي مشيته .

يقول الجاحظ في النظَّام(١) :

« الأوائل يقولون : في كل ألف سنة رجل لانظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحق النظام » .

وقال فيه في مقام آخر(٢) :

« ما رأيت أحداً أعلم بالكلام والفقه من النظَّام » .

وقال أيضاً في كلام له على تأثير النظَّام في المعتزلة(٣) :

« أنهج لهم سبلاً ، وفتق لهم أموراً ، واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة » .

صوّر لنا الجاحظ أستاذه أبا إسحق النظَّام في صور شتى ، فمرة كان يعرض علينا طبيعة نظره وتمييزه ، فقد قال(٤) :

« وكان إبرهيم مأمون اللسان ، قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب ، ولم أزعم أنه قليل الزيغ والزلل على أن ذلك قد كاد يكون منه و إن كان قليلاً ، بل إنما قلت على مثل قولك : فلان قليل الحياء ، وأنت لست تريد حياءً البتة ، وذلك أنهم ربما وضعوا القليل في موضع ليس ، و إنما كان عيبه الذي لايفارقه

---

(١) ذكر المعتزلة للمرتضى — ص ٢٩ . (٢) ذكر المعتزلة للمرتضى — ص ٣٠ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٦٩ .

(٤) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٨٣ .

سوء ظنه ، وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذي لايوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي قاس عليه كان أمره على الخلاص ، ولكنه كان يظن الظن ، ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظناً ، فإذا أتقن ذلك وأيقن ، جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ، ولكنه كان لايقول : سمعت ولا رأيت ، وكان كلامه إذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه إنما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه ، أو عن معاينة قد بهرته » .

ومرة كان يعرض علينا مبلغ ثقة أصحابه به ، فقد قال[1] :

« وكنا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماع أو بيان » .

وحيناً كان يصف لنا مقدار حمله السر ، فقد قال[2] :

« وكان أبو اسحق إبرهيم بن سيار النظّام أضيق الناس صدراً بحمل سره ، وكان شر ما يكون إذا يؤكد عليه صاحب السر ، وكان إذا لم يؤكد عليه ربما نسي القصة فيسلم صاحب السر ، وقال له مرة قاسم التمّار : سبحان الله ، ما في الأرض أعجب منك ، أودعتك سراً فلم تصبر عن إفشائه يوماً واحداً ! والله لأشكونك للناس ، فقال : يا هؤلاء ، سلوه نممت عليه مرة واحدة ، أو مرتين ، أو ثلاثاً ، أو أربعاً ؟ فلمن الذنب ؟ فلم يرض بأن يشاركه في الذنب حتى صيَّر الذنب كله لصاحب السر»

وحيناً كان يصف لنا أخلاقه ، فقد قال[3] :

« وكان أنفاً ، شديد الشكيمة ، أبّاءً للهضيمة » .

هذا بعض ما اتصل بنا من آراء الجاحظ في أستاذه النظّام ، وإني أرى أن أذكر الآن نماذج من مذاهب النظّام في الدين ، والفلسفة ، والعلم ، وأنماطاً من تهكمه

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٠٦ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٦١ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٣٦ .

وخصائص عقله ، حتى نعرف من هو الرجل الذي أثر في الجاحظ من نواح كثيرة .

إبرهيم بن سيّار بن هانئ النظّام رئيس من رؤساء المعتزلة ، وقد انفرد عن أصحابه بمسائل تبعه فيها جماعة سموا بالنظّامية ، فاعتزاله يدور على قواعد معينة ذكرها الشهرستاني في كتاب الملل والنحل ، فلا محل للإفاضة في ذكرها في مثل هذا المقام ، ولكنني لا أرى بأساً ببيان بعض آرائه في الدين ، من هذه الآراء أن استواء الطاعات يؤدي إلى استواء أهلها في الثواب ، وكذلك الحال في المعاصي ، قال الجاحظ(١) :

« وزعم أبو إسحق أن الطاعات إذا استوت استوى أهلها في الثواب ، وأن المعاصي إذا استوت استوى أهلها في العقاب ، وإذا لم يكن منهم طاعة ولا معصية استووا في التفضُّل ، وزعم أن أجناس الحيوان [وكلّ شيء] يحس ويألم ، في التفضُّل سواء » .

فكأن النظّام يريد بهذا القول أن الله عزّ وجلّ ينظر إلى الناس إذا استوت طاعتهم أو معاصيهم نظرة واحدة ، فلا يقدم صالحاً على صالح ، ولا يؤخر طالحاً عن طالح ، وكذلك نظره إلى كل حيوان ذي شعور فلا يفضل ديكاً على كلب مثلًا ، وإن رأياً مثل هذا الرأي يدلنا على طبيعة المباحث الدينية التي كانوا يبحثونها فى عصر الجاحظ .

وقريب من هذا الرأي قوله فى دخول الأطفال الجنة ، وفى الفرق بين الأطفال وبين البهائم ، فإلى القارىء هذا القول على نحو ما أشار إليه الجاحظ ، وهو لا يخلو من يسر ومسامحة(٢) .

« وزعم أن أطفال المشركين والمسلمين كلهم في الجنة ، وزعم أن ليس بين الأطفال ولا بين البهائم فرق ، وكان يقول : إن هذه الأبدان السبعية والبهيمية لا تدخل الجنة ، ولكن الله عزّ وجلّ ينقل تلك الأرواح خالصة من تلك الآفات ، فيركبها فى أي الصور أحب » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٢٢ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٢٢ .

ولما قالوا بقتل الكلب وأشباهه رد عليهم بما يلي ، قال الجاحظ[١] :

« لما قال معبد في قتل الكلب وتلا قول الله عزّ وجلّ : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص) . قال أبو إسحق : وإن كنت إنما جعلت الكلب شرّ الخلق بهذه العلة ، فقد قال على نسق هذا الكلام : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ) . فالذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم ، فأسقط من أقدارها بقدر معنى الكلام ، وأدنى ذلك أن تشرك بين الجميع الذم ، فإنك متى أنصفت في هذا الوجه دعاك ذلك إلى أن تنصفها في تتبع ما لها من الأشعار والأمثال والأخبار والآيات كما تتبعت ما عليها » .

ولا أرى لي مندوحة عن التنبيه على رأيه في بعض المفسّرين لمشاركة الجاحظ له في هذا الرأي على نحو ما يتبين لنا هذا في كلامنا على دين الجاحظ ، كان أبو إسحق يقول[٢] :

« لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن نصبوا أنفسهم للعامة ، وأجابوا في كل مسألة ، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية ، على غير أساس ، وكلما كان المفسّر أغرب عندهم ، كان أحب اليهم ، وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسري والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الأصم في سبيل واحدة ، فكيف أثق بتفسير ، وأسكن إلى صوابهم ، وقد قالوا في قوله عزّ وجلّ : (وأن المساجد لله) ، إن الله عزّ وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها بل إنما عنى الجباه وكل ما سجد

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٧٥ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٦٨ .

الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة ، وقالوا في قوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) ، إنه ليس الجمال والنوق . إنما يعني السحاب . و إذا سئلوا عن قوله : (وطلح منضود) ، قالوا : الطلح هو الموز ، وجعلوا الدليل على أن شهر رمضان كان فرضاً على جميع الأمم ، وأن الناس غيروه ، قوله تعالى : (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) ، وقالوا في قوله تعالى : (ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً) ، قالوا يعنى أنه حشره بلا حجة ، وقالوا في قوله تعالى : (ويل للمطففين) ، والويل واد في جهنم ، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي ، ومعنى الويل في كلام العرب معروف ، وكيف كان في الجاهلية قبل الإسلام ؟ وهو من أشهر كلامهم ، وسئلوا عن قوله تعالى : (قل أعوذ برب الفلق) ، قالوا : الفلق واد في جهنم ، ثم قعدوا يصفونه ، وقال آخرون : الفلق المِقْطَرة بلغة اليمن ، وقال آخرون في قوله تعالى : (عيناً فيها تسمى سلسبيلاً) ، قالوا : أخطأ من واصل بعض هذه الكلمة ببعض ، قالوا : و إنما هي : سَلْ سبيلاً إليها يا محمد ، فإن كان كما قالوا فأين معنى « تسمى » ، وعلى أي شيء وقع قوله « تسمى » ، فتسمى ماذا ؟ وما ذلك الشيء ؟ . . . » .

هذا من ناحية بعض معتقدات النظام في الدين ، أما من ناحية الفلسفة فهذا رأيه في مذهب الشكّاك ، فقد قال[١] :

« نازعت الملحدين والشكّاك ، فوجدت الشكّاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود » .

وقال في موطن آخر[٢] :

« الشاكّ أقرب إليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

فإذا عرفنا طائفة من آرائه في الدين والفلسفة فلا بأس بأن نعرف شيئاً من

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١١ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١١ .

ناحيته العقلية ، فقد كان مطبوعاً على البحث عن أصل كل شيء ، وعن علته ، دون أن يقتصر على الانقياد والتقليد ، وهـذا من خصائص الجاحظ نفسه ، فقد قال[(١)] :

« بلغني وأنا أحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن اختناث فم القربة والشراب منه ، قال : فكنت أقول إن لهذا الحديث لشأناً ، وما في الشرب من فم القربة حتى يجيء فيها هذا النهي ، حتى قيل إن رجلاً شرب من فم قربة فوكعته حية فمات ، وإن الحيات تدخل فى أفواه القرب ، علمت أن كل شيء لا أعرف تأويله من الحديث أن له مذهباً وإن جهلته » .

من هذا يتبين لنا أن النظّام لا يؤمن بالأمور قبل أن يعمل عقله في أصل هـذه الأمور ، وهذه صفة من صفات الجاحظ تظهر لنا في الآتي :

فلننظر في الذي يدل على حسن تصرفه في الاختبار والامتحان ، فقد قال[(٢)] :

« إذا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم ، وفى أي طبقة هو، وأردت أن تدخله الـكير فتنفخ عليه ليظهر لك فيه الصحة من الفساد ، فكن عالماً في صورة متعلم ، ثم اسأله سؤال من يطمع فى بلوغ حاجته منه » .

على أن النظّام لم يكتف بطلب الفلسفة والـكلام ، وإنما عكف على طلب العلم . ولا سيما علم الطبيعة ، وكان الجاحظ ينقل عنه . ولا بأس بأن أشير إلى نموذج من آرائه في هذا العلم فأشير إلى رأيه في انتشار الضياء والحرارة ، دون أن أتعرض لصحة هذا الرأي أو لفساده ، وإنما أكتفي بإثباته في هذا المقام ، حتى نعرف كيف كانت مباحثهم عن الطبيعة في عصره ، إذ أن الضياء والحرارة معروف أمرهما في عصرنا هذا ، فلا أرى حاجة إلى الخوض في مثل هذا المعنى ، قال الجاحظ على لسانه[(٣)] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٨٨ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١١ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٢ .

« النار اسم للحَرِّ والضياء ، فإذا قالوا : أحرقت أو سخنت ، فإنما الإحراق والتسخين لأحد هذين الجنسين المتداخلين ، وهو الحرُّ دون الضياء ، وزعم أن الحرَّ جوهر صعّاد ، و إنما اختلفا ولم يكن اتفاقهما على الصعود موافقاً بين جواهرهما ، لأنهما متى صارا من العالم العلوي إلى مكان صار أحدهما فوق صاحبه ، وكان يجزم القول ويبرم الحكم ، بأن الضياء هو الذي يعلو إذا انفرد ولا يعلى ، قال : ونحن إنما صرنا إذا أطفأنا نار الأتون وجدنا أرضه وهواه وحيطانه حارّة ولم نجدها مضيئة ، لأن في الأرض وفي الماء الذي قد لابس الأرض حرًّا كثيراً وتداخلاً متشابكاً ، وليس فيها ضياء ، وقد كان حر النار هيج تلك الحرارة فأظهرها ولم يكن هناك ضياء من ملابس فيهيّجها الضياء وأظهرها ، كما اتصل الحر بالحر ، فأزاله من موضعه ، وأبرزه من مكانه ، فلذلك وجدنا أرض الأتون وحيطانها وهواها حارة ولم نجدها مضيئة » .

ولقد كان النظّام مع هذا العلم ومع هذه الفلسفة يميل إلى التنكيت في بعض الأحوال ، قال الجاحظ(١) :

« وأنشدني إبرهيم بن هانئ وعبد الرحمن بن منصور :

جنُونك مجنون ولست بواجد طبيباً يداوي من جنون جنون

وكان إبرهيم لا يقيم شعراً ولا أدري كيف أقام هذا البيت ؟ وكان يدعي بحضرة أبي إسحق علم الحساب والكلام والهندسة واللحون ، وأنه يقول الشعر ، فقال أبو إسحق : نحن لم نمتحنك في هذه الأمور فلك أن تدعيها عندنا . كيف صرت تدعي قول الشعر ، وأنت إذا رويته لغيرك كسرته ، قال : هكذا ، فإني طبعت أن أقيمه إذا قلت ، وأكره إذا أنشدت ، قال أبو إسحق : ما بعد هذا الكلام كلام ! » .

فقوله ما بعد هذا الكلام ، لا يخلو من تنكيت باطن .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٣٤ .

٭٭٭

بقي أن نعرف بعض ما وقع إلينا من طبيعة الكتب التي كان يطالعها الجاحظ في حياته، حتى نلمّ بعناصر ثقافته بحذافيرها.

سمع الجاحظ من الفلاسفة، وقرأ كتب الأطباء والمتكلمين، فضلاً عن كتب الأدب التي تبحث عن اللغة والنحو والنوادر والأخبار والأشعار والغرائب وما شابهها، وقرأ كتباً غيرها نقل عنها، منها: كتاب الفراسة لإقليمون، وكتاب طباع الألبان لصاحبه ماسرجويه، وكتاب المنطق لأرسطاطاليس، وكتاب إقليدس، ونقل عن بختيشوع، وعن حنين، وعن جالينوس، وعن صاحب الديك وغيرهم.

فقد نظر في الذي أودعته الأوائل كتبها، وخلدته من عجيب حكمتها، ودوّنته من أنواع سيرها، بحيث أصبح له اطلاع عام على الأفكار والمعاني. فهو من هذا الباب كامل من الكملة، وأريد بالكامل من أخذ من كل شيء بطرف، وإذا تكلمنا في الآتي على تفكيره تبينت لنا نتائج ثقافته العامة، فلم يخف عليه موضوع من الموضوعات، قد يجوز أنه لا يتعمق في الموضوع تعمق أهل الاختصاص، إلا أنه قد يلمّ به إلماماً بحيث لا يكون غريباً عنه، وقد طبعت قراءته الكتب على مختلف معانيها ثقافته بطابع خاص، وأعني بالطابع الخاص تنوع أفكاره ومعانيه حتى أصبح خصيب العقل لا نشكو منه قحطاً في فكر، أو جدباً في معنى.

لم تخل ثقافته من عناصر يونانية وفارسية، فإنه على الرغم من انقياد أدب العرب له، وعلى الرغم من دفاعه عن هذا الأدب في مواطن شتى من كتبه، ما تذمم من الأخذ عن اليونانيين أو عن الفرس، فقد ذكر الأمم التي فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم، فقال: هذه الأمم أربع، وهي العرب والهند وفارس والروم.

ورأى أن العرب أنطق، وأن لغتها أوسع، وأن لفظها أدل، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر، والأمثال التي ضربت أجود وأسير، والبديهة مقصورة عليها، والارتجال والاقتضاب خاص فيها[1].

---

(١) البيان والتبيين — الجزء الأول ص ٢٠٤.

وكره الشعوبية وطعن عليهم :

« واعلم أنك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ولا أشد استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصباً ، ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة ، وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة ، ولو عرفوا أخلاق كل ملة ، وزي كل لغة ، وعللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ولم اختلقوه ، ولم تكلفوه ، لأراحوا أنفسهم ، وتخففت مؤنتهم على من خالطهم »(١) .

ومع هذا كله فما كان يستنكف عن أن يقول : قال جالينوس ، وقال صاحب المنطق ، وقال بختيشوع وأضرابهم ، فالجاحظ نزّاع إلى التجديد ، فهو لا يرى بأساً بأن يدخل العربية عنصر من عناصر آداب الأمم المعروفة في عصره ، المشهورة بالعلم والحكم والأخلاق والآداب ، وأي أدب لم يعمل فيه أدب غيره .

« أي أدب من الآداب لم يؤثر فيه أدب غيره ، ولسنا نعرف أدباً قوميًّا محضاً مستقلاً كل الاستقلال ، وقد يذهب وهمنا إلى أن الأدب اليوناني مصبوغ بمثل هذه الصبغة ، وإنما نتوهم هذا لأن الأدب اليوناني قد عاش وحده دون بقية الآداب التى كانت في عصره ، وقد يؤثر أدب وسط في أدب أعلى منه ، على شرط أن يكون هذا الأدب الوسط فيه شيء من الغرابة والجدة .

الجدّة إنما هي غذاء الأدب ، وهل تأتي هذه الجدّة إلا من أدب غيره ، إننا لا نستطيع أن نتغذى بمواد بدننا وحدها ، لقد اقتبست فرنسة عناصر إبداعها عن آداب غيرها من الأمم ، وقد كان هذا الإبداع يتجدد في كل عصر ، وقد اقتبست آداب أوربة على اختلافها معظم مادتها التى سكر بها أعاظم العبقريين عن الأدب الفرنسي ، هل من سبيل إلى فهم (غوتي) مجرداً من الثقافة الفرنسية ؟ أم هل من

(١) البيان والتبيين — الجزء الثالث ص ١٤ .

سبيل إلى فهم (شاتوبريان) مجرداً من الثقافة الإنكليزية[١] » .

فالجاحظ لم تخل ثقافته من عنصر يوناني ، ولا يبعد أنه كان يعرف الفارسية ، ولست أقول هذا استناداً إلى طائفة من الألفاظ الفارسية التى أوردها في بعض كتبه ، وفسرها ، فهذا غير كاف أن يستدل به على معرفته الفارسية ، فلا يخلو عصرنا من جماعة يعرفون بعض ألفاظ أعجمية ، ثم يزعمون أنهم واقفون على أسرار اللغة التى تدخل فيها هذه الألفاظ ، وهم لا يقفون عند هذا الحد ، بل يذهبون إلى البحث عن اشتقاقات الألفاظ ، وردها إلى أصولها ، وهم جاهلون بالفروع وبالأصول ، وهذا منتهى الخلط والتدجيل ، وإنما الجاحظ تغلغل فى بعض الأحيان في أسرار الفارسية ، فلم يقتصر على ذكر اللفظة ومعناها ، فمن قوله :

« والفرس تسمي الأشياء بالاشتقاقات كما تقول للنعامة : اشترمرغ ، وكأنهم في التقدير قالوا : هو طائر وجمل ، فلم نجد هذا الاسم أوجب أن تكون النعامة نتاج ما بين الإبل والطير ، ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين سموها بذينك الشيئين ، وهم يسمون الشيء المرّ الحلو : ترش شيرين ، وهو في التفسير : حلو حامض[٢] » .

وقال في مقام آخر[٣] :

« فالجاموس بالفارسية : كاوماش ، وتأويله : ضأني بقري ، لأنهم وجدوا فيه مشابهة الكبش ، وكثيراً من مشابهة الثور » .

وقد كانت الفارسية مستفيضة ، حتى إنهم كانوا يدخلون شيئاً منها في الشعر نفسه ، كقول العماني للرشيد في قصيدته التي مدحه فيها :

من يلقه من بطل مسرند في زغفة محكمة بالسرد
يجول بين رأسه والكرد

---

(١) النزه الأدبية — السلسلة السابعة لصاحبها (Remy de Gourmont) ص ١٠٧ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٥ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٩ .

قال الجاحظ : والكرد العنق .

ويقول العماني في الرشيد أيضاً :

لما هوى بين غياض الأسد وصار في كف الهزبر الورد

آلى يذوق الدهر آب سرد[١]

ودليل آخر على استفاضة الفارسية في كلام العرب قول الأصمعي[٢] :

« ثلاثة تحكم لهم بالمروءة حتى يعرفوا : رجل رأيته راكباً ، أو سمعته يعرب ، أو شممت منه رائحة طيبة .

وثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا : رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفل ، أو سمعته يتكلم في مصر عربي بالفارسية ، أو رأيته على ظهر الطريق ينازع في القدر » .

✡ ✡ ✡

هذا ما رأيت أن أذكره من ثقافة الجاحظ ، وهذه هي عوامل ثقافته : قراءته الأدب والدين والعلم والفلسفة على أساتيذ كانوا مضارب الأمثال في مذاهبهم ، واقتباسه عن علم اليونانيين في بعض الأحيان ، ومطالعته كتباً في موضوعات شتى ، ثم خواطره وتجاربه ومعايناته ، فقد كان مولعاً بقراءة الكتب حتى قال أبو هفان[٣] :

« لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته ، كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للنظر » .

وقد تظهر لنا آثار هذا الولع في الفصل الذي عقده في الكلام على الكتب فقد تفنن في هذا الكلام التفنن كله .

فمرة يجد في الكتب النزهة والأنس والظرف والمزاح[٤] :

(١) البيان والتبيين — الجزء الأول ص ٧٩ .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة — ص ٢٩٦ .

(٣) معجم الأدباء — الجزء السادس ص ٥٦ .

(٤) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٩ .

« والكتاب نعم الذخر والعقدة هو ، ونعم الجليس والعدة ، ونعم النشرة والنزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس لساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ... والكتاب وعاء ملئ علماً ، وظرف حشي ظرفاً ، وإناء شحن مزاحاً وجداً ... إن شئت ضحكت من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتك طرائفه ، وإن شئت أشجتك مواعظه ... »

ومرة يجد فيها آثار العقول ونتائج العصور(١) .

« ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب » .

وحيناً يجد فيها شحذ الطباع وعمارة الصدر(٢) :

« والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال امتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك ، وجوّد بنانك وفخّم ألفاظك ، وبجّح نفسك ، وعمر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك » .

وحيناً يجد فيها الاستغناء عن ملابسة صغار الناس وما ينتج عنهم(٣) :

« ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه إليك ، إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر إلى المارّة بك ، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ، ومن فضول النظر ، ومن عادة الحرص ، ومن ملابسة صغار الناس ، وحضور ألفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة ، وأخلاقهم الرديئة ، وجهالاتهم المذمومة ، لكان في

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٢١ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٢٦ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٢٧ .

ذلك السلامة ، ثم الغنيمة ، و إحراز الأصل مع استفادة الفرع . . . »

والخلاصة أنه يجد الكتب أشد تقييداً للمآثر على ممر الأيام والدهور من البنيان[١] .

وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل و يبقى أثره ، ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودوّنت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلاّ بهم ، لما حسن حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة ، ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ، ومبلغ خواطرنا ، ومنتهى تجار بنا لما تدركه حواسنا ، وتشاهده نفوسنا ، لقلت المعرفة ، وسقطت الهمة ، وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأي عقيماً ، والخاطر فاسداً ولـكلّ الحدّ ، وتبلد العقل » :

إلى آخر ما جاء في هذا الفصل البليغ الذي يدلنا على قدرة الجاحظ على الإنشاء . ولقد شحذت الـكتب فهمه ، وفتقت عقله ، وأرهفت طباعه ، و إن رجلاً هذه هي مبالغ ثقافته ، وهذا هو مقدار ولعه بالـكتب ، لا نعجب من خصب عبقريته ، و إذا شئنا أن نحيط بهذا الخصب فلنرجع إلى فهرست كتبه .

فكأن الجاحظ قد أمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من أصناف الموضوعات ، فلم يكن غفلاً من كل ما يجري فيه الناس ، ويخوضون فيه ، فإذا أردنا أن نصفه بكلمة قلنا فيه إنه كامل على نحو قول الإفرنجة في أمثاله : فلان Edcyclopédiste ، والصحيح أن الجاحظ قد لخص معارف عصره ، فهو في هذا الباب يشبه أرسطاطاليس في القديم ، وقد هيأته ثقافته لهذا التلخيص .

وكأن الخوض في كل فنٍ من الفنون كان من لوازم الثقافة في عصر الجاحظ ، و إذا نظرنا في سير بعض الأدباء في تلك الأيام ، كسير طائفة من أساتيذ الجاحظ مثلاً ، تحقق عندنا أنهم كانوا يكتبون في موضوعات شتى كالحيوان وكالنبات وأشباههما ، فاطلاع الكاتب على جملة من العلوم ، دون الاقتصار على الأدب وحده ، كان أمراً

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٢ .

لا مندوحة عنه ، ولقد أشار إلى هذا ابن قتيبة في مقدمة أدب الـكاتب وهو من أهل عصر الجاحظ ، فقال :

« ولا بد له مع كتبنا هذه من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية والمثلث الحادّ والمثلث المنفرجَ ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات والقسيّ والمدوّرات والعمودين ، ويمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر فإن المخبر ليس كالمعاين ، وكانت العجم تقول : من لم يكن عالماً بإجراء المياه ، وحفر فرض المشارب وردم المهاوي ، ومجاري الأيام في الزيادة والنقص ، ودوران الشمس ، ومطالع النجوم ، وحال القمر في استهلاله وأفعاله ، ووزن الموازين ، وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ، ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه ، وحال أدوات الصناع ودقائق الحساب ، كان ناقصاً في حال كتابته .

ولا بدّ له مع ذلك من النظر في جُمل الفقة ومعرفة أصوله من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته كقوله : البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه ، والخراج بالضمان ، وجرح العجماء جبار ، ولا يغلق الرهنُ ، والمنحة مردودة والعارية مؤدّاة والزعيم غارم ، ولا وصية لوارث ، ولا قطع في ثمر ولا كثر ، ولا قود إلا بحديدة ، والمرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية ، ولا تعقل العاقلة عمداً ولا عبداً ولا صلحاً ولا اعترافاً ، ولا طلاق في إغلاق ، والبيعان بالخيار ما لم يتفرّقا ، والجار أحقُّ بصقبه ، والطلاق بالرجال ، والعدّة بالنساء ، وكنهيه في البيوع عن المخابرة والمحاقلة والمزابنة والمعاومة والثُّنيَّا ، وعن ربح ما لم يضمن ، وبيع ما لم يقبض ، وعن بيعتين في بيعة وعن شرطين في بيع ، وعن بيع وسلف ، وعن بيع الغَرَر وبيع المواصفة ، وعن الـكالئ بالـكالئ ، وعن تلقي الركبان ، في أشباه لهذا إذا هو حفظها وتفهم معانيها وتدبرها أغنته بإذن الله تعالى عن كثير من إطالة الفقهاء .

ولا بد له مع ذلك من دراسة أخبار الناس وتحفظ عيون الحديث ، ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كتب ، ويصل بها كلامه إذا حاور .

ومدار الأمر على القطب ، وهو العقل وجودة القريحة ، فإن القليل معها بإذن الله كافٍ ، والكثير مع غيرهما مقصر » .

من هذا يتبين لنا أن الأديب في أيام الجاحظ لم يقتصر على الثقافة الفنية وحدها ، وإنما كان يتوسع في بعض العلوم كالهندسة وعلم الفلك والحساب ، فضلاً عن الفقه والاجتماع والتاريخ وأمثال هذا كله .

عصر الجاحظ

حرية الفكر — الزندقة — الانقلاب الفكري

يقولون : الأدب إنما هو صورة الجماعات ، ومعنى قولهم هذا أن الأديب لا بدّ له من أن تعمل في أدبه عوامل شتى ، عامل البيئة ، والزمن ، والثقافة ، والتاريخ ، والاجتماع وأضرابها ، فإما أن ينسلخ من هذه العوامل ، أو من طائفة منها ، فلا يكون لها سلطان على أدبه ، فيحلق الشاعر مثلاً في جوٍّ أعلى من جو أهل عصره ، و يتبسط الكاتب في مذاهب من القول لا تشبه المذاهب التي يتبسط فيها أبناء زمنه ، و إما أن يكون لجامع هذه العوامل سلطان على الأديب ، فلا يجد إلى التملص منها سبيلاً . فإذا بحثنا عن عصر الجاحظ لزمنا أن نبحث عن مقدار تأثير عوامل هذا العصر في أدبه فنشير إلى مبلغ اتصاله بعصره ، أو انفصاله عنه ، وأما إذا نقبنا عن خصائص عصر الجاحظ ولم نشر ، ولو إشارة خفيّة ، إلى شيء من هذا كله ، لم يكن بحثنا بحثاً ، و إنما كان هذا البحث ضرباً من التاريخ لا محل له في كلامنا على الجاحظ ، وعلى ما به أننا إذا لمحنا إلى صفات عصر الجاحظ لمحنا ولو في سطور إلى ارتباط الجاحظ بهذه الصفات حتى نعرف هل ضرب في آفاق من الأفكار لم يضرب فيها أهل عصره ، أم أنه جارى هذا العصر ولم يتخلف عنه في شيء من فنون القول ، وعلى هذه الصورة نستطيع أن نعرف أكان أدب الجاحظ صورة عصره ، أم لم يكن صورة هذا العصر .

إذا أردنا الكلام على عصر الجاحظ فلا نستطيع أن نصور هذا العصر بأحسن من تصوير الجاحظ له ، على أن الجاحظ لم يتبسط في هذا التصوير ، و إنما جرت له عبارة في ترغيبه في اصطناع الكتاب ، واحتجاجه على من زرى على واضع الكتب ، وهذه العبارة على وجازتها وعلى سهولتها قد مثّلت لنا الدهر الذي عاش

فيه الجاحظ أكمل تمثيل ، على أن أبا عثمان قد قذف بها عَرَضاً وأعني بذلك أنه نطق بها في مقام وصفٍ غير وصف عصره ، وقال[١] :

« وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا ، على أنّا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر مما وجدنا ، فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ؟ وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ؟ وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ؛ وقامت سوق البيان والعلم » .

فإذا جاوزنا مبدأ هذه العبارة التي مثّلت لنا كيف تتسلل آثار العقول ، فيؤدي كل عصر نتائج ما يجده من العبرة إلى العصر الذي يليه ، ويزيد كل عصر في هذه العبرة بقدر ما يتيسر له من العلوم والتجارب ، إذا جاوزنا هذا كله تراءت لنا صفة عصر الجاحظ نقيةً صافيةً ، وبرزت لنا متكاملة متسقة ، فما هي هذه الصفة ، بل ما هي هذه الصفات ؟ إمكان القول ، وصلاح الدهر ، وخواء نجم التقية ، وهبوب ريح العلماء ، وكساد العي والجهل ، وقيام سوق البيان والعلم .

هذه خصائص عصر الجاحظ ، أفلا يحق لنا بعد معرفة هذه الخصائص أن نقول في عصر الجاحظ ما قاله أحد شعراء فرنسة في عصره : وأي عصر أخصب من هذا العصر في المعجزات ، وكيف لا يكون عصر أبي عثمان خصيباً ، وقد تهيأت لأبنائه حرية الفكر وانبسط فيه سلطان البيان ، وانفسحت آفاق العلم ، فإن عصراً تقوم فيه سوق البيان ، وتقوم فيه سوق العلم ، ويمكن أهله أن يفصحوا عما يوحي إليهم هذا الأدب وهذا العلم ، لعصر ريّان الجنبات ، مخصاب التربة .

فلنتدقق في هذه الخصائص دون شيء من التطويل .

قلنا : صفات عصر الجاحظ حرية الفكر ، وانبساط العلم ، وقيام سوق الأدب ، فلنشرع في الكلام على حرية الفكر ، ولما كان الدين مجال هذه الحرية لزمنا أن

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٣ .

نشير إلى ناحية من اختلاف الجمهور في أمور الدين ، دون الخوض في النواحي كلها .

يقول المأمون[1] :

« لنا اختلافان : أحدهما كاختلافنا فى الأذان ، وتكبير الجنائز ، وصلاة العيدين ، والتشهد ، والتسليم من الصلاة ، ووجوه القراآت ، واختلاف وجوه الفتيا ، وما أشبه ذلك ، وهذا ليس باختلاف ، و إنما هو تخيير وتوسعة ، وتخفيف من السنّة ، فمن أذّن مثنى وأقام مثنى لم يأثم ، ومن ربّع لم يأثم .

والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا ، مع اجتماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر » .

فلنوضح هذا القول بعض التوضيح .

علوم الدين قسمان : قسم يتعلق بأصل الدين وهو علم الكلام أو التوحيد ، وقسم يتعلق بأحكام الأعمال وهو الفقه وأُصوله ، ومرجع المسلمين فى هذه الأحكام القرآن والحديث .

والمسلمون فى هذا كله طائفتان : طائفة ترجع فى أُصول الفقه وأُصول الدين إلى الكتاب ، أو إلى السنة ، أو إلى أثر من آثار السلف ، متقيدين بهذه المراجع دون أن يعمل الواحد منهم عقله فى تفسير آية أو تأويل حديث ، وهم أهل الحديث .

وطائفة يستعملون عقولهم فى تفسير الآيات أو تأويل الأحاديث دون شيء من التقيد وهم المعتزلة أو أصحاب الفكر الحر .

وبين أهل الحديث والمعتزلة اختلاف فى أمور شتى ، منها القضاء والقدر ، وأفعال العباد ، وصفات الله تعالى ، وخلق القرآن ، وغير ذلك .

فالمختلفون فى أصول الفقه لا يكفّر بعضهم بعضاً ، و إنما المختلفون فى التوحيد قد يكفّر بعضهم بعضاً ، فالحديثي يرى أن المعتزلي صاحب بدعة ، قد نفض يديه مما أجمع عليه الجمهور ، وما هدت إليه الآثار والأخبار ، والمعتزلي يرى أن الحديثي إنما هو عامي

(١) العقد الفريد — الجزء الأول ص ٢٥٥ .

هل كان يجرأ أحد قبل عصر الجاحظ ممن خالف الجماعة على التصريح برأيه ؟

إن الذي اتصل بنا علمه أن الخلفاء من قبل المأمون كانوا يعاقبون على الزندقة منهم المهدي ، ومنهم ابنه الهادي .

أما المهدي فقد قال يوماً لموسى ، أي لابنه الهادي ، وقد قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه : يا بني ، إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة ، يعني (أصحاب ماني) فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش ، والزهد في الدنيا ، والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ، ومس الماء الطهور ، وترك قتل الهوام ، تحرجاً وتحوباً ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين ، أحدهما النور ، والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات ، والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من طرق تنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرّد فيها السيف ، وتقرّب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإني رأيت جدك العباس في المنام قلّدني سيفين ، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين .

وأما الهادي فقد كان في جملة من قتله يزدان بن يازان الكاتب ، فقد حج هذا فنظر إلى الناس في الطواف يهرولون ، فقال : ما أُشبههم إلا ببقر تدوس في البيدر .

وقد منع الرشيد عن الجدال في الدين وحبس أهل علم الكلام[1] .

فلما جاء المأمون أطلق القول ، وفسح في المناظرات ، وقد كان المأمون نفسه يحاجّ الفقهاء في كثير من الأمور ، منها احتجاجه عليهم في فضل علي ، فكان يأمر قاضي القضاة يحيى بن أكثم أن يحضر معه رجالاً كلهم فقيه يفقه ما يقال له ، ويحسن الجواب ، فيدخلون عليه وهو جالس على فراشه ، وعليه سواده وطيلسانه والطويلة وعمامته ، فإذا استقر بهم المجلس تحدّر عن فراشه ، ونزع عمامته وطيلسانه ووضع قلنسوته ، وما كان يمنعه من خلع خفيه إلا العلة ، ثم يأمرهم بنزع قلانسهم ، وخفافهم ، وطيالستهم ، ويقول لهم : إنما بعثت إليكم معشر القوم في المناظرة ، ثم

---

(١) ذكر المعتزلة للمرتضى — ص ٣١ .

يلقي مسائل من الفقه ، و يرد على كل واحد منهم مقالته ويخطئ بعضهم ، و يناظرهم في مذهبه الذي هو عليه ، و إذا قال لهم : إن أمير المؤمنين يدين الله على أن علي بن أبي طالب خير خلفاء الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأولى الناس بالخلافة ، قالوا له دون شيء من التهيب : إن فينا من لا يعرف ما ذكر أمير المؤمنين في علي ، وقد دعانا أمير المؤمنين للمناظرة ، وكان يخيّرهم أن يسألوه أو أن يسألهم ، وكان يتبين له عنادهم في بعض الأوقات ، وقد يطول مجلسهم و يرتفع النهار وهم في مناظرة (١) .

وقد كان يردُّ على الملحدين وأهل الأهواء ، و إذا قال لمرتدٍّ كان أسلم على يديه : أخبرني ما الذي أوحشك مما كنت به آنساً من دِيننا ؟ وقال له المرتد غير هيَّاب ولا وجل : أوحشني منكم ما رأيت من الاختلاف في دينكم ، لم يتنكر له المأمون ، و إنما كان يردّ عليه فلا يزال يخرج من حجة إلى حجة حتى يرجع به إلى الإسلام (٢) .

وهذا نمط من مناظراته ، قال الجاحظ :

« ومسألة أخرى سأل عنها أمير المؤمنين الزنديق الذي كان يكنى بأبي علي وذلك عند ما رأى من تطويل محمد بن الجهم ، وعجز العتبي ، وسوء فهم القاسم بن سيَّار ، فقال له المأمون : أسألك عن حرفين فقط ، خبرني هل ندم مسيء قط على إساءته ، أو نكون نحن لم نندم على شيء كان منا قط ؟ قال : بل ندم كثير من المسيئين على إساءتهم ، قال : فخبرني عن الندم على الإساءة ، إساءة أو إحسان ؟ قال : إحسان ، قال : فالذي ندم هو الذي أساء أو غيره ؟ قال : الذي ندم هو الذي أساء ، قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر وقد بطل قولكم : إن الذي ينظر نظر الوعيد غير الذي ينظر نظر الرحمة ، قال : فإني أزعم أن الذي أساء غير الذي ندم ، قال :

---

(١) راجع العقد الفريد — الجزء الثالث ص ٤٢ .

(٢) راجع العقد الفريد — الجزء الأول ص ٢٥٥ .

فندم على شيء كان منه ، أو على شيء كان من غيره ؟ فقطعه بمسألته ولم يتب ولم يرجع حتى مات [١] » .

وإننا لا نستطيع أن نفهم روح المناظرة إلا إذا فهمنا روح المذهب الذي ناظر فيه المأمون وهو مذهب مانى ، وسيأتي الكلام عليه .

وقد كان غرض المأمون في هذه المناظرات كلها اجتماع الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين ، وكان يكره في المناظرات الشتم والبذاءة ، لأن الأول في نظره عي ، والثانية لؤم ، وإنما أباح الكلام ، وأظهر المقالات ، فمن قال بالحق حمده ، ومن جهل ذلك وقفه ، ومن جهل الأمرين حكم فيه بما يجب .

غير أنه لم يصل في مجامع مناظراته إلى ما رمى إليه فلم ير بدًّا من الاستعانة بسلطانه في إقامة الدين ، ولا سيما في خلق القرآن و إحداثه ، فعزم على أن لا يستعين في عمله ولا يثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده و يقينه .

وأدّى الأمر في هذا كله إلى أن الذي كان لا يقول بخلق القرآن يشد في الحديد ، ولما حضرته الوفاة تقدم إلى أخيه المعتصم في أن يبني على أصوله في مناظرة القوم في خلق القرآن ، فكان المعتصم يجمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة لأمثال هذه المناظرات وكان يقول في بعضها :

« ما شيء أحب إليّ من الستر ولا شيء أولى بي من الأناة والرفق ، وكان يقول لمناظره : لأن أستحييك بحق أحب إليّ من أن أقتلك بحق [٢] » .

إلا أن من خالفه كان يلقى الضرب والتعذيب ، وكذلك الواثق ، فإنه سار سيرة أبيه المعتصم وعمه المأمون في المناظرة في خلق القرآن ، فمن خالفه في رأيه قتله ، حتى جاء المتوكل فترك الناس وشأنهم .

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤١ .
(٢) هامش الكامل — رسائل الجاحظ — الجزء الثاني ١٣٤ .

فإلى هذه الحرية أشار الجاحظ في قوله : وقد أمكن القول، وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية ، وأخذ من بعد هذا يستنهض العلماء لإظهار ما عندهم ، وللقيام بما يلزمهم وكان هو نفسه يظهر ما عنده غير مبال بالجمهور .

فلنضرب مثلا لحرية فكره في التفسير وقد خرج عما يعتقده الجمهور ، قال[١] :

« وقد قال الناس في قوله تعالى : (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين) ، فزعم الناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن ، لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا : ما عنى إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم ، فقال أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ، ولا وصف لنا صورته بكتاب ناطق ، أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة ، والتفزيع منها ، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون إنسان كذلك والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، أو صوره لهم واصف صدوق اللسان ، بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق ، وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعايش أهل الكتابين وحملة القرآن من المسلمين ، ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ، ولا يقفون عليه ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً ؟ قلنا : وإن كنا نحن لم نر شيطاناً ، ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده ، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين ، أحدهما أن يقولوا : لهو أقبح من الشيطان ، والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطاناً على جهة التطير له ، كما تسمى الفرس الكريمة ، شوهاء ، والمرأة الجميلة صماء ، وقرناء ، وخنساء ، وجرباء ، وأشباه ذلك على وجهة التطير له ، ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح ، والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين ثبت في طبائعهم بغاية التثبيت ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٦٤ .

وكما يقولون لهو أقبح من السحر ، فكذلك يقولون كما قال عمر بن عبد العزيز لبعض من أحسن الكلام في طلب حاجته : هذا والله السحر الحلال ، وكذلك أيضاً ربما قالوا : ما فلان إلا شيطان على معنى الشهامة ، والنفاذ وما أشبه ذلك » .

وقد بلغ من هذه الحرية أن المجوس أنفسهم كانوا يعارضون علماء المسلمين ، من هذه المعارضات ما رواه الجاحظ ، لقد قال[١] :

« وقد عارضني بعض المجوس وقال : فلعل أيضاً صاحبكم إنما توعد أصحابه بالنار ، لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج ، ولا دمَق ، وإنما هي ناحية الحرور والوهج والسموم ، لأن ذلك المكروه أزجر لهم . فرأى هذا المجوسي أنه قد عارضني ، فقلت له : إن أكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف ، وشدة البرد في الشتاء ، لأنها بلاد صخور وجبال ، والصخر يقبل الحر والبرد ، ولذلك سمت الفرس بالفارسية العرب والأعراب : كهيان ، والكه بالفارسية هو الجبل ، فمتى أحببت أن تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء ، وحرها في الصيف ، فانظر في أشعارهم ، وكيف قسموا ذلك ، وكيف وضعوه ، لتعرف أن الحالتين سواء عندهم في الشدة ، والبلاد ليس يشتد بردها على كثرة الثلج وقلته ، فقد تكون بلدة أبرد ، وثلجها أقل ، والماء ليس يجمد للبرد فقط ، فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر ، وقد تكون الليلة باردة جدًّا ، وتكون متغيرة ، فلا يجمد الماء ويجمد فيما هو أقل منها برداً ، وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنون ، وقد خبرني من لا أرتاب بخبره أنهم كانوا في موضع من الجبل يستغشون به بلبس المبطنات ، ومتى صبوا ماء في إناء زجاج ووضعوه تحت السماء جمد من ساعته ، فليس جمود الماء بالبرد فقط ، ولا بد من شروط ، ومقادير ، واختلاف جواهر ، ومقابلات أحوال ، كسرعة البرد في بعض الأدهان ، وإبطائه عن بعض ، وكاختلاف عمله في الماء المغلي ، وفي الماء المتروك على حاله ، وكاختلاف عمله في الماء والنبيذ ، كما

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٣٥ .

يعتري البول من الخثورة والجمود ، على قدر طبائع الطعام والقلة ، والزيت خاصة يصيبه المقدار القليل من النار فيستحيل من الحرارة إلى مقدار لا يستحيل إليه ما هو أحر ، وحجة أخرى على المجوس وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان قال : لم أبعث إلا إلى أهل مكة لكان له متعلق من جهة هذه المعارضة ، فأما وأصل نبوته والذي عليه مخرج أمره ، وابتداء مبعثه إلى ساعة وفاته ، أنه المبعوث إلى الأحمر والأسود وإلى الناس كافة ، وقد قال الله تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) ، وقد قال تعالى : (نذيراً للبشر) ، فلم يبق أن يكون مع ذلك قولهم معارضة وأن يعد من باب الموازنة » .

* * *

هذه أول صفة من صفات عصر الجاحظ وهي : حرية الفكر ، وقد مثل الجاحظ هذه الحرية أحسن تمثيل ، سواء أكان في علمه ، أم كان في دينه ، أم كان في أدبه نفسه ، فقد استعمل حرية عقله في تحقيقه العلمى ، وظهرت آثار هذا الاستعمال على نقدة وعلى شكه وعلى حججه ، فكانت طريقته في العلم طريقة «باكون» و«ديكارت» وسيتبين هذا كله في كلامنا على تحقيقه العلمى .

وكذلك أمره في الدين ، وحسبنا أن تعرف إنه معتزلي ، والاعتزال في الإسلام إنما جوهره حرية التفكير ، فلم يتقيد في تفسير آية ، أو في تأويل حديث ، بقيد من القيود ، وإنما مرجعه في هذا التفسير ، وهذا التأويل إلى عقله وحده .

ولقد لجأ إلى الحرية في مذاهب الفن نفسها ، فكان في أدبه ، وفي لغته ، وفي أسلوبه ، كثير من المسامحة والانطلاق ، وإني لأجتزئ في مثل هذا المقام بالإشارة إلى هذا كله على أن أرجع إلى التوسع فيه في الفصول الآتية ، فإذا كان لحرية الفكر فى عصر الجاحظ صورة فالجاحظ صورة هذه الحرية .

٢

الزندقة

هذا شيء من حرية الفكر التي أشار إليها الجاحظ في عصره ، إلا أنها حرية لم يتراخ أمدُها وقد خالطتها الشدة في خاتمة الأمر ، فكانت المناظرات في مجالس الخلفاء لا تخلو من ضرب المخالفين لآراء الجمهور ، وتعذيبهم ، وقتلهم ، إلا أنه كيف كان الأمر فقد أتى على علماء المسلمين حين من الدهر كانوا فيه يعالنون بمعتقداتهم دون أن يخافوا صولة السلطان ، وقد كان غير المسلمين من المجوس وأضرابهم يعارضون هؤلاء العلماء في أُمور متعلقها الدينُ من غير أن يتجهَّمهم أحد بما يكرهون ، وكان لأهل الكتاب من نصارى ويهود حرمة تختلف على اختلافهم في جلالة القدر قبل الإسلام وبعده ، فكانت النصارى أحبَّ إلى المسلمين من غيرهم وأقربَ مودةً ، وقد فصَّل لنا الجاحظ أسباب هذه المحبة ، وقرب هذه المودة ، فقال :(١)

« جاء الإسلام وملوك العرب رجلان : غساني ولخمي وهما نصرانيان ، وقد كانت العرب تدين لهما وتؤدي الإتاوة إليهما ، فكأن تعظيم قلوبهم لهما راجع إلى تعظيم دينهما ، وكانت تهامه وإن كانت لَقاحاً لا تدين ولا تؤدي الإتاوة ولا تدين الملوك ، إلا أنها كانت لا تمتنع من تعظيم ما عظم الناس ، وتصغير ما صغروا ، ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب ، معروفة عند أهل النسب ، ولولا ذلك لدللتُ عليها بالأشعار المعروفة ، والأخبار الصحيحة ، وقد كانت تتجر إلى الشام ، وتنفذ رجالها إلى ملوك الروم ، ولها رحلة في الشتاء والصيف في تجارة ، مرة إلى اليمن ، ومرة قبل الشام ، ومصيفها بالطائف ، فكانوا أصحاب نعمة ، وذلك مشهور مذكور في القرآن وعند أهل المعرفة ، وقد كانت تهاجر إلى الحبشة وتأتي باب

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ١٦٢ .

النجاشي وافدةً ، فيحبوهم بالجزيل ، ويعرف لهم الأقدار ، ولم يكن يعرف ذلك كسرى ولا يأنس بهم ، وقيصر والنجاشي نصرانيان ، فكان ذلك أيضاً للنصارى دون اليهود ، والآخر من الناس تبع للأول في تعظيم من عظَّم وتصغير من صغَّر .

وأُخرى وهي أن العرب كانت النصرانية فيها فاشيةً ، وعليها غالبةً ، إلا مضر فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تفش فيها النصرانية ، إلا من كان قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العِبَاد ، فإنهم كانوا نصارى ، وهم مغمورون مع نبذ يسير في بعض القبائل ، ولم تعرف مضر إلا دين العرب ، ثم الإسلام ، وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها ، على لخم ، وغسان ، والحارث بن كعب بنجران ، وقضاعة ، وطي ، في قبائل كثيرة ، وأحياء معروفة ، ثم ظهرت ربيعة فغلبت على تغلب ، وعبد القيس ، وأحياء بكر ، ثم في آل ذي النجدَّين خاصة ، وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة ، إلا ما كان من ناس من اليمانية ، ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة ، ومعظم اليهودية إنما كان بيثرب ، وحمير ، وتيماء ، ووادي القرى ، وفي ولد هارون دون العرب ، فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى الملكُ الذي كان فيهم ، والقرابة التي كانت لهم » .

هذه طائفة من الأسباب التي من أجلها كانت النصرانية أرفع منزلةً من اليهودية في عيون المسلمين ، وأظهر هذه الأسباب الملك الذي نشأ للنصارى قبل الإسلام ، أما اليهود فلم تلن قلوب المسلمين لهم لينها للنصارى ، ولنرجع إلى الجاحظ في معرفة العلل التي غلظت قلوب المسلمين على اليهود ، قال أبو عثمان :(١)

« إن اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها ، وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الأقارب في شدة التمكن وثبات الحقد ، وإنما يعادي الإنسان من يعرف ، ويميل على من يرى ، ويناقض من يشاكل ، ويبدو له عيوب من يخالط ، وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد ، ولذلك كانت حروب الجيران وبني الأعمام في سائر

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ١٥٩ .

الناس وسائر العرب أطول ، وعداوتهم أشد ، فلما صار المهاجرون لليهود جيراناً ، وقد كانت الأنصار متقدمة الجوار ، مشاركة في الدار ، حسدتهم اليهود على نعمة الدين ، والاجتماع بعد الافتراق ، والتواصل بعد التقاطع ، وشبهوا على العوام ، واستمالوا الضعفاء ، ومالئوا الأعداء والحسدة ، ثم جاوزوا الطعن و إدخال الشبهة إلى المناجزة ، والمنابذة بالعداوة ، فجمعوا كيدهم ، و بذلوا أنفسهم وأموالهم في قتالهم ، و إخراجهم من ديارهم ، وطال ذلك واستفاض فيهم ، وظهر وترادف لذلك الغيظ ، وتضاعف البغض، وتمكن الحقد ، وكانت النصارى لبعد ديارهم من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ومهاجره ، لا يتكلفون طعناً ، ولا يثيرون كيداً ، ولا يجمعون على حرب ، فكان هذا أول أسباب ما غلَّظ القلوب على اليهود ، وليَّنها على النصارى ، ثم كان من أمر المهاجرين إلى الحبشة ، واعتمادهم على تلك الجهة ، ما حببهم إلى عوام المسلمين ، وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم ، و بقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود ، ومن شأن الناس حب من اصطنع إليهم خيراً ، أو جرى على يديه » .

هذا ما كان من مقدار نظر المسلمين إلى أهل الكتاب ، ولما كان المسلمون على النصارى أعطف ، و إليهم أميل ، كان للنصارى شيء من الميزة ظهرت في مراكبهم وملابسهم وصناعاتهم ، قال الجاحظ في كلامه عليهم :(١)

« اتخذوا البراذين الشِهْرية ، والخيل العتاق ، واتخذوا الجوقات ، وضربوا بالصوالجة وتحدقوا المديني ، ولبسوا الملحم والمطبقة ، واتخذوا الشاكرية ، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي وا كتنوا بذلك أجمع . . . فرغب إليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير ، وعقدها آخرون دون ثيابهم ، وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية وأنفوا ، مع اقتدارهم من دفعها ، وسبوا من سبهم ، وضربوا من ضربهم ، ومالهم لا يفعلون ذلك وأ كثر منه ، وقضاتنا وعامتهم يرون

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثانى ص١٧٠ .

أن دم الجاثليق والمطران والأسقف وفاء بدم جعفر وعلي والعباس وحمزة » .

وقد كان منهم كتّاب السلاطين ، وفرّاش الملوك ، وأطباء الأشراف ، ولم يكن اليهودي إلا صباغاً أو دباغاً أو حجاما أو قصاباً أو شعاباً»[١] .

و بلغ من استصغار شأن اليهود أن الصبيان كانوا يصيحون بالفهد إذا رأوه : يهودي ، وكانت العامة تزعم أن الفأرة كانت يهودية سحّارة ، والأرضة يهودية أيضاً عندهم ، والضب يهودي ، حتى قال بعض القصاص لرجل أكل ضباً : اعلم أنك أكلت شيخاً من بني إسرائيل !

وبلغ من إجلالهم للنصرانيـة أنهم كانوا لايضيفون إليها شيئاً من السباع والحشرات[٢] » .

٭٭٭

إلى أي شيء أدّت حرية الفكر التي لمّح إليها الجاحظ .

من جملة عواقب هذه الحرية استفاضة الزندقة في جمهور المسلمين وكثرة الفرق ، وكما نبهّنا الجاحظ على إمكان القول في عصره فكذلك نبهنا على نتائج إمكان هذا القول ، فلئن حمد دهره في مبدإ الأمر فما لبث أن ذمه حتى قال[٣] :

« وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة ، والتثبت عند الحكومة جانباً ، وأعرضوا عنه صفحاً ، فليس إلا : لا أو نعم ، إلا أن قولهم : لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم : نعم ، موصولٌ منهم بالرضا ، وقد عزلت الحرية جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن ، قال عمرو بن الحارث : كنا نبغض من الرجال ذا الرياء والنفخ ونحن اليوم نتمناهما » .

وإذا أردنا أن نعرف كيف استفاضت الزندقة في عصر الجاحظ ، فلنرجع إلى الجاحظ نفسه ، فقد كشف لنا ناحيةً من استفاضتها ، فقال في أثناء كلامه على

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ١٦٩ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٦٢ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٣ .

فريق من أهل الكتاب[١] :

« يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالإسناد من روايتنا ، والمتشابه من آي كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ، وحتى مع ذلك ربما تبرؤا إلى علمائنا ، وأهل الأقدار منا ، ويشغبون على القوي ، ويلبسون على الضعيف ، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد ، وبعد فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجّاننا وأحداثنا شيء من كتب المانية والدّيصانية والمرقوبية والفلانية ، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ، مخبأة في أيدي ورثتها ، فكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قولهم كان أولها » .

والظاهر أن تزندق القوم بالعراق كان فاشياً بين المسلمين غير العرب ، فقد روى الأصمعي عن الخليل بن أحمد عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية[٢] .

إلا أن السلطان لم يغفل عن معاقبة الزنادقة فكان منهم من يهرب من وجه السلطان ، ومنهم من يقتل ، ومنهم من يستر زندقته ، حتى ينجو من الشر ، فقد قال الجاحظ[٣] :

« والزنادقة لم تكن قط أمة ، ولا كان لها ملك ومملكة ، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق » .

وقد شاعت الزندقة في طبقات الأدباء ، وظهرت على أشعارهم آثارها .

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ١٧٤ .

(٢) طبقات الأدباء للأنباري — ص ٣١ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٣٨ .

فمن الذين اتهموا بالزندقة حماد الراوية ، فقد عرَّض به حماد بن الزبرقان، قال[١] :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه ... ويقيم وقت صلاته حماد
هدلت مشافره الدنان فأنفه ... مثل القدوم يسنها الحداد
وابيضَّ من شرب المدامة وجهه ... فبياضه يوم الحساب سواد

ومنهم ناس ذكرهم حمَّاد عجرد في هجائه لبشار ، فقال[٢] :

لو كنت زنديقاً عُمَار حبوتني ... أو كنت أعبد غير رب محمد
أو كنت عندك أو تراك عرفتني ... كالنضر أو أُلفيت كابن المقعد
أو كابن حماد ربيئة دينكم ... جبل وما جبل القوي بمرشد
لكنني وحَّدت ربي مخلصًا ... فجفوتني بغضًا لكل موحِّد
وحبوت من زعم السماء تكونت ... والأرضَ خالقها لها لم يمهد
والنَّسْمَ مثل الزرع آنَ حصاده ... منه الحصيد ومنه ما لم يحصد

قال الجاحظ : « وحمَّاد هذا أشهر بالزندقة من عمارة بن حربية الذي هجاه بهذه الأبيات، وأما قوله : وحبوت من زعم السماء تكوّنت ... البيت ، فليس يقول أحد إن الفلك بما فيه من التدبير تكوّن بنفسه ومن نفسه » .

ومنهم يونس بن فروة وفي يونس يقول حمَّاد عجرد :[٣]

ما الناس عندك غير نفسك وحدها ... والخلق عندك ما خلاك بهائم
إن الذي أصبحت مفتوناً به ... سيزول عنك وأنف جارك راغم
فتعض من ندم يديك على الذي ... فرطت فيه كما يعض النادم
فلقد رضيت بعصبة آخيتهم ... وإخاؤهُم لك بالمعرة لازم
فعلمت حين جعلتهم لك دَخْلةً ... أني لعرضك في إخائك ظالم

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤٢ .
(٢) « « « « ١٤٢ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤٣ .

« وكان حمّاد عجرد وحمّاد الراوية وحماد بن الزبرقان ويونس بن هارون وعلي بن الخليل ويزيد بن الفيض وعبادة وجميل بن محفوظ وقاسم ومطيع ووالبة بن الحباب وأبان بن عبد الحميد وعمارة بن حربية يتواصلون وكأنهم نفس واحدة ، وكان بشار ينكر عليهم ، ويونس الذي زعم حماد عجرد أنه قد غرّ نفسه بهؤلاء كان أشهر بهذا الرأي منهم ، وقد كان كتب كتاباً لملك الروم في مثالب العرب وعيوب الإسلام بزعمه[(١)] » .

« وذكر أبونواس أبان بن عبد الحميد اللاحقي وبعض هؤلاء ذكرَ إنسان يرى لهم قدراً وخطراً ، في هجائه لأبان وهو قوله :

جالست يوماً أبانا ... لا درّ درّ أبانِ
ونحن حضر رواق الـ ... أمـير بالنهروان
حتى إذا ما صلاة الـ ... أولى دنت لأوان
فقام ثم بها ذو ... فصاحـة وبيـان
فكل ما قال قلنـا ... إلى انقضاء الآذان
فقال : كيف شهدتم ... بذا بغير عيـان
لا أشهد الدهر حتى ... تعاين العينـان
فقلت : سبحان ربي ... فقال : سبحان ماني
فقلت : عيسى رسول ... فقال من شيطان
فقلت : موسى كليم الـ ... مهيمن المنّـان
فقال : ربك ذو مقـالة ... إذاً ولسان
فنفسه خلقتـه ... أم من ، فقمت مكاني
عن كافر يتمرّى ... بالكفر بالرحمن
يريد أن يتسوّى ... بالعصبـة المجّان

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤٣ .

بعجرد وعُبَـــاد والوالبي الهجان
وقاسم ومطيـع ريحانة الندمان

وتعجبي من أبي نواس وقد كان جالس المتكلمين أشدّ من تعجبي من حماد حين يحكي عن قوم من هؤلاء قولاً لا يقوله أحد ، وهذه قرة عين المهجو، والذي يقول : سبحان ماني ، يعظم أمر عيسى تعظيماً شديداً ، فكيف يقول إنه من قبل شيطان ، وأما قوله : فنفسه خلقته أم من ، فإن هذه المسألة نجدها ظاهرة على ألسن العوام ، والمتكلمون لا يحكون هذا عن أحد ، وفي قوله : والوالبي الهجان دليل على أنه من شكلهم ، والعجب أنه يقول في أبان أنه ممن يتشبه بعجرد ومطيع ووالبة بن الحباب وعلي بن الخليل وأصبغ ! وأبان فوق ملء الأرض من هؤلاء ولقد كان أبان وهو سكران أصح عقلاً من هؤلاء وهم صحاة ، فأما اعتقاده فلا أدري ما أقول فيه لأن الناس لم يؤتوا في اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظر ، ولكن للناس تأسٍّ وعادات ، وتقليد للآباء والكبراء و يعملون على الهوى وعلى ما يسبق إلى القلوب ، و يستثقلون التحصيل ، و يهملون النظر حتى يصيروا في حال متى عاودوه وأرادوه ، ونظروا بأبصار كليلة ، وأذهان مدخولة ، ومع سوء عادة ، والنفس لا تجيب وهي مستكرهة ، وكان يقال : الطفل إذا كره عمي، ومتى عمي الطباع وجسا وغلظ وأهمل حتى يألف الجهل ، ولم يكد يفهم ما عليه وله ، فلهذا وأشباهه قاموا على الإلف والسابق إلى القلب » .

ومن الذين اتهموا بالزندقة أبو نواس ، فقد كان يتعرض للقتل بجهده ، وقد كانوا يعجبون من قوله :

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره

فلما قال :

فأحبب قريشاً لحبّ أحدهما واشكر لها الجزل من مواهبها

جاء بشيء غطى على الأول . وأنكروا عليه قوله :

لو أكثر التسبيح ما نجّاه

فلما قال :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة ‏ ‏ قم سيدي نعص جبار السموات

غطى هـذا على الأول ، وهذا البيت مع كفره مقيت جدًّا ، وكان يكثر في هذا الباب »[١] .

وأكثر من قتل في الزندقـة من كان ينتحل الإسلام ويظهره ، هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى[٢] .

وقد صحب هذه الزندقة وهذا الكفر شتات المسلمين ، وكثرة الفرق ، فبعد أن كانوا يجمعهم نظام واحد ، ودين واحـد ، لا يعرفون غير الكتاب والسنة ، اختلفت كلمتهم حتى أصبح الإنسان يحار في كثرة الفرق ما بين حديثي ومعتزلي وشيعي وزيدي ورافضي وبكرية وجبرية وفضلية وشمرية ومرجئة وعثماني وخارجي وإباضية ونابتة وحشوية وغالية وسميطية وكميلية وسبلية وديصانية وجهمية وصوفيـة وناجية وصفرية والأزارقة ، فضلاً عن المارقة والمنانية والدهرية وأشباهها .

ولا بأس بأن أذكر نبذاً من معتقدات الزنادقة مما أورده الجاحظ في كتبه .

فالمنانية[٣] تزعم أن العالم بمافيه من عشرة أجناس ، خمسة منها خير ونور ، وخمسة منها شر وظلمة ، وكلها حاسة وحارة ، وأن الإنسان مركب من جميعها على قدر ما يكون في كل إنسان من رجحان أجناس الخير على أجناس الشر ، ورجحان الشر على أجناس الخير وأن الإنسان وإن كان ذا حواس خمسة فإن في كل حاسة فنوناً من ضده من الأجناس الخمسة ، فمتى نظر الإنسان نظرة رحمة فتلك النظرة من

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ١٤٥ .
(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ١٦٩ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤١ .

النور ومن الخير ، ومتى نظر نظرة وعيد فتلك النظرة من الظلمة ، وكذلك جميع الحواس . وأن حاسة السمع جنس على حدة ، وأن الذي فى حاسة البصر من الخير والنور لا يعين الذي في حاسة السمع من الخير ، ولكنه لا يضادّه ، ولا يفاسده ، ولا يمنعه ، فهو لا يعنيه لمكان الخلاف والجنس ، ولا يعين عليه لأنه ليس ضدًّا ، وأن أجناس الشر خلاف لأجناس الشر ضد لأجناس الخير ، وأجناس الخير يخالف بعضها بعضاً ، ولا يضاد ، وأن التعاون والتآدي لا يقع بين مختلفها ولا بين متضادها وإنما يقع بين متفقها .

والدهري[١] ليس يرى أن فى الأرض ديناً أو نحلة أو شريعة أو ملة ، ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه ، ولا للحرام نهاية ، ولا يعرفه ، ولا يتوقع العقاب على الإساءة ، ولا يترجّى الثواب على الإحسان ، وإنما الصواب عنده ، والحق فى حكمه أنه والبهيمية سيان ، وأنه والسبع سيان ، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه ، وأن مدار الأمر على الإخفاق والدرك ، وعلى اللذة والألم ، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة ، وإن قتل ألف إنسان صالح لمنالة الدرهم الرديء .

وقال فى موطن آخر[١] :

« فإن كان الدهري يريد من أصحاب العبادات والرسل ما يريد من الدهري الصرف الذي لا يقر إلا بما أوجده العيان ، وما يجري مجرى العيان ، فقد ظلم ، وقد علم الدهري أن لنا رباًّ يخترع الأجسام اختراعاً ، وأنه حي لا بحياة ، وعالم لا بعلم ، وأنه شيء لا ينقسم ، وليس بذي طول ولا عرض ولا عمق ، وأن الأنبياء تحيي الموتى وهذا كله عند الدهري مستنكر » .

وأما الديصانية فقد زعمت ، على ما قال أبو إسحق النظام ، أن أصل العالم إنما أول ماء جاء من الأصول هو من ضياء وظلام ، وأن الحر والبرد واللون والطعم والصوت

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٦ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣٢ .

والرائحة إنما هي نتائج على قدر امتزاجها[١] .

هـذه خلاصة الكلام على الزندقة التي أدت إليها استفاضة الحرية في عصر الجاحظ ، وكما كان الجاحظ صورة عصره في تمثيل الحرية فلقد كان صورة هذا العصر في تمثيل نتائج هـذه الحرية ، فلم يغفل عن التنبيه على موت ذكر الحلال والحرام في أيامه ، ولا غفل عن ذكر الذين كانوا السبب في شيوع كتب الزنادقة في المسلمين ، ولقد أشار إلى ظهور آثار هذه الزندقة على الأدب فى أيامه ، وتكلم على طائفة من معتقدات الزنادقة ، فالجاحظ كان متصلا بعصره من كل أفق من آفاق هذا العصر .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٧ .

٣

الانقلاب الفكري

بقي علينا الكلام على الناحية العجيبة من نواحي عصر الجاحظ ، أي على ناحية استفاضة العلم ، لقد جاءت العربية من هذه الجهة ببرهان بليغ على صلاحها للحياة ، وعلى استعدادها لقبول ما يندمج فيها من صور الفن والعلم ، وأعجب من هـذا كله استعداد العرب للدخول في كل طور من أطوار الحياة ، ولا شك في أن التطور من علامات الحياة ، ففي أسرع من رد الطَرْف نقل معاوية الملك من شكل إلى شكل ، فبعد أن كان هذا الملك مصبوغاً بصباغ بدوي ، صبغه بصباغ حضري ، كلنا نعلم رغبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الخشونة سواء أكانت هذه الخشونة في الملابس أم في المآكل ، أم في المراكب ، ولكن معاوية لما كان عاملاً لعمر على الشام تلوّن بألوان البيئة ، أي بيئة الشام ، فما لبث أن فخّم ملكه على نحو تفخيم الروم ، فقد ذكر صاحب العقد الفريد أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام ، قدم على حمار ، ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار ، فتلقاهما معاوية في موكب ثقيل ، فجاوز عمر حتى أُخبر ، فرجع إليه ، فلما قرب منه نزل إليه ، فأعرض عنه فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ، فأقبل عليه عمر ، فقال : يا معاوية ، أنت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : ولمَ ذاك ؟ قال : لأنا في بلد لا نمتنع فيه من جواسيس العدو ، ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان ، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتني عنه انتهيت ، فقال : لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأي أريب ، وإن كان باطلاً فإنها خدعة أديب ، وما آمرك به ولا أنهاك عنه ، فقال عبد الرحمن بن عوف : لحَسَنٌ ما صدر هـذا الفتى عما أوردته فيه ، فقال : لحسن

موارده جشمناه ما جشمناه[١] » .

ففي زمن غير طويل رتّب معاوية الملك في الإسلام ، وفي زمن غير طويل أدخلت طائفة من خلفاء بني العباس ميراثنا الأدبي فى باب لم يدخله من قبل ، حتى رفل ملك العرب وأدبهم فى برد قشيب ، فى قرن أو قرنين ، وما هو قرن و بعض قرن فى استيقاظ الأمم .

كان الأدب قبل بني العباس على حسب ما تناهى إلينا من آثاره لا يحيط إلا بأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم وخطبهم وملحهم ونوادرهم وغرائبهم وما شاكل هذه الأمور ، فكان فيه شيء من الشعور والعاطفة ، و إنما كان يعوزه التبسط فى مذاهب الفكر كالفلسفة والرياضيات والسياسة والتوحيد والطب وأشباه ذلك ، فلما جاء أبو جعفر المنصور شرع يحيى بن البطريق وابن جبرائيل الطبيب وابن المقفع وابن ماسويه وسلاّم الأبرش و باسيل المطران فى الترجمة ، فنقلوا إلى العربية بعض كتب المنطق والطب ، ولما جاء المأمون اندفق يوحنا بن البطريق والحجاج بن مطر وقسطا بن لوقا البعلبكي وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي وحنين بن إسحق و إسحق بن حنين فى نقل الآثار ، فترجموا كتب بقراط وجالينوس وأرسطاطاليس وأفلاطون .

وقد كان الجاحظ يرقب كل حركة من حركات عصره ، فلم يغفل عن شيء مما كان يجري فى أيامه ، فكأنه صورة ناطقة تفصح لنا عن أحوال عصره ، فقد أشار إلى التجديد إشارة خفية فقال :[٢]

وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونانية ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً ، و بعضها ما انتقص شيئاً . . . وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن لسان إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها » .

---

(١) العقد الفريد — الجزء الأول ص ٧ . (٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٣٨ .

وكما أنه لم يغفل عن التلميح إلى النقل فكذلك لم يغفل عن التلميح إلى الآثار المنقولة ، فأشار إلى كتب إقليدس وجالينوس والمجسطي مما تولاه الحجاج ، وأشار إلى ما في أيدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة وأبواب الأصباغ والعطر والأطعمة والآلات [١] ، وأشار إلى كتاب الكون والفساد ، وكتاب العدوى لأرسطاطاليس ، وإلى كتب ديمقرط وأبقراط وأفلاطون وفلان وفلان وهؤلاء ناس من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم وهم اليونانيون [٢] .

ولقد كان يحذر كذب التراجمة وزياداتهم ، وجهل المترجم بنقل لغة إلى لغة [٣] فمن حذره هذا يتبين لنا وجه من وجوه الترجمة في عصره ، وهذا بعض ما جاء في بعض كتبه من هذا المعنى [٤] :

« ثم قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له : إن الترجمان لا يؤدي أبداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدى الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ، ويجب على الجري ، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها ، والإخبار عنها على حقها وصدقها إلا أن يكون في العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه ، فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وأبو قرة [٥] وابن فهر وابن وهيلي وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ومتى كان خالد مثل أفلاطون ؟ ! ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٠ .
(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ١٦٧ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء السادس — ص ٩٠ .
(٤) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٣٨ .
(٥) هكذا وردت ولعلها ابن قرة .

في وزن علمه في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية ، ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها ، وتعترض عليها ، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ، وإنما له قوة واحدة ، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق والعلماء به أقل كان أشد على المترجم ، وأجدر أن يخطئ فيه ، ولن تجد البتة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء ، هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون ، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين . . . » .

هذا ما أبقاه لنا الجاحظ من آثار الإشارة إلى الترجمة ، وإلى الكتب المترجمة ، وإلى التراجمة ، وإلى آداب الترجمة في عصره . وإن هذه الآثار على قلتها لتستطيع أن تصوّر لنا ناحية من نواحي الحياة التى عاشتها العربية في ذاك العصر ، فندرك أن العربية خرجت من شكل إلى شكل بدخول عناصر فيها لم يكن لها عهد بأمثالها من قبل .

لا شك في أن الكلام على النقل ، وعلى الكتب المنقولة في عصر الجاحظ ، يطول مداه ، فمن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى الفهرست لابن النديم ، وإلى طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، وإلى أخبار الحكماء للقفطي ، ولكن كيف كان الأمر لا نجد لنا مندوحة عن الإيجاز في الكلام على هذه الناحية الجديدة من نواحي ميراثنا الأدبي التى طبع بها هذا الميراث بطابع خاص ، ظهرت آثاره على الفكر العربي ، حتى مزجوا الأدب والدين بالعلم ، فلبس الأدب بهذا المزج لباساً لم يكن له في ماضيه .

وقبل الكلام على النقل من اليونانية وغيرها من اللغات لا بأس بالإشارة إلى أن

الجاحظ قد عاش في عصر تمّ فيه اختلاط العرب ببعض الأعاجم ، فقد اتصلت بأهل هذا العصر أخبار فريق من الأعاجم كالصقالبة والترك والروم والهند وفارس والحبشان والنوبة وأصناف السودان ، وتناهت إليهم أخبار الأكاسرة ، وعرفوا كثيراً من صفات نساء الروم وفارس والهند ، واستجلبوا العبيد من السند ، واشتروا الغلمان للطبخ ، وربما سموا بعض سككهم بأسماء الأعاجم فقالو : سكة أصطفانوس وربما سمعنا أسماء غير عربية ، مثل طيمانو ومنويل وسموعين ونوفيل وميخائيل وغير ذلك ، وقد خالط بعض اليونانيين العرب في أمصارهم ، فعرف العرب طائفة من نوادرهم .

***

استفاضت الروح اليونانية في آفاق آسية بعد فتوح الإسكندر فأصبحت الإسكندرية زمناً غير قصير ملجأ يلجأ إليه أهل العلم والبحث وأشباه هذه الطبقات من الرجال الذين أبعد غاياتهم تثقيف عقولهم ، وترويض أذهانهم ، وعلى الرغم من العوارض التي عرضت لدور الكتب فأدخلت الضيم عليها ، بقيت طائفة من التصانيف مستفيضة في الناس تدل على أن فكر المتقدمين لا يزال حيًّا .

وقد كانت بلاد الشام والعراق داخلة في حضارة يونانية ، فكانوا في ديارات الرهبان السريانين ينقلون من اليونانية إلى السريانية في أحقاب متطاولة كتب فلسفة اليونانيين وعلومهم . أما تراجمة العرب فقد كانوا في عصر الترجمة يعمدون إلى الكتب السريانية فينقلونها إلى العربية .

وقد كان المجمع العلمي الذي أنشأه كسرى الأول سنة ٣٥٠ في جندي سابور ينشر في الشرق علوم اليونانيين ، ويثبّت رغبة القوم في ذوق الفلسفة والطب .

وبقيت مدينة حرّان في بلاد ما بين النهرين وثنية ، فاجتمع آلهة اليونانيين وآلهة رومة إلى آلهة الساميين القديمة ، وكانت حرّان أيضاً في القرون الوسطى ناحية حضارة يونانية ، فكان أهلها ينصرفون خاصة إلى الرياضيات وإلى علم الفلك .

من هذا كله يتضح لنا أن الثقافة اليونانية هي التي فعلت فعلتها في ميراثنا الأدبي، وأريد بهذا أن العرب وجدوا في آفاقهم في أول يقظتهم مستودعاً لآثار عقول اليونانيين فاستخرجوا من هذا المستودع ما قدروا عليه .

لا ريب في أن نقل هذه الآثار قد شرع فيه القوم على زمن المنصور وإنما المأمون هو أول خليفة في الإسلام كانت له جلائل الآثار في استيقاظ العقول من رقدتها، فقد أنشأ في بغداد بيت الحكمة، وهو أشبه شيء بجامعات هذا العصر، وجعل لها دار كتب، ورصد فلك، فنقلت على أيامه كتب من السريانية إلى العربية، كانت في الأصل منقولة عن اليونانية، فزادت هذه الكتب في أدبنا النامي الأصول، المختلف الأشكال .

نعم، نهض المأمون بالمسلمين نهضة لم يقتصر فضلها على العرب وحدهم، وإنما انتقلت أصداؤها إلى آفاق أوروبة الراقدة، فاستفاقت أوروبة من نومها بفضل الأندلس، وتلك الأيام نداولها بين الناس .

وأظن أن الخوض في ما نقل من الكتب إلى العربية يمتد بنا مداه، وإنما أجتزئ بالإشارة إلى العلوم التي دخلت العربية حتى نعرف طبيعة الطابع الذي طبعت به ثقافتنا، فقد نقل العرب كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وبقراط وجالينوس وإقليدس وأرخميدس وبطليموس، وهي في موضوعات شتى ؛ في السياسة والتوحيد والمنطق والشعر والخطابة والأخلاق والطب والرياضيات والنجوم وأضراب ذلك .

وكان منهم من يذهب إلى بلاد الروم فيتعلم اليونانية كحنين بن إسحق، وهو ابن صيدلاني نصراني من الحيرة، فقد سافر إلى آسية الوسطى، وتعلم اليونانية، وعاد إلى بغداد، فكان طبيبا للمتوكل، وكتب في الطب والفلسفة

أنشأت قراءة كتب أرسطاطاليس رغبة في الفلسفة، فكانت الفلسفة في المسلمين

فاشية في طبقات قليلة من جمهرة المفكرين والعلماء ، أي لم تستفض في طبقات العامة ، إلا أن رجال الفكر انصرفوا إليها بمجامعهم .

وقد طبقوا الفلسفة على السياسة ، فمن أقدم المؤلفات السياسية التي تشتمل على بعض نظرات فلسفية كتاب « سلوك المالك في تدبير الممالك » لصاحبه شهاب الدين بن أبي ربيع ، وضعه على أيام المعتصم ، ومنه نسخة في باريز وقد طبع في مصر .

ومشت الرياضيات إلى جنب الفلسفة ، فنقل العرب الهندسة إلى لغتهم من كتب اليونانيين ، ولا سيما كتب إقليدس ، وربما أخذوا الحساب عن الهند .

أقدم العلماء الرياضيين من العرب إنما هو الخوارزمي الذي كان على زمن المأمون ، فقد طلب إليه المأمون أن يؤلف خلاصة الكتاب الهندي « سدهاند » ونقلت كتبه في الجبر والحساب إلى اللاتينية ، واستفاضت في أوروبة ، ومن الخوارزمي اشتق الإفرنجة كلمة Algorithme

ثم وضعوا كتباً في النجوم ، ففي بدء القرن الثالث ظهر كتاب أبي يوسف يعقوب القارشي ، أما الطب فقد جاء المنصور بطبيبه بختيشوع من فارس ، إلا أن الطب العربي عملت فيه عوامل هندية فكان للرشيد طبيب هندي وهو منكه .

ومن جندي سابور جاء أبو زكريا يحيى بن ماسويه ، فكان ينقل عن اليونانية كتباً كثيرة ، ووضع كتباً من عنده ككتاب نوادر الطب[1] .

وقد نقلوا أيضاً عن النبطية وعن العبرانية .

***

هذه خلاصة النقل في عصر الجاحظ ، فما أكثر الأفكار الحديثة التي دخلت في ميراثنا الفكري ، فاستلزمت صوراً حديثة تمثّلها للعقول ، وتقرّبها من الأذهان ، فبعد أن كان العقل لاصقاً بصور المادة لا يحيط إلا بما تعاينه الحواس ، انسلخ بعض الشيء من هذه المادة ، وتعلق بالأمور المجردة ، فتغلغل في باطنه ، ففكك أجزاء النفس وقواها

(١) أدب العرب للأستاذ هوار Hüari ص ٢٧٨ .

وحسها ، وتفكيرها ، وأخلاقها ، وطمح إلى ما فوق البشر ، و إلى ما فوق العالم ، فنظر في المبادئ والنتائج ، ونظر في العلل والقوانين . ومن عكف على دراسة اللغة وأطوارها في هذا العصر الذي نقلت في خلاله آثار اليونانيين وآثار الهند وآثار فارس وغيرهم من الأمم إلى العربية ، لا يتمالك أن يدهش لبيان العرب ، وأن يقول : ما أمرنَ هذا البيان ! ما أقدره على الحياة ! دخلته عناصر لا عهد له بها ، فقبلها ولم يعجز عن تمثيلها وتصويرها ، وهنا يظهر لنا سلطان العربية في أوضح مظاهره ، فما ضاقت العربية في يوم من أيامها عن تصوير نتائج القرائح وثمرات الخواطر.

وإلى جنب هذه العلوم التي استفاضت في الجمهور خرافات لا بأس بذكر طائفة منها نقتبسها عن كتب الجاحظ نفسه ، فكأن العلم لم يفش في الطبقات كلها ، وبذكر نبذ من هذه الخرافات نحيط بناحية من نواحي عصر الجاحظ ، فكأن الجاحظ لم يغادر لنا شيئاً من عصره تفوتنا معرفته ، ومن هذا يتبين لنا مقدار تدقيقه ، فهو الذي نبّهنا على كل ناحية من نواحي عصره ، على حرية الفكر ، وعلى صلاح الأيام ، وعلى فساد الدهر ، وعلى كثرة الزندقة ، وعلى شيوع العلم وعلى ذيوع الخرافات.

فمن هذه المعتقدات جلب الخنافس للرزق ، قال أبو عثمان(١) :

«سقط إلى المَفَاليس أن الخنافس تجلب الرزق ، وأن دنوها دليل على رزق حاضر ، من صلة أو جائزة أو ربح أو هدية أو حظ ، فصارت الخنافس إن دخلت في قُمُصهم ثم نفذت إلى سراو يلاتهم لم يقولوا لها قليلاً ولا كثيراً ، وأكثر ما عندهم اليوم الدفع لها ببعض الرفق ، و يظن بعضهم أنه إذا دافعها فعادت ، ثم دافعها فعادت ثم دافعها فعادت ، أن ذلك كلما كان أكثر كان حظه من المال الذي يؤمله عند مجيئها أجزل . فانظر أية واقية وأية حافظة ، وأي حارس ، وأي حصن ، أنشأه لها هذا القول ، وأي حظ [كان] لها حين صدقوا [بهذا الخبر] هذا التصديق ، والطمع هو الذي أثار هذا الأمر من مدافنه ، والفقر هو الذي اجتذب هذا الطمع واجتلبه ، ولكن الويل لها إن ألحت

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠٦ .

على غني عالم ، وخاصة إن كان مع حدوثه وعلمه حديداً عجولاً ! وقد كانوا يقتلون الذباب الكبير ، الشديد البطش ، الملح في ذلك ، الجهير الصوت ، الذي تسميه العوام أمير الذبان ، فكانوا يحتالون في صرفه وطرده [وقتله] إذا أكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمة ، فإنه لا يفتُر ، فلما سقط إليهم أنه مبشر بقدوم غائب و برء سقيم صاروا إذا دخل المنزل وأوسعهم شرًّا لم يهجه أحد منهم ، و إذا أراد الله عز وجل أن ينسىء فى أجل شيء من الحيوان هيأ لذلك سبباً كما أنه إذا أراد أن يقصر عمره [ويَحين يومه] هيأ له سبباً ، فتعالى الله علوًّا كبيراً » .

ومن هذه المعتقدات طول العمر بطول الأذن ، قال الجاحظ[١] :

« قد سمعت من يذكر أن [رِكبَرَ] أذن الإنسان دليل على طول عمره) حتى زعموا أن شيخاً من الزنادقة لعنهم الله تعالى قدموه لتضرب عنقه ، فعدا إليه غلام سندي كان له فقال: أليس قد زعمت يا مولاي أن من طالت أذنه طال عمره ؟ قال : بلى ! قال: فهاهم يقتلونك ! قال : إنما قلت إن تركوه » .

وكانوا يعتقدون إنه إذا كان في الدار ديك أبيض أفرق لم يدخلها الشيطان . و يقولون من أكل لحم سنور أسود لم يضره سحر ، و إذا دخنت الدار بالدخنة التي سموها بدخنة مريم أو باللبان ، لم يكن عليها لعمّار الدار سبيل ، وأن من نام بين البابين تخبطه العمّار ، وخبلته الجن[٢] .

والعامة تزعم أن لبس النعال السود يورث النسيان .

وكأن أمثال هذه المعتقدات لم تختص بها العامة و إنما لهج بها فريق من العلماء والمؤلفين حتى قال الجاحظ[٣] :

« ومما لا أكتب لك من الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وَقَاح ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١١٧ .
(٢) « « « الثاني ص ٧٥ .
(٣) « « « السابع ص ٤٩ .

أخبار بعض العلماء ، و بعض من يؤلف الكتب ، و يقرؤها و يدارس أهل العبر ويتحفظها . زعموا أن الضبع يكون عاما ذكراً وعاماً أنثى ، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته . قال الفضل بن إسحق : أنا رأيت العفص والبلوط في غصن واحد ، قال: ومن الغصن ما يكون مثل الأُكر ، وقد خبرني بذلك غيره ، وهو يشبه تحول الأنثى ذكراً ، والذكر أنثى ، وقد ذكرت العرب في أشعارها الضباع والذئاب والسبع والعسبار وجميع الوحوش والحشرات والأحناش ، وهم أخبر الخلق بشأن الضبع ، فكيف تركت ما هو أعجب وأطرف ، وقد ذكرت العلماء الضباع في مواضع من الفتيا لم نر أحداً ذكر ذلك ، وأولئك بأعيانهم هم الذين يزعمون أن النمر تضع فى مشيمة واحدة جرواً وفي عنقه أفعى قد تطوقت به ، و إذا لم يأتنا فى تحقيق الأخبار شعر شائع ، أو خبر مستفيض ، لم نلتفت لِفْتَه » .

وتعرض الجاحظ لبعض المفسرين الذين قد يتصورون تصورات غريبة فقال(١) :

« وزعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد، وأن الخنزير خلق من سَلْحة الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا بكثرة الفأر وشكوا [إلى نوح ذلك] ، سأل ربه الفرج، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأنثى من المنخر الأيسر، فكفاهم مؤونة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهما شكوا ذلك إلى نوح ، وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح ، فسلح [زوج] خنازير ، فكفياهم مؤونة رائحة النجو ، وهذا الحديث نافق عند العوام ، وعند بعض القُصّاص » .

و إذا كانت أشباه هذه المعتقدات نافقة عند أهل الحضر فاستفاضتها في الأعراب أولى ، فـ « الأعراب لا يصيدون يربوعاً ، ولا قنفذاً ، ولا ورلاً من أول الليل ، وكذلك كل شيء يكون عندهم من مطايا الجن كالنعام والظباء ... فإن قتل أعرابي

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٠٦ .

قنفذاً أو ورلاً من أول الليل ، أو بعض هذه المراكب ، لم يأمن على فحل إبله ، ومتى اعتراه شيء حكم بأنه عقوبة من قبلهم[١] » .

وتزعم الأعراب أن الضفدع كان ذا ذنب ، وأن الضب سلبه إياه[٢] .

وتزعم المجوس أن سومين الذي ينتظرون خروجه ، ويزعمون أن الملك يصير إليه ، يخرج على بقرة ذات قرون ، ومعه سبعون رجلاً ، عليهم جلود الفهود ، لا يقول : هِرًّا ولا بِرًّا حتى يأخذ جميع الدنيا[٣] .

هذا آخر ما أذكره من صفات عصر الجاحظ ، وقد تبين لنا أن الجاحظ كان صورة عصره في مجامع هذه الصفات ، فلئن مثّل عصره من جهة حرية الفكر ، ومن جهة الكلام على الزندقة فلم يكن بأقل تمثيلاً له من الناحية الثالثة ، وهي ناحية الانقلاب الفكري ، ولقد ظهرت آثار هذا الانقلاب على ثقافته ، وإذا تكلمت فى الآتي على تفكيره ظهر لنا أنه أخذ من كل علم بطرف ، حتى خاض فى أبواب شتى ، فى الاجتماع والأخلاق ، والتربية والتعليم ، والطبيعة ، والتاريخ الطبيعي ، وفلسفة اللغة ، وأمثال هذه الأبواب ، فإذا صحّ فى بعض الأحوال أن الأدب إنما هو صورة الجماعات ، فأدب الجاحظ مرآة مصقولة عكست لنا كل ناحية من نواحي عصره .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٤ .
(٢) « « « الخامس ص ١٥٣ .
(٣) « « « السادس ص ١٦٢ .

أصول الجاحظ في التحقيق

التجربة والعيان — معرفة السماع — استعانته بالعقل

نقده العلمي — شكه — تعليله

يجدر بنا بعد أن أتينا على ذكر عصر الجاحظ ، ووصفنا أفقاً عجيباً من آفاق ذلك العصر ، وأريد به استفاضة العلم ، فأشرنا إلى طائفة من الآثار التي اتصلت بميراثنا الفكري ، أن ننظر في جهة من جهات ثقافة الجاحظ ، وهي جهة العلم .

ذكرت في كلامي على أول عهدي بالجاحظ رأي (رنان) في المسلمين ، فقد وقع في خلده أن المسلمين يعتقدون أن البحث لا طائل فيه ، ولا شأن له ، وقلت إن الجاحظ قد يكون حجة يحتج بها من يريد أن يثبت أن في العرب علماء ، وإنما عصرهم غير عصرنا ، فلنتفرغ لتقليب النظر في هذه الحجة ، أهي قاطعة أم غير قاطعة ؟

كنت أطالع من أيام غير بعيدة كتاب : مفكري الإسلام[1] فانتهيت إلى كلام المؤلف على الجاحظ فقد قال :

« أكبر كتبه كتاب الحيوان ، وهو كتاب جليل أُدمجت فيه فصول كثيرة لا متعلق لها بالحيوانات ، قد يجمع الجاحظ فيها ما يوحيه إليه حيوان من فكرة ، ومن ذكرى أدبية ، ومن شعر ، ومن قصة ، فإذا شرع القارىء في قراءة هذا الكتاب وفي نيته أن يجد فيه مبحثاً علمياً عن الحيوان فقد خادعته نفسه ، ولكنه إذا قرأ دون غرض من الأغراض، منقاداً إلى مشيئة المؤلف ، غير سائله خطة مرتبة ، فقد يجد فيه كثيراً من لذة البال .

(١) — Les Penseursde l'Islam لصاحبه البارون كارادي فو Baron Carra de Vaux

لا أظن أننا نستطيع أن نستنبط من الجاحظ فلسفة أو مقاييس ، ولكننا قد نجد له روحاً فلسفية تنبسط في أعلى هضابها ، وذوقاً للحياة العقلية يذهب في أبعد مداه » .

يشتمل هذا الكلام على رأيين : رأى في الجاحظ من جهة العلم ، ورأي فيه من جهة الفلسفة ، فصاحب هذين الرأيين يجرّد أحد كتب الجاحظ من قيمته العلمية تجريداً واضحاً ، فهو لا يجد في كتاب الحيوان بحثاً علميًّا عن أصناف الحيوان ، وإنما يقرّ بقيمة فنه ، وهو ما أفصح عنه فى قوله : قد نجد فى كتاب الحيوان كثيراً من لذة البال .

وكما جرّده من فضل العلم فقد جرّده من فضل الفلسفة ، فهو لا يستطيع أن يستنبط من الجاحظ فلسفة أو مقاييس ، وإنما يعرف له بروح فلسفية متسعة الأفياء ، وبحياة عقلية بعيدة المدى .

وكذلك المعلمة الإسلامية[1] ، فإنها لما بحثت عن الجاحظ ذكرت أن تآليفه مطبوعة بطابع أدبي لا بطابع علمي ، إلا أنها أشارت إلى أن كتاب الحيوان إنما هو أول نتيجة من نتائج دراسة الطبيعة في علم العرب ، وأننا على الرغم من الاستشهاد بأقوال أرسطا طاليس لا نجد فيه إلا آثاراً قليلة من الآثار اليونانية ، في هذا الكتاب بعض مذاهب في ابتداء أمرها كالنشوء والارتقاء ، والتلون بألوان البيئة ، وروح الحيوانات إلى غير ذلك من المذاهب التي لم يتكامل نموها إلا في القرن التاسع عشر .

فلننظر فى هذا كله ، أصحيح أن طابع تآليف الجاحظ إنما هو طابع أدبي ؟ أصحيح أن الجاحظ ليس له أساليب فلسفية في كل مذهب من مذاهب تحقيقه وتدقيقه ؟ فهل يدقق و يحقق دون أن يبنى على أصول مرتبة ؟ وقبل أن أقلب النظر فى نفي العلم عن الجاحظ ، رأيت من الواجب عليّ أن أبين : من هو العالم ، وما الفرق بين علم العامة وعلم الخاصة .

(١) L'Encyclopédie de l'Islam

عقد الأستاذ (ريشه) أحد أعضاء معهد باريز في كتابه : العالم ، فصلاً عرّف فيه العالم تعريفاً بيناً ، ولمح إلى ضروب العلماء ، والذي يستنتج من الفصل كله أن العالم إنما هو الذى يتوخى البحث عن حقيقة مجهولة ، فهو الذى يرمي إلى المعرفة[١] .

فالفرق بين علم العالم و بين علم العامي من الناس ، أن العامة تقتصر على معاينة الأشياء ، ولكن العلماء يحاولون أن يعرفوا أسباب هذه الأشياء أى أن يعرفوا مبادئها وقوانينها ، فقد قال أرسطاطاليس : يبتدىء العلم بالعجب و ينتهي بضده ، فالعامة لا تعجب من الأشياء التي تعاينها كل يوم ، وتقع عليها حواسهم ، ولكن العلماء يعجبون منها ، و يجتهدون فى البحث عن عللها ، فهم يريدون أن يعرفوا مثلاً لماذا لا يصعد الماء فى جوف المضخة إلا إلى حدّ معلوم ، فإذا عرفوا علّة هذا بطل عجبهم ، وصاروا يعجبون من ضد هذا الأمر .

فالعالم فى نظر الأستاذ (ريشه) إنما هو الذى ينقب عن الحقيقة المجهولة ، إلا أن لكل علم من العلوم أصولاً فى التنقيب عن هذه الحقيقة ، فلنبحث فى صدد الأمر عن الأساليب التى يجرى عليها الجاحظ فى البلوغ إلى حقائق العالم ، وكشف الغطاء عن غرائبه وطرائفه .

يقول أبو عثمان فى مقدمة كتاب الحيوان :[٢]

« وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه و إن كان عربيًّا أعرابيًّا ، و إسلاميًّا جماعيًّا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، و بين وجدان الحاسة و إحساس الغريزة » .

لخص لنا الجاحظ فى هذه الأسطر أصوله التى يبنى عليها فى الوصول إلى معرفة الحقائق ، فهو يستعين بالحواس و بالعقل على إدراك الحقائق .

---

(١) الأستاذ شارل ريشه (Gharles Richet) كتاب العالم ص ٧ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٥ .

أما الاستعانة بالحواس فقد أشار إليها فى كثير من المواطن ، فقوله : « ليس يشفينى إلا المعاينة » ، داخل فى الاستعانة بالحواس ، والمعاينة عنصر من عناصر التحقيق فى علوم الطبيعة ، يضم إليه التجربة والفرض والمقابلة والتصنيف ، فكل قول فى نظره « يكذبه العيان فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهباً ، وأدلّ على معاندة شديدة ، أو غفلة مفرطة[(١)] » .

ولم يقتصر الجاحظ على المعاينة وحدها وإنما جمع بينها و بين التجربة فى كثير من تحقيق الغرائب في هذا العالم ، وسأذكر في مقام آخر أنماطاً من تجاربه فى أصناف الحيوان . ولقد وثق بهذه الطريقة الثقة كلها ، حتى أصبح لا يجد سبيلاً إلى رد الخبر المعروف بمواترته ومرادفته . الذى حققه العيان ، وضمت إليه التجربة[(٢)] .

فهو في هذا المعنى ، أي في الاستعانة بالحواس في التحقيق ، من أصحاب الفيلسوف (باكون) الذي ظهر من سنة ١٥٦١ إلى سنة ١٦٢٦ فقد سعى هذا الفيلسوف فى تجديد العقل ، فحاول أن يصلح مناحي الفكر البشري وأساليبه فى التحقيق ، فمن رأيه أنه لا ينبغي لنا الاستناد إلى المتقدمين ، لأنهم لا يعاينون الأمور عياناً كافياً ، فما ينبغي لنا أن يكون أصحاب أفكار مهيأة نؤمن بها ، فإن هذه الأفكار إنما هي بمنزلة الأصنام ، فلكل حزب أصنام ، ولكل مذهب أصنام ، ولكل عصر أصنام ، فما ينبغي لنا أن نرى في كل ناحية من نواحي الطبيعة مزاعم ، فإذا كانت الشمس تدفئ فما يلزمنا أن نعتقد أنها خلقت لتدفئ ، و إذا كانت الأرض تغذي فما يلزمنا أن نعتقد أنها خلقت لتغذي ، فما يلزمنا أن نرى العالم كله متوجهاً نحو الرجل ، مستعدًّا لخدمته ، يجب علينا أن نلجأ إلى المعاينة و إلى التجربة ، ثم إلى استنباط نتائج عامة من الأمور التي نعاينها ، والأمور التي نجرّبها ، فالاستنباط مداره الذهاب من الخاص إلى العام ، ومن طائفة من الأمور إلى وضع القوانين .

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٢ .

(٢) « « « الثاني ص ٤٧ .

هذه فلسفة (باكون) وقوامها التجربة والعيان ، ولئن لجأ (باكون) إلى هذه الفلسفة من ثلاثة قرون ، فقد لجأ إليها الجاحظ من أحد عشر قرناً ، إلا أن (باكون) توسع في أساليبه ، فجعل للعيان وللتجربة قواعد عامة ، فالتجربة فى نظره ينبغي لها أن تكون متنوعة ، ممتدة ، مقلوبة .

وكأن الجاحظ رأى أن هذه الطريقة وحدها لا تضمن له الإفضاء إلى الحقائق لأن الحواس التي يعتمد عليها فى التحقيق قد تخادع فى بعض الأحيان :

« ولعمري إن العيون لتخطئ ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلاّ للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إذ كان زماماً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس »[١] .

فأحب أن يجمع إلى معونة الحواس معونة العقل فقال[٢] :

« فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل ، وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة » .

فكان لا يجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ، ويخرجه البرهان من باب الإنكار[٣] .

فالأدلة والبراهين من أعمال العقل ، وهذه الطريقة إنما هي طريقة (ديكارت) الذي ظهر من سنة ١٥٩٦ إلى سنة ١٦٥٠ فإن فلسفة (ديكارت) ملا كها العقل ، ومدار طريقته على هذه الكلمة : لا تصدق إلا ما كان واضحاً ، صدّق ما كان واضحاً ، فالوضوح إنما هو أصل الأمر في اليقين ، فما ينبغي لقوة من القوى الظاهرة أن يكون لها سلطان على حرية تفكيرنا ، وما القوى الظاهرة إلا السلطة والأوهام والمصلحة والأحزاب .

---

(١) كتاب التربيع والتدوير على هامش الكامل للمبرد — الجزء الأول ص ٤٣ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٩٧ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٤١ .

فما أشبه قول (ديكارت) لا تصدق إلا ما كان واضحاً بقول الجاحظ : لا أجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ، ولكن (ديكارت) قد تبسط في هذه الطريقة فأنشأ لها قواعد ، منها تجزئة المصاعب ، ومنها الذهاب من المبسوط إلى المركب وغير ذلك .

إلا أن (ديكارت) يشك فى كل شيء ، وقد تكون الحياة فى نظره حلماً من الأحلام ، ولكن شكه هذا لا يشبه شك غيره من الفلاسفة ، فهو يشك فى كل شيء ، فقد يزعم أن العالم لا حقيقة له على أمل أن يصل إلى حقائق يثبتها العقل ، فالشك في مذهبه سبيل إلى اليقين .

و إذا توسعنا بعض التوسع في التنقيب عن مذهب الجاحظ فى التحقيق من جهة العقل تبين لنا أنه قد يميل إلى الشك على نحو ما مال إليه (ديكارت) فى العصور الأخيرة ، وقد يجعل هذا الشك سبيلاً إلى اليقين ، من ذلك قوله :[1]

« وزعم لي ابن أبي العجوز أن الدسّاس تلد ، وكذلك خبرني به محمد بن أيوب بن جعفر عن أبيه ، وخبرني به الفضل بن إسحق بن سليمان ، فإن كان خبرهما عن إسحق فقد كان إسحق فى معادن العلم ، وقد زعموا بهذا الإسناد أن الأرويّة تضع مع كل ولد وضعته أفعى فى مشيمة واحدة ، وقال الآخرون : الأروية لا تعرف بهذا المعنى ، ولـكنه ليس فى الأرض نمرة إلا وهي تضع ولدها وفى عنقه أفعى في مكان الطوق ، وذكروا أنها تنهش وتعض ، ولا تقتل ، ولم أكتب هذا لتقرّبه ، ولكنه رواية أحببت أن تسمعها ، ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يعجبني الإنكار له ، ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل ، و بعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً ، فلو لم يكن [في] ذلك إلا تعرف التوقف . ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه ، ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا على أن اليقين

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٠ .

طبقات في القوة والضعف ، ولما قال أبو الجهم للمكي : أنا لا أكاد أشك ! قال المكي : وأنا لا أكاد أوقن ! ففخر عليه المكي بالشك فى مواضع الشك كما فخر عليه ابن الجهم باليقين فى مواضع اليقين » .

فقول الجاحظ : اعرف مواضع الشك والحالات الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له يشبه مذهب (ديكارت) في جعل الشك سبيلاً إلى اليقين.

هذا مذهب الجاحظ في التحقيق في كل أمر من أمور العلم والدين ، جمع فيه بين معونة المادة ومعونة العقل ، فكان هذا المذهب مقدمة للأصول التي بني عليها (باكون) (وديكارت) في العصور الأخيرة ، فالجاحظ صاحب طريقة في تحقيقه .

إنا لا نجهل قيمة الطريقة فى العلوم ، فقد قالوا فيها إنها فن استكشاف الحقيقة ، فإذا أراد البشر أن يصلوا إلى الحقائق لزمهم ألا يخبطوا خبطاً ، وأن ينهجوا منهجاً قد اختطوه لأنفسهم قبل التفرغ للبحث ، فلا يمكننا الوصول إلى الحقائق إلا إذا مشينا على خطة معينة ، أي على طريقة ، وما يكفينا أن نلجأ إلى طريقة ما في دراسة من الدراسات ، وإنما يجب علينا أن نستعمل لكل صنف من الحقائق الطريقة الخاصة بهذا الصنف ، ففي صنف تحسن التجربة ، وفي صنف يحسن العقل ، وفي ناحية تحسن التجربة والعقل معاً ، فإذا تجرد الفكر البشري من هذه القواعد ، ومشى دون أن يعرف مبدأ طريقه ومنتهاه ، أو أن يعرف الطريق التي يسلكها ، أضاع قواه دون أن يصل إلى الحقيقة .

والتاريخ يدلنا على أن الفلسفة والعلوم إنما وصلت إلى ما وصلت إليه بفضل هذه الطريقة و بفضل عبقرية الذين استعملوا هذه الطريقة .

إن واضع الفلسفة وهو سقراط إنما هو أول من عاين طبيعة الرجل العقلية ، وطبيعته الخلقية ، وطبق هذا العيان على درس النفس وعلى درس الخالق .

وإذا تقدمت فى عصرنا هذا علوم الطبيعة تقدماً عظيماً ، فالفضل في ذلك يرجع

إلى الطرائق التي وضعها (باكون) و (كلودبرنار) و (باستور) ، واستعملها العلماء من بعدهم .

ولم يكتف الجاحظ بهذه الطريقة وحدها ، ولكنه أحب أن يمزجها بشيء من روعة الفن ، فما ذكر غريبة من غرائب العالم ، وطريفة من طرائفه ، إلا ومعها شاهد من كتاب منزل ، أو حديث مأثور ، أو خبر مستفيض ، أو شعر معروف ، أو مثل مضروب ، أو يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبيب ، أو من أكثر من قراءة الكتب ، أو بعض من قد دارس الأسفار ، وركب البحار ، وسكن الصحارى ، واستذرى الهضاب ، ودخل فى الغياض ، ومشى فى بطون الأودية[1] .

نعم ، الجاحظ صاحب طريقة فى التحقيق ، ومن هذه الطريقة المعاينة والتجربة ، ومن أكبر صفات المعاين التطلع ، فإن هذا التطلع يحملنا على الاهتمام بأمور لا يكون لها في نظر العامة معنى من المعاني ، مثل مصباح (غليله) أو مثل تفاحة (نوتون) وأظن أني لا أحتاج إلا إلى ذكر مثل أو مثلين في هذا المعنى ، من ذكرهما تتبين لنا خصائص الجاحظ في حب التطلع والاستشراف ، فقد يقف على الأمور وقوف معتبر ، و يتأمل تأمل مفكر ، فإذا اعترض لواحد منها فلا يهدأ باله إلا إذا نفذ إلى حقائقه ، وعرف علله وعلم بمقادير قواه ، وتصرف أعماله ، وتنقل حالاته . قال أبو عثمان فى أثناء كلامه على الفيلة[2] :

« خرجت يوم عيد ، فلما صرت بعيساباذ إذا أنا بفيل مجلل بقطوع ومقطعات ، وإذا برجال جلوس عليهم أسلحتهم ، فسألت بعض من شهد العيد ، فقلت : ما بال هذه المسلحة فى هذا المكان ، وقد أحاط الناس بذلك الفيل ، فقال : هذا الفيل ، فقصدت نحوه ومالي هم إلا النظر إلى أذنيه ، وما كانت لي في ذلك علة إلا شغل قلبي بكل شيء هجمت عليه منه ، وكله كان شاغلا [لي] عن أذنه التي إليها كان قصدي ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٥ .
(٢) « « السابع ص ٦١ .

فذاكرت في ذلك سهل بن هارون فذكر لي أنه ابتلي بمثلها ، وأنشد في ذلك بيتين من شعره وهما قوله :

أتيت الفيل محتسباً بقصدي   لأبصر أذنه ويطول فكري

فلم أر أذنه ورأيت خلقاً   يقرب بين نسياني وذكري» .

فهذه القصة على حقارة شأنها ، تصور لنا مقدار ميل الجاحظ إلى التطلع ، فإذا مر بمشهد من المشاهد سأل عنه ، وقصد نحوه ، ونظر إليه ، وشغل قلبه به .

وهذا مثل ثان وهو ليس بأقل دلالة من الأول على تطلع الجاحظ ، قال[١] :

« ولقد تنازع بالبصرة ناس وفيهم رجل ليس عندنا [بالبصرة] أطيب منه ، فأطبقوا جميعاً على أن الجمل إذا نحر ومات ، فالتُمست خصيته وشقشقته ، أنهما لا توجدان ، فقال ذلك الطيّب فلعل مرارة الجمل أيضاً كذلك ، ولعله أن تكون له مرارة ما دام حيّاً ، ثم تبطل عند الموت والنحر ، وإنما صرنا نقول: لا مرارة له ، لأنا لا نصل إلى رؤية المرارة إلا بعد أن تفارقه الحياة ، فلم أجد ذلك عمل في قلبي مع إجماعهم على ذلك، فبعثتُ إلى شيخ من جزاري باب المغيرة ، فسألته عن ذلك فقال : بلى لعمري إنهما لتوجدان إن أرادهما مريد ، وإنما سمعت العامة كلمةً ، وربما مزحنا بها ، فيقول [أحدنا] : خصية الجمل لا توجد عند منحره ، أجل والله ما توجد عند منحره وإنما توجد في موضعها ، وربما كان الجمل خياراً جيداً ، فتلحق خصيتاه بكليتيه ، فلا توجدان لهذه العلة ، فبعثتُ إليه رسولاً : إنه ليس يشفيني إلا المعاينة ، فبعث إلى بعد ذلك بيوم أو يومين مع خادمي نفيس بشقشقة وخصية ، ومثل هذا كثير قد يغلط فيه من يشتد حرصه على حكاية الغرائب » .

أفرأينا مقدار ولع الجاحظ بالتطلع ، يسمع كلام أهل الصناعة على أمر من الأمور ويجمعون على هذا الأمر ، فلا يعمل الكلام في قلبه ، فيسأل شيخ الجزارين عنه فيعترف له بصحته ، ولكن الجاحظ ليس يشفيه إلا المعاينة ، فهذا الإفراط في حب

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٤٩ .

التطلع إنما هو من صفات العلماء ومن خصائصهم ، وهل الفرق بين معرفة العالم ومعرفة غير العالم ، إلا في بحث العالم عن كل علة ، واقتصار غيره على العيان وحده ، دون الاهتمام بالعلل و بالقوانين .

يقول صاحب كتاب (مفكري الإسلام) : لا يجد المرء في كتاب الحيوان مبحثاً علميًّا عن الحيوان .

فلنرجع إلى كتاب الحيوان ، فهو الكتاب الذي صور لنا الجاحظ في صورة العالم على مصطلح هذا العصر ، ففيه شواهد كثيرة على توخي الجاحظ الوصول إلى الحقائق في مباحثه ، وفيه بيان لمختلف أساليبه في التحقيق ، وفيه أنماط من نقده العلمي ومن فلسفته العلمية ، فضلاً عن قيمته الفنيه ، التي نرجئ الكلام عليها إلى حينه ، وقد ألف الجاحظ كتاب الحيوان وهو ابن سبعين بوجه التقريب ، أي بعد أن اختمر عقله واستوى فكره ، واتسعت تجاربه ومعايناته .

فلنستخرج من هذا الكتاب طائفة من الأقوال، ولنحكم على طبائع هذه الأقوال وعلى خصائصها .

من هذه الأقوال ما يتعلق بخلق الطبيعة لكل صنف من الحيوان في تقويم يستعين به على مقادير حاجاته ، قال أبو عثمان (١) :

« وليس شيء من صنف الحيوان أردأ حيلة عند معاينة العدوّ من الغنم ، لأنها في الأصل موصولة بكفايات الناس ، فأسندت إليهم في كل أمر يصيبها ، ولولا ذلك لخرّجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التي تعينها ، فإذا لم يكن لها سلاح ولا حيلة ، ولم تكن ممن يستطيع الانسياب إلى جُحْر أو صدع صخرة أو في ذروة جبل ، كانت مثل الدجاجة ، فإن أكثر ما عندها من الحيلة إذا كانت على الأرض أن ترتفع إلى رف ، وربما كانت في الأرض فإذا دنا المغرب فزعت إلى ذلك، وربما كان عند الجنس من الآلات ضروب ، كنحو زبرة الأسد ولبدته ، فإنه حمول للسلاح

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٢٥ .

إلا في مراقّ بطنه ، فإنه من هناك ضعيف جدًّا ، وقال التغلبي :

ترى الناس منا جلد أسود سالخ　　وزبرة ضرغام من الأسد ضيغم

وله مع ذلك بعدُ الوثبة واللزوق بالأرض ، وله الحبس باليد، وله الطعن بالمخلب ، حتى ربما حبس البعير بيمينه ، وطعن بمخلب يساره في لبته ، وقد ألقاه على مؤخره فيلتقى دمه شاحيا فاه وكأنه ينصب من فوّارة ، حتى إذا شربه واستفرغه صار إلى شق بطنه ، وله العض بأنياب صلاب حداد ، وفك شديد ، ومنخر واسع ، وله مع البرثن الشك بأظفاره دق الأعناق ، وحطم الأصلاب ، وله أنه أسرع حضراً من كل شيء أعمل الحضر فى الهرب منه ، وله من الصبر على الجوع ، ومن قلة الحاجة إلى الماء ما ليس مع غيره ، ربما سار في طلب الملح ثمانين فرسخاً في يوم وليلة ، ولو لم يكن له سلاح إلا زئيره وتوقد عينيه وما في صدور الناس له لكفاه ، وربما كان كالبعير الذي يعلم أن سلاحه في نابيه وفي كركرته ، والإنسان يستعمل فى القتال كفيه في ضروب ، ومرفقيه ورجليه ومنكبيه وفمه ورأسه وصدره كل ذلك له سلاح ويعلم مكانه ، يستوي في ذلك العاقل والمجنون ، كما يستويان في الهداية في الطعام والشراب إلى الفم . والمرأة إذا ضعفت عن كل شيء فزعت إلى الصراخ والولولة التماساً للرحمة، واستجلابا للغياث من حماتها وكفاتها ، أو من أهل الحسبة في أمرها » .

ومن هذه الأقوال ما يختص بتلوّن كل صنف من الحيوان بألوان بيئته حفظاً لحياته ، قال الجاحظ :(١)

« حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوي العنبري وأخوه روح الكاتب ورجال من بني العنبر : أن عندهم فى رمال العنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد ، زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتد الحر فى رمال بلعنبر ، وامتنعت الأرض على الحافي والمنتعل ، ورمض الجندب ، غمست هذه الحية ذنبها في الرمل ، ثم انتصبت كأنها رمح مركوز أو عود ثابت ، فيجيء الطائر الصغير أو الجرادة ، فإذا رأى عوداً

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣٨ .

قائماً ، وكره الوقوع على الرمل لشدة حرّه وقع على رأس الحية على أنها عود ، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فإن كان جرادة أو جعلاً أو بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعته و بقيت على انتصابها ، و إن كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله أكلته وانصرفت ، وأن ذلك دأبها ما منع الرمل جانبيه فى الصيف والقيظ فى انتصاف النهار والهاجرة ، وذلك أن الطائر لا يشك أن الحية عود ، وأنه سيقوم له مقام الجذل للحرباء إلى أن يسكن الحر ووهج الرمل .

وفي هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحية تهتدى لمثل هذه الحيلة ، وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود ، وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذي عاد كالجمر ، وصلح أن يكون مَلّة وموضعاً للخبزة ، ثم [أن] يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار ، والرمل على هذه الصفة ، فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات » .

ومن هذا القبيل ما نقله عن صاحب المنطق من أن لكل طائر يعشش شكلاً يتخذ عشه منه فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع ، وعلى اختلاف صور تلك القراميص والأفاحيص (١) .

ومن هذه المباحث الكلام على تأثير البيئة ، وقد نقل قول صنف من الناس فقال (٢) :

« وقال الصنف الآخر : لا ننكر أن يفسد الهواء فى ناحية من النواحي ، فيفسد ماؤهم ، وتفسد تربتهم ، فيعمل ذلك فى طباعهم على الأيام ، كما عمل ذلك فى طباع الزنج ، وطباع بلاد الصقالبة ، وطباع بلاد يأجوج ومأجوج ، وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان ، كيف انسلخوا من جميع تلك المعانى ، وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل والدواب وجميع ماشيتهم ، من سبع و بهيمة ، على طبائعهم ، وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضراً ، وتراها في غير الخضرة على غير

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٦١ .

(٢) » » » الرابع ص ٢٤ .

ذلك ، وترى القملة فى رأس الشاب الأسود الشعر سوداء ، وتراها في رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء ، وتراها في رأس الأشمط شمطاء ، وفي لون الجمل الأورق ورقاء ، فإذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء ، فإن نصل خضابه صار فيها شُكلة من بين بيض وحمر ، وقد نرى حرة بني سليم ، وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة ، فتراها كلها سوداء ، وقد خبّرنا من لا يحصي من الناس أنهم قد أدركوا رجالاً من نبط بيسان ، ولهم أذناب إلا تكن كأذناب التماسيح والأسد والبقر والخيل ، وإلاّ كأذناب السلاحف والجرذان ، فقد كان لهم عجوب طوال كالأذناب ، وربما رأينا الملاّح النبطي في بعض الجعفريات ، على وجهه شبه القرد ، وربما رأينا الرجل من المغرب ، فلا نجد بينه وبين المسخ إلا القليل ، وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد ، والماء الخبيث ، والتربة الردية ، ناساً في صفة هؤلاء المغربيّين والأنباط ، ويكونون جهّالاً ، فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم وأوطانهم ولا ينتقلون ، فإذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور ، وفي تلك الأذناب ، وفي تلك الألوان الشقر ، وفي تلك الصور المناسبة للقرود » .

وقال في التناحر على الحياة :(١)

ومن العجَب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله ، ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله ويريغ القنفذ الأفعى فيأكلها ، وكذلك صنيعه في الحيات ما لم تعظم الحية ، والحية تصيد العصفور فتأكله ، والعصفور يصيد الجراد فيأكله ، والجراد يلتمس فراخ الزنابير وكل شيء يكون أفحوصة على المستوي ، والزنبور يصيد النحلة فيأكلها ، والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها ، والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها » .

وإذا أردت الإفاضة في هذا الباب اتسعت مذاهب الكلام ، فأقتصر على ما ذكرت دون التعرض لما نبه عليه الجاحظ فى كتاب الحيوان ، أو لما وصفه من

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٠٢ .

غرائز أصناف الحيوان ومن إحساساتها وما شابه ذلك .

أظن أن أشباه هذه المباحث لا تخرج عن العلم ، وأظن أن الذى يخوض فيها لا يعبث ، إنها لم تخل فى تضاعيفها من أمور جليلة تكاد تكون أجل ما اهتدى إليه علماء الطبيعة فى العصور الأخيرة ، أمثال دروين ولامارك وسبنسر وأضرابهم ، من هذه الأمور التناحر على الحياة والتلون بألوان البيئة وتأثير البيئة والإرث وغير ذلك ، فكان الجاحظ يعترض لأعاجيب الطبيعة ، ويفكر فيها ، لأن التفكر فيها على نحو ما قال ، مشحذة للأذهان ، ومنبهة لذوى الغفلة ، وتحليل لعقدة البلدة ، وسبب لاعتياد الروية ، وانفساح الصدور ، وعز فى النفوس ، وحلاوة تقتاتها الروح ، وثمرة تغذى العقل (١)

ولكن لا ينبغي لنا أن ننسى أن الجاحظ ظهر من أحد عشر قرناً وأن العلم الحديث لا يتجاوز عمره قرناً ونصف قرن ، فالجاحظ مشى على آثار أرسطاطاليس وغيره من العلماء اليونانيين فى رومة والإسكندرية فى تلخيص المعارف ، فلئن لم يكن له فى علم الحيوان مخترعات علمية لقد لخص معارف عصره ، فكتب كتباً علمية فى أشياء مختلفه .

فقولنا : لا نجد فى كتاب الحيوان مبحثاً علمياً ، لا يخلو من شيء من المجازفة ، وإذا نظرنا فى فصلنا الآتي فى أساليب الجاحظ فى التحقيق ، تبين لنا أن الجاحظ لا يلهو وإنما يبحث وينقب .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٣٩ .

١

التجربة والعيان

بقي من بعد هذا كله أن ننظر تفاصيل الأصول التي كان الجاحظ يبني عليها فى التحقيق ، فنذكر أنماطاً من تجربته وعيانه ، ونشير إلى بعض الخصائص فى هذه التجربة وهذا العيان ، ونذكر معرفة سماعه ، وإذا فرغنا من الكلام على استعانته بالحواس تعرضنا للكلام على استعانته بالعقل ، وعلى نقده العلمي وشكه وتعليله .

فلنأت على ذكر نماذج من تجاربه ، فقد جرّب في أصناف شتى من الحيوان كالضب والحيات والظليم والخنفساء والسمك والعقارب والجرذ والنمل ، وجرب في النبات . وكان في كل تجربة من تجاربه يذهب مذهبا خاصًّا ، ففي بعضها كان يقطع طائفة من الأعضاء ، وفي بعضها كان يلقي على الحيوان ضرباً من السم ، وحيناً كان يرمي في تجربته إلى معرفة بيض الحيوان والاستقصاء في صفاته ، وحيناً كان يعزم على ذبح الحيوان وتفتيش جوفه وقانصته ، ومرة كان يدفن الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته ، ومرة كان يذوق الحيوان ، وكان في أوقات يبعج بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده ، وفي أوقات يجمع أضداد الحيوان في إناء من قوارير ليعرف تقاتلها ، وكان يلجأ في بعض الأحايين إلى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم تأثيرها في الحيوان .

من هذه التجارب قطعه طائفة من أعضاء الحيوان ، فقد عقد فصلاً في كتاب الحيوان بحث فيه عن نصيب الضباب من الأعاجيب والغرائب ، قال في مقدمة هذا الفصل [1] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٦ .

« أول ذلك طول الذَّماء ، وهو بقية النفس ، وشدة انعقاد الحياة والروح بعد الذبح وهشم الرأس ، والطعن الجائف النافذ ، حتى يكون فى ذلك أعجب من الخنزير ومن الكلب ومن الخنفساء ، وهذه الأشياء التي قد تفردت بطول الذماء ، ثم شارك الضب الوزغة والحية ، فإن الحية تقطع من ثلث جسمها فتعيش إن سلمت من الذرّ ، فجمع الضب الخصلتين جميعاً ، إلا ما رأيت في دخَّال الأذن من هذه الخصلة الواحدة ، فإني كنت أقطعه بنصفين ، فيمضي أحد نصفيه يمنة ، والآخر يسرةً ، إلا أني لا أعرف مقدار بقائهما بعد أن فاتا بصري » .

إنا نرى أنه في خلال كلامه على صنف من الحيوان ، وفي أثناء تجربة تجار به قد يتعرض للمقابلة بين أصناف الحيوان ، ففي هذه التجربة قد أشار إلى مشاركة الضب للوزغة وللحية في بعض الخصائص ، والمقابلة ركن من أركان التحقيق في علم الحيوان .

ومن تجار به إلقاؤه على الحيوان ضرباً من السم فقد قال(١) :

« وقيل لي وقرأت في كتاب الحيوان إن ريح السذَّاب يشتد على الحيات ، فألقيت على [وجوه] الأفاعي جُرَزَ السذاب ، فما كان عندها إلا كسائر البقل ، فلو قلت لهم فى ذلك شيئاً لقالوا : الحيات غير الأفاعي ، وهذا باطل ، الأفاعي نوع من الحيات ، وكلهم قد عم ولم يخص » .

فهو لا يصدق ما يقال له ، ولا يصدق ما يطالعه في كتاب الحيوان ، حتى يقرن هذا كله بشيء من التجريب .

وقد كررذكرهذه التجربة في موطن آخر ، فوضّح الأعضاء التي جرب فيها فقال(٢) :

« والأفاعي تكره ريح السذاب والشيح ، وتستريح إلى نبات الحرمل ، وأما أنا فإني ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ماغمرها ، فلم أر على ما قالوا دليلاً » .

ومن تجار به محاولته معرفة بيض الحيوان واستقصاء صفاته فقد قال(٣) :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١١١ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٣٣ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٦ .

« وقد رأيت بيض الحيات وكسرتها لأتعرف ما فيها ، فإذا هي بيض مستطيل أكدر اللون أخضر ، وفي بعضه نمش ولمع ، فأما داخله فلم أر قيحاً قط ، ولا صديداً خرج من جرح فاسد ، إلا والذي في بيضها أسمج منه وأقذر » .

ومن تجاربه القبض على الحيوان ليعرف حركته كقوله[١] :

« وفي الأفاعي من العجب أنها تذبح حتى يفرى منها كل ودج ، فتبقى كذلك أياماً لا تموت ، وأمرت الحاوي ، فقبض على خرزة عنقها ، فقلت له اقبضها من الخرزة التي تليها قبضاً رفيقاً ، ، فما فتح بينها بقدر سم الإبرة حتى بردت ميتة » .

وفي هذه التجربة تظهر لنا صفة من محاسن صفات التجربة وهي التكرار ، فقد قبض الحاوي على خرزة عنق الحية فأمره الجاحظ أن يقبضها من الخرزة التي تليها .

ومن تجاربه محاولته ذبح الحيوان ليفتش جوفه وقانصته ، فقد كنت ذكرت هذه التجربة في كلامي على أول عهدي بالجاحظ ، وذلك أن بعضهم شهد من يلقى الحجر في النار ، فإذا عاد كالجمر قذف به قدام الظليم ، فإذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر ، وقد كان الجاحظ حاول أن يعرف أيستمرئ الظليم الحديد كما يستمرئ الحجارة ، فعزم على ذبح الظليم ، وتفتيش جوفه وقانصته ، فلعل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً ، فعمد بعضهم إلى سكين فأحمي ، ثم ألقاه إليه فابتلعه ، فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرف السكين من مذبحه ، ثم خرّ ميتاً ، فمنع الجاحظ بخرقه من استقصاء ما أراد .

ومن تجاربه دفنه الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته كقوله[٢] :

« وفي الذبان طبع كطبع الجعلان ، فهو طبع غريب عجيب ، ولولا أن العيان قهر أهله لكانوا خلقاء أن يدفعوا الخبر عنه ، فإن الجعل إذا دفن في الورد مات في العين

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣٩ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠٨ .

وفنيت حركاته كلها ، وعاد جامداً تارزاً ، ولم يفصل الناظر إليه بينه و بين الجعل الميت ما أقام على تأمله ، فإذا أعيد إلى الروث عادت إليه حركة الحياة من ساعته ، وجربت أنا [مثل] ذلك في الخنفساء فوجدت الأمر فيها قريباً من صفة الجعل ، ولم يبلغ كل ذلك [إلّا] لقرابة [ما] بين الخنفساء والجعل » .

وقد كان لا يكتفي بأن يجرب بنفسه ، و إنما كان يعاين تجارب غيره ، من هذا الشكل قوله(١) :

« ودخلت يوماً على ابن أبي كريمة ، وإذا هو قد أخرج إجّانة كان فيها ماء من غسالة أوساخ الثياب ، و إذا ذبان كثيرة قد تساقطن فيه من الليل ، فموّتن ، هكذا كان فى رأي العين ، فغبرن كذلك عشيتهن وليلتهن والغد إلى انتصاف النهار ، حتى انتفخن وعفِنّ واسترخين ، و إذا ابن أبي كريمة قد أعد آجرّة جديدة ، وفتات آجر جديد ، و إذا هو يأخذ الخمس منهن والستّ ثم يضعهن على ظهر الآجرة الجديدة ، ويذر عليهن من دقاق ذلك الآجر الجديد المدقوق بقدر ما يغمرها ، فلا تلبث أن تراها قد تحركت ، ثم مشت ، ثم طارت ، إلا أنه طيران ضعيف » .

ومرة كان يذوق الحيوان ، من هذا القبيل ما حكاه لنا قال(٢) :

« والشبوط حفظك الله جنس كثير الذكور ، قليل الإناث ، فلا يكون إناثه أيضاً يجمعن البيض ، و إذا جمعن فلو جمعت بيض عشر منهن لما كان كشطر بيض بنيّة واحدة ، فقد رأيت بعض الشبوط وذقته للتعرف ، فوجدته غير طائل ولا معجب ، وكل صياد تسأله فهو ينبيك أن له بيضاً ، ولـكنه إذا كان يكون ضئيلاً قليلاً ، لأن الشبابيط في أصل العدد من أقل السمك ، وكذلك الجنس منه إذا كانت الأنثى منه مذكاراً ، على أنه رب نهر يكون أكثر سمكة الشبوط ، وذلك قليل كنهر رامهرمز ، والشبوط لا يتربى في البحار ، ولا يسكن إلا في الأودية والأنهار ،

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠٨ .

(٢) « « « الأول ص ٦٩ .

ويكره الماء الملح ، ويطلب الأعذب فالأعذب ، ويكون في الماء الجاري ، ولا يكون في الساكن . »

فما ذاق الجاحظ الشبوط إلاّ على سبيل التعرّف .

ومرة كان يبعج بطن الحيوان ، من هذا النوع قوله(١) :

« كنت بعجت بطن عقرب إذ كنت بمصر ، فوجدت فيه أكثر من سبعين عقارب صغار ، كل واحدة نحو أرزة ، حرره أبو بكر السروكني » .

وحيناً كان يلجأُ إلى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم مبلغ تأثيرها في الحيوان كاستعماله الكبريت الأصفر والقطران ، فقد قال في كلامه على النمل(٢) :

« ومن أسباب هلاك النمل نبات الأجنحة له وقد قال الشاعر :

وإذا استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

وإذا صار النمل كذلك أخصبت العصافير ، لأنها تصطادها في حال طيرانها ، وتقتل بأن يصب في أفواه بيوتها القطران والكبريت الأصفر ، ويدس في أفواهها الشعر ، وقد جر بنا ذلك فوجدناه باطلاً » .

وحيناً كان يجمع أضداد الحيوان في إناء من قوارير ، ليعرف تقاتلها ، كالجمع بين الجرذ والعقرب ، فقد قال(٣) :

«ويزعمون أنهم لم يروا قتالاً قط بين بهيمتين [ولا سبعَيْن] أشد من قتال يكون بين جرذين ، فإذا ربط أحدهما بطرف خيط ، وشد رجل الآخر بالطرف الآخر ، فلهما عند ذلك من الجلب والخمش والعض والتنييب والعِفاس ما لا يوجد بين شيئين من ذوات العقار والهراش ، إلا أن ذلك ما داما في الرباط ، فإذا انحلا وانقطع ولّى كل واحد منهما عن صاحبه وهرب في الأرض ، وأخذ خلاف جهة الآخر ، وإن جعلا

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٦ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١١ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧٧ .

في إناء من قوارير ، أعني الجرذ والعقرب ، وإنما ذكرت القوارير لأنها لا تستر عن أعين الناس صنيعهما ، ولا يستطيعان الخروج لملاسة الحيطان ، فالفارة عند ذلك تختل العقرب ، فإن قبضت على إبرتها قرصتها وإن ضربتها العقرب ضرباً كثيراً فاستنفدت سمها كان [ذلك] من أسباب حتفها » .

أما تجريبه في النبات فقد ذكرت قصة في كلامي على حياته تتعلق باعتنائه بداره فقد أراد أن يغرس في داره أراكة ، فكان ينقل المشارات من مكان إلى مكان فما أفلح حب الأراك .

وإلى جنب هذه التجارب أعمال كان يعملها على سبيل الضحك كقوله[١] :

« وإذا أردت أن ترى من الفيل ما يضحك وتراه في أسخف حالاته [وأجهله] فألق إليه جوزة فإنه يريد أن يأخذ بطرف خرطومه ، فإذا دنا منها تنفس ، فإذا تنفس طارت الجوزة من بين يديه ، ثم يدنو ثانية ليأخذها ، فيتنفس أُخرى ، فتبعد [عنه] ، فلا يزال ذلك دأبه » .

وهذا يدلنا على مبلغ ميله إلى الهزل ، وعلى سر من أسرار روحه ، كما يتبين لنا ذلك في كلامنا على تهكمه .

هذه طائفة من تجارب الجاحظ في الحيوان ، قد نجد فيها صفة من صفات المجرِّب الحاذق ، وأُريد بهذه الصفة التطلع العلمي ، فإن هذا التطلع قد يحمل العالم على الاهتمام بأمور لا يكون لها في نظر العامة معنى من المعاني ، وقد نجد فيها شيئاً من الصفات التي تستلزمها التجربة ، كالانتباه والتنزه عن كل غرض ، وإنما ينقصها لوازم التجربة في عصرنا هذا ، فمن هذه اللوازم تنويع التجربة وبسط آفاقها ، ونقلها من شكل إلى شكل ، وقلبها وما شابه ذلك ، فلئن كان الجاحظ يجرب فما رأيناه في بعض تجاربه يذهب مذاهب مختلفة وصولاً إلى الحقائق ، فما كان ينوّع هذه التجارب ، أو يبسطها ، أو يخرج بها من صورة إلى صورة ، أو يقلبها من وجه إلى وجه .

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٥٤ .

ولقد كان ينقصه شيء أعظم من هذا كله على ما أعتقد ، فما كان يذهب من التجربة في أُمور خاصة إلى استنباط القوانين العامة ، وما كان يقابل بين أصناف الحيوان ، ويصنف ضروب هذا الحيوان . والمقابلة والتصنيف ركنان من أركان التحقيق في علم الحيوان ، وما رأيناه في بعض مقابلاته ليس بكثير .

إلا أن من علماء الطبيعة من لا يرى للتصنيف وجهاً فقد قال « بوفون » : ليس للطبيعة أصناف ولا أنواع ، فإنها لا تشتمل إلا على أفراد ، وإنما الأصناف والأنواع من أعمال عقلنا .

وكيف كان الأمر فالجاحظ ظهر من أحد عشر قرناً ، وليس من العدل أن نكلفه أُموراً لم تهتد إليها الفلسفة والعلم إلا من زمن غير بعيد .

وسواء أنقصت أُصوله التي كان يبني عليها في التحقيق نواقص ، أم لم ينقصها شيء فإنه لم يخرج في تجربته من زمرة كبار العلماء ، وما يقال في نماذج تجربته قد يقال في أنماط عيانه ، ولا بأس بأن أذكر طائفة من هذه المعاينات ، فقد أخذ عيانه أصنافاً مختلفةً من البشر ومن الحيوان أيضاً ، كالفيل والذباب والسنور والعقارب والفأر والحمير .

أما بعض معاينته لأُمور البشر فقد كان يختص بما يعرض للخصيان ، من هذا النوع قوله[1] :

« ومن العجب أنهم مع خروجهم من شطر طبائع الرجال إلى طبائع النساء ، لا يعرض لهم التخنيث ، وقد رأيت غير واحد من الأعراب مخنثاً متفككاً ، ومؤنثاً يسيل سيلاً ، ورأيت عدة مجانين مخنثين ، ورأيت ذلك في الزنج الأقحاح ، وقد خبرني من رأى كردياً مخنثاً ، ولم أر خصياً قط مخنثاً ، ولا سمعت به ، ولا أدري كيف ذلك ، ولا أعرف المانع منه ، ولو كان الأمر في ذلك إلى ظاهر الرأْي ، لقد كان ينبغي لهم أن يكون ذلك فيهم عاما » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٢ .

ومنه قوله[١] :

« وقد توجد المرأة ذات لحية ، وقد رأيت ذلك ، وأكثر ما رأيته في عجائز الدهاقين ، وكذلك الغبب والشارب ، وقد رأيت ذلك أيضاً ، وهي ليست في رأي العين بخنثى ، بل [نجدها] أنثى تامة ، إلا أن تكون لم تضرب في ذلك بالسبب الذي يقوى حتى يظهر في غير ذلك المكان ، [ولا تعرض اللحى للنساء إلا عند ارتفاع الحيض] ، وليس يعرض ذلك للخصي » .

ففي هذه المعاينة شيء من المقابلة .

وأما بعض معاينته لأمور الحيوان فأذكر من هذا النوع كلامه على شيء من أعاجيب الذباب ، وفيه صورة العالم الطُّلَعة الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ، وهذا كلامه[٢] .

« وأعجوبة أُخرى وهي عندي أعجب من كل شيء صدَّرنا به جملة القول في الذباب ، فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والتنوط ، فإنهما إذا كان الليل فإن أحدهما يتدلى من غصن الشجرة ، ويضم عليه رجليه ، وينكس رأسه ، ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور ، والآخر لا يزال يتنقل في زوايا بيته ، ولا يأخذه القرار خوفاً على نفسه ، فلا يزال كذلك ، وقد نتف قبل ذلك مما على ظهور الأشجار مما يشبه الليف ، فنفشه ثم فتل منه حبلاً ، ثم عمل منه كهيئة القفة ، ثم جعله مدلًّى بذلك الحبل ، وعقده بطرف غصن من تلك الأغصان ، إلا أن ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة ، ثم يتخذ عشه فيه ، ويأوي إليه مخافة على نفسه » .

ومن هذه المعاينات ما حكاه في بعض كلامه على غمس خراطيم الذباب في جوف لحوم الدواب وخرق جلودها الغلاظ ، قال[٣] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٥٢ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٢٥ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٠ .

« وربما رأيت الحمار ، وكأنه مُمَغَّر أو معصفر ، وإنهم مع ذلك ليجللون حمرهم ويبرقعونها ، وما يدعون موضعاً إلا ستروه بجهدهم ، فربما رأيت الحمير وعليها الرجال ، بأيديهم المناخس والمذابّ ، وقد ضربت بأنفسها الأرض ، واستسلمت للموت ، وربما رأيت صاحب الحمير إذا كان أجيراً يضربها بالعصا بكل جهده ، فلا تنبعث ، وليس لجلد البقرة والحمار والبعير عنده خطر. ولقد رأيت ذباباً سقط على سالفة حمار كان تحتي ، فضرب بأذنيه ، وحك رأسه بكل جهة [و] أنا أتأمله ، وما يقلع عنه ، فعمدت بالسوط لأنحيه به فنزا عنه ، ورأيت مع نزوه عنه الدم ، وقد انفجر كأنه كان يشرب الدم ، وقد سدّ المخرج بفيه ، فلما نحاه طلع » .

ولقد كان يراقب السنانير في داره نفسها ، فيشهد مقاتلتها للجرذان فقد قال[1] :

« وأنا رأيت سنوراً عندنا ساور جرذاً في بيت الحطب ، فأفلت الجرذ منه ، وقد فقأ عين السنور » .

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧٧ .

(٢)

معرفة السماع

و إلى جنب هذا المذهب الذي كان يذهبه في التحقيق ، أي مذهب الاستعانة بالتجربة والعيان ، مذهب آخر وهو معرفة السماع ، وقد أشار إليه في مقدمة كتاب الحيوان لما قال : فقد أخذ ، أي كتاب الحيوان ، من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وهذه الطريقة . أي طريقة التحقيق بالسماع ، قد يلجأ إليها أكابر العلماء في عصرنا أمثال « سبنسر » فقد وجدت أنه في كلامه على تأثير الحيوان في العمران كان يروي كلام أحد التجار على النمل ، فقد كان الجاحظ يعتمد في تحقيقه في بعض الأحوال على ما يسمعه من أقاويل متعلقها الحيوان ، فكان يسمع أخبار العطارين والجزارين والبحريين والسماكين والصيادين والملاحين والحوائيين والأطباء والأكرة وغيرهم من أصدقائه ، وأهل المعرفة والعلم ، وقد تدخل هذه الأخبار في أبواب شتى من أبواب الحيوان ، مثل تقطيع أصوات بعض الطير ، أو اقتتال العقارب والفأر ، أو طعم العقارب ، أو طعم الحيات ، أو سم الأفاعي ، أو أخلاق بعض الكلاب ، أو بيوت الزنابير ، أو ختل الأسد لفريسته ، أو زواج الشفنين ، أو تسافد الذئب والذئبة ، أو بعض أخبار الفيل أو أخبار السمك .

ولكن كيف كان الجاحظ ينظر في هذه الأخبار ، أفكان يلتقطها التقاطاً ليس فيه شيء من التمحيص ، أفكان يجمع هذه الأخبار دون أن يعرضها على تمييزه ، أو يعمل فكرته فيها ، وهو المتوثق في تحقيقه ، المتثبت في تدقيقه ، الذي لا تشفيه إلا المعاينة ، والذي لا يصدق إلا ما تثبته الأدلة ، ويخرجه البرهان من باب الإنكار ؟ أم كان الجاحظ يعمل الروية في الذي يتصل به من الأخبار ، فلا ينقل إلا عن

رجل لا يرتاب بخبره[١] ، أو عن رجل قاطع الشهادة[٢] ، أو عن أمثال هذه الطبقة من الرجال ممن يصدق أخبارهم[٣] ، أو عن أستاذ من الأساتيذ ، أو عن رجل يثق بعقله و يسكن إلى خبره[٤] ؟

أو كان ينقل عن جماعة إذا خالجه الشك في أخبارهم نبه عن غرابة أقوالهم ، وغثاثة عباراتهم ، وسماجة مخارج هذه الأقوال والعبارات ، حتى يجعل القارئ على هدى من أمره ؟

لقد وقفنا على نماذج مختلفة من الأخبار التي كان ينقلها ، فمرة كان يسمع ، من هذه الأخبار ما لا يهتدي إلى الإحاطة بأسراره ، فيسأل عن هـذه الأسرار أهل المعرفة حتى ينكشف له الأمر ، من هذا النوع ما حكاه لنا لما قال[٥] :

« وقال ابن الكلبي ، قال الشرقي بن القطامي ذات يوم : أرأيتم لو فكر رجل منكم عمره الأطول في أن يتعرف الشيء الذي تتخذ الزنابير بيوتها المخرّقة بمثل المجاوب المستوية في الأقدار ، المتحاجزة بالحيطان ، السخيفة في المنظر ، الخفيفة في المحمل ، المستديرة ، المضمر بعضها ببعض ، المتقاربة الأجزاء ، وهي البيوت التي تعلم أنها بنيت من جوهر واحد وكأنها من ورق أطباق صغار الكاغد المزرّرة ، قولوا لي : كيف جمعته ، ومن أي شيء أخذته ، وهو لا يشبه البناء ، ولا النسج ، ولا الخياطة ؟ ولم يفسر ابن الكلبي والشرقي في ذلك شيئاً ، فلم يصر في أيدينا منها إلا التعجب والتعجيب ، فسألت بعد ذلك مشايخ الأكرة فزعموا أنها تلتقطه من زبد المُدود فلا يدري أمن نفس الزبد تأخذ ، أم من شيء يكون في الزبد ، والذي عرّف الزنابير مواضع تلك الأجزاء ، ودلها على ذلك الجوهر هو الذي علم العنكبوت ذلك النسج » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٢٥ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧٠ .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٦٢ .

(٤) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٤٢ .

(٥) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ١٢ .

فلما رأى الجاحظ أن ابن الكلبي والشرقي لم يفسرا له كيف جمعت الزنابير بيوتها ومن أي شيء أخذتها ، لم يطمئن فكره ، ولم يهدأ باله ، فقصد إلى مشايخ الأكرة وسألهم عن ذلك ، وهذه صفة من صفاته الغالبة ، فإنه مجبول على محبة الوصول إلى الحقائق ، يسأل عنها أيا كان ممن له اتصال بها .

ومن هذا النوع قوله في طعم الحيات وقد سأل عنه بعض الحوائين ، فقد قال(١) :

« وسألت بعض الحوائين ممن يأكل الأفاعي حيّة ونيّة فما دونها ، فقلت : مابال الحيات منتنة الجلود والجروم ، قال : أما الأفاعي فإنها ليست منتنة ، لأنها لا تأكل الفأرة فأما الحيات عامةً فإنها تطلب الفأر طلباً شديداً ، وربما رأيت الحية وما يكون غلظها إلا مثل غلظ إبهام الكبير ، ثم أجدها قد ابتلعت الجرذ أغلظ من الذراع ، فأنكر نتن الحيات إلا من هـذا الوجه ، ولم أر الذي قال قولاً . ودخل أعرابي بعض الأمصار فلقي من الجرذان جهداً ، فوجد بها ودعا عليها فقال : الأبيات . . . »

ومرة كان يسمع الخبر فيثبته دون إبداء رأي فيه ، كقوله في سم الأفاعي(٢) :

« ومن عجيب سم الأفاعي ما أخبرني بعض من يَخْبُر شأنَ الأفاعي، قال: كنت بالبادية، ورأيت ناقة [ترتع] وفصيلها يرتضع من أخلافها، إذ نهشت الناقة على مشافرها أفعى ، فبقيت واقفة سادرة ، والفصيل يرتضع ، فبينما هو يرتضع إذ خرّ ميتاً ، فكان موته قبل موت أمه من العجيب ، وكان مرور السم في تلك الساعة القصيرة أعجب ، وكان ما صار من فضول سمها في لبن الضرع حتى قتل الفصيل قبل أمه عجبا آخر » .

أو قوله في بعض أخبار الفيل(٣) :

« وحدثني صديق لي قال : رأيت الفياليين على ظهر فيل من هذه الفيلة ، وأقبل صبي يريد السندي الراكب ، فكلم الفيل بالهندية ، فوقف ، ثم كلمه ، فمد يده رافعاً

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٨٠ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١١١
(٣) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٧٠ .

في الهواء حتى ركبها الغلام ، ثم رفع يده حتى مد السندي يده ، فأخذ بيد الصبي » .

أو قوله في أخبار تسافد الذئب والذئبة :(١)

« وحدثني أحمد بن المثنى قال : خرجت إلى صحراء خوخ لجناية جنيتها ، وخفت الطلب وأنا شاب ، إذ عرض لي ذئب ، فكنت كلما درت من شق استدار بي ، فإذا درت له دار من خلفي ، وأنا وسط برية لا أجد معيناً إلا بشيء أسند إليه ظهري ، وأصابني الدوار وأيقنت بالهلكة ، فبينا أنا كذلك وقد أصابني ما أصابني ، وذلك هو الذي أراده الذئب وقدره ، إذا ذئبة قد عرضت ، وكان من الصنع وتأخير الأجل أن ذلك كان في زمن اهتياجها وتسافدها ، فلما عاينها تركني وقصد نحوها ، فما تلعثم أن ركبها . وقد كنت قرأت في بعض الكتب أنها تلتحم ، ففوّقت سهمي وهما ينظران إلي ، فلما لم أر عندهما نكيراً حقق ذلك عندي ما كان في الكتاب من تلاحمهما ، فمشيت إليهما بسيفي حتى قتلتهما » .

أو قوله في بعض أخلاق الكلاب وعاداتها :(٢)

« وحدثني صديق لي قال : كان عندنا جرو كلب ، وكان عندنا خادم لهجاً بتقريبه مولعاً بالإحسان إليه ، كثير المعاينة له ، فغاب عنّا إلى البصرة أشهراً ، فقلت لبعض من عندي : أتظنون أن فلاناً ، يعني الكلب ، يثبت اليوم صورة فلان ، يعني خادمه الغائب ، وقد فارقه وهو جرو ، وقد صار كلباً يشغر ببوله ؟ قالوا : ما نشك أنه نسي صورته ، وجميع بر كان يبره ، قال : فبينا أنا جالس في الدار إذ سمعت من قبل باب الدار نباحه ، فلم أر شكل نُباحه من التأنب والتغثيث والتوعد ، ورأيت فيه بصبصة السرور وحنين الإلف ثم لم ألبث أن رأيت الخادم طالعاً علينا ، وإن الكلب ليلتفّ على ساقيه ، ويرتفع إلى نخديه ، وينظر في وجهه ، ويصيح صياحاً يستبين فيه الفرح ، ولقد بلغ من إفراط سروره أني ظننت أنه عرِض ، ثم كان بعد ذلك يغيب الشهرين

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٧٨ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٤٥ .

والثلاثة ، ويمضي إلى بغداد ، ثم يرجع إلى العسكر بعد أيام ، فأعرف بذلك الضرب من البصبصة ، وبذلك النوع من النباح ، أن الخادم قدم ، وحتى قلت لبعضهم عندي ينبغي أن يكون فلان قد قدم ، وهو داخل عليكم مع الكلب ، وزعم لي أنه ربما ألقى لهذا الجرو إلى أن صار كلباً تامًّا بعض الطعام ، فيأكل منه ما أكل ، ثم يمضي بالباقي ليخبأه ، وربما ألقى اليه الشيء وهو شبعان ، فيحمله حتى يأتي به بعض المخابئ فيضعه هناك ، حتى إذا جاع رجع إليه ، فأكله ، وزعم لي غلماني وغيرهم من أهل الدرب أنه كان ينبح على كل راكب يدخل الدرب إلى عراقيب برذونه ، سائساً كان أو صاحب دابة ، إلا أنه كان إذا رأى محمد بن عبد الملك داخلاً إلى باب الدرب أو خارجاً منه ، لم ينبح البتة ، لا عليه ولا على دابته ، بل كان لا يقف له علي الباب ، ولا على الطريق ، ولكنه يدخل الدهليز سريعاً ، فسألت عن ذلك ، فبلغني أنه كان إذا أقبل صاح به الخادم وهوّله بالضرب ، فيدخل الدهليز ، وأنه ما فعل ذلك به إلا ثلاث مرات ، حتى صار إذا رأى محمد بن عبدالملك دخل الدهليز من تلقاء نفسه ، فإذا جاوز وثب على عراقيب دواب الشاكرية ، ورأيت هذا الخبر عندهم مشهور ، قال : وكنا إذا تغذينا دنا من الخوان ، فرجمناه مرة أو مرتين ، فكان لا يقرب بنا لمكان الرجم ، ولا يبعد عن الخوان لعلة الطمع ، فإن ألقينا إليه شيئاً أكله ثم ودنا من أجل ذلك بعض الدنو ، فكنا نستظهر عليه ، فنرمي باللقمة فوق مربضه بأذرع ، فإذا أكلها ازداد في الطمع ، فقرب به ذلك من الخوان ، ثم يجوز موضعه الذي كان فيه ، لولا ما كنا نقصد اليه من امتحان ما عنده ليصير ما يظهر لنا حديثاً ، لكان إطعام الكلب والسنور من الخوان خطأ من وجوه » .

أو قوله في السنانير :(١)

« وزعم بعض الأطباء أن السنور إنما يدفن خرأه ، ثم يعود إلى موضعه فيشتمه ، فإن كان يجد من ريحه بعد شيئاً زاد عليه من التراب ، لأن الفأرة لطيفة الحس جيدة

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧٨ .

الشم ، فإن وجدت تلك الريح ، عرفتها ، فأمعنت في الهرب ، فلذلك يصنع السنور ما يصنع » .

أو قوله في طعم العقارب :(١)

« وقد زعم ناس ممن يأكلون العقارب مشوية ونية أنها كالفراخ السمان » .

وحيناً كان يسمع الأخبار فيرتاب بها ارتيابا شديداً ، وخاصة أخبار البحريين ، فما كان يغفل عن التنديد بهم في كل فرصة يصيبها .

من هذا النحو قوله في بعض كلامه على السمك :(٢)

« ولم نجعل لما يسكن الملح والعذوبة والأنهار والأدوية والمناقع والمياه الجارية من السمك ، ومما يخالف السمك مما يعيش مع السمك ، باباً مجرداً ، لأني لم أجد في أكثره شعراً يجمع الشاهد ، ويوثق منه بحسن الوصف ، وينشط بما فيه من غير ذلك للقراءة ، ولم يكن الشاهد عليه إلا أخبار البحريين ، وهم قوم لايعدون القول في باب الفعل ، وكلما كان الخبر أغرب ، كانوا به أشد عجباً ، مع عبارة غثة ، ومخارج سمجة ، وفيه عيب آخر وهو أن معه من الطول والكثرة مالا تحتملونه ولو غنًّا كم بجميعه مخارق ، وضرب عليه زلزل ، وزمر عليه برصوما ، فلذلك لم أتعرض له » .

أو قوله في موطن آخر(٣) :

« وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الأخبار أن إياس بن معاوية زعم أن الشبُّوط كالبغل ، وأن أمها بُنِّيَّة ، وأباها زَجْرٌ ، وأن من الدليل على ذلك أن الناس لم يجدوا فى بطن شبوطة قط بيضاً . وأنا أخبرك أني قد وجدته فيه مراراً ، ولكني وجدته أصغر جثة ، وأبعد من الطيب ، ولم أجده عامًّا كما أجده في بطون جميع السمك ، فهذا قول أبي وائلة إياس بن معاوية المزني الفقيه القاضي ، وصاحب الأزكان

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٥ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٦ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٦ .

وأفوق من كُرْز بن علقمة ، وداهية مضر في زمانه ، ومفخر من مفاخر العرب ، فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحريين ، وأحاديث السماكين ، وإلى ما في كتاب رجل لعله أن لو وجد هـذا المترجم أن يقيمه على المصطبة ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه ، ومن إفـاد معانيه بسوء ترجمته » .

وإذا كانت أخبار البحريين مما يتقبله بعض الناس وهو لم يوقن به كل الإيقان نبه عليه كقوله(١) :

« وسمعت حديثاً من شيوخ ملاحي الموصل ، وأنا هائب له ، ورأيت الحديث يدور بينهم ، ويتقبله جميعهم ، وزعموا أن الأسد ربما جلل قلس السفينة ، فيتشبث به ليلاً ، والملاحون يمدون السفينة ، فلا يشكون أن القلس قد التف على صخرة ، أو تعلق بجذم شجرة ، ومن عادتهم أن يبعثوا الأول من المدادين ليحله ، فإذا رجع إليه الملاح ليمده تمدد الأسد بالأرض ، ولزق بها ، وغمض عينيه كيلا يبصر وبيصهما بالليل ، فإذا قرب منه وثب عليه فخطفه ، فلا يكون الملاحين هم إلا إلقاء أنفسهم في الماء ، وعبورهم إليه ، وربما أكله إلا ما بقي منه ، وربما جر فريسته إلى عريسه وعرينه ، وإلى أجرائه وأشباله ، وإن ذلك على أميال » .

أو إذا كان البحري مقتصداً في القول ، سديد الرأي ، قليل الكلفة ، أخذ عنه الخبر وأشار إلى صفاته حتى ينفي الشبهة عنه ، كما قال في بعض المواطن(٢) :

« وأخبرني رجل من البحريين لم أر فيهم أقصد ولا أسد ولا أقل تكلفاً منه ، قال : لم أجدهم يشكون أن فيلاً ضرب فيلاً فأوجعه ، فألح عليه ، وأنهم عند ذلك نهوه وخوفوه وقالوا : لا تنم حيث ينالك ، فإنه من الحيوان الذي يحقد ويطالب ، ولما أراد ذلك السائس القائلة شده إلى أصل شجرة ، وأحكم وثاقه ، ثم تنحى عنه بمقدار ذراع ونام ، ولذلك السائس جمة قال : فتناول الفيل بخرطومه غصناً كان مطروحاً ،

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٤٥ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٧١ .

فوطئ على طرفه حتى تشعث ، ثم أخذه بخرطومه فوضع ذلك الطرف على جمة الهندي ، ثم لواها بخرطومه ، فلما ظن أنها تشبكت به وانعقدت جذب العود جذبة فإذا الهندي تحت قوائمه فخبطه خبطة كانت نفسه فيها ، فإن كان الحديث حقاً في أصل مخرجه فكفاك بالفيل معرفة ومكيدة ، وإن كان باطلاً فإنهم لم ينحلوا الفيل هذه النحلة دون غيره من الدواب إلا وفيه عندهم ما يحتمل ذلك ويليق به » .

على أنه كان ينقل عن فريق منهم من غير أن يتبين في كلامه الشك ، من هذا الشكل قوله[١] :

« ويزعم البحريون أن طائرين يكونان ببلاد السُّفَالة ، أحدهما يظهر قبل قدوم السفن إليهم ، وقبل أن يمكن البحر من نفسه لخروجهم في متاجرهم ، فيقول الطائر : قرب آمد ، فيعلمون بذلك أن الوقت قد دنا ، وأن الإمكان قد قرب ، قالوا : ويجيء به طائر آخر ، وشكل آخر فيقول : سمارو ، وذلك في وقت رجوع من قد غاب منهم ، فيسمون هذين الجنسين من الطير : قرب ، وسمارو ، كأنهم سموهما بقولهما ، وتقطيع أصواتهما ، كما سمت العرب ضرباً من الطير القطا ، لأن القطا كذلك تصيح ، وتقطع أصواتها : قطا ، وكما سموا الببغا بتقطيع الصوت الذي ظهر منه ، فيزعم أهل البحر أن ذينك الطائرين لا يطير أحدهما أبداً إلا في إناث ، وأن الآخر لا يطير أبداً إلا في ذكورة » .

وربما نقل عن بعضهم كلاماً جعله حجة يحاجّ بها أرسطاطاليس في بعض رده عليه ، فإنه لما قال[٢] :

« وقد قلت لرجل من البحريين ، زعم أرسطاطاليس أن السمكة لا تبتلع الطعم أبداً إلا ومعه شيء من ماء ، مع سعة المدخل ، وشره النفس ، فكان من جوابه أن قال لي : ما يعلم هـذا إلا من كان سمكة ، أو أخبرته به سمكة ، أو حدَّثه بذلك الحواريون

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٦٢ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٦ .

أصحاب عيسى ، فإنهم كانوا صيّادين ، وكانوا تلامذة المسيح ، وهذا البحري صاحب كلام ، وهو يتكلف معرفة العلل ، وهذا كله جوابه ، ولكني لن أدَعَ ذكر بعض ما وجدته في الأشعار والأخبار أو كان مشهوراً عند من ينزل الأسياف وشطوط الأودية والأنهار ، و يعرفه السماكون ، و يقرّ به الأطباء بقدرما أمكن من القول » .

جعل قول البحري حجة له في ردّه على أسطاطاليس (١) :

« وأما قول صاحب المنطق في أن الضفادع لا تنقّ حتى تدخل فكها الأسفل في الماء لأن الصوت لا يجيئها حتى يكون في فكّها ماء ، فقد قال ذلك ووافقه عليه ناس من العلماء وادعوا في ذلك العيان ، فأما زعمه أن السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم إلا ببعض الماء فأي عيان دلّ على هذا ، وهذا عسر » .

والخلاصة أنه كان ينقل عن ثقة ، وهذا الثقة قد يكون أستاذاً كما في قوله (٢) :

« ودخلت أنا مرة وحمدان [بن] الصباح على عبيد [بن] الشونيزي ، فإذا عنده برنية زجاج فيها عشرون عقرباً ، وعشرون فأراً ، فإذا هي تقتتل ، فخيل لي أن تلك الفأر قد اعتراها ورم من شدة وقد اللسع ، ورأيت العقارب قد كلت عنها وتاركتها ، ولم أر إلا هذا المقدار الذي وصفت ، وحدثنا عنها عبيد بأعاجيب ، ولو كان عبيد أستاذاً لخبّرت عنه ، ولكن موضع البياض من هذا الكتاب خير من جميع ما كان لعبيد » .

هذه جملة القول في معرفة سماعه ، ومنها يتبين لنا أن الجاحظ لم يخلُ من التوثق في تسقط أخباره ، فإذا وجد مجال الشك ذا سعة عمد إلى الشك ، لأن الرجل الذي يقول في كلامه على الأخبار ، وعلى المولعين بها : (٣)

« إن الناس موكلون بحكاية كل عجيب ، وميسرون للإخبار عن كل عظيم ، وليسوا للحسن أحكى منهم للقبيح ، ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر ، وعلى قدر كبر الشيء تكون حكايتهم له واستماعهم » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٥٦ . (٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧٨ . (٣) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ٦٢ .

والذي يقول في موطن آخر :[١]

« إن الخبرقد يكون أصله ضعيفاً ثم يعود قويًّا، ويكون أصله قويًّا فيعود ضعيفاً، للذي يعتريه من الأسباب ، ويحل به من الأعراض، من لدن مخرجه وفصوله إلى أن يبلغ موته ومنتهى أجله ، وغاية التدبير فيه ، والمصلحة عليه ، فلما كان هذا مخوفاً وغير مأمون على المتقادم منه ، وضع الله تعالى لنا على رأس كل فترة علامة ، وعلى غاية كل مدة أمارة ، ليعيد قوة الخبر ، ويجدد ما قد همَّ بالدروس من أنباء المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين . »

إن الذي يقول هذا القول وأضرابه لعارف بما يدخل الأخبار عادةً من نقص الناقصين ، أو زيادة الزائدين ، على حسب الأهواء ، أو على قدر متانة الحفظ وضعفه ، أو على قياس الفتنة بالحقيقة والولع بالخيال ، فلهذا لم يجد الجاحظ له بدًّا من التثبت في تصديق بعض الأخبار ، ومن الشك في طائفة منها .

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الثاني ص ٥٦ .

(٣)

استعانته بالعقل — نقده العلمي

تجربة وعيان وسماع ، هذه أصول الجاحظ في تحقيق الأخبار ، وأريد بالأخبار في هذا المقام أخبار العلم ، وخاصة علم الحيوان ، فقد استكمل الجاحظ كثيراً من صفات العالم ، جرَّب وعاين وسمع . ولهذه الأُصول شأن عظيم في علوم الطبيعة ، وبلغ من هذا الشأن أنهم عابوا بعض علماء الطبيعة بزهدهم في التجربة والعيان ، فعابوا مثلاً العالم (بوفون) ببعض كتبه في نشوء الأرض ، وفي أدوار الطبيعة فقالوا فيه : وصف كثيراً وعاين قليلاً[1] .

فالجاحظ لم يفته فضل العيان والتجربة ، وإن فاته في بعض الأحوال روح الترتيب في الذي عاينه ، أو جرَّب فيه ، أو فاته خيالُ العالم ، وأعني بهذا الخيال قدرة العالم على التعميم ، وعلى الحزر والحدس لاستنباط القوانين العامة ، أو فاته التمكن من إنشاء المقاييس العلمية ، فقد نجد كثيراً من معارفه مبعثرة لا يجمعها نظام واحد .

وكما جرَّب وعاين فقد سمع ، وكان في معرفة السماع شديد التثبت والتوثق .

ولقد ضمَّ إلى هذه المذاهب كلها ، إلى التجربة والعيان والسماع ، مذهباً آخر وهو العقل ، فقد جعل العقل دليله في مجامع أُموره ، فما كان يصدّق إلا ما تثبته الأدلة ، ويحققه الامتحان ، فالعقل في نظره إنما هو الحجة في حكم الامور .

فلننظر في فصلنا هذا في طائفة من خصائص عقله قد نهتدي إليها في أبواب كثيرة من أبواب الحيوان ، كالكلام على بعض عجائب الحيوان ، أو على طول عمر البغل ، وأعمار ذكورة العصافير ، أو على ابتلاع السمكة للطعم ، أو على وضع النمرة ولدها وهو متطوق بأفعى ، أو على إلقاح الثور ، أو على الضفادع ، أو على الخلق المركب ، أو على

---

(١) أدب القرن الثامن عشر « أميل فاكه ص ٤٣١ » .

الأفاعي أو على ولد الكركدن ، أو على خلق السنانير والخنازير ، أو على تعاون الذر ، أو على غير ذلك من الأمور التي قد يطول استقصاؤها .

فإذا أردنا أن نعرف خصائص هذا العقل في التحقيق ، لزمنا أن ننظر إلى بعض مواطن من المواطن التي يظهر فيها تصرف العقل ومقدار نفاذه ، وأظن أننا إذا بحثنا عن أشياء يسيرة من طبيعة نقده العلمي ، أو من طبيعة شكه في أمور العلم ، أو من طبيعة تنقيبه عن علة هذه الأمور ، استطعنا أن نحيط بناحية من نواحي عقله .

أما طبيعة نقد الجاحظ في أبواب العلم فالذي يعنينا من أمرها إنما هو الوقوف على الأمور التي وطّن نفسه على إبطالها وردّها ، والوقوف على الأمور التي كان يعيب بها عالماً من العلماء ، فهل كان يقرع الحجة بأشباهها ، أم كان يرد قولاً من الأقوال مقتصراً على مجرّد الرد ؟ وهل كان يجسر نقد العلماء دون التقيد بشيء ، ومن هم العلماء الذين نقدهم ؟

وأما طبيعة الشك فالذي يهمنا من شأنها أن نعرف أيميل الجاحظ إلى الشك ؟ أيشك في الأمور وصولاً إلى اليقين ؟ أم يشك فيها للشك وحده ؟ وإذا شك في أمر فهل يبيّن الأسباب التي من أجلها يبطل هذا الأمر في نظره ، أم أنه يشك في هذا الأمر دون بيان شيء من هذه الأسباب ؟

وأما طبيعة تنقيبه عن علة من العلل فالذي يشغلنا منها إنما هو مقدار تصرف عقله في هذا التنقيب ، ومبلغ نفاذ هذا العقل .

فلنتفرغ قبل كل شيء للكلام على نقده العلمي ، ما الذي كان يشغل بال الجاحظ في هذا النقد ، هل كان يجسر على التكذيب في كل حين ، من هم العلماء الذين نقدهم ؟

همُّ الجاحظ الابعدُ عرض الأمور على التصحيح والتمييز ، فقد كان مولعاً بالتنبيه على الخرافات سواء أكانت هذه الخرافات في أبواب العلم ، أم كانت في أبواب الدين ، فهو كثير التنديد بغث الأمور وممتنعها ، فإذا أصاب فرصة في التحذير من توليد الكذابين ومن غرائب الأخبار حذّر بقدر ما أوتيه من حكمة وبيان ،

فإن الذي لا يصدق إلا ما تثبته الأدلة و يحققه العيان والتجربة والسماع ، قد يصعب عليه أن يجعل مجال الخرافات ذا سعة فمن قوله في هذا المعنى : (١)

« وقد ابتلينا بضربين من الناس ، ودعواهما كبيرة ، أحدهما يبلغ من حبه للغريب أن يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين ، وقلبه قراراً لغرائب الزور ، ولكلفه بالغريب وشغفه بالطُرَف لا يقف على التصحيح والتمييز ، فهو يدخل الغث في السمين ، والممكن في الممتنع ، و يتعلق بأدنى سبب ، ثم يدفع عنه كل الدفع ، والصنف الآخر ، وهو أن بعضهم يرى أن ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم إلا من خاف التقزُّزَ من الكذب . . . »

فالجاحظ كما يتبين من هذا الكلام يكره غرائب الأخبار مما لا يحققه العقل ، ومن هذه الغرائب التي تجرّد لردها والتحذير منها ، كلامهم على بعض الخلق المركب فقد قال : (٢)

« وقالوا في الخلق المركب ضروباً من الحق والباطل ، ومن الصدق والكذب ... وزعم حريث أنه كان بأيْدجَ فإذا سحابة [دهماء] طَخْياء تكاد تمس الأرض ، وتكاد تمس قمم رؤوسهم وأنهم سمعوا فيها كأصوات المجانيق ، وكهدير الفحول في الأشوال ، ثم إنها دفعت بأشد مطر رُئي أو سمع به ، حتى استسلموا للغرق ، ثم اندفعت بالضفادع العظام ، ثم اندفعت بالشبابيط السمان الِخذال ، فطبخوا واشتووا وملحوا وادخروا » .

وقال في مقام آخر شبه هذا الكلام : (٣)

« وفيها أعجوبة أُخرى ، وذلك أنا نجد من كبارها وصغارها الذي لا يحصى في غب المطر ، إذا كان المطر ديمة ، ثم نجدها في المواضع التي ليس بقربها بحر ولا نهر ولا حوض ولا غدير ولا واد ولا بئر ، ونجدها في الصحاصح الأماليس ، وفوق ظهور مساجد الجماعة ، حتى زعم كثير من المتكلفين ، ومن أهل الخسارة ، وممن لا يحتفل

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٨ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٨ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٥٣ .

بسوء الحال عند العلماء ، ولا يكترث للشك ، أنها كانت في السحاب ، ولذلك طمع بعض الكذابين ممن نكره اسمه ، فذكر أن أهل أيذج مطروا [مرةً] أكبر شبابيط في الأرض وأسمنها [وأعذبها] وأعظمها ، [وأنهم اشتووا وملّحوا وقرّسوا وتزوّد منه مسافرهم] وإنما تلك الضفادع شيء يخلق في تلك الحال بمزاوجة الزمان ، وتلك المطرة ، وتلك الأرض وذلك الهواء . والضفادع من الخلق الذي لا عظام له ، ويزعم أصحاب الغرائب أن العلاجيم منها الذكورة السود ، ويقال : أرسَح من ضفدع ، وتزعم الأعراب أن الضفدع كان ذا ذنب وأن الضب سلبه إياه ، وذلك في خرافة من خرافات الأعراب ، [ويقول آخرون : إن الضفدع إذا كان صغيراً كان ذا ذنَب ، فإذا خرجتْ له يدانِ أو رجلانِ سقط . وتقول العرب] : لا يكون ذلك حتى يجمع بين الأروى والنعام ، وحتى يجمع بين الماء والنار ، وحتى يشيب الغراب ، وحتى يبْيضّ القارُ ، وحتى تقع السماء على الأرض » .

يستخرج مما تقدم أن الذي يشغل بال الجاحظ إنما هو التنبيه على الكذابين وعلى غرائب الأخبار ، إلا أنه لا يكلف نفسه في بعض هذا التنبيه المجيء بالبرهان ، وكأنما رأى أن تكذيب هذه الأعاجيب إنما هو معلوم في بدائه العقول ، فلا يحتاج إلى شيء من البراهين على أن اندفاع السحابة بالضفادع أو بالسمك بعد زوبعة من الزوابع ليس فيه شيء من الاستغراب . وإنما الجاحظ لم ير هذا كله بعينيه .

وقد يظهر لنا أن حرية النقد كانت ضيقة المذاهب في بعض الأحايين ، فكان الجاحظ يشير إلى الأجناس العجيبة من الأقوال ، دون أن يجسر في كتبه على تكذيب العلماء ودراس الكتب ، أو على تسميتهم ، من هذا النحو قوله :(١)

« والعوام تضرب المثل في الشدة والقوة بالكركدن ، وتزعم أنه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواتدِ في وسط جبهته ، فلا يشعر بمكانه ، ولا يحس به حتى ينقطع على الأيام ، وهذا القول بالخرافة أشبه ، وأعجب من القول في ولد الكركدن ، ما يخبرنا به ناس من أهل النظر والأدب وقراءة الكتب ، وذلك أنهم يزعمون أن النمرة لا تضع ولدها أبداً إلا وهو متطوق بأفعى ، وأنها تعيش وتنهش ، إلا أنها

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٤٢ .

لا تقتل ، ولو كنت أجسر في كتبي على تكذيب العلماء ودرّاسي الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر ، وليس هذا عندي كزعمهم أن الأفعى تلد وتبيض ، لأن تأويل [ذلك أن] الأفعى تتعضّل ببيضها ، فإذا طرّقت بالبيض تلوّت ، فحطمته في جوفها ، ثم ترمي بتلك القشور والخراشي أولاً فأولاً ، كما لا بد لكل ذات حمل أن تلقي مشيمتها » .

أو قوله في موطن آخر في خرافة من الخرافات ، وهو لم يسم صاحب هذه الخرافات[1]

« ومما أكتب لك من الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وقاح أخبار بعض العلماء ، وبعض من يؤلف الكتب ، ويقرؤها ويدارس أهل العبر ويتحفظها ، زعموا أن الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى ، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته ، قال الفضل بن إسحق : أنا رأيت العفص والبلوط في غصن واحد ، قال : ومن العفص ما يكون مثل الأكر ، وقد خبرني بذلك غيره ، وهو يشبه تحول الأنثى ذكراً ، والذكر أنثى ! وقد ذكرت العرب في أشعارها الضباع والذئاب والسبع والعسبار وجميع الوحوش والحشرات والأحناش ، وهم أخبر الخلق بشأن الضبع ، فكيف تركت ما هو أعجب وأطرف ، وقد ذكرت العلماء الضباع في مواضع من الفتيا لم نر أحداً ذكر ذلك ، وأولئك بأعيانهم هم الذين زعموا أن النمر تضع في مشيمة واحدة جرواً وفي عنقه أفعى قد تطوقت به ، وإذا لم يأتنا في تحقيق الأخبار شعر شائع ، أو خبر مستفيض ، لم نلتفت لفته » .

على أنه قد تعرض لجماعة ، فسماهم وجسر على تكذيبهم ، فقد قال :[2]

« ورووا عن أبي وائلة أنه زعم أن من الدليل على أن الشبوط كالبغل أن الناس لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبابيط في جوفها بيضاً قط ، فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل ، المنعوت بثقوب الفراسة ، ودقة الفطنة ، صحيحاً ، فما أعظم المصيبة علينا فيه ، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً ، وذلك أني سمعت له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وأقسام الأجناس ، يدل على

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٤٩

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٨ .

أن الرجل حين أحسن في أشياء وهَمَّه العجب بنفسه أنه لا يروم شيئاً فيمتنع عليه، وغرّه من نفسه الذي غرّ الخليل بن أحمد حين أحسن في النحو والعروض، فظن أنه يحسن الكلام وتأليف اللحون، فكتب فيهما كتابين لا يشير بهما ولا يدل عليهما إلا المرة المحترقة، ولا يؤدي إلى مثل ذلك إلا خذلان من الله تعالى، فإن الله عز وجل لا يعجزه شيء».

إلا أن الذي تعرض له كثيراً في كتابه إنما هو أرسطاطاليس، فقد عاب عليه أموراً كثيرةً، منها أنه لم يَبْن في تحقيقه على الأصول التي بنى عليها الجاحظ نفسه، أي لم يثبت أموره بالعيان أو بمعرفة السماع، من هذا النحو قوله:(١)

«وزعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان أن ثوراً فيما سلف من الدهر، سفد وألقحَ من ساعته بعد أن خصي، فإذا أفرط المديحُ وخرج من المقدار، أو أفرط التعجيبُ وخرج من المقدار، احتاج صاحبه إلى أن يثبته بالعيان، أو بالخبر الذي لم يكذب مثله، وإلا فقد تعرض للتكذيب، ولو جعلوا حركتهم خبراً وحكاية، وتبرؤوا من مينه، ما ضرهم ذلك، فكان ذلك أصون لأقدارهم، وأتم لمروآت كتبهم».

أو قوله في موطن آخر:(٢)

«وفي المثل: أغلم من تيس بني حمّان، و [بنو] حمان تزعم أنه قَفَطَ سبعين عنزاً، وقد فريت أوداجه، فهذا من الكذب الذي يدخل في باب الخرافة، وقد ذكر أرسطوطاليس في كتاب الحيوان أنه قد ظهر ثورٌ وثب بعد أن خصي.. فنزا على بقرة فأحبلها، ولم يَحْكِ هذا عن معاينته، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر، وتضيق بتصديق هذا الشكل».

أو قوله:(٣)

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧٠.
(٢) كتاب الحيوان — الجزء « ص ١٤٧.
(٣) كتاب الحيوان — الجزء « ص ١٥٦.

« وأما قول صاحب المنطق فى أن الضفادع لا تنق حتى تدخل فكها الأسفل في الماء ، لأن الصوت لا يجيئها حتى يكون في فكها ماء ، فقد قال ذلك ، و [قد] وافقه عليه ناس من العلماء ، وادعوا في ذلك العيان ، فأما زعمه أن السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم إلا ببعض الماء ، فأي عيان دل على هذا ، وهذا عسر » .

أو قوله :(١)

« وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل ، وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه فى الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء ، وما عندنا في معرفة ما ادعى إلا هذا القول » .

ولم يقتصر الجاحظ على مؤاخذة أرسطاطاليس بأنه لم يعتمد فى تحقيقه على العيان والسماع والامتحان ، وإنما عاب عليه فى بعض الأحوال إنه إذا تكلم على حيوان فإنه لا يستوفي عجائب هذا الحيوان ، من هذا كلامه على الفيل:(٢)

« وما أعجب ماقرأت لصاحب الحيوان فى كتاب المنطق ، وجدته وقد ذكر [رأس الفيل و] قِصَر عنقه ولم يذكر انقلاب لسانه ، وذلك أعجب ما فيه ، ولم يذكر في كم يضع ، ولا مقدار وزن أعظم الأنياب ، وكيف يخرج من بطن أمه نابت الأسنان » .

وأحياناً كان يتعرض له ، فيقف في تعرضه موقفاً وسطاً دون دفع الخبر ، أو قبوله كقوله(٣) .

« وذكر صاحب المنطق أن الطير الكبير الذي يسمى باليونانية (اغتيوليس) يحكم عشه ويتقنه ، ويجعله مستديراً مُدَاخَلاً ، كأنه كرة معمولة ، وروى أنهم يزعمون أن هذا الطائر يجلب الدارصيني من موضعه ، فيفرش به عشه ، ولا يعشش إلا في أعالي الشجر المرتفعة المواضع ، قال وربما عمد الناس إلى سهام ، يشدون عليها رصاصاً ، ثم يرمون بها أعشتها فيسقط عليهم الدارصيني ، فيلتقطونه ويأخذونه . .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٨٥ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٧٠ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٦٢ .

ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن صاحب الدارصيني ، و إن كنت لا أعرف الوجه في أن طائراً ينهض من وكره في الجبال ، أو بفارس ، أو باليمن ، فيؤم و يعمد نحو بلاد الدارصيني وهو لم يجاوز موضعه ، ولا قرب منه ، وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الأوابد [أو من القواطع] ، و إن كان من القواطع ، فكيف يقطع الصحصحان الأملس ، و بطون الأودية ، وأهضامَ الجبال ، بالتدويم في الأجواء ، و بالمضي على السمت ، لطلب ما لم يره ولم يشمه ولم يذقه ، وأخرى فإنه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشاً له ومهاداً إلا بالاختلاف الطويل و [بعدُ فإنه] ليس بالواطئ الوثير ، ولا هو له بطعام ، فأنا و إن كنت لا أعرف العلة [بعينها] فلست أنكر الأمور من هذه الجهة ، فاذكرْ هذا » .

وقد تعرض لغير أرسطاطاليس ، فتعرض لأبي زيد النحوي ، وحشره في جملة علماء السوء ، فعابهم بأنهم لم يكونوا في تحقيقهم من حذاق المتكلمين ، كقوله[١] :

« وأما الذين ذكروا في أشعارهم السِّمْع والعسبار فليس في ظاهر كلامهم دليل على ما ادعى عليهم الناس من هذا التركيب المختلف ، فأدينا الذي قالوا ، وأمسكنا عن الشهادة إذ لم نجد عليها برهاناً .

وللناس في هـذا الضرب ضروب من الدعوى ، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها كالذي يدعون من أولاد السعالي من الناس ، كما ذكروا عن عمرو بن يربوع وكما يروي أبو زيد النحوي عن السعلاة التي أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم ، فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالي حنت وطارت إليهم ، فقال شاعرهم :

رأى برقاً فأوضع فوق بكر فلابِكَ ما أسال وما أغاما

وأنشدني أن الجن طرقوا بعضهم فقال :

أتوا ناري فقلت : منون أنتم فقالوا : الجن ، قلت عموا ظلاما

فقلت : إلى الطعام ، فقال منهم زعيم : نحسد الإنس الطعاما

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٨٥ .

ولم أعب الرواية وإنما عبتُ الإيمان بها، والتوكيد لمعانيها، فما أكثر من يروي هذا الضرب على التعجب منه، وعلى أن يجعل الرواية [له] سبباً لتعريف الناس حق ذلك من باطله، وأبو زيد وأشباهه مأمونون على الناس، إلا أن كل من لم يكن متكلماً حاذقاً، وكان عند العلماء قدوة وإماماً، فما أقرب إفساده لهم من إفساد المتعمد لإفسادهم ».

وكان في بعض نقده يعيب طائفة من الناس بوضعهم الموجب من الأمور موضع المقرب منها، وبإنزال الدليل منزلة شبه الدليل كقوله(١) :

« والذين زعموا أن ذكورتها لا تعيش إلا سنةً، يحتاجون إلى أن يعرفوا الناس ذلك، وكيف يستطيعون تعريفهم ؟ وقد تكون القرى بقرب المزارع، والبيادر مملوءة عصافير، ومملوءة من بيضها وفراخها، وهم مع ذلك لم يروا عصفوراً قط ميتاً . . . والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلة السفاد، والعصفور إنما قصر عمره لكثرة السفاد وغلمته، لو قالوا بذلك على جهة الظن والتقريب لم يلمهم أحد من العلماء، والأمور المقربة غير الأمور الموجبة، فينبغي أن يعرفوا فصل ما بين الواجب والمقرّب وفرق ما بين الدليل وشبه الدليل، ولعل طول عمر البغل يكون للذي قالوا ولشيء آخر، وليس ينبغي أن نجزم على هذه العلة فقط ».

هذه جملة القول في نقده، والذي يستخلص من هذا النقد أن الجاحظ لجأ إليه للتنبيه على مواطن الزور في أبواب العلم مما لا يحققه العقل، فكأن الجاحظ يقول : لا أصدق من الأمور إلا ما كان واضحاً، وهذه خطة (ديكارت) نفسه كما علمنا ذلك .

ولم ينتقد الجاحظ للنقد وحده، إنه أجل من ذلك، وإنما نقد وصولاً إلى الحقائق، فكان مرة يدل على الخرافات ويحذر منها، ومرة يشير إلى مزلات أقدام بعض العلماء

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٧١ .

كما أشار إلى إعراض أرسطاطاليس عن استعمال التجربة والعيان والسماع في بعض مباحثه العلمية ، وكما عاب أبا زيد النحوي بأنه لم يكن من حذاق المتكلمين .

وقد كان في بعض نقده يستغني عن الإتيان بالبرهان ، لأن من الأمور التي نبه على بطلانها ما يقبله العقل دون برهان .

فغاية الجاحظ في نقده العلمي الوصول إلى الحقيقة ، والحقيقة ضالة العالم .

(٤)

شكه — تعليله

ومن المواطن التي يظهر فيها مقدار دقة فطنته ، وثقوب عقله ، موطن الشك ، فما ننسى قوله في صدر كلامنا على تحقيقه :

« ولا يعجبنى الإقرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يعجبني الإنكار له ، ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل ، و بعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له » .

وهذ الشك قريب من شك (ديكارت) الذي كنت أشرت اليه ، فقد كنت ذكرت أن (ديكارت) يشك في كل شيء ، وقد تكون الحياة في نظره حلماً من الأحلام ، ولكن شكه هذا لا يشبه شك غيره من الفلاسفة ، فهو يشك في كل شيء ، فقد يفرض أن العالم لا حقيقة له على أمل أن يصل إلى حقائق يثبتها البرهان ، فالشك فى مذهبه سبيل إلى اليقين .

فإذا قابلنا بين هذين الرأيين : بين رأي الجاحظ و بين رأي (ديكارت) وجدنا فيهما بعض التقارب ، فالجاحظ يقول : اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، ومعنى هذا كله : اعرف الشك لتعرف به اليقين ، فالشك في نظره سبيل إلى اليقين ، فهولا يشك في الأمورمن أجل الشك وحده ، و إنما يشك فيها حتى يصل إلى يقين قاهر ، وكذلك (ديكارت) فإنه لا يشك في الأمور من أجل الشك وحده ، و إنما يشك فيها على أمل أن يصل إلى حقائق يثبتها البرهان .

وكيف يلجأ الجاحظ إلى مجرد الشك وهو الذي يقول[1] :

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الثاني ص ٨٤ .

« واعلم أن من عوّد قلبه التشكك اعتراه الضعف » .

فلننظر بعد هذا في أنماط من أقاويله التي ظهرت عليها آثار الشك ، كالكلام على رؤوس الحيات ، أو كالكلام على لعاب الأفاعي ، أو كالكلام على سلامة الفراريج على الأفاعي أو كالكلام على خَلْق الفأر ، أو كالكلام على إخراج الولد رأسه من بطن أمه .

فمرة كان يشك في الأمر وينفيه لأن العلم لا يحققه ، ومرة كان يشك فيه ويبين السبب الذي من أجله استفاض هـذا الأمر ، وحيناً كان يشك فيه من دون أن يحاول نفيه بالحجة ، أو يوضح علة من علل شيوعه ، وحيناً كان يشك فيه فيحار في أمره حيرةً لا يجد لنفسه مخرجاً منها ، ثم يجد هذا المخرج فيرد الأمر لأنه لم يثبته ظاهر العيان أو متظاهر الأخبار .

فمن المواضع التي ظهر شكه فيها قوله(١) :

« وزعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد ، وأن الخنزير خلق من عطسة الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفأر وشكوا [إلى نوح ذلك] سأل ربه الفرج ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس ، فلما عطس ، خرج من منخريه زوج سنانير ، ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأنثى من المنخر الأيسر ، فكفياهم مؤونة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهما شكوا ذلك إلى نوح وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح ، فسلح [زوج] خنازير ، فكفياهم مؤونة رائحة النجو ، وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص ، وقد أنكرنا أن يكون الفأر تخلق إلا في أرحام إناثها من أصلاب ذكورها » .

فالجاحظ ينكر خلق الفار إلا في أرحام إناثها من أصلاب ذكورها ، ويشك في ضد هذا الأمر لأن العلم لا يؤيده .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٠٦ .

ومن هذه المواضع التى ظهرت فيها آثار الشك قوله[1] :

« وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حية لها رأسان ، فسألت أعرابياً عن ذلك ، فزعم أن ذلك حق ، فقلت له : فمن أين جهة الرأسين تسعى ؟ ومن أيهما تأكل وتعض ؟ فقال : فأما السعي فلا تسعى ، ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فإنها تتعشى بفم ، وتتغدى بفم ، وأما العض فإنها تعض برأسيها معاً !! فإذا به أكذب البرية ، وهذه الأحاديث كلها مما يزيد في الرعب منها ، وفي تهويل أمرها ... »

فبعد أن شك الجاحظ في أن يكون للحية رأسان ، أخذ يقلب النظر في استفاضة هذا الخبر ، فوجد أن العلة في ذلك الرعب والتهويل .

ومن هذه المواضع قوله[2] :

« وزعم أحمد بن غالب قال : باعني حوّاء ثلاثين أفعى بدينارين ، وأهدى إلي خمساً اصطادها من قبالة القلب في تلك الصحارى على شاطئ دجلة ، قال : وأردتها للترياق ، فقال لي حين جاءني بها : قل لي من يعالجها ؟ فقلت : فلان الصيدلاني ، فقال: ليس عن هذا سألتك ، قل لي : من يذبحها و يسلخها ، قال : قلت هذا الصيدلاني بعينه ، قال : أخاف أن يكون مغروراً من نفسه ، إنه والله إن أخطأ موضع المفصل من قفاها ، وحركته أسرع من البرق ، فإن كان لا يحسن ولا يدري كيف يتغفله فينقره نقرة لم يفلح بعدها أبداً ، ولكني سأتطوع لك بأن أعمل ذلك بين يديه ، قال : فبعثت إليه وكان رأسه [إلى] الجونة فيغفل الواحدة فيقبض على قفاها بأسرع من الطرف ، ثم يذبحها ، فإذا ذبحها سال من أفواهها لعاب أبيض، فيقول : هذا هو السم الذي يقتل ، قال : فجالت يده جولة ، وقطرت من ذلك اللعاب قطرة على طرف قميص الصيدلاني ، قال : فتفشى ذلك القاطر حتى صار في قدر الدرهم العظيم ، ثم

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٢ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣٩ .

إن الحواء امتحن ذلك الموضع ، فتهافت في يده ، و بقيت الأفاعي مذبّحة [تجول] في الطست و يكدم بعضها بعضاً ، حتى أمسينا ، قال : و بكرت على أبي رجاء إلى باب الجسر أحدثه بالحديث ، فقال لي : وددت أني رأيت موضع القطرة من قميص الصيدلاني ، قال : فوالله ما رمت حتى مرّ معي إلى الصيدلاني ، فأريته موضعه ، وأصحابنا يزعمون أن لعاب الأفاعي لا يعمل في الدم ، إلا أن أحمد بن المثنى زعم أن من الأفاعي جنساً لا يضر الفراريج من بين الأشياء ، ولا أدري أي الخبرين أبعد ، أخبر ابن غالب في تفسيخ الثوب ، أو خبر ابن المثنى في سلامة الفروج على الأفعى » .

فهنا يتبين لنا أن الجاحظ اكتفى بإنكار الخبر ، دون أن يبين سبباً من الأسباب .

ومنها قوله :(١)

« وقد زعم صاحب المنطق أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان لطول لبثه في بطنها ، وهذا جائز في ولد الفيل ، غير منكر ، لأن جماعة نساء معروفات الآباء والأبناء قد ولدن أولادهن ، ولهن أسنان نابتة كالذي رووا في شأن مالك بن أنس ، ومحمد بن عجلان وغيرهما ، وقد زعم ناس من أهل البصرة أن خاقان بن عبدالله بن الأهتم استوفى في بطن أمه ثلاثة عشر شهراً ، وقد مدح بذلك وهجي ، وليس ذلك بالمستنكر و إن كنت لم أر قط قابلة تقر بشيء من هذا الباب ، كذلك الأطباء ، وقد رووه كما علمت ، ولكن العجب كل العجب ما ذكروا من إخراج ولد الكركدن رأسه ، واعتلافه ، ثم إدخاله رأسه بعد الشبع والبطنة ، ولا بد ، أكرمك الله لما أكل من نجو، فإن كان بقي [ذلك] الولد يأكل ولا يروث ، فهذا عجب ، وإن كان يروث في جوفها فهذا أعجب ، و إنما جعلناه يروث حيث سموه حماراً ، وهذا مما ينبغي لنا أن نذكره في خصال الحمير ، إذا بلغنا ذلك الباب ، ولا أقر أن الولد يخرج رأسه من بطن أمه حتى يأكل شبعه ، ثم يدخل رأسه ، ولست أراه محالاً ولا ممتنعاً في القدرة ولا [ممتنعاً] في الطبيعة ، وأرى جوازه موهوماً غير مستحيل ، إلا أن

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٤٠ .

قلبي ليس يقبله ، وليس في كونه ظلم ولا عبث ولا خطأ ولا تقصير في شيء من الصفات المحمودة ، ولم نجد القرآن ينكره ، و [لا] الإجماع يدفعه ، والله هو القادر دون خلقه ، ولست أبت بإنكاره ، و إن كان قلبي شديد الميل إلى رده ، وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ، ولا يعرفونه إلا بالعيان الظاهر ، والخبر المتظاهر » .

فالجاحظ في مثل هذا المقام يعمد إلى رد الخبر ، لأن العيان الظاهر لم يثبته .

هذا ما يتعلق ببعض خصائص شكه ، فلنلجأ إلى النظر في العلل التى يجدها لأمر من الأمور ، ففي هذا النوع يتبين لنا مقدار تغلغل عقله في الأسرار ، ومبلغ توفيقه في الإحاطة بهذه الأسرار ، فلننتخب موضعاً أو موضعين من المواضع التى يستدل بها على نفوذ عقله .

مرة يشهد الأمر فيدونه كما يدون عالم الطبيعة حادثة من حوادثها ، ثم يستنبط من هذا الأمر قانوناً عامًّا ، يلجأ اليه كلما جد الكلام على الأمر الذي دونه ، على نحو استنباط علماء الطبيعة القوانين العامة من الأمور الصغيرة التي يجربونها و يعاينونها ، من ذلك قوله :(١)

« وربما أكل الإنسان الجراد أو ما يشبه بعض الجراد ، فتسقط من يده الواحدة أو صدر الواحدة ، وليس بقربه ذره ، ولا له بالذر عهد في ذلك المنزل ، فلا يلبث أن تقبل ذرة قاصدة إلى تلك الجرادة ، فترومها ، وتحاول قلبها ونقلها وسحبها وجرها ، فإذا أعجزتها بعد أن بلغت عذراً مضت إلى جحرها راجعة ، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يراها قد أقبلت ، وخلفها صُوَيْحِباتُها كالخيط الأسود الممدود ، حتى يتعاونَّ عليها فيحملنها ، فأول ذلك صدق الشم لما لا يشمه الإنسان الجائع ، ثم بعد الهمة والجراءة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة وأكثر من مائة مرة ، وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعفه مراراً غيرها ، وعلى أنها لا ترضى بأضعاف الأضعاف إلا بعد انقطاع الأنفاس .

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣ .

فإن قلت : وما علم الرجل أن التى حاولت نقل الجرادة ، فعجزت ، هي التى أخبرت صويحباتها من الذر ، وأنها كانت على مقدمتهن ؟ قلنا : لطول التجربة ، ولأنا لم نر ذرة قط حاولت نقل جرادة فعجزت عنها ، ثم رأيناها راجعة ، إلا رأينا معها مثل ذلك ، وإن كنا لا نفصل في العين بينها وبين أخواتها ، فإنه ليس يقع في القلب غير الذي قلنا ، وعلى أننا لم نر ذرة قط حملت شيئاً أو مضت إلى جحرها فارغة ، فتلقاها ذرة الا واقفتها وخبرتها بشيء ، فدل ذلك على أنها في رجوعها عن الجرادة إنما كانت لأشباهها كالرائد لا يكذب أهله » .

ذرّة تأخذ عينها جرادة فتحاول نقلها ، فإذا عجزت عنها ذهبت إلى أخواتها فاستعانت بهن على حملها ، هـذا هو الأمر الصغير الذي عاينه الجاحظ ، من هذا الأمر الذي عاينه استخرج قانوناً عامًّا وهذا هو القانون : كل ذرة حاولت نقل جرادة أو غيرها فعجزت عنها استدعت صويحباتها ، فتعاونَّ على نقل هذه الجرادة .

قد كنت ذكرت أن الجاحظ لم يستنبط من تجربته وعيانه وسماعه قوانين عامة ولكنه في هـذه المرة لم يقصر في استنباط القانون من الأمر الصغير ، ولو فعل هذا الفعل في كل الأمور التى جربها أو عاينها لما نقص تجربته وعيانه شيء ، ولكان فى هذه التجربة وهذا العيان شبه علماء هذا العصر .

ومرة يمعن في الكشف عن غرائز الحيوان ، فلا يعاين حركة من حركاته كالانقياد أو كالعصيان مثلاً إلا وضح أسرار هذه الحركة ، مصيباً في توضيحه شاكلة الصواب .

فمن كلامه على سلاح أصناف الحيوان (١) :

« وإنما تتقرب الشاة بالمتابعة والانقياد للسبع ، تظن أن ذلك مما ينفعها ، فإن الأسد إذا أخذ الشاة [و] لم تتابعه ولم تعنه على نفسها ، فربما اضطر الأسد إلى أن يجرّها إلى عرينه ، وإذا أخذها الذئب عدت معه حتى لا يكون عليه فيها مؤونة ، وهو إنما يريد أن ينحّيها عن الراعي والكلب ، وإن لم يكن في ذلك الوقت هناك كلب

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٢٥ .

ولا راع ، فيرى أن يجري على عادته ، وكذلك الدجاج إذا كنّ وقّعاً على أغصان الشجر ، أو على الرفوف ، فلو مرّ تحتها كل كلب و [كل] سنور ، وكل ثعلب ، وكل شيء يطالبها ، فإذا مرّ ابن آوى بقربها لم يبق منها واحدة إلا رمت بنفسها إليه ، لأن الذئب هو المقصود به إلى طباع الشاة ، وكذلك شأن ابن آوى والدجاج ، يخيل إليها أن ذلك مما ينفع عنده ، وللجبن تفعل كل هـذا ، ولمثل هذه العلة نزل المنهزم عن فرسه الجواد ليحضر ببدنه ، يظن اجتهاده أنجى له ، وأنه إذا كان على ظهر الفرس أقل كدًّا ، وأن ذلك أقرب [له] إلى الهلاك ، ولمثل هذه العلة يتشبث الغريق بمن أراد إنقاذه حتى يغرقه ويغرق نفسه ، وهما قبل ذلك قد سمعا بحال الغريق والمنهزم ، وأنهما إنما هما في ذلك كالرجل المعافى الذي يتعجب ممن يشرب الدواء من يد أعلم الناس به ، فإن أصابته شقيقة ، أو لسعة عقرب ، أو اشتكى خاصرته ، أو أصابه حُصْر أو أُسْر ، شرب الدواء من يد أجهل الخليقة ، أو جمع بين دواءين متضادين » .

فما انقادت الشاة للسبع أو للذئب ، وما رمت الدجاجة بنفسها إلى ابن آوى إلا للجبن ، فالجاحظ يظهر لنا في هذا المقام في صورة العالم الواقف على غرائز الحيوان .

أو قوله(٢) :

« وليس شيء من صنف الحيوان أردأ حيلة ، عند معاينة العدو ، من الغنم ، لأنها فى الأصل موصلة بكفايات الناس ، فأسندت اليهم فى كل أمر يصيبها ، ولولا ذلك لخرّجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التي تعينها . . . » .

***

هذا ما عن لنا من الكلام على ناحية جليلة من نواحي الجاحظ ، وأعني بها ناحية العلم ، وقد أحببت قبل أن أنتقل إلى الكلام على نواحى دينه ، أو تهكمه ، أو أدبه ، أن أجمل القول فى مذاهب تحقيقه ، حتى تبقى صورته من هذه الجهة ماثلة لأذهاننا ، قائمة فى صدورنا .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ١٢٥ .

أرادت طائفة ألا تجد في الجاحظ إلا ناحية واحدة وهي ناحية الفن ، فما رأت في بعض كتبه ، وخاصة في كتاب الحيوان ، إلا خصائص فنية ، وهـذا الرأي ناشىء عن أحد أمرين : إما عن جهل بمذاهب التحقيق فى العلم ، وإما عن تهاون بدراسة الجاحظ من كل أطرافه ، فليس من المعدلة في شيء أن ننظر إلى الجاحظ من ناحية واحدة ، وأن نهمل ناحية أجل ، وهي ناحية العلم .

كل ما تقدم من الفصول قد صور لنا الجاحظ في صورة العالم على مصطلح هذا العصر .

همُّ العالم التنقيب عن الحقيقة ، وهو يذهب في هـذا التنقيب مذاهب مختلفة ، على حسب العلم الذي ينصرف إليه ، وقد أخرج مكنونه في التفتيش عن هذه الحقيقة ، وأظن أن تجربته في أصناف من الحيوان كالحيات والأفاعي والخنافس والعقارب والجرذان ، لم يكن لمجرد اللهو والعبث ، وأي لهو في عيان العقارب ، أم أي عبث في مشاهدة الأفاعي ، فاذا قطع الجاحظ طائفة من أعضاء الحيوان ، أوألقى عليه ضرباً من السم ، أو ذبحه وفتش جوفه وقانصته ، أو دفنه في بعض النبات ، أو ذاقه ، أو بعج بطنه ، أو جمع أضداده في إناء من قوارير ، أو ألقى عليه مادة من مواد الكيمياء ، فما كان يفعل هذا وأشباهه عبثاً ، وإنما كان يرمي إلى غايات بعيدة ، إنه كان يرمي إلى إدراك الحقيقة من أرشد مسالكها .

فمرة كان يستعين بحواسه على الوصول إلى هذه الحقيقة ، فيستعين باللمس أو بالذوق أو بالرؤية أو بالشم أو بسؤال أهل المعرفة والعلم ، متوثقاً في كل خبر يسمعه ، متثبتاً في كل كلام يبلغ إليه ، حتى يكون على هدى من أمره ، وحتى يعرض هذه الحقيقة في أوضح معارضها فلا يخامره شك فيها ، وأي شك بعد العيان القاهر ، أو الخبر المتظاهر .

ومرة كان يستعين عليها بآلة أكمل من كل آلة ، وهي آلة العقل .

ولقد أحكم استعمال عقله ، فرامى دون حياض الحقيقة ، حتى لا يفسدها شيء من توليد كذاب ، أو من غرائب زور .

فحيناً كان يقف بالمرصاد لكل رجل تحدثه نفسه بخرافة من الخرافات ، وحيناً كان يحذر الناس من الأباطيل ، فيدلهم على عيوبها ، مقتصداً في دلالته ، لا شتم ولا بذاءة ، شأن العالم الجليل ، أو يشككهم فيها ، ثم يخرجهم من ظلمة الشك إلى ضياء اليقين .

وكان في بعض الأحوال يلجأ إلى توضيح العلل في أبواب العلم فلا يخطىء مواطن الحق .

وفي كل مذهب من هذه المذاهب ، في تجربته وعيانه وسماعه ونقده وشكه وتعليله ، كان الجاحظ يطلع علينا في صورة العالم الذي يعمل عقله في البحث عن الحقيقة .

المعتزلة الجاحظية

أنتقل فجأة من الكلام على تحقيق الجاحظ في أبواب العلم ، إلى الكلام على دينه ، ولعل هذا الانتقال لا يخلو من معنى من المعاني ، فقد علمنا أن للعقل في مذاهبه في التحقيق عملاً كبيراً ، فلا يكاد يؤمن إلا بما تراه العين ، أو تسمعه الأذن ، أو يذوقه الفم ، أو يشمه الأنف ، أو تلمسه اليد ، هذا من جهة الحكم الظاهر للأمور ، وأما من جهة الحكم الباطن لهذه الأمور ، فإنه لا يقر إلا بما يقبله العقل ولا يرده ، ومن كان هذا مذهبه في آفاق العلم ، أي من كان مذهبه التصحيح والتمييز دون أن يجعل سمعه هدفاً لكل توليد ، وقلبه قراراً لكل زور ، أخلق به أن يسير هذه السيرة في كل عمل من أعماله ، فهل غلب العقل على الجاحظ في أبواب الدين غلبته عليه في أبواب العلم ؟ هل توثق الجاحظ في دينه توثقه في علمه ، فلم يخرج في شيء من التفسير والتأويل عما يمليه عليه عقله ، وإن كان في هذه الأمالي شذوذ عن بعض أهل التفسير والتأويل ؟ هذا ما نجتهد في إدراك حقائقه في الكلام على دين الجاحظ .

لما قال الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان : إن هذا الكتاب أشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة ، بسط لنا مذهبه فى أصل الدين على نحو ما بسط لنا مذهبه فى العلم لما قال فى المقدمة نفسها : وجمع (أي كتاب الحيوان) معرفة السماع وعلم التجربة ، فالجاحظ لا يريد أن يخرج فى تفسير الآيات وتأويل الأحاديث عن عمل الحواس وعمل العقل ، فهو يريد أن يدرك هذه الآيات ، وهذه الأحاديث من طريقين : من طريق الحواس ، ومن طريق العقل ، فهو من المعتزلة .

ويسمي المعتزلة فريق من الإفرنجة[1] : المفكرين الأحرار ، والصحيح أن حرية

(١) مفكرو الإسلام — Baron Carra de Vaux الجزء الأول ص ٢٩٤ .

التفكير من خصائص الاعتزال ، فالمعتزلة في نظرهم إنما هم فلاسفة يخوضون في مسائل الدين على حسب ما يريدون ، دون أن يجعلوا لسلطة من السلطات دخلاً فى حل هذه المسائل ، فهم رجال العقل في الدين .

و إذا أردنا أن نتبسط فى بيان معتقدات المعتزلة ، ونوازن بينها و بين بعض المذاهب الفلسفية فى عصرنا الأخير ، تراخى أمد الكلام ، فأرى أن أكتفى بذكر بعض أمور عن المعتزلة حتى يكون لنا رأي مجمل في الاعتزال .

فلننظر في فصلنا هذا فى أصل كلمة الاعتزال ، وفي الاحتجاج للاعتزال ، وفي القواعد التى أجمع عليها المعتزلة ، وفي طوائف المعتزلة ، وفي بعض طبقات المعتزلة ، وفي الطائفة التي يعنينا أمرها وهي الجاحظية ، وفى رأى الجاحظ نفسه فى المعتزلة .

فلنشرع في ذكر المصدر الذي صدرت عنه كلمة الاعتزال[١] :

« دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين ، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً ، فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن اعتزل عنا واصل ، فسمي هو وأصحابه معتزلة .

ووجه تقريره أنه قال : إن الإيمان عبارة عن خصال خير ، و إذا اجتمعت سمى

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى على هامش الملل والأهواء والنحل لابن حزم — الجزء الأول ص ٦٠ .

المرء مؤمناً وهو اسم مدح ، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ، ولا استحق اسم المدح ، فلا يسمى مؤمناً ، وليس هو بكافر مطلق أيضاً ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيـه لاوجه لإنكارها ، لـكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة ، فهو من أهل النار خالداً فيها ، إذ ليس في الآخرة إلا الفريقان : فريق في الجنة وفريق في السعير ، لـكنه يخفف عنه العذاب ، وتكون دركته فوق دركة الـكفار ، وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد بعد أن كان موافقاً له في القدر ، وإنكار الصفات » .

فمن هنا يتبين لنا أنهم سموا بالمعتزلة منذ اعتزال واصل بن عطاء الحسن ، وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد .

وقال المرتضى في سبب تسميتهم[١] :

« وقيل (أي وسموهم بالمعتزلة) لقول قتادة : وكان من أصحاب الحسن ، ما تصنع المعتزلة ، فكان يسميهم بهذا الاسم ، روى عن عثمان الطويل قال : لقيت قتادة فقال : ما حبسك عنا ؟ لعل هؤلاء المعتزلة حبستك عنا ؟ قلت : نعم ، حديث رويته أنت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال ما هو ؟ قال : رويت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ستفترق أمتي على فرق ، خيرها وأبرُّها المعتزلة ، وقيل : سموا بذلك لرجوع عمرو بن عبيد إلى قول واصل في الفاسق ، وخالف الحسن ، ذلك أنه لما خالف واصل أقوال أهل زمانه في الفاسق ، واعتزلها كلها واقتصر على المجمع عليه ، وهو تسميته فاسقاً ، ورجع عمرو بن عبيد إلى قوله بعد مناظرة وقعت بينهما ، سمي وأصحابه معتزلة لاعتزالهم كل الأقوال المحدثة ، والمجبرة تزعم أن المعتزلة لما خالفوا الإجماع في ذلك سموا معتزلة ، قلت : لم يخالفوا الإجماع بل عملوا بالمجمع عليه في الصدر الأول ، ورفضوا المحدثات المبتدعة » .

---

(١) ذكر المعتزلة ص ٤ .

ويسمون العدلية لقولهم بعدل الله وحكمته ، والموحّدة لقولهم : لا قديم مع الله[١] . ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية[٢] .

أما احتجاج المعتزلة للاعتزال فقد ذكره المرتضى فقال[٣] :

« ويحتجون للاعتزال ، أي لفضله ، بقوله تعالى : (وأعتزلكم) ونحوها ، وهو قوله تعالى : (واهجرهم هجراً جميلاً) ، وليس إلا بالاعتزال عنهم .

واحتجوا من السنة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : من اعتزل من الشر سقط في الخير .

واحتجوا أيضاً بالخبر الذي رواه سفيان الثوري عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : ستفترق أُمتي على بضع وسبعين فرقة ، أبرها وأتقاها الفئة المعتزلة ، وهو تمام الخبر ، ثم قال سفيان لأصحابه : تسموا بهذا الاسم لأنكم اعتزلتم الظلمة ، فقالوا : سبقك بها عمرو بن عبيد وأصحابه ، فكان سفيان بعد ذلك يروي واحدة ناجية » .

وهذه هي القواعد التي أجمع عليها المعتزلة على نحو ما بينها الشهرستاني لما قال[٤] :

« فالذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم ، والقدم أخص وصف ذاته ، ونفوا الصفات القديمة أصلاً . فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته ، لا بعلم وقدرة وحياة ، هي صفات قديمة ، ومعان قائمة به ، لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلٰهية » .

واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل ، وهو حرف وصوت ، كُتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه ، فإنما وجد في المحل عرض فقد فني في الحال .

---

(١) ذكر المعتزلة للمرتضى ص ٢ .
(٢) الملل والنحل للشهرستاني على الهامش — ص ٥٤ .
(٣) ذكر المعتزلة ص ٢ .
(٤) الملل والنحل للشهرستاني ص ٥٥ .

واتفقوا على أن الإرادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته ، لكن اختلفوا في وجوه وجودها . ومحامل معانيها كما سيأتي .

واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ، ونفي التشبيه عنه من كل وجه : جهةً ومكاناً وصورةً وجسماً وتحيزاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً .

وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها ، وسموا هذا النمط : توحيداً .

واتفقوا على أن العبد قادر ، خالق لأفعاله خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة ، والرب تعالى منزه أن يضاف إليه شر وظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً ، كما لو خلق العدل كان عادلاً .

واتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلا الصلاح والخير ، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد ، وأما الأصلح واللطف ففي وجوبه خلاف عندهم ، وسموا هذا النمط : عدلاً .

واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب ، والعوض والتفضُّل معنى آخر وراء الثواب ، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار ، ولكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار ، وسموا هذا النمط : وعداً ووعيداً .

واتفقوا على أن أُصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع ، والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل ، واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب ، كذلك ورود التكاليف ألطاف للباري تعالى ، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام ، امتحاناً واختباراً ، ليهلك من هلك عن بينة . ويحيا من حي عن بينة .

واختلفوا في الإمامة والقول فيها نصّاً واختياراً » .

وأشار المرتضى إلى هذه القواعد فأوجز فقال[١] :

« وأما ما أجمعوا عليه ، فقد أجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثاً قديماً ، قادراً عالماً

---

(١) ذكر المعتزلة — ص ٦ .

حيًّا ، لا لمعانٍ ، ليس بجسمٍ ، ولا عرض ، ولا جوهر عيناً واحـداً ، لا يدرك بحاسة ، عدلاً حكيماً ، لا يفعل القبيح ولا يريده ، كلَّف تعريضاً للثواب ، ومكَّن من الفعل وأزاح العلة ولا بد من الجزاء ، وعلى وجوب البعثة حيث حسنت ، ولا بد للرسول صلى الله عليه وآله وسلم من شرع جديد ، أو إحياء مندرس ، أو فائدة لم تحصل من غيره ، وأن آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والقرآن معجزة له ، وأن الإيمان قول ومعرفة وعمل ، وأن المؤمن من أهل الجنة ، وعلى المنزلة بين المنزلتين ، وهو أن الفاسق لا يسمى مؤمناً ولا كافراً ، إلا من يقول بالإرجاء ، فإنه يخالف في تفسير الإيمان ، وفي المنزلة ، فيقول الفاسق يسمى مؤمناً ، وأجمعوا أن فعل العبد غير مخلوق فيه ، وأجمعوا على تولي الصحابة ، واختلفوا في عثمان بعد الأحداث التي أحدثها ، فأكثرهم تولاه ، وتأوّل له كما مر ، وكما سيأتي ، وأكثرهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص ، وأجمعوا على وجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وفي تعداد علمائهم مصنفات عدة كالمصابيح لابن يزدان وغيره » .

فالذي يستنتج من ذكر بعض معتقدات المعتزلة أن هذه المعتقدات تتعلق بعلم ما وراء الطبيعة ، وبالفلسفة نفسها ، فإن البحث عن قدرة العبد ، وعن خلقه لأفعاله خيرها وشرها ، وعن الجوهر والعرض وما شابه هذه الأمور ، من خصائص الفلسفة ، ومن خصائص علم ما وراء الطبيعة . فلا نستطيع أن نفهم أقوال الجاحظية ، وسائر طوائف المعتزلة ، إلا إذا كنا واقفين على العلوم التي تدخل فيها هذه الأقوال .

والمعتزلة طوائف شتى ، كالواصلية ، أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزّال تلميذ الحسن البصري ، وكالهذيلية أصحاب أبي الهذيل حمدان بن أبي الهذيل العلاَّف شيخ المعتزلة ، وكالنظَّامية أصحاب إبراهيم سيَّار بن هانئ النظَّام ، وكالحائطية أصحاب أحمد بن حائط ، وكالحدثية أصحاب فضل بن الحدثي ، وكالبشرية أصحاب بشر بن المعتمر ، وكالمعمرية أصحاب معمر بن عباد السلمي ، وكالمزدارية أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بأبي موسى الملقب بالمزدار ، راهب المعتزلة ، وكالثمامية أصحاب ثمامة بن

أشرس النميري ، وكالهشامية أصحاب هشام بن عمر الفوطي ، وكالجاحظية ، وكالخياطية أصحاب أبي الحسين بن أبي عمرو الخيّاط أُستاذ أبي القاسم بن محمد الكعبي ، وكالجبائية والبهشمية أصحاب أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي وابنه أبي هاشم عبد السلام .

ولكل طائفة من هذه الطوائف اعتزال يدور على قواعد معينة ذكرها الشهرستاني في الملل والنحل .

ومن طبقات المعتزلة :

محمد بن الحنفية ، وعنه أخذ واصل بن عطاء علم الكلام ، وأبو الأسود الدؤلي ، وعلقمة ، والأسود ، وشُريح ، والحسن البصري صاحب الرسالات في القضاء والقدر إلى عبد الملك و إلى الحجاج ، وله مع الحجاج مناظرات ، وكان لا يرد عليه أحد كما يرد عليه الحسن ، وغيلان بن مسلم الدمشقي الذي كان يعيب هشام بن عبد الملك ، ويعيب آباءه ، فلما ولي هشام خرج غيلان وصاحبه إلى أرمينية ، فأرسل هشام في طلبهما ، فجيء بهما ، فحبسهما أياماً ، ثم أخرجهما وقطع أيديهما وأرجلهما ، فمات صالح ، وصلى عليه غيلان ، ثم اندفع في ذكر بني أُمية بالسوء فقيل لهشام : قطعت يدي غيلان ورجليه ، وأطلقت لسانه ، إنه قد بكّى الناس ونبههم على ما كانوا عنه غافلين ، فأرسل إليه من قطع لسانه فمات .

ومنهم واصل بن عطاء الذي كان يلزم صديقه أبا عبد الله الغزّال ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن .

كان واصل ألثغ في الراء ، قبيح اللثغة فيها ، فكان يخاص كلامه من الراء . ولا يفطن لذلك لاقتداره وسهولة ألفاظه ، وقد كان صديقاً لبشار ، مدحه بشار وذكر خطبته التي ألقى منها الراء فقال :

تكلف القول والأقوام قد حفلوا	وحبّروا خطباً ناهيك من خطب
وقال مرتجلا تغلي بداهته	كمرجل القين لما حُفَّ باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد	قبل التصفح والإغراق في الطلب

فلما قال بشار بالرجعة ، وتكفير جميع الأمة ، تبرأ منه واصل ، فهجاه بشار ، وعابه بطول عنقه فقال :

مالي أُشـايع غزَّالاً له عنق كنقنق الدوِّ إن ولَّى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالـكم تـكفرون رجالاً كفَّروا رجلا

أنفذ واصل بن عطاء أصحابه إلى الآفاق ، وبث دعاته في البلاد ، فبعث عبد الله ابن الحارث إلى المغرب ، فأجابه خلق كثير ، وبعث حفص بن سالم إلى خراسان ، وبعث القاسم إلى اليمن ، وبعث أيوب إلى الجزيرة ، وبعث الحسن بن ذكوان إلى الكوفة ، وبعث عثمان الطويل إلى أرمينية ، وكان عثمان أُستاذ أبي الهذيل العلاَّف .

ومنهم عمرو بن عبيد وكان المنصور العباسي يبالغ في تعظيمه .

ومنهم صالح الدمشقي صاحب غيلان الدمشقي .

ومنهم أبو الهذيل العلاَّف ، أتاه رجل فقال له : أشكل عليَّ أشياء من القرآن فقصدت هذا البلد ، فلم أجد عند أحد ممن سألته شفاءً لمـا أردته ، فلما خرجت في هذا الوقت قال لي قائل : إن بغيتك عند هذا الرجل ، فاتق الله وأفدني ، فقال أبو الهذيل : فماذا أشكل عليك ؟ قال : آيات من القرآن توهمني أنها متناقضة ، وآيات توهمني أنها ملحونة ، قال : فماذا أحب إليك ؟ أجيبك بالجملة ، أو تسألني عن آية آية ؟ قال : بل تجيبني بالجملة ، قال أبو الهذيل : هل تعلم أن محمداً كان من أوسط العرب ، وغير مطعون عليه فى لغته ، وأنه كان عند قومه من أعقل العرب ، فلم يكن مطعوناً عليه ؟ فقال : اللهم نعم ، قال أبو الهذيل : فهل تعلم أن العرب كانوا أهل جدل ؟ قال : اللهم نعم ، قال : فهل اجتهدوا في تكذيبه ؟ قال : اللهم نعم ، قال : فهل تعلم أنهم عابوا عليه بالمناقضة أو باللحن ؟ قال : اللهم لا ، قال أبو الهذيل : فتدعُ قولهم مع علمهم باللغة وتأخذ بقول رجل من الأوساط ؟ قال : فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قد كفاني هذا وانصرف ، وتفقه فى الدين .

وفي أبي الهذيل يقول المأمون : أطل أبو الهذيل على الـكلام كإطلال الغمام على الأنام .

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام أُستاذ الجاحظ ، وقد عرفنا رأي الجاحظ فيه .

ومنهم بشر بن المعتمر الهلالي رئيس معتزلة بغداد ، ومنهم معمر بن عبّاد السلمي أُستاذ بشر ، ومنهم أبو الحسين القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، والصاحب الكافي ، والجوهري صاحب الصحاح ، وأبو بكر الرازي ، وغيرهم من الذين أتى على ذكرهم المرتضى في كتابه ذكر المعتزلة .

والذي يشغلنا من طوائف المعتزلة ومن طبقاتها في مثل هذا المقام الجاحظية وحدها ، فالجاحظ وافق أصحابه المعتزلة على أُمور ، وانفرد عنهم بمسائل تابعه عليها فريق من المعتزلة فسموا بالجاحظية ، وهذه هي المسائل التي انفرد بها(١) :

« منها قوله : إن المعارف كلها ضرورية طباع ، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد وليس للعباد كسب سوى الإرادة ، وتحصل أفعاله منه طباعاً كما قال ثمامة ، ونقل عنه أيضاً أنه أنكر أصل الإرادة ، وكونها جنساً من الأعراض ، فقال : إذا انتهى السهو عن الفاعل وكان عالماً بما يفعله ، فهو المريد على التحقيق ، وأما الإرادة المتعلقة بفعل الخير فهو ميل النفس إليه ، وزاد على ذلك بإثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وأثبت لها أفعالاً مخصوصة بها ، وقال باستحالة عدم الجواهر ، فالأعراض تتبدل ، والجوهر لا يجوز أن يفنى .

ومنها قوله في أهل النار إنهم لا يخلدون فيها عذاباً ، بل يصيرون إلى طبيعة النار ، وكان يقول : النار تجذب أهلها إلى نفسها دون أن يدخل أحد فيها ، ومذهبه في نفي الصفات مذهب الفلاسفة ، وفي إثبات القدر ، خيره وشره من العبد ، مذهب المعتزلة .

وحكى الـكعبي عنه في نفي الصفات أنه قال : يوصف الباري تعالى بأنه مريد ،

(١) الملل والنحل — للشهرستاني ص ٩٤ .

بمعنى أنه لا يصح عليه السهو في أفعاله ، ولا الجهل ، ولا يجوز أن يغلب ويقهر ، وقال : إن الخلق كلهم من العقلاء ، عالمون بأن الله تعالى خالقهم ، وعارفون بأنهم محتاجون إلى النبي وهم محجوجون بمعرفتهم ، ثم هم صنفان : عالم بالتوحيد وجاهل به ، فالجاهل معذور ، والعالم محجوج ، ومن انتحل دين الإسلام، فإن اعتقد أن الله تعالى ليس بجسم ولا صورة ولا يُرى بالأبصار ، وهو عدل لا يجور ، ولا يريد المعاصي ، و بعد الاعتقاد والتبيين أقر بذلك كله ، ثم جحده وأنكره ، أو دان بالتشبيه والجبر ، فهو مشرك كافر حقاً ، و إن لم ينظر في شيء من ذلك ، واعتقد أن الله ربه ، وأن محمداً رسول الله ، فهو مؤمن لا لوم عليه ، ولا تكليف عليه غير ذلك .

وحكى ابن الراوندي عنه أن القرآن جسد يجوز أن يقلب مرة رجلاً ومرة حيواناً ، وهذا مثل ما يحكى عن أبي بكر الأصم ، أنه زعم أن القرآن جسم مخلوق ، وأنكر الأعراض أصلاً ، وأنكر صفات الباري تعالى ، ومذهب الجاحظ هو بعينه مذهب الفلاسفة، إلا أن الميل منه ومن أصحابه إلى الطبيعيين منهم أكثرمنه إلى الإلهيين » .

وقد تعرض ابن الراوندي للمعتزلة ، وفي جملتهم الجاحظ ، فردَّ عليه الخياط في كتابه الانتصار ، فقال في دفاعه عن الجاحظ (١) :

ثم قال : أي ابن الراوندي ، وقد زعم الجاحظ مع ما حكيت عنه من إحالة فناء الأجسام وعدمها ، أن الله لا يخلد كافراً في النار ، ولا يدخله فيها ، وأن النار تُدخل الكافر نفسها ، وتخلده فيها ، ثم قال هرباً بزعمه من مسائل الملحدين في التخليد ، قال : فقلت لبعض أصحابه : وكيف صارت النار هي التي تخلد الكفار في عذابها وتصيرهم إليها ؟ قال ، فقال : من قبل أنهم عملوا أعمالاً فصارت أجسادهم لا تمتنع النار إذا حاذتها في القيامة من اجتذابها إليها بطباعها ، ثم وصف كلاماً (زعم) دار بينه و بين هذا الرجل في هذا الباب ، وهذا كذب وزور . وهذه كتب الجاحظ في أفعال الطبائع ، فانظر فيها ، فإن وجدت فيها حرفاً واحداً مما حكاه عنه هذا

---

(١) كتاب الانتصار للخياط المعتزلي — ص ٩١ .

الماجن فهو صادق، و إلا فاعلم أنه كاذب بهّات، كذب عليه في الحكاية عنه أنه يحيل فناء الأجسام، ثم أردفه بكذب آخر والله المستعان » .

والمعتزلة في نظر الجاحظ مقام رفيع، فقد أشار إليهم في بعض مواطن، منها قوله[(١)] :

« لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل، فإن لم أقل : ولولا أصحاب إبراهيم و إبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة، فإني أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلاً، وفتق لهم أموراً، واختصر لهم أبواباً ظهرتْ فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة » .

ومنها قوله بعد كلام له على الجهمية، ومن أنكر إيجاد الطبائع، وعلى ناسٍ اتبعوا ظاهر الحديث وظاهر الأشعار[(٢)] :

« وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الأحاديث، وأيّ ضرب منها يكون مردوداً . وأي ضرب منها يكون متأولاً، وأي ضرب منها يقال إن ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل، ولذلك أقول : لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام، واختطفت واسترقت، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٦٩ .

(٢) « « « ص ٩٦ .

شعور الجاحظ الديني

إن مذهباً تبنى أُصوله على العقل ، و يستفيض في عصر استفاضت فيه الخرافات غرائب الزور ، فيتفرغ رجال للتنبيه على الأضاليل ، والتحذير من الأكاذيب ، إن مذهباً هذا شأنه لايخلو في صدر أمره من تعرض المتعرضين . ولم ينج الجاحظ في حياته و بعد مماته من مثل هذا التعرض ، أما الذين نقدوه نقداً خالصاً فليس لنا كلام عليهم ، فسواء أذَهبوا مذهبه في الاعتزال والفلسفة والعلم ، أم خالفوا هذا المذهب ، إنهم أحرار ، فلكل رأيه ومعتقده ، ولكن بعض المعترضين لم يقفوا عند حد النقد ، فلم يسلم الجاحظ في حياته من حسد الحساد ، وقد رأينا كيف كانوا يتعقبونه في أواخر أيامه ، ملتمسين في كلامه لفظاً مضطرباً ، أو تأليفاً سيئاً ، أو نظاماً مقطعاً ، ومغضين على كل محمود من هذا الكلام ، وليس هذا من النقد في شيء ، و إنما أصل الأمر في النقد أن ننظر إلى جهتي المحاسن والمساوئ ، فندل على هذه المحاسن حتى يزداد شعورنا بها ، وننبه على هذه المساوئ حتى تصلح أذواقنا ، فالاقتصار على ذكر المذموم من كلام المؤلف دون التفرغ لبيان المحمود من هذا الكلام قد يكون فيه شيء يسميه بعض الناس : الحسد ، والجاحظ كان محسوداً في حياته على نحو ما علمنا .

والحسد مستحكم في البشر ، سواء فيه العالم والجاهل ، ولا يقعن في خلد أحد أن العلم يهون من خطبه ، قال الأستاذ (ريشه) في تصويره أخلاق العلماء[1] :

« العلماء حساد لأنهم بشر ، فهم لا يستطيعون أن ينظروا بعين الرضا إلى تكريم يكرمه زميل من زملائهم ، أو إلى لقب يحصل عليه ، أو إلى حظوة يحظى بها ، أو إلى غير ذلك من رتب تتساقط عليه تساقط الوابل ، وكلما كان العلم الذي ينصرف

(١) كتاب العالم — ص ٢١ .

إليه هذا الزميل قريباً من علمهم اشتد الحسد ، فالفلكي لا يحزنه الشرف الذي يتناهى إلى النباتي ، ولكنه يجد أن الشرف الذي يحصل عليه فلكي آخر لا يستحقه هذا الفلكي » .

قلت : لم يقف المتعرضون للجاحظ عند حد النقد ، وإنما أحبوا أن يثلموا من شعوره الديني ، فلم تجد طائفة منهم في كلامه إلا جهالات و إلا ضلالات ، ولقد ذهبوا في ذلك مذهباً أبعد ، فاستكثروا تسميته إنساناً ، وعدوا هذه التسمية ذنباً لا يغفر، والتمسوا له شبيهاً من أصناف الحيوان فلم يجدوا أصلح من الخنزير.

فقد تعرض له أيضاً أبو منصور البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ، فرد عليه في بعض آرائه في الفلسفة والتوحيد ، ثم نسبه إلى الشعوبية و إلى السرقة ، مما لا نجد حاجة إلى ذكره في مثل هذا المقام ، و إنما نشير إلى هذه العبارة :(١)

« ولو عرفوا جهالاته في ضلالاته لاستغفروا الله تعالى من تسميتهم إياه إنساناً، فضلا عن أن ينسبوا إليه إحساناً » .

أو إلى العبارة الآتية(٢) :

ومن افتخر بالجاحظ سلمناه إليه ، قول أهل السنة في الجاحظ كقول الشاعر فيه :

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ... ما كان إلا دون قبح الجاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بنفسه ... وهو القذى في كل طرف لاحظ

إن مثل هذا الكلام يمر به مر الكرام ، فإذا لم يكن الجاحظ إنساناً فمن الإنسان . والصحيح أن الجاحظ جاوز أفق البشرية ، وحلق في جو لا يصل إليه كل واحد من الناس .

وكما تعرض له البغدادي ، فقد تعرض له ابن قتيبة ، فثلمه في دينه ، فقال(٣) :

« ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم

(١) الفرق بين الفرق — ص ١٦٠ .
(٢) الفرق بين الفرق — ص ١٦٢ .
(٣) تأويل مختلف الحديث — ص ٧٢ .

تجوز في الحجة كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين ، وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوده المشركون ، وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا ، ويذكر الصحيفة التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت سرير عائشة ، فأكلتها الشاة ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمه فى رأسه وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة ، وأشباه هذا مما سنذكره فيما بعد إن شاء الله . وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل » .

والغريب أن ابن قتيبة عاب الجاحظ بقصده للمضاحيك والعبث ، وهو نفسه من الذين قصدوا لهذه المضاحيك ولهذا العبث ، حتى قال في مقدمة كتابه عيون الأخبار:

« ولم أخله (أي لم يخل كتابه) مع ذلك من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة ، لئلا يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون ، وعروض أخذ فيها ، ولأروّح بذلك عن القارئ من كد الجد ، وإتعاب الحق ، فإن الأذن مجاجة ، وللنفس حمضة » .

وقال في مقام آخر من هذه المقدمة :

« وإذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة ، أو فرج ، أو وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك ، وتعرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المأثم فى شتم الأعراض ، وقول الزور والكذب ، وأكل لحوم الناس بالغيب » .

هذا ما قاله ابن قتيبة نفسه ، وأيد قوله بأحاديث الرسول ، وبكلام بعض الخلفاء الراشدين ، فلم سلك هذا المسلك وعاب الجاحظ بسلوكه إياه ؟ وإذا كان المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب ، فالجاحظ قد عرضت

أنماطاً من نقده العلمي ، فأظن أنه ما شتم عرض أرسطاطاليس لما تعرض له ، وأظن أنه كان يتقذر من قول الزور والكذب ، وقد رأينا كيف كان يدل على توليد الكذابين ، وعلى غرائب الزور من دون أن يأكل لحومهم بالغيب .

وكان ابن أبي دواد يقول في الجاحظ (١) :

« أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه » .

وكلام ابن أبي دواد في مثل هذا المقام ، فيه بعض النظر ، فإن الجاحظ كان منحرفاً عنه ، ملازماً لعدوه ابن الزيات .

ومثل هذا قوله أيضاً لما جيء به مقيداً :

« قبحك الله ، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر » .

وقال ابن أبي الدنيا المحدث (٢) :

« حضرت وليمة حضرها الجاحظ ، وحضرت صلاة الظهر ، فصلينا ، وما صلى الجاحظ ، وحضرت صلاة العصر ، فصلينا وما صلى الجاحظ ، فلما عزمنا على الانصراف قال الجاحظ لصاحب المنزل : إني ما صليت لمذهب أو لسبب أخبرك به ، فقال له : (أو قيل له) ما أظن أن لك مذهباً في الصلاة إلا تركها » .

وقال ثعلب في الجاحظ : كان كذاباً على الله ، وعلى رسوله ، وعلى الناس . (٣)

وذكر أبو الفرج الأصبهاني أنه كان يرمى بالزندقة (٤)

ثلموا الجاحظ في دينه وجردوه من الشعور الديني ، فلنجتهد في التنقيب عن بعض مواضع من كلام الجاحظ ، ظهر فيها هذا الشعور الذي سلخوه منه الظهور كله ، ولقد ظهر في مقام علمي ، لا متعلق للدين به ، ولو كتمه الجاحظ لما كان عليه مطعن

---

(١) طبقات الأدباء للأنباري — ص ٢٥٨ .
(٢) تاريخ ابن عساكر .
(٣) لسان الميزان — الجزء الرابع ص ٣٥٧ .
(٤) لسان الميزان — الجزء الرابع ص ٣٥٦ .

من المطاعن ، فإنه في باب علم لا في باب دين ، ولكن هذا الشعور أبى إلا أن يفيض على جنبات كلامه ، و إذا كان المرء مأخوذاً بظاهر عقيدته لا بباطنها ، فليس في ظاهر عقيدة الجاحظ مغمز من المغامز ، أما الباطن فما نحاول مكاشفته ، فلنا ظاهر الجاحظ ولله باطنه .

قال زياد لأهل العراق لما قدم والياً عليهم (١) :

« إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي ، لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً حتى يبدي صفحته لي » .

وليس من المستسهل أن نعرف عقيدة الرجل على حقيقتها ، فقد يكتم المرء غير ما يظهر وقد يظهر غير ما يكتم .

مرة ينظر الجاحظ إلى الحمام كيف يعد الذكر والأنثى العش لولدهما ، وكيف ينقلان القصب ، ويشققان الخوص و ينسجانه نسجاً مداخلاً ، وكيف يتخذان موضعاً للولد و يصطنعانه بقدر جثمان الحمامة ، وكيف يحفظان البيض ، و يمنعانه من التدحرج ، وكيف يتعاوران الأفحوصة ، و ينفيان عنها طبيعتها الأولى ، و يحدثان لها طبيعة أخرى ، على مقدار من البرد والسخانة ، والرخاوة والصلابة ، وكيف تضع الأنثى البيض في هذه الأفحوصة ، وكيف يتعاقب الذكر والأنثى الحضن و يتعاورانه ، وكيف ينصدع البيض عن الفرخ فيعلمان الفرخ الغذاء ، و يعينانه عليه ، وكيف يزقانه باللعاب ، ثم بالحب والماء على مقدار قوته ، وكيف يمنعانه بعض المنع بعد أن يطيق اللقط ، وكيف يفطمانه فطماً مقطوعاً مجذوذاً ، بعد أن يعلما أن أسبابه قد اجتمعت ، وكيف ينفيانه إذا بلغ لنفسه منتهى حاجته ، وسألهما الكفاية ، وكيف ينزعان منهما تلك الرحمة له ، و ينسيان ذلك العطف عليه ، فلا يروحان إليه ، ولا يغدوان عليه .

ينظر إلى مجامع هذه الحكمة فلا يسعه إلا التسبيح لمن أودع المعرفة هذا الذكر والأنثى ، وألقى إليهما الإلهام ، و بسط عليهما ظل الهناء ، وجعلهما ضياء للمستضيء

(١) العقد الفريد — الجزء الأول ص ٥ .

وراشداً للمسترشد فيقول[١] :

« فسبحان من عرّفهما ، وألهمهما ، وهداهما ، وجعلهما دلالة لمن استدل ، ومخبراً صادقاً لمن استخبر ، ذلكم الله رب العالمين » .

ومرة ينظر إلى أصناف الحيوان ، فيتدبر كيف تبيض في صدع الصخر ، وأعالي الهضاب ، وكيف تبيض في الأجحرة ، وكيف تلد ولا تبيض ، ولا ترضع ولا تلقم ، وكيف تبيض وترضع ، وكيف تبيض في أوكارها في عرض مقاطع الجبال ، وكيف تبيض في البيوت في أصول أجذاع السقف ، وكيف لا تبيض من الجبال إلا في الوحشي منها ، وإلا في أسحقها وأبعدها عن مواضع أعدائها ، وكيف تتخذ بيوتها في عرض شطوط الأنهار والسواقي ، وكيف لا تجثم على بيضها ، وكيف لا تزق ، ولا تلقم ، ولا تلحم ، ولا تحضن ، ولا ترضع ، وكيف تزق وتحضن وتحتاج إلى ما تغذو به ولدها .

ينظر إلى هذا كله ، فيستدل به على حسن صنع الله وإحكامه وتدابيره[٢] .

وحيناً ينظر إلى الخنافس ، كيف يسقط إلى المقاييس أنها تجاب الرزق ، وأن دنوها دليل على رزق حاضر من صلة ، أو جائزة ، أو ربح ، أو هدية ، أو حظ ، وكيف تدخل في قمص الناس ، فتنفذ إلى سراويلاتهم ، فلا يقولون لها قليلاً ولا كثيراً ، وكيف يدفعونها ببعض الرفق ، وينظر إلى الذباب الكبير ، الشديد البطش ، الجهير الصوت ، كيف كانوا يحتالون في صرفه وطرده ، إذا أكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمه ، وكيف صاروا يعتقدون أنه مبشر بقدوم غائب ، وبرء سقيم ، فصاروا إذا دخل منازلهم وأوسعهم شرًّا لم يهجه أحد منهم .

ينظر إلى هذا فيرى في أضعافه قدرة خالق يمد في الآجال مرة ، ويقصّر من الأعمار مرة ، ويهيئ لكل واحدة منهما سبباً ، فلا يسعه إلا الاعتراف بهذه القدرة فيقول :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٤٧ .

(٢) « « السابع ص ١٩ .

« وإذا أراد الله عز وجلّ أن ينسئ في أجل شيء من الحيوان ، هيأ لذلك سبباً ، كما أنه إذا أراد أن يقصر عمره ، هيأ له سبباً ، فتعالى الله علوًّا كبيراً » .

ولقد ظهر هذا الشعور في قوله(١) :

« اعلم رحمك الله تعالى أن الله عز وجل قد أضاف ست سور من كتابه إلى أشكال من أجناس الحيوان الثلاثة ، منها مما يسمونه باسم البهيمة ، وهي سورة البقرة ، وسورة الأنعام ، وسورة الفيل ، وثلاثة [منها] مما يعدون اثنتين منها من الهمج ، وواحدة من الحشرات ، فلو كان موقع ذكر هذه البهائم وهذه الحشرات والهمج من الحكمة والتدبير موقعها من قلوب الذين لا يعتبرون ولا يفكرون ولا يميزون ولا يحصلون الأمور ولا يفهمون الأقدار ، لما أضاف هذه السور العظام ، الخطيرة الشريفة الجليلة ، إلى هذه الأمور المحقرة السخيفة ، والمغمورة المقهورة ، ولأمر ما وضعها فى هذا المكان ، ونوه بأسمائها هذا التنويه ، وأنا ذاكر من شأن الضفدع من القول ما يحضر مثلي ، وهو قليل في جنب ما عند علمائنا ، والذي عند علمائنا لا يحسن في جنب ما عند الله تبارك وتعالى » .

وظهر شعوره الديني في غير هذه المواطن ، فإذا أطنب في ذكر العظيم الجثة من الحيوان . فلا يطنب في شيء من ذلك لعظم جثته ، وإنما يلتمس ما كان أكثر أعجوبة وأبلغ في الحكمة ، وأدل عند العامة على حكمة الرب(٢) .

وبلغ من حرصه على الدين ، أنه رأى الخطأ في الدين أضر من الخطإ في كل علم من العلوم ، فقال في كلامه على الترجمة في عصره وعلى شروط هذه الترجمة وعلى خطإ المترجم(٣) :

« والخطأ في الدين أضر من الخطإ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء ، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم » .

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٥٢ .
(٢) « « « ٠ ص ٤٩ .
(٣) « « « الأول ص ٣٩ .

وهو يجد كتب الله تعالى أنفع وأشرف من كتب الأوائل ، وما اشتملت عليه من عجيب حكمة ، ومن سيرة ، قال(١) :

« وأكثر من كتبهم نفعاً ، وأشرف منها خطراً ، وأحسن موقعاً ، كُتُب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل حكمة ، وتعريف كل سيئة وحسنة » .

وقد علمنا أن الزندقة مستفيضة في عصر الجاحظ ، ومر بنا أن من الذين اتهموا بهذه الزندقة حماد الراوية ، وقد عرض به حماد بن الزبرقان بأبيات ذكرت في محلها ، منها :

وحبوت من زعم السماء تكونت. والأرض خالقها لها لم يمهد

وقد قال الجاحظ بعد هذا الشعر : فليس يقول أحد إن الفلك بما فيه من التدبير تكون بنفسه ومن نفسه .

وتعرض الجاحظ لجماعة من الذين اتهموا بالزندقة ، واستنكر استفاضتها ، على نحو ما تبين لنا ذلك في كلامنا على عصره إذ قال :

« وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم ، التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانباً ، وأعرضوا عنه صفحاً فليس إلا : لا أو نعم ، إلا أن قولهم : لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم : نعم ، موصول منهم بالرضى ، وقد عزل الحق جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن » .

إن هذا كله يدلنا دلالة واضحة على أن الجاحظ لم يضعف شعوره الديني ، فإن نسبته إلى الجهالات والضلالات ، والشك في دينه ، واتهامه بالكفر والنفاق ، كل هذا لا يخلو من تحامل ظاهر ، وأظن أنهم ما طعنوا فيه هذا المطعن إلا لمخالفته إياهم في أصل الدين ، فإن الرجل يستند في تفسير الآيات وتأويل الأحاديث إلى عقله ، على نحو ما يظهر لنا ذلك في الفصل الآتي .

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٣ .

مذهب الجاحظ في التفسير والتأويل

علمنا من قبل أن الجاحظ يعتمد في تحقيق العلم على العقل ، وقد وضحنا مذاهبه في هذا الباب ، ولم يقتصر في إعماله العقل على العلم أو على الفاسفة ، وإنما أعمل هذا العقل في الدين ، وخاصة في تفسير الآيات وتأويل الأحاديث ، وشأننا في هذا المقام أن ننتخب نماذج من تفسيره وتأويله ظهرت عليها آثار العقل ، وغايتنا في انتخابنا تبيين الصفة الغالبة من صفات الجاحظ وهي صفة المفكر ، فلسنا نرمي إلى التخطئة والتصويب في هذه السبيل ، فلكل رأيه في التفسير والتأويل ، وما لنا في هـذا الرأي إلا الحيدة التامة .

قد كنت ذكرت في كلامي على ثقافة الجاحظ ، وعلى أساتيذه ، قول النظّام في المفسرين : لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن نصبوا نفسهم للعامة ، وأجابوا فى كل مسألة ، إلى آخر هذا القول ، وبينت أن الجاحظ يشارك النظّام في هذا الرأي ، فمن قول الجاحظ في هذا الباب[1] :

« وليس يؤتى القوم إلا من الطمع ، ومن شدة إعجابهم بالغريب من التأويل » .

فمذهب الجاحظ في التفسير والتأويل اجتناب الغريب منهما ، فقد تمر به أحاديث يحتج بها طائفة من القوم ، فيردها دون شيء من التضديق ، وقد يختلف هذا الرد ، فمرة يردها رداً مجرداً دون الإفاضة في بيان العلة ، من هذا الشكل قوله[2] :

« هشام بن عروة قال : أخبرني أبي أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، كانت تقتل الأوزاغ » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٦٩ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٩٦ .

« يحيى بن أبي أنيسة ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للوزغ : فويسق ، قالت : ولم أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتله » .

« عبد الرحمن بن زياد قال : أخبرني هشام ، عن عروة ، عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للوزغ : الفويسق » .

« أبو بكر الهذلي ، عن معادةَ ، عن عائشة ، قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ ، وفي يدي عكاز فيه زج ، فقال : يا عائشة ما تصنعين بهذا ؟ قلت : أقتل به الوزغ في بيتي ، قال : إن تفعلي ، فإن الدواب كلها حين أُلقي إبراهيم عليه السلام في النار ، كانت تطفئُ عنه ، وإن هذا كان ينفخ عليه ، فصم وبرص » .

« وهذه الأحاديث كلها يحتج بها أصحاب الجهالات ، ومن زعم أن الأشياء كانت كلها ناطقة ، وأنها أُمم مجراها مجرى الناس » .

ومرة يردها لأن رواتها يروونها دون توضيح شيء من عللها وبرهاناتها ، مقتصرين فيها على ظاهر ألفاظها ، فالجاحظ لا يصدقها ، فلنضرب مثلاً لذلك(١) :

بحث الجاحظ عن الكلام المتروك ، والأسماء التي زالت مع زوال معانيها ، كالغلامة بمعنى الجارية ، وكالمرباع والنشيطة ، وعن الأسماء التي حدثت في الإسلام ولم تكن في الجاهلية ، وإنما اشتقت من أسماء متقدمة على التشبيه ، مثل قولهم لمن أدرك الجاهلية والإسلام : مخضرم ، ومثل قولهم : المنافق والمشرك والكافر والتيمم .

وبحث عن بعض كلام كرهوه ، كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل : لقست نفسي ، كأنه كره أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه .

وبعد أن أفاض بعض الإفاضة في أشباه هذه المباحث قال :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٦٦ .

« وقد كرهوا أشياء مما جاءت في الروايات لا تعرف وجوهها ، فرأى أصحابنا لا يكرهونها ، ولا نستطيع الرد عليهم ، ولم نسمع لهم في ذلك أكثر من الكراهة ، ولو كانوا يروون الأمور مع عللها و برهاناتها خفت المؤنة ، ولكن أكثر الروايات مجردة ، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ، ودون الإخبار عن البرهان ، و إن كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدة واحدة ، قال ابن مسعود وأبو هريرة : لا تسموا العنب الكرم ، فان الكرم هو الرجل المسلم ، وقد رفعوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما قوله : لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله ، فما أحسن ما فسر ذلك عبد الرحمن بن مهدى ، قال : وجه هذا عندنا أن القوم قالوا وما يهلكنا إلا الدهر ، فلما قال القوم ذلك ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : ذلك الله ، يعني أن الذي أهلك القرون هو الله عز وجل ، فتوهم منه المتوهم أنه إنما أوقع الكلام على الدهر » .

وحيناً يرد الأحاديث ويجادل في ردها ، من هذا القبيل قوله[1] :

«وقالوا في الحديث أنه من اقتنى كلباً ليس بكلب زرع ولا ضرع ولا قنص فقد أثم ، . . .

و بعد ، فلعل النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا القول ، إن كان قاله ، على الحكاية لأقاويل قوم ، ولعل ذلك كان على معنى كان يومئذ معلوماً ، فترك الناس العلة ، ورووا الخبر سالماً من العلل ، مجرداً غير مضمّن ، ولعل من سمع هذا الحديث شهد آخر الكلام ولم يشهد أوله ، ولعله عليه الصلاة والسلام قصد بهذا الكلام إلى ناس من أصحابه قد كان دار بينهم و بينه فيه شيء ، وكل ذلك ممكن سائغ ، غير مستنكر ولا مدفوع » .

هـذا مذهبه في رد الأحاديث التي يشك في روايتها ، ولقد ذهب هذا المذهب في تفسير الآيات ، فكما كره الغريب من تأويل الأحاديث ، فقد كره الغريب من تفسير الآيات ، ولم يخل من تهكم على بعض المفسرين ، وقد يظهر تهكمه من مجرد

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٤٧ .

ذكره لتفسيرهم ، من هذا النوع قوله وقد ذكرته من قبل [١] :

« وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسة ، فرمى منخريه بزوج سنانير ، فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد ، وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل .

قال كيسان : فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حواءها ! وضحك القوم » .

نعم ، يكره الجاحظ الغريب من التفسير ، ومن تفرغه لتأويل قولٍ رفع إلى أبي موسى نعرف مقدار إحاطته ببواطن الأمور ، فهو لا يقتصر على ظواهرها ، وإنما يتولى الكشف عن أسرارها ، وهذا تأويله الذي أشرت إليه [٢] :

« وعن قتادة أن أبا موسى قال : لا تتخذوا الدجاج في الدور ، فتكونوا أهل قرية ، وقد سمعتم ما قال الله تعالى في أهل القرى (أَفَأَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون) ، وهذا عندي من أبي موسى ليس على ما يظنه الناس ، لأن تأويله هذا ليس على وجه ، ولكنه كره للفرسان ورجال الحرب اتخاذَ ما يتخذه الفلاح الفرسان وأصحاب التعيُّش ، مع حاجته يومئذ إلى تفرغهم لحروب العجم ، وأخذهم في تأهب الفرسان ، وفي دربة رجال الحرب ، فإن كان ذهب إلى الذي يظهر في اللفظ فهذا التأويل مرغوب عنه » .

وقبل أن أتعرض لذكر طائفة من أنماط تفسيره لا أرى بأساً برواية بعض كلام له يدل على مقدار كراهيته للغريب من تأويل أي شيء كان ، حتى قال : ولم يهلك الناس شيء كالتأويل ، وهذا هو كلامه [٣] :

« ويقول الناس : فلان مخدوم ، يذهبون إلى أنه إذا عزم على الشياطين والأرواح والعمار أجابوه وأطاعوه ، فمنهم عبد الله بن هلال الحميري الذي كان يقال له صديق

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٧ .
(٢) « « الأول ص ١٤٣ .
(٣) « « السادس ص ٦١ .

إبليس ، ومنهم كرباش الهندي ، وصالح المديبري ، وقد كان عبيد يقول : إن العامر حريص على إجابة العزيمة ، ولكن البدن إذا لم يصلح أن يكون [له] هيكلاً لم يستطع دخوله ، والحيلة في ذلك أن يتبخر باللبان الذكر ، ويراعى سير المشتري ، ويغتسل بالماء القراح ، ويدع الجماع وأكل الزهومات ، ويتوحش في الفيافي ، ويكثر دخول الخرابات ، حتى يرق ويلطف [ويصفو] ويصير فيه مشابه من الجن ، فإن عزم عند ذلك فلم يجب فلا يعودن لمثلها ، فإنه ليس ممن يكون بدنه هيكلاً لها ، ومتى عاد خُبِطَ ، فربما جنّ ، وربما مات ، قال : فلو كنت ممن يصلح أن يكون لهم هيكلاً لكنت فوق عبد الله بن هلال ، قال الأعراب : وربما نزلنا بجمع كثير ، ورأينا خياماً وقباباً وناساً ثم فقدناهم من ساعتنا ، والعوام تروي أن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، رأى رجلا من الزط ، فقال : هؤلاء أشبه من رأيت بالجنّ ليلة الجن ، قال : وقد روي عنه خلاف ذلك ، وتأولوا قوله تعالى : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجالَ من الجن فزادوهم رَهقاً) ، ولم يهلك الناسَ كالتأويل ، ومما يدل على ما قلنا قول أبي النجم حيث يقول :

✲ بحيث تستن مع الجن الغول ✲

فأخرج الجن من الغول الذي بانت به [من] الجن ، وهكذا عادتهم أن يخرجوا الشيء من الجملة بعد أن دخل ذلك الشيء في الجملة فيظهر لأمر خاص ، وفي بعض الرواية أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة ، وأن خالد بن الوليد حين هدم العزّى رمته بالشرر ، حتى احترق عامة فخذه ، حتى عوذه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه فتنة لم يكن الله تعالى ليمتحن بها الأعراب [وأشباه الأعراب] من العوام ، وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطاف لمكان التكسب » .

من هذا يتبين لنا أنه يرد الأمور إلى حقائقها ، ويبين في كل فتنة جواهر عللها ، فليس في أجواف الأوثان شيء من الهمهمة ، وإنما هي حيل وألطاف يلجأ إليها السدنة على سبيل التكسب .

فلنعجل بعد هذا كله ، فنبين مواطن من تفسيره ظهرت عليها آثار عقله .

مرّة يحمل اللفظ على ظاهره ، فالشيطان فى اللغة معروف أمره ، ولكن من المفسرين من فسر رؤوس الشياطين في الآية الوارد ذكرها تفسيراً عدّه الجاحظ غريباً ، وتفرّغ لردّ التفسير إلى حقائقه ، مبيناً السبب الذي من أجله قد نستقبح الشيء ولم نر صورته ، فمن كلام للجاحظ في خلال تفسير بعض الآيات قوله في تأويل هذه الآية[1] :

«(إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين) ، قال الجاحظ في تأويل هذه الآية : « وليس أن الناس رأوا شيطاناً قط على صورة ، ولكن لما كان الله قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين ، واستسماجه وكراهته ، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك ، رجع بالإيحاش والتنفير ، وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين ، وعند جميع الأمم ، على خلاف طبائع جميع الأمم ، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن » .

ومرّة يحمل الكلام على باطنه ، فالتين في اللغة والزيتون معروف أمرهما ، ولكن الجاحظ في تفسير قوله تعالى : (والتين والزيتون) ، لم يقف عند ظاهر المعنى ، وإنما نفذ إلى بواطن الأمور استنباطاً للحكم منها ، من هذا النحو قوله :[2]

« وقد قال الله عز وجل : (والتين والزيتون) ، فزعم زيد بن أسلم أن التين دمشق ، والزيتون فلسطين ، وللغالية في هذا تأويل أرغب بالعترة عنه وذكره . . . . . .

والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف ، وإنما يريد النعم والأعاجيب والصفات وما أشبه ذلك ، فإن كلاً من هذه الفنون لو وقف عليه رجل رقيق اللسان ، صافي الذهن ، صحيح الفكر ، تام الأداة ، لما برح أن تحشره المعاني ، وتغمره الحكم » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٣ .
(٢) « « « الأول ص ٩٧ .

وحيناً يعترض المعترضون في بعض الآيات ، فيتجرد الجاحظ لردهم إلى الصواب ، ذاهباً في هذا مذهب المتكلمين ، من هذا القبيل قوله[1] :

« وسنذكر مسألة كلامية ، وإنما نذكرها لكثرة من يعترض في هذا ممن ليس له علم بالكلام ، ولو كان أعلم الناس باللغة لم ينفعك في باب الدين حتى يكون عالماً بالكلام ، وقد اعترض معترضون في قوله عز وجلّ : (واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) ، فزعموا أن هذا المثل لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام ، لأنه قال : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها) ، فما يشبه حال من أعطي شيئاً فلم يقبله ولم يذكر غير ذلك بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولى ذاهباً ، وإن تركته شد عليك ونبح ، مع أن قوله : يلهث ، لم يقع في موضعه ، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد ، وحرّ شديد ، ومن تعب ، وأما النباح والصياح فمن شيء آخر ، قلنا له : إن قال : ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فقد يستقيم أن يكون الرادّ لا يسمى مكذباً ، ولا يقال لهم كذبوا إلا وقد كان ذلك منهم مراراً ، فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات ، في بدء حرصه عليها ، وطلبه لها ، بالكلب في حرصه وطلبه ، فإن الكلب يعطي الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات ، وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ، ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها ، بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له ، وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة ، في وزن طلبها ، والحرص عليها ، والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً إليك ، ومدبراً عنك ، لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش ، وعلى أننا ما نرمي بأبصارنا إلى كلابنا ، وهي رابضة وادعة ، إلا وهي

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٦ .

تلهث من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها ، والذي طبعت عليه من شأنها ، إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين » .

وحيناً يطعن في بعض الآيات ناس من الملحدين ، و بعض من لا علم له بلغة العرب ، و بمداخلها ومخارجها ، فيهديهم الجاحظ سواء السبيل ، مفصلاً لهم مذاهب لغة العرب أدق تفصيل ، من هذا النوع قوله :(١)

« وقد طعن ناس من الملحدين ، و بعض من لا علم له بوجوه اللغة ، وتوسع العرب فى لغتها ، وفهم بعضها عن بعض بالإشارة والوحي ، فقالوا : قد علمنا أن الشمع شيء تنقله النحل مما يسقط على الشجر ، فتبني بيوت العسل منه ، ثم تنقل من الأشجار العسل الساقط عليها ، كما يسقط الترنجبين والمن وغير ذلك ، إلا أن مواضع الشمع وأبدانه [خفي ، وكذلك العسل] أخفى وأقل ، فليس العسل بقيء ولا رجْعٍ ، ولا دخل للنحلة في بطن قط ، وفي القرآن قول الله عز وجل : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) ، ولو كان إنما ذهب إلى أنه شيء يلتقط من الأشجار ، كالصموغ ومايتولد من طباع الأنداء والأجواء ، والأشجار إذا تمازجت ، لما كان في ذلك عجب إلا بمقدار ما نجده في أمور كثيرة ، قلنا : فقد زعم ابن حائط ، وناس من جهال الصوفية ، أن في النحل أنبياء ، لقوله عز وجل : (وأوحى ربك إلى النحل) ، وزعموا أن الحواريين كانوا أنبياء ، لقوله عز وجل : (وإذ أوحيت إلى الحواريين) ، قلنا : وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء ، بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء ، لقوله عز وجل على المخرج العام : (وأوحى ربك إلى النحل) ، ولم يخص الأمهات والملوك واليعاسيب ، بل أطلق القول إطلاقاً . و بعد فإن كنتم مسلمين ، فليس هذا قول أحد من المسلمين ، و إلا تكونوا مسلمين ، فلم

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١٢٨ .

تجعلون الحجة على نبوة النحل كلاماً هو عندكم باطل ، وأما قوله عز وجل : (يخرج من بطونها شراب) ، فالعسل ليس بشراب ، وإنما [هو شيء] يحول بالماء شراباً أو بالماء نبيذاً ، فسماه كما ترى شراباً ، إذا كان يجيء منه الشراب ، وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم ، وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم   رعيناه وإن كانوا غضابا

فزعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط ، ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها [فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها] ، ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً ، وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم ، وبه قال ، وبأشباهه اتسعت ، وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامه وهذيلاً وضواحي كنانة ، هؤلاء أصحاب العسل ، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة ، وعسلة ساقطة ، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا البيان ، أو طعن عليه من هذه الحجة » .

والأمثال في هذا الباب كثيرة ، فإذا حاولنا الاستقصاء فيها تراخى الكلام ، فالذي يستخرج من كل ما تقدم أن الجاحظ في أمور الدين يذهب مذهبه في أمور العلم ، فكما نبّه في العلم على المسائل التي خرج فيها أصحابها من العقل ، فكذلك نبّه في أمور الدين على المسائل التي لا تطابق العقل ، وتنبيهه كان على أساليب شتى ، ذكرت شيئاً منها ، ومهما تختلف هذه الأساليب ، فإن جوهرها واحد ، فالجاحظ لا يريد إلا العلة وإلا البرهان في كل مسألة من المسائل ، ولقد عابوه باستهزائه من بعض الأحاديث ، أو من بعض الآيات ، ولو أنصفوا لعدّوا له فضلاً عظيماً في التفسير والتأويل ، فقد تبين لنا كيف يتفرغ للرد على بعض الطاعنين في القرآن ، فيهيب بهم إلى الصواب ، آخذاً عليهم مداخل الطرق ومخارجها ، يحمل الألفاظ مرةً على ظواهرها إذا كانت الحكمة في حملها على الظواهر ، ومرةً يحملها على بواطنها إذا كانت الحكمة في حملها على البواطن ، حتى لا يبقى للطاعنين متنفس يتنفسون منه .

ضحك الجاحظ

أدرج في هذا الفصل من أُفق من آفاق الجاحظ تتسع فيه أفياء الحقيقة ، إلى أُفق ينبسط فيه سلطان الجمال ، إن قطع عضو من أعضاء الحيوان ، أو إلقاء السم على هذا الحيوان ، أو استقصاء صفاته ، أو دفنه في النبات ، أو ذوقه ، أو بعج بطنه ، أو جمع أضداده في إناء ، إن هذا كله لا تلتمس فيه إلا الحقيقة ، وسواء أكانت هذه الحقيقة بنت الحواس أم كانت بنت العقل ، إنها جافَّة ، وأيُّ طراوة في تجارب نجرّبها في ضب ، أو في حية ، أو في ظليم ، أو في خنفساء ، أو في عقرب ، أو في جرَذ ، أو في نملة ، ولكن عبقرية البشر لا يتعاظمها تصوير الحقائق في صورة يتغير فيها الجفاف إلى الطراوة ، واليبس إلى الغضاضة ، وهذا التصوير إنما هو من عمل الفن ، فإذا أردنا أن ندرك قدرة الجاحظ عليه لزمنا أن نعجل إلى الإحاطة بناحية من نواحيه ، تنشىء لنا لذة تروّض قوانا العقلية ، فيخرج العقل من هذه الرياضة أقوى سلطاناً ، وأمرن طبيعة ، وأغنى مادة .

فها أنا أخرج من باب علم الجاحظ إلى باب فنه ، ولا يخطرن على بال أحد أن العلم والفن ضدان ، فالحقيقة أخت الجمال ، وإذا أردنا أن نعلم مقدار اتصالها بالجمال ، فلنسمع ما قاله واضع علم الكيمياء الحديث ، قال لافوازيه (Lavoisier) :

« ولما كانت الألفاظ هي التي تحفظ الأفكار وتنقلها ، نشأ عن ذلك أننا لا نستطيع تجويد اللغة إلاَّ إذا جوّدنا العلم ، ولا نستطيع تجويد العلم إلاَّ إذا جوّدنا اللغة ، ومهما تكن الأمور أكيدة ثابتة ، ومهما تكن الأفكار التي تولدها هذه الأمور صحيحة ، فإذا لم يتهيأ لنا بيان صحيح يعرب عن هذه الأفكار فلا ننقل إلا انفعالات خاطئة » .

هذا مقدار عطف عالم من أجل العلماء على الفن ، و إلى القارئ رأي اديب يفصح عن عطفه على العلم ، فقد تمنى موريس دوني (Maurice Donnay) في خطاب خطبه في الأكادمية أن ينشأ الأدب والعلم معاً كما ينشأ الشقيقان .

فالعلم والفن صنوان ، فلنعجل إلى البحث عن فن الجاحظ . أول جهة من جهات هذا الفن تهكم الجاحظ ، وقبل أن أتعرض للكلام على تهكمه لا بأس بإمضاء القول في أضاحيك الجاحظ .

للجاحظ ولع شديد بالضحك والإضحاك . فكأنما لا ينظر إلى الحياة إلا من وجهها المشرق ، وأي شيء أدل على فرط اهتمامه بالضحك من هـذه السطور التي تمثل لنا مقدار تفننه في بيان وجوه استحسانه ، وتأثيره في الطباع ، قال أبو عثمان [١] :

« ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك ، وقبيحاً من المضحك ، لما قيل للزَهْرة والحِبَرَة والحَلْي والقصر المبني : كأنه يضحك ضحكاً ، وقد قال الله جلَّ ذكره : (وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيي) ، فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، و إنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ، ولا يمنّ على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شيء في أصل الطباع ، وفي أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي ، وقد تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ، و يكثر دمه ، الذي هو علة سروره ، ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي أولادها بالضحاك و ببسام و بطاق و بطليق ، وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح ، وضحك الصالحون وفرحوا ، و إذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن ، و بسام العشيات ، وهش إلى الضيف ، وذو أريحية واهتزاز ، و إذا ذموا قالوا : هو عبوس ، وهو كالح ، وهو قطوب ، وهو شتيم المحيا ، وهو مكفهرّ أبداً ، وهو كريه ، ومقبض الوجه ، وحامض الوجه ، وكأنما وجهه بالخل منضوح . وللضحك موضع وله مقدار ، وللمزح موضع

---

(١) كتاب البخلاء — مطبعة الجمهور ص ٦ .

وله مقدار ، متى جازهما أحد ، وقصر عنهما أحد ، صار الفضل خطلاً ، والتقصير نقصاً ، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المزح جدًّا ، والضحك وقاراً » .

لم تفلت الجاحظ حجة من الحجج في دفاعه عن الضحك ، فهو يستعين بكل شيء في هذا الدفاع ، يستعين بالأدب وبالقرآن وبالطب وبالنبي وبالصالحين ، وهذه طريقته في تقرير معنى يستأنس به ، وما هذا المعنى في مقامنا إلا الضحك ، فالجاحظ مولع بالضحك ، ولكنه لا يريد أن ينفرد به ، وإنما يحاول أن يشارك فيه قراء كتبه ، فكأنما يحاول أن يحمل هؤلاء القراء على النظر إلى الحياة من الوجه الذي ينظر إليه منها ، فهو يحرص الحرص كله على إضحاك القارئ خوفاً من ملالته وسآمته ، فيصرف كل همه إلى إدخال السرور على قلبه ، والنشاط على ذهنه ، بما يهتدي إليه من النوادر والغرائب ، ولقد وضَّح حرصه هذا في مواطن كثيرة من كتبه ، وخاصة كتاب الحيوان ، وما خصصت هذا الكتاب إلا لجعله فيه للعلم أوفى نصيب ، فقبل أن يتفرغ للبحث عن الضب والغول والجن والهدهد والتمساح والظبي والأرانب والظربان وغير ذلك ، يستوقف القارئ في مقدمة كلامه ، ويعاهده على إضحاكه بشيء من النوادر ، والأخبار ، أو الأشعار ، خوفاً من إضجاره ، فمن المواطن التي استوقف فيها القارئ قبل أن يندفع في مباحث جافة ، وعلله فيها بالإضحاك ، موطن يقول فيه(١) :

« وليس من الأبواب باب إلا وقد يدخله نتف من أبواب أخر ، على قدر ما يتعلق بها من الأسباب ، ويعرض فيه من التضمين ، ولعلك أن تكون بها أشد انتفاعاً ، وعلى أني ربما وشَّحت [هذا الكتاب] وفصَّلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام ، وطرف أخبار ، وغرر أشعار ، مع طُرَف مضاحيك ، ولولا الذي نحاول من استعطاف على استتمام انتفاعكم لقد كنا تسخَّفنا وسخَّفنا شأن كتابنا هذا » .

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٦ .

فنحن نرى في هذا الكلام مقدار اعتنائه بالإشارة إلى مضاحكه ، والتنبيه عليها .

ولقد فصل مذهبه أوضح تفصيل في قوله[١] :

« وإن كنا قد أمللناك بالجد ، وبالاحتجاجات الصحيحة والمروَّجة ، لتكثر الخواطر ، وتُشحذ العقول ، فإنا سنُنَشِّطُك ببعض البطالات ، وبذكر العلل الظريفة ، والاحتجاجات الغريبة ، فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه [من السرور والضحك والاستطراف] ما لا يبلغه [حشدُ] أحر النوادر ، وأجمع المعاني ، وأنا أستظرف أمرين استظرافاً شديداً : أحدهما استماع حديث الأعراب ، والأمر الآخر ، احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً ، فإنهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وإن تشدد ، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب ، ولو أن ذلك لا يحل لكان في باب اللهو والضحك والسرور والبطالة والتشاغل ما يجوز في كل فن ، وسنذكر من هذا الشكل عللاً ، ونورد عليك من احتجاجات الأغبياء حججاً ، فإن كنت ممن يستعمل الملالة ، وتعجل إليه السآمة ، كان هذا الباب تنشيطاً لقلبك ، وجماماً لقوتك ، ولتبتدئ النظر في باب الحمام ، وقد ذهب [عنك] الكلال ، وحدث النشاط ، وإن كنت صاحب علم وجد ، وكنت ممرناً موقَّحاً ، وكنت إلف تفكير وتنقير ، ودراسة كتب ، وحلف تبيُّن ، وكان ذلك عادة لك ، لم يضرك مكانه من الكتاب ، وتخطيه إلى ما هو أولى بك ، وعلى أني قد عزمت ، والله الموفق ، أني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا في طريق الراحه التي إذا طالت أورثت الغفلة ، وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٢ .

الـكتب هذه السيرة ، كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً » .

وللجاحظ مقامات كثيرة أشار فيها إلى ولعه بالإضحاك ، أكتفي بالقدر اليسير الذي ذكرته تفادياً من التطويل ، ولقد كان في تكريره هذه الإشارة دليل واضح على شغل ذهنه بالإضحاك . وإذا علمنا أن الجاحظ عاش في عصر نقلت فيه كتب الهند ، وترجمت حكم اليونانيين ، وحوّلت آداب الفرس ، إذا علمنا أن عصر الجاحظ كان عصر حساب وطب ومنطق وهندسة وفلسفة وفلاحة وتجارة ، وغير ذلك من الأبواب التي تتعب الأذهان وتجهد العقول ، إذا علمنا هذا كله لم نعجب من ميـل الجاحظ إلى الاستنشاط ببعض البطالات ، وبذكر العلل الظريفة ، والاحتجاجات الغريبة .

ولكن العلم وحده ، وما طبع به من طابع جاف ، لم يكن السبب الأكبر الذي من أجله لجأ الجاحظ إلى الإضحاك حرصاً على نشاط القارئ ، أفلم يضع كتاب البخلاء الذي قال فيه[1] :

« ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبيّن حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت فى ضحك منه إذا شئت ، وفي لهو إذا مللت الجد » .

ولقد ذهب بعضهم إلى أن ما تضمنه هذا الـكتاب من احتجاج الأشحاء ، ونوادر أحاديث البخلاء ، لا صحة له ، وإنما الجاحظ توخى في هـذا كله مجرد الضحك والإضحاك . على أني لا أستغرب شيئاً مما ورد فى كتاب البخلاء ، فقد تكون نوادره صحيحة ، ومن عرف أخبار البخلاء وجالسهم وخالطهم لا يستبعد كتاب الجاحظ في احتجاجهم ونوادرهم ، فضلاً عن أن الجاحظ لم يخترع الأسماء اختراعاً ، فقد قال في مقدمة البخلاء :

---

(١) كتاب البخلاء ص ٥ .

« وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافةً إلى أربابها ، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها ، إما بالخوف منهم وإما بالإكرام لهم » .

وكيف كان الأمر فلا يخرج كتاب البخلاء عن الإضحاك ، كما لم يخرج طبع الجاحظ عن الضحك والإضحاك ، وربما ذهب في هذا الباب مذهباً أبعد ، فعمد إلى الأدب المجرد فسمى الأشياء بأسمائها دون شيء من التورية ، وسيأتي الكلام على هذا المذهب .

يستخرج من كل ما تقدم أن الجاحظ مولع بالضحك والإضحاك ، وقد اجتمع له في هذا المعنى ما لا يسهل اجتماعه لغيره ، خلقة مشوهة تعين على المزح والظرف ، وربما كانت مصدر الضحك والإضحاك ، وطبع على الهزل ، فالجاحظ مطبوع على الهزل ، يلتقط النكتة ولو في الطريق ، لا يبالي في سبيلها بمخاطبة العامة ولو أسمعوه ما يكره ، لا تفوته النكتة ولو في ديوان الخلفاء ، ونحن نعلم ما صنعه بابن العيناء لما تقلد خلافة إبراهيم بن عباس الصولي على ديوان الرسائل ، أنه مولع بالنادرة ولو جلبت هذه النادرة أشد الأذى ، ولم يفتنا ما فعله بمحفوظ النقاش فقد أكل اللبأ كله ولم يعبأ بفالجه طمعاً في الضحك والنشاط والسرور ، ومن فرط اهتمامه بالظرافة يخالط أهل الهزل ، ويروي من النوادر ولو على نفسه ، من هذا القبيل قوله[(١)] :

« فأما الذي أصابني أنا من الذبان ، فإني خرجت أمشي في المبارك[(٢)] أريد دير الربيع ، ولم أقدر على دابة ، فمررت في عشب [أَشِبٍ] ونبات ملتف ، كثير الذبان ، فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفي فطردته ، فلم أقدر ، فتحول إلى عيني ، [فطردته ، فعاد إلى موق عيني] ، فزدت في تحريك يدي ، فتنحى عني بقدر شدة حركتي ، وذبي عن عيني ، ولذبان الكلأ والغياض والرياض وقع ليس لغيرها ، ثم عاد إلي فعدت عليه ، ثم عاد [إليّ] فعدت بأشد من ذلك ، فلما عاد

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠٧ .

(٢) المبارك : نهر بالبصرة . ويمشي فيه : أي في شاطئه .

استعملت كمي ، فذببت به عن وجهي ، ثم عاد وأنا في ذلك أحث السير ، أؤمل بسرعتي انقطاعه عني ، فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي ، فذببت به عني بدل كمي ، فلما عاود ولم أجد له حيلة استعملت العدو ، فعدوت منه شوطاً [تامًّا] لم أتكلف مثله مذ كنت صبياً ، فتلقاني الأندلسي ، فقال لي : مالك يا أبا عثمان ، هل من حادثة ؟ قلت : نعم ، [أكبر الحوادث] ، أريد أن أخرج من موضع للذبان علي فيه سلطان ، فضحك حتى جلس وانقطع عني ، وما صدقت بانقطاعه عني حتى تباعد جدًّا » .

كلف الجاحظ بالإضحاك أمر بيّن، وقد بسط مذهبه هذا في أكثر كلامه ، ولست فى حاجة إلى ذكر نادرة من نوادره فى أثناء كلام له على بعض الحيوان ، أو على الفلسفة ، أو على الدين ، فإن هذه النوادر مبعثرة في كتبه ، والحقيقة أن الذهن قد تتعبه أمور العلم فيحتاج إلى التنشيط ، فبينما الجاحظ يمضي القول في العقرب ، وفي مقدار الانتفاع برمادها ، وفي طلبها الإنسان ونحوه ، وفي استخراجها من بيوتها ، إذ تعن على باله نادرة سمعها من أبي عبيدة فيقول(١) :

« قال أبو عبيدة : لسعت أعرابيًّا عقرب بالبصرة ، فخيف عليه ، فاشتد جزعه ، فقال بعض الناس : ليس شيء خير له من أن تغسل له خصية زنجي عرق ، وكانت ليلة غَمِقَة ، فلما سقوه قطب ، فقيل [له] : طعم ماذا تجد ؟ قال : طعم قربة جديدة » .

أو يخبره محمد وعلي ابنا بشير بهذا الخبر ، فيرويه ، فيقول(٢) :

« إن ظئراً لسليمان بن رياش لسعتها عقرب، فملأت الدنيا صراخاً ، فقال سليمان : اطلبوا لها هذه العقرب ، فإن دواءها أن تلسعها لسعة أخرى في ذلك المكان ، فقالت العجوز : قد برئت ، وقد سكن وجعي ، ولا حاجة لي فى هذا العلاج ! قال : فأتوه بعقرب ، لا والله إنْ يُدْرَى أهي تلك أم غيرها ؟ فأمر بها ، فأمسكت ، فقالت :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ١١١ .

(٢) « « « الخامس ص ١١١ .

أنشدُك بالله واللبن ، وأرسلها عليها ، فلسعتها ، فغشي عليها ومرضت [زماناً] ، وتساقط شعر رأسها ، فقيل لسليمان في ذلك ، فقال : يا مجانين ، لا والله إن رد عليها روحها إلا اللسعة الثانية ، ولولا هي لقد كانت ماتت » .

ولا شك في أن أمثال هذه النوادر تخفف من مؤنة البحث والتنقير ، والتعمق والتدقيق ، وإذا جاز لنا أن نؤاخذ الجاحظ بشيء في هذا الباب ، فإنما نؤاخذه في بعض الأحايين بفرط ولعه بالإضحاك ، فقد يخرجه غلوه في هذا المعنى عن المقدار ، فيرسل مثلاً في كلامه على بعض الحيوان أحاديث ونوادر من الشعر لا تتعلق بهذا الحيوان ، فكأنما الجاحظ يريد أن يضحك القارئ ويسره كيف كان الأمر ، فهو يعتمد هذا الإضحاك أحياناً ، وهنا موطن الكلفة ، وموقع الإفراط ، فإذا تعمدنا الإضحاك فقليلاً ما نضحك ، والنادرة إن لم تكن بنت الطبع كانت فاترة .

وهذا المذهب الذي يلجأ اليه ليس فيه شيء من قوارص الكلام ، وربما أوحاه إليه عصره وطبعه ، وقد قلد فيه الأوائل ، فقد سمعنا قوله في هذا المعنى : وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذ السيرة ... ولكننا لا ندري من هم الأوائل ، أهم العرب أنفسهم ، أم هم اليونانيون ، أم الفرس ، أم أهل الهند ، وفي كل حال لم يتوخَّ الجاحظ في إضحاك القارئ إلا التنشيط والاستجمام . وسنتعرض في الفصل الآتي للمذهب المبني على القوارص ، وهو التهكم .

تهكم الجاحظ

إلى جنب هذا المذهب الذي ذهبه الجاحظ فى الضحك والإضحاك مذهب آخر ، وهو التهكم ، ولعل بين المذهبين بعض الصلة ، و إن كان كل منهما يختلف عن الآخر، فصاحبهما يحتاج إلى شيء من خفة الروح ، ولكن هذه الخفة في الإضحاك بريئة من الهمز واللمز ، و إنما غايتها التنشيط والاستجمام ، أما في التهكم فقد يمازجها الخبث ، سواء أكان هذا الخبث ظاهراً أم كان باطناً .

وقد كان التهكم من جملة أساليب سقراط في تقرير فلسفته ، فكان سقراط في تهكمه يرمي إلى مناقضة خصمه ، فيسأله مسائل من باب تجاهل العارف ، فكان في بدء الأمر يقر مذهب خصمه ، ثم يتلطف فى سؤاله ، فلا يزال به من سؤال إلى سؤال حتى يفضي به إلى المناقضة فى القول .

أصل الأمر فى التهكم أن تقول قولاً وأنت تريد ضده ، فلما قال النّظام لإبراهيم ابن هاني : ما بعد هذا الكلام كلام ، لم يقصد فى هذه العبارة إلا ضدها ، ظاهر كلامه الاعتراف بعلم إبراهيم ، ولكن باطنه تعريض بجهله .

لست في حاجة إلى الكلام على خصائص التهكم ، فإن هذا الكلام داخل فى البديع ، و إنما أقتصر فى مثل هذا المقام على الإشارة إلى أن التهكم أكثر ما يستعمل في الخطاب ، فهو يغلب على الأحاديث حتى يكاد يكون لهجة ينفرد بها بعض الناس ، وقد يكون هذا التهكم لباس فكرة فيها فرح وسرور ، أو صيغة مزح روحاني ، أو قالباً يفرغ فيه غضب ، أو حقد ، أو يأس ، أو غير ذلك من هوائج النفس .

و إذا أردنا أن نعرف رأي متهكم من حذاق المتهكمين في هذا المذهب ، فلنسمع ما قاله أناتول فرانس Anatole France :

« لا أزداد تفكيراً في حياة البشر إلا ازددت اعتقاداً أن من الواجب علينا أن نجعل شهود هذه الحياة وقضاتها : التهكم والشفقة .

فالتهكم بابتسامه يحبب إلينا الحياة ، والشفقة بدموعها تقدس هذه الحياة ، والتهكم الذي أرغب فيه ليس فيه شيء من القساوة ، إنه لا يستهزئ بالحب والجمال ، فهو رقيق وفيه عطف ، فضحكه يكظم من الغيظ ، وهذا التهكم هو الذي يعلمنا أن نسخر من الأشرار والحمقى ، ولولاه لأفضى بنا الضعف إلى كراهيتهم » .

إن هذا الكلام على وجازته يصور لنا قيمة التهكم ، فإذا اشتمل هـذا المذهب على تحبيب الحياة وتقديسها ، و إذا دربنا على السخر بكل شرير ، و بكل أحمق ، بدلا من أن نعبأ بهذا الشرير ، أو بهذا الأحمق ، فما أعظم شأنه ، وما أهنأ بال الذين يعرفون كيف يتصرفون فيه .

أفعلم الجاحظ أن يسخر من الأشرار والحمقى ؟ وقبل أن ننظر في هذا كله لا أرى محذوراً فى ذكر أنماط من تهكم الإفرنجة على سبيل المقايسة والموازنة .

إمام المتهكمين في فرنسة إنما هو ڤولتير Voltaire وهذا نمط من لسعه :

أنشأ جان جاك روسو رسالة موضوعها : أصل تفاوت الناس ، وقد كانت أكادمية ديجون اقترحت هذا الموضوع ، وطلبت التسابق فيه ، ولكن روسو لم يجل في هذا الميدان ، فلم يحرز قصب السباق الذي أحرزه سنة ١٧٤٩ في رسالة جعل فيها الآداب والعلوم مصدر الفساد .

اتصلت هذه الرسالة بڤولتير ، فكتب إليه كتاباً يرد فيه عليه ، وقد جاء في جملة هذا الكتاب ما يلي :

لم يجترم الجرائم الكبيرة إلا مشهورو الجهلاء ، فإن الذى يجعل من هـذا العالم وادي دموع إنما هو جشع الرجال الذي لاسبيل إلى نقع غليله ، وعنجهيتهم التي

لاسلطان عليها . فإن الآداب تغذى الروح ، وتصلحها ، وتسليها ، و إنها لتخدمك في الوقت الذي تعترض فيه عليها .

ثم ختم رسالته بهذا الكلام :

أعلمني السيد . . . إن صحتك رديئة ، فينبغي لك أن تجودها بشميم هواء وطنك وأن تتمتع بالحرية ، وأن تشرب معي لبن بقرنا ، وترعى من عشبنا .

فالهمز يتخلل هذا التهكم المصقول الحواشي .

فكأن ڤولتير يقول لروسو : إن جسمك معتل ، واعتلال الجسم يؤدي عادة إلى اعتلال العقل ، فكأن ڤولتير يقول لروسو : إن عقلك لا يخلو من اعتلال .

وهذا نمط آخر في التهكم ، وهو قول (لابروير) La Bruyère في المهوّسين في حب الكتابة :

« يأخذ فلان ورقة وقلماً فجأة من دون أن يفكر في ذلك من قبل ، فيقول في نفسه أُريد أن أُؤلف كتاباً ، على أنه ليس له استعداد للكتابة ، ولكنه فى حاجة إلى خمسين (بستولاً[1]) ، فأصيح به من غير جدوى : خذ المنشار يا ديوسكور وانشر ، أو اصنع دائرة دولاب ، فتحصل على أجرتك ، ولكنه لم يتعلم هذه الحرف كلها ، فأقول له : انسخ إذن ، أو صحح في المطبعة ، لا تكتب ، بيد أنه يريد أن يكتب وأن يطبع كتاباته ، ولما كانت المطبعة لا يرسل إليها دفتر أبيض ، فإنه يسوده بما يروقه ، فيكتب مثلاً : إن نهر السين يجري فى باريز ، و إن الأسبوع فيه سبعة أيام ، أو إن السماء ماطرة ، ولما كان هذا الكلام لا يخالف الدين ولا الحكومة ، ولا يؤدي نشره بين العامة إلا إلى إفساد الذوق ، وتعويد العامة الأشياء التي لا طعم لها ، يعرض على المراقبة ، ثم يطبع ، فيعاد طبعه مع ما فى ذلك من العار على عصرنا وعلى كبار المؤلفين » .

فهذا الكلام كله تهكم ، فإن قول (لابروير) إن نهر السين يجري في باريز ،

---

(١) ضرب من العملة .

أو إن هذا الكلام لا يخالف الدين ولا الحكومة، إن هذا القول كله إنما هو همز ولمز. ما لنا ولهذا كله ، فلنعجل إلى استهزاء الجاحظ !

إذا كان التهكم على نحو ما قال (أناتول فرانس) يعلمنا أن نهزأ بالأشرار وبالحمقى ، فقد علَّم هذا التهكم الجاحظ أن يهزأ بطائفة من الناس فيهم الحمقى ، وقد اجتمعت له أسباب التهكم ، ومهّدت له السبيل إليه .

أفلم تلده أمٌّ مطبوعة على التهكم ، فإن مجيئها بطبق الكراريس التي علمنا أمرها في كلامنا على حياته استهزاء بولد يقضي أيامه في طلب العلم ، وهو عالة على امرأة تمونه !

أفلم يخرّجه في الأدب والعلم رجال لا يضيعون فرص التهكم إذا سنحت هذه الفرص ؟ فعبارات أبي عبيدة والنظّام التي مرّت بنا في كلامنا على ثقافة الجاحظ ، أشباه : لا عليك ، فإن مرقك لا يؤذي ، وأمثال : ما بعد هذا الكلام كلام ، إنما هي عبارات يتخللها التهكم .

ولقد ظهر ميل الجاحظ إلى الاستهزاء من صغر أمره ، وحداثة سنه ، وإلى القارىء القصة التي تناهت إلينا ، وهي من آثار هذه الحداثة ، قال الجاحظ(١) :

« وبينما أنا أجالس يوماً في المسجد مع فتيان من المسجديين ، مما يلي أبواب بني سليم ، وأنا يومئذ حدث السن ، إذ أقبل أبو سيف الممرور ، وكان لا يؤذي أحداً ، وكان كثير الظرف ، من قوم سراةٍ ، حتى وقف علينا ، ونحن نرى في وجهه أثر الجدّ ، ثم قال مجتهداً : والله الذي لا إله إلاَّ هو إن الخُرء لحلو ، ثم والله الذي لا إله إلا هو [إن الخرء لحلو ، ثم والله الذي لا إله إلا هو إن الخرء لحلو] ، يميناً باتّةً ، يسألني الله عنها يوم القيامة ، فقلت له : أشهد أنك لا تأكله ، ولا تذوقه ، فمن أين علمت ذلك ؟ فإن كنت علمت أمراً فعلمنا مما علمك الله ، قال : رأيت الذبّان يسقط على النبيذ الحلو ، ولا يسقط على الحازِر ، ويقع على العسل ، ولا يقع على الخل ، وأراه على الخُرْء أكثر منه على التمر ، أفتريدون

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٢ .

حجة أبين من هذه ؟ فقلت : يا أبا سيف بهذا ، وشبهه يعرف فضل الشيخ على الشاب ! » .

واشتدّ فيه الميل إلى الاستهزاء بالحمقى كل حياته ، فمن استهزائه بأمثال هذه الطبقة من الناس قوله في أثناء كلام له على المكي (١) :

« وكان المكي طيباً ، طيب الحجج ، ظريف الحيل ، عجيب العلل ، وكان يدعي كل شيء على غاية الإحكام ، ولم يحكم شيئاً قط ، [لا] من الجليل ، ولا من الدقيق ، وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه ، وأُخبرك عن بعض علله ، لِتَلَهَّىَ بها ساعة ، ثم نعود إلى [بقية] ذكر الذبان .

ادَّعى هذا المكي البصر بالبراذين ، ونظر إلى برذون واقف ، قد ألقى صاحبه [في] فيه اللجام ، فرأى فاس اللجام ، وأين بلغ منه ، فقال لي : العجب كيف لا يَذْرَعُه القيء ، وأنا لو أدخلت إصبعي [الصغرى] في حلقي لما بقي في جوفي شيء إلاّ خرج ؟ ! قلت : الآن علمت أنك تبصر ، ثم مكث البرذون ساعة يلوك لجامه ، فأقبل عليّ ، فقال لي : كيف لا يَبرُد أسنانه ؟ قلت إنما يكون [علم هذا] عند البصراء مثلك ، ثم رأى البرذون كلما لاك اللجام والحديدة ، سال لعابه على الأرض فأقبل عليّ وقال : لولا أن البرذون أفسد الخلق عقلاً لكان ذهنه قد صفا ، قلت له : قد كنت أشك في بصرك بالدواب ، فأما بعد هذا فلست أشك فيه .

وقلت له مرة ونحن في طريق بغداد : ما بال الفرسخ يكون في هذه الطريق فرسخين والفرسخ يكون أقل من مقدار نصف فرسخ ، ففكر طويلاً ، ثم قال : كان كسرى يقطع للناس الفراسخ ، فإذا صانع صاحب القطيعة زادوه ، وإذا لم يصانع نقصوه .

وقلت له مرة ، علمت أن الشاري حدثني أن المخلوع بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم ، كأنه يخبر أن عنده من الجند بعدد ذلك الحبّ ، وأن المأمون بعث إليه بديك

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠١ .

أعور يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم ، كما يلقط الديك الحب ، قال : فإن هذا الحديث أنا ولَّدته ، ولكن انظر كيف سار فى الآفاق ، وأحاديثه وأعاجيبه كثيرة » .

ظهر ميل الجاحظ إلى الاستهزاء من غضاضة عوده ، واستحكم فيه هذا الميل بعد أن تهيأت له أسباب التهكم بحذافيرها ، فقد خلق مطبوعاً على هذا التهكم ، وقوَّت فيه ثقافته هذا الطبع ، وعاش فى عصر احتاج فيه إلى السخرية ، عاش فى عصر ترك فيه الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة ، والتثبت عند الحكومة ، وعزل الحق فيه جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن . والخلاصة عاش فى عصر استفاضت فيه الزندقة ، وشاعت فيه طائفة من الخرافات فى طبقات العامة ، و بعض العلماء والمؤلفين ، فلم يجد الجاحظ بدًّا له من التنبيه على هذه الخرافات ، وعلى هذا الضلال وهو الرجل الذي وقف نفسه على نصرة الحق عمره كله ، وخاصة فقد أمكن القول في عصره وصلح الدهر ، فلم يبق للجاحظ إلا إظهار ما عنده ، والقيام بما يلزمه من نصرة للحق ، وهجمة على الباطل ، وخاصة فقد كثرت خصومه وحسّاده ومتعقبوه ، فلم يجد له أمضى سلاحاً من التهكم ، هذا التهكم الذي قال فيه ڤولتير : إذا أردت أن تقتل خصمك فاجعله هزأةً .

فاجتهد الجاحظ فى جعل خصمه هزأة كل حياته ، ولئن عابه ابن قتيبة باستهزائه من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ذكره ، فلم يستهزىء الجاحظ بالصحيح من الأحاديث ، و إنما استهزأ ببعض تأويلات وتفسيرات لا يقرّها عقل عالم اشتغل بالتحقيق والتمحيص قرناً متكاملاً ، فلنجتهد فى بيان بعض مواطن من هذا الاستهزاء .

للجاحظ أسلوب في التهكم على بعض أهل التفسير والتأويل بسيط جدًّا ، وقد بلغ من بساطته أنه لا يكاد يظهر عليه أثر الاستهزاء والسخرية ، فهو يدس هذا التهكم دسًّا دون أن يظهر على بيانه ، فبدلاً من أن يتعرض لهذه الطائفة من العلماء تعرضاً ، ويجادلهم جدالاً ، يكتفي فى أكثر الأوقات بالدلالة على آرائهم ، والإشارة

إلى مذاهبهم ، ولكن هذه الإشارة مهما تكن خفية ، ومهما تكن رمزاً ، لا تخلو من روح التهكم ، فبينما الجاحظ مثلاً يمضي قوله فى باب من أبواب العلم ، كباب ما يعتري الإنسان بعد الخصاء ، وكيف كان قبل الخصاء ، و بينما يفيض فى هذا الباب فى أمور علمية ، إذ يعرض له رأي من الآراء التي لا يؤيدها العلم ، فيكتفي بالتنبيه عليه ، كقوله مثلاً[(١)] :

« وزعم بعض المفسرين وأصحاب الاخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر ، فعطس الأسد عطسة ، فرمى من منخريه بزوج سنانير ، فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد ، وسلح الفيل زوج خنازير . فلذلك ، الخنزير أشبه شيء بالفيل .

ثم يردف هذا القول كلامه الآتي :

قال كيسان : فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير، وتلك السنورة حوّاءها وضحك [فضحك] القوم » .

إن مجرّد ذكره لأشباه هذه الآراء فى أثناء بحثه عن أمور مبنية على العلم والعقل كاف للدلالة على سخريته بأصحابها ، فكأنه يغمز بعينيه غمزاً ، فهو لا يتولى الطعن على هذه الآراء والمذاهب ، و إنما يكفي نفسه مؤنة هذا الطعن بتركه للقارىء حق الحكم على مثل هذه الآراء ، وهذا الاسلوب على نزاهته الظاهرة لا يخلو من مهارة وحذق ، ولمَ لا أقول لايخلو من خبث ، فإن الجاحظ لايتولى فيه التشنيع والتهجين ، و إنما يجرّ القارئ جرًّا إلى هذا التشنيع و إلى هذا التهجين ، ثم ينسحب انسحاباً ، فيخرج بعد إيقاظه الفتنة كابن اللبون ، لا ظهراً ولا ضرعاً .

ونظائر هذا التهكم مستفيضة فى كتاباته ، ومن هذا القبيل قوله[(٢)] :

« ويزعم زرادشت ، وهو مذهب المجوس ، أن الفأرة من خلق الله ، وأن السنور من خلق الشيطان ، وهو إبليس ، وهو أهْرمَن ، فإذا قيل له : كيف تقول ذلك ،

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٧ .
(٢) « « « الرابع ص ٩٩ .

والفأرة مفسدة ، تجذب فتيلة المصباح ، فتحرق بذلك البيت ، والقبائل الكثيرة ، والمدن العظام ، والأرباض الواسعة بما فيها من الناس والحيوان والأموال ، وتقرض دفاتر العلم ، وكتب الله ، ودقائق الحساب والصكاك والشروط ، وتقرض الثياب ، وربما طلبت القطن لتأكل بذره ، فتدع اللحاف غربالاً ، وتقرض الجرب ، وأوكية الأسقية ، والأزقاق ، والقرب ، فتخرج جميع ما فيها ، وتقع في الآنية وفي البئر ، فتموت فيه ، وتحوج الناس إلى مؤن عظام ، وربما عضت رجل النائم ، وربما قتلت الإنسان بعضتها ، والفأر بخراسان ربما قطعت أذن الرجل ، وجرذان أنطاكية تعجز عنها السنانير ، وقد جلا عنها قوم ، وكرهها آخرون ، لمكان جرذانها ، وهي التي فجرت المسنَّاة حتى كان ذلك سبب الحَشر بأرض سبأ ، وهي المضروب بها المثل ، وسيل العرم مما تؤرخ بزمانه العرب ، والعرم المسنَّاة ، وإنما كان جرذاً ، وتقتل النخل والفسيل ، وتخرب الضيعة ، وتأتي على أزمَّة الركاب والخُطُم ، وغير ذلك من الأموال . والناس ربما اجتلبوا السنانير ليدفعوا بها بوائق الفار ، فكيف صار خلق الضار المفسد من الله ، وخلق النافع من خلق الشيطان ؟ والسنور يعدى به على كل شيء خلقه الشيطان ، من الحيات والعقارب ، والجعلان و بنات وردان ، والفأرة لا نفع لها ، ومؤنها عظيمة ؟ قال : لأن السنور لو بال في البحر لقتل عشرة آلاف سمكة ! فهل سمعت بحجة قط ، أو بحيلة ، أو بأضحوكة ، أو بكلام ، ظهر على تلقيح هرة يبلغ مؤن هذا الاعتلال ؟ ! فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم » .

على أنه هذه المرة لم يكتم استهزاءه ، فقد دل عليه بقوله : فهل سمعت قط بحجة ، أو بحيلة . . . بيد أنه ، وإن أفصح عن سخريته بهذه العبارة الأخيرة ، وكان في مندوحة عنها ، فإن تدوينه لمثل هذه الأقوال كاف للاعراب عن هذا التهكم الكامن فى ذهنه .

ومثل هذا الاستهزاء كثير فى كلامه ، لا أجد بي حاجة إلى الاستزادة منه ، وإنما ضربت مثلاً على سبيل الاستئناس .

وقد يخرج في بعض الأحايين في رده على من يعيب كتبه ، عن البساطة التي لمحت إليها ، فيرهف قلمه ، ويحشد طبعه ، فبدلاً من أن يلجأ إلى رباطة جأش المتهكمين ، وإلى هدوئهم وسكونهم ، يثور ثورته ، فيقول لهذا العائب الذي عابه بأكثر كتبه[1] :

« بهرك ما سمعت ، وملأ صدرك الذي قرأت ، وأبعلك وأبطرك ، فلم تتجه للحجة وهي لك معرضة ، ولم تعرف المقاتل[2] وهي لك بادية ، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد . رأيت أن سب الأولياء أشفى لدائك ، وأبلغ في شفاء سقمك ، ورأيت أن إرسال اللسان أحضر لذة ، وأبعد من النصب ، ومن إطالة الفكرة ، ومن اختلاف إلى أرباب هذه الصناعة . ولو كنت فطنت لعجزك ، [و] وصلت نقصك بتمام غيرك ، واستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحبيس على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزين في العاجل ، وأحق بالمثوبة في الآجل ، وكنت إن اخطأتك الغنيمة ، لم تخطئك السلامة ، وقد سلم عليك المخالف بقدر ما ابتلى [به] منك الموافق ، وعلى أنه لم يبتل منك ، إلاّ بقدر ما ألزمته من مؤنة تثقيفك ، والتشاغل بتقويمك ، وهل كنت في ذلك إلا كما قال العربي : هل يضر السحاب نبح الكلاب ، وإلا كما قال الشاعر :

هل يضر البحر أمسى زاخراً أن رمى فيه غلام بحجر

وهل حالنا في ذلك إلا كما قال الشاعر :

ما ضر تغلب وائل أهجوتها أم بلت حيث تناطح البحران

وكما قال حسان بن ثابت :

ما أبالي أنبَّ بالحزن تيس أم لحاني بظهر غيب لئيم

وما أشك أنك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك ، ووجهت حلمنا عنك

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦ .

(٢) في الأصل : المقابل .

إلى الخوف منك ، وقد قال زفر بن الحارث لبعض من لم يرحق الصفح ، فجعل العفو سبباً إلى سوء القول :

فإن عدت والله الذي فوق عرشه منحتك مَسْنُونَ الغرارين أزرقا
فإن دواء الجهل أن تُضْرَبَ الطلَى وأن يُغمَسَ العِرِّيضُ حتى يُغرَّقا

وقال الأول :

وضغائن داويتها بضغائن حتى شفيت وبالحقود حقودا

وقال الآخر :

وما نَفَى عنك قوماً أنت خائفهم كمثل رقمك جهالاً بجهال
فاقعس إذا حربوا واحرب إذا قعسوا ووازن الشر مثقالاً بمثقال » .

إلى آخر هذا الكلام . . .

غير أن هذه الأساليب كلها فى التهكم ، لاتكون شيئاً قياساً إلى تهكمه فى كتابه التربيع والتدبير ، فهذا الكتاب إنما هو المثل الأعلى فى التهكم ، والحجة القاطعة ، فقد كان استهزاؤه فيه على أساليب فنية ، يخرج فى السخرية بالرجل من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، حتى يمزقه تمزيقاً ، فيصغره فى عيون الناس أولاً ، ثم يصغر هذا الرجل فى نفسه ، فيتمنى لو أن الأرض خسفت به خوفاً من أن تقع عليه عين ، وهل يبلغ الإفحاش فى القول من رجل ، ما يبلغه منه تصويره فى صور شتى ، كل صورة منها معرض تعرض علينا فيه ناحية من نواحيه ، وفي كل معرض من هذه المعارض صورة هزلية .

فمرة يعرض علينا طائفة من آداب نفسه ، وصفات عقله ، فى معرض هزلي ، فيقول[1] : « وأنا أبقاك الله أعشق إنصافك ، كما تُعشق المرأة الحسناء ، وأتعلم خضوعك للحق ، كما أتعلم التفقه في الدين ، ولربما ظننت أن جورك إنصاف قوم آخرين ، وأنك يقنعك سماع رجال منصفين ، وما أظنك صرت إلى معارضة الحجة بالشبهة ، ومقابلة الاختيار بالاضطرار ، واليقين بالشك ، واليقظة بالحلم ، إلا بالذي

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد — الجزء الأول ص ٤٦ .

خصصت به من إيثار الحق ، وألهمته من فضيله الإنصاف ، حتى صرت أحوج ما تكون إلى الإنكار ، أذعن ما تكون بالإقرار ، وأشد ما تكون إلى الحيله فقراً ، أشد ما تكون للحجة طلباً » .

ثم لايكتفى بهذا المعرض حتى يضيف إليه هذه الصورة[1] :

« غير أن ذلك بطرف ساكن ، وصوت خاضع ، وقلب جامع ، وجأش رابط ، ونية جسور ، وإرادة تامة ، مع غفلة كريم ، وفطنة عليم ، إن انقطع خصمك تغافلت ، وإن خرق توقفت ، غير منخوب ، ولا متشعب ، ولا مدخول ، ولا مشترك ، ولا ناقص النفس ، ولا واهن العزم ، ولا حسود ، ولا منافس ، ولا متغالب ، ولا متعاقب ، يفل الحد ، ويصيب المفصل ، ويقرب البعيد ، ويظهر الخفي ، ويميز الملتبس ، ويلخص المشكل ، ويعطي المعنى حظه من اللفظ ، كما يعطي اللفظ حظه من المعنى ، ويحب المعنى إذا كان حيًّا يلوح ، وظاهراً يصيح ، ويبغضه مستهلكاً بالتعقيد ، ومستوراً بالتقريب » .

وإذا فرغ من هذا المعرض عرض علينا محاسن علمه فيقول[2] :

« تخبرني ماجرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك ، وعن سماعك من أفلاطون ، وما دار بينك وبين أرسطاطاليس ، وأي نوع اعتقدت ، وأي شيء اخترت ، فقد أبت نفسي غيرك ، وأبت أن تشفى إلا بخبرك ، ولولا أني كلف برواية الأقاويل ، ومغرم بمعرفة الاختلاف ، وأني أستجيز مسألتك عن كل شيء ، وابتذالك في كل أمر ، لما سمعت من أحد سواك ، وما انقطعت إلى أحد غيرك » .

وإذا انتهى من محاسن علمه انتقل إلى محاسن أخلاقه فيقول[3] :

« واعلم أني وإياك متى تحاكمنا إلى كرمك ، قضى لي عليك ، ومتى ارتفعنا إلى عدلك حسن العفو عني عندك ، وفصل ما بيننا وبينك ، وفرق ما بين أقدارنا

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد — الجزء الأول ص ٤٧ .
(٢) رسائل الجاحظ على هامش المبرد — الجزء الأول ص ٥٧ .
(٣) رسائل الجاحظ على هامش المبرد — الجزء الأول ص ٦٢ .

وقدرك ، أنا نسيء وتغفر ، ونذنب وتستر ، ونعوجّ وتقوم ، ونجهل وتعلم ، وأن عليك الإنعام ، وعلينا الشكر » .

وإذا فرغ من الاستهزاء بآداب نفسه ، وصفات عقله ، ومحاسن علمه ، ومكارم أخلاقه لم يبق له إلا الاستهزاء بجماله الفاتن ، فيعرض هذا الجمال فيقول[١] :

« وهل تقع الأبصار إلا عليك ، وهل تصرف الإشارة إلا إليك ، وأي أمرك يدس بغاية ، وأي شيء منك ليس في النهاية ، وهل فيك شيء يفوق شيئاً ، أو يفوقه شيء ، أو يقال ، لو لم يكن كذا لكان ، أو لو كان كذا لكان أتم ، وأين الحسن الخالص والجمال الفائق ، والملح المحض ، والحلاوة التي لاتستحيل ، والتمام الذي لايحل ، إلا فيك ، أو عندك ، أو لك ، أو معك ، لا ، بل أين الحسن المصمت ، والجمال المفرد ، والقد العجيب ، والملح المنثور ، والفضل المشهور ، إلا لك وفيك ، وهل على ظهرها جميل حسيب ، وعالم أديب ، إلا وظلك أكبر من شخصه ، وظنك أكثر من علمه ، واسمك أفضل من معناه ، وحلمك أثبت من نجواه » .

وقد تفنن في هذا الاستهزاء التفنن كله ، فلا تغني هذه الأنماط التي ذكرتها عن الرجوع إلى أصل الكتاب .

***

هذا آخر ما خطر على البال من تهكم رجل هزأ بأشياء كثيرة في هذا العالم ، هزأ بالخرافات والأباطيل وبالحمقى ، وربما كان خروجه من ديوان الخليفة هزءاً بالعظمة نفسها ، بل ربما سخر بشيء أعظم من العظمة ، فإذا كان الجاحظ في تعظيمه الشيء وتصغيره ، وفي تحسينه إيّاه وتقبيحه ، يرمي إلى حقيقة فلسفية ، فيصوّر لنا طبقة من الناس ، يستحسنون طائفة من الأمور ، ثم يصوّر لنا طبقة غيرهم ، يستقبحون ما استحسن غيرهم ، إذا كان غرض الجاحظ فى هذه الأساليب تقرير هذه الحقيقة ، فكأنه يريد أن يقول لنا لا حقيقة مطلقة فى الدنيا ، وإذا كان هذا قوله ، فكأنما الجاحظ هزأ بالحياة كلها .

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد — الجزء الأول ص ٦٨ .

مذهب الجاحظ في النقد

رأيه في التوليد — رأيه في أولية الشعر — إهتمامه بالصنعة

قبل أن أنقد فن الجاحظ وأدبه ولغته ، لمَ لا أنظر في نقد الجاحظ نفسه ، كيف كان ينقد فن غيره .

أشرت في مستهل القول إلى شيء يسير من أطوار النقد في كل عصر من عصور أدبنا ، وقد تبين لنا في هذه الإشارة أن الجاحظ ظهر في العصر لذي نبّهوا فيه على توليد الرواة ، وعلى اختلاف لسان حمير ولسان قريش .

ولقد يصعب على رجل مثل الجاحظ قضى عمره كله في التمحيص أن يمر بمواطن الزور في الأدب ، فيغفل الكلام عليها ، فقد أشار إلى التوليد فقال[(1)] :

« ولقد ولّدوا على لسان خلف الأحمر ، والأصمعي ، أرجازاً كثيرة ، فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء ، ولقد ولّدوا على لسان جحشويه في الحلاق أشعاراً ما قالها جحشويه قط ، فلو تقذروا من شيء تقذروا من هذا الباب » .

وقال في موطن آخر في توليدهم على بشار[(2)] :

« قال صاحب الكلب : السنور يَسْوَى في صغره درهماً ، فإذا كبر لم يسْوَ شيئاً ، وقال العمّي :

كسنور عبدالله بيع بدرهم ... صغيراً فلما شب بيع بقيراط

. . . وقد يضاف هذا البيت إلى بشار وهو باطل » .

غير أن الجاحظ لم يدل على الذي ولّدوه ، فلم يضف شيئاً إلى ما قاله ابن سلاّم في

---

(1) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٦٠ .
(٢) « « « الخامس ص ٩٦ .

زيادة الرواة ، ولو دل على مواطن التوليد لما اتسع مجال الشك في بعض أدبنا ، وقد كان يسهل على الجاحظ وأمثاله أن يمحصوا و يدققوا ، حتى يستخرجوا بعد هـذا التمحيص والتدقيق الزيادات التي زادها المولدون، فهم متصلون بتطور اللغة من عهدها الجاهلي المتعارف إلى عهدها الإسلامي ، ومن عهدها الإسلامى إلى عهدها العباسي ، فليس بينهم و بين هذه العصور التي تطورت اللغة في أثنائها إلا قرنان ، أو ثلاثة قرون ، فقد كان يتيسر لهم أن يعرفوا روح كل عصر ، ولغته ، وفنه ، لأنهم على نحو ما قلت متصلون بتلك العصور ، أما اليوم فإن التنبيه على مواطن التوليد قد يكون عقبة كؤوداً ، فإذا أردنا أن نعرف أن هذا البيت من الشعر قد نحله شاعر من الشعراء لزمنا أن نتعمق في ديوان الشاعر كله ، حتى نعلم هل هذا البيت الذي نُحله من روحه ، أو لغته من لغته ، أو فنه من فنه ، فإذا اعترضتنا المصاعب في تمييز بيت من الأبيات ، فكم تعظم هذه المصاعب في تمييز قصائد بحذافيرها ، قيلت في عصور متفاوتة ، بعيدة عنا .

وليس فى لغتنا معجم يبين لنا أن اللفظ الفلاني استعمل في العصر الفلاني ، ثم بطل استعماله بعد ذاك العصر ، فقد تمر بنا ألفاظ لشاعر من الشعراء ، نظنها فى بدء الأمر غريبة ، وقد تكون هذه الألفاظ شائعة فى عصر هذا الشاعر ، فإذا لم يكن فى لغتنا معجم يدون الألفاظ بحسب تاريخها صعب علينا أن نعرف أن هـذا اللفظ مولد على لسان فلان . والشك فى الأدب لا يخلو فى خاتمة أمره من محاذير ، وقد فطن الجاحظ لهذا الأمر ، فقال في خطاب جماعة مالوا إلى ردّ بعض الأمثال على جماعة آخرين(١) :

« و إن جاز لكم أن تردوا عليهم هذا المثل ، جاز لكل من كره مثلاً أو شاهداً أن يرد عليهم كما رددتم ، وفي ذلك إفساد أمر العرب كله ، فإن زعمت أن الديك كان أحق به ، فخصومك كثير ، ولسنا نحيط بأوائل كلامهم ، على أي مقادير كانوا

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٥٥ .

يضعونها ، ومن أي شيء اشتقوها ، وكيف كان السبب ، ورب شيء أنكرناه ، فإذا عرفنا سببه أقررنا به » .

إلا أن الجاحظ فى مصاعب التدقيق فى التوليد ، قد ركب هذا المركب الخشن ، فتفرغ لتمحيص خطبة زعم أنها منسوبة إلى معاوية [١] ، وبعد أن فرغ من ذكر الخطبة قال :

« وفي هذه الخطبة ، أبقاك الله ، ضروب من العجب : منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية ، ومنها أن هذا المذهب في تصنيف الناس ، وفي الإخبار عنهم ، وعما هم عليه من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف ، أشبه بكلام علي ، وبمعانيه ، وبحاله ، منه بحال معاوية ، ومنها أنا لم نجد معاوية فى حالة من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ، وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار ، وبكثير منهم » .

غير أن الجاحظ كان يجب عليه في رد هذه الخطبة أن يسلك مسلكاً أقرب ، فيأتي بنماذج من خطب علي ، وبنماذج من خطب معاوية ، وأن يقابل بين هذه الأنماط كلها ، فيشير إلى ألفاظ علي ، ويشير إلى ألفاظ معاوية ، ويدل على الألفاظ التي يألفها علي ، والألفاظ التي يألفها معاوية ، فيقول : هذا اللفظ مثلاً من ألفاظ علي ، أو هذا التركيب من تركيب علي ، أو هـذا الفن من فن علي ، وقد وردت اللفظة والتركيب والفن في خطبة معاوية ، فهذا كله مردود . ولو فعل ذلك لكان تمحيصه أبلغ ، لأن لكل خطيب ، أو لكل شاعر ، أو لكل كاتب ، لكل واحد من هؤلاء الثلاثة ، مفردات ومصطلحات وتراكيب لا يحيد عنها ، فهي ملازمته ، وقد يستعملها على الرغم منه ، ويكرر استعمالها دون أن يشعر بها ، أما قول الجاحظ : « ومنها أنا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا

(١) راجع الخطبة في البيان والتبيين — الجزء الثاني ص ٢٨ .

يذهب مذاهب العباد » ، فلا يخلو من بعض الضعف ، لأن الرجل إذا حضرت وفاته قد تتبدل حالة عقله ، وحالة روحه .

على أن الجاحظ قد تجرد في بعض المقامات للتنبيه على مواطن التوليد في الشعر أيضاً ، فلم يكن ضعيف الحجة في هذا التنبيه ، فمن هذا رده طائفة من الأشعار ، من جملتها هذا البيت للأفوه الأودي(١) :

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

فقال في رد هذا البيت(٢) :

« وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودي ، فلعمري إنه لجاهلي ، وما وجدنا أحداً من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة . وبعد ، فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم ، وهو جاهلي ، ولم يدّع هذا أحد قط إلا المسلمون ، فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة » .

***

أما وقد عرفنا رأي الجاحظ في التوليد ، فلا بأس بأن نعرف رأيه في أولية الشعر ، وعلى هذا تنشأ لنا صورة تصور لنا مذهبه في نقد بعض الآراء الأدبية العامة ، من هذا النحو قوله(٣) :

« وأما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه ، امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة . وكتب أرسطاطاليس ، ومعلمه أفلاطون ، ثم بطليموس ، وديمقراطس وفلان وفلان ، قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور ، والأحقاب قبل الأحقاب ، ويدل على حداثة الشعر قول امرئ القيس ابن حجر :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٨٨ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٩٠ .

(٣) « « الأول ص ٣٧ .

إن بني عوف ابتنوا حسنا ضيعه الداخلون إذ غدروا
أدوا إلى جارهم خفـارته ولم يضع بالمغيب من نصروا
لا حميري وَفَى ولا عدس ولا است عير يحكها الثفر
لكن عوير وفى بذمته لا قصر عابه ولا عور

فانظر كم كان عمر زرارة ، وكم كان بين موت زرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام ، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام » .

وقال في مقام آخر(١) :

« وقد قيل الشعر قبل الإسلام في مقدار من الدهر أطول ما بيننا اليوم وبين أول الإسلام » .

ففي قوله الأول جعل عمر الشعر مائتي عام . وفي هذا القول جعله مائتين ونيفاً ، وفي كلا الحالين اشتطاط .

أصحيح أن امرأ القيس أول من نهج سبيل الشعر ، وسهّل الطريق إليه ؟ قد يكون امرؤ القيس أول من حفظت أشعاره ، أو من أوائل الشعراء الذين تناهت إلينا أشعارهم ، وأما أن يكون أول الشعراء فلا ، وقد أشار بعض شعراء الجاهلية إلى تقادم الشعر ، فقال امرؤ القيس نفسه :

عوجا على الطلل القديم لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حذام

وقال زهير :

ما أرانا نقول إلا معـارا أو معاداً من قولنا مكرورا

وقال عنترة :

✲ هل غادر الشعراء من متردّم ✲

فالذي يستنبط من قول امرئ القيس وزهير وعنترة أنه جاء قبلهم شعراء ، جالوا

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٨٩ .

في الشعر كل مجال ، وحلقوا في سمائه كل محلق ، وقد انقطعت عنا أخبار الذين أورثوا عنترة وزهيراً وامرأ القيس فيض قلوبهم ، وصوب أذهانهم ، وانطوت آثارهم ، فلا نعرف عنهم شيئاً ، فلغة العرب متقادمة العهد ، فلا يمكن أن تنشأ دفعة واحدة على الصورة التي نشأت عليها في العصر الجاهلي المعروف ، فلا ريب في أنها سبقتها أحقاب مديدة ، انتقلت فيها اللغة من طور إلى طور ، حتى وصلت إلى ماوصلت إليه ، فالعصور التي انتقلت اللغة في أثنائها من مرتبة إلى مرتبة غامضة مبهمة ، فهي سر من الأسرار ، وهذه ثلمة في تاريخ أدبنا ، ولا تسد هذه الثلمة إلا إذا درسنا اللغات السامية ، ولغات الأمم التي خالطها العرب في قديم الدهر ، وعثرنا على كتابات قديمة منقوشة . إن لغة العرب لم تنته إلينا بحذافيرها ، فإن الذي جاءنا عن العرب غيض من فيض ، فكثير من الكلام ذهب بذهاب أهله ، قال ابن فارس : ذهب علماؤنا أو أكثرهم إلى أن الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل ، ولو جاءنا جميع ما قالوه ، لجاءنا شعر كثير ، وكلام كثير .

والمعروف أن لبلاد العرب الجنوبية حضارة يمتد تاريخها إلى القرن الثامن قبل السيد المسيح ، فأين اللغة التي صورت هذه الحضارة ، وكيف تكون حضارة ولا تكون معها لغة .

يقول أحد أدباء الفرنسيس (١) :

« النثر الأدبي في التاريخ لا يأتي ، على نحو ما يظنون ، قبل الشعر ، و إنما يأتي بعده ، والذي يأتي قبل الشعر إنما هو اللسان الطبيعي العامل ، لسان الحوائج والمنافع ، ولكننا نستطيع أن نجعل من قوانين التاريخ الأدبي العامة أن كل أدب يبدأ بالشعر ، ثم ينزل إلى النثر بإلغاء القيود التي تقيد اللغة الشعرية ، و باطراح هذه القيود ، أي بالتخلي عن لوازم الفن كلها ، إن لم يكن بالتخلي عن نتائج الفن » .

فإذا كان الأدب يبدأ بالشعر ، ثم ينزل إلى النثر ، فأين النثر الذي نزل إليه الشعر

---

(١) فن النثر — لانسون ص ١٠ .

الجاهلي ، أهو هذا النثر الإسلامي المتكامل الذي ظهر فجأة دون أن يكون لتكامله عامل من العوامل ، لا شك في أن النثر الإسلامي سبقه نثر ، وهذا النثر سبقه شعر ، ولم تبق لنا الأيام من هذا كله إلا الشعر الجاهلي المتعارف ، و إلا قليلاً من النثر الجاهلي .

مثل اللغات كمثل المخلوقات الحية في عالمي الحيوان والنبات ، فكما أن الحيوانات والنباتات تولد ، فتعيش ، فتموت ، فكذلك اللغات ، فإنها أشبه شيء بهذه المخلوقات ولميلاد اللغات وحياتها وموتها عوامل منطقية وفلسفية وتاريخية وغير ذلك ، تجمعها كلمة : حياة الألفاظ ، ولست أعلم بحثاً يأخذ بمجامع القلوب نظير البحث عن حياة الألفاظ .

فقول الجاحظ : إن الشعر الجاهلي عمره قرنان ، فيه اشتطاط ، على أن الجاحظ نفسه يقول ، : ولسنا نحيط بأوائل كلامهم (أي كلام العرب) على أي مقادير كانوا يضعونها ، ومن أي شيء اشتقوها ، وكيف كان السبب ... فإن الذي يقول هذا القول لا ينبغي له أن تزلق به قدمه هذا المزلق ، فيجعل الشعر حديث الميلاد ، صغير السن .

وسواء أرشدت مسالكه في الدلالة على مواقع الزور في التوليد أم لم ترشد ، فإنه نزّاع إلى التمحيص .

فلننظر بعد هذا كله في طبيعة ذوقه ، كيف يذوق نتائج القرائح ، وثمرات الخواطر ، أيقتصر على استحسان المعاني وحدها ؟ أم أنه مولع بالصنعة ؟ وهل وقف به ولعه بالصنعة على تفضيل أساليب المتقدمين ، أم إنه مال إلى مذاهب المولدين ؟ وما غايتنا من هذا كله إلا استخراج صورة عامة لذوقه الفني من آرائه المبعثرة في أضعاف كتبه ، حتى يتمثل لنا ذوقه ، كما تمثل لنا تحقيقه .

للجاحظ ولع خاص بالصنعة ، وأريد بالصنعة في هذا المقام الفن على مصطلح عصرنا . فهو ميال إلى استحسان الألفاظ ، فمن قوله في هذا الباب ، وقد نقد بيتين من الشعر [1] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٤٠ .

« وأنا قد رأيت أبا عمرو [الشيباني] ، وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ، ونحن في المسجد يوم الجمعة ، أن كلف رجلاً ، حتى أحضر دواة وقرطاساً ، حتى كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً ، ولولا أن أدخل في [الحكم] بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً أبداً ، وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى   فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا   أفظع من ذاك لذل السؤال

وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى ، والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي [والمدني] ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتمييز اللفظ ، وسهولته ، وسهولة المخرج ، [وكثرة الماء] ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من الصبغ ، وجنس من التصوير » .

فالجاحظ مفتون بالفن ، فهو يريد أن نعطي المعاني حقوقها من الألفاظ ، وأظن أن هذا المذهب يحتاج إلى شيء من التوضيح ، فقد يخطر على البال أن الذهاب إلى استحسان الألفاظ إنما يراد به الحط من مقادير المعاني ، حتى يتوهم المتوهمون أن الذين يستحسنون الألفاظ يقولون : المعاني لا قيمة لها ، وإنما القيمة للألفاظ وحدها ، ولكن الألفاظ في الحقيقة إنما هي خدم المعاني ، فقد وضعت للدلالة على فكر من الأفكار ، فلولا الفكر لم يكن اللفظ ، فحسن الألفاظ يستوجب حسن المعاني ، فإذا وجدنا ألفاظاً ضخمة ، ولم نجد لها معاني ضخمة ، استخرجنا من ذلك أن أصحابها لا يحوكون الكلام على حسب الأماني ، ولا يخيطون الألفاظ على قدود المعاني ، فقد تكون ألفاظ سيئة تشتمل على معان حسنة ، ولكن هذه المعاني لا يبقى لها أثر في القلوب ، لأنها لم تعط قسطها من الصنعة . لنضرب مثلاً لذلك ، ولنرجع إلى البيتين اللذين استشهد بهما الجاحظ : معناهما أن أصحاب النفوس الكريمة يفضلون الموت على سؤال الرجال ، فالمعنى فيهما حسن ولا شك ، ولكن الشاعر هل تهيأ له أن يكسوه ما يناسبه من اللفظ ؟ إذا كان الغرض من الشعر أن يعرض علينا حقائق

الأفكار المحسوسة ، حتى نكاد ندرك هذه الأفكار ذاتها ، وظواهر صيغها، كل هذا في شكل مرصوص كأنه بناء مبني لا خلل فيه ، إذا كان هذا هو الغرض من الشعر، فالبيتان اللذان نتمدهما الجاحظ ، وخاصة البيت الثاني ، ليس فيهما شيء من الصور الشعرية ، فإن لغة البيت الثاني بعيدة عن لغة الشعر ، فكلمة : ذا ، وذاك ، وأشباههما إنما هي من الألفاظ الثقيلة على السمع .

فلما ذهب الجاحظ إلى استحسان الألفاظ ، لم يذهب إلى استقباح المعاني ، وإنما ذهب إلى أن الألفاظ التي صورت المعنى في هذين البيتين لم تكن مناسبة لهذا المعنى، فالفرق بينه وبين أبي عمرو الذي استجاد البيتين كالفرق بين الرجل الأديب ، وبين الرجل غير الأديب ، أو كالفرق بين صاحب الفن ، وبين المجرد من الفن ، فأبو عمرو لا اهتمام له بالفن ، فإنه ينظر إلى مجرد المعنى ، سواء عليه أكان لباس هذا المعنى مناسباً له ، أم كان غير مناسب، والجاحظ معتن بالفن ، فإنه لا ينظر إلى مجرد المعنى، وإنما يريد أن يكون هذا المعنى مصبوباً في قالب مناسب له ، فإذا كنا نستحسن المعاني وحدها ، ولا نبالي بالقوالب التى تفرغ فيها هذه المعاني لم يبق للفن قيمة ، ولم يبق للمفاضلة بين الآثار الفنية وجه ، فإذا خطر مثلاً على بال شاعر مثل البحتري معنى من المعاني ، فصبه في قالب مناسب له ، وخطر هذا المعنى نفسه على بال رجل من العامة ، فقذفه في لغته العامية ، فلا فضل للبحتري على العامي ، فإذا كان الأصل المعنى ، وإذا كان هذا المعنى قد وقع في خلد كل واحد منهما ، وكل واحد منهما استطاع أن يؤديه إلى غيره ، هذا بلغته الشعرية ، وهذا بلغته العامية ، فلا تفاضل بينهما ، فما الحاجة إذن إلى الفن ؟ فلا تخفى بعد هذا كله النتائج التي يؤدي إليها استحسان المعاني وحدها ، دون المبالاة بالألفاظ التي تصورها ، وخوفاً من هذه النتائج التي تؤدي إلى القضاء على الفن ومذاهبه تفرغ أكابر أدباء العرب والإفرنجة للمراماة دون حياض الفن ، فمن أدباء العرب من واطأ الجاحظ على رأيه ، كأبي هلال العسكري ، وابن رشيق ، وغيرهما ، فأبو هلال يقول بحسن التأليف ، وجودة

التركيب ، وكمال الحلية والمعرض ، وابن رشيق يختار جودة الألفاظ ، وحسن السبك ، وصحة التأليف . ومن أدباء الإفرنجة من دافع عن الصنعة على نحو الجاحظ .

فمن كلام « ڤولتير » : إن الأشياء تؤثر فينا في الأغلب من نواحي أساليبها ، أي من نواحي القوالب التي تصب فيها ، لأن للناس أفكاراً واحدة بوجه التقريب ، ولكن الأسلوب هو الذي يفرق بين كاتب وكاتب .

ومن كلام « فاكه » Faguet : إن الذي يخلد الكاتب إنما هو جمال الأسلوب .

ومن كلام « فرانس » : ليس الفكر ملكاً لمن يبدعه ، وإنما هو ملك الذي يثبته في الأذهان .

من هذا كله ، يتبين لنا أن أكابر الأدباء وبلغاء الكتاب قد أجمعوا على فضل الأسلوب فالاعتناء بالأسلوب قديم عهده في الأمم ، فاليونانيون كانوا على هذا المذهب ، والرومانيون أولعوا الولع كله بجمال الأسلوب ، حتى أفرطوا في هذا الأمر ، فأدى بهم إفراطهم إلى التقصير في الكتابة الحسنة .

أين الشعراء الذين عاشوا في زمن البحتري ، أفيخلد البحتري ويموت شعراء عصره لولا الصنعة [1] .

ليس معنى هذا كله أن الأدباء الذين استشهدت بكلامهم سواء عليهم حسن المعاني وقبحها ، وإنما هؤلاء الأدباء يريدون أن نعطي المعاني الحسنة حقها من الألفاظ الحسنة ، فهم قد شعروا بتأثير الألفاظ في تخليد المعاني ، فعظموا من مقادير هذه الألفاظ .

وإذا أردنا أن نعرف تأثير الألفاظ فلنسمع ما قاله الأستاذ « باولوسكي » في مقالة أشار فيها إلى ترجمة الدكتور « ماردروس » Mardrus للقرآن بعد أن استعد لهذا الأمر عشرين سنة :

« لقد بلغ من تأثير القرآن في قلوب الثلاثمائة مليون مسلم مبلغاً أجمع فيه المبشرون

---

(١) راجع محاضرة الأسلوب في كتابي « المتنبيء »

على الاعتراف بأنهم لم يستطيعوا أن يردوا مسلماً عن دينه حتى اليوم ، واستنتج الدكتور من ذلك أن الكلمة إذا وضعت مواضعها ، وأنزلت منازلها كانت سحراً حلالاً ، فمن الذي يتبجح بأن يأتي بكلام ينزل على أكباد ثلاثمائة مليون رجل نزول الماء الزلال على الكبد الحرّى » .

فالجاحظ مولع بالفن ، ولا يقعن في خلد أحد أن ولعه بالفن يفضي به إلى تحقير المعاني ، فإنه يعظم المعاني ، ويعطيها قسطها ، فمن قوله في ذلك ، وقد أعجبه تمام التشبيه ، وغرابة المعنى ، وشرف هذا المعنى(٢) :

« ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام ، وفي معنى غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مخترع ، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه ، إن هو لم يَعْدُ على لفظه ، فيسرقَ بعضه ، أو يدعيه بأسره ، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكاً فيه ، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء ، فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله [أن] يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، وقال إنه خطر على بالي من غير سماع ، كما خطر على بال الأول ، هذا إذا قرعوه به ، إلا ما كان من عنترة في صفة الذباب ، فإنه وصفه ، فأجاد وصفه ، فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له أحد منهم ، ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ، ومن اضطرابه فيه ، أنه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر ، قال عنترة :

جادت عليها كل عين ثرة ... فتركن كل حديقة كالدرهم
فترى الذباب بها يغني وحده ... هزجاً كفعل الشارب المترنم
غرداً يحك ذراعه بذراعه ... فعل المكب على الزناد الأجذم

قال : يريد فعل الأقطع المكب على الزناد ، والأجذم المقطوع اليدين ، فوصف الذباب إذا كان واقعاً ، ثم حك إحدى يديه بالأخرى ، فشبهه عند ذلك برجل

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٩٦ .

مقطوع اليدين ، يقدح بعودين ، ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك ، ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة » .

وسواء أأحسن عنترة في هذا المعنى على رأي فريق ، أم لم يحسن على رأي فريق آخر ، فإن الجاحظ ذهب إلى استحسان معانيه ، ولكنه لم يقتصر على استحسان المعاني وحدها ، فإن معاني عنترة في هذه الأبيات لو لم تصورها لغة شعرية تصويراً ناطقاً لما كان لها هذه القيمة ، فالجاحظ لم يذهب إلى استحسان الألفاظ إلا لأن الألفاظ هي التي تبرز المعاني ، وتثبتها في الأذهان على تراخي الأحقاب ، أما إجادة عنترة في أبياته أو عدم إجادته ، فإنما هذه مسألة متعلقها الذوق ، ولا جدال في الذوق ، فقد نستحسن معنى ويستقبحه غيرنا ، وقد نستقبح فكراً لا يستقبحه الناس ، فالذي يستنبط من كل ما تقدم أن استحسان الألفاظ على مذهب الجاحظ إنما وجهه إعطاء المعاني حقوقها من هذه الألفاظ ، بحسب مقاديرها ، حتى يكون لها الأثر الخالد ، فهو لا يتهاون بوضع الألفاظ في مواضعها ، لأن اللفظ إذا لم يصب في قالبه شوه المعنى ، أو قلبه ، أو أضاعه ، كلفظ « يخون » : في البيت الآتي ، قال الجاحظ :

« وفي منحول شعر النابغة (١) :

فألفيت الأمانة لم تخنها   كذلك كان نوح لا يخون

وليس لهذا الكلام وجه ، وإنما ذلك كقولهم كان داود لا يخون ، وكذلك كان موسى لا يخون عليهما السلام ، وهم ، وإن لم يكونوا في حالة من الحالات أصحاب خيانة ولا تجوز عليهم ، فإن الناس إنما يضربون المثل بالشيء النادر من فعل الرجال ومن سائر أمورهم ، كما قالوا : عيسى ابن مريم روح الله ، وموسى كليم الله ، وإبراهيم خليل الرحمن ، صلى الله عليهم وسلم . ولو ذكر ذاكر الصبر على البلاء فقال : كذلك كان أيوب لا يجزع ، كان قولاً صحيحاً ، ولو [قال] : كان كذلك نوح عليه السلام لا يجزع لم تكن الكلمة أعطيت حقها ، ولو ذكر الاحتمال وتجرع الغيظ ، فقال : وكذلك

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٩٠ .

كان معاوية لا يسفه، وكان الأحنف لا يفحش، لكان كلاماً مصروفاً عن جهته، ولو قال: كذلك كان حاتم لا يبخل لكان ذلك كلاماً معروفاً، ولكان القول قد وقع موقعه، وإن كان حاتم لا يعرف بقلة الاحتمال وبالتسرع إلى المكافأة، ولو قال: سألتك فمنعتني، وقد كان الشعبي لا يمنع، وكان النخعي لا يقول «لا» لكان غير محمود في جهة البيان، وإن كان ممن يعطي ويختار نعم على لا، ولكن لما لم يكن ذلك هو المشهور من أمرهما، لم تصرف الأمثال إليهما، ولم تضرب بهما».

فنحن نرى أن كل هم الجاحظ في أساليب نقده إنما هو إعطاء الكلمة حقها، حتى يقع القول موقعه، وحتى يكون محموداً في جهة البيان، فالجاحظ من هذا الباب من أكبر رجال الفن، وإذا نظرنا في لغته تبين كيف يعطي الكلام حقوقه.

وقد حمله مذهبه هذا، وأعني به إنزال اللفظ في منزله دون شيء من الغلو في استعمال الألفاظ، على إنزال المعاني في منازلها دون شيء من المبالغة في تصور هذه المعاني وتخيلها، فكما أنه يتذمم من الغلو في اللفظ، فكذلك يتذمم من الغلو في المعنى، فهو لا يريد من المعاني إلا ما كان صادقاً، فمن قوله[1]:

«وإذا استوحش الإنسان، تمثّل له الشيء الصغير في صورة الكبير، وارتاب، وتفرق ذهنه وانتقضت أخلاطه، فرأى ما لا يُرى، وسمع ما لا يُسمع، وتوهم على الشيء اليسير الحقير أنه عظيم جليل، ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه، وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيماناً، ونشأ عليه الناشىء، وربي به الطفل، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي، وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس فعند أول وحشة وفزعة، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى، وقد رأى كل باطل، وتوهم كل زور، وربما كان في أصل الخلق والطبيعة نفاجاً كذاباً، وصاحب تشنيع وتهويل، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة، فعند ذلك يقول: رأيت الغيلان، وكلمت السعلاة، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: قتلتها، ثم يتجاوز

(١) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٧٨.

ذلك إلى أن يقول : رافقتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : تزوجتها ، قال عبيد ابن أيوب :

فلله در الغول أي رفيقة لصاحب قفر خائف مُتَقَتِّرِ

وقال :

أهذا خليل الغول والذئب والذي يهيم بربات الجمال الهراكل

وقال آخر :

أخو قفرات حالف الجن وانتفى من الأنس حتى قد تقضت وسائله

له نسب الإنسى يعرف نجله وللجن منه خلقه وشمائله

ومما زادهم في هذا الباب ، وأغراهم به ، ومدّ لهم فيه ، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار ، وبهذه الأخبار ، إلا أعرابياً مثلهم ، وإلا غبياً لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق ، أو الشك ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس قط ، وإما أن يلقوا راوية شعر ، أو صاحب خبر ، فالراوية عندهم كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أطرف عنده ، وصارت روايته أغلب ، ومضاحيك حديثه أكثر ، فلذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول ، أو قتلها ، أو مرافقتها ، أو تزويجها ، وآخر يزعم إنه رافق في مفازة نمراً ، فكان يطاعمه ويؤاكله » .

ولكن الجاحظ على اهتمامه بالألفاظ ، وفرط اعتنائه بالصنعة ، وعلى شدة ميله إلى السلف الطيب ، والأعراب الأقحاح ، الذين لم يجد لهم ألفاظاً مسخوطة ، ولا معاني مدخولة ولا طبعاً رديًا ، ولا قولاً مستكرهاً ، لم يؤثر المحافظة على أساليب المتقدمين التي تناهت إليه من عصر الجاهلية والإسلام ، وإنما رأى أن لكل عصر أطواراً ، وأن الانتقال من طور إلى طور إنما هو من علامات الحياة .

اتصل الجاحظ بعصر انقلبت فيه الأفكار كل منقلب ، فقد نقلت في ذلك العصر كتب الهند ، وترجمت حكم اليونانيين ، وحولت آداب الفرس ، فكان لهذه الأفكار المنقولة تأثير في أدب العرب ، فقد استوجبت هذه الأفكار صيغاً حديثة لا عهد

للعربية بها فدخل النثر في طور لم يدخله من قبل ، ولم يكن الشعر بمعزل عن آثار الانقلاب فإن الشعراء اتصلوا بخلفاء متقلبين في أعطاف الحضارة والنعيم ، فكان من بدائه الأمور أن يكون في شعرهم أثر من صور هذه الحياة الحديثة .

ومن هؤلاء الشعراء الذين ظهرت على شعرهم آثار حديثة تختلف عن الآثار التي كانت تظهر على الشعر من قبلهم في الجاهلية والإسلام ، بشار ، وأبو نواس ، والبحتري وأضرابهم .

فكما انتقل الجاحظ في النثر من طور إلى طور ، فلجأ إلى أساليب تستطيع أن تستوعب الآثار المنقولة ، فكذلك انتقل ذوقه في الشعر من طور إلى طور ، فاختار من هذا الشعر ما ظهرت عليه آثار الانقلاب ، فلم يؤثر المحافظة على الآثار القديمة ، وإنما تطلب الصور الحديثة ، دون المبالاة بالعصبية التي تعترض على الذين يفضلون شعر أهل البدو .

فمن الطبيعي بعد هذا الانقلاب أن يفضل أبا نواس، أو بشاراً ، من الذين وسعوا آفاق الشعر ، ولم يضيقوا هذه الآفاق .

فإذا تطاول مثلاً حماد عجرد لبشار ، وقال فيه أبياتاً ، ناضل الجاحظ عن بشار فقال [1].

« وما [كان] ينبغي لبشار أن [illegible] من جهة الشعر ، وما يتعلق بالشعر ، لأن حماداً في الحضيض ، و بشاراً مع العيُّوق ، وليس في الأرض [illegible] شعره في المحدث ، إلاّ و بشار أشعر منه » .

ولا يعرف الجاحظ شاعراً بعد بشار أشعر من أبي نواس [2] :

وله آراء كثيرة في أبي نواس تتعلق بفصاحة أسلوبه ، وجودة طبعه ، منها قوله [3] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ١٤٥ .

(٢) « « « ص ١٤٦ .

(٣) طبقات الأنباري — ص ٩٧ .

« ما رأيت رجلا أعلم باللغـة من أبي نواس ، ولا أصح لهجة ، مع مجانبة الاستكراه » .

ومنها قوله بعد أن ذكر رجزاً له [١] :

« وأنا كتبت لك رجزه في هذا الباب ، لأنه كان عالماً راوية ، وكان قد لعب بالكلاب زماناً ، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب ، وذلك موجود في شعره ، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه ، هذا مع جودة الطبع ، وجودة السبك ، والحذق بالصنعة ، وإن تأملت شعره فضلته ، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية ، أو ترى أن أهل البدو أبداً أشعر ، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء ، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوباً » .

ليس معنى هذا كله أن الجاحظ يفضل المولدين من الشعراء على شعراء الجاهلية والإسلام ، وانما معناه أن الجاحظ يماشي عصره ، فكما ماشى هذا العصر في تجديد النثر بسبب جدة الأفكار ، فكذلك ماشاه في استحسان الشعر المولد ، وإلا فإن الجاحظ ما كان يتأخر عن ضرب الأمثال بامرئ القيس بن حجر ، والنابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، ثم بجرير والأخطل والفرزدق [٢] .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ١٠ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الخامس ص ٩٦ .

مذهب الجاحظ في الأدب

أحطنا بثلاث نواح من نواحي الجاحظ ، فقد تكشف لنا علمه ودينه ونقده ، فكان في علمه يبني على أصول معينة وصولاً إلى الحقائق ، وكان في دينه يعمل عقله في التفسير والتأويل دون أن يكون لأحد سلطان عليه ، وكان في نقده على نحو ما رأينا في علمه بتوخى الحقائق مهتمًّا بالفن الاهتمام كله ، فإذا عرفنا هذا ، فهل علينا من حرج أن نعرف طائفةً من مذاهبه في الأدب ، كما عرفنا طائفةً من مذاهبه في العلم والدين والنقد ، وآراء الجاحظ في الأدب مشتتة في أثناء كتبه ، فلا نجد له مباحث مطردة في هذا الباب يأخذ بعضها برقاب بعض ، فكأنه يلهو بمجامع المعاني لهواً ، وهذا اللهو من خصائص عبقريته .

وعلى هذا النحو أننا لا نطمع في الاستقصاء في آرائه الأدبية ، وإنما نتوخى معرفة اليسير منها ، لعلنا نتصور الجاحظ في صورة الأديب ، كما تصورناه في صورة العالم ، أو في صورة الفيلسوف ، أو في صورة الناقد .

قبل أن أتفرغ لبيان أفكاره الأدبية لا أرى لي مندوحة عن الإشارة إلى مذهبه في الأدب ، فالجاحظ من أصحاب الأدب المجرّد ، إنا نعلم أنه عاش في عصر استفاضت فيه الحرية في كثير من الأمور ، من جملة هذه الأمور تسمية الأشياء بأسمائها دون اللجوء إلى الكنايات ، فإذا تصفحنا بعض الشعر في هذا العصر ظهرت لنا ألفاظ عارية تصور الطبيعة في حقائق صورها ، دون شيء من التعفف ، والجاحظ متصل بعصره الاتصال كله على نحو ما تبين لنا ذلك ، فلم ينسلخ من أثر من آثار هذا العصر ، فإذا وجد أن الأدب المجرد مذهب من المذاهب المستفيضة أخذ به ولم يتورع ، فهو صورة عصره في كثير من الأمور ، فمن قوله في هذا المعنى [1] :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٢ .

و بعض الناس إذا انتهى إلى ذكر ... ارتدع ، وأظهر التقزز ، واستعمل باب التورع . وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستعمل (١) ، ونذالة متمكنة » ، إلى آخر ما ذكره ثم أيد مذهبه هذا بطائفة من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام بعض الخلفاء الراشدين ، والسلف الطيب .

ففي كلام الجاحظ ما يدل على أن هذا الشكل من الأدب لم يشع الشيوع كله ، فقد كانت طائفة من الناس يرتدعون ، ويظهرون التقزز ، ويستعملون باب التورع ، إلا أن الجاحظ كان يرى أن هذه الأخلاق إنما هي ضرب من التصنع ، وكيف كان الأمر فالذي يهمنا إنما هو المذهب نفسه ، ولهذا المذهب رجال ظهروا في فرنسة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، منهم هنري بيل Henri Beyle ، وفي مقدمتهم بالزاك Balzac وفلوبر Flaubert ثم زولا Zola وغيرهم ، فيكاد يكون بالزاك أستاذ الأدب المجرد ، أو الأدب الواقع على حسب المصطلح ، فقد أحيا في رواياته جماعات تصوّرها على نحو جماعات اللحم والدم .

لمح بالزاك في مقدمة رواية من رواياته إلى غرضه ، فالغاية التي يرمي إليها إنما هي كتابة التاريخ الطبيعي للرجل ، فنحن ندرك من هذه الكلمة النتائج التي تؤدي إليها كتابة التاريخ الطبيعي للبشر ، شأن صاحب هذا المذهب إنما هو وصف القبح والجمال ، ووصف الخير والشر على وجه واحد ، فلا قبح ولا جمال ، ولا خير ولا شر في نظر أهل هذا الأدب ، وإنما هي مظاهر مختلفة يظهرها الرجل ، فهم يشبهون الإنسان بحيوان أو بنبات .

ليست غايتنا التبسط في الكلام على أهل الأدب المجرد ، وإنما أردنا أن نقابل

---

(١) لعله : عن لؤم مستفحل .

بينهم و بين الجاحظ ، فالجاحظ يختلف عنهم من حيث إنه لم يتوسع في هذا المذهب ، فهو لم يضع روايات يرمي فيها إلى تصوير القبح والجمال ، أو الخير والشر ، و إنما لجأ إلى مفردات قد لجأوا إلى أشباهها نظراً إلى التحامها بموضوعاتهم ، فهو يشبههم في قليل من المواطن . فقد نجد من كلامه ما هو مجرد من الأدب نسبة إلى عصرنا ، وقد يكون هذا الكلام مألوفاً في عصره ، إلا أنه كيف كان الأمر فلا نستطيع في هذه الأيام أن نستعمل أضراب هذا الكلام ، لأن عصرنا لم يتهيأ لهذا النوع من الأدب ، أما كلام الجاحظ الذي أشرت إليه فإنه يتجلى لنا في بحثنا عن لغته .

وقد جرّته هذه الحرية في الأدب إلى حرية مثلها في اللغة ، وهذا ما قاله في بعض كلامه على الكلاب (١) :

«فأما الذي شهدت أنا من أبي إسحق بن سيّار النظام ، فإنا خرجنا ليلةً في بعض طرقات الأُبُلَّة ، وتقدمته شيئاً ، وألح عليه كلب من شكل كلاب الرعاء ، وكره أن يعدو فيغريَه ويُضرّيَه ، وأنف أيضاً من ذلك ، وكان أنفاً ، شديد الشكيمة ، أبّاءً للهضيمة ، وكره أن يجلس مخافة أن يشغر عليه ببوله ، أو لعله أن يعضه فيهرِت ثوبه ، وألح عليه ، فلم ينله بسوء ، فلما جزنا حده وتخلصنا منه ، قال إبراهيم في كلام له كثير ، يعدد خصاله المذمومة ، فكان آخر كلامه أن قال : إن كنت سبع ، فاذهب مع السباع ، وعليك بالبراري والغياض ، و إن كنت بهيمة ، فاسكت عنا سكوت البهائم » . فلما بلغ الجاحظ إلى قوله البهائم ، قال :

ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون ، من قولي : إن كنت سبع ، ولم أقل إن كنت سبعاً ، وأنا أقول : إن الإعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة ، وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة ، فإذا دخَلْت على هذا الأمر الذي إنما أضحك بسخفه ، و بعض كلام العجمية التي فيه ، حروفَ الإعراب ، والتحقيق والتثقيل ،

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ١٣٦ .

وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء ، وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » .

فلم يأنف الجاحظ بعد أن بسط مذهبه هذا من لحن ، أو من كلام غير معرب ، أو من لفظ معدول عن جهته ، حتى قال في كتاب البخلاء (١) :

« وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً ، أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك ، لأن الإعراب يبغض هذا الباب ، ويخرجه من حده ، إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء ، وأشحاء العلماء ، كسهل ابن هرون وأشباهه » .

ولم يقتصر على استعمال اللحن ، والكلام غير المعرب ، واللفظ المعدول عن جهته ، وإنما أوصى بهذا المذهب ، فقال (٢) :

« ومتى سمعت ، حفظك الله ، بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مُخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضل كبير ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، ومُلحة من مُلَح الحِشوة والطغام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سَرِيًّا ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أُريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها » .

فإذا عرفنا ميله إلى الحرية في التصوير ، وإلى الحرية في اللغة ، لزمنا أن نعرف مذاهبه في هذا التصوير ، وفي هذه اللغة ، ما هي الأصول التي يبني عليها الفن ؟

لم يعتن الجاحظ بشيء في أبواب الفن اعتناءه بالمناسبة بين الألفاظ والمعاني ، فإن قاعدة : « لكل مقام مقال » تكاد تكون أغلب قواعده ، فما أكثر ذكره لها في كلامه ، وما أكثر تنبيهه على استعمالها ، ولا عجب في ذلك ، فإذا رأينا كيف يناسب بين

(١) كتاب البخلاء ص ٣٣ .

(٢) البيان والتبيين — الجزء الأول ص ٨١ .

ألفاظه ومعانيه ، وكيف تكون ألفاظه على أقدار هذه المعاني ، عرفنا السبب الذي من أجله يحرص هذا الحرص على أن يكون المقال مطابقاً للمقام ، فقد نبه على هذه القاعدة في مواطن كثيرة من كلامه ، لا أرى بي حاجة إلى ذكرها كلها ، وإنما اجتزئ بذكر بعضها ، فمن قوله في هذا المعنى(١) :

« ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح في موضع الإفصاح ، والكناية في موضع الكناية ، والاسترسال في موضع الاسترسال ، وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك وملهي ، وداخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الإعراب ، انقلب عن جهته ، وإن كان في لفظه سخف ، وأبدلت السخافة بالجزالة ، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس ، يُكرِبُها ، ويأخذ بأكظامها » .

أو قوله(٢) :

« وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة ، أو رسالة ، أو في مخاطبة العوام والتجار ، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته ، أو في حديثه إذا تحدث ، أو خبره إذا أخبر ، وكذلك [فإنه] من الخطأ أن يجاب ألفاظ الأعراب ، وألفاظ العوام ، وهو في صناعة الكلام داخل . ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل » .

أو قوله(٣) :

« ووجدنا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا ، وإذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك أطالوا ، وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل ، وللإقلال موضع ، وليس ذلك من عجز ... ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٢ .
(٢) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٤ .
(٣) « « « الأول ص ٤٦ .

أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل ، أو حكى عنهم ، جعله مبسوطاً ، وزاد في الكلام » .

ومثل الإشارة إلى قاعدة : لكل مقام مقال ، كثير في كلام الجاحظ ، ولكن كيف يريد الجاحظ أن يكون هذا المقال ؟ ما هي قواعد الإنشاء في نظره ؟ أيريد أن يرسل الكاتب كلامه على سجيته ، دون شيء من التنقيح ؟ أم يريد أن ينقح هذا الكلام ؟

اهتم الجاحظ بالتنقيح كل الاهتمام ، فهو يعلم مقدار فتنة الكاتب بكلامه ، فلم يجد بدًّا من تنبيهه على التهذيب ، فقال :(١)

« وينبغي لمن كتب كتاباً أن لا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له ، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً ، ولا يرضى بالرأي الفطير ، فإن لابتداء الكتاب فتنة وعجباً ، فإذا سكنت الطبيعة ، وهدأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط ، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فيه ، فيتوقف عند فصوله ، توقف من يكون وزنُ طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ، ويتفهم معنى قول الشاعر :

إن الحديث تغر القومَ خلوته حتى يلج بهم عيٌّ وإكثار

ويقف عند قولهم في المثل : كل مجرٍ في الخلاء يُسَرُّ ، فيخاف أن يعتريه ما اعترى من أجرى فرسه وحده ، أو خلا بعلمه عند فقد خصومه ، وأهل المنزلة من أهل صناعته ، وليعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه ، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط ، فيضرب مائة ، لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطباع ، فأراه السكون أنه أن الصواب في الإقلال ، فلما ضَرب تحرك دمه ، فأشاع فيه الحرارة ، فزاد في غضبه ، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار ، وكذلك صاحب القلم ، فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين ، فيكتب عشرة ،

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٤ .

والحفظ مع الإقلال أمكن ، وهو مع الإكثار أبعد ، واعلم أن العاقل إن لم يكن بالمتتبع ، فكثيراً ما يعتريه من ولده ، أن يَحْسُنَ في عينه منه المقبّح في عين غيره ، فليعلم أن لفظه أقرب نسباً منه من ابنه ، وحركته أمسُّ به رحماً من ولده ، لأن حركته شيء أحدثه من نفسه ، وبذاته ، ومن عين جوهره فصلت ، ومن نفسه كانت ، وإنما الولد كالمخطة يتمخطها ، والنخامة يقذفها ، ولا سواء إخراجك من جزئك شيئاً لم يكن منك ، وإظهارك حركة لم تكن حتى كانت منك ، ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره ، وفتنته بكلامه وكتبه ، فوق فتنته بجميع نعمته ، وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ، ويحطه من غريب الإعراب ووحشي الكلام » .

وقال في مقام آخر(١) :

« وليس في الأرض خصمان يتنازعان إلى حاكم إلا كل واحد منهما يدعي عدم الإنصاف والظلم على صاحبه ، وليس في الأرض إنسان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعتريه الغلط في شعره ، وفي ولده ، إلا أن الناس في ذلك طبقات من الغلط ، فمنهم الغرق المغمور ، ومنهم من قد نال من الصواب ، ونال من الخطاء ومنهم من يكون خطؤه مستوراً ، لكثرة صوابه ، فما أحسن حاله ما لم يمتحن بالكشف ، ولذلك احتاج العاقل [في العجب بولده ، و] في استحسان كتبه وشعره ، من التحفظ والتوقي ، ومن إعادة النظر والتهمة ، إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك » .

ولكنه على شدة اهتمامه بالتنقيح والتهذيب ، لا يريد المبالغة في هذا الأمر ، لأنه يعلم أن المبالغة قد تفضي بالكاتب في خاتمة الأمر إلى شيء من التنطع والتنطس ، فلذلك قال(٢) :

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٣٧ .

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٥ .

« وليس له أن يهذّبه جدًّا ، وينقّحه ، ويصفيه ، ويروّقه ، حتى لا ينطق إلاّ بلب اللب ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله ، وأسقط زوائده ، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه ، فإنه إن فعل ذلك ، لم يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم إفهاماً مراراً وتكراراً ، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم ، إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها ، ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم ، لو قرأته على جميع خطباء الأمصار ، وبلغاء الأعراب ، لما فهموا أكثره ، وفي كلام إقليدس كلام يدور ، وهو عربي ، وقد صفي ، ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه ، ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعليمه ، لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر ، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام . قال معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله تعالى عنهما لصُحَار العبدي : ما الإيجاز ؟ قال : أن تجيب فلا تبطئ ، وتقول فلا تخطئ ، قال معاوية : أَوَ كذلك تقول ؟! قال صحار : أقلني يا أمير المؤمنين ، لا تخطئ ولا تبطئ . فلو أن سائلاً سألك عن الإيجاز ، فقلت لا تخطئ ولا تبطئ ، وبحضرتك خالد بن صفوان لما عرف بالبديهة ، وعند أول وهلة أن قولك لا تخطئ متضمن بالقول ، وقولك لا تبطئ متضمن بالجواب ، وهذا حديث كما ترى آثروه ورضوه ، ولو أن قائلاً قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟ لظننت أنه يقول : الاختصار . والإيجاز ليس يعنَى به قلة عدد الحروف واللفظ ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز ، وكذلك الإطالة ، وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه ، ولا يُرَدِّد وهو يكتفي من الإفهام بشطره ، فما فضل عن المقدار فهو الخطل » .

وإذا كان الجاحظ يرمي إلى التهذيب والتنقيح ، فمن الطبيعي أن يجعل للألفاظ صفات وخصائص ، وأن يحمل الكاتب على توخي هذه الصفات وهذه الخصائص ، ما هي طبائع الألفاظ التي يميل إليها الجاحظ ؟ قال في هذا المعنى (١) :

(١) البيان والتبيين — الجزء الأول ص ٤٧ .

« وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجلّ قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة ، على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، منزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة ، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة ، وقد قال عامر ابن عبد القيس : الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان » .

ومن قوله أيضاً(١) :

« ومتى شاكل ، أبقاك الله ، ذلك اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع ، وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العيابين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ، ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه ، متخيراً في جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت إليه الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة المتعلم الريّض ، فإن أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ، ومصلحة حال الخاصة ، وكان ممن يعم ولا يخص ، وينصح ولا يغش ، وكان مشغوفاً بأهل الجماعة ، شنفاً لأهل الاختلاف والفرقة ، جمعت له الحظوظ من أقطارها ، وسيقت إليه القلوب بأزمتها ، وجمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته ،

(١) البيان والتبيين — الجزء الثاني ص ٣ .

وجبلت على تصويب إرادته ، ومن أعاره الله من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، حنت إليه المعاني ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع من كد التكلف ، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم ، ولم أجد في خطب السلف الطيب ، والأعراب الأقحاح ، ألفاظاً مسخوطة ، ولا معاني مدخولة ، ولا طبعاً رديًّا ، ولا قولا مستكرهاً ، وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين ، ومن أهل الصنعة المتأدبين ، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب ، أو كان من نتائج التخير والتفكر ، ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً ، وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله ذماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله من نعمته » .

فأكبر همه انتخاب اللفظ النبيه الشريف ، واجتناب اللفظ الهجين الردىء .

وقبل أن يشرع الكاتب في الكتابة يلزمه أن يتصور المعنى ، ثم يتصور اللفظ على قدر هذا المعنى[١] :

« وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم ، حتى صار يجر إليه المعنى جرًّا ، ويلزقه به إلزاقاً ، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ، ومنعه الإفصاح عنه إلا به » .

هذه بوجه التقريب القواعد التي رسمها الجاحظ في صناعة الكلام ، وإذا أجملناها وجدنا أنها تتعلق بالمناسبة بين الألفاظ والمعاني ، وبتنقيح الألفاظ دون شيء من الغلو في هذا التنقيح ، وبما يؤدي إليه التنقيح من انتخاب الألفاظ وتخيرها ، فهي من هذا الوجه تشبه في بعض الأحوال القواعد التي يضعها أدباء الإفرنجة ، فإذا قابلنا مثلاً بين ما قاله الجاحظ وبين ما قاله الشاعر الفرنسي « بوالو » في فنه الشعري ، وجدنا القولين متشابهين في كثير من الوجوه ، فإذا تم للأديب هذا كله ،

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الأول ص ٢٨ .

واجتمعت له أسبابه ، فليعمل بعد هذا بما قاله الجاحظ له [1] :

« وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس ، وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية ، وللاحتمال نهاية » .

فما ينبغي للأدب في نظر الجاحظ أن يكون متعبة للعقل ، وإنما الأدب في رأيه ضرب من الرياضة ، وعلى هذه الصورة يشبه مذهب الجاحظ في قدر الأدب مذهب أكابر الأدباء في فرنسة ، وفي جملتهم الأستاذ « لانسون » Lanson الذي يريد أن يكون الأدب : رياضة وذوقاً ولذة [2] .

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الأول ص ١٥٥ .

(٢) راجع كتابي : المتنبئ — ص ٤ .

تفكير الجاحظ

تبين لنا في كلامنا على عصر الجاحظ أن الجاحظ متصل بكل أفق من آفاق هذا العصر ، فلئن استفاضت حرية التفكير في عصره ، فما غاب عن هذه الحرية ، فقد كان يرجع إلى عقله في كل مذهب من مذاهبه ، ولئن شاعت الزندقة والخرافات والأباطيل في أيامه ، فما غفل عن التنديد بها ، والتقذر منها . بقي أن نعلم مقدار اتصاله بالناحية الثالثة من نواحي عصره ، وهي جهة الانقلاب الفكري ، فما هو نصيب الجاحظ من هذا الانقلاب ؟

نقلت في أيامه كتب الهند ، وترجمت حكم اليونانيين ، وحولت آداب الفرس ، فما هو حظ الجاحظ من هذا النشاط الفكري ؟

قد كنت ذكرت في بعض المواطن أن الجاحظ إنما هو كامل من الكملة ، وأردت بكلمة الكامل ما يريد الإفرنجة بكلمتهم Encyclopédiste فالجاحظ لخّص معارف عصره على نحو أرسطاطاليس في القديم ، وقد أشار بعض الإفرنجة إلى امتداد هذه العبقرية ، وانبساط مجالها ، فاستشهد أحدهم ، وهو البارون « كارادي ڤو » Baron Carra de Vaux في كتابه : مفكرو الإسلام ، بفصل الجاحظ في نفع الكتاب ، وهو الفصل الذي عقده في مقدمة كتاب الحيوان ، فدل على براعته في الإنشاء ، فبعد أن ذكر البارون طائفة من هذا البحث قال :

«هذا بوجه التقريب نمط من أنماط فصول الجاحظ ، إن في هذا كله مجموعاً قد يكون في بعض الأحيان غير منسجم ، ولكنه ملآن بالحوادث والأفكار ، إني لا أجسر على أن أؤكد أن كل فصوله قد تكون خصيبة مثل هذا الفصل ، ولكننا قد نلاقي في كلها بعض الشيء ، ولنذكر أيضاً أن في رسائله الصغيرة قطعاً جديرة باستيقاف

الباحثين ، وخليقة بدراسة خاصة ، ففي رسالة التربيع والتدوير تعرض لنا ، ولا أدري كيف يكون ذلك ، سلسلة طويلة فيها مسائل في كل أنواع الموضوعات والعلوم ، في التاريخ والأساطير ، وطبقات الأرض ، كأن هذا كله إنما هو برنامج « معلمة[(١)] » تدل على روح التطلع في القرن التاسع ، وفي رسالة الأسود والأبيض كلام موجز على تاريخ الزنج ، وذكر أبطالهم وفتوحاتهم ، كل هذا مجموع حوادث قل من يعرفها ، وقد تنفع في البحث عن روح الأمم والأجناس .

إن هذا النوع من علم الروح كثيراً ما يستهوي الجاحظ ، فهو يرجع إليه من حين إلى آخر ، فإن عقله الغريب ، الميال إلى النقائض ، يحمله على النظر في الأمم التي لم يكن لها على أيامه مقام عال ، وعلى هذه الصورة إن لرسالته في مدح الترك فائدة ، ومن الممكن أن تكون هذه الرسالة أول الكتب التي توسع أصحابها في الكلام على الترك ، وجعلوا لهم بعض الشأن ، فإن خصائص الأمم تشغل ذهن الجاحظ ، فهو يأتي على ذكرها في عدة مواطن » .

***

خاض الجاحظ في كل باب من الأبواب ، فلم يتعاظمه الكلام على الاجتماع ، أو على الأخلاق ، أو على التربية والتعليم ، أو على الطبيعة ، أو على التاريخ الطبيعي ، أو على فلسفة اللغة ، إلى غير ذلك من المذاهب التي تدل على سعة عبقريته ، غير أن الاستقصاء في هذه الغرائب والعجائب قد يطول أمره ، ولكننا لامندوحة لنا عن الإلمام ببعضها ، حتى نعرف شيئاً من امتداد عقل الجاحظ .

يتنقل الجاحظ على نحو ما قال البارون « كارادي ڤو » من فكر إلى فكر ، ولكنه يظل في هذه التنقلات صاحب نكتة ، خفيف الروح محبوب النفس ، إنه يلعب من دون أن يضجر غيره في هذا اللعب .

مرةً يخطر بباله باب من أجل أبواب الاجتماع في هذا العصر ، وهو الكلام على

---

(١) ترجمة (Enclopédie) .

حقوق النساء ، فينبري للدفاع عن المرأة ، والمطالبة بتوفير حقوقها ، فكأنه نصير النساء في أيامنا هذه[١] :

« ولسنا نقول ، ولا يقول أحد ممن يعقل ، أن النساء فوق الرجال ، أو دونهم بطبقة ، أو طبقتين ، أو بأ كثر ، ولكنا رأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزراية ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويبخسونهن أكثر حقوقهن ، وأن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال ، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ، ولولا أن ناساً يفخرون بالجلد وقوة المنة ، وانصراف النفس عن حب النساء ، حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته وزوجته وولده دليلاً على الضعف ، وباباً من الخور ، لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب » .

وقد قال في مقام آخر[٢] :

« ونحن ، وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر ، فليس ينبغي لنا أن نقصر في حقوق المرأة ، وليس ينبغي لمن عظّم حقوق الآباء أن يصغّر حقوق الأمهات ، وكذلك الإخوة والأخوات ، والبنون والبنات ، وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم ، فإن هذه أرحم » .

ومرةً يتغلغل في أعماق الجماعات ، فيقلب النظر في أخلاقهم ، فلا يزال يمارس هذه الأخلاق ، ويدون في ذهنه نتائج مراسه وتجربته ، حتى يكشف الغطاء عن أسرارها ، فيقذف في هذا المعنى بالرأي الخمير الذي لا تزيده الأيام إلا قوةً وتمكناً ، من هذا الباب كلامه على السفلة والوضعاء والمحقَّرين الذين إذا صار إليهم شيء من الأمر ظلموا وغشموا[٣] :

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الأول ص ١٥٢ .
(٢) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الأول ص ١٦١ .
(٣) كتاب الحيوان — الجزء السادس ص ٢٢ .

والـكبر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ، ولـكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم ، فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة ، كعبيدنا من السند ، وذمتنا من اليهود ، والجملة أن من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين أدنى قدرة ، ظهر من كبره على من تحت قدرته على مراتب القدرة ما لا خفاء به ، فإن كان ذمياً وأحس بما له في صدور الناس تزيد في ذلك ، واستظهرت طبيعته بما يظن أن فيه رقع ذلك الخرق ، وحياص ذلك الفتق ، وسد تلك الثلمة ، فتفقد ما أقول لك ، فإنك ستجده فاشياً ، وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ مَلَـكَةً من الحر ، وشيء قد قتلتُه علماً ، وهو أني لم أر ذا كبر قط على من دونه إلا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه » .

ونحن إذا تفقدنا ما قاله وجدناه فاشياً كل الفشو ، حتى نكاد نلمس بأيدينا هذه الأخلاق في كل جانب من جوانبنا ، فما أصدق قوله ، وما أبين رأيه ! لقد تعمق في روح الجماعات ، وأمعن في دراسة هذه الروح ، فبعد دراسته للحيوان و إظهاره لأخلاقه وطبائعه ، ومقابلته بين أصناف هذا الحيوان ، وكلامه على تعادي هـذه الأصناف ، بعد هذا كله يرتفع إلى أفق أعلى من أفق الحيوان ، فيصور عداوة الإنسان ، و يوضح أسباب هذه العداوات ، فيقول[١] :

« وأسباب عداوات الناس ضروب : منها المشاكلة في الصناعة ، ومنها التقارب في الجوار ، ومنها التقارب في النسب ، والكثرة من أسباب التقاطع في العشيرة والقبيلة ، والسَّاكن عدو للمُسْكِن ، والفقير عدو للغني ، وكذلك الماشي والراكب ، وكذلك الفحل والخصي ، و بغضاء السُّوَق موصولة بالملوك ، وكذلك [المعتَق عن دُبُر] ، والموصَى له بالمال الرغيب ، وكذلك الوارث والموروث ؛ ولجميع هذا تفسير ، ولـكنه يطول » .

فلو أحببنا أن نمتحن قوله في هذه الأيام ، لما وجدنا فيه انحرافاً عن الحق ، فليست

(١) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٣٠ .

آراؤه في الاجتماع إلا بنات تجربته وعيانه . وكما أنه درس أخلاق الجماعات العامة ، فكذلك درس أخلاقهم الخاصة ، وأمعن في هذه الدراسة في مثل كلامه على البخل أو على العشق أو على الحسد ، فلم يفته لون من ألوانها ، أو حركة من حركاتها ، أو هيأة من هيآتها ، ومن قرأ كتابه في الحاسد والمحسود تجلت له قدرته على تصوير الأخلاق الخاصة ، فيكاد يكون في هـذا الباب عالماً من علماء النفس ، يتصل بأجزائها فيقاربها ، ويخالطها ، ويعرض لكل ناحية من نواحيها ، ويصف هـذه الناحية أدق وصف ، ويصورها أتم تصوير ، حتى إذا فرغ من البواطن ، انتقل به الكلام إلى الظواهر ، فراقبها ، وتأمل فيها ، واستخرج منها صفاتها البارزة ، وخصائصها الظاهرة ، ولولا أني أعتقد أن في نقل طائفة من هـذا كله تشويهاً للمحاسن لنقلتها .

ماذا أنقل ؟ أأنقل هذا التعريف الوجيز الذي صور فيه بكلمتين داء الحسد ، فقال :

« والحسد أبقاك الله من داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود ، علاجه عسر ، وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداويه في عناء » ؟

فمن كان له صلة بحاسد من الحساد ، تجلت له صحة هذا التعريف ، وشعر بقوته ، فأي حاسد لم نر جسده منهوكاً ، وصدره ضجراً ، لا يملكه غمض الليل ، ولا يذوق لذة البال ، فلا تقع عينه على صاحب نعمة إلا اضطربت كل أعصابه ، وكأن الطبيعة عادلة ، فقد جعلت في قلب الحاسد عقابه ، وما هذا العقاب إلا النار التي تأكله .

أم أنقل حالة الحاسد الظاهرة :

« وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وشخوص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك » ؟

أم حالته الباطنة وهي تنحصر في :

« تراكم الغموم على قلبه ، واستكمان الحزن في جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنغص عمره ، وكدر نفسه ، ونكد عيشه » ؟

أم تمكن الحسد من صاحبه ، وسلطانه عليه :

« ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تشحينه وكتمانه ، حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه ، فيستعبده ويستميله ، ويستنقطه لظهوره عليه ، فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ، ومن الآسر على أسيره » ؟

أم وصفه علاج الحسد :

« فإذا أحسست ، رحمك الله ، من صديقك بالحسد ، فأقلل ما استطعت من مخالطته ، فإنه أعون الأشياء على مسالمته ، وحصّن سرك منه تسلم من شره وبوائق ضره ، وإياك والرغبة في مشاورته ، ولا يغرنك خدع ملقه ، وبيان زلقه ، فإن ذلك من حبائل نفاقه ، فإن أردت أن تعرف آية مصداقه ، فأدنين إليه من يهينك عنده ، ويذمك بحضرته ، فإنه سيظهر من شأنه لك ما أنت به جاهل ، ومن خلاف المودة ما أنت عنه غافل ، وهو ألح في حسده لك من الذباب ، وأسرع في تمزيقك من السيل إلى الحدُور » ؟

أم وصفه الحاسد نفسه :

« فهو الكلب الكلب ، والنمر النمر ، والسم القشب ، والفحل القطم ، والسيل العرم ، وإن مَلك قتل وسبى ، وإن مُلك عصى وبغى ، حياتك موته ، وموتك عرسه وسروره ، يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكذب كل عدل مرضي ، لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض إلا من يحبك ، عدوك بطانة ، وصديقك علانية » ؟

فإذا دققنا في هذه الأوصاف كلها تحقق عندنا ما قلته من أن الجاحظ عالم من

علماء النفس ، يبني علمه على تجربته ، ثم يصف ما توحي إليه هذه التجربة وصف صاحب صنعة وفن .

ولما كانت التربية والتعليم لا تبعد كثيراً عن الأمور الاجتماعية ، لم يشأ الجاحظ أن يكون غريباً عنها ، فقد أدلى في هذا الباب بدلوه ، وعلى بعد عهده عنا ، وعلى تقدم علم التربية والتعليم في عصرنا استطاع الجاحظ أن يأتي فيه بمذاهب تكاد تكون من أحدث المذاهب . أظن أن من أحدث قواعد التربية والتعليم التي نطبقها في مدارسنا تدريب الطالب على الاستنباط من دون أن يلجأ إلى الحفظ ، لأن الحفظ يسد عليه سبيل الاستنباط ، فيجمد عقله ، و يبلد ذهنه ، وهذا ما قاله الجاحظ في هذا الباب (١) :

« وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ ، لمكان الاتكال عليه ، واغفال العقل من التمييز ، حتى قالوا : الحفظ عذق الذهن ، ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين وعز الثقة ، والقضية الصحيحة ، والحكم المحمود أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ » .

وكتابه في المعلمين قد اشتمل على القواعد المتبعة في التعليم في أيام الجاحظ ، فهو يصور لنا أساليب التربية والتعليم في العرب .

ولم يكن نصيب الجاحظ من علوم الطبيعة بأقل من نصيبه من بعض فصول في الاجتماع والأخلاق والتعليم وما شابه ذلك ، إلا أنه قد يكون في آرائه الاجتماعية أصح فكراً ، وأقل خطأ ، أما في العلوم الطبيعية ، فالجاحظ على جلالة بعض أقواله فيها ، قد لا يسلم من خطأ ، فإن علوم الطبيعة قد تقدمت في السنين الأخيرة ، ولكن الأخلاق واحدة في العصور ، قديمها وحديثها ، فالحسد الذي صوره الجاحظ إنما هو شبه الحسد الذي نقاسي شره في أيامنا .

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد للكامل — الجزء الأول ص ١٩ .

خاض الجاحظ في كثير من علوم الطبيعة ، في الحكمة الطبيعية والكيمياء ، وتوسع في التاريخ الطبيعي ، وخاصة في علم الحيوان .

فلننظر إلى بعض آرائه في هذه العلوم .

كانوا في عصر الجاحظ ، يمزجون الدين بالعلم ، ومعنى هذا أنهم إذا جادلوا في أمر من أمور الدين استعانوا في بعض الأحوال بمذاهب العلم ، من هذا الشكل مجادلة الجاحظ لمجوسي عارضه ، وقد قرأنا هذه المعارضة في كلامنا على عصر الجاحظ في فصل حرية الفكر ، فمن قول الجاحظ :

« والماء ليس يجمد للبرد فقط ، فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر ، وقد تكون الليلة باردة جدًّا ، وتكون متغيرة ، فلا يجمد الماء ويجمد فيما هو أقل منها برداً ، وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنون ، وقد خبرني من لا أرتاب بخبره ، أنهم كانوا في موضع من الجبل يستغنون به بلبس المبطنات ، ومتى صبوا ماء في إناء زجاج ، ووضعوه تحت السماء ، جمد من ساعته ، فليس جمود الماء بالبرد فقط . . . » .

أما اليوم فإننا لا نرضى بهذا الرأي على علاته ، فإننا إذا بحثنا عن جمود الماء قلنا يجمد الماء ويزاد حجمه إذا وصل إلى درجة من الحرارة تبلغ الصفر في الميزان المئوي ، وجموده على صورة قطعة من جليد ، مركبة من بلورات مسدسات الشكل وكثافتها ٩١٨ ٪ .

وكما تعرّض للحكمة الطبيعية ، فقد تعرّض للتاريخ الطبيعي ، فهو من أصحاب مذهب التولد الذاتي ، وله في هذا المعنى حكايات كثيرة ، من جملتها قوله[(١)] :

« والذباب من الخلق الذي يكون مرة من السفاد والولاد ، ومرة من تعفن الأجسام والفساد الحادث في الأجرام ، والباقلاء إذا عتقَ شيئاً في الأنبار استحال كله ذباباً ، فربما أغفلوه في تلك الأنبار ، فيعودون إلى الأنبار ، وقد تطاير من

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٠ .

الكوى والخروق ، فلا يجدون في الأنبار إلا القشور ، والذباب الذي يخلق من الباقلاء يكون دوداً ، ثم يعود ذباباً ، وما أكثر ما ترى الباقلاء مثقباً ، في داخله شيء كأنه مسحوق ، إذا كان الله قد خلق منه الذبان وصيّره ، وما أكثر ما تجده فيه تام الخلق ، ولو تم جناحاه لقد كان طار » .

وله من هذا الشكل آراء كثيرة في كتاب الحيوان ، فهو يؤمن بحدوث الخلق من غير ذكر ولا أنثى ، ويخلق الديدان من الجيف[1] ويخلق القمل من العرق والوسخ إذا علاهما ثوب ، أو ريش ، أو شعر[2] .

لقد أبطل العلم هذه الآراء بمجامعها ، فقد دلّت تجارب « باستور » Pasteur على أن التولد الذاتي أمر ممتنع ، فكل حجيرة مصدرها حجيرة مثلها ، وكل حي لا يلده إلا حي مثله ، معنى هذا أن الأحياء لا تلدها المواد العضوية ، أو المواد المعدنية .

وقد كان للمتقدمين معتقدات غريبة في هذا الباب ، فقد زعموا أن القمل يلده لحم الإنسان ، وأن الديدان يلدها اللحم الفاسد ، وأن البق ينشأ عن اختمار الروائح وما شابه ذلك ، إن هذا كله قد ردّه العلم في أيامنا ، وإذا وجدنا الديدان في اللحوم ، فمعنى هذا أن الذباب باض في هذه اللحوم ، فلو منعنا الذباب عن البيض لامتنعت الديدان ، فإذا ظهرت أحياء في مادة عضوية ، أو في مادة معدنية ، فهذه الأحياء ناشئة عن أحياء مثلها تغلغلت في هذه المواد ، وما أكثر تجارب باستور في هذا المعنى .

وإلى جنب هذه الآراء الباطلة قد نجد للجاحظ آراء جليلة في العلم ، تكاد تكون من أحدث الآراء ، فالحيوان في بيئة ما يكون تركيب خلقته مناسباً لهذه البيئة ، فمن قول الجاحظ في الضب[3] :

« قالوا : من كَيْس الضب أن لا يتخذ جحره إلاّ في كُدْية ، وهو الموضع الصلب ، أو في ارتفاع عن المسيل والبسيط ، ولذلك توجد براثنه ناقصة كليلة ، لأنه يحفر في الصلابة ، ويعمق الحفر » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٤ .
(٢) « « الخامس ص ١١٢ .
(٣) « « السادس ص ١٢ .

أفرأينا كيف علل نقصان براثن الضب وكلالتها ، فبراثنه ناقصة كايلة لأنه يحفر في الصلابة ويعمق الحفر ، وهذا التعليل علمي محض .

وإلى جنب هذا كله بحثه عن غريزة الحيوان وعن إحساسه ، وما أحببت أن أستقصي في هذه الآراء ، فأدل على ما بطل منها ، وعلى ما صح في عصرنا هذا ، فإن هذا العمل إنما هو عمل العالم لا الأديب ، فإذا تفرغ علماؤنا لتدوين أطوار العلم في العرب ، استطاعوا أن يجدوا للجاحظ مادة واسعة في هـذا الباب ، وأما عملنا فإننا نقتصر فيه على إيجاز في الكلام على الجاحظ من حيث سعة عبقريته .

وبينما نجده يبحث أمثال هذه المباحث إذ يتفرغ لباب من أروع أبواب اللغة ، وهو باب حياة الألفاظ ، إنا نعلم أن لتغيير معاني الألفاظ أسباباً منطقية ، وأسباباً روحية ، وأسباباً أدبية ، فمن جملة الأسباب المنطقية الاستعارة ، فالاستعارة تنقل اسم الشيء إلى شيء غيره لصفة من الصفات ، يشترك فيها الشيئان ، فورقة الشجر تعير اسمها ورقة الكتابة بسبب الرقة التي تشترك فيها الورقتان ، فلننظر كيف يخوض الجاحظ في مثل هذا الفصل فيقول[1] :

« ثم سموا الآطام التي كانت بالمدينة للامتناع بها من الأعداء صياصي ، قال الله عز وجل : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم) ، والعرب تسمي الجارح وذا الجُنّة صاحب سلاح ، فلما كان اسم سلاح الديك وما يمتنع به صيصية ، سموا قرن الثور الذي يجرح صيصية ، وعلى أنه يشبّه في صورته بصيصية الديك ، وإن كان أعظم ، ثم لما وجدوا تلك الآطام معاقلهم وحصونهم وجُنّتهم ، وكانت في مجرى الترس والدرع والبيضة ، أجروهما مجرى السلاح ، ثم سموها صياصي ، ثم أسموا شوكة الحانك التي بها تهيأ السداة واللحمة صيصية ، إذ كانت مشبهة بها في الصورة ، وإن كانت أطول شيئاً ، ولأنها مانعة من فساد الحوك والغزل ، ولأنها في يده كالسلاح ، متى شاء أن يجأ به إنساناً وجأه به . وقال دريد بن الصمة :

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٨٥ .

نظرت إليـه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج الممدد

وقد تسمي العرب إبرة العقرب شوكة ، كما تسمي صيصية الديك شوكة ، وهي من هذا الوجه شبيهة بشوك النخل ، و يقال لمن ضربته الحمرة : قد ضربته الشوكة ، لأن الشوكة إذا ضربت إنساناً فما أكثر ما تعتريه من ذلك الحمرة .... »

ثم توسع في هذا الباب على هذا النحو .

هذا نمط من الأفكار التي عالجها الجاحظ ، يدلنا على شيء من سعة علمه ، وامتداد أفياء عبقريته ، ومن خصائص الذين يخوضون في أبواب كثيرة ، و يتعرضون لمذاهب شتى قلة التعمق ، فقد تعرض لهم أفكار كثيرة لانبساط ثقافتهم ، فيلمون بها إلماماً ، ولا يتعمقون فيها تعمقاً ، فهم يفهمون كل ما يقع عليه نظرهم ، ولـكنهم لا يفهمونا إياها في بعض الأوقات على نحو فهمهم لها ، فالجاحظ من هـذا القبيل في بعض مباحثه ، فهو يلهو بالمعاني لهواً ، فيخرج من فكر إلى فكر ، ومن معنى إلى معنى ، ولكنه يضرب في آفاق كل المعاني ، ويجول في ميدان كل الأفكار ، أيُّ كتاب من كتبه ، بل أي سطر من سطوره لا يوطىء للقارىء مجال التفكير ؟ وسواء أتوسع في أفكاره ، أم ألم بها إلماماً ، إنه عظيم ، ولست أدري هل أورثتنا عبقرية العرب أعظم منه ؟ فهل نعرف حياة أوسع آفاقاً من حياته العقلية ، وذهناً أخصب تربة من ذهنه ، وفكراً أشد انطلاقاً من القيود من فكره ؟ لقد ذاق لذة الحياة العقلية وتقلب في أعطافها ، فخالط عالم الأفكار ، واستأنس بهذا العالم ، فلم يستوحش من ناحية من نواحيه ، خاطب العقل في قرن متكامل ، ولكن هل نعلم أي عقل خاطبه ؟ لقد خاطب العقل الذي يكره كل باطل من الأباطيل ، وكل قيد من القيود ، فما كان عقله يأنس إلا بضياء الأشياء ، وما كان هـذا العقل ينقبض إلا عن ظلامها ، ففي كل يوم كان يطلع على العالم بأفكار حديثه ، فما كان غذاؤه إلا الأفكار وإلا المعاني ، لقد سكر كل حياته بألوان الأدب ، و برنّات ألفاظه ، وثمل كل عمره من لذة العلم ، فجعل هذا الأدب وهذا العلم نزهة عقله ، ومشحذة طبعه ، ونجح نفسه ، وعمارة صدره !

فن الجاحظ

قد تعتق طائفة من مذاهب الجاحظ في العلم ، أو قد تبلى جملة من آرائه في الفلسفة ، فالعلم لم يثبت على حال من الأحوال ، والفلسفة لم تجمد على شكل من الأشكال ، فهما عرضة للتغيير في كل عصر من العصور، فلكل زمن معتقداته وآراؤه ، ولكن الجاحظ إن لم يخلّده علمه أو فلسفته ، خلّده فنه ولغته .

لقد قضيت أياماً وأنا أفكر في فن الجاحظ ، كيف أشرع في الكلام على هذا الفن ؟ وكيف أفرغ من هذا الكلام ؟ واشتدت حيرتي لما طالعت طائفةً من كتب الإفرنجة ، ورأيت كيف يبحثون عن فن شعرائهم، أو كتابهم، أو خطبائهم، وأظن أنه سيمضي على أدبنا حين من الدهر قبل أن نصل إلى ما وصلوا إليه في هذا الباب .

إن لهم أسلوباً في البحث عن الفن لم يعهده أدبنا بعدُ ، فلا يكتفون بالإشارة إلى جزالة الكلام ، أو إلى رقته ، أو إلى محاسن التشبيهات والكنايات ، وغير هذا من الصور، ولكنهم يعرضون لألفاظ الكاتب ، فيبحثون عن هذه الألفاظ بحثاً مستفيضاً من حيث دلالتها على المعنى من طريق الحقيقة ، أو من طريق المجاز ، أو من حيث رنات هذه الألفاظ ، أو من حيث دلالتها على لون من الألوان ، أو على صوت من الأصوات ، أو من حيث إنها مجردة أو محسوسة ، إلى غير هذا من دقائق البحث ، ثم يبحثون عن النعت والمنعوت ، ثم يبحثون عن الفعل ، إلى أشباه هذه المباحث التي لا أجد لها في أدبنا نظيراً .

قضيت أياماً وأنا أفكر كيف أشرع في الكلام على فن الجاحظ ، وخاصة بعد أن تراءى لي تقصيرنا في هذا المجال ؟ وقلت في نفسي : وما أنت قائل في هذا المعنى ؟ وكيف أنت داخل هذا الباب ؟ أم كيف أنت خارج منه ؟ وخاصة فإنه أجل أبواب الجاحظ التي تدل على خلوده في الأدب .

أحبَّ الجاحظ الحياة حبًّا جمًّا ، فصوّر كل معرض من معارضها ، ولوّن كل صورة من هذه الصور بحقائق ألوانها ، فكان إفصاحه عن شعوره بالحياة خالصاً من كل تصنع ، فألبس كل معرض من المعارض ضرباً من اللباس ، وجعل لكل صورة من الصور نوعاً من الخطوط والألوان ، جرياً على قاعدته الغالبة : لكل مقام مقال .

ومن ولعه بهذه القاعدة ، وحرصه على أصولها ، تعلق الجاحظ بحرية الصيغ و بمرونتها ، فهو يتوخى الأساليب التي يخاطب بها الناس على مقادير عقولهم ، فمرة يخاطب بلغة العقل ، ومرة بلغة الحواس ، وهذا كله دليل على حرية عبقريته ، وحرية فنه .

لقد عرفنا كيف كانت حياة الجاحظ العقلية ، ووقفنا على نشاط فكره ، وعلى رغبته في التطلع ، ورأينا كيف يميل إلى ذوق الأفكار ، وإلى تمحيصها ، وكيف يسلك إلى التمحيص مسالك شتى ، مرة يستظهر بعقله ، ومرة بالتجربة والعيان ، فكل همه مصروف إلى معرفة الحق . وقد دفعه شغفه بهذه المعرفة إلى اجتناب كل كلفة ، وكل صيغة شعرية في علمه ، مما يبعد الأشياء عن حقائقها .

فلذلك كان فنه في أبواب العلم والفلسفة مبنيًّا على العقل وحده ، فهو في هذه الأبواب قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعُريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، على نحو ما قاله فيه البديع في مقامته الجاحظية ، لأنه في العلم والفلسفة يخاطب العقل وحده ، ولغة العقل مجرّدة ، والتجريد من خصائصها ، فالجاحظ قليل الصور في علمه وفلسفته ، حتى إذا اضطر إلى تشبيه في أثناء كلام له على بعض الحيوان ، قرّب تشبيهاته ، ولم يغلُ فيها ، بحيث تكون على مقربة من حواسنا ، تدركها هذه الحواس دون شيء من النصب والكلفة .

من هذا الشكل تشبيهه الذر بالخيط الأسود الممدود (١) :

« فلا يلبث ذلك الإنسان أن يراها قد أقبلت ، وخلفها صويحباتها كالخيط الأسود الممدود » .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣ .

هذه صورة محسوسة ، فإنه لم يغلُ في المشبه به ، ولا في لونه ، ولا في هيأته ، فالخيط والسواد والمدّ ، كل هذا من الصور التي تراها العين لأول وهلة .

ولو عرضنا طائفة من تشبيهاته لوجدناها بمجامعها على هذا النمط ، وهذه بعض الأمثال :

البعوضة مع صغر جسمها تفسخ الإنسان في أسرع من الإشارة باليد ، والحية تسقط أسرع من اللمح ، والشعر الذي يكون تحت حنك الكلب كأنه طاقة ، وساقا الكلب كأنهما خشبة من صلابتهما ، والحية انتصبت كأنها رمح مركوز ، أو عود ثابت ، والخصي كأن السيوف تلمع في لونه ، وكأنه مرآة صينية ، وكأنه وذيلة مجلوة ، وكأنه جمارة رطبة ، وكأنه قضيب فضة قد مسه ذهب ، وكأن في وجناته الورد .

وإذا أحب في غير أبواب العلم أن يبرز بعض صفات في معارض مصوَّرة ، لجأ إلى تشبيه الموصوف بأشخاص معروفين مشهورين ، حتى يكون المشبه به على مقربة منا ، كوصفه أحد البخلاء [1] :

« وكان يستعمل على خوانه من الخدع والمكائد والتدبير ما لم يبلغ بعضه قيس ابن زهير ، والمهلب بن أبي صفرة ، وخازم بن أبي خزيمة ، وهرثمة بن أعين ، وكان عنده فيه من الاحتيال ما لا يعرفه عمرو بن العاص ، ولا المغيرة بن شعبة » .

إنه لا ينزع في تشبيهاته إلا إلى ما يقرب من طريقته التي لجأ إليها كل حياته ، في كل مذهب من مذاهبه ، وما هذه الطريقة إلا الطريقة الحسية ، حتى إنه كثيراً ما يشبه بحاسة من الحواس ، كاليد ، أو كاللمح ، فكل صوره محسوسة .

لم يكن فنه في العلم والفلسفة إلا فن الفلاسفة والعلماء الذين ينصرفون إلى حل الأفكار ، والتنقيب عن صيغ العالَم ، فهم لا يلتمسون من الألفاظ إلا دلالتها على الأفكار دلالة وجيزة ، فالجاحظ يجرد كلامه من العناصر التي تجعل للكلام خصائص

(١) كتاب البخلاء ص ٨١ .

فنية ، فهو لا يجعل للصور مقاماً في كلامه ، و إنما المقام للعقل وللتمييز ، فكل تنميقه مداره على صحة البيان .

إن فن الجاحظ العلمي إنما هو فن الرجل الذي يخاطب العقل ، وأسلوبه فياض بالمعنى و بالمادة ، فهو يقذف بأفكاره كما هبطت عليه ، فكأن كتاب الحيوان ضرب من أحاديث في العلم والفلسفة ، ولكنها أحاديث ينيرها عقل رجل فنّان ، خفيف الروح ، فكأن الجاحظ في هذا الكتاب رجل مكسال ، فهو يخاف روح الترتيب ، فلا يريد إلا الحديث من دون أن يستفرغ جهده في الترتيب ، حتى يكاد القارئ يضيع في كثرة الاستطرادات وتعاظل الموضوعات ، وكما أنه لم يتعب في قذف أفكاره ، فكذلك لم يتعب في قذف ألفاظه ، فألفاظه تنفجر من ينبوع لغته الذي لا ينضب ، كما تنفجر أفكاره من ينبوع عقله الذي لا ينشف .

ولهذا الميل المستحكم فيه ، وأعني به الميل إلى الصيغ العقلية ، كان شعر الجاحظ بعيداً عن أن يكون ضرباً من الشعر ، فالجاحظ ، على نحو ما قاله فيه البديع ، في أحد شقي البلاغة يقطف ، وفي الآخر يقف ، فمن شعره قوله :

يطيب العيش أن تلقى حليماً   غذاه العلم والرأي المصيب
ليكشف عنك حيرة كل ريب   وفضل العلم يعرفه الأريب

فإذا دققنا في ألفاظ هذين البيتين ، كالعلم والرأي والحيرة والريب ، تبين لنا أنها ألفاظ مجردة ، والشعر لا يعرض علينا الأفكار المجردة كما يفعل النثر ، ولكنه يعرض علينا حقائق هذه الأفكار المحسوسة ، حتى نكاد ندرك الأفكار ذاتها ، وظواهر صيغها ، كل هذا في شكل مرصوص ، كأنه بناء مبني لا خلل فيه ، فالشعر غرضه أن يعرض الفكر في معرض ظاهر ، فهو يتحامى التجريدات ومصطلحات العلم ، واستدلالات الفلسفة التي هي من خصائص النثر ، فهي تجعل الشعر في عالم يختلف عن عالم الخيال ، وعالم الصيغ المحسوسة[١] ، وفن الجاحظ ممزوج بهذا الاصطلاح

(١) راجع كتابي : المتنبئ ، فصل سحر العبقرية .

العلمي ، والاستدلال الفلسفي ، فما أبعده عن أفق الشعر ، وإذا مال في شعره إلى شيء من التصوير ، كالتشبيه بوشي البرود وما شاكله ، فلا نجد في تصاويره نوعاً من الإبداع ، وإنما يصب فيها على قوالب محفوظة ، ويذهب فيها مذاهب مألوفة .

غير أن الجاحظ لم يحبس نفسه على مذاهب العلم والفلسفة ، فقد أحب الحياة كما قلت ، وصور كل مشهد من مشاهدها ، وإنما جعل لكل صورة خصائصها ، فإذا أعطى الفلسفة والعلم مقاديرهما من الفن ، فهل قصر عن إعطاء غيرهما من معارض الحياة ما يستحقه من لوازم الفن ؟

إذا جاوزنا أفق العلم والفلسفة الذي جال فيه الجاحظ كل مجال ، وبنى فنه فيه على أصول العقل وجدنا أن فن الجاحظ قد دخل في طور آخر .

هل كان الجاحظ مصوّراً .

يقولون : المصوّر يبحث عن الألفاظ الدالة على المعاني من طريق الحقيقة دون المجاز ، المصوّر يبحث عن الألفاظ المحلية ، والألفاظ الفنية ، وعن صحة النعت .

فلنعمد إلى صورةٍ من صور الجاحظ ، كصورة قاضي البصرة عبد الله بن سوار ، قال الجاحظ[1] :

كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال له عبد الله بن سوّار ، لم ير الناس حاكما قط ولا زِمِّيتاً ولا ركيناً ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذي ضبط وملك ، كان يصلي الغداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه ، فيحتبي ، ولا يتكئ ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يحوّل رجلاً على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى محله ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠٦ .

إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلي العشاء [الأخيرة] وينصرف ، فالحق يقال : لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ، ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها ، وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ، ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم ، [ثم يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة] ، فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه ، وفي السماطين بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث ، ثم تحول إلى مؤق عينيه ، فرام الصبر في سقوطه على المؤق ، وعلى عضه ونفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته ، أو يُغَضِّنَ وجهه ، أو يذب بإصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله ، وأوجعه ، وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن والَى بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف ، وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد في شدة الحركة ، وفي فتح العين ، وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره ، وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدًّا من أن يذب عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيون القوم إليه ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ما رد يده ، وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أُمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألحّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عزّ وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمت أني عند الناس من أزْمَتِ الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب).

وكان بيّن اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً في أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض أصحابه للمنالة » .

فلنرجع بعد أن قرأنا هذا الوصف إلى كل دقيقة من دقائقه .

للصورة في عصرنا هذا شروط خاصة ، فمن خصائص الصورة أن يفصّل المصوّر على وجه عام هيأة الموصوف ، كالكلام على قامته ، وعلى لونه ، وعلى عينيه ، وعلى شعره ، وعلى أسنانه ، وما شابه ذلك ، فيتكلم على محاسن هذه الهيأة ، أو على مساويها ، فإذا فرغ من هذا كله تكلم على خصائص عقله ، فوصف محامد هذا العقل ، أو مقابحه ، ما بطن منها وما ظهر ، فإذا فرغ من هذا تكلم على قلبه ، فوصف مختلف عواطفه وأهوائه .

ليس في هذا الرسم شيء من المصاعب ، وإنما المصاعب أن يفصح الواصف عن كل شكل من الأشكال ، بلهجة من الكلام خاصة ، تباغت القارئ ، فتسليه وتسره .

أهمل الجاحظ الكلام على هيأة القاضي ، فلم يصف لنا شيئاً من قامته ، أو لونه ، أو عينيه ، أو شعره ، أو غير ذلك من ظواهره ، ولكنه لم يهمل الكلام على جلسته ، كيف يجلس هذا القاضي :

« يأتي مجلسه ، فيحتبي ولا يتكىء ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يحوّل رجلاً على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه إلخ ... » .

قلت : المصور يبحث عن الألفاظ الدالة على المعاني من طريق الحقيقة ، لا من طريق المجاز ، فإذا دققنا في هذه الألفاظ التي لجأ إليها الجاحظ ، وجدنا أنها بعيدة عن المجاز ، ولما اضطر إلى تشبيه هذا القاضي في وقار جلسته ، رجع إلى عادته في التشبيهات المحسوسة ، فشبهه ببناء مبني ، وبصخرة منصوبة ، فلم يغل في هذا التشبيه ، وإنما كانت الصورة على مقربة من حواسنا ، فهي مثل قوله : « كالخيط الأسود الممدود » .

فالجاحظ في تصويره يعمد إلى الألفاظ التي تفصح عن المعاني من طريق الحقيقة ، وإذا لجأ إلى المجاز ، وقليلا ما يلجأ ، فإنه يقرب ولا يبعد .

وكما يبحث المصور عن هذا الضرب من الألفاظ ، فكذلك يبحث عن الألفاظ الفنية ، فلما قال الجاحظ : « ثم ربما عاد إلى محله ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق » ، لما قال الجاحظ هذا القول استعان بالألفاظ الفنية ، ما هي هذه الألفاظ ؟ « العهود والشروط والوثائق » ، هذه هي مصطلحات القضاة .

وكما لم يهمل الجاحظ الكلام على جلسة القاضي ، فكذلك لم يهمل الكلام على محاسن صفاته ، ففي ثلاث كلمات وصف هذه المحاسن ، فقال : « لم ير الناس حاكماً قط ولا زِمّيتاً ولا ركيناً ، ولا وقوراً حليما ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذي ضبط وملك » .

وبعد أن فرغ من الكلام على صفات عقله ، تكلم على بعض صفات قلبه ، ما هي هذه الصفات : الشعور الديني البارز في صلاة الظهر ، وصلاة العصر ، وصلاة المغرب ، وصلاة العشاء في أوقاتها .

لاشك في أن الجاحظ لم يطل الكلام على هذه الصفات كلها ، وإنما وصف منها ماله متعلق برجل قاض ، لم تكن للصور في عصر الجاحظ القواعد التي لها في عصرنا ، ولكن الجاحظ لم يغفل عن الكلام على الأشكال بلهجة تباغت ، فتسلي وتسر ، فمن هذه التسلية ومن هذه المسرة : سقوط الذباب على أنف القاضي ، وإطالته المكث ، وتحوله إلى مؤق عينيه ، والمباغتة فيهما ، وصبر القاضي على عضه ، وعلى نفاذ خرطومه من غير أن يحرك أرنبته ، أو يغضّن وجهه أو يذب بإصبعه .

ومن هذه التسلية ومن هذه المسرة ، إطباق القاضي جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، ومولاته بين الإطباق والفتح ، وتحريكه أجفانه ، وزيادته في شدة الحركة ، والمباغتة فيهما ذب القاضي عن عينيه بيده ، وبطرف كمه .

فالجاحظ مصور من أكبر المصورين ، وتكاد تكون قصة القاضي عبد الله بن سوار مثال التصوير في أدبنا ، فقد جرّ الجاحظ إلى هذا القاضي انتباه القارئ ، فثبّت انتباهه هذا في مختلف أوضاعه ، وولّد عن هذه الأوضاع أفكاراً ، وألف بين هذه الأفكار ، فالصورة لم تكن حلاً مجرداً ، وإنما هي رسم حقيقي ، إنما هي معرض من معارض الحياة ، ليس فيها شيء من أوصاف العقل ، أو العاطفة ، مما لا تقع عليه عين ، وإنما فيها وصف شيء تراه العين ، فهي صورة واضحة قوية صُوِّر فيها وضع من الأوضاع في مختلف حالاته .

لا شك في أنا نلاحظ أن من أساليب الجاحظ في هذه القطعة الترديد ، فمن ترديده قوله : « فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر . . . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر . . . فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب . . . » .

والترديد وسيلة من وسائل الفن ، فإن الكلمة المرددة توضح الفكر أحسن توضيح ، فتوحي المعنى إلى الذهن ، وتستثير هذا الذهن ، فإن اللفظة إذا رددت كان لترديد جرسها تأثير في تثبيت العناصر في الذهن .

وكثيراً ما يلجأ إلى هذا الباب ، فمرة يردد النعت ذاته ، كقوله في قصة محمد بن أبي المؤمل في البخلاء :

« ولم يكن أكله إلا على قدر أكله إذا أتى بذلك في طبق نظيف ، مع خادم نظيف عليه منديل نظيف » .

ومرة يردد الفعل كقوله في وصف سحابة (١) :

«فإذا سحابة ضحياء تكاد تمس الأرض . وتكاد تمس قمم رؤوسهم ...ثم قوله : ثم إنها دفعت بأشد مطر ... ثم اندفعت بالضفادع العظام ... ثم اندفعت بالشبابيط»

أو قوله (٢) :

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٦٨ .
(٢) « « السادس ص ١٠٢ .

« ومن العجب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله ، ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله ، ويريغ القنفذ الأفعى فيأكلها ... »

فكرر كلمة « تأكله » ثماني مرات في خمسة سطور ، وما يقال في الترديد يقال في لجوء الجاحظ إلى استعمال اللفظ وضده إظهاراً للمعنى ، فالغاية التي يؤدي إليها ترديد النعت ، أو الفعل ، أو الاسم ، إنما هي شبه الغاية التي يؤدي إليها استعمال اللفظ وضده ، فكل هذه الوسائل إنما المقصد منها تثبيت الفكر في الذهن .

هذه عناصر يسيرة يتركب منها بناء الجاحظ ، أما جملة البناء فإن لها أشكالاً شتى : مرة تتموج عبارته فتنبسط ، ثم تمتد حتى تغيب عن النظر ، فلا يقف بنا كلامه إلا بعد شيء من التعب ، ونماذج هذه العبارة كثيرة ، منها قوله في وصف الكتاب[١] :

« وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل ويبقى أثره ، ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم ، لقد خَسَّ حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة » .

ومرة يقطعها تقطيعاً كأنها ألحان موسيقى ، كل لحن له رنته[٢] :

« اللهم إنا نعوذ من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ، ونعوذ بك من السلاطة والهذر ، كما نعوذ بك من العي والحصر » .

فيأخذ كلامه في مثل هذا التقطيع نصيبه من الراحة ، ويمهد للقارئ مثل هذا النصيب .

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الأول ص ٤٢ .

(٢) مقدمة البيان والتبيين .

ومرةً يرسل الكلام إرسالاً لا يبالي بتموجه وتقطيعه ، من هذا القبيل كلامه في البخلاء ، وفي كثير من كتاب الحيوان .

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الصور التي يعرضها علينا الجاحظ قليلة ، وهي صور قريبة لا تتعب الحواس في إدراكها ، وإنما الجاحظ إذا أراد أن يصبغ فنه عمد إلى صباغ من غير الجنس الذي نعهده ، فهو يحيي فنه و ينفخ فيه روحاً بلجوئه إلى توضيح حقائق التفاصيل ، إنه يصور الأفكار بريشة الحوادث نفسها ، فيختار لها أحوالاً وخصائص ترينا هذه الأفكار ، فإذا أردنا أن نعرف نموذجاً من هذا الفن ، فلترجع إلى كلامه على ذرء الحمام وطلبه الولد (١) ، ليس في هذا الكلام شيء من الصور ، وإنما فن الجاحظ فيه تصوير الأفكار ذاتها بتفصيل دقائقها ، وأكثر كلام الجاحظ على هذا النمط .

وإذا شاء الباحث أن يستوفي خصائص فن الجاحظ أوشك أن ينقطع به الكلام ، وأظن أن في هذا القدر إشارة إلى فنه كافية . بقي علينا أن نعرف كيف عالج الجاحظ لغة هذا الفن ، وكيف زاولها ؟

أحاط الجاحظ بخصائص اللغة ، ووقف على مجاريها ومصارفها ، وتبحّر في جلائلها ودقائقها ، فقد ذكرت أنه صوّر كل معرض من معارض الحياة ، ولكن الكاتب إذا شاء أن يصور الحياة على هذا الشكل لزمه أن يحب الكلمة ، وأن يشعر بها كما يشعر بكل جزء من أجزاء الحياة ، وهذا ما انصرف إليه الجاحظ ، فكل ما يمكنه الكاتب أن يصنعه بالألفاظ صنعه الجاحظ ، فقد عرض على ذهنه مفردات اللغة بحذافيرها ، ثم ألف بينها تأليفاً محكماً ، عرض مفردات العلوم والصناعات ، ومفردات الحركات والأفكار ، ومفردات الجد والهزل ، والخلاصة عرض مفردات العالم بمجامعها .

أعظم خصائص الجاحظ في هذا المعنى تفقهه في اللغـة ، فهو ينزل اللفظ في منازله ،

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٤٦ .

ويصبه في قوالبه ، بحيث لو فتشنا عن لفظ آخر للمعنى الذي يمثله لنا لما وجدنا لفظاً غيره يقوم مقامه ، أو يسد مسده ، ولم يقتصر في هذا التفقه على باب من أبواب المعاني ، أو على نوع من أنواع الأفكار ، وإنما أعطى المعاني حقوقها من الألفاظ في كل فن من الفنون ، في الطب والفلسفة والصناعة والعلم ، وفي غير هذا كله من مذاهب الفكر ، فلا نجد في فلسفته إلا ألفاظ الكم والكيف وما يماثلهما من مصطلحات الفلاسفة ، وكذلك شأنه في كل باب من الأبواب ، فهو يستعمل لكل معنى من المعاني اللفظ الذي خلق لهذا المعنى ، فإذا أحب مثلاً أن يصور لنا كسر الأعضاء قال : فقأ العين ، وهشم الأنف ، وهتم السن ، ودق العظم ، وإذا أحب أن يمثل تجريد الأجسام من أغطيتها قال : سلخ الجلد ، ونفض الورق ، وكشطت الشمس جلودهم ، وكذلك لغته في تصوير فساد الأجسام ، كقوله : نغلت الجبنة ، أو في تصوير أصوات الحيوان ، كقوله : شحيج البغل ، ونهيق الحمار ، أو في تصوير الشرب ، كقوله : يلغ في الدم ، أو كقوله : الحسو والعبة والنغبة ، أو في تصوير بيوت الحيوان ، كقوله : الأفاحيص والتماريد إلى غير ذلك من خصائص تفقهه ، فهو آخذ بمخنق اللغة لا يفوته لفظ من ألفاظها ، ولا يغفل عن سر من أسرارها .

وإذا عمدنا إلى آثار الحياة الخاصة ، وجدنا أن الجاحظ قد أتقن لغة كل أثر من هذه الآثار مهما يكن حقيراً ، فقد أتقن لغة البخيل مثلاً ، فهو يستعمل في تصوير البخل ألفاظ البخلاء ، كالحبات والقراريط والدوانيق والأرباع والأنصاف وأشباهها ، وأتقن لغة الطبخ كالشواء والإنضاج واستحلاب الدسم ، وتعرق العظم ، والقفار ، والمسمون ، وأتقن لغة الطعام بحذافيرها كالشبارقات والأخبصة والفالوذجات وما يقاربها ، وأتقن لغة الماعون ، كالجفنة الأعشار ، أو القصعة المشبعة ، أو الجرة المكسورة العروة ، أو الحب المقطوع الرأس .

إنا نذكر أن الجاحظ يميل في فنه إلى الصور المحسوسة القريبة من كل حاسة من حواسنا ، وكما أولع بالصيغة المحسوسة ، فقد أولع باللفظة المحسوسة التي تؤثر في

حواسنا ، فكأنما صاغ لغته ليعرض على أنظارنا أشكال هذا العالم الظاهر ، عالم الحركات والهيآت والطعام واللباس وأضراب ذلك ، فلسنا نجد في لغته إلا أمثال قوله : تغمس خراطيمها ، يقطوس لها ، يتموج في إهابه ، يتخلج ، تعاريج ريشه ، تهاويل ألوانه ، التوبير ، إلى أشباه هذه اللغة المحسوسة .

ومن ولعه بهذه الطبقة من الألفاظ ، كان الجاحظ لا يتحامى في بعض الأوقات ألفاظاً نجدها في عصرنا هذا بارزة عن ظل الطهارة ، كألفاظ المناكح وما ضارعها ، ولا عجب في ذلك ، فإن الجاحظ من أصحاب الأدب الواقع .

وعلى الرغم من تبحر الجاحظ في اللغة وتفقهه فيها ، فإنه لم يجمد في هذه اللغة ، فقد تتبع مذاهب الفكر ، وأعطى كل طور من أطوار هذا الفكر حقه من الكلمات فإذا عرضت له طائفة من خصائص بعض الحيوان ، كالجاموس وكالخنزير ، أو من خصائص بعض الأجسام كالنار ، اشتق هذه الخصائص من الأسماء نفسها ، فقال : الجاموسية والخنزيرية والنارية والحيوانية والجوهرية ، وعلى هذه الصورة أثبت أن لغة العرب مستعدة للحياة ، متأهبة لمجاراة أوضاع هذه الحياة ومذاهبها .

وقد ذهب في هذا كله مذهباً أبعد ، فلم يتجنب في بعض الأوقات الألفاظ الأعجمية ، كلفظة : سوارست وأمثالها .

وتغلغل في روح العامة ، فاستأنس بمصطلحاتهم ، وانبسط إلى تعابيرهم ، فما كان ينقبض عن استعمال ألفاظهم في تضاعيف كلامه ، كالمخطراني ، والكاغاني ، والقرسي والإسطيل ، والمزيدي ، والمستعرض ، والمكدي ، والزكوري ، وما شابه ذلك ، فكأنما أراد أن تكون الحياة ملازمة للغته ، لا تفارقها طرفة عين ، فلسنا نعرف كاتباً لعب باللغة مقدار لعب الجاحظ .

وإذا وجدنا في بعض لغته شيئاً من الغموض ، فقد تكون هذه الألفاظ الغامضة ألفاظاً تاريخية ، وأريد بها الألفاظ التي كانت تدل في عصر الجاحظ ، أو في العصور التي تقدمته على معنى من المعاني ، كالطعام واللباس والسلاح وما ماثل ذلك ، ثم

ذهب هذا المعنى بذهاب الذين كانوا يستعملونه ، فبقي الاسم وانطوى المسمى ، فلا نستطيع أن نتصور الاسم ، لأننا لا نرى المسمى ولا نعرفه ، من هذا الشكل أسماء بعض الطعام ، كالعنب النيروزي ، والعنب الرازقي ، أو أسماء بعض اللباس ، كالقلنسوة الخدرية ، أو أسماء بعض السفن ، كالجعفرية مثلاً .

***

هذا آخر ما خطر بالبال من الكلام على لغة الجاحظ ، فقد أدركنا أن اللغة ألقت إلى الجاحظ طاعتها ، فصرفها في كل شيء . وما أريد أن أفرغ من هذا الموضوع قبل أن أبين على سبيل الاستشهاد مقدار اهتمام الإفرنجة باللغة ، وبانتخاب الألفاظ .

قال أناتول فرانس Anatole France في مقال له ، بحث فيه عن أسلوب لا فونتين La Fontaine :

« كان لافونتين يولع بالكلمات ، ويعرف كيف ينتخبها ، ولا يكون المرء كاتباً إلا إذا أحسن اختياره للألفاظ ، فالكلمات هى أفكار ، ولا سبيل إلى الإصابة في الحكم إلا بالتمكن من النحو والمفردات الصحيحة ، وأظن أن الشعب الأول في العالم إنما هو الشعب الذي يملك أحسن الأصول فى النحو وتنسيق اللفظ ، قد يقع في أغلب الحالات أن الرجال يتناحرون بسبب كلمات لا يدركون معانيها ، ولو فهم بعضهم كلام بعض لتعانقوا ، ولا شيء يعمل على رقي العقل البشري مثل معجم يضيء ظلمة كل شيء » .

يحب لا فونتين العبارات القديمة ، فإذا وقع نظره على كلمة قديمة جزلة المعنى ، استخرجها من موضعها ، وضمنها شعره في المقام المناسب .

« كان كثيراً ما يقرأ الروايات . وقد قرأ منها قديمها وحديثها » .

وإلى القارئ الكريم صفحة من كتاب : الخطيب العصري لصاحبه رودس Raudés ، أختم بها كلامي على الجاحظ ، قال « رودس » :

« أما وقد عرفتم كيف السبيل إلى استخراج المعاني من مكامنها ، والمعاني هي مادة الخطاب ، والركن الذي يبني عليه ، ولولاها لما تمهدت لكم المداخل على الكلام ، أما وقد عرفتم هذا كله ، فقد لزمكم أن تتبسطوا في استظهار المفردات حتى تتمكنوا من الإفصاح عما يزدحم فى صدوركم من متباين المعاني ، على أشكال تستعطفون بها القلوب ، وتجعلون للمعاني رونقاً وحياة .

أجل لقد لزمكم أن تحفظوا من الألفاظ ما أعان عليه الإمكان ، حتى لا ترتبكوا في الكلام ، فإذا فاتكم لفظ من الألفاظ لجأتم إلى غيره ، وإذا وردتم معنى من المعاني تيسر لكم الصدود عنه ، فبدلتم وعدلتم من غير أن يساوركم شيء من العجز عن ذلك .

ومن قل حفظه للألفاظ ، صعبت عليه مذاهب البيان ، فلا يجد إلى الإفصاح سبيلاً ، فإذا لم يجتمع في الذهن طائفة كبيرة من الألفاظ التي تضافر على توضيح معنى من المعاني ، ذهب هذا المعنى من الصدور ، وإذا لم تأخذوا أنفسكم باستظهار الألفاظ والتعمق في الإلمام بمعناها الحقيقي والمجازي والوقوف على ما يشاكلها ويجانسها ، وعلى مايخالفها وينافرها ، أخفقتم ولم تظفروا بحوجائكم من البيان .

كان الشاعر « تيوفيل غوتيه » يقرأ على ما يظهر صفحة من معجم لغوي في كل يوم ، ومن المحتمل أن بلزاك ، وبودلير ، وفلوبر ، وكلهم كتّاب واقفون على أسرار اللغة بمجامعها ، كانوا يمعنون في هـذه الكتب الضخمة (المعجمات اللغوية) ، التي تشتمل على عبقرية الأمة ، وتنعكس فيها مظاهر حضارتها ، على تباينها فى متعاقب الأحقاب .

فمن الصواب على ما أعتقد ، أن نتقيل طرائق هؤلاء الكتاب ، فنقرأ في كل يوم صفحة من صفحات المعاجم اللغوية ، فإن كثيراً منا يثابرون على تلاوة روايات الجرائد ، فلم لا نجد من يطالع صفحة من صفحات لاروس Larousse .

ربّ كلمة تمرُّ بذهن رجل ذي مخيلة ، فتمثل له في ذهنه عالماً بجملته ، أو حكاية ، أو نادرة من نوادر التاريخ ، أو منحى من مناحي الطبيعة ، أو مدينة من المدن ،

أو عصراً من العصور ، وليس من السآمة فى شيء أن ينتقل الفكر من مبتدإ الأزمان إلى منتهاها ، ومن العلل والمقدمات إلى النتائج ، ومن هوميروس إلى هوغو ، وأن يجمع المرء من الألفاظ ما ينفعه في غده .

بيد أن معرفة الألفاظ وحدها لا تكفي المرء مؤنة الإبانة عن هواجس فكره على صورة تلائم ، وأسلوب يناسب ، فإن من الضروري أن يعرف المرء كيف يصل هذه الألفاظ بعضها ببعض ، وأن يركب منها جملة صحيحة ، واضحة المرمى ، يسهل على الذين يسمعونها إدراكها ، وفهم معانيها ، والسبيل إلى ذلك أن يستخرج المرء من الكتب والخطب العبارات الجميلة بانسجامها وتناسقها .

وعلى هذه الصورة تجمعون لأنفسكم مجموعة تضمون إليها في كل يوم طرائف حديثة ترجعون إليها ، فيتدرب ذهنكم على أساليب البيان ، وتقفون على اتصال الألفاظ بعضها ببعض ، فيكون لكلامكم رقة وطلاوة » .

فهرس

الصفحة

٣ مستهل القول

٢٠ أول عهدي بالجاحظ

٢٦ نواحي الجاحظ

٣٤ حياة الجاحظ

٥٩ ثقافة الجاحظ

٨٠ عصر الجاحظ

حرية الفكر — الزندقة — الانقلاب الفكري

١١١ أصول الجاحظ في التحقيق

التجربة والعيان — معرفة السماع — استعانته بالعقل — نقده العلمي — شكه — تعليله

الصفحة

١٦٣ المعتزلة الجاحظية

١٧٤ شعور الجاحظ الديني

١٨٢ مذهب الجاحظ في التفسير والتأويل

١٩١ ضحك الجاحظ

١٩٩ تهكم الجاحظ

٢١١ مذهب الجاحظ في النقد

رأيه في التوليد — رأيه في أولية الشعر — اهتمامه بالصنعة

٢٢٧ مذهب الجاحظ في الأدب

٢٣٨ تفكير الجاحظ

٢٤٩ فن الجاحظ

١٩٤٨/٢٢٨٣

1.309058

17 APR 2007

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 017791714

2271
.5053
.361

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
DUE JUN 15 1990			
DUE JUN 15 1990			

ʿAmr ibn-Baḥr ibn-Maḥbub al-Jāḥiẓ

المحاسن والأضداد

عبد الرحمن محمد

تأليف

﴿ أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري ﴾

﴿ إمام أهل الادب المتوفي سنة ٢٥٥ هـ ﴾

﴿ الطبعة الثالثة ﴾

سنة ١٣٣١ هـ

﴿ على نفقة المكتبة الجديدة لصاحبها ﴾

ابراهيم سليم

﴿ ادارة عبد الرؤف السنكرى ﴾

الكائنة بشارع الحلوجى بمصر

طبع بمطبعة الجمالية - بمصر

2271
.5053
.361

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وآله أجمعين

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ * انى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والاحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه الى نفسى فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته وفصاحته وأكثر ما يكون هذا منهم اذا كان الكتاب مؤلفا لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير والحط والرفع والترهيب والترغيب فانهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الابل المغتلمة فان أمكنتهم الحيلة فى اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذى ألف له فهو الذى قصدوه وأرادوه وان كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريرا نقابا ونقريسا بليغا وحاذقا فطنا وأعجزتهم الحيلة سرقوا معانى ذلك الكتاب وألفوا من اعراضه وحواشيه كتابا وأهدوه الى ملك آخر ومتوا اليه به وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوبا الى وموسوما بى ٠٠ وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيرى وأحيله على من تقدمنى عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابى ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته على ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماما يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ويروونه عنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة يأتمهم قوم فيه لانه لم يترجم باسمى ولم ينسب الى تأليفى ٠٠ وهذا كتاب وسمته (بالمحاسن والاضداد) لم أسبق الى نحلته ولم يسألنى أحد صنعه ابتدأته بذكر محاسن الكتابة والكتب وختمته فى ذكر شئ من محاسن الموت والله يكلأ ومن حاسد اذا حسد

﴿ محاسن الكتابة والكتب ﴾

كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون مثل بناء أزدشير و بناء اصطخر و بناء المدائن والسدير والمدن والحصون .. ثم ان العرب شاركت العجم فى البنيان وتفردت بالكتب والاخبار والشعر والآثار فلها من البنيان غمدان وكعبة نجران وقصر مارب وقصر مارد وقصر شعوب والابلق الفرد وغير ذلك من البنيان : وتصنيف الكتب أشد تقييدا للمآثر على ممر الايام والدهور من البنيان لان البناء لامحالة يدرس وتعفى رسومه والكتاب باق يقع من قرن الى قرن ومن أمة الى أمة فهو أبدا جديد والناظر فيه مستفيد وهو أبلغ فى تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير : وكانت العجم تجعل الكتاب فى الصخور ونقشا فى الحجارة وخلقة مركبة فى البنيان فربما كان الكتاب هو الناتئ وربما كان هو المحفور واذا كان ذلك تاريخا لامر جسيم أو عهدا لامر عظيم أو موعظة يرتجى نفعها أو احياء شرف يريدون تخليد ذكره كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب القيروان وعلى باب سمرقند وعلى عمود مارب وعلى ركن المشقَّر وعلى الابلق الفرد وعلى باب الرها يعمدون الى المواضع المشهورة والاماكن المذكورة فيضعون الخط فى أبعد المواضع من الدثور وأمنعها من الدروس وأجدر أن يراه من مر به ولا يُنسى على وجه الدهور . ولولا الحكم المحفوظة والكتب المدونة لبطل أكثر العلم ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ولما كان للناس مفزع الى موضع استذكار ولو لم يتم ذلك لحرمنا أكثر النفع . ولولا مارسمت لنا الاوائل فى كتبها وخلدت من عجيب حكمتها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ماغاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق فجمعنا الى قليلنا كثيرهم وأدركنا مالم نكن ندركه الا بهم لقد بخس حظنا منه وأهل العلم والنظر وأصحاب الفكر والعبر والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل وورثة الانبياء وأعوان الخلفاء يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء وكتب الملاهى وكتب أعوان الصلحاء وكتب أصحاب المراء والخصومات وكتب السخفاء وحمية الجاهلية ،، ومنهم من يفرط فى العلم أيام خموله وترك ذكره وحداثة سنه ،، ولولا جياد الكتب وحسانها لما تحركت هِمم هؤلاء لطلب العلم ونازعت الى حب الكتب وأنفت من حال الجهل وان يكونوا فى غمار الوحش ولدخل عليهم من الضرر والمشقة وسوء الحال ماعسى أن يكون لايمكن الاخبار عن مقداره الا بالكلام الكثير ،، وسمعت محمد بن الجهم يقول اذا غشينى النعاس فى غير وقت النوم تناولت كتابا فأجد اهتزازى للفوائد الاريحية التى تعترينى من سرور الاستنباه وعز التبين أشد ايقاظا من نهيق الحمار وهدة الهدم فانى اذا استحسنت كتابا

686302

واستجدته و رجوت فائدته لم أوثر عليه عوضا ولم أبغ به بدلا فلا أزال أنظر فيه ساعة بعد ساعة كم بقي من ورقه مخافة استنفاده وانقطاع المادة من قبله ،، وقال ابن داحة كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس فنزل مقبرة من المقابر وكان لا يزال في يده كتاب يقرؤه فسئل عن ذلك فقال لم أر أوعظ من قبر ولا آنس من كتاب ولا أسلم من الوحدة ،، وأهدى بعض الكتاب الى صديق له دفتر أو كتب معه . هديتي هذه أعزك الله تزكو على الانفاق وتربو على الكد لا تفسدها العوارى ولا تخلقها كثرة التقليب وهي إنس في الليل والنهار والسفر والحضر تصلح للدنيا والآخرة تؤنس في الخلوة وتمنع من الوحدة مسامر مساعد ومحدث مطاوع ونديم صدق . وقال بعض الحكماء الكتب بساتين العلماء ،، وقال آخر .. الكتاب جليس لا مؤنة له ،، وقال آخر الكتاب جليس بلا مؤنة . . وقال آخر ذهبت المكارم الا من الكتب

﴿قال الجاحظ﴾ .. وأنا أحفظ وأقول ، الكتاب نعم الذخر والعقدة والجليس والعمدة ونعم النشرة ونعم النزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء ملىء علما وظرف حشي ظرفا واناء شحن مزاحا إن شئت كان أعيى من باقل وان شئت كان أبلغ من سحبان وائل وان شئت سرتك نوادره وشجتك مواعظه ومن لك بواعظ ملهٍ وبناسك فاتك وناطق أخرس ومن لك بطبيب اعرابي وروميٍّ هنديٍّ وفارسي يوناني ونديم مولد ونجيب ممتع ومن لك بشيء يجمع الاول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده . وبعد فما رأيت بستانا يحمل في ردن وروضة تنقل في حجر ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق الا بما تهوى آمن من الارض وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة ولا أعلم جارا آمن ولا خليطا أنصف ولا رفيقا أطوع ولا معلما أخضع ولا صاحبا أظهر كفاية وعناية ولا أقل املالا ولا ابراما ولا أبعد من مراء ولا أترك لشغب ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال من كتاب ولا أعم بيانا ولا أحسن مواتاة ولا أعجل مكافاة ولا شجرة أطول عمرا ولا أطيب ثمرا ولا أقرب مجتنى ولا أسرع ادراكا ولا أوجد في كل إبان من كتاب ولا أعلم نتاجا في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غبا وورده خمسا وإن شئت

لزمك لزوم ظلك وكان منك كبعضك . والكتاب هو الجليس الذى لا يُطريك والصديق الذى لا يقليك والرفيق الذى لا يملّك والمستمع الذى لا يستزيدك والجار الذى لا يستبطئك والصاحب الذى لا يريد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق . والكتاب هو الذى ان نظرت فيه أطال امتاعك وشحّذ طباعك وبسط لسانك وجوّد بيانك وفخّم ألفاظك وبجّح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفى السفر طاعته فى الحضر وهو المعلم إن افتقرت اليه لم يحقرك وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة وإن عُزلت لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء وإن أمثل ما يقطع به الفُرّاغ نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم نظر فى كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد فى تجربة وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين وتثمير مال ورب صنيعة وابتداء إنعام . ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه اليك الا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارة بك مع ما فى ذلك من التعرض للحقوق التى تلزم ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس ومن حضور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الردية وجهالتهم المذمومة لكان فى ذلك السلامة والغنيمة واحراز الاصل مع استفادة الفرع ولو لم يكن فى ذلك الا أنه يشغلك عن سخف المنى واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما تشتهيه لقد كان له فى ذلك على صاحبه أسبغ النعم وأعظم المنة . وجملة الكتاب وان كثر ورقه فليس مما يمل لانه وان كان كتاباً واحداً فانه كتب كثيرة فى خطابه والعلم بالشريعة والاحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير ، وقال مصعب بن الزبير . ان الناس يتحدثون باحسن ما يحفظون ويحفظون أحسن ما يكتبون ويكتبون أحسن ما يسمعون فاذا أخذت الادب فخذه من أفواه الرجال فانك لا ترى ولا تسمع الا مختاراً ولؤلؤاً منظوماً . وقال لقمان لابنه يابنى نافس فى طلب العلم فانه ميراث غير مسلوب وقرين غير مغلوب ونفيس حظ من الناس وفى الناس مطلوب ،، وقال الزهرى . الادب ذكر لا يحبه الا الذكور من الرجال ولا يبغضه الا مؤنثهم ،، وقال . اذا سمعت أدباً فاكتبه ولو فى حائط ، وقال منصور ابن المهدى للمأمون . أيحسن بنا طلب العلم والادب قال : والله لان أموت طالباً للادب خير لى من أن أعيش قانعاً بالجهل قال : فالى متى يحسن بى ذلك قال ما حسنت الحياة بك .

﴿ ضده ﴾

الحديث المرفوع رحم الله عبداً أصلح من لسانه . وكان الوليد بن عبد الملك لُحَنَةً فدخل عليه اعرابى يوماً فقال انصفنى من ختنى يا أمير المؤمنين فقال ومن ختَنَك قال رجل من الحى لا

اعرف اسمه فقال عمر بن عبد العزيز أن امير المؤمنين يقول لك من ختنك فقال هو ذا بالباب فقال الوليد لعمر ما هذا قال النحو الذى كنت أخبرتك عنه . قال لا جرم فانى لا أصلى بالناس حتى اتعلمه . قال وسمع اعرابى مؤذنا يقول : أشهد أن محمدا رسول الله فقال يفعل ماذا قال وقال رجل لزياد : أيها الامير إن أبينا هلك وان أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا فقال زياد ماضيعت من نفسك اكثر مما ضاع من ميراث أبيك فلا رحم الله أباك حيث ترك ابنا مثلك . وقال مولى لزياد : أيها الامير احذوا لنا همار وهش ، فقال : ماتقول ، فقال احذوا لنا ابرا ، فقال زياده الاول خير من الثانى ،، قال واختصم رجلان الى عمر بن عبد العزيز فجعلا يلحنان فقال الحاجب . قم فقد أوذيتما أمير المؤمنين ، فقال عمر للحاجب . أنت والله اشد أذاء منهما ،. قال وقال بشر المريسى وكان كثير اللحن : قضى لكم الامير على أحسن الوجوه وأهنؤها ، فقال القاسم التمار هذا على قوله .

إن سليمى والله يكلؤها * ضنت بشىء ما كان يرزؤها

فكان احتجاج القاسم أطيب من لحن بشر ،، قال وكان زياد النبطى شديد اللكنة وكان نحويا فدعى غلامه ثلاثا فلما أجابه قال . من لدن دعوتك الى أن ديتنى ما كنت تصنع ، يريد دعوتك وجئتنى وتصنع ،، ومر ماسرجويه الطبيب بمعاذ بن مسلم فقال . ياماسرجويه انى لاجد فى حلقى بحجا ، قال هو من عمل بلغم ، فلما جاوزه قال ترانى لا أحسن أن أقول بلغم ولكنه قال بالعربية فاجبته بضدها .

﴿ محاسن المخاطبات ﴾

حكوا عن ابن القرية ،، انه دخل على عبد الملك بن مروان فبيناهو عنده اذ دخل بنو عبد الملك عليه فقال : من هؤلاء الفتية يا أمير المؤمنين ، قال ولد أمير المؤمنين ، قال . بارك الله لك فيهم كما بارك لابيك فيك وبارك لهم فيك كما بارك لك فى أبيك ، قال فشحن فادرا ،، قال وقال عمارة بن حمزة لابى العباس وقد أمر له بجوهر نفيس وصلك الله يا أمير المؤمنين وبرك فو الله لئن أردنا شكرك على انعامك ليقصرن شكرنا عن نعمتك كما قصر الله بنا عن منزلتك ،، قيل ودخل اسحاق بن ابراهيم الموصلى على الرشيد فقال مالك قال

سَوامى سَوامُ المُكثرين تَجَمُّلاً * ومالى كما قد تعلمينَ قليلُ
وآمِرةٍ بالبخل قلتُ لها اقصرى * فذلكَ شىءٌ ما إليه سَبيلُ
وكيفَ أخافُ الفقرَ أو أحرَمُ الغِنا * ورأىُ أميرِ المؤمنينَ جميلُ
أرى الناسَ خُلّانَ الجَوادِ ولا أرى * بخيلاً له فى العالمينَ خليلُ

فقال الرشيد : هـذا والله الشعر الذى صحت معانيه وقويت أركانه ومبانيه ولذ على أفواه القائلين واسماع السامعين ياغلام احمل اليه خمسين ألف درهم ، قال اسحق . ياأمير المؤمنين كيف أقبل صلتك وقد مدحت شعرى بأكثر مما مدحتك به ، قال الاصمعى . فعلمت انه أصيد للدراهم منى ،، قال ودخل المأمون ذات يوم الديوان فنظر الى غلام جميل على أذنه قلم فقال من أنت ، قال . أنا الناشئ فى دولتك المتقلب فى نعمتك المؤمل لخدمتك الحسن بن رجاء ، فقال المأمون . بالاحسان فى البديهة تتفاضل العقول يرفع عن مرتبة الديوان الى مراتب الخاصة و يعطى مائة ألف درهم تقوية له ،، قال . ووصف يحيى بن خالد الفضل بن سهل وهو غلام على المجوسية للرشيد وذكر أدبه وحسن معرفته فعمل على ضمه الى المأمون فقال ليحيى يوماً . أدخل الى هذا الغلام المجوسى حتى أنظر اليه فاوصله فلما مثل بين يديه ووقف تحير فأراد الكلام فارتج عليه فادركته كبوة فنظر الرشيد الى يحيى نظرة منكرة لما كان تقدم من تقريظه اياه فانبعث الفضل بن سهل فقال . فقال يا أمير المؤمنين أن من أبين الدلائل على فراهة المملوك شدة افراط هيبته لسيده ،، فقال له الرشيد . أحسنت والله لئن كان سكوتك لتقول هـذا انه لحسن ولئن كان شيئاً أدركك عند انقطاعك انه لاحسن وأحسن ثم جعل لا يسأله عن شىء الا رآه فيه مقدما فضمه الى المأمون ،، قال وقال الفضل بن سهل للمأمون وقد سأله حاجة لبعض أهل بيوتات دهاقين سمرقند كان وعده تعجيل انفاذها فتأخر ذلك . هب لوعدك مذكراً من نفسك وهنىء سائلك حلاوة نعمتك واجعل ميلك الى ذلك فى الكرم حثاً على اصطفاء شكر الطالبين تشهد لك القلوب بحقائق الكرم والالسن بنهاية الجود ، فقال . قد جعلت اليك اجابة سؤالى عنى بما ترى فيهم وآخذك فى التقصير فيما يلزم لهم من غير استئمار أو معاودة فى اخراج الصكاك من أحضر الاموال متناولا قال اذاً لا تجدى معرفتى بما يجب لامير المؤمنين الهناء به بما يديم له منهم حسن الثناء و يستمد بدعائهم طول البقاء ،، وقال الفضل بن سهل للمأمون .. يا أمير المؤمنين اجعل نعمتك صائنة لوجوه خدمك عن اراقة مائها فى غضاضة السؤال فقال والله لا كان ذلك الا كذلك ،، قال ودخل العتابى على المأمون فقال .. خبرت بوفاتك فغمتنى ثم جاءتنى وفادتك فسرتنى فقال يا أمير المؤمنين كيف أمدحك أم بماذا أصفك ولا دين الا بك ولا دنيا الا معك قال سلنى ما بدالك قال يداك بالعطية أطلق من لسانى بالمسئلة ،، قال وقدم السعدى أبو وجزة على المهلب بن أبى صفرة . فقال اصلح الله الامير انى قد قطعت اليك الدهناء وضربت اليك آباط الابل من يثرب قال فهل اتيتنا بوسيلة أو عشرة أو قرابة قال لا ولكنى رأيتك لحاجتى اهلا فان قمت بها فاهل ذلك وان يحل دونها حائل لم أذمم يومك ولم أيأس من غدك فقال المهلب يعطى مافى

بيت المال فوجد مائة الف درهم فدفعت اليه فاخذها . وقال .

يا من على الجودِ صاغَ اللهُ راحتهُ * فليس يُحسِنُ غيرَ البذْلِ والجودِ

عمَّت عطاياكَ من بالشرقِ قاطبة * فأنتَ والجودُ منحوتان من عودِ

وقد يجب على العاقل الراغب فى الادب ان يحفظ هذه المخاطبات ويدمن قراءتها .. وقد قال الاصمعى

أما لو أعِى كلَّ ما أسْمَعُ * وأحْفَظُ مِنْ ذاكَ ما أجمعُ

ولمْ أستَفِدْ غيْرَ ماقدْ جمعْتُ * لقيلَ أنا العالِمُ المُقنِعُ

ولكِنَّ نفسى إلى كلِّ شىءٍ * مِنَ العِلمِ تسمَعُهُ تنزعُ

فلا أنا أحْفظُ ماقدْ جمعْتُ * ولا أنا مِنْ جمْعِهِ أشْبعُ

وأقعُدُ لِلجَهْلِ فى مَجلِسٍ * وعلمى فى الكُتبِ مُستودَعُ

ومَنْ يكُ فى عِلمِهِ هكذا * يكنْ دهْرَهُ القهْقرى يرْجِعُ

يَضيعُ مِنَ المالِ ماقدْ جمعْت * وعِلْمكَ فى الكُتبِ مُستودَعُ

إذا لمْ تكُنْ حافِظاً واعِياً * فجمْعُكَ لِلكُتبِ ماينفَعُ

وقال بعضهم .. الحفظ مع الاقلال امكن وهو مع الاكثار ابعد وتغيير الطبائع زمن رطوبة الغصن اقبل .. وفيها قال الشاعر

أتانى هَواها قبلَ أنْ أعرفَ الهوى * فصادفَ قلباً خالِياً فتمكنا

وقيل " العلم فى الصغر كالنقش فى الحجر والعلم فى الكبر كالعلامة على المدر .. فسمع ذلك الاحنف فقال الكبير أكثر عقلا ولكنه أكثر شغلا .. كما قال

وإنَّ منْ أدَّبتَهُ فى الصِّبى * كالعُودِ يُسقى الماءَ فى غَرْسِهِ

حتى تراهُ مُورِقاً ناضِراً * بعْدَ الذى أبصرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

والصبى عن الصبى افهم وهو له آلف واليه انزع .. وكذلك العالم عن العالم والجاهل عن الجاهل .. وقال الله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) لان الانسان عن الانسان أفهم وطباعه بطباعه آنس

﴿ ضده ﴾

قال " دخل أبو علقمة النحوى على أعين الطبيب فقال .. انى أكلت من لحوم الجوازى

وطسئت طساة فاصابنى وجع بين الوابلة الى دأية العنق فلم يزل يربوو ينموحتى خالط الشراسيف فهل عندك دواء . . قال نعم خذ خوفقاوسر بتاورقرقا فاغسله واشربه بماء فقال لا أدرى ماتقول قال ولا انا دريت ماقلت . . قال وقال يوما آخرانى أجد معمعة فى قلبى وقرقرة فى صدرى فقال له أما المعمعة فلا أعرفها وأما القرقرة فهى ضراط غير نضيج . . قال وأتى رجل الهيثم بن العريان بغريم له قد مطله حقه فقال أصلح الله الامير إن لى على هذا حقا قد غلبنى عليه فقال له الآخر أصلحك الله ان هذا باعنى عنجدا واستنسأته حولا وشرطت عليه أن أعطيه مياومة فهو لا يلقانى فى لقم الا اقتضانى ذهبا فقال له الهيثم امن بنى أمية أنت قال لا قال افمن بنى هاشم أنت قال لا قال أفمن اكفائهم من العرب قال لا قال ويلى عليك انزعوا ثيابه فلما أرادوا أن ينزعو ثيابه قال اصلحك الله أن إزارى مرعبل قال دعوه فلو ترك الغريب فى موضع لتركه فى هذا الموضع . . قال ومر أبو علقمة ببعض الطرق فهاجت به مرة فوثب عليه قوم فجعلوا يعصرون ابهامه ثم يؤذنون فى أذنه فافلت من أيديهم فقال مالكم تتكأكأون على تكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى فقال رجل منهم دعوه فان شيطانه يتكلم بالهندية . . قال وقال لحجام يحجمه اشدد قصب الملازم وارهف ظبة المشارط وخفف الوضع وعجل النزع وليكن شرطك وخزا ومصك نهزا ولا تكرهن ابيا ولا تردن اتيا فوضع الحجام محاجمه فى جونته وانصرف

﴿محاسن المكاتبات﴾

قال كعب العبسى لعروة بن الزبير . . قد أذنبت ذنبا الى الوليد بن عبد الملك وليس تزيل غضبه شىء فاكتب لى اليه فكتب اليه . . لو لم يكن لكعب من قديم حرمته مايغفر له عظيم جريرته لوجب أن لا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذى تامله القلوب ولا تعلق به الذنوب وقد استشفع بى اليك فوثقت له منك بعفو لا يخالطه سخط فحقق أمله وصدق ثقتى بك تجد الشكر وافيا بالنعمة فكتب اليه الوليد . . قد شكرت رغبته اليك وعفوت عنه لمعوله عليك وله عندى ما يحب فلا تقطع كتبك عنى فى أمثاله وفى سائر أمورك . . وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الى بعض اخوانه . . أما بعد فقد عاقنى الشك عن عزيمة الرأى ابتدأتنى بلطف من غير خبرة ثم أعقبتنى جفاء من غير ذنب فاطمعنى اولك فى إحسانك وأيأسنى آخرك من وفائك فلا انا فى غير الرجاء مجمع لك إطراحا ولا فى غد انتظره منك على ثقة فسبحان من لو شاء كشف إيضاح الرأى فيك فاقمنا على ائتلاف أو افترقنا على اختلاف . . قال وسخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم فعزله عن شرطة الكوفة فشكا ذلك الى عمر بن عبد العزيز فكتب اليه . . ان من حفظ أنعم الله رعاية ذوى الاسنان ومن إظهار شكر الموهوب صفح القادر عن الذنب ومن تمام

السودد حفظ الودائع واستتمام الصنائع وقد كنت أودعت العريان نعمة من أنعمك فسلبتها عجلة سخطك وما انصفته غضبته على أن وليته ثم عزلته وخليته وانا شفيعه فأحب أن تجعل له من قلبك نصيبه ولا تخرجه من حسن رأيك فتضيع ما أودعته وتتوى (١) ما أفدته .. فعفى عنه ورده الى عمله .. قال وغضب سليمان بن عبد الملك على ابن عبيد مولاه فشكا الى سعيد بن المسيب ذلك فكتب اليه .. أما بعد فان أمير المؤمنين فى الموضع الذى يرتفع قدره عما تقتضيه رعيته وفى عفو أمير المؤمنين سعة للمسيئين .. فرضى عنه .. قال وطلب العتابى من رجل حاجة فقضى له بعضها ومطله ببعض فكتب اليه .. أما بعد فقد تركتنى منتظراً لوعدك منتجزا لرفدك وصاحب الحاجة محتاج الى نعم هنيئة أو لا مريحة والعذر الجميل أحسن من المطل الطويل .. وقد قلت بيتى شعر

بَسَطتَ لِسانى ثُمَّ أوْثقتَ نِصفَهُ * فنِصفُ لِسانى بامتِداحِكَ مُطلَقُ

فانْ أنتَ لمْ تُنجزْ عِدَاىَ ترَكتَنى * وباقى لِسانَ الشكرِ باليأسِ مُوثَقُ

قال . وكتب عمرو بن مسعدة الى المأمون فى رجل من بنى ضبة يستشفع له بالزيادة فى منزلته وجعل كتابه تعريضاً .. أما بعد فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين لتطولك على فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به وأعلمته ان امير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام .. فكتب اليه المأمون قد عرفنا تصريحك له وتعريضك لنفسك وأجبناك اليهما ووقفناك عليهما . قال وكتب عمرو بن مسعدة الى المأمون كتابا يستعطفه على الجند . كتابى الى أمير المؤمنين ومن قبلى من أجناده وقواده فى الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم . فقال المأمون والله لاقضين حق هذا الكلام وأمر باعطائهم لثمانية أشهر . قال وقدم رجل من أبناء دهاقين قريش على المأمون لعدة سلفت منه فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون فقال لعمرو بن مسعدة توصل فى رقعة منى الى أمير المؤمنين تكون أنت الذى تكتبها تكون لك على نعمتان فكتب .. ان رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من ربقة المطل بقضاء حاجته ويأذن له فى الانصراف الى بلده فعل ان شاء الله . فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرا فجعل يعجبه من حسن لفظها وايجاز المراد فقال عمرو فما نتيجتها يا أمير المؤمنين قال الكتاب له فى هذا الوقت بما وعدناه لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه وبجائزة ألف درهم صلة على دناءة المطل وسماجة الاغفال ففعل ذلك له . وحدثنا اسماعيل بن شاكر قال لما أصاب أهل مكة السيل

(١) التواء الهلاك

الذي شارف الحجر ومات تحته خلق كثير كتب عبيد الله بن الحسن العلوى وهو والى الحرمين الى المأمون . . ان أهل حرم الله وجيران بيته والاف مسجده وعمرة بلاده قد استجاروا بعز معروفك من سيل تراكمت أخرياته فى هدم البنيان وقتل الرجال والنسوان واجتياح الاصول وجرف الاثقال حتى ماترك طارفا ولا تالدا للراجع اليهما فى مطعم ولا ملبس فقد شغلهم طلب الغذاء عن الاستراحة الى البكاء على الامهات والاولاد والاباء والاجداد فاجرهم يا أمير المؤمنين بعطفك عليهم واحسانك اليهم تجد الله مكافئك عنهم ومثيبك عز الشكر منهم . قال فوجه اليهم المأمون بالاموال الكثيرة . . وكتب الى عبيد الله أما بعد فقد وصلت شكيتك لاهل حرم الله أمير المؤمنين فبكاهم بقلب رحمته وأنجدهم بسيب نعمته وهو متبع ما أسلف اليهم بما يخلفه عليهم عاجلا وآجلا ان أذن الله فى تثبيت عزمه على صحة نيته . . قال فصار كتابه هذا آنس لاهل مكة من الاموال التى أنفذها اليهم . . قال وكتب جعفر بن محمد بن الاشعث الى يحيى بن خالد يستعفيه من العمل . شكرى لك على ما أريد الخروج منه شكر من سأل الدخول فيه قال وكتب على بن هشام الى اسحق بن ابراهيم الموصلى . . ما أدرى كيف أصنع أغيب فاشتاق والتقى ولا أشتفى ثم يحدث لى اللقاء الذى طلبت منه الشفاء نوعا من الحرقة للوعة الفرقة . . قال وكتب معقل الى أبى دلف فلان جميل الحال عند الكرام فان أنت لم ترتبطه بفضلك عليه فعل غيرك . . وكتب ابو هاشم الحربى الى بعض الامراء غرضى من الامير معوز والصبر على الحرمان معجز وكتب آخر الى صديق له أما بعد فقد أصبح لنا من فضل الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه وما ندرى ما نشكر أجميل ما نشر أم كثير ما ستر أم عظيم ما أبلى ام كثير ما عفى غير انه يلزمنا فى كل الامور شكره ويجب علينا حمده فاستزد الله فى حسن بلائه كشكرك على حسن آلائه

﴿ ضده ﴾

(قال الجاحظ) كتب ابن المراكبي الى بعض ملوك بغداد جعلت فداك برحمته قال وقرأت على عنوان كتاب لابى الحسن الشمرى . الموت لناقبلة . وقرأت ايضاً على عنوان كتاب الى الذى كتب الىّ

﴿ محاسن الجواب ﴾

قال دخل رجل على كسرى ابرويز فشكى اليه عاملا غصبه على ضيعة له . فقال له كسرى منذ كم هى فى يدك قال منذ أربعين سنة قال فانت تاكلها اربعين سنة ما عليك أن ياكل عامل منها سنة واحدة فقال وما كان على الملك أن ياكل بهرام جور الملك سنة واحدة فقال ادفعوا فى قفاه فاخرجوه فلما خرج أمكنته التفاتة فقال دخلت بمظلمة وخرجت بثنتين فقال كسرى ردوه وامر

برد ضيعته وصيره فى خاصته . و يقال ان سعيد بن مرة الكندى حين أتى معاوية . قال له أنت سعيد قال أمير المؤمنين سعيد وأنا ابن مرة . قال ودخل السيد بن أنس الازدى على المأمون . فقال أنت السيد فقال أنت السيد يا أمير المؤمنين وأنا ابن أنس . قال وقيل للعباس بن عبد المطلب أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هو عليه الصلاة والسلام أكبر منى وأنا ولدت قبله ، قال وقال الحجاج للمهلب أنا أطول أم أنت قال الامير أطول وأنا أبسط قامة منه ، قيل ووقف المهدى على امرأة من بنى ثعل فقال لها ممن العجوز قالت من طىء قال مامنع طيا أن يكون فيها آخر مثل حاتم قالت الذى منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك فأعجب بقولها ووصلها ، قيل ولما استوثق أمر العراق لعبد الله بن الزبير وجه مصعب اليه وفدا فلما قدموا عليه قال لهم وددت أن لى بكل خمسة منكم رجلا من أهل الشام فقال رجل من أهل العراق يا أمير المؤمنين علقناك وعلقت باهل الشام وعلق أهل الشام بآل مروان فما أعرف لنا مثلا إلا قول الاعشى

عُلِّقْتُها عَرَضاً وَعُلِّقَتْ رجلاً * غيْرِى وعُلِّقَ أخرَى غيْرَها الرَّجُلُ

فما وجدنا جوابا أحسن من هذا ،، قال وقال مسلمة بن عبد الملك ،، ماشىء يؤتى العبد بعد الايمان بالله تعالى أحب الىّ من جواب حاضر فان الجواب اذا انعقب لم يكن شيئاً

﴿ ضده ﴾

قال اجتمع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم فذكر عمرو الزبرقان قال ،، بابى أنت وأمى يارسول الله انه لمطعام جواد الكف مطاع فى أدانيه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره ،، فقال الزبرقان بابى أنت وأمى يارسول الله انه ليعرف منى اكثر من هذا ولكنه يحسدنى ،، فقال عمرو والله يا نبى الله ان هذا لزمر المروءة ضيق العطن لئيم العم أحمق الخال فرأى الكراهية فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله فقال يا رسول الله ما كذبت فى الاولى ولقد صدقت فى الاخرى ولكنى رضيت فقلت أحسن ما علمت وسخطت فقلت أسوأ ما اعلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من البيان لسحرا وان من الشعر لحكما ،، وذكروا ان الوليد بن عتبة قال لعقيل بن أبى طالب ،، غلبك علىّ على الثروة والعدد .. قال وسبقنى واياك الى الجنة ،، قال الوليد اما والله ان شدقيك لمتضمخان من دم عثمان ،، قال عقيل مالك ولقريش وانما أنت فيهم كمنيح الميسر ،، فقال الوليد والله انى لارى لو أن أهل الارض اشتركوا فى قتله لردوا صعودا ،، فقال له عقيل كلا أما ترغب عن صحة أبيك .. قال وقال رجل من قريش لخالد بن صفوان ما اسمك قال خالد بن صفوان بن الاهتم ،، قال ان اسمك لكذب ما أنت بخالد وان اباك لصفوان وهو حجر وان

جدك لاهتم والصحيح خيرمن الاهتم ،، قال له خالد من أى قريش انت ،، قال من عبد الدار ابن قصى بن كلاب ،، قال لقد هشمتك هاشم وامتك أمية وجمحت بك جمح وخزمتك مخزوم واقصتك قصى فجعلتك عبد دارها تفتح اذا دخلو وتغلق اذا خرجو . قيل ومر الفرزدق فرأى خليفة الشاعر فقال له ،، ياأبافراس من القائل

هُوَ القينُ وابنُ القينِ لاقينَ مثلُهُ * لِفَطْحِ المساحِى أوْ لِجَدْلِ الاداهِم

قال الفرزدق الذى يقول .

هُوَ اللصُّ وابنُ اللصِّ لالِصَّ مِثلُهُ * لِنَقْبِ جِدارٍ أوْ لِطَرِّ الدَّراهِم

﴿ محاسن حفظ اللسان ﴾

قال اكثم بن صيفى ،، مقتل الرجل بين فكيه - يعنى لسانه - وقال ،، رب قول اشد من صول وقال ،، لكل ساقطة لاقطة .. وقال المهلب لبنيه ،، اتقوا زلة اللسان فانى وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من عثرته و يزل لسانه فيكون فيه هلاكه .. قال يونس بن عبيد ،، ليست خلة من خلال الخير تكون فى الرجل هى أحرى أن تكون جامعة لانواع الخير كلها من حفظ اللسان . وقال قسامة بن زهير ، يامعشر الناس ان كلامكم أكثر من صمتكم فاستعينوا على الكلام بالصمت وعلى الصواب بالفكر . وكان يقال ينبغى للعاقل أن يحفظ لسانه كما يحفظ موضع قدمه ومن لم يحفظ لسانه فقد سلطه على هلاكه ، وقال الشاعر

عليكَ حِفظَ اللسانِ مُجتهداً * فإنّ جُلَّ الهلاكِ فى زَلَلِه

غيره

وجُرحُ السَّيفِ تأسُوهُ فيبرأ * وجُرحُ الدّهرِ ماجرحَ اللّسانُ
جراحاتِ الطعانِ لها التئامٌ * ولا يلتامُ ما جرحَ اللسانُ

غيره

إحفَظْ لسانَكَ لاتقولُ فتبتلى * إنَّ البلاءَ موكَّلٌ بالمنطقِ

غيره

لَعَمرُكَ ماشىءٌ علمتَ مكانَهُ * أحقُّ بسجنٍ من لسانٍ مُذلَّلِ
على فيكَ مماليس يَعنيكَ قولُهُ * بقفلٍ شديدٍ حيثُ ما كنتَ فاقفلِ

قيل . تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كانما رميت عن قوس واحد قال كسرى . أنا

على ردمالم أقل أقدرمني على ردماقلت ، وقال ملك الهند . اذا تكلمت بكلمة ملكتني وان كنت أملكها ، وقال قيصر ، لا أندم على مالم اقل وقدندمت على ماقلت ، وقال ملك الصين عاقبة ماقدجرى به القول أشدمن الندم على ترك القول ، وقال بعضهم ، من حصافة الانسان أن يكون الاستماع أحب اليه من النطق اذا وجد من يكفيه فانه لن يُعدم الصمت والاستماع سلامة وزيادة فى العلم ، وقال بعض الحكماء ، من قدر على أن يقول فيحسن فانه قادر على أن يصمت فيحسن ، وقال بعضهم ، كان ابن عبيدة الريحانى المتكلم الفصيح صاحب التصانيف يقول . الصمت أمان من تحريف اللفظ وعصمة من زيغ المنطق وسلامة من فضول القول وقال أبو عبيدالله كاتب المهدى ، كن على الناس الحظ بالسكوت أحرص منك على الناسه بالكلام ، وكان يقال ، من سكت فسلم كان كمن قال فغنم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ان الله تعالى يكره الانبعاق فى الكلام برحم الله امرأ أوجز فى كلامه واقتصر على حاجته قيل وكلم رجل سقراط عند قتله بكلام أطاله فقال ، أنسانى أول كلامك طول عهده فارق آخره فهمى لتفاوته ، ولما قدم ليقتل بكت امرأته فقال ، لها ما يبكيك قالت تقتل ظلما قال وكنت تحبين أن أقتل حقا أو أقتل ظالما ، وشتم رجل المهلب فلم يجبه فقيل له حلمت عنه فقال ما أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه ، وقال سلمة بن القاسم عن الزبير قال ، حُملت الى المتوكل وأدخلت عليه فقال يا أبا عبد الله الزم أبا عبدالله ـ يعنى المعتز ـ حتى تعلمه من فقه المدنيين فادخلت حجرة فاذا أنا بالمعتز قد أتى فى رجله نعل من ذهب وقد عثر به فسال دمه فجعل يغسل الدم ويقول

يُصابُ الفتى مِنْ عَثْرَةٍ بلسانهِ * وليس يُصابُ المرءُ من عَثْرةِ الرِّجلِ

فعثرتُهُ مِنْ فِيهِ تَرْمى برأسهِ * وعَثْرتُهُ بالرِّجلِ تبرا على مَهْلِ

فقلت فى نفسى ضممت الى من أريد أن أتعلم منه

﴿ ضده ﴾

سئل بعض الحكماء عن المنطق فقال . انك تمدح الصمت بالمنطق ولا تمدح المنطق بالصمت وما عُبر به عن شئ فهو أفضل منه ، وسئل آخر عنهما فقال أخزى الله المساكتة ما أفسدها للسان وأجلبها للعى و والله للمماراة فى استخراج حق أهدم للعى من النار فى يابس العرفج فقيل له قد عرفت مافى المماراة من الذم فقال مافيها أقل ضررا من السكتة التى تورث عللا وتولد داء أيسره العى ، وقال بعض الحكماء ، اللسان عضو فان مرنته مرن وان تركته حرن ، وممن أفرط فى قوله فاستقيل بالحلم ، ماحكى عن شهرام المروزى فانه جرى بينه وبين أبى مسلم صاحب الدولة كلام فما زال أبو مسلم يحاوره الى ان قال له شهرام يالقطة فصمت أبو مسلم وندم شهرام على

ماسبق به لسانه واقبل معتذراً خاضعاً ومتنصلا فلمارأى ذلك أبومسلم قال لسان سبق ووهم اخطأ وانما الغضب شيطان والذنب لى لانى جرّأتك على نفسى بطول احتمالى منك فان كنت معتمداً للذنب فقد شركتك فيه وان كنت مغلوباً فالعذر يسعك. وقد غفرنالك على كل حال قال شهرام أيها الملك عفو مثلك لا يكون غروراً قال أجل قال وان عظيم ذنبى لن يدع قلبى يسكن وألحّ فى الاعتذار فقال أبومسلم ياعجباً كنت تسيء وانا أحسن فاذا أحسنتُ اسأت

﴿ محاسن كتمان السر ﴾

قال كان المنصور يقول . الملك يحتمل كل شىء من أصحابه إلا ثلاثاً افشاء السر والتعرّض للحرم والقدح فى الملك ، وكان يقول سرّك من دمك فانظر من تملكه ، وكان يقول سرك لا تطلع عليه غيرك وان من انفذ البصائر كتمان السر حتى يبرم المبروم ، وقيل لابى مسلم باى شىء أدركت هذا الامر قال . ارتديت بالكتمان واتّزرت بالحزم وحالفت الصبر وساعدت المقادير فادركت طلبتى وحزت بغيتى . وانشد فى ذلك

أدركتُ بالحزمِ والكتمانِ ما عجزتْ * عنهُ ملوكُ بنى مروانَ إذْ حشدُوا
مازلتُ أسعى عليهمْ فى ديارِهم * والقومُ فى مُلكِهمْ بالشام قدْ رقدُوا
حتّى ضربْتهمْ بالسّيفِ فانتبهوا * منْ نومةٍ لمْ ينمها قبلهُمْ أحدُ
ومنْ رعى غنماً فى أرضِ مسبعةٍ * ونامَ عنها تولى رعيَها الأسدُ

قال ، ، وقال عبدالملك بن مروان للشعبى لما دخل عليه ، ، جنبنى خصالا أربعاً لا تطرينى فى وجهى ولا تجربنْ على كذبة ولا تغتابنْ عندى أحداً ولا تفشين لى سرا . . وقال النبى صلى الله عليه وسلم ، استعينوا على إنجاح حوائجكم بكتمان السر فان كل ذى نعمة محسود . . وأنشد اليزيدى فى ذلك

النَّجمُ أقربُ منْ سرّ إذا اشتملتْ * منّى على السرّ أضلاعٌ وأحشاءُ

غيره

ونفسكَ فاحفظها ولا تُفشِ للعدى * منَ السّرّ ما يطوى عليهِ ضميرُها
فما يحفظُ المكتومَ منْ سرّ أهلهِ * إذا عقدُ الأسرارِ ضاعَ كثيرُها
منَ القومِ إلاّ ذُو عفافٍ يُعينهُ * على ذاك منهُ صدقُ نفسٍ وخيرُها

قال معاوية ابن أبى سفيان ، ، أعنتُ على على بن أبى طالب بأربع خصال كان رجلا ظُهرةً عُبلةً لا يكتم سراً وكنت كتوماً للسر وكان لا يسعى حتى يفاجئه الامر مفاجأة وكنت

أبادر الى ذلك وكان فى أخبث جند وأشدهم خلافاوكنت فى أطوع جند وأقلهم خلافا وكنت أحب الى قريش منه فنلت ماشئت فلله من جامع الى ومفرق عنه ٠٠ وكان يقال «لكاتم سره من كتمانه احدى فضيلتين الظفر بحاجته والسلام من شره فن أحسن فليحمد الله وله المنة عليه ومن أساء فليستغفر الله ، وقال بعضهم : كتمانك سرك يعقبك السلامة وافشاؤك سرك يعقبك الندامة والصبر على كتمان السر أيسر من الندم على افشائه ، وقال بعضهم ما اقبح بالانسان ان يخاف على مافى يده من اللصوص فيخفيه ويمكن عدوه من نفسه باظهاره مافى قلبه من سر نفسه وسر أخيه ومن عجز عن تقويم أمره فلا يلومن الا نفسه ان لم يستتم له . وقال معاوية ماأفشيت سرى الى أحد الا أعقبنى طول الندم وشدة الاسف ولا أودعته جوانح صدرى فحكمته بين اضلاعى الا اكسبنى مجدا وذكرا وسناء ورفعة فقيل ولا ابن العاص قال ولا ابن العاص . وكان يقول ، ما كنت كاتمه من عدوك فلا تظهر عليه صديقك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتم سره كانت الخيرة فى يده ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن وضع أخيك على أحسنه ولا تظنن بكلمة خرجت منه سوءا ما كنت واجدا لها فى الخير مذهبا وما كافأت من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله جل اسمه فيه وعليك باخوان الصدق فانهم زينة عند الرخاء وعصمة عند البلاء ، وحدث ابراهيم بن عيسى قال «ذاكرت المنصور ذات يوم فى أبى مسلم وصونه السر وكتمه حتى فعل مافعل ، فأنشد

تقسّمنى أمرانِ لم أفتتحهما * بحزمٍ ولم تَرْكُنْهما لى الكَراكِرُ
وما ساوَرَ الاحْشاءَ مِثلُ دفينةٍ * مِنَ الهَمّ ردّتها اليك المعاذِرُ
وقدْ عَلمتْ أفناءُ عدْنانَ أنّنى * على مِثلها مِقْدامةٌ متجاسِرُ

وقال آخر

ونَ السّرّ بالكِتمانِ يُرضيكَ غِبُّهُ * فقدْ يَظهرُ السّرُّ المُضيعُ فيندَمُ
ولا تُفشيَنْ سِرًّا إلى غَيْرِ أهلِهِ * فيظهرُ خَرْقُ الشّرّ من حيثُ يكْتَمُ
وما زِلتُ فى الكِتمانِ حتى كأنّنى * بِرَجْعِ جَوابِ السّائلى عنهُ أعجَمُ
لِتَسلمَ منْ قولِ الوُشاةِ وتَسلمى * سَلِمتِ وهلْ حىٌّ على الدّهْرِ يَسلَمُ

وقال آخر

أمِنى تخافُ انتشارَ الحديثِ * وحظّى فى سَترِهِ أوفَرُ
ولوْ لمْ أصُنْهُ لِبُقيا عليكَ * نظرْتُ لِنفسى كما تَنظُرُ

وقال أبونواس

لا تُفشِ أسرارك للناسِ * وداوِ أحزانكَ بالكاسِ
فإنّ إبليسَ على ما بهِ * أرأفُ بالناسِ من الناسِ

وقال المبرد .. أحسن ماسمعت فى حفظ اللسان والسر ماروى لأمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه

لَعَمْرُكَ إنّ وشاةَ الرّجا * لِ لا يتركون أديماً صحيحا
فلا تُبدِ سرّكَ إلا إليكَ * فإنّ لكلّ نصيحٍ نصيحا

وقال العتبى

ولى صاحبٌ سرى المكتّم عِندَهُ * مخاريقُ نيرانٍ بليلٍ تُحرّقُ
غدوتُ على أسرارهِ فكسوتُها * ثياباً من الكِتمانِ ما تتخرّقُ
فمن كانتِ الاسرارُ تطفوا بصدرهِ * فأسرارُ صدرى بالاحاديث تُغرّقُ
فلا تُودعَنّ الدّهرَ سِرّكَ أحمقاً * فإنكَ إن أودعتَهُ منهُ أحمقُ
وحسبُكَ فى سَترِ الاحاديثِ واعظاً * من القولِ ما قالَ الاديبُ الموفّقُ
إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سِرّ نفسهِ * فصدرُ الذى يُستودعُ السّرّ أضيقُ

وقال آخر

لا يكتمُ السرَّ إلا كلُّ ذى خطرٍ * والسرُّ عِندَ كِرامِ الناسِ مكتومُ
والسرُّ عِندى فى بيتٍ له غَلَقٌ * قد ضاعَ مفتاحُهُ والبابُ مردومُ

قيل .. دخل أبو العتاهية على المهدى وقد ذاع شعره فى عُتبة فقال ما أحسنت فى حبك ولا أجملت فى إذاعة سرك .. فقال

من كانَ يزعمُ أن سيكتمُ حُبّهُ * أو يستطيعُ السّترَ فهو كذوبُ
الحُبُّ أغلبُ للرّجالِ بقهرهِ * من أن يُرى للسرّ فيه نصيبُ
وإذا بدا سرُّ اللبيبِ فإنهُ * لم يبدُ إلا والفتى مغلوبُ
إنى لأحسُدُ ذا هوىً مستحفظاً * لم تتهمهُ أعينٌ وقلوبُ

فاستحسن المهدى شعره وقال .. قد عذرناك على إذاعة سرك و وصلناك على حسن شعرك ان كتمان السر أحسن من اذاعته .. وقال زياد لكل مستشير ثقة وان الناس قد ابتدعت

بهم خصلتان اذاعة السر وترك النصيحة وليس للسر موضع الى أحد رجلين إما آخرى يرجو ثواب الله أو دنياوى له شرف فى نفسه وعقل يصون به حسبه وهما معدومان فى هذا الدهر . وقال المهلب . . ماضاقت صدور الرجال عن شىء كما تضيق عن السر . . كما قال الشاعر

ولربما كتم الوقور فصرحت * حركاته للناس عن كتمانه
ولربما رزق الفتى بسكوته * ولربما حرم الفتى ببيانه

وقال آخر

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها * فسرك عند الناس أفشى وأضيع

وقال آخر

لسانى كتوم لاسراركم * ودمعى نموم لسرى مذيع
فلولا الدموع كتمت الهوى * ولولا الهوى لم تكن لى دموع

﴿ محاسن المشورة ﴾

يقال . اذا استخار الرجل ربه واستشار نصيحه واجتهد فقد قضى ما عليه ويقضى الله فى أمره ما يحب . . وقال آخر حسن المشورة من المشير قضاء حق النعمة . . وقيل اذا استشرت فانصح واذا قدرت فاصفح . . وقيل من وعظ أخاه سرا زانه ومن وعظه جهرا شانه . . وقال آخر الاعتصام بالمشورة نجاة . وقال آخر نصف عقلك مع أخيك فاستشره . وقال آخر اذا أراد الله لعبد هلاكا أهلكه برأيه . وقال آخر المشورة تقوم اعوجاج الرأى . وقال آخر إياك ومشورة النساء فان رأيهن الى أفن وعزمهن الى وهن

﴿ ضده ﴾

قال بعض أهل العلم ، لو لم يكن فى المشورة الا استضعاف صاحبك لك وظهور فقرك اليه لوجب اطراح ما تفيده المشورة والقاء ما يكسبه الامتنان وما استشرت أحدا الا كنت عند نفسى ضعيفا وكان عندى قويا وتصاغرت له ودخلته العزة فاياك والمشورة وان ضاقت بك المذاهب واختلفت عليك المسالك وأداك الاستبهام الى الخطأ الفادح فان صاحبها أبدا مستذل مستضعف وعليك بالاستبداد فان صاحبه أبدا جليل فى العيون مهيب فى الصدور ولن تزال كذلك ما استغنيت عن ذوى العقول فاذا افتقرت اليها حقرتك العيون ورجفت بك أركانك وتضعضع بنيانك وفسد تدبيرك واستحقرك الصغير واستخف بك الكبير وعرفت بالحاجة

اليهم . وقيل نعم المستشار العلم ونعم الوزير العقل . وممن اقتصر على دون المشورة الشعبي فانه خرج مع ابن الاشعث فقدم به على الحجاج فلقيه يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج فقال له أشر على فقال لا أدرى بما أشير ولكن اعتذر بما قدرت عليه وأشار بذلك عليه كافة أصحابه ، قال الشعبي فلما دخلت خالفت مشورتهم ورأيت والله غير الذي قالوا فسلمت عليه بالامرة ثم قلت أيد الله الامير ان الناس قد أمروني ان أعتذر بغير ما يعلم الله انه الحق وتالله أن لا أقول فى مقامى هذا الا الحق قد جهدنا وحرّضنا فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا الاتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظهرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وان عفوت فبحلمك والحجة لك علينا . فقال الحجاج أنت والله أحب الينا قولا ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا ويقول والله ما فعلت ولا شهدت أنت آمن يا شعبي فقلت أيها الامير اكتحلت والله بعدك السهر واستحلست الخوف وقطعت صالح الاخوان ولم أجد من الامير خلفا . قال صدقت وانصرفْ

﴿ محاسن الشكر ﴾

قال بعض الحكماء . صن شكرك عمن لا يستحقه واسترماء وجهك بالقناعة . وقال الفضل ابن سهل من أحب الازدياد من النعم فليشكر ومن أحب المنزلة فليكف ومن أحب بقاء عزه فليسقط دالته ومكره . ومن ذلك قول رجل لرجل شكره فى معروف

لقدْ ثبتتْ فى القلبِ منكَ مودة * كما ثبتتْ فى الراحتينِ الاصابعُ

قال . واصطنع رجل رجلا فسأله يوما أتحبني يا فلان قال نعم أحبك حبا لو كان فوقك لاظلّك أو كان تحتك لاقلّك . وقال كسرى أنوشروان المنعم أفضل من الشاكر لانه جعل له السبيل الى الشكر . واختصر حبيب بن أوس هذا فى مصراع واحد فقال

لهان علينا أن نقولَ وتفعلَا

الباهلى عن أبي فروة قال ،، مكتوب فى التوراة اشكر من انعم عليك وانعم على من شكرك فانه لا زوال للنعم اذا شكرت ولا اقامة لها اذا كفرت والشكر زيادة فى النعم وامان من الغير وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . خمس تعاجل صاحبهن بالعقوبة البغي والغدر وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم ومعروف لا يشكر ،، وانشد الحطيئة عمر وكعب الاحبار عنده

منْ يفعلِ الخيرَ لا يعدمْ جوازيَهُ * لا يذهبُ العُرفُ بين اللهِ والناسِ

فقال كعب ،، يا أمير المؤمنين من هذا الذي قال هذا فانه مكتوب فى التوراة فقال عمر كيف ذلك قال فى التوراة مكتوب . . من يصنع الخير لا يضيع عندى لا يذهب العرف بيني

وبين عبدى .. وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا الاجتهاد فقال .. أفلا أكون عبداً شكورا .. وفى الحديث ان رجلا قال فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اللهم ربنا لك الحمد حمداً مباركا طيباً زكياً فلما انصرف صلى الله عليه وسلم قال ايكم صاحب الكلمة قال أحدهم انا يا رسول الله فقال لقد رأيت سبعة وثلاثين ملكا يبتدرون أيهم يكتبها أولا .. وقيل نسيان النعمة أول درجات الكفر ،، وقال أمير المؤمنين على رضى الله عنه المعروف يكفر من كفره لانه يشكرك عليه أشكر الشاكرين وقد قيل فى ذلك

يدُ المعرُوفِ غُنمٌ حيث كانتْ * تحمَّلها كفورٌ أمْ شكُورُ
فعِندَ الشاكِرين لها جزاءٌ * وعِندَ اللهِ ما كفرَ الكفُورُ

وقال بعض الحكماء ما أنعم الله على عبد نعمة فشكر عليها إلا ترك حسابه عليها . وقال بعض الحكماء عند التراخى عن شكر النعم تحل عظائم النقم .. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول لعائشة ما فعل بيتك فتنشده

يَجزِيكَ أوْ يُثني عليكَ وإنّ مَنْ * أثنى عليكَ بما فعلتَ كمَنْ جزَى

فيقول صلى الله عليه وسلم صدق القائل يا عائشة ان الله اذا أجرى على يد رجل خيراً فلم يشكره فليس لله بشاكر .. وقيل لذى الرمة لِمَ خصصت بلال بن أبى بردة بمدحك قال .. لانه وطّأ مضجعى وأكرم مجلسى وأحسن صلتى فحق لكثير معروفه عندى أن يستولى على شكرى .. ومنهم من يُقدّم ترك مطالبة الشكر وينسبه الى مكارم الاخلاق .. من ذلك ما قاله بزرجمهر من انتظر بمعروفه شكرك عاجل المكافأة . وقال بعض الحكماء ان الكفر يقطع مادة الانعام فكذلك الاستطالة بالصنيعة تمحق الاجر ، وقال على بن عبيدة من المكارم الظاهرة وسنن النفس الشريفة ترك طلب الشكر على الاحسان ورفع الهمة عن طلب المكافأة واستكثار القليل من الشكر واستقلال الكثير مما يبذل من نفسه . وفى فصل من كتاب ولست أقابل أياديك ولا أستديم احسانك الا بالشكر الذى جعله الله للنعم حارساً وللحق مؤديا وللمزيد سببا

﴿ ضده ﴾

قال بعض الحكماء ، المعروف الى الكرام يعقب خيراً والى اللئام يعقب شراً ومثل ذلك مثل المطر يشرب منه الصدف فيعقب لؤلؤا وتشرب منه الافاعى فيعقب سُما . وقال سفيان

وجدنا أصل كل عداوة اصطناع المعروف الى اللئام وقال اثار جماعة من الاعراب ضبعاً فدخلت خباء شيخ منهم فقالوا أخرجها فقال ما كنت لافعل وقد استجارت بى فانصرفوا وقد كانت هزيلا فاحضر لها لقاحا وجعل يسقيها حتى عاشت فنام الشيخ ذات يوم فوثبت عليه فقتلته فقال شاعرهم فى ذلك

وَمَنْ يَصنع المعروفَ مع غيرِ أهلِهِ * يُلاقِ الذى لاقى مُجيرُ أمِّ عامرِ
أقامَ لها لما أناختْ ببابهِ * لِتَسمَنَ ألبانَ اللقاحِ الدَّرائرِ
فأسمنها حتى إذا ما تمكنتْ * فرتهُ بأنيابٍ لها وأظافرِ
فقلْ لذوى المعروفِ هذا جزاءُ مَنْ * يجودُ باحسانٍ الى غيرِ شاكرِ

قيل .. وأصاب اعرابى جرو ذئب فاحتمله الى خبائه وقرّب له شاة فلم يزل يمتص من لبنها حتى سمن وكبر ثم شد على الشاة فقتلها فقال الاعرابى يذكر ذلك

غذتكَ شُوَيهتى ونشأتَ عندى * فمَنْ أدراكَ أنَّ أباكَ ذيبُ
فجعتَ نُسيّةً وصغارَ قومٍ * بشاتِهِمْ وأنت لها رَبيبُ
اذا كان الطباعُ طِباعَ سوْءٍ * فليس بنافعٍ أدبُ الاديبُ

وفى المثل سَمِّنْ كلبك يأكلك .. وأنشد

همُ سمَّنوا كلباً ليأكلَ بعضَهُمْ * ولوْ عَمِلوا بالحزمِ ماسَمَّنوا كلباً

وقال اخر

وإنى وقيسا كالمُسمِّنِ كلبَهُ * تخدّشَهُ أنيابُهُ وأظافِرُه

ويضرب المثل بسنمار ، وكان بنى للنعمان بن المنذر الخورنق فاعجبه وكره أن يبنى لغيره مثله فرمى به من أعلا دفات فقيل فيه

جزينا بنى سعدٍ بحسنِ بلائِهم * جزاءَ سِنمّارٍ وما كان ذا ذنبِ

وقال بشار(١)

أثنى عليكَ ولى حالٌ تكذّبنى * فيما أقولُ فأستحيي من الناسِ
قدْ قلتُ إن أباحفصٍ لأكرمُ منْ * يمشى فخاصمنى فى ذاكَ إفلاسى
حتى اذا قيلَ ما أعطاكَ منْ صفدٍ * طأطأتُ من سوءِ حالى عندَها راسى

---

(١) المشهور ان الابيات لابي العتاهية .. وأولها

يا ابن العلاء ويا ابن القرم مرداسي * اني أتيتك في صحبي وجلاسي

ولابى الهول

كانى إذ مدحتك يابن معن * رآنى الناس فى رمضان أزنى
فإن أك رحت عنك بغير شىء * فلا تفرح كذلك كان ظنى

وقال آخر

لحى الله قوما أعجبتهم مدائحى * فقالوا مقالا فى ملام وفى عتب
أبا حازم تمدح فقلت معذرا * هبونى امرأ جربت سيفى فى كلب

وقال آخر

عثمان يعلم أن الحمد ذو ثمن * لكنه يشتهى حمدا بمجان
والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا * حتى يروا عنده آثار إحسان

وقال آخر

يحب المديح أبو خالد * ويغضب من صلة المادح
كبكر تحب لذيذ النكاح * وتجزع من صولة الناكح

وقال آخر

ولو كان يستغنى عن الشكر سيد * لعزة ملك أو علو مكان
لما أمر الله العباد بشكره * فقال اشكرونى أيها الثقلان

﴿ محاسن الصدق ﴾

قال بعض الحكماء . عليك بالصدق فى السيف القاطع فى كف الرجل الشجاع باعز من الصدق والصدق عز وان كان فيه ما تكره والكذب ذل وان كان فيه ما تحب ومن عرف بالكذب اتهم فى الصدق . وقيل الصدق ميزان الله الذى يدور عليه العدل والكذب مكيال الشيطان الذى يدور عليه الجور . وقال ابن السماك ما أحسبنى أوجر على ترك الكذب لانى أتركه انفة . وقال آخر لو لم يترك العاقل الكذب الا مروءة لكان بذلك حقيقا فكيف وفيه المأثم والعار . وقال الشعبى عليك بالصدق حيث ترى انه يضرك فانه ينفعك واجتنب الكذب حيث ترى انه ينفعك فانه يضرك . وقال بعضهم الصدق عز والكذب خضوع ومدح قوم بالصدق منهم أبو ذر رضى الله عنه فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء ولا طلعت الشمس على ذى لهجة أصدق من أبى ذر ، ومنهم العباس

ابن عبد المطلب رضى الله عنه فانه روى انه اطلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل فقال له جبريل هذا عمك العباس قال نعم قال ان الله تعالى يأمرك أن تقرأ عليه السلام وتعلمه ان اسمه عند الله الصادق وان له شفاعة يوم القيامة فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فتبسم فقال ان شئت أخبرتك مما به تبسمت وان شئت أن تقول فقل فقال بل تعلمنى يارسول الله فقال لانك لم تحلف يمينا فى جاهلية ولا اسلام برة ولا فاجرة ولم تقل لسائل لا فقال والذى بعثك بالحق نبيا ما تبسمت الا لذلك . و يروى أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى استسر بخلال الزنا والسرقة وشرب الخمر والكذب فأيهن أحببت تركته قال دع الكذب فمضى الرجل فهم بالزنا فقال يسألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان جحدت نقضت ما جعلته له وان أقررت حددت فلم يزن فهم بالسرقة وشرب الخمر ففكر فى ذلك فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له قد تركتهن أجمع . فاما من رخص له فى الكذب فيروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يصلح الكذب الا فى ثلاث كذب الرجل لاهله ليرضيها وكذب فى اصلاح ما بين الناس وكذب فى حرب . وروى عن المغيرة بن ابراهيم انه قال لم يرخص لاحد فى الكذب الا للحجاج ابن علاط فانه لما فتحت خيبر قال يارسول الله ان لى عند امرأة من قريش وديعة فاذن لى يارسول الله أن أكذب عليك كذبة لعلى أستل وديعتى فرخص له فى ذلك فقدم مكة فأخبرهم أنه ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أسيرا فى أيديهم يأتمرون فيه فقائل يقول يقتل وقائل يقول لا بل يبعث به الى قومه فتكون منة فجعل المشركون يتباشرون بذلك و يسيئون العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس يريهم التجمل وأخذ الرجل وديعته فاستقبله العباس وقال ويحك ما الذى أخبرت به فاعلمه السبب ثم أخبره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح خيبر ونكح صفية بنت حيى بن أخطب وقتل زوجها وأباها ثم قال اكتم على اليوم وغدا حتى أمضى ففعل ذلك فلما مضى يومان أخبرهم العباس بالذى أخبره فقالوا ومن أخبرك بهذا قال من أخبركم بضده

﴿ ضده ﴾

قيل . وجد فى بعض كتب الهند ليس لكذوب مروءة ولا لضجور رياسة ولا لملول وفاء ولا لبخيل صديق . وقال قتيبة بن مسلم لا تطلبن الحوائج من كذوب فانه يقربها وان كانت بعيدة و يبعدها وان كانت قريبة ولا الى رجل قد جعل المسألة مأكلة فانه يقدم حاجته قبلها و يجعل حاجتك وقاية لها ولا الى أحمق فانه يريد نفعك فيضرك . وقيل أمران لا ينفكان من كذب كثرة المواعيد وشدة الاعتذار . . وقيل كفاك موبخا على الكذب علمك بانك كاذب

وقال رجل لابى حنيفة ما كذبت قط قال أما هذه فواحدة . وفى المثل هو أكذب من أخيذ السند ،، وذلك انه يؤخذ الخسيس منهم فيزعم انه ابن الملك . وكذلك يقال أكذب من سيّاح خراسان ،لانهم يجتازون فى كل بلد و يكذبون للسؤال والمسائلة و يقال هو أكذب من الشيخ الغريب ،وذلك انه يتزوج فى الغربة وهو ابن سبعين سنة فيزعم انه ابن أربعين . و يقال هو أكذب من مسيلمة و به يضرب المثل * ومما قيل فى ذلك من الشعر

حَسْبُ الكذوبِ من البليّـةِ بعضُ ما يحكى عليـهِ
ما إنْ سمِعْتُ بكِذْبَةٍ * منْ غيرِهِ نُسِبتْ اليهِ

وقال آخر

لقدْ أخْلَفتنى وحلفتَ حتى * إخالكَ قدْ كذبْتَ وإنْ صدقْتا
ألا لاتحلفنَّ على كلامٍ * فأكذبُ ماتكونُ إذا حلفتا

وقال آخر

قدْ كنتُ أُنجزُ دهراً ماوعدتُ إلى * أنْ أتلفَ الوعدُ ما جمعتُ من نَشبِ
فإنْ أكنْ صرتُ فى وعدى أخا كذِبٍ * فنُصْرةُ الصدقِ أفضتْ بى الى الكذِب

قال الاصمعى — قال الخليل بن سهل ،، يا أبا سعيد أعلمت أن طول رمح رستم كان سبعين ذراعا من حديد مُصمَتَ فى غلظ الراقود فقلت هاهنا اعرابى له معرفة فاذهب بنا اليه فحدثه بهذا فذهبت به الى الاعرابى فحدثه فقال الاعرابى ،، قد سمعت بذلك و بلغنا أن رستم هذا كان هو واسفنديار أتيا لقمان بن عاد بالبادية فوجداه نائما ورأسه فى حجر أمه فقالت لهما ماشاء نكما فقالا بلغنا شدة هذا الرجل فاتيناه فانتبه فزعاً من كلامهما فنفخهما فألقاهما الى أصبهان فقبرهما اليوم بها ،، فقال الخليل قبحك الله ما أكذبك قال يا ابن أخى ما بيننا شيئاً الا وهو دون الراقود . قيل وقدم بعض العمال من عمل فدعا قوما الى طعامه وجعل يحدثهم بالكذب فقال بعضهم ،، نحن كما قال الله عز وجل (سَمّاعونَ للكَذِبِ أكّالونَ للسُّحتِ) * قيل وكان رجال من أهل المدينة من بين فقيه وراوية وشاعر يأتون بغداد فيرجعون بحظوة وحال حسنة فاجتمع عدة منهم فقالوا لصديق لهم لم يكن عنده شىء من الادب . لو أتيت العراق فلعلك أن تصيب شيئاً قال أنتم أصحاب آداب تلتمسون بها فقالوا نحن نحتال لك فأخرجوه فلما قدم بغداد طلب الاتصال بعلى ابن يقطين وشكا اليه الحاجة فقال ماعندك من الادب فقال ليس عندى من الادب شىء غير انى أكذب الكذبة وأخيل الى من يسمعها انى صادق وكان ظريفا مليحا فاعجب به وعرض

عليه مالا فابى أن يقبله وقال ما أريد منك الا أن تسهل أذنى وتدنى مجلسى قال ذلك لك وكان من أقرب الناس اليه مجلساً حتى عرف بذلك ، وكان المهدى قد غضب على رجل من القواد واستصفى ماله وكان يختلف الى علىّ بن يقطين رجاء أن يكلم له المهدى وكان يرى قرب المدينى ومكانه من علىّ فاتى المدينى القائد عشيا فقال ما البشرى قال لك البشرى وحكمك قال أرسلنى علىّ بن يقطين اليك وهو يقرؤك السلام ويقول قد كلمت أمير المؤمنين فى أمرك ورضى عنك وأمر برد مالك وضياعك ويأمرك بالغدوّ اليه لتغدو امعه الى أمير المؤمنين متشكراً فدعا له الرجل بالف دينار وكسوة وحُملانٍ وغدا على علىّ مع جماعة من وجوه العسكر متشكراً فقال له على وما ذاك قال أخبرنى أبو فلان ـ وهو الى جنبه ـ كلامك أمير المؤمنين فى أمرى ورضاه عنى فالتفت الى المدينى وقال ما هذا فقال أصلحك الله هذا بعض ذلك المتاع نشرناه فضحك علىّ وقال علىّ بدابتى وركب الى المهدى وحدثه الحديث فضحك المهدى . وقال إنا قد رضينا عن الرجل ورددنا عليه ماله . وأجرى على المدينى رزقاواسعاواستوصى به خيرا ثم وصله . وكان يُعرف بكذاب أمير المؤمنين

﴿ محاسن العفو ﴾

قيل . أسر مصعب بن الزبير رجلا من أصحاب المختار فامر بضرب عنقه . فقال أيها الامير ما أقبح بك ان أقوم يوم القيامة الى صورتك هذه الحسنة فاتعلق باطرافك وأقول رب سل مصعباً فيم قتلنى فقال أطلقوه فقال . أيها الامير اجعل لى ما وهبت لى من عمرى فى خفض عيش فقال اعطوه مائة ألف درهم قال . بابى أنت وأمى أشهدك أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفا قال لم قال لقوله فيك

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ من اللـــه تجلت عنْ وجهه الظلماءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ رافةٍ ليس فيه * جبرُوتٌ ولا له كبرياءُ

فضحك مصعب وقال . لقد تلطفت وان فيك لموضعا للصنيعة وأمر له بالمائة ألف ولابن قيس الرقيات بخمسين ألف درهم قيل وأمر الرشيد يحيى بن خالد بحبس رجل جنى جناية فحبسه ثم سال عنه الرشيد فقيل هو كثير الصلاة والدعاء فقال للموكل به عرّض له بان تكلمنى وتسألنى اطلاقه فقال له الموكل ذلك فقال قل لامير المؤمنين ان كل يوم يمضى من نعمتك ينقص من محنتى والامر قريب والموعد الصراط والحاكم الله فخرّ الرشيد مغشيا عليه ثم أفاق وأمر باطلاقه . وقيل ظفر المأمون برجل كان يطلبه فلما دخل عليه قال يا عدو الله أنت الذى تفسد

فى الارض بغير الحق ياغلام خذه اليك فاسقه كاس المنية فقال ياأمير المؤمنين ان رأيت أن تبقينى حتى أؤ يدك عال قال لا سبيل الى ذلك فقال ياأمير المؤمنين فدعنى أنشدك أبياتا قال هات فانشده

زعموا بأنَّ الباز عاق مرّةً * عُصفورُ بَرّ ساقه المقدورُ
فتكلّم العُصفور تحت جناحه * والبازُ مُنقضٌ عليه يطيرُ
ماني لما يُغني لمثلك شُبعةً * ولئنْ أُكلتُ فانّني لحقيرُ
فتبسّم البازُ المُدِلُّ بنفسه * كرماً وأُطلِقَ ذلك العُصفورُ

فقال له المأمون أحسنت ماجرى ذلك على لسانك الا لبقية بقيت من عمرك فاطلقه وخلع عليه ووصله * وعن بعضهم ان واليا أتى برجل جنى جناية فأمر بضربه فلما مدّ قال . بحق رأس أمك الا ماعفوت عنى قال أوجع فقال بحق خدها ونحرها قال أضرب قال بحق ثديها قال أضرب قال بحق سرتها قال ويلكم دعوه ولا ينحدر قليلا * وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال إن الرجل اذا ظُلم فلم ينتصر ولم يجد من ينصره فرفع طرفه الى السماء ودعا قال الله له لبيك عبدى أنصرك عاجلا وآجلا * وقال صلى الله عليه وسلم فى قولهم انصر أخاك ظالما أومظلوما . . وقد سئل عن ذلك فقيل . . أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما فقال تمنعه من الظلم فذلك نصرك اياه * وقال . . فُضيل بن عياض بكى أبى فقلت ما يبكيك فقال أبكى على ظالمى ومن أخذ مالى أرحمه غدا اذا وقف بين يدى الله عز وجل وسأله فلا تكون له حجة . . وقال الحسن البصرى أيها المتصدق على السائل يرحمه ارحم أولا من ظلمت وروى عن عبد الله بن سلام قال قرأت فى بعض الكتب قال الله عز وجل اذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى قال . . خالد بن صفوان اياكم ومجانيق الضعفاء ـ يعنى الدعاء ـ

﴿ ضده ﴾

قيل لما قالت التغلبية للجحّاف بن حكيم السلمى فى وقعته . بالبشر فض الله عمادك وأطال سهادك وأقل رقادك والله ان قتلت الا نساء أسافلهن دُمىً وأعاليهن ثدىً فقال لمن حوله لولا أن تلد مثلها لخليت سبيلها فبلغ ذلك الحسن البصرى فقال . . أما الجحاف فجذوة من نار جهنم قال ولما بنى زياد بناء البصرة أمر أصحابه ان يسمعوا من أفواه الناس فأتى برجل تلا آية ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ قال وما دعاك الى هذا قال آية من كتاب الله عز وجل خطرت على بالى فتلوتها قال والله لاعملن فيك بالآية الثانية ﴿ واذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ ثم أمر به فبنى عليه ركن من أركان القصر * قال وبعث زياد الى رجل من بنى تميم

فقال اخبرونى بصلحاء كل ناحية فأخبروه فاختار منهم رجالا فضمنهم الطريق. وقال لو ضاع بينى و بين خراسان حبل لعلمت من لقطه. وكان يدفن الناس أحياء و ينزع اضلاع اللصوص. قال وقال عبد الملك للحجاج كيف تسير فى الناس،، قال انظر الى عجوز أدركت زيادا فاسئلها عن سيرته فاعمل بها، فاخذ والله بسنته حتى ماترك منها شيئاً. وذكروا ان الحجاج لما أتى المدينة أرسل الى الحسن بن الحسن رضى الله عنه فقال هات سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه قال لا أفعل قال فجاء الحجاج بالسيف والسوط فقال والله لاضربنك بهذا السوط حتى اقطعه ثم لاضربنك بهذا السيف حتى تبرد أو تأتينى بهما فقال الناس يا أبا محمد لا تعرض لهذا الجبار قال فجاء الحسن بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه فوضعهما بين يدى الحجاج فأرسل الحجاج الى رجل من بنى أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له هل تعرف سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم فخالطه بين أسيافه ثم قال اخرجه ثم جاء بالدرع فنظر اليها ثم قال هناك علامة كانت على الفضل بن العباس يوم اليرموك فطعن بحربة فخرقت الدرع فعرفناها فوجد الدرع على ما قال فقال الحجاج أما والله لو لم تجئنى به وجئت بغيره لضربت به رأسك.. وذكروا ان الحجاج قال ذات ليلة لحاجبه،، أعسس بنفسك فمن وجدته فجئنى به فلما أصبح أتاه بثلاثة فقال، أصلح الله الامير ما وجدت الا هؤلاء الثلاثة، فقال الحجاج لواحد منهم ما كان سبب خروجك بالليل وقد نادى المنادى ان لا يخرج أحد بالليل قال، أصلح الله الامير كنت سكران فغلبنى السكر فخرجت ولا أعقل، ففكر ساعة ثم قال، سكران غلبه سكره خلوا عنه لا تعودنّ، ثم قال للآخر فانت ما سبب خروجك قال.. أصلح الله الامير كنت مع قوم فى مجلس يشربون فوقعت بينهم عربدة فخفت على نفسى فخرجت. ففكر الحجاج ساعة فقال. رجل أحب المسالمة خلوا عنه. ثم قال للآخر ما كان سبب خروجك فقال لى والدة عجوز وأنا رجل حمال فرجعت الى بيتى فقالت والدتى ماذقت الى هذا الوقت طعاما ولا ذواقا فخرجت التمس لها ذلك فاخذنى العسس. ففكر ساعة ثم قال. ياغلام اضرب عنقه فاذا رأسه بين رجليه

﴿ محاسن الصبر على الحبس ﴾

قال الكسروى.. وقع كسرى بن هرمز الى بعض المحبّسين من صبر على النازلة كان كمن لم تنزل به ومن طوّل فى الحبل كان فيه عطبة ومن أكل بلا مقدار تلفت نفسه.. قيل ودخل ابن الزيات على الافشين وهو محبوس.. فقال يخاطبه

إصبرْ لها صبرَ أقوامٍ نفوسهمُ * لا تستريحُ الى عقل ولا قود

فقال الافشين ٠ من صحب الزمان لم ينج من خيره أو شره و وجد الكرامة والهوان ٠ ثم قال

لم ينجُ من خيرِها أو شرّها أحدٌ * فذكر شوائبها إن كنت من أحدِ

خاضتْ بك المُنيةُ الحمقاءُ غمرتَها * فتلك أمواجُها ترميك بالزبدِ

ولعليّ بن الجهم لما حبسه المتوكل

قالتْ حُبِستَ فقلتُ ليس بضائري * حبسي وأيُّ مهنّدٍ لا يُغمدُ

أوَ ما رأيتِ الليثَ يألفُ غيلهُ * كِبرًا وأوباشُ السباعِ تردّدُ

والنارُ في أحجارِها مخبوءةٌ * لا تصطلي إن لم تُثِرْها الأزنُدُ

والبدرُ يدركهُ الظلامُ فتنجلي * أيامهُ وكأنهُ متجدّدُ

والزاعبيةُ لا يُقيمُ كعوبَها * إلا الثقافُ وجذوةٌ تتوقدُ

غِيرُ الليالي بادئاتٌ عوّدٌ * والمالُ عاريةٌ يُفادُ وينفدُ

لا يؤيسنّكَ من تفرّج كربةٍ * خطبٌ أتاك به الزمانُ الانكدُ

فلكلّ حالٍ مُعقِبٌ ولربما * أجلى لك المكروهُ عمّا تحمدُ

كم من عليلٍ قد تخطاهُ الردى * فنجا ومات طبيبهُ والعوّدُ

صبرًا فإنّ اليومَ يعقبهُ غدٌ * ويدُ الخلافةِ لا تطاولها يدُ

والحبسُ ما لم تغشهُ لدنيةٍ * شنعاءَ نِعمَ المنزلُ المتوردُ

لو لم يكنْ في الحبس إلا أنهُ * لا يستذلّكَ بالحجابِ الاعبدُ

بيتٌ يجدّدُ للكريمِ كرامةً * ويُزارُ فيه ولا يَزورُ ويُحمدُ

أبلغْ أميرَ المؤمنين ودونهُ * خوفُ العِدى ومخاوفٌ لا تنفدُ

أنتم بنو عمّ النبيّ محمدٍ * أولى بما شرعَ النبيُّ محمدُ

ما كان من حسنٍ فأنتم أهلهُ * كرُمتْ مغارسُكم وطاب المحتِدُ

أمِنَ السويّةِ يا ابنَ عمّ محمدٍ * خصمٌ تقرّبهُ وآخرُ يبعدُ

يا أحمدَ بنَ أبي دؤادٍ إنما * تُدعى لكلّ كريهةٍ يا أحمدُ

إن الذين سعَوْا اليكَ بباطلٍ * أعداءُ نعمتِكَ التي لا تُجحدُ

شهدوا وغبنا عنهمُ فتحكموا * فينا وليس كغائبٍ من يشهد
لو يجمع الخصماءُ عندك منزلٌ * يوما لبان لك الطريقُ الارشدُ
والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ * عن ناظريك لما أضاء الفرقدُ

﴿ ضده ﴾

أنشدنا عاصم بن محمد الكاتب لنفسه لما حبسه احمد بن عبد العزيز بن أبي دلف . قوله
قالت حُبستَ وقلت خَطبٌ أنكدُ * أنحى عليَّ به الزمانُ المُرصدُ
لو كنتُ حرًّا كان سرْبى مطلقاً * ما كنتُ أُحبَسُ عنوةً وأقيَّدُ
لو كنتُ كالسيفِ المهنَّدِ لم يكنْ * وقتَ الكريهةِ والشدائدِ يُغمدُ
لو كنتُ كالليثِ الهصورِ لما رعتْ * فيَّ الذئابُ وجذوتى تتوقَّدُ
مَنْ قال إنَّ الحبسَ بيتُ كرامةٍ * فمكاشرٌ فى قولهِ متجلدٌ
ما الحبسُ الا بيتُ كلِّ مهانةٍ * ومذلةٍ ومكاردٍ لا تنفد
إن زارنى فيه العدوُّ فشامتٌ * يُبدى التوجُّعَ تارةً ويُفنّدُ
أو زارنى فيه المحبُّ فموجَعٌ * يُذرى الدموعَ بزفرةٍ تتردَّدُ
يكفيك أن الحبسَ بيتٌ لا يُرى * أحدٌ عليه من الخلائقِ يُحسدُ
تمضى الليالى لا أذوقُ لرقدةٍ * طعماً وكيف يذوقُ من لا يرقدُ
فى مُطبقٍ فيه النهارُ مشاكلٌ * لليلِ والظلماتُ فيه سرمدُ
فالى متى هذا الشقاءُ مؤكَّدٌ * وإلى متى هذا البلاءُ مُجدَّدُ
مالى مُجيرٌ غيرُ سيدىَ الذى * مازال يكفلُنى فنعمَ السيدُ
غذيتْ حُشاشةُ مُهجتى بنوافلٍ * من سيبهِ وصنائعٍ لا تُجحدُ
عشرين حولا عشتُ تحت جناحهِ * عيشَ الملوكِ وحالتى تتزيَّدُ
فخلا العدوُّ بموضعى من قلبهِ * فحشاهُ جمرًا نارُهُ تتوقَّدُ
فاغفرْ لعبدكَ ذنبَهُ متطوّلا * فالحمدُ منك سجيةٌ لا تُعهدُ
واذكرْ خصائص خدمتى ومقاومى * أيّامَ كنتَ جميعَ أمرى تحمدُ

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهم

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها * فلسنا من الاموات فيها ولا الاحيا
إذا دخل السجان يوماً لحاجة * عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا فجل حديثنا * إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا
فان حسنت كانت بطيئاً مجيئها * وإن قبحت لم تنتظر وأتت سعيا

وقال آخر

ألا أحد يدعو لاهل محلة * مقيمين فى الدنيا وقد فارقوا الدنيا
كأنهم لم يعرفوا غير دارهم * ولم يعرفوا غير الشدائد والبلوى

وقال ابن المعتز

تعلمت فى السجن نسج التكك * وكنت امرأ قبل حبسى ملك
وقيدت بعد ركوب الجياد * وماذاك الا بدور الفلك
ألم تبصر الطير فى جوها * تكاد تلاصق ذات الحبك
إذا أبصرته خطوب الزمان * أوقعنه فى حبال الشرك
فهذاك من حالق قد يصاد * ومن قعر بحر يصاد السمك

ووجد فى البيت الذى قتل فيه مكتوب بخطه على الارض

يا نفس صبراً لعل الخير عقباك * خانتك بعد طوال الامن دنياك
مرت بنا سحراً طير فقلت لها * طوباك ياليتنى إياك طوباك

وقال اعرابى

ولما دخلت السجن كبر أهله * وقالوا أبو ليلى الغداة حزين
وفى الباب مكتوب على صفحاته * بانك تنزو ثم سوف تلين

وفى الحديث المرفوع ان يوسف عليه السلام شكى الى الله تعالى طول الحبس فأوحى اليه أنت حبست نفسك حين قلت (رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) ولو قلت العافية أحب الى لعوفيت قال وكتب يوسف عليه السلام على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء

محاسن المودة

قال بعض الحكماء ليس للانسان نعيم الا بمودات الاخوان * وقال آخر الازدياد من

الاخوان زيادة فى الاجال وتوفير لحسن الحال وقيل عاشروا الناس معاشرة ان عشتم حنوا اليكم وان متم بكوا عليكم وقال

قد يمكث الناس حيناً ليس بينهم * ودٌّ فيزرعه التسليم واللطفُ
يسلي الشقيقين طولُ النأي بينهما * وتلتقي شعبٌ شتّى فتأتلف

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لابنه الحسين ،، ابذل لصديقك كل المودة ولا تطمئن اليه كل الطمأنينة واعطه كل المواساة ولا تفش اليه كل الاسرار وقال العباس بن جرير .. المودة تعاطف القلوب و ائتلاف الارواح وانس النفوس و وحشة الاشخاص عند تنائى اللقاء وظهور السرور بكثرة التزاور وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون الاتفاق فى الخصال . وقال بعضهم من لم يواخ من الاخوان الا من لا عيب فيه قل صديقه ومن لم يرض من صديقه الا بايثاره إياه على نفسه دام سخطه ومن عاتب على غير ذنب كثر عدوه . وكان يقال أعجز الناس من فرط فى طلب الاخوان . وقال الشاعر فى مثله

لعمرك ما مالُ الفتى بذخيرةٍ * ولكنَّ إخوانَ الثقاتِ الذخائرُ

— ضده —

قال المأمون ،، الاخوان ثلاث طبقات طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه أحيانا وطبقة كالداء الذى لا يحتاج اليه . وكتب بعض الكتاب ان فلانا أولانى جميلا من البشر مقرونا بلطيف من الخطاب فى بسط وجهه ولين كنف فلما كشفته الامتحان بيسير الحاجة كان كالتابوت المطلى عليه بالذهب المملوء بالعذرة أعجبك حسنه ما دام مطبقا فلما افتتح آذاك نتنه فلا أبعد الله غيره .. ومما قيل فى ذلك

والله لو كرهتْ كفى مُنادمتى * لقلتُ للكفّ بينى إذ كرِهتينى

وقال آخر

ولو أنى تُخالِفُنى شمالى * لما أتبعتها أبداً يمينى
إذاً لقطعتها ولقُلتُ بينى * كذلك أجتوى من يجتوينى

وقال آخر

منْ لم يُرِدْكَ فلا تُرِدْهُ * ليكنْ كمنْ لم تستفدْهُ
باعِدْ أخاكَ ببعدِهِ * فإذا تأى شبراً فزِدْهُ

وقال آخر

تَوَدُّ عَدُوِّى ثُمَّ تزعمُ أنَّنى * أوَدُّكَ إنَّ الرأىَ منكَ لعازبُ
وليس أخى من ودَّنى رأىَ عينهِ * ولكنْ أخى منْ ودَّنى وهو غائبُ

وقال آخر

إنَّ اختيارَكَ لا عن خبرةٍ سلفتْ * إلاَّ الرَّجاءُ وممَّا يخطئُ النظرُ
كالمستغيثُ ببطنِ السيلِ يحسِبهُ * حرْزاً يبادرُهُ إذ بلَّهُ المطرُ

وقال آخر

وصاحبٍ كان لى وكنتُ لهُ * أشفقَ منْ والدٍ على ولدِ
وكان لى مؤنساً وكنتُ لهُ * ليستْ بنا وحشةٌ إلى أحدِ
كُنا كساقٍ مشتْ بها قدمٌ * أو كذراعٍ نيطتْ إلى عَضُدِ
حتى إذا أمكن الحوادثُ مِنْ * حظى وحلَّ الزمانُ من عقدى
إزْوَرَّ عنّى وكانَ ينظرُ منْ * عينى ويرمى بساعدى ويدى
حتى إذا استرفدَتْ يدى يدَهُ * كنتُ كمسترفدٍ يدَ الاسدِ

وقال آخر

فيا عجباً لمنْ ربَّيتُ طفلاً * ألقمهُ بأطرافِ البنانِ
أعلّمهُ الرمايةَ كلَّ يومٍ * فلما اشتدَّ ساعدُهُ رمانى
أعلمهُ الفتوَّةَ كلَّ حينٍ * فلما طرَّ شاربُهُ جفانى
أعلمهُ الرِّوايةَ كلَّ وقتٍ * فلما صارَ شاعرَها هجانى

﴿ محاسن الولايات ﴾

سئل عمار بن ياسر رضى الله عنه عن الولاية فقال ،، هى حلوة الرضاع مرة الفطام وذكروا انه كان سبب عزل الحجاج بن يوسف عن المدينة وقد وفد من أهل المدينة منهم عيسى بن طلحة بن عبيد الله على عبد الملك بن مروان فاثنوا على الحجاج وعيسى ساكت فلما قاموا ثبت عيسى حتى خلا له وجه عبد الملك فقام فجلس بين يديه فقال . يا أمير المؤمنين من أنا قال . عيسى بن طلحة بن عبيد الله قال فمن أنت قال عبد الملك بن مروان قال أفجهلتنا أو تغيرت بعدنا قال وماذاك قال وليت علينا الحجاج بن يوسف يسير بالباطل و يحملنا على ان نثنى عليه بغير الحق والله لئن أعدته علينا لنعصينك وان قاتلتنا وغلبتنا وأسأت الينا قطعت أرحامنا ولئن قوينا عليك لنغصبنك ملكك

فقال له عبد الملك انصرف والزم بيتك ولا تذكرن من هذا شيأ قال فقام الى منزله وأصبح الحجاج غاديا الى عيسى بن طلحة فقال جزاك الله عن خلوتك بأمير المؤمنين خيرا فقد أبدلني بكم خيرا وأبدلكم بي غيري وولاني العراق ،، وعن معمر بن وهيب قال .. كان عبد الملك عند ما استعفى أهل العراق من الحجاج قال لهم اختاروا أي هذين شئتم - يعني أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله ابن عبد الملك - مكان الحجاج فكتب اليه الحجاج ،، يا أمير المؤمنين ان أهل العراق استعفوا عثمان بن عفان من سعيد بن العاص فاعفاهم منه فساروا اليه من قابل وقتلوه . . فقال صدق ورب الكعبة وكتب الى محمد وعبد الله بالسمع والطاعة له

﴿ ضده ﴾

كتب . عبد الصمد بن المعذل الى صديق له ولي النفاطات فأظهر تيهاً

لَعَمري لقدْ أظهرْتَ تيهاً كانما * تولّيتَ للفضل بن مرْوان عُكبَرا
دَعِ الكِبرَ واستبقِ التواضعَ إنه * قبيحٌ بوالي النِّفطِ أن يتغيّرا
لحفظِ عُيونِ النفطِ أحدثتَ نخوةً * فكيف به لو كانَ مِسكاً وعنبرا

وقال ابن المعتز

كمْ تائهٍ بولايةٍ * وبعزْلِهِ يعدُو البريدُ
سُكرُ الولايةِ طيبٌ * وخُمارُهُ صعبٌ شديدُ

وقال لبيد

لا تفرحنَّ فكلُّ والٍ يُعزَلُ * وكما عُزِلتَ فعن قريبٍ تُنقلُ
وكذا الزمانُ بما يسرُّكَ تارةً * وبما يسوءُكَ تارةً يتنقّلُ

﴿ محاسن الصحبة ﴾

قيل . قال علقمة بن لبيد لابنه يا بني ان نازعتك نفسك الى الرجال يوما لحاجتك اليهم فاصحب من إن صحبته زانك وان تخففت له صانك وان نزلت بك مؤنة مانك وان قلت صدّق قولك وان صلت شدّد صولك اصحب من اذا مددت اليه يدك لفضل مدها وان رأى منك حسنة عدها وان بدت منك ثلمة سدّها واصحب من لا تأتيك منه البوائق ولا تختلف عليك منه الطرائق ولا يخذلك عند الحقائق ،، وقال آخر اصحب من خولك نفسه وملكك خدمته وتخيرك لزمانه فقد وجب عليك حقه وذمامه .. وكان يقال من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه وقال

بعضهم لصاحبه أنا أطوع لك من اليد وأذل من النعل . وقال بعضهم اذا رأيت كلبا ترك صاحبه وتبعك فارجمه فانه تاركك كما ترك صاحبه . وقال ابن أبي داود لرجل انقطع الى محمد بن عبد الملك الزيات . ماخبرك مع صاحبك فقال . لايقصر في الاحسان الى فقال : ياهذا ان لسان حالك يكذب لسان مقالك

﴿ ضده ﴾

قيل كان يوسف بن عمر الثقفي يتولى العراقين لهشام بن عبد الملك وكان مذموما في عمله تخبرني المدائني قال ،، وزن يوسف بن عمر درهما فنقص حبة فكتب الى دور الضرب بالعراق يضرب أهلها مائة . قيل وخطب في مسجد الكوفة فتكلم انسان مجنون فقال ،، ياأهل الكوفة ألم أنهكم ان تدخلوا مساجد كم المجانين اضربوا عنقه فضربت عنقه . قال وقال لهمام بن يحيي وكان عاملا له ،، يافاسق خربت مهرجانقذق قال اني لم أكن عليها انما كنت على ماه دينار وعمرت البلاد فأعاد ذلك عليه مرارا فقال همام قد أخبرتك اني كنت على ماه دينار وتقول خربت مهرجانقذق فلم يزل يعذبه حتى مات . قال وقال لكاتبه وقد احتبس عن ديوانه يوما ،، ما حبسك قال اشتكيت ضرسي قال تشتكي ضرسك وتقعد عن الديوان ودعا الحجام وأمره ان يقلع ضرسين من أضراسه ،، وعن المدائني قال . حدثني رضيع كان ليوسف بن عمر من بني عبس قال كنت لاأحجب عنه وعن خدمته فدعا ذات يوم بجوارله ثلاث ودعا بخصي له يقال له حديج فقرب اليه واحدة فقال لهـا اني أريد الشخوص أفأخلفك أوأشخصك معي فقالت صحبة الامير أحب الي ولكني أحسب ان مقامي وتخلفي اعف وأخف على قلبه فقال أحببت التخلف للفجور ياحديج أضرب فضربها حتى أوجعها ثم أمر ان يأتيه بالثانية وقدرأت مالقيت صاحبتها فقال لها اني أريد الشخوص أفأخلفك أم أخرجك فقالت ما أعدل بصحبة الامير شيئاً بل تخرجني قال أحببت الجماع ماتريدين ان يفوتك ليلة ياحديج أضرب فضربها حتى أوجعها ثم أمر ان يأتيه بالثالثة وقدرأت مالقيت المتقدمتان فقال لهـا اني أريد الشخوص أفأخلفك أم أخرجك قالت الامير أعلم لينظر أخف الامرين عليه فليفعله قال اختاري لنفسك قالت ماعندي اختيار فليختر الامير قال قد فرغت من كل عمل فلم يبق لي الاان اختار لك أوجعها ياحديج فضربها حتى أوجعها قال الرجل فكأنما أوجعني من شدة غيظي عليه فتولت الجارية فتبعها الخادم فلما بعدت قالت الخيرة والله في فراقك ماتقر عين احد بصحبتك فلم يفهم يوسف كلامها فقال ماتقول ياحديج قال قالت كذا وكذا فقال ياابن الخبيثة من امرك ان تعلمني ياغلام خذ السوط من يده فاوجع رأسه فمازال يضربه حتى اشتفى فتعرف من الغلام الآخر كم ضربت قال لاأدري قال ياعدو الله

اتخرج حاصلي من بيت مالي من غير حساب اقتلوه فقتلوه [١]

﴿ محاسن التطير ﴾

عن عكرمة قال ، كنا جلوساً عند ابن العباس وابن عمر فطار غرابٌ يصيح فقال رجل من القوم خير خير فقال ابن العباس لا خير ولا شر . والذي حضرنا من الشعر في مثله لابي الشيص

مافرّق الاحبابَ بَعدَ اللهِ إلا الإِبلُ
والناسُ يلحوْنَ غُرا * بَ البين لما جهلوا
وما على ظهر غرا * بِ البين تُطوى الرحلُ
ولا إذا صاح غُرا * بٌ في الديارِ ارتحلوا
وما غُرابُ البين إ * لاّ ناقةٌ أو جملُ

وقال آخر

أترحلُ عمّن أنت صبٌّ بشله * وتلحى غُرابَ البين إنك تظلمُ
أقِمْ فغُرابُ البين غيرُ مفرّقٍ * ولا يأتلي إلاّ على الفصلِ يحكمُ

وقال آخر

غلطَ الذين رأيتهمْ بجهالةٍ * يلْحوْنَ كلّهمُ غُراباً ينْعقُ
ماالذنبُ إلاّ للجمالِ فإنها * مما يُشتّتُ شملهمْ ويُفرّقُ
إن الغرابَ بيُمنهِ يُدْني النّوى * وتُشتّتُ الشملَ الجميعَ الاينقُ

وقال آخر

لا يعلمُ المرءُ ليلاً ما يُصبّحهُ * إلاّ كواذبُ مما يُخبرُ الفالُ
والفالُ والزّجرُ وللكهّانُ كلهُمُ * مُضلّلون ودون الغيبِ أقفالُ

(ضده)

حُكي عن النعمان بن المنذر ، انه خرج متصيداً ومعه عديّ بن زيد العبادي فمر بآرام وهي القبور ، فقال عديّ ، أبيت اللعن أتدري ماتقول هذه الآرام قال لا قال أنها تقول

أيُّها الرّكبُ المخفّو * نَ على الارضِ تمرّون
لكما كنتمْ فكنا * وكما كنا تكونون

---

(١) هكذا في الاصل مسندا الي يوسف بن عمر : ولعلها من اخبار الحجاج كما في غير هذا الكتاب

فقال أعد فأعادها فترك صيده ورجع كئيباً . وخرج معه مرة أخرى فوقف على آرام بظهر الحيرة فقال عدي ، ابيت اللعن أتدري ما تقول هذه الآرام قال لا قال انها تقول .

رُبَّ رَكبٍ قد أناخوا عندنا * يشربونَ الخمرَ بالماءِ الزُّلالْ

ثمَّ أضحوا عصفَ الدهرُ بهمْ * وكذاكَ الدهرُ حالا بعدَ حالْ

فانصرف وترك صيده . قال ولما خرج خالد بن الوليد الى أهل الردّة انتهى الى حيٍّ من بني تغلب فأغار عليهم وقتلهم ، وكان رجل منهم جالساً على شراب له وهو يغني بهذا البيت

ألا علّلاني قبل جيشِ أبي بكرٍ * لعلّ منايانا قريبٌ وما ندري

فوقف عليه رجل من أصحاب خالد فضرب عنقه فاذا رأسه في الجفنة التي كان يشرب منها . وهذا كقولهم

﴿ إنّ البلاءَ مُوَكّلٌ بالمنطقِ ﴾

﴿ محاسن الوفاء ﴾

قيل في المثل ، أوفى من فُكيهة ، وهي امرأة من بني قيس بن ثعلبة كان من وفائها ان السليك بن سلكة غزا بكر بن وائل فلم يجد غفلة يلتمسها فخرج جماعة من بكر فوجدوا أثر قدم على الماء فقالوا . ان هذا الاثر لاثر قدم ورد الماء فقعدوا له فلما وافا حملوا عليه فعدا حتى ولج قبة فُكيهة فاستجار بها فادخلته تحت درعها فانتزعوا خمارها فنادت اخوتها فجاؤا عشرة فمنعوهم منها . قال وكان سليك يقول . كأني أجد خشونة شعر استها على ظهري حين أدخلتني تحت درعها . وقال

لعمرُ أبيكَ والانباءُ تَنمي * لنعمَ الجارُ أختُ بني عُوارا

منَ الخفراتِ لم تَفضحْ أخاها * ولم ترفعْ لوالدِها شَنارا

عَنيتُ بهِ فُكيهةَ حينَ قامتْ * لنصلِ السّيفِ فانتزعوا الخمارا

ويقال أيضاً ، هو أوفى من أم جميل ، وهي من رهط ابن أبي بردة من دوس وكان من وفائها ان هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي قتل رجلا من الازد فبلغ ذلك قومه بالسراة فوثبوا على ضرار بن الخطاب الفهري ليقتلوه فعدا حتى دخل بيت أم جميل وعاذ بها فقامت في وجوههم ودعت قومها فمنعوه لها فلما ولي عمر بن الخطاب ظنت أنه أخوه فأتته بالمدينة فلما انتسبت له عرف القصة فقال اني لست بأخيه الا في الاسلام وهو غاز وقد عرفنا منّتك عليه واعطاها على أنها ابنة سبيل . ويقال أوفى من السموءل بن عاديا ، وكان من وفائه أن امرأ القيس بن حجر لما أراد الخروج الى قيصر استودع السموءل دروعاً له فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام

فتحر زمنه السموءل فاخذ الملك ابناله خارج الحصن وصاح به ياسموءل هذا ابنك فى يدى وقد علمت ان امرأ القيس ابن عمى وأنا أحق بميراثه فان دفعت الى الدروع والا ذبحت ابنك فقال . أجلنى فأجله فجمع أهل بيته فشاورهم فكلهم أشاروا بدفع الدروع وان يستنقذ ابنه فلما اصبح أشرف عليه . وقال ليس لى الى دفع الدروع سبيل فاصنع ما أنت صانع فذبح الملك ابنه وهو ينظر اليه وكان يهوديا وانصرف الملك ووافى السموءل بالدروع الموسم فدفعها الى ورثة امرئ القيس . وقال فى ذلك

وفيتُ بأدرُعِ الكندىّ إنى * إذا ما خانَ أقوامٌ وفيتُ

وقالوا عندَهُ كنز رَغيبٌ * فلا وأبيك أغدُرُ ما مَشيت

بَنى لى عاديا حِصنا حَصينا * وبئرا كلما شِئتُ استقيتُ

وفى ذلك يقول الاعشى

كنْ كالسَّموْأل إذْ طافَ الهمامُ به * فى جَحفلٍ كسوادِ الليلِ جرَّارِ

بالأبلقِ الفردِ مِن تيماءَ منزلُهُ * حِصنٌ حَصينٌ وجارٌ غيرُ غدَّارِ

خيَّرهُ خُطتىْ خسفٍ فقال لهُ * مهما تقولنْ فإنى سامعٌ حارِ

فقال ثُكلٌ وغدرٌ أنت بينهما * فاخترْ فما فيهما حظ لمختارِ

فشكَّ غيرَ طويلٍ ثمَّ قال لهُ * أقتلْ أسيرَكَ إنى مانعٌ جارى

ويقال «أوفى من الحارث بن عباد» وكان من وفائه انه أسر عدىّ بن ربيعة ولم يعرفه فقال له دلنى على عدى بن ربيعة ولك الامان فقال . أنا آمن ان دللتك عليه . قال نعم . قال . فانا عدىّ بن ربيعة فخلاه . وفى ذلك يقول الشاعر

لهفَ نفسى على عَدىٍّ وقدْ شا * رفهُ الموتُ واحتوتهُ المنونُ

ويقال . هو أوفى من عوف بن مُحلّم «وكان من وفائه ان مروان القرظ غزا بكر بن وائل ففضوا جيشه وأسره رجل منهم وهو لا يعرفه فأتى به أمه فقالت . انك تختال باسيرك كانك جئت بمروان القرظ . فقال . مروان وما ترجين من مروان قالت . عظم فدائه قال . وكم ترجين من فدائه قالت . مائة بعير قال . لك ذلك على ان تردّينى الى خماعة بنت عوف بن محلم قالت . ومن لى بالمائة فاخذ عودا من الارض وقال هذا لك فمضت به الى بيت عوف فاستجار بخماعة ابنته فبعثت به الى عوف ثم ان عمرو بن هند بعث الى عوف أن يأتيه بمروان وكان واجدا عليه فى شىء فقال عوف لرسوله . ان خماعة ابنتى قد أجارته «فقال ان الملك

قدآ لى أن يعفو عنه أو يضع كفه فى كفه ،، فقال عوف ، يفعل ذلك على أن تكون كفى بين أيديهما ، فأجابه عمرو الى ذلك فجاء عوف بمروان فادخله عليه فوضع يده فى يده ووضع يده بين أيديهما فعفى عنه ،، ومنهم الطائى صاحب النعمان بن المنذر ، وكان من وفائه ان النعمان ركب فى يوم بؤسه وكان له يومان يوم بؤس و يوم نعيم لم يلقه أحد فى يوم بؤسه إلا قتله ولا فى يوم نعيمه الا أحياه وحباه وأعطاه فاستقبله فى يوم بؤسه اعرابى من طيء فقال ، حيا الله الملك ان لى صبية صغار لم أوص بهم أحدا . فان رأى الملك ان يأذن لى فى اتيانهم وأعطيه عهد الله ان ارجع اليه اذا أوصيت بهم حتى أضع يدى فى يده فرق له النعمان ، وقال له لا .. إلا أن يضمنك رجل ممن معنا فان لم تأت قتلناه ، وكان مع النعمان شريك بن عمرو بن شراحيل فنظر اليه الطائى وقال

يا شريكَ بنَ عمرٍو * هلْ منَ الموتِ محالهْ
يا أخا كلِّ مُضافٍ * يا أخا مَنْ لا أخا لهْ
يا أخا النُّعمانِ فُكَّ الـ * ـيومَ عنْ شيخٍ غلالهْ
ابنُ شيبانَ قتيـلٌ * أصلحَ اللهُ فَعالهْ

فقال شريك . هو على أصلح الله الملك فمضى الطائى وأجل له أجلا يأتى فيه فلما كان ذلك اليوم أحضر النعمان شريكا وجعل يقول له . ان صدر هذا اليوم قد ولى وشريك يقول . ليس لك على سبيل حتى تمسى ، فلما أمسوا أقبل شخص والنعمان ينظر الى شريك . فقال شريك ليس لك على سبيل حتى يدنو الشخص فلعله صاحبى فبينما هما كذلك اذ أقبل الطائى فقال النعمان . والله ما رايت أكرم منكما وما أدرى أيكما أكرم أهذا الذى ضمنك وهو الموت أم أنت وقد رجعت الى القتل والله لا أكون ألأم الثلاثة فاطلقه وأمر برفع يوم بؤسه ، وأنشد الطائى

ولقدْ دعتْنى للخلافِ عشيرتى * فأبيْتُ عنـدَ تجهُّمِ الاقوالِ
إنى امرؤٌ منى الوفاء خليقـةٌ * وفِعالُ كلِّ مهذَّبٍ بذّالِ

فقال النعمان . ما حملك على الوفاء قال . دينى . قال . وما دينك قال . النصرانية قال أعرضها على فعرضها عليه فتنصر النعمان

﴿ ضده ﴾

قيل . كتب صاحب بريد همذان الى المأمون وهو بخراسان يعلمه ان كاتب صاحب البريد المعزول اخبر ان صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطئا على اخراج مائتى ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما . فوقع المأمون إنا نرى قبول السعاية شرا من السعاية لان السعاية

دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازه فأنف الساعي عند ذلك وقال . يا أمير المؤمنين رضي الله عنك المعذرة فان الساعي وان كان في سعايته صادقا لقد كان في صدقه لئيما اذ لم يحفظ الحرمة ولم يف لصاحبه ، قال . ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فقال يا أمير المؤمنين عندي نصيحة قال . وما نصيحتك هذه ، قال . فلان كان عاملا ليزيد بن معاوية وعبد الملك والوليد فخانهم فيما تولاه ثم اقتطع أموالا كثيرة جليلة فمر باستخراجها منه ، قال أنت شر منه واخون حيث اطلعت على أمره وأظهرته ولولا اني انفر النصاح لعاقبتك ولكن اخترمني خصلة من ثلاث ، قال . اعرضهن يا أمير المؤمنين ، قال . ان شئت فتشنا عما ذكرت فان كنت صادقا مقتناك وان كنت كاذبا عاقبناك وان استقلت أقلناك ، فاستقاله الرجل

﴿ محاسن السخاء ﴾

روى عن نافع قال ، لقي يحيى بن زكريا عليه السلام ابليس لعنه الله فقال . أخبرني بأحب الناس اليك وأبغضهم اليك . قال ، أحبهم الي كل مؤمن بخيل وأبغضهم الي كل منافق سخي . قال . ولم ذلك . قال . لان السخاء خلق الله الاعظم فاخشى ان يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له . وقال النبي صلى الله عليه وسلم . السخي قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار ولجاهل سخي أحب الى الله عز وجل من عابد بخيل وأدوأ الداء البخل . وقال صلى الله عليه وسلم . ما أشرقت شمس الا ومعها ملكان يناديان يسمعان الخلائق غير الجن والانس وهما الثقلان اللهم عجل لمنفق خلفاً ولممسك تلفاً وملكان يناديان أيها الناس هلموا الى ربكم فان ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . وعن الشعبي قال ، قالت أم البنين ابنة عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز وكانت تحت الوليد ابن عبد الملك . لو كان البخل قميصا ما لبسته أو طريقا ما سلكته وكانت تعتق في كل يوم رقبة وتحمل على فرس في سبيل الله وكانت تقول ، البخل كل البخل من بخل على نفسه بالجنة . وقيل أعتقت هند بنت عبد المطلب في يوم واحد أربعين رقبة . وقال بعض الحكماء ثواب الجود خلف ومحبة ومكافأة وثواب البخل حرمان واتلاف ومذمة : وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . يا علي كن شجاعا فان الله يحب الشجاع وكن سخيا فان الله يحب السخي وكن غيورا فان الله يحب الغيور يا علي وان انسان سألك حاجة ليس لها باهل فكن أنت أهلا لها وقال النبي صلى الله عليه وسلم . السخاء شجرة في الجنة من أخذ منها بغصن مد به الى الجنة ، وقال عبد العزيز بن مروان لو لم يدخل على البخلاء في لؤمهم الا سوء ظنهم بالله عز وجل

لكان عظيما ، وقال صلى الله عليه وسلم . تجافوا عن ذنب السخى فان الله آخذ بيده كلما عثر ، وقال بهرام جور . من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الاشياء فلينظر الى ماجاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة والنسيم والريح كما وعدهم الله فى الجنان فانه لولا رضاه الجود لم يصطفه لنفسه . وقال الموبذان لابرويز . أكنتم تمنون أنتم وآباؤكم بالمعروف وتترصدون عليه المكافأة ، قال . لا ولا نستحسن ذلك لخولنا وعبيدنا فكيف نرى ذلك وفى كتاب ديننامن فعل معروفا خفيا وأظهره ليتطول به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب أن لا نعده من الابرار ولا نذكره فى الاتقياء والصالحين . قيل وسئل الاسكندر ما أكبر ما شيدت به ملكك ، قال ابتدارى الى اصطناع الرجال والاحسان اليهم * قال وكتب ارسطاطاليس فى رسالته الى الاسكندر . واعلم ان الايام تأتى على كل شىء فتخلقه وتخلق آثاره وتميت الافعال الا ما رسخ فى قلوب الناس فاودع قلوبهم محبة آبدة تبقى بها حسن ذكرك وكريم فعالك وشرف آثارك . قال ولما قدّم بزرجمهر الى القتل قيل له . انك فى آخر وقت من أوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة فتكلم بكلام تذكر به . فقال . أى شىء أقول الكلام كثير ولكن ان أمكنك أن تكون حديثا حسنا فافعل . قيل . وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر اعرابى فى الضيافة فقال الاعرابى . نحن أقرى للضيف . قال وكيف ذلك . قال . لان أحدنا ربما لا يملك الا بعيرا فاذا حل به ضيف نحره له فقال له الاعجمى فنحن أحسن مذهبا فى القرى منكم ، قال . وماذاك . قال نحن نسمى الضيف مهمان ومعناه انه أكبر من فى المنزل وأملكنا به ، وقال بعض الحكماء . بلغ الجود من قام بالمجهود . وقيل . الجواد من لم يضن بالموجود . وقال المأمون . الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود . قيل . وشكا رجل الى إياس بن معاوية كثرة ما يهب ويصل الناس وينفق . قال ان النفقة داعية الرزق وكان جالسا على باب فقال للرجل اغلق هذا الباب فاغلقه فقال . هل تدخل فيه الريح قال . لا . قال فافتحه ففتحه فجعلت الريح تخترق فى البيت فقال . هكذا الرزق اغلقت فلم تدخل الريح فكذلك اذا أمسكت لم يأتك الرزق . قيل ووصل المامون محمد بن عباد المهلبى بمائة ألف دينار ففرقها على اخوانه فبلغ ذلك المأمون فقال . يا أبا عبد الله ان بيوت الاموال لا تقوم بهذا . فقال يا أمير المؤمنين البخل بالموجود سوء الظن بالمعبود ، وعن أمية بن يزيد الاموى قال كنا عند عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية فجاءه رجل من أهل بيته فساله المعونة على ترويج فقال له قولا ضعيفا فيه وعد وقلة اطماع ، فلما قام من عنده ومضى دعا صاحب خزانته فقال اعطه أربعمائة دينار . فاستكثرناها وقلنا . كنت رددت عليه ردا ظننا أنك تعطيه شيئا قليلا فاذا

أنت أعطيته أكثر مما أمل . فقال . انى أحب أن يكون فعلى أحسن من قولى ، و بحاتم يضرب المثل فى السخاء . نُحدثنا عن بعض حالات حاتم قيل . كان حاتم جواداً شاعراً وكان حيثما نزل عرف منزله وكان ظفرا اذا قاتل غلب واذا غنم نهب واذا سئل وهب واذا ضرب بالقداح سبق واذا أسر أطلق ، وكان أقسم أن لا يقتل واحد أمه ، قيل : ولما بلغ حاتماً قول المتلمس الضبعى

قليلُ المالِ تصلحهُ فيبقى * ولا يبقى الكثيرُ على الفسادِ
وحفظُ المالِ أيسرُ من بغاهُ * وضربٍ فى البلادِ بغيرِ زاد

فقال . ماله قطع الله لسانه يحرض الناس على البخل أفلا قال

فلا الجودُ يُفنى المالَ قبل فنائهِ * ولا البخلُ فى مالِ الشحيحِ يزيدُ
فلا تلتمسْ رزقاً بعيشٍ مقتَّرٍ * لكلِّ غدٍ رزقٌ يعودُ جديدُ
ألمْ ترَ أن الرزقَ غادٍ ورائحٌ * وأن الذى أعطاكَ سوفَ يعيدُ

قيل . ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القرى فنحر ناقة الضيف وعشاه وغداه وقال . إنك قد أقرضتنى ناقتك فاحتكم علىّ . قال . راحلتين . قال . لك عشرون أرضيت ؟ قال نعم وفوق الرضى . قال . لك أربعون . ثم قال لمن بحضرته من قومه من أتانا بناقة فله ناقتان بعد الغارة فاتوه بأربعين فدفعها الى الضيف ، وحكوا عن حاتم انه خرج فى الشهر الحرام يطلب حاجة فلما كان بأرض عنزة ناداه أسير فيهم . يا أبا سفانة قد أكلنى الاسار والقمل . قال . والله ما أنا فى بلادى ولا معى شىء وقد أسأت إلى ان نوهت باسمى فذهب الى العنزيين فساومهم فيه واشتراه منهم وقال . خلوا عنه وأنا أقيم مكانه فى قيده حتى أؤدى فداه ، ففعلوا فأتاهم بفداء . قيل ولما . مات حاتم خرج رجل من بنى أسد يعرف بأبى الخيبرى فى نفر من قومه وذلك قبل ان يعلم كثير من العرب بموته فأناخوا بقبره فقال . والله لاحلفن للعرب انى نزلت بحاتم وسألته القرى فلم يفعل وجعل يضرب القبر برجله ويقول

عجّل أبا سفانةٍ قراكا * فسوف أُنبى سائلى ثناكا

فقال بعضهم . مالك تنادى رمة وباتوا مكانهم فقام صاحب القول من نومه مذعوراً فقال . ياقوم عليكم مطاياكم فان حاتماً أتانى فأنشدنى

أبا الخيبرىّ وأنت امرؤٌ * ظلومُ العشيرةِ شتامُها
فماذا أردتَ إلى رمةٍ * بدويةٍ صخبتْ هامُها
تبغىّ أذاها وإعسارَها * وحولكَ طىّ وأنعامُها
وإنا لَنُنعِمُ أضيافنا * من الكوم بالسيف نعتامُها

وقيل في المثل . هو اجود من كعب بن مامة وكان من اياد و بلغ من جوده انه خرج في ركب فيهم رجل من بني النمر بن قاسط في شهر ناجر والجاهم العطش فضلوا فتصافنوا ماءهم فجعل النمري يشرب نصيبه فاذا اراد كعب ان يشرب نصيبه قال . آثر اخاك النمري فيؤثره حتى اضرّ به العطش فلما رأى ذلك استحث ناقته و بادر حتى رفعت له اعلام الماء وقيل له رد كعب فانك ورّاد فمات قبل ان يرد ونجا رفيقه . ومن قول ابي تمام

هو البحرُ من أيّ النواحي أتيتَهُ * فلُجّتُهُ المعروفُ والجودُ ساحله
كريمٌ إذا ما جئتَ للعُرفِ طالبا * حَباكَ بما تحوي عليهِ أناملُه
فلو لم يكنْ في كفّهِ غيرُ نفسهِ * لجادَ بها فليتّقِ اللهَ سائلُه

وللبحتري

لو أنَّ كفّكَ لم تجُدْ لمؤمّلٍ * لكفاهُ عاجلُ وجهِكَ المتهلّلْ
ولو أنَّ مجدَكَ لم يكنْ متقادِما * أغناكَ آخرُ سؤددٍ عن أوّلِ

ولبكر بن النطاح

بطلٌ بصدرٍ حسامهِ وسنانهِ * أجلانِ من صَدَرٍ ومن إيرادِ
ورثَ المكارمَ وابتناها قاسمٌ * بصفائحٍ وأسنّةٍ وجيادِ
ياعصمةَ العربِ التي لو لم تكنْ * حيًّا إذا كانتْ بغيرِ عمادِ
إنّ العيونَ إذا رأتكَ حِداذُها * رجعتْ من الإجلالِ غيرَ حِدادِ
وإذا رميتَ الثغرَ منك بعزمةٍ * فتحتْ منه مواضعَ الاسدادِ
وكأنّ رمحكَ منتعٌ في عُصفُرٍ * وكأنّ سيفكَ سُلّ من فرصادِ
لو صالَ من غضبٍ أبودُلَفٍ على * بيضِ السيوفِ لذُبنَ في الاغماد
أورى ونوّرَ للعداوةِ والهوى * نارينِ نارَ دمٍ ونارَ زنادِ

قال أبو هفان . انشدت هذه الابيات عبد العزيز بن أبي دلف بسر من راى . فقال هل سمعت بمثل هذه الابيات . قلت . لا . قال . ولغيره في ابي دلف

ولو يجوزُ لقالَ الناسُ كلُّهمُ * لولا أبودُلفٍ ما أورقَ الشجرُ

قال ابن يحيى النديم . دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال . انشدني قول عمارة في اهل بغداد . فانشدته

مَنْ يشتري مني ملوكَ مُخرّمٍ * أبعْ حسنًا وابني هشامٍ بدرهمِ
وأُعطي رجاءً بعد ذاك زيادةً * وأمنحْ دينارًا بغيرِ تندّمِ

فان طلبوا مني الزيادة زدتهم * أبا دلف والمستطيل بن أكثم

فقال المتوكل . ويلي على ابن البوال على عقبيه يهجو شقيق دولة العباس قال فهل عندك من المدح في أبي دلف القاسم بن عيسى شيء . قلت نعم يا أمير المؤمنين قول الاعرابي الذي يقول فيه

أبا دلف إن السماحة لم تزل * مغلـلة تشكو إلى الله غلها

فبشرها ربي بميلاد قاسم * فأرسل جبريلا إليها فحلها

وقال غيره

حر إذا جئته يوما لتسأله * أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا

يخفي صنائعه والله يظهرها * إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

وقال آخر

فتى عاهد الرحمن في بذل ماله * فليس تراه الدهر إلا على العهد

فتى قصرت آماله عن فعاله * وليس على الحر الكريم سوى الجهد

وقال آخر

إذا ما أتاه السائلون توقدت * عليه مصابيح الطلاقة والبشر

له في ذرى المعروف نعمى كأنها * مواقع ماء المزن في البلد القفر

وقال آخر

عاد السرور إليك في الأعياد * وسعدت من دنياك بالإسعاد

رفقاً بعبد جل ما أوليته * رفقاً فقد أثقلته بأيادي

ملأ النفوس مهابة ومحبة * بدر بدا متغمراً بسواد

ما إن أرى لك مشبهاً فيمن أرى * إن الكرام قليلة الانداد

وقال في ابن أبي دواد

بدا حين أثرى بإخوانه * ففلل عنهم شباة العدم

وحذره الحزم صرف الزمان * فبادر قبل انتقال النعم

فليس وإن بخل الباخلو * ن يقرع سنا له من ندم

ولا ينكت الارض عند السؤال * ليمنع سؤاله عن نعم

ولكن يرى مشرقا وجهه * ليرغم في ماله من رغم

ويروى في الحديث انه لا يجتمع الشح والايمان في قلب عبد صالح أبدا . ويقولون .

الشحيح أغدر من الظالم اقسم الله بعزته لا يساكنه بخيل فى جنته وقال النبي صلى الله عليه وسلم من فتح له باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدرى متى يغلق عنه . وقال الشاعر فى ذلك

لَيسَ فى كلّ ساعةٍ وأوانٍ * تَتَهيّا صنائعُ الإِحسان

فاذَا أمكنتْ تقدّمتُ فيها * حذراً منْ تعذُّرِ الإِمكان

وذكر عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه أن امير المؤمنين علياً صلوات الله عليه بعثه الى حكيم بن حزام بن خويلد يسأله مالا فانطلق به الى منزله فوجد فى الطريق صوفا فاخذه ومر بقطعة كساء فاخذها فلما صار الى المنزل أعطاه طرف الصوف فجعل يفتله حتى صيره خيطاً ثم دعا بغرارة مخرقة فرقعها بالكساء وخيطها بالخيط وصرفيها ثلاثين الف درهم فحملت معه قال وأتى قوم قيس بن سعد بن عبادة الانصارى رحمه الله يسألونه فى حمالة فصادفوه فى حائط له يتتبع ما يسقط من التمر فيعزل جيده ورديئه على حدة فهموا بان يرجعوا عنه وقالوا . ما نظن عنده خيراً ثم كلموه فاعطاهم فقال رجل من القوم . لقد رأيناك تصنع شيئاً لا يشبه فعالك فقال وماذاك فاخبروه فقال . ان الذى رأيتم يؤول الى اجتماع ماينفع وينمو . ومنها قيل . الذود الى الذود إبل . وانشد

رُبَّ كبيرٍ هاجهُ صغيرُ * وفى البحُورِ تغرقُ البحورِ

وقال آخر

قدْ يلحقُ الصّغيرُ بالجليلِ * وإنما القرْمُ من الافيلِ

وسحقُ النخلِ من الفسيلِ

قال وأتى رجل طلحة بن عبيد الله فسأله حمالة فرآه يهنأ بعيراً له فقال يا غلام اخرج اليه بدرة فقبضها وقال أردت ان انصرف حين رأيتك تهنأ البعير فقال انا لا نضيع الصغير ولا يتعاظمنا الكبير

﴿ مساوى البخل ﴾

المثل السائر فى البخل . هو ابخل من مادر . وهو رجل من بنى هلال بن عامر بلغ من بخله انه كان يسقى ابله فبقى فى اسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه ومدر الحوض به فسمى مادراً . وذكروا ان بنى هلال وبنى فزارة تنافروا الى انس بن مدرك وتراضوا به . فقالت بنو هلال يا بنى فزارة أكلتم ايرالحمار فقالت بنو فزارة . لم نعرفه . وكان سبب ذلك ان ثلاثة اصطحبوا فزارى وثعلبى وكلابى فصادفوا حمار وحش ومضى الفزارى فى بعض حوائجه فطبخا وأكلا وخبأا للفزارى ايرالحمار فلما رجع قالا . قد خبأنا لك حقك فكل . فأقبل يأكل ولا يسيغه فجعلا

يضحكان ففطن وأخذ السيف وقام اليهما وقال : لتأ كلن منه أو لاقتلنكما فامتنعا فضرب أحدهما فقتله وتناوله الآخر فأكل منه ، فقال فيهم الشاعر

نشدتك يافزارَ وأنت شيخٌ * إذا خيّرتَ تخطئُ في الخيارِ

أصيحانيةٌ أُدمتْ بسمنٍ * أحبُّ اليك أم ايرُ الحمارِ

بلى ايرُ الحمارِ وخصيتاهُ * أحبُّ إلى فزارةَ من فزارِ

فقالت بنو فزارة : منكم يابني هلال من سقى ابله فلمار و يت سلح في الحوض ومدره بخلا فنفرهم أنس بن مدرك على الهلاليين فاخذ الفزاريون منهم مائة بعير وكانوا تراهنوا عليها ، وفي بني هلال يقول الشاعر

لقد جللت خزيا هلالُ بن عامرٍ * بني عامرٍ طرًّا بسلحةِ مادرِ

فأفٍّ لكم لاتذكروا الفخر بعدها * بني عامرٍ أنتم شرارُ العشائرِ

وفي المثل ، هو أبخل من أبي حُباحب . وهو رجل في الجاهلية بلغ من بخله أنه كان يسرج السراج فاذا أراد أحد أن يأخذ منه أطفاه ، فضرب به المثل ، ومنه صاحب نجيح بن سلكة اليربوعي فانه ذكر : ان نجيحا اليربوعي خرج يوما يتصيد فعرض له حمار وحش فاتبعه حتى دفع الى أكمة فاذا هو برجل أعمى اسود قاعد في اطمار بين يديه ذهب وفضة ودر و ياقوت فدنا منه فتناول بعضها و لم يستطع أن يحرك يده حتى القاه فقال : ياهذا ماهذا الذي بين يديك وكيف يستطاع أخذه وهل هو لك أم لغيرك فاني أعجب مما ارى اجواد انت فتجود لنا أم بخيل فاعذرك فقال الاعمى : اطلب رجلا فقد منذ سنين وهو سعد بن خشرم بن شماس فأتني به نعطك ماتشاء . فانطلق نجيح مسرعا قد استُطير فؤاده حتى وصل الى قومه ودخل خباءه ووضع رأسه فنام لما به من الغم لا يدري من سعد بن خشرم فاتاه آت في منامه فقال له . يانجيح ان سعد بن خشرم في حي بني محلم من ولد ذهل بن شيبان . فسأل عن بني محلم ثم سأل عن خشرم بن شماس فاذا هو بشيخ قاعد على باب خبائه فحياه نجيح فرد عليه السلام ، فقال له نجيح من أنت ؟ قال أنا خشرم بن شماس قال له فاين ولدك سعد قال خرج في طلب نجيح اليربوعي وذلك ان آتيا أتاه في منامه فحدثه ان مالاله في نواحي بني يربوع لا يعلم به الا نجيح اليربوعي فضرب نجيح فرسه ومضى وهو يقول

أيطلبني من قد عناني طِلابُه * فياليتني ألقاكَ سعدَ بنَ خشرمِ

أتيتُ بني يربوعَ تبغي لقاءَنا * وجئتُ لكي ألقاكَ حيَّ مُحلِمِ

فلما دنا من محلته استقبله سعد فقال له نجيح . أيها الراكب هل لقيت سعدا في بني يربوع قال أنا سعد فهل تدل على نجيح . قال ، أنا نجيح وحدثه بالحديث ، فقال ، الدال على الخير كفاعله

وهو أول من قالها — فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان فتوارى الرجل الاعمى عنهما وترك المال فاخذه سعد كله فقال نحيح ياسعد قاسمني . فقال له ، أطوعني وعن مالي كشحاه . وأبى أن يعطيه شيئاً فانتضى نحيح سيفه فجعل يضربه حتى برد فلما وقع قتيلا تحول الرجل الحافظ للمال سعلاة فاسرع في أكل سعد وعاد المال الى مكانه فلما رأى نحيح ذلك ولى هاربا الى قومه . قيل وكان أبو عبس بخيلا وكان اذا وقع الدرهم في يده نقره باصبعه ثم يقول . كم من مدينة قد دخلتها ويد قد وقعت فيها فالآن استقر بك القرار واطمأنت بك الدار ثم يرمي به في صندوقه فيكون آخر العهد به . قيل ، ونظر سليمان بن مزاحم الى درهم فقال في شق ، لا اله الا الله ، وفي شق ، محمد رسول الله ما ينبغي أن تكون الا معاذة وقذفه في صندوقه . وذكروا انه كان بالري عامل على الخراج يقال له المسيب فاتاه شاعر يمتدحه فلم يعطه شيئا ثم سعل سعلة فضرط ، فقال الشاعر

أتيتُ المُسيَّبَ في حاجةٍ * فمازال يَسعَلُ حتى ضَرطْ

فقال غلطنا حسابَ الخَراجِ * فقلتُ من الضرطِ جاء الغلطْ

فما زالوا يتلون ذلك حتى هرب منها من غير عزل . قال ، وكتب ارسطاليس الى رجل بشيء فلم يفعل فكتب اليه ، ان كنت أردت فلم تقدر فمعذور وان كنت قدرت ولم ترد فسيأتيك يوم تريد فيه فلا تقدر ، قال . وسمع أبو الاسود الدؤلي رجلا يقول من يعشي الجائع ، فعشاه ثم قام الرجل ليخرج فقال . هيهات تخرج فتؤذي الناس كما آذيتني ، ووضع رجله في الادهم حتى أصبح ، قال وكان رجل يأتي ابن المقفع فيلح عليه وساله أن يتغدى عنده ويقول لعلك تظن اني أتكلف لك شيئا والله لا أقدم لك الا ما عندي فلما أتاه لم يجد في بيته الا كسرا يابسة وملح جريش ، وجاء سائل الى الباب فقال له ، وسع الله عليك ، فلم يذهب فقال ، والله لئن خرجت اليك لادقن رأسك . فقال ابن المقفع للسائل . ويحك لو عرفت من صدق وعيده ما أعرف من صدق وعده لم تزد كلمة ولم تقم طرفة عين ، قال ، وكتب ابراهيم بن سيابة الى صديق له كثير المال يستسلفه . فكتب اليه ، العيال كثير والدخل قليل والمال مكذوب عليه فكتب اليه ، ان كنت كاذبا فجعلك الله صادقا وان كنت صادقا فجعلك الله معذورا . وكتب آخر الى آخر يصف رجلا ، أما بعد فانك كتبت تسال عن فلان كانك هممت به أو حدثتك نفسك بالقدوم اليه فلا تفعل فان حسن الظن به لا يقع في الوهم الا بخذلان الله والطمع فيما عنده لا يخطر على القلب الا بسوء التوكل على الله والرجاء فيما في يده لا ينبغي الا بعد اليأس من رحمة الله انه يرى الايثار الذي يرضى به التبذير الذي يعاقب عليه والاقتصاد الذي أمر به الاسراف الذي يعاقب عليه وان بني اسرائيل لم يستبدلوا العدس والبصل بالمن والسلوى الا لفضل أخلاقهم

وقديم علمهم وان الصنيعة مرفوعة والصلة موضوعة والهبة مكروهة والصدقة منحوسة والتوسع ضلالة والجود فسوق والسخاء من همزات الشياطين وان مواساة الرجال من الذنوب الموبقة والافضال عليهم من احدى الكبائر وأيم الله انه يقول ان الله لا يغفر أن يؤثر المرء في خصاصة على نفسه ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن آثر على نفسه فقد ضل ضلالا بعيدا كانه لم يسمع بالمعروف الا في الجاهلية الذين قطع الله أدبارهم ونهى المسلمين عن اتباع آثارهم وان الرجفة لم تاخذ أهل مدين الا لسخاء كان فيهم ولا أهلكت الريح عاداً الا لتوسع كان منهم فهو يخشى العقاب على الانفاق ويرجو الثواب على الاقتار ويعد نفسه خاسراً ويعدها الفقر ويامرها بالبخل خيفة أن تمر به قوارع الدهر وأن يصيبه ما أصاب القرون الاولى فاقم رحمك الله مكانك واصطبر على عسرك عسى الله أن يبدلنا واياك خيراً منه زكاة وأقرب رحما . ولبعض الكتاب أما بعد فان كثير المواعيد من غير نجح عار على المطلوب اليه وقلتها مع نجح الحاجة مكرمة من صاحبها وقد رددتنا في حاجتنا هذه في كثرة مواعيدك من غير نجح لها حتى كنا قد رضينا بالتعلل لها دون النجاح ، كقول القائل :

لا تجعلنّا ككمّون بمزرعةٍ * إنْ فاتهُ الماءُ أروتهُ المواعيدُ

وكتب آخر ، ما رأيت مثل طيّب قولك أمرّ من سوء فعالك ولا مثل بسط وجهك خالفه طول تنكيدك ولا مثل قرب عدتك باعدها افراط مطلك ولا مثل أنس مذاهبك أوحش منه اختبار عواقبك حتى كان الدهر أوعدك لطيف الحيلة بالمكر باهل الخلة وكانه زينك فيهم بالخديعة لتدرك منهم فرصة الهلكة . وقد قيل : وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتأجيل . وقال بعضهم : وعدتنا مواعيد عرقوب ومطلتنا مطل نعاس الكلب وغررتنا غرور السراب ومنيتنا أماني الكمون . ولبعضهم أما بعد فلا تدعني معلقاً بوعدك فالعذر الجميل أحسن من المطل الطويل فان كنت تريد الانعام فانجح وان تعذرت الحاجة فاوضح واعلمني ذلك لاصرف وجه الطلب الى غيرك . وذكروا ان فتى من مراد كان يختلف الى عمرو بن العاص فقال له ذات يوم : ألك امرأة . قال ، لا . قال ، فتزوج وعليّ المهر . فرجع الى أمه فاخبرها الخبر فقالت :

إذا حدّثتكَ النفسُ إنك قادرٌ * على ماحوت أيدي الرجال فكذّبِ

فتزوج وأتى عمرو بن العاص فاعتلّ عليه ولم ينجز وعده فشكى ذلك الى أمه فقالت

لا تغضبنّ على امرىءٍ في مالهِ * وعلى كرائم حُرّ مالكَ فاغضبِ

ووصف اعرابي رجلا فقال ، له بشر مطمع ومطل مؤيس وكنت منه أبداً بين الطمع واليأس لا بذل سريع ولا مطل مريح ، وقال اعرابي ، أنا من فلان في أماني تهبط العصم وخلف

يذكر العدم ولست بالحريص الذي اذا وعده الكذوب علق نفسه لديه وأتعب راحلته اليه ،،
وذكر اعرابي رجلا فقال ، له مواعيد عواقبها المطل وثمارها الخلف ومحصولها اليأس ، ويقال سرعة اليأس أحد النجحين ، وقال بعضهم مواعيد فلان مواعيد عرقوب ولمع الآل وبرق الخُلّب وأماني الكمون ونار الحباحب وصلف تحت الراعدة ، ومما قيل في ذلك

أرُوحُ وأغدُو نحوكم في حوائجي * فأُصبِحُ فيها غدوةً كالذي أُمسي
وقدْ كنتُ أرجو للصديقِ شفاعتي * فقد صرْتُ أرضى أن أشفَّعَ في نفسي

ولابي نواس

وعدّتني وعدَكَ حتى إذا * أطمعتني في كنزِ قارُونِ
جئتَ من الليل بغسّالةٍ * تغسلُ ماقلتَ بصابون

ولابي تمام

يحتاجُ مَن يَرتجي نوالكم * إلى ثلاثٍ من غيرِ تكذيبِ
كنوزِ قارونَ أن تكونَ له * وعمرِ نوحٍ وصبرِ أيوبِ

وقال آخر

إني رأيتُ من المكارمِ حَسْبكم * أنْ تلبَسوا خزَّ الثيابِ وتشبعوا

وقال حسان بن ثابت

إني لأعجبُ من قولٍ غُرِرتَ بهِ * حُلوٍ يُمدُّ اليهِ السمعُ والبصرُ
لوْ تسمعُ العُصمُ منْ صُمِّ الجبالِ بهِ * ظلّتْ من الراسياتِ العُصْمُ تنحدرُ
كالخمرِ والشهدِ يجري فوق ظاهره * وما لباطنهِ طعمٌ ولا خبرُ
وكالسرابِ شبيهاً بالغديرِ وإن * تبغِ السرابَ فلا عينٌ ولا أثرُ
لا يَنبتُ العُشبُ عن برقٍ وراعدةٍ * غبراءَ ليس لها سيلٌ ولا مطرُ

وقال آخر

رأيتُ أبا عثمانَ يبذلُ عرضهُ * وخبزُ أبي عثمانَ في أحرزِ الحرزِ
يحنُّ الى جاراتهِ بعدَ شبعهِ * وجاراتهُ غرثى تحنُّ الى الخبزِ

وقال آخر

ما كنتُ أحسبُ أن الخبزَ فاكهةٌ * حتى نزلتُ على أوفى بنِ منصور
الحابسُ الرَّوثَ في أعفاج بغلتهِ * خوفاً على الحبِّ منْ لقطِ العصافيرِ

وقال آخر

نَوالكَ دونهُ خرطُ القَتادِ * وخُبزُك كالثريّا في البِعادِ
ترى الإصلاحَ صومَك لا لنُسكٍ * وكسرَ الخبزِ من عملِ الفسادِ
أرى عُمرَ الرغيفِ يطولُ جداً * لديك كأنهُ من قومِ عادِ

وقال آخر

اللؤمُ منك على الطعامِ طِباعُ * فعيالُ بيتِك ما حَييتَ جِياعُ
وإذا يمرُّ بباب دارك سائلٌ * حملتْ عليه نوابحٌ وسِباعُ
وعلى رغيفِك حيةٌ مسمومةٌ * وعلى خُوانِك عقربٌ وشُجاعُ

وقال آخر

يا تاركَ البيتِ على الضيفِ * وهارباً عنهُ من الخوفِ
ضيفُكَ قد جاءَ بخبزٍ لهُ * فارجع وكُنْ ضيفاً على الضيفِ
إذا اشتهى الضيفُ طبيخَ الشتا * أتاهُ بالشهوةِ في الصيفِ
وإن دنا المسكينُ من بابهِ * شدَّ على المسكينِ بالسيفِ

وقال آخر

أرى ضيفَك بالدارِ * وكربُ الجوعِ يخشاهْ
على خُبزِك مكتوبٌ * سيكفيكَهُمُ اللهْ

وقال آخر

لأبي نوحٍ رغيفٌ * أبداً في حُجرِ دايهْ
أبداً يمسحهُ الدهـرُ بكُمٍّ ووِقايهْ
ولهُ كاتبُ سرٍّ * خطَّ فيهِ بعنايهْ
فسيكفيكهمُ اللـهُ إلى آخرِ الآيهْ

وقال آخر

الخبزُ يُبطي حينَ يدعو به * كأنهُ يَقدُمُ من قافِ
ويمدحُ المِلحَ لأصحابهِ * يقولُ هذا مِلحُ سيرافِ
سيانِ أكلُ الخبزِ في دارهِ * وقلعُ عينيهِ بخطّافِ

وقال آخر

فتى لا يغارُ على عِرْسه * ولكنْ يغارُ على خبزِه
فمنه يدُ الجودِ مقبوضةٌ * وكفُّ السماحةِ في عجزِه

وقال آخر

يصونون أثوابَهمْ في التخوتِ * وأزواجهمْ بذلةٌ في السكك
يُنحّونَ مَنْ رامَ رُغفانَهمْ * ويدنونَ مَنْ رامَ حلَّ التكك

وقال آخر

أمّا الرغيفُ على الخوا * نِ فمنْ حماماتِ الحرَمْ
ما إنْ يُجسُّ ولا يُمسُّ ولا يُذاقُ ولا يُشمْ
فتراهُ أخضرَ يابساً * بالي النقوشِ من الهرَمْ

وقال آخر

أتينا أبا طاهرٍ مفطرين * إلى دارِه فرجعنا صياما
وجاءَ بخبزٍ لهُ حامضٌ * فقلت دعوهُ وموتوا كراما

وقال آخر

يبخلُ بالماءِ ولوْ أنهُ * منغمسٌ في وسطِ النيلِ
شحاً فلا تطمعُ في خبزِهِ * ولوْ تشفعْتَ بجبريل

وعن حذيفة بن محمد الطائي قال . قال الرشيد ما لاحد من المولدين ما لابي نواس في الهجاء

وما روّحتنا لتذبَّ عنا * ولكن خفتَ مرزئةَ الذباب
شرابُك كالسرابِ إذا التقينا * وخبزُك عندَ منقطعِ التراب

وقال آخر

خان عهدي عَمْرٌو وما خُنتُ عهدَهُ * وجفاني وما تغيّرتُ بعدَهْ
ليس لي ما جنيتُ ذنبٌ اليهِ * غيرَ أني يوماً تغديتُ عندَهْ

وقال الخليل بن احمد العروضي الازدي

فكفّاهُ لم تُخلقا للندى * ولم يكُ بُخلهما بدعهْ
فكفٌّ على الخبز مقبوضةٌ * كما نقصتْ مائةٌ تسعهْ
وكفٌّ ثلاثةُ آلافِها * وتسعٌ مئيها شرعهْ (١)

---

(١) قلت في هامش الاصل ما نصه وذكر جعفر بن محمد التميمي في كتابه الجامع في اللغة شرعة المثل يقال هذا شرعة ذاك أي مثله وعلى هذا تأولوا قول الخليل رحمه الله فكف وذكر الابيات الثلاثة ثم قال يريد مثلها أي مثل

وقال ابن أبي البغل

وكلُّ منْ أجتديه فى بلدٍ * أرُومُ مما لديه فى صفدِ
يَعقدُ لى باليسارِ أربعةً * منقوصةً تسعة الى العددِ

وقال آخر

أتيتُ أبا عمرو أُرَجّي نوالَهُ * فزادأبو عمرو على حَزَنى حُزْنا
فكنْتُ كباغى القرْنِ أسلم أذنهُ * فآبَ بلا أُذن ولم يستفدْ قرنا

ـ محاسن الشجاعه ـ

قيل ، كان باليمامة رجل من بنى حنيفة يقال له جحدر بن مالك وكان لسنا فاتكا شجاعا شاعرا وكان قد أبر على أهل هجر وناحيتها فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فكتب الى عامل اليمامة يوبخه بتلاعب جحدر به ويأمره بالتجرد فى طلبه حتى يظفر به فبعث العامل الى فتية من بنى يربوع بن حنظلة فجعل لهم جعلا عظيما ان هم قتلوا جحدرا أو أتوه به أسيرا وعدهم ان يوفدهم الى الحجاج ويسنى فرائضهم فخرج الفتية فى طلبه حتى اذا كانوا قريبا منه بعثوا اليه رجلا منهم يريه انهم يريدون الانقطاع اليه والتحرم به فوثق بهم واطمأن اليهم فبينماهم على ذلك اذ شدوه وثاقا وقدموا به الى العامل فبعث به معهم الى الحجاج وكتب يثنى على الفتية فلما قدموا على الحجاج قال له أنت جحدر • قال ، نعم : قال . ماحملك على ما بلغنى عنك ، قال ، جراءة الجنان وجفوة السلطان وكلب الزمان ، قال ، وما الذى بلغ من أمرك فيجترىء جنانك ويصلك سلطانك ولا يكلب زمانك ، قال لو بلانى الامير لوجدنى من صالحى الاعوان وبُهم الفرسان وممن أوفى على أهل الزمان قال : الحجاج انا قاذفوك فى قبة فيها أسد فان قتلك كفانا مؤنتك وان قتلته خليناك ووصلناك ، قال : قد أعطيت أصلحك الله الامنية وأعظمت المنة وقربة المحنة • فامر به فاستوثق منه بالحديد وألقى فى السجن وكتب الى عامله بكسكر يأمره ان يصيد له أسدا ضاريا فلم يلبث العامل ان بعث اليه باسود ضاريات قد ابرّت على أهل تلك الناحية ومنعت عامة مراعيهم ومسارح دوابهم فجعل منها واحدا فى تابوت يجر على عجلة فلما قدموا به على الحجاج أمر فالقى فى حيز واجيع ثلاثا ثم بعث الى جحدر فاخرج وأعطى سيفا ودلى عليه فمشى الى الاسد ،، وأنشأ يقول

ليثٌ وليثٌ فى مكانٍ ضنكِ * كلاهما ذو أنفٍ ومحْكِ
وصولةٍ فى بطشةٍ وفتكِ * إنْ يكشفِ اللهُ قناعَ الشكِّ

الاولى وأنا أرى أن تكون شرعة هاهنا دينا وسنة قال هذا الهاديا

وظَفَرًا بجُؤْجُؤٍ وبَرْكٍ * فهوَ أحقُّ منزلٍ بتَرْكٍ

الذئبُ يعوى والغرابُ يبكى

حتى اذا كان منه على قدر رمح تمطى الاسد وزأر وحمل عليه فتلقاه جحدر بالسيف فضرب هامته ففلقها وسقط الاسد كانه خيمة قوضتها الريح فانثنى جحدر وقد تلطخ بدمه لشدة حملة الاسد عليه فكبر الناس ، فقال: الحجاج ياجحدر ان احببت ان ألحقك ببلادك وأحسن صحبتك وجائزتك فعلت بك وأن أحببت أن تقيم عندنا أقمت فاسنينا فرضتك . قال: اختار صحبة الامير ففرض له ولجماعة أهل بيته : وأنشأ جحدر يقول

يا جُمْلُ إنكِ لوْ رأيتِ بسالتى * فى يومِ هيْجٍ مُرْدِفٍ وعجاجِ

وتقدُّمى لليثِ أرْسُفُ نحوَهُ * حتى أكابدَهُ على الإحْراجِ

جَهْمٌ كأنَّ جبينَهُ لما بدا * طَبقُ الرَّحا متفجِّرُ الأثباجِ

يَرْنوا بناظرتينِ تحسبُ فيهما * مَنْ ظنَّ خالَهما شعاعُ سراجِ

شَثْنٌ براثنهُ كأنَّ نُيوبَهُ * زُرْقُ المعاولِ أوشذاة زِجاجِ

وكأنما خيطتْ عليهِ عباءَةٌ * بَرْقاءُ أوخَلَقٌ مِنَ الدِّيباجِ

قِرْنانِ مُحتضِرانِ قدْ رَبَّتْهما * أمُّ المنيةِ غيرُ ذاتِ نِتاجِ

وعَلِمتُ أنى إنْ أبيتُ نِزالَهُ * أنى منَ الحجّاجِ لستُ بناجِ

فمشيتُ أرْسُفُ فى الحديدِ مكبّلا * بالموتِ نفسى عندَ ذاكَ أناجى

والناسُ منهمْ شامتٌ وعصابةٌ * عبَراتُهمْ لى بالحُلوقِ شَواجى

ففلقتُ هامتَهُ فخرَّ كأنهُ * أطُمٌ تقوَّضَ مائلَ الابراجِ

ثمَّ انثنيتُ وفى قميصى شاهدٌ * مماجرى من شاخبِ الاوداجِ

أيقنتُ أنى ذو حِفاظٍ ماجدٌ * مِنْ نسلِ أملاكٍ ذوى أتواجِ

فلئنْ قذفتُ إلى المنيةِ عامدًا * إنى لخيرِكَ بعدَ ذلكَ راجى

علمَ النساءُ بأننى لاأنثنى (١) * إذ لايثقْنَ بغيرَةِ الازواجِ

وحكى عن الطفيل بن عامر العمرى قال . خرجت ذات يوم أريد الغارة وكنت رجلا أحب الوحدة فبينما أنا أسير اذ ضللت الطريق الذى أردته فسرت أياما لاأدرى أين أتوجه حتى نفد زادى فجعلت آكل الحشيش وورق الشجر حتى أشرفت على الهلاك ويئست من الحياة

١ المشهور فى رواية البيت من بنار على النساء حفيظة البيت الخ

فبينا أنا أسير اذ أبصرت قطيع غنم فى ناحية من الطريق فملت اليها واذا شاب حسن الوجه فصيح اللسان قال لى . يا ابن العم أين تريد . فقلت . أردت حاجة لى فى بعض المدن وما أظنني الا قد ضللت الطريق . فقال . أجل ان بينك و بين الطريق مسيرة أيام فانزل حتى تستريح وتطمئن وتريح فرسك فنزلت فرمى لفرسى حشيشاً وجاءالىّ بثريد كثير ولبن ثم قام الى كبش فذبحه وأجج ناراً وجعل يكبب لى و يطعمني حتى اكتفيت فلما جننا الليل قام وفرش لى وقال . قم فارم بنفسك فان النوم أذهب لتعبك وأرجع لنفسك فقمت و وضعت رأسى فبينا أنا نائم اذ أقبلت جارية لم تر عيناى مثلها قط حسناً وجمالاً فقعدت الى الفتى وجعل كل واحد منهما يشكو الى صاحبه ما يلقى من الوجد به فامتنع على النوم لحسن حديثهما فلما كان فى وقت السحر قامت الى منزلها فلما أصبحنا دنوت منه فقلت له . ممن الرجل . قال أنا فلان بن فلان . فانتسب لى فعرفته فقلت له . ويحك ان أباك لسيد قومه فما حملك على وضعك نفسك فى هذا المكان . فقال ، أنا والله أخبرك كنت عاشقاً لابنة عمى هذه التى رأيتها وكانت هى أيضاً لى وامقة فشاع خبرنا فى الناس فأتيت عمى فسألته أن يزوجنيها فقال . يا بنى والله ما سألت شططاً وما هى بآثر عندى منك ولكن الناس قد تحدثوا بشىء وعمك يكره المقالة القبيحة ولكن أنظر غيرها فى قومك حتى يقوم عمك بالواجب لك . فقلت . لا حاجة لى فيما ذكرت وتحملت عليه بجماعة من قومى فردهم و زوجها رجلاً من ثقيف له رئاسة وقدر فحملها الى ههنا — وأشار بيده الى خيم كثيرة بالقرب منا — فضاقت على الدنيا برحبها وخرجت فى أثرها فلما رأتنى فرحت فرحاً شديداً فقلت لها . لا تخبرى أحداً انى منك بسبيل ثم أتيت زوجها وقلت . أنا رجل من الازد أصبت دماً وأنا خائف وقد قصدتك لما أعرف من رغبتك فى اصطناع المعروف ولى بصر بالغنم ان رأيت ان تعطيني من غنمك شيئاً فأكون فى جوارك وكنفك فافعل . قال . نعم وكرامة فاعطانى مائة شاة وقال لى . لا تبعد بها من الحى وكانت ابنة عمى تخرج الى كل ليلة فى الوقت الذى رأيت وتنصرف فلما رأى حسن حال الغنم أعطانى هذه فرضيت من الدنيا بما ترى . قال ، فأقمت عنده أياما فبينا أنا نائم اذ نبهني وقال ، يا أخا بنى عامر ، قلت له ، ما شأنك ، قال ، ان ابنة عمى قد ابطأت ولم تكن هذه عادتها والله ما اظن ذلك الا لامر حادث فحدثني . فجعلت احدثه ، فأنشا يقول

ما بالُ مَيَّةَ لا تأتى كعادتها * هلْ هاجها طربٌ أو صدَّها شغلُ
لكنَّ قلبىَ لا يعنيه غيرُكمُ * حتى المماتِ ولا لى غيرَكمْ أملُ
لوْ تعلمين الذى بى منْ فراقكمُ * لَما اعتذرتِ ولا طابت لكِ العِلَلُ

نفسي فداؤك قد أحللت بي حُرقاً * تكادُ من حرّها الاحشاءُ تنفصل
لوْ كان عادِيةٌ منهُ على جبل * لزلّ وانهدّ من أركانه الجبلُ

فوالله ما اكتحل بغمض حتى انفجر عمود الصبح وقام ومر نحو الحي فابطأ عني ساعة ثم أقبل ومعه شيء وجعل يبكي عليه . فقلت له ، ماهذا ، قال هذه ابنة عمي افترسها السبع فاكل بعضها ووضعها بالقرب مني فاوجع والله قلبي ثم تناول سيفه ومر نحو الحي فابطأ هنيهة ثم أقبل الي وعلى عاتقه ليث كانه حمار فقلت له . ماهذا . قال . صاحبي . قلت . وكيف علمته . قال . اني قصدت الموضع الذي أصابها فيه وعلمت انه سيعود الى مافضل منها فجاء قاصداً الى ذلك الموضع فعلمت انه هو فحملت عليه فقتلته ثم قام فحفر في الارض فامعن واخرج ثوباً جديداً وقال . ياأخا بني عامر اذا انامت فادرجني معها في هذا الثوب ثم ضعنا في هذه الحفرة وهل التراب واكتب هذين البيتين على قبرنا وعليك السلام

كنا على ظهرها والعيشُ في مَهلٍ * والدّهرُ يجمعنا والدارُ والوطنُ
فخاننا الدّهرُ في تفريقِ ألفتنا * واليومَ يجمعُنا في بطنها الكفنُ

ثم التفت الى الاسد وقال

ألا أيُّها الليثُ المُدِلُّ بنفسِهِ * هُبِلْتَ لقد جرّتْ يداك لنا حزنا
وغادرْتني فرْدًا وقد كنتُ آلفاً * وصيّرْتَ آفاق البلادِ لنا سِجْنا
أأصحبُ دهراً خانني بفراقها * معاذَ إلهي أنْ أكونَ له خِدْنا

ثم قال . ياأخا بني عامر اذا فرغت من شاننا فصح في أدبار هذه الغنم فردها الى صاحبها ثم قام الى شجرة فاختنق حتى مات فقمت فادرجتهما في ذلك الثوب ووضعتهما في تلك الحفرة وكتبت البيتين على قبرهما ورددت الغنم الى صاحبها وسالني القوم فاخبرتهم الخبر فخرج جماعة منهم فقالوا والله لننحرن عليه تعظيماً له فخرجوا واخرجوا مائة ناقة وتسامع الناس فاجتمعوا الينا فنحرت ثلاثمائة ناقة ثم انصرفنا . وقيل لما كان من أمر عبد الرحمن بن الاشعث الكندي ما كان قال الحجاج اطلبوا الى شهاب بن حرقة السعدي في الاسرى أو القتلى فطلبوه فوجدوه في الأسرى فلما ادخل على الحجاج قال له من أنت قال أنا شهاب بن حرقة قال والله لاقتلنك قال لم يكن الامير بالذي يقتلني قال ولم قال لان في خصالا يرغب فيهن الامير قال وماهن قال ضروب بالصفيحة هزوم للكتيبة أحمي الجار وأذب عن الذمار وأجود على العسر واليسر غير بطيء عن النصر قال الحجاج ما أحسن هذه الخصال فاخبرني باشد شيء مرّ عليك قال نعم أصلح الله الامير

بينا أنا أسير * ومركبي وثير * في عصبة من قومي * في ليلتي ويومي
يمضون كالاجادل * في الحرب كالبواسل * أنا المطاع فيهم * في كل ما يليهم
فسرت خمساً عوماً * وبعد خمس يوما * حتى وردت أرضا * ما ان ترام عرضا
من بلد البحرين * عند طلوع العين * فهجتهم نهارا * القمس المغارا
حتى اذا كان السحر * من بعد ما غاب القمر * اذا أنا بعير * يقودها خفير
موقرة متاعا * مقبلة سراعا * فصلت بالسنان * مع سادة فتيان
فسقتها جميعا * احثها سريعا * أريد رمل عالج * امعج بالعناجج
أسير في الليالى * خرقاً بعيداً خالى * وقد لقينا تعباً * وبعد ذاك نصبا
حتى اذا هبطنا * من بعد ما صعدنا * عنت لنا بيدانه * قد كان فيها عانه
رميتها بقوسى * في مهمه كالترس * حتى اذا ما أمعنت * بالقفر ثم درمت
وردت قصراً منهلا * في جوفه طام حلا * وعنده خيمه * في جوفها نعيمه
عزيزة كالشمس * فاقت جميع الانس * فعجت مهرى عندها * حتى وقفت معها
حييت ثم ردت * في لطف وحيت * فقلت يا لعروب * والطفلة العروب
هل عندكم قراء * اذ نحن بالعراء * قال نعم برحب * في لطف وقرب
أربع هنا عتيدا * ولا تكن بعيداً * حتى يجيئك عامر * مثل الهلال زاهر
فعجت عن قريب * في باطن الكثيب * حتى رأيت عامراً * يحمل ليثا خادرا
على عتيق سابح * كمثل طود اللامح

قال . وكان الحجاج متكئا فاستوى جالسا ثم قال . ويحك دعنا من السجع والرجز وخذ في الحديث . قال . نعم أيها الامير ثم نزل فربط فرسه وجمع حجارة وأوقد عليها نارا وشق عن بطن الاسد والتى مراقه في النار فجعلت أصلح الله الامير اسمع لحم الاسد نشيشاً فقالت له نعيمة قد جاءنا ضيف وانت في الصيد . قال . فما فعل ، قالت . ها هو ذاك بظهر الكثيب والخيمة فأومأت الى فاتيتها فاذا أنا بغلام أمرد كان وجهه دارة القمر فربط فرسي الى جنب فرسه ودعاني الى طعامه فلم امتنع من أكل لحم الاسد لشدة الجوع فأكلت أنا ونعيمة منه بعضه وأتى الغلام على آخره ثم مال الى رق فيه خمر فشرب ثم سقاني فشربت ثم شرب الغلام حتى آتى على آخره فبينا نحن كذلك اذ سمعت وقع حوافر خيل أصحابي فقمت وركبت فرسي وتناولت رمحي وصرت معهم ثم قلت يا غلام خل عن الجارية ولك ماسواها ، فقال ، ويلك احفظ الممالحة ، قلت لا بد من الجارية

فالتفت اليها وقال لها قفى ثم قال يافتيان هل لكم فى العافية والا فارس وفارس فبرز اليه رجل من أصحابى فقال له الغلام ، من أنت فلست أقاتل من لا أعرفه ولا أقاتل الا كفؤا أعرفه فقال أنا عاصم بن كلبة السعدى فشد عليه . وأنشأ يقول

إنكَ ياعاصمُ بى لجاهلْ * إذ رُمْتَ أمراً أنت عنهُ ناكلْ
إنى كَمِيٌّ فى الحروبِ باسِلْ * ليثٌ إذا اصطكَّ الليوثُ بازلْ
ضَرَّابُ هاماتِ العدى مُنازِلُ * قتّالُ أقرانِ الوَغا مُقاتِلْ

ثم طعنه فقتله وقال يافتيان هل لكم فى العافية والا فارس وفارس فتقدم اليه آخر من أصحابى فقال له الغلام . من أنت فقال أنا صابر بن حرقة فشد عليه وأنشأ يقول

إنك والإِلهِ لستَ صابراً * على سِنانٍ يجلبُ المقادرا
ومُنصُلٍ مثلَ الشهابِ باترا * فى كفِّ قَرْمٍ يمنعُ الحرائرَ
إنى إذا رُمتُ امرأً فآسراً * يكونُ قِرْنى فى الحرُوبِ بائرا

ثم طعنه فقتله وقال . يافتيان هل لكم فى العافية والا فارس لفارس فلما رأيت ذلك هالنى أمره وأشفقت على أصحابى فقلت . احملوا عليه حملة رجل واحد فلما رأى ذلك أنشأ يقول

الآنَ طابَ الموتُ ثم طابا * إذ تطلبون رَخصةً كَعابا
ولا نُريد بعدها عتابا

فركبت نعيمة فرسها وأخذت رمحها فما زال يجالدنا ونعيمة حتى قتل منا عشرين رجلا فأشفقت على أصحابى فقلت . ياغلام قد قبلنا العافية والسلامة . فقال . ما كان أحسن هذا لو كان أولا ونزلنا وسالمنا ثم قلت ياعامر بحق المما لحة من أنت قال أنا عامر بن حرقة الطائى وهذه ابنة عمى ونحن فى هذه البرية منذ زمان ودهر ما مر بنا أنسى غيركم فقلت من أين طعامكم قال حشرات الطير والوحش والسباع قلت فمن أين شرابكم قال الخمر أجلبها من بلاد البحرين كل عام مرة أو مرتين قلت ان معى مائة من الابل موقرة متاعا فخذ منها حاجتك فقال لا أرب لى فيها ولو أردت ذلك لكنت أقدر عليه فارتحلنا عنه منصرفين . فقال الحجاج الآن ياعدو الله طاب قتالك لغدرك بالفتى قال . . كان خروجى على الامير أصلحه الله اعظم من ذلك فان عفى عنى الامير رجوت أن لا يؤاخذنى بغيره فاطلقه ووصله ورده الى بلده

﴿ ضده ﴾

قال . دخل أبوزبيد الطائى على عثمان بن عفان فى خلافته وكان نصرانيا فقال له بلغنى انك

بحيد وصف الاسد . فقال له . لقد رأيت منه منظراً وشهدت منه مخبراً لا يزال ذكره يتجدد
على قلبي . قال هات ما مر على رأسك منه . قال خرجت يا أمير المؤمنين فى صُبابة من افناء
قبائل العرب ذوى شارة حسنة ترتمى بنا المهارى با كسائها القزوانيات ومعنا البغال عليها العبيد
يقودون عتاق الخيل تريد الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك الشام فاخروّط بنا المسير فى حمارة
القيظ حتى اذا عصبت الافواه وذبلت الشفاه وشالت المياه واذكت الجوزاء المعزاء وذاب
الصيخد وصرّ الجندب وضايق العصفور الضب فى وجاره ، قال قائلنا : أيها الركب غوّروا بنا
فى دوح هذا الوادى فاذا واد كثير الدغل دائم الغلل شجراؤه مغنة وأطياره مرنة فحططنا
رحالنا بأصول دوحات كنهبلات فاصبنا من فضلات المزاود واتبعناها بالماء البارد فانا لنصف
حرّ يومنا ومماطلته ومطاولته اذ صرّ أقصى الخيل أذنيه وفحص الارض بيديه ثم مالبث أن جال
فحمحم وبال فهمهم ثم فعل فعله الذى يليه واحد بعد واحد فتضعضعت الخيل وتكعكعت الابل
وتقهقرت البغال فمن نافر بشكاله وناهض بعقاله فعلمنا أن قد أتينا وانه السبع لا شك فيه ففزع
كل امرئ منا الى سيفه واستله من جربانه ثم وقفنا له رزدقا فأقبل يتظالع فى مشيته كانه مجنوب
أو فى هجار لصدره نحيط ولبلاعيمه غطيط ولطرفه وميض ولارساغه نقيض كانما يخبط
هشيما أو يطأ صريما واذا هامة كالمجنّ وخد كالمسنّ وعينان سجراوان كانهما سراجان يقدان
وقصرة ربلة ولهزمة رهلة وكتد مغبط وزور مفرط وساعد مجدول وعضد مفتول وكف شثنة
البراسن الى مخالب كالمحاجن ثم ضرب بذنبه فارهج وكشر فافرج عن أنياب كالمعاول مصقولة
غير مفلولة وفم أشدق كالغار الاخرق ثم تمطى فاسرع بيديه وحفز وركيه برجليه حتى صار ظله
مثليه ثم أقعى فاقشعرّ ثم مثل فاكفهرّ ثم تجهم فازبأرّ فلا والذى بيته فى السماء ما اتقيناه باول
من أخ لنا من بنى فزارة كان ضخم الجزارة فوهصه ثم أقعصه فقضقض متنه وبقر بطنه فجعل
يلغ فى دمه فذمرت أصحابى فبعد لأى ما استقدموا فكرّ مقشعر الزبرة كان به شيهما حوليا
فاختلج من دونى رجلا أعجر ذا حوايا فنفضه نفضة فتزايلت أوصاله وانقطعت أوداجه ثم نهم
ففرقر ثم زفر فبربر ثم زأر فجرجر ثم لحظ فوالله لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه عن شماله ويمينه
فارتعشت الايدى واصطكت الارجل وأطت الاضلاع وارتجت الاسماع وحملجت العيون
وانخزلت المتون ولحقت الظهور البطون ثم ساءت الظنون . وأنشأ يقول

عَبُوسٌ شَمُوسٌ مُصْلَخِدٌّ خُنابِسٌ * جَرِىءٌ على الارواحِ لِلقِرْنِ قاهِرُ
مَنيعٌ ويحمى كلَّ وادٍ يَرُومُهُ * شديدُ أصولِ الماضِغينِ مُكابِرُ
بَراثِنُهُ شَثْنٌ وعيناهُ فى الدُّجى * كجمرِ الغضا فى وجهِهِ الشرُّ ظاهِرُ

يُدِلُّ بانيابٍ حدادٍ كأنها * إذا قلّصَ الاشداقَ عنها خناجرُ

فقال عثمان . اكفف لا أم لك فلقد أرعبت قلوب المسلمين ولقد وصفته حتى كانى أنظر اليه بر يديوا ثبني . وقيل فى المثل هو أجبن من هجرس ـ وهو القرد ـ وذلك انه لا ينام الا وفى يده حجر مخافة أن يأ كله الذئب ، وحدثنا رجل بمكة قال . اذا كان الليل رأيت القرود تجتمع فى موضع واحد ثم تبيت مستطيلة واحداً فى أثر واحد فى يد كل واحد منهم حجر لئلا ترقد فيأتيها الذئب فيأ كلها وان نام واحد وسقط الحجر من يده فزع فتحرك الآخر فصار قدامه فلا تزال كذلك طول الليل فتصبح وقد صارت مع الموضع الذى باتت فيه على ثلاثة أميال او اكثر جبناً ، وقيل . هو أجبن من صافر ، وهو طائر يتعلق برجليه وينكس رأسه ثم يصفر ليلته كلها خوفا من أن ينام فيؤخذ ، وقيل ايضا هو أجبن من المنزوف ضرطاً ، وكان من حديثه أن نسوة من العرب لم يكن لهن رجل فتزوجت واحدة منهن برجل كان ينام الى الضحى فاذا انتبهضر بنه وقلن له قم فاصطبح و يقول لو لعادية نبهتنني ـ أى خيل عادية عليكن مغيرة فادفعها عنكن فلما رأين ذلك فرحن وقلن ان صاحبنا الشجاع ثم أقبلن وقلن تعالين نجربه فاتينه كما كن يأتينه فأيقظنه فقال لو لعادية نبهتنني . فقلن له . نواصى الخيل معك ، فجعل يقول الخيل الخيل و يضرط حتى مات فضرب به المثل . وقيل لجبان انهزمت فغضب الامير عليك ، قال يغضب الامير وأنا حيّ أحب الىَّ من أن يرضى وأنا ميت ، وقيل لبعض المجان مالك لا تغزوا ، قال والله انى لا بغض الموت على فراشي فكيف أمرُّ اليه ركضاً ، قال . وقال الحجاج لحميد الارقط وقد أنشده قصيدة يصف فيها الحرب ياحميد هل قاتلت قط ، قال لا أيها الامير الا فى النوم قال وكيف كانت وقعتك ، قال انتبهت وأنا منهزم ، ومما قيل فى ذلك من الشعر

ظلتْ تُشجّعني هندٌ بتضليلِ * وللشجاعةِ خطبٌ غيرُ مجهولِ
هاتى شجاعا لغيرِ القتلِ مَصرَعهُ * أوجدك ألفَ جبان غير مقتول
الحربُ توسعُ مَنْ يَصلى بها حَرَبا * يُتمَ العيالِ و إثكالَ المثاكيلِ
اسمُ الوغى اشتقّ من غوغاء بحر بها * يَغدُونَ للموتِ كالطيرِ الابابيل
والله لو أنَّ جبريلاً تكفّلَ لى * بالنصرِ ما خاطرت نفسى لجبريل
هل غيرَ أنْ يَعذِرونى أننى فشِلٌ * فكلٌّ هذا نعَمْ فاغرُوا بتعزيلي
إنْ أعتذرْ منْ فِرارى فى الوغى أبداً * كان اعتذارى رَديداً غيرَ مقبولِ
إسمعْ أُخبرْكَ عنْ بأسى بذى سلَبٍ * خِلافَ بأسِ المساعيرِ البهاليلِ

لما بدت منهم نحوى عشوزنة * شمّاء تشرع فى عرضى وفى طولى
فقلت ويحكم لا ترهبوا جلدى * رمحى كسير وسيفى غير مصقول
لما اتقيتهم طوعا بذات يدٍ * وانصعت أطوى الفلا ميلاً الى ميل
الله خلّصنى منهم وفلسفتى * حتى تخلّصت مخضوب السراويل

وقال آخر

أضحت تشجعنى هند فقلت لها * إنّ الشجاعة مقرون بها العطب
لا والذى حجّت الانصار كعبته * ما يشتهى الموت عندى من له أرب
للحرب قوم أضلّ الله سعيهم * إذا دعتهم إلى حوماتها وثبوا
ولست منهم ولا أهوى فعالهم * لا القتل يعجبنى منهم ولا السلب

وقال آخر

يقول لى الامير بغير جرمٍ * تقدّم حين حلّ بنا المراس
فمالى إن أطعتك فى حياةٍ * ولا لى غير هذا الرّاس راس

﴿ محاسن حب الوطن ﴾

قال عمر بن الخطاب لولا حب الوطن لخرب بلد السوء ، وكان يقال بحب الاوطان عمرت البلدان ، وقال جالينوس يتروح العليل بنسيم أرضه كما تتروح الارض الجدبة ببل المطر ، وقال بقراط يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فان الطبيعة تنزع الى غذائها ، ومما يؤكد ذلك قول اعرابى وقد مرض بالحضر فقيل له ما تشتهى . فقال مخيضاً روياً وضباً مشويا ، وقد قيل أحق البلدان بنزاعك اليها بلد أمصك حلب رضاعه ، وقيل احفظ أرضاً ارسخك رضاعها واصلحك غذاؤها وارع حمى أكتنفك فناؤه ، وقيل لا تشك بلداً فيه قبائلك ، وقيل من علامة الرشد أن تكون النفس الى أوطانها مشتاقة والى مولدها توّاقة ، وحدثنا بعض بنى هاشم قال . قلت لاعرابى من أين اقبلت قال من هذه البادية قلت وأين تسكن منها قال مساقط الحمى حمى ضريّة ما إن لعمر الله أريد بها بدلا ولا ابتغى عنها حولا حفتها الفلوات فلا يملوح ماؤها ولا تحمى تربتها ليس فيها أذى ولا قذى ولا وعك ولا موم ونحن بأرفه عيش وأوسع معيشة وأسبغ نعمة ، قلت مما طعامكم قال بخ بخ الهبيد والضباب واليرابيع مع القنافذ والحيات وربما والله أكلنا القد واشتوينا الجلد فلا نعلم أحداً أخصب منا عيشاً فالحمد لله على ما رزق من السعة وبسط من حسن الدعة ، وقيل

لاعرابي كيف تصنع بالبادية اذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله فقال وهل العيش الا ذاك يمشي أحد ناميلا فيرفض عرقا كانه الجمان ثم ينصب عصاه و يلقي عليها كساه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه في ايوان كسرى ، وقال بعض الحكماء عسرك في بلدك خير من يسرك في غربتك . وقيل لاعرابي ما الغبطة قال الكفاية ولزوم الاوطان والجلوس مع الاخوان ، وقيل فما الذل قال التنقل في البلدان والتنحي عن الاوطان ، وقال بعض الادباء الغربة ذلة والذلة قلة وقال الآخر لا تنهضن عن وطنك ووكرك فتنقصك الغربة وتضمك الوحدة ، وشبهت الحكماء الغريب باليتيم اللطيم الذي ثكل أبويه فلا أم ترأمه ولا اب يحدب عليه ، وكان يقال الغريب عن وطنه ومحل رضاعه كالغرس الذي زايل أرضه وفقد شربه فهو ذاو لا يثمر وذابل لا ينضر ، وكان يقال الجالي عن مسقط رأسه كالعير الناشز عن موضعه الذي هو لكل سبع فريسة ولكل كلب قنيصة ولكل رام رمية . وأحسن من ذلك واصدق قول الله عز وجل (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء) وقال تعالى (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم) فقرن جل ذكره الجلاء عن الوطن بالقتل . وقال تقدست أسماؤه (ومالنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) فجعل القتال بازاء الجلاء وقال النبي صلى الله عليه وسلم الخروج عن الوطن عقوبة . ومما قيل في ذلك من الشعر

إذا ما ذكرتُ الثغر فاضتْ مدامعي * وأضحى فؤادي نهبةً للهماهم
حنيناً إلى أرضٍ بها اخضرَّ شاربي * وحُلَّتْ بها عنّي عقودُ التمائم
وألطفُ قومٍ بالفتى أهلُ أرضهِ * وأرعاهمُ للمرء حقَّ التقادُم

وقال آخر

أحنُّ الى أرضِ الحجاز وحاجتي * قيامٌ بنجدٍ دونها الطرفُ يقصرُ
وما نظري من نحوِ نجدٍ بنافعي * أجلْ لا ولكني على ذاكَ أنظرُ
ففي كلِّ يومٍ نظرةٌ ثم عَبْرةٌ * لعينيكَ يجري ماؤها يتحدّر
متى يستريحُ قلبٌ فاما مُحاذرٌ * حزينٌ وإما نازحٌ يتذكّر

وقال آخر

نقّلْ فؤادكَ حيثُ شئتَ منَ الهوى * ما الحبُّ إلا للحبيبِ الاوّلِ
كمْ منزلٍ في الارض يألفهُ الفتى * وحنينهُ أبداً لاوّل منزلِ

وقال ابن ابي السرح قرأت على حائط بيتي شعر .. وهما

إنّ الغريبَ ولوْ يكونُ ببلدة * يجبي إليهِ خراجُها لغريبُ
وأقلُّ ما يلقى الغريبُ مِنَ الاذى * أنْ يستذلَّ وأنْ يُقالَ كذوبُ

قال وقرأ على حائط بعسكر مكرم

إنَّ الغريبَ إذا يُنادى موجعاً * عندَ الشدائدِ كانَ غيرَ مُجابِ
فاذا نظرتَ إلى الغريبِ فكنْ له * مُترحِماً لتباعُدِ الاحبابِ

وقال وقرأت على حائط ببغداد

غريبٌ الدّارِ ليسَ لهُ صديقُ * جميعُ سُؤالهِ أينَ الطريقُ
تعلّقَ بالسُّؤالِ لكلّ شيءٍ * كما يتعلقُ الرَّجلُ الغريقُ
لاتجزعْ فكلُّ فتًى سيأتى * على حالاتهِ سَعةٌ وضيقُ

قال ووجدت على حائط باب مكتوب

عليكَ سلامُ اللهِ ياخيرَ منزلٍ * رحلنا وخلّفناكَ غيرَ ذميمِ
فإنْ تكُنِ الأيّامُ فرّقنَ بيننا * فما أحدٌ منْ رَيبها بسليم

وقال آخر

وإنَّ اغترابَ المرءِ منْ غيرِ حاجةٍ * ولا فاقةٍ يسمو لها لعجيبُ
فحسبُ امرِيءٍ ذُلا ولوْ أدركَ الغنى * ونالَ ثراهُ أنْ يُقالَ غريبُ

وقال اخر

إنَّ الغريبَ وإنْ يكنْ في غبطةٍ * لَمعذبٌ وفؤادُه محزونُ
ومتى يكونُ معَ التغرُّبِ عاشقاً * ومُفارقاً ياربِّ كيفَ يكونُ

وقال آخر

إنَّ الغريبَ ذليلٌ أين ماسلكا * لوْ أنهُ مِلكٌ كلَّ الورى مَلكا
إذا تغنى حمامُ الايكِ في غُصنٍ * حنَّ الغريبُ إلى أوطانهِ فبكى

وقال آخر

سَلِ اللهَ الإيابَ منَ المغيبِ * فكمْ قدْ ردَّ مثلكَ منْ غريبِ
وسَلِّ الحُزنَ منك بحسن ظنٍّ * ولا تيأسْ من الفرج القريبِ

وقال آخر

تصبّرْ ولا تعجلْ وُقيتَ منَ الرّدى * لعلَّ إيابَ الظاعنينَ قريبُ

فقلتُ وفى قلبى جوًى لفراقها * ألا لا تُصبّرْنى فلستُ أجيبُ

وقال آخر

أعاذِلَ حُبى للغريبِ سَجيّةٌ * وكلُّ غريب للغريبِ حبيبُ
لئن قلتُ لم أجزعْ من البينِ إنْ مضوا * لِطِيّتهم إنى اذاً لكذوبُ
بلى غُرَّاتُ الشوقِ أضرمتِ الحشا * ففاضتْ لها منْ مقلتىّ غروبُ

وقال آخر

إذا اغترَبَ الكريم رأى أموراً * مُجللة يشيبُ لها الوليدُ

وقال آخر

ماكنتُ أحسبُ أن يكو * نَ كذا تفرُّقنا سريعا
بَخِلَ الزّمانُ علىّ أنْ * نبقى كما كنا جميعا
فأحلّنى فى بلدةٍ * وأحلّكَ البلدَ الشّسيعا
قدْ كنتُ أنتظرُ الوصا * لَ فصِرْتُ أنتظرُ الرجوعا

وقال آخر

نسيمُ الخزامى والرّياحُ التى جرتْ * بنجدٍ على نجدٍ تذكّرنى نجدا
أتانى نسيم السّدْرِطيبا إلى الحِمى * فذكّرنى نجداً فقطعنى وَجْداً

وفى معناه (الدعاء للمسافر) بايمن طالع وابشر طائر. ولا كبا بك مركب ولا اشت بك مذهب ولا تعذر عليك مطلب.. سهل الله لك السير وأنالك القصد وطوى لك البعد بمسرة الظفر وكرامة المدخر.. على الطائر الميمون والكوكب السعد الى حيث تتقاصر أيدى الحوادث عنك وتتقاعس نوائب الايام دونك بسهولة المطلب ونجاح المنقلب.. كان الله لك فى سفرك خفيرا وفى حضرك ظهيرا بسعى نجيح واوب سريح.. بصّرك الله محلك وهدى لك رحالك وسرباوبتك أهلك ولا زلت آمنا مقيما وظاعنا باسعد جدو أنجح مطلب واسر منقلب وأكرم بدأة وأحمد عاقبة.. شخص مصحوبا بالسلامة والكلاءة آيبا بالنجح والغبطة محوطا فيما تطالعه بالعناية والشفقة.. فى ودائع الله وكنفه وجواره وستره وأمانه وحفظه وذمامه،، وقال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم.. انى أريد سفراً، فقال: فى كنف الله وستره زودك الله التقوى ووجهك الى الخير حيث ماكنت استخلف الله فيك واستخلفه منك،، وقال الشاعر

فى كنفِ الله وفى سِترِه * من ليس يخلوا القلب من ذكرِه

وقال آخر

إرحل أبا بِشرٍ بأيمنِ طائر * وعلى السّعادة والسلامة فانزلِ

﴿ ضده ﴾

قال بعض حكماء الفلاسفة اطلبوا الرزق فى البعد فانكم ان لم تكسبوا مالا غنمتم عقلا كثيرا، وقال آخر لا يألف الوطن الا ضيق العطن ، وقيل لا توحشنك الغربة اذا آنستك النعمة ، وقيل الفقير فى الاهل مصروم والغنى فى الغربة موصول ، وقال لا تستوحش من الغربة اذا أنست مصروما ، وقيل أوحش قومك ما كان فى ايحاشهم انسك واهجر وطنك ما نبت عنه نفسك ، وأنشد

لا يمنعنك خفض العيش فى دَعةٍ * نزوعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطانِ

تلقى بكلّ بلادٍ إن حللت بها * أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيرانِ

وقال آخر

نبت بك الدّارُ فسِر آمِناً * فللفتى حيثُ انتهى دارُ

وفى معناه (الدعاء على المسافر) بالبارح الاشام والسانح الاعضب والصرد الانكد والسفر الابعد . لا استمرت به مطيته ولا استتبت به امنيته ولا تراخت منيته . بنحس مستمر وعيش مر . لا قرى اذا استضاف ولا أمن اذا خاف ، ويقال ان عليا عليه السلام لما اتصل به مسير معاوية قال لا أرشد الله قائده ولا أسعد رائده ولا أصاب غيثا ولا سار الا ريثا ولا رافق الا ليثا أبعده الله واسحقه واوقد على أثره وأحرقه . لا حط الله رحله ولا كشف محله ولا بشر به أهله . لا زكى له مطلب ولا رحب له مذهب ولا يسر له مراما الا فرج الله له . غمه ولا سرى همه . لا سقاه الله ماء ولا حل عقده ولا اورى زنده . جعله الله سفر الفراق وعصى الشقاق . وانشد

بانكد طائرٍ وبشرّ فالِ * لابعدِ غايةٍ وأخسّ حالِ

بحدّ السدّ حيث يكون منى * كما بين الجنوبِ إلى الشمالِ

غريباً تمتطى قدميك دهراً * على خوفٍ تحنُّ الى العيالِ

وقال آخر

اذا استقلت بك الرّكابُ * فحيثُ لا درّت السّحابُ

وحيثُ لاتبتغى فلاحاً * وحيثُ لا يُرْتجى اياب
وحيثُ مادرْتَ فيهِ يوْما * قاتلكَ الذئبُ والغرابُ

وقال آخر

فسرْ بالنحوسِ الى بلدةٍ * تُعمَّرُ فيها ولا تُرْزقُ
ولا تمْرعِ الارضُ من زهرةٍ * ولا يثمرُ الشجرُ المورقُ
تغيضُ البحارَ بها مرّةً * ويكدى السحاب بها المغدق

وقال آخر

أدنى خطاك الهندُ والصينُ * وكلُّ نحسٍ بك مقرُونُ
بحيثُ لا يانَسُ مُستوحِشٌ * وحيثُ لا يفرحُ محزونُ
تهوَى بكَ الارْضُ الى بلدةٍ * ليسَ بها ماءٌ ولا طينُ

— محاسن الدهاء والحيل —

الهيثم بن الحسن بن عمار قال ، قدم شيخ من خزاعة أيام المختار فنزل على عبد الرحمن بن أبان الخزاعى فلما رأى ما تصنع سوقه المختار من الاعظام جعل يقول . ياعباد الله أبا المختار يصنع هذا والله لقد رأيته يتتبع الاماء بالحجاز فبلغ ذلك المختار فدعا به وقال ماهذا الذى بلغنى عنك . قال الباطل ، فامر بضرب عنقه ، فقال ، لا والله لا تقدر على ذلك . قال ، ولم . قال . اما دون ان أنظر اليك وقد هدمت مدينة دمشق حجرا حجرا وقتلت المقاتلة وسبيت الذرية ثم تصلبنى على شجرة على نهر والله انى لاعرف الشجرة الساعة وأعرف شاطىء ذلك النهر فالتفت المختار الى اصحابه فقال لهم . ان الرجل قد عرف الشجرة فحبس حتى اذا كان الليل بعث اليه فقال ، يا اخا خزاعة اومزاح عند القتل . قال ، انشدك الله ان اقتل ضياعا . قال ، وما تطلب ههنا . قال ، اربعة آلاف درهم اقضى بها دينى . قال ، ادفعوها اليه واياك ان تصبح بالكوفة فقبضها وخرج عنه ، قال كان سراقة البارقى من ظرفاء اهل الكوفة فاسره رجل من اصحاب المختار فاتى به المختار فقال له اسرك هذا قال سراقة كذب والله ما اسرنى الا رجل عليه ثياب بيض على فرس ابلق فقال المختار الا ان الرجل قد عاين الملائكة خلوا سبيله فلما افلت منه انشأ يقول

ألا أبلغ أبا إسحاق أني * رأيت البلق دهماً مصمتات
أرى عيني مالم ترأياه * كلانا عالم بالترهات
كفرت بوحيكم وجعلت نذراً * علي قتالكم حتى الممات

وعنه قال ، كان الاحوص بن جعفر المخزومي يتغدى في دير اللج في يوم شديد البرد ومعه حمزة بن بيض وسراقة البارقي فلما كان على ظهر الكوفة وعليه الوبر والخز وعليهما الاطمار قال حمزة لسراقة : أين يذهب بما في البرد ونحن في أطمار . قال: سأكفيكه فبينما هو يسير إذ دنا منهم راكب مقبل فحرك سراقة دابته نحوه وواقفه ساعة ولحق بالاحوص فقال له ما خبرك الراكب . قال : زعم ان خوارج خرجت بالقطقطانة قال بعيد . قال ان الخوارج تسير في ليلة ثلاثين فرسخا وأكثر وكان الاحوص أحد الجبناء فثني رأس دابته وقال ردوا طعامنا نتغدى في المنزل فلما حاذى منزله قال لاصحابه : ادخلوا ومضى الى خالد بن عبد الله القسري فقال خرجت خارجة بالقطقطانة فنادى خالد في العسكر فجمعهم ووجه خيلا تركض نحو اللج لتعرف الخبر فاعلموه انه لا أصل للخبر فقال للاحوص من أعلمك بهذا قال سراقة قال وأين هو قال في منزلي فارسل اليه من أتاه به قال أنت أخبرته عن الخارجة قال ما فعلت أصلح الله الامير قال له الاحوص أتكذبني بين يدي الامير قال خالد ويحك أصدقني قال نعم أخرجنا في هذا البرد وقد ظاهر الخز والوبر ونحن في أطمارنا هذه فأحببت أن أرده فقال له خالد ويحك وهذا مما يتلاعب به وسراقة هذا هو القائل

قالوا سراقة عنين فقلت لهم * الله يعلم أني غير عنين
فإن ظننتم بي الشيء الذي زعموا * فقربوني من بنت ابن ياسين

وذكروا أن شبيب بن يزيد الخارجي مر بغلام مستنقع في الفرات فقال له يا غلام اخرج اني أسألك فعرفه الغلام فقال له اني أخاف أفآمن أنا اذا خرجت حتى البس ثيابي قال نعم فخرج وقال والله لا ألبسها اليوم فضحك شبيب وقال خدعتني ورب الكعبة ووكل به رجلا من أصحابه يحفظه أن لا يصيبه أحد بمكروه قال وكان رجل من الخوارج يقول

فمنا يزيد والبطين وقعنب * ومنا أمير المؤمنين شبيب

فسار البيت حتى سمعه عبد الملك بن مروان فأمر بطلب قائله فأتى به فلما وقف بين يديه قال . أنت القائل (ومنا أمير المؤمنين شبيب)

قال لم أقل هكذا يا أمير المؤمنين انما قلت * ومنا أمير المؤمنين شبيب *

فضحك عبد الملك وأمر بتخلية سبيله فتخلص بدهائه وفطنته لازالة الاعراب من الرفع

الى النصب،،و زعموا أن عمرو بن معدى كرب هجم فى بعض غاراته على شابة جميلة منفردة وأخذها فلما أمعن بها بكت فقال ، ما يبكيك . قالت أبكى لفراقى بنات عمى هن مثلى فى الجمال وأفضل منى خرجت معهن فانقطعنا عن الحى قال وأين هن قالت خلف ذلك الجبل وودت اذ أخذتنى انك أخذتهن معى فامض الى الموضع الذى وصفته فمضى الى هنالك فما شعر بشىء حتى هجم عليه فارس شاك فى السلاح فعرض عليه المصارعة فصرعه الفارس ثم عرض عليه ضرو بامن المناوشة فغلبه الفارس فى كلها فسأله عمرو عن اسمه فاذا هو ربيعة بن مكدم الكنانى فاستنقذ الجارية ، وعن عطاء ان مخارق بن عفان ومعن بن زائدة تلقيا رجلا ببلاد الشرك ومعه جارية لم يريا أحسن منها شبابا وجمالا فصاحا به خل عنها ومعه قوس فرمى بها وهابا الاقدام عليه ثم عاد ليرمى فانقطع وتره وسلم الجارية وأسند فى جبل كان قريباً منه فابتدراه وأخذا الجارية وكان فى أذنها قرط فيه درة فانتزعاه من أذنها فقالت وما قدر هذه لو رأيتما درتين معه فى قلنسوته وفى القلنسوة وتر قد اعده ونسيه من الدهش فلما سمع قول المرأة ذكر الوتر فاخذه وعقده فى قوسه فوليا ليست لهما همة الا النجاة وخليا عن الجارية ،، وعن الهيثم قال كان الحجاج حسوداً لا يتم له صنيعة حتى يفسدها فوجه عمارة بن تميم اللخمى الى عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث فظفر به وصنع ما صنع ورجع الى الحجاج بالفتح ولم يرمنه ما أحب وكره منافرته وكان عاقلا رفيقاً فجعل يرفق به و يقول أيها الامير أشرف العرب أنت من شرفته شرف ومن وضعته اتضع وما ينكر ذلك لك مع رفقك ويمنك ومشورتك ورأيك وما كان هذا كله الا بصنع الله وتدبيرك وليس أحد أشكر لبلائك منى ومن ابن اشعث وماخطرة حتى عزم الحجاج على المسير الى عبد الملك فاخرج عمارة معه وعمارة يومئذ على اهل فلسطين أمير فلم يزل يلطف بالحجاج فى مسيره و يعظمه حتى قدموا على عبد الملك فلما قامت الخطباء بين يديه واثنت على الحجاج قام عمارة فقال يا أمير المؤمنين سل الحجاج عن طاعتى ومناصحتى وبلائى قال الحجاج يا أمير المؤمنين صنع وصنع ومن باسه ونجدته وعفافه كذا وكذا وهو أيمن الناس نقيبة واعلمهم بتدبير وسياسة ولم يُبق فى الثناء عليه غاية فقال عمارة قد رضيت يا امير المؤمنين قال نعم فرضى الله عنك حتى قالها ثلاثا فى كلها يقول قد رضيت قال عمارة فلا رضى الله عن الحجاج يا امير المؤمنين ولا حفظه ولا عافاه فهو والله السيىء التدبير الذى قد افسد عليك اهل العراق والب الناس عليك وما أُتيت الا من قبله ومن قلة عقله وضعف رايه وقلة بصره بالسياسة فلك والله امثالها ان لم تعزله فقال الحجاج مه يا عمارة فقال لا مه ولا كرامة كل امرأة له طالق وكل مملوك له حران سار تحت راية الحجاج ابداً قال انى اعلم انه ما اخرج هذا منك الا عن معتبة ولك عندى العتبى وارسل اليه ارجع اليه فقال ما كنت اظن ان عقلك على هذا

ارجع اليه بعد الذى كان من طعنى عليه وقولى عند امير المؤمنين ماقلت فيه لا ولا كرامة

﴿ ضده ﴾

قيل فى المثل ،، هواحمق من عجل ، وهو عجل بن لجيم وذلك انه قيل له ماسميت فرسك ففقأ عينه وقال سميته الاعور ، فقال الشاعر فيه

رمتنى بنو عجلٍ بداء أبيهمْ * وأى امرئ فى الناس أحمق من عجلِ
أليس أبوهم عارَ عين جوادِه * فصارت به الامثالُ تُضرب فى الجهلِ

وقيل ، هواحمق من هبنقة و بلغ من حمقه انه ضل له بعير فجعل ينادى من وجد بعيرى فهوله فقيل له ولم تنشده قال واين حلاوة الظفر والوجدان ، واختصمت اليه الطفاوة و بنوراسب فى رجل ادعى هؤلاء وهؤلاء فيه فقالوا قد رضينا بحكم أول طالع يطلع علينا فطلع عليهم هبنقة فلما رأوه قالوا انظروا بالله من طلع علينا فلما دنا قصوا عليه القصة فقال هبنقة الحكم فى هذا بين اذهبوا به الى نهر البصرة فالقوه فيه فان كان راسبيا رسب وان كان طفاويا طفى فقال الرجل لاأريد ان أكون من أحد هذين الحيين ولا حاجة لى فى الديوان : وقيل هو أحمق من دغة وهى مارية بنت مغنج تزوجت فى بنى العنبر وهى صغيرة فلما ضربها المخاض ظنت انها تريد الخلاء فخرجت تتبرز فصاح الولد فجاءت منصرفة فصاحت ياأماه هل يفتح الجعر فاه قالت نعم و يدعو أباه فسبت بنو العنبر بذلك فقيل بنو الجعراء. وقيل هو أحمق من باقل وكان اشترى عنزا باحد عشر درهما فسئل بكم اشتريت العنز ففتح كفيه وفرق أصابعه واخرج لسانه يريد أحد عشر درهما فعير وبذلك قال الشاعر

يلومون فى حمقه باقلا * كأنّ الحماقة لم تخلقِ
فلا تكثروا العذلَ فى عيّه * فللصمتُ أجملُ بالاموق
خروجُ اللسان وفتح البنانِ * أحبُّ الينا من المنطقِ

ومما قيل فيه أيضا من الشعر

ياثابتَ العقلِ كم عاينتَ ذا حُمق * الرزقُ أغرى به من لازم الجربِ
فإنّنى واجدٌ فى الناس واحدةً * الرزقُ أروغُ شيء عن ذوى الادب
وخصلةً ليس فيها من يخالفنى * الرزقُ والنوكُ مقرونان فى سببِ

وقال آخر

أرى زمنا نوكاهُ أسعدُ خلقهِ * على أنهُ يشقى به كلُّ عاقلِ

علا فوقه رجلاه والرأس تحته * فكب الاعالى بارتفاع الاسافل

وقال آخر

كم من قوى قوى فى تقلبه * مهذب اللب عنه الرزق منحرف
ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط * كانه من خليج البحر يغترف

﴿ محاسن المفاخرة ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر . وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا ينشد بيتا من شعر

إنى امرؤ حميرى حين تنسبنى * لا من ربيعة آبائى ولا مضر

فقال له ذلك ألأم لك وأبعد عن الله ورسوله . وقال بعضهم

إذا مضر الحمراء كانت أرومتى * وقام بنصرى خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت * يداى الثريا قاعدا غير قائم

شيعب بن ابراهيم عن على بن زيد عن عبد الله بن الحارث عن عبد المطلب بن ربيعة قال مر العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه بنفر من قريش وهم يقولون انما محمد فى أهله مثل نخلة نبتت فى كناسة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد منه فخرج حتى قام فيهم خطيبا ثم قال أيها الناس من أنا . قالوا أنت رسول الله . قال أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ان الله عز وجل خلق خلقه فجعلنى من خير خلقه ثم جعل الخلق الذى أنا منهم فريقين فجعلنى من خير الفريقين من خلقه ثم جعل الخلق الذى أنا منهم شعوبا فجعلنى فى خيرهم شعبا ثم جعلهم بيوتا فجعلنى من خيرهم بيتا فانا خيركم بيتا وخيركم والدا وانى مباه لكم قم يا عباس فقام عن يمينه ثم قال قم يا سعد فقام عن يساره فقال يقرب امرؤ منكم عما مثل هذا وخالا مثل هذا ، وحدثنا سنان بن الحسن التسترى عن اسماعيل بن مهران العسكرى عن أبان بن عثمان عن عكرمة عن ابن عباس رحمهما الله تعالى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على القبائل خرج وأنا معه وأبو بكر وكان عالما بانساب العرب فوقفنا على مجلس من مجالس العرب عليهم الوقار والسكينة فتقدم أبو بكر فسلم عليهم فردوا عليه السلام فقال ممن القوم فقالوا من ربيعه ، قال من هامتها أم لهازمها . قالوا بل من هامتها العظمى ، قال وأى هامتها قالوا ذهل ، قال ذهل الاكبر أم ذهل الاصغر قالوا بل الاكبر ، قال فمنكم عوف الذى كان يقال لاحر بوادى عوف قالوا لا ، قال أفمنكم بسطام بن قيس صاحب اللواء ومنتهى الاحياء قالوا لا

قال أفنكم جساس بن مرة حامى الذمار ومانع الجار . قالوا لا قال أفنكم المزدلف صاحب العمامة قالوا لا ، قال أفأنتم أخوال الملوك من كندة قالوا لا ، قال أفأنتم أصهار الملوك من لخم قالوا لا ، قال فلستم من ذهل الاكبر اذاً أنتم من ذهل الاصغر . فقام اليه اعرابى غلام حين بقل وجهه فاخذ بزمام ناقته ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته يسمع مخاطبته فقال

لنا على سائلنا أنْ نسألَه * والعِبْءُ لا تعرِفُهُ أو تحمِلَهْ

ياهذا انك قد سألتنا أى مسألة شئت فلم نكتمك شيئاً فاخبرنا ممن أنت ، فقال ابو بكر من قريش فقال بخ بخ أهل الشرف والرئاسة فاخبرنى من أى قريش أنت . قال من بنى تيم بن مرة ، قال أفنكم قصىّ بن كلاب الذى جمع القبائل من فهر فكان يقال له مجمع قال أبو بكر لا قال أفنكم هاشم الذى يقول فيه الشاعر

عمرُو العلى هشَمَ الثريدَ لقومه * ورجالُ مكةَ مُسنِتون عِجافُ

قال أبو بكر لا ، قال أفنكم شيبة الحمد الذى كان وجهه يضىء فى الليلة الداجية مطعم الطير قال لا ، قال أفمن المفيضين بالناس أنت ، قال لا ، قال أفمن اهل الرفادة أنت قال لا ، قال أفمن أهل السقاية أنت ، قال لا ، قال أفمن أهل الحجابة أنت . قال لا ، قال أما والله لو شئت لاخبرتك لست من أشراف قريش . فاجتذب أبو بكر زمام ناقته منه كهيئة المغضب ، فقال الاعرابى

صادفَ درَّ السيلِ درٌّ يدفعه * فى هضبةٍ ترفعُه وتضعُه

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال على كرم الله وجهه فقلت ياأبا بكر لقد وقعت من هذا الاعرابى على باقعة قال أجل ، ياأباحسن مامن طامة الا وفوقها طامة وان البلاء موكل بالمنطق ، قال وأتى الحسن بن علىّ رضى الله عنهما معاوية بن أبى سفيان وقد سبقته ابن عباس رحمه الله فامر معاوية بانزاله فبينما معاوية مع عمرو بن العاص ومروان بن الحكم وزياد المدعى الى أبى سفيان يتحاورون فى قديمهم وحديثهم اذ قال معاوية قد أكثرتم الفخر ولو حضركم الحسن ابن علىّ وعبد الله بن عباس لقصروا من أعنتكم ، فقال زياد وكيف ذاك ياأمير المؤمنين وما يقومان لمروان بن الحكم فى غرب منطقه ولا لنا فى بواذخنا فابعث اليهما حتى نسمع كلامهما فقال معاوية لعمرو ما تقول فى هذا الليل فابعث اليهما فى غد فبعث معاوية بابنه يزيد اليهما فأتيا فدخلا عليه وبدأ معاوية فقال انى أجلكما وأوقع قدركما عن المسامرة بالليل ولا سيما أنت ياأبا محمد فانك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب أهل الجنة فشكرا له فلما استويا فى مجلسهما علم عمرو أن الحدة ستقع به فقال والله لا بدّ أن أتكلم فان قهرت فسبيل ذلك وان قُهرت أكون قد ابتدأت فقال ياحسن إنا قد تفاوضنا فقلنا ان رجال بنى أمية أصبر على اللقاء وأمضى فى

الوغاء وأوفى عهداً وأكرم خيماً وأمنع لما وراء ظهورهم من بنى عبد المطلب ، ثم تكلم مروان ابن الحكم فقال كيف لا يكون ذلك وقد قارعناهم فغلبناهم وحاربناهم فملكناهم فان شئنا عفونا وان شئنا بطشنا ، ثم تكلم زياد فقال ما ينبغى لهم أن ينكروا الفضل لاهله ويجحدوا الخير فى مظانه نحن الحملة فى الحروب ولنا الفضل على سائر الناس قديماً وحديثاً ، فتكلم الحسن ابن على رضى الله عنه فقال ليس من الحزم أن يصمت الرجل عند ايراد الحجة ولكن من الافك ان ينطق الرجل بالخنا ويصور الكذب فى صورة الحق يا عمرو افتخاراً بالكذب وجراءة على الافك مازلت أعرف مثالبك الخبيثة أبديها امرة بعد مرة أتذكر مصابيح الدجى وأعلام الهدى وفرسان الطراد وحتوف الاقران وأبناء الطعان وربيع الضيفان ومعدن العلم ومهبط النبوة وزعمتم أنكم احمى لما وراء ظهوركم وقد تبين ذلك يوم بدر حين نكصت الابطال وتساورت الاقران واقتحمت الليوث واعتركت المنية وقامت رحاها على قطبها وفرت عن نابها وطار شرار الحرب فقتلنا رجالكم ومن النبى صلى الله عليه وسلم على ذراريكم وكنتم لعمرى فى هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بنى عبد المطلب ثم قال وأما أنت يا مروان فما أنت والاكثار فى قريش وأنت ابن طليق وأبوك طريد تتقلب فى خزاية الى سوءة وقد أوتى بك الى امير المؤمنين يوم الجمل فلما رأيت الضرغام قد دميت براثنه واشتبكت أنيابه كنت كما قال الاول

بصبصن ثم رمين بالابعار

فلما من عليك بالعفو وأرخى خناقك بعد ما ضاق عليك وغصصت بريقك لا تقعد منا مقعد اهل الشكر ولكن تساوينا وتجارينا ونحن من لا يدركنا عار ولا يلحقنا خزاية ثم التفت الى زياد وقال وما أنت يا زياد وقريش ما اعرف لك فيها أديماً صحيحاً ولا فرعاً نابتاً ولا قديماً ثابتاً ولا منبتاً كريماً كانت أمك بغياً يتداولها رجالات قريش وفجار العرب فلما ولدت لم تعرف لك العرب والداً فادعاك هذا — يعنى معاوية — فمالك والافتخار تكفيك سمية ويكفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى سيد المؤمنين الذى لم يرتد على عقبيه وعماى حمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار فى الجنة وأنا واخى سيدا شباب أهل الجنة ، ثم التفت الى ابن عباس فقال اعاهى بغاث الطير انقض عليها البازى فاراد ابن عباس أن يتكلم فاقسم عليه معاوية أن يكف فكف ثم خرجا فقال معاوية أجاد عمرو الكلام أولا لولا ان حجته دحضت وقد تكلم مروان لولا أنه نكص ثم التفت الى زياد فقال ما دعاك الى محاورته ما كنت الا كالحجل فى كف العقاب . فقال عمرو أفلا رميت من ورائنا ، قال معاوية اذاً كنت شريككم فى الجهل أفأفاخر رجلا رسول الله صلى الله عليه وسلم جده وهو سيد من مضى ومن بقى وأمه فاطمة سيدة نساء العالمين ثم قال لهم

والله لئن سمع أهل الشام ذلك انه للسوأة السواء فقال عمرو لقد أبقى عليك ولكنه طحن مروان وزيادا طحن الرحا بثفالها ووطئهما وطء البازل القراد بمنسمه ، فقال زياد والله لقد فعل ولكنك يامعاوية تريد الاغراء بيننا وبينهم لا جرم والله لا شهدت مجلسا يكونان فيه الا كنت معهما على من فاخرهما فخلا ابن عباس بالحسن رضى الله عنه فقبل بين عينيه وقال افديك ياابن عمى والله مازال بحرك يزخر وأنت تصول حتى شفيتنى من أولاد البغايا ثم ان الحسن رضى الله عنه غاب اياما ثم رجع حتى دخل على معاوية وعنده عبد الله بن الزبير فقال معاوية يا أبا محمد انى اظنك تعبا نصبا فأت المنزل فأرح نفسك فقام الحسن رضى الله عنه فخرج فقال معاوية لعبد الله بن الزبير لو افتخرت على الحسن فانت ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ولابيك فى الاسلام نصيب وافر ، فقال ابن الزبير أنا له ثم جعل ليلته يطلب الحجج فلما أصبح دخل على معاوية وجاء الحسن رضى الله عنه فحياه معاوية وسأله عن مبيته فقال خير مبيت وأكرم مستفاض فلما استوى فى مجلسه قال له ابن الزبير لولا انك خوار فى الحروب غير مقدام ماسلمت لمعاوية الامر وكنت لا تحتاج الى اختراق السهوب وقطع المراحل والمفاوز تطلب معروفه وتقوم ببابه وكنت حريا أن لا تفعل ذلك وأنت ابن على فى بأسه ونجدته فما أدرى ما الذى حملك على ذلك أضعف حال أم وهى نحيزة ما أظن لك مخرجا من هذين الحالين أما والله لو استجمع لى ما استجمع لك لعلمت أنى ابن الزبير وانى لا أنكص عن الابطال وكيف لا أكون كذلك وجدتى صفية بنت عبد المطلب وأبى الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشد الناس بأسا وأكرمهم حسبا فى الجاهلية وأطوعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت الحسن اليه وقال أما والله لولا أن بنى أمية تنسبنى الى العجز عن المقال لكففت عنك تهاونا بك ولكن سأبين ذلك لتعلم انى لست بالكليل أاياى تعير وعلى تفتخر ولم تك لجدك فى الجاهلية مكرمة الا تزوجه عمتى صفية بنت عبد المطلب فبذخ بها على جميع العرب وشرف بمكانها فكيف تفاخر من فى القلادة واسطتها وفى الاشراف سادتها نحن أكرم اهل الارض زندا لنا الشرف الثاقب والكرم الغالب ثم تزعم أنى سلمت الامر لمعاوية فكيف يكون ويحك كذلك وأنا ابن أشجع العرب ولدتنى فاطمة سيدة النساء وخيرة الامهات لم أفعل ويحك ذلك جبنا ولا فرقا ولكنه بايعنى مثلك وهو يطلب بترة ويداجينى المودة فلم أثق بنصرته لانكم بيت غدر وأهل أحن ووتر فكيف لا تكون كما اقول وقد بايع أمير المؤمنين ابوك ثم نكث بيعته ونكص على عقبيه واختدع حشية من حشايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضل بها الناس فلما دلف نحو الاعنة ورأى بريق الاسنة قتل بمضيعة لا ناصر له وأتى بك اسيرا وقد وطئتك الكماة باظلافها والخيل بسنابكها واعتلاك الاشتر فغصصت بريقك واقعيت على عقبيك كالكلب اذا احتوشته

الليوث فنحن ويحك نور البلاد واملاكها وبنا تفتخر الأمة والينا تلقى مقاليد نصول وأنت تخدع النساء ثم تفتخر على بنى الانبياء لم تزل الاقاويل منا مقبولة وعليك وعلى أبيك مردودة دخل الناس فى دين جدى طائعين وكارهين ثم بايعوا أمير المؤمنين صلوات الله عليه فسار الى أبيك وطلحة حين نكثا البيعة وخدعا عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلا عند نكثهما بيعته وأتى بك أسيراً تبصبص بذنبك فناشدته الرحم الا يقتلك فعفى عنك فانت عتاقة أبى وأنا سيدك وأبى سيد ابيك فذق وبال امرك فقال ابن الزبير اعذرنا يا أبا محمد فانما حملنى على محاورتك هذا واشتهى الاغراء بيننا فهلا إذ جهلت أمسكت عنى فانكم اهل بيت سجيتكم الحلم، قال الحسن يا معاوية انظر أأكع عن محاورة احد ويحك أتدرى من أى شجرة أنا والى من أنتمى انته قبل ان اسمك بسمة يتحدث بها الركبان فى آفاق البلدان، قال ابن الزبير هو لذلك أهل فقال معاوية أما انه قد شفا بلابل صدرى منك ورمى مقتلك فبقيت فى يده كالحجل فى كف البازى يتلاعب بك كيف شاء فلا أراك تفتخر على احد بعد هذا، وذكروا ان الحسن بن على صلوات الله عليهما دخل على معاوية فقال فى كلام جرى من معاوية فى ذلك

فيما الكلامُ وقدْ سَبقتُ مُبرِّزا * سَبقَ الجوادِ مِنَ المَدى والمقوسِ

فقال معاوية، اياى تعنى والله لآتينك بما يعرفه قلبك ولا ينكره جلساؤك أنا ابن بطحاء مكة أنا ابن أجودها جوداً وأكرمها أبوة وجدوداً وأوفاها عهوداً انا ابن من ساد قريشا ناشئاً، فقال الحسن، أجل اياك أعنى افعلىّ تفتخر يا معاوية وأنا ابن ماء السماء وعروق الثرى وابن من ساد اهل الدنيا بالحسب الثاقب والشرف الفائق والقديم السابق وابن من رضاه رضى الرحمن وسخطه سخط الرحمن فهل لك أب كأبى او قديم كقديمى فان تقل لا تغلب وان تقل نعم تكذب فقال، اقول لا تصديقاً لقولك، فقال الحسن رضى الله عنه

ألحقُّ أبلجُ لاتزيغُ سبيلهُ * والحقُّ يعرفهُ ذوو الالباب

قال، وقال معاوية ذات يوم وعنده أشراف الناس من قريش وغيرهم أخبرونى باكرم الناس أباً واماً وعماً وعمة وخالا وخالة وجداً وجدة، فقام مالك بن عجلان وأومى الى الحسن بن علىّ صلوات الله عليه فقال، هو ذا أبوه علىّ بن ابى طالب وأمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمه جعفر الطيار وعمته أم هانئ بنت أبى طالب وخاله القاسم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخالته زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجده رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدته خديجة بنت خويلد، فسكت القوم ونهض الحسن فأقبل عمرو بن العاص على مالك فقال . أحب بنى هاشم حملك على أن تكلمت بالباطل، فقال ابن عجلان ماقلت الا حقا وما احد من الناس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق الا لم يعط أمنيته فى دنياه وختم له بالشقاء

فى آخرته بنوهاشم أنضركم عوداً وأورا كم زنداً أ كذلك هو يامعاوية ، قال اللهم نعم ، قال واستأذن الحسن بن علىّ رضى الله عنه على معاوية وعنده عبدالله بن جعفر وعمرو بن العاص فأذن له فلما اقبل قال عمرو قد جاءكم الفهه العيي الذى كان بين لحييه عقلة ، فقال عبدالله بن جعفر . مه والله لقد رمت صخرة ململمة تنحط عنها السيول وتقصر دونها الوعول لا تبلغها السهام فاياك والحسن اياك فانك لا تزال راتعا فى لحم رجل من قريش ولقد رميت فما برح سهمك وقدحت فما أورى زندك فسمع الحسن الكلام فلما اخذ مجلسه قال يامعاوية لا يزال عندك عبد يرتع فى لحوم الناس اما والله لئن شئت ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الامور وتحرج منه الصدور ثم أنشأ يقول

أتأمرُ يا مُعاوِيَ عبدَ سَهمٍ * بشتمي والملا منا شهودُ
إذا أخذتْ مجالسها قريشٌ * فقدْ علمتْ قريشٌ ما تُريدُ
أأنتَ تظلُّ تشتُمني سِفاهاً * لضِغْنٍ ما يَزولُ ولا يَبيدُ
فهل لكَ منْ أبٍ كأبي تُسامى * به مَنْ قدْ تُسامي أو تَكيدُ
ولا جدٌّ كجدّي يا ابن حَرْبٍ * رسولِ اللهِ إنْ ذُكِرَ الجدودُ
ولا أمٌّ كأمّي مِنْ قريْشٍ * إذا ما حُصِّلَ الحسبُ التليدُ
فما مِثلي تُهَكّمَ يا ابنَ حرْبٍ * ولا مثلي يُنَهْنِهُهُ الوعيدُ
فَهلا لا تَهِجْ مِنّا أموراً * يَشيبُ لِهَولِها الطفلُ الوليدُ

وذكروا أن عمرو بن العاص قال لمعاوية ابعث الى الحسن بن علىّ فأمره أن يخطب على المنبر فلعله يحصر فيكون فى ذلك ما نعيره به فبعث اليه معاوية فأمره ان يخطب فصعد المنبر وقد اجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فانا الحسن بن على بن أبى طالب ابن عم النبي أنا ابن البشير النذير السراج المنير أنا ابن من بعثه الله رحمة للعالمين أنا ابن من بعث الى الجن والانس أنا ابن مستجاب الدعوة أنا ابن الشفيع المطاع أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب أنا ابن اول من يقرع باب الجنة أنا ابن من قاتلت معه الملائكة ونصر بالرعب من مسيرة شهر وامعن فى هذا الباب ولم يزل حتى أظلمت الارض على معاوية فقال يا حسن قد كنت ترجو أن تكون خليفة ولست هناك ، قال الحسن انما الخليفة من سار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بطاعته وليس الخليفة من دان بالجور وعطل السنن واتخذ الدنيا أباً وأماً ولكن ذلك ملك أصاب ملكا يمتع به قليلا و يعذب بعده طويلا وكان قد انقطع عنه واستعجل لذته و بقيت عليه التبعة فكان كما قال الله تعالى (وان أدرى لعله فتنة لكم

ومتاع الى حين) ثم انصرف . فقال معاوية لعمرو ، ما أردت الا هتكي ما كان أهل الشام يرون أحداً مثلي حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا قال وقدم الحسن بن علي رضي الله عنه على معاوية فلما دخل عليه وجد عنده عمرو بن العاص ومروان بن الحكم والمغيرة بن شعبة وصناديد قومه و وجوه أهل بيته ووجوه اهل اليمن وأهل الشام فلما نظر اليه معاوية أقعده على سريره وأقبل عليه بوجهه يريه السرور به و بقدومه فحسده مروان وقد كان معاوية قال لهم لا تحاوروا هذين الرجلين فقد قلدا كم العار عند أهل الشام - يعني الحسن بن علي رضي الله عنه وعبد الله بن عباس - فقال مروان ياحسن لولا حلم أمير المؤمنين وما قد بناه له آباؤه الكرام من المجد والعلا ما أقعدك هذا المقعد ولقتلك وأنت لهذا مستحق بقودك الجماهير الينا فلما قاومتنا وعلمت الا طاقة لك بفرسان اهل الشام وصناديد بني أمية اذعنت بالطاعة واحتجزت بالبيعة و بعثت تطلب الامان اما والله لولا ذلك لاراق دمك ولعلمت انا نعطي السيوف حقها عند الوغى فاحمد الله اذا بتلاك بمعاويه وعفى عنك بحلمه ثم صنع بك ما ترى فنظر اليه الحسن وقال و يلك يامروان لقد تقلدت مقاليد العار في الحروب عند مشاهدتها والمخاذلة عند مخالطتها هبلتك أمك لنا الحجج البوالغ ولنا عليكم ان شكرتم النعم السوابغ ندعوكم الى النجاة وتدعوننا الى النار فشتان ما بين المنزلتين تفتخر ببني أمية وتزعم انهم صبر في الحرب أسد عند اللقاء ثكلتك الثواكل اولئك البهاليل السادة والحماة الذادة والكرام القادة بنو عبد المطلب اما والله لقد رأيتهم أنت وجميع من في المجلس ماهالتهم الاهوال ولا حادوا عن الابطال كالليوث الضارية الباسلة الحنقة فعندها وليت هاربا واخذت أسيراً فقلدت قومك العار لانك في الحروب خواراتهريق دمي فهلا اهرقت دم من وثب على عثمان في الدار فذبحه كما يذبح الجمل وأنت تثغو ثغاء النعجة وتنادي بالويل والثبور كالمرأة الوكعاء مادفعت عنه بسهم ولا منعت دونه بحرب قد ارتعدت فرائصك وغشي بصرك واستغثت كما يستغيث العبد بربه فانجيتك من القتل ثم جعلت تبحث عن دمي وتحض على قتلي ولو رام ذاك معاوية معك لذبح كما ذبح ابن عفان وانت معه أقصر يداً وأضيق باعا واجبن قلباً من ان تجسر على ذلك ثم تزعم اني ابتليت بحلم معاوية أما والله لهو أعرف بشأنه واشكر لنا إذ وليناه هذا الامر فمتى بداله فلا يغضين جفنه على القذى معك فوالله لاعنفن أهل الشام بجيش يضيق فضاؤه و يستأصل فرسانه ثم لا ينفعك عند ذلك الروغان والهرب ولا تنفع بتدريجك الكلام فنحن من لا يجهل آباؤنا الكرام القدماء الاكابر وفروعنا السادة الاخيار الافاضل انطق ان كنت صادقا . فقال عمرو ينطق بالخنا وتنطق بالصدق ثم أنشأ يقول

قدْ يضرُطُ العيرُ والمكواةُ تأخذهُ * لا يضرُطُ العيرُ والمُكواة في النار

ذق و بال أمرك يامروان فاقبل عليه معاوية فقال قد نهيتك عن هذا الرجل وانت تأبى الا انهما كا

فيما لا يعنيك اربع على نفسك فليس أبوه كابيك ولا هو مثلك انت ابن الطريد الشريد وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكريم ولكن رب باحث عن حتفه بظلفه فقال مروان أرم دون بيضتك وقم بحجة عشيرتك ثم قال لعمرو لقد طعنك أبوه فوقيت نفسك بخصيتيك ومنها ثنيت أعنتك وقام مغضبا فقال معاوية لا تجار البحار فتغمرك ولا الجبال فتقهرك واسترح من الاعتذار قال ولقى عمرو بن العاص الحسن بن علي عليهما السلام في الطواف فقال يا حسن ازعمت ان الدين لا يقوم الا بك و بأبيك فقد رأيت الله أقامه بمعاوية فجعله ثابتا بعد ميله و بينا بعد خفائه أفيرضى الله قتل عثمان أم من الحق ان تدور بالبيت كما يدور الجمل بالطحين عليك ثياب كغرقي البيض وانت قاتل عثمان والله انه لألم للشعث وأسهل للوعث ان يوردك معاوية حياض أبيك فقال الحسن صلوات الله عليه ان لاهل النار علامات يعرفون بها وهي الالحاد في دين الله والموالاة لاعداء الله والانحراف عن دين الله والله انك لتعلم ان عليا لم يتريث في الامر ولم يشك في الله طرفة عين وايم الله لتنتهين يا ابن العاص أو لاقرعن قصتك — يعني جبينه — بتراع وكلام واياك والجراءة على فاني من عرفت لست بضعيف المغمز ولا بهش المشاشة — يعني العظام — ولا بمرىء المأكلة واني لمن قريش كاوسط القلادة معرق حسبي لا أدعى لغير أبي وقد تحاكمت فيك رجال من قريش فغلب عليك الأمها حسبا وأعظمها لعنة فاياك عني فانما أنت نجس ونحن أهل بيت الطهارة أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيرا . قال واجتمع الحسن بن علي صلوات الله عليهما وعمرو بن العاص فقال الحسن قد علمت قريش بأسرها اني منها في عز أرومتها لم اطبع على ضعف ولم أعكس على خسف أعرف نسبي وادعى لابي فقال عمرو وقد علمت قريش انك ابن أقلها عقلا وأكثرها جهلا وان فيك خصالا لو لم يكن فيك الا واحدة منها لشملك خزيها كما شمل البياض الحالك وايم الله لئن لم تنته عما أراك تصنع لاكبسن لك حافة كجلد العائط اذ اعتاطت رحمها فما تحمل أرميك من خلالها بأحر من وقع الاثافي أعرك منها أديمك عرك السلعة فانك طالما ركبت المنحدر ونزلت في أعراض الوعر التماسا للفرقة وارصادا للفتنة ولن يزيدك الله فيها الا فظاعة فقال الحسن أما والله لو كنت تسمو بحسبك وتعمل برأيك ما سلكت فج قصد ولا حللت رابية مجد أما والله لو اطاعنا معاوية لجعلك بمنزلة العدو الكاشح فانه طال ما تاخر شأوك واستسر داؤك وطمح بك الرجا الى الغاية القصوى التي لا يورق بها غصنك ولا يخضر منها رعيك أما والله لتوشكن يا ابن العاص أن تقع بين لحيي ضرغام ولا ينجيك منه الروغان اذا التقت حلقتا البطان ،، ابن المنذر عن أبيه عن الشعبي عن ابن عباس انه دخل المسجد وقد سار الحسين بن علي رضي الله عنه الى العراق فاذا هو بابن الزبير في جماعة من قريش قد استعلاهم بالكلام فجاء ابن عباس فضرب بيده على عضد ابن الزبير وقال أصبحت والله كما قال الشاعر

يالكِ مِنْ قُنبُرةٍ بِمَعمَرِ * خَلالكِ الجوُّ فبيضي واصفِري
ونقري ماشئت أنْ تنقري * قدْ ذهبَ الصَّيادُ عنكِ فابشري
لا بدَّ منْ أخذكِ يوماً فاصبري

خلت الحجاز من الحسين بن عليّ وأقبلت تهدر في جوانبها فغضب ابن الزبير وقال والله انك لترى انك أحق بهذا من غيرك فقال ابن عباس انما يرى ذلك من كان في حال شك وأنا من ذلك على يقين قال وبأي شيء استحق عندك انك بهذا الامر أحق مني فقال ابن عباس لانا أحق بمن يدل بحقه وبأي شيء استحق عندك انك أحق بها من سائر العرب الابنا فقال ابن الزبير استحق عندي اني احق بها منكم لشرفي عليكم قديما وحديثا فقال أنت اشرف أم من شرفت به فقال ان من شرفت به زادني شرفا الى شرفي قال فمن الزيادة أم منك فتبسم ابن عباس فقال ابن الزبير ياابن عباس دعني من لسانك هذا الذي تقلبه كيف شئت والله يابني هاشم لا تحبوننا أبداً قال ابن عباس صدقت نحن أهل بيت مع الله لا نحب من ابغضه الله قال ياابن عباس أما ينبغي لك ان تصفح عن كلمة واحدة قال انما يصفح عمن أقر واما من هر فلا والفضل لاهل الفضل قال ابن الزبير فأين الفضل قال عند اهل البيت لا تصرفه عن اهله فتظلم ولا تضعه في غير اهله فتندم قال ابن الزبير أفلست من اهله قال بلى ان نبذت الحسد ولزمة الجدد وانقضى حديثهما وروى عن ابن عباس انه قال قدمت على معاوية وقد قعد على سريره وجمع من بني أمية ووفود العرب عنده فدخلت وسلمت وقعدت فقال ياابن عباس من الناس فقلت نحن قال فاذا غبتم قلت فلا احد قال فانك ترى أني قعدت هذا المقعد بكم قلت نعم فبمن قعدت قال بمن كان مثل حرب بن امية قلت من كفأ عليه اناءه واجاره بردائه قال فغضب وقال أرحني من شخصك شهرا فقد أمرت لك بصلتك وأضعفتها لك فلما خرج ابن عباس قال لخاصته ألا تسألوني ما الذي أغضب معاوية قالوا بلى فقل بفضلك قال ان أباه حربا لم يلق أحداً من رؤساء قريش في عقبة ولا مضيق الا تقدمه حتى يجوزه فلقيه يوما رجل من تميم في عقبة فتقدمه التميمي فقال حرب أنا حرب بن امية فلم يلتفت اليه وجازه فقال موعدك مكة فخافه التميمي ثم أراد دخول مكة فقال من يجيرني من حرب بن أمية فقيل له عبد المطلب فقال عبد المطلب أجل قدراً من أن يجير على حرب فأتى ليلا الى دار الزبير بن عبد المطلب فدق بابه فقال الزبير لعبده قد جاءنا رجل اما طالب قرى واما مستجير وقد أجبناه الى ما يريد ثم خرج الزبير اليه فقال التميمي

لاقيتُ حرباً في الثنيةِ مُقبلا * والصُّبحُ أبلجَ ضوءُهُ للساري
فدعا بصوتٍ واكتنى ليرُوعني * وسَما عليَّ سُموَّ ليثٍ ضاري

فتركته كالكلب ينبح ظله * وأتيت قرم معالم ونجار

ليثا هزبرا يستجار بعزه * رحب المباءة مكرما للجار

ولقد حلفت بمكة وبزمزم * والبيت ذى الاحجار والاستار

إن الزبير لما نحى من خوفه * ما كبر الحجاج فى الامصار

فقدمه الزبير واجاره ودخل به المسجد فرآه حرب فقام اليه فلطمه فحمل عليه الزبير بالسيف فولى هاربا يعدو حتى دخل دار عبد المطلب فقال أجرنى من الزبير فاكفأ عليه جفنة كان هاشم يطعم فيها الناس فبقى تحتها ساعة ثم قال له اخرج قال وكيف آخرج وعلى الباب تسعة من بنيك قد احتبوا بسيوفهم فالقى عليه رداء كان كساه اياه سيف بن ذى يزن له طرتان خضراوان فخرج عليهم فعلموا أنه قد أجاره عبد المطلب فتفرقوا عنه قال وحضر مجلس معاوية عبد الله بن جعفر فقال عمرو بن العاص قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمنى والطربات بالتغنى محب للقيان كثير مزاحه شديد طماحه صدود عن السنان ظاهر الطيش رخى العيش أخاذ بالسلف منفاق بالسرف فقال ابن عباس كذبت والله أنت وليس كما ذكرت ولكنه لله ذكور ولنعمائه شكور وعن الخنا زجور جواد كريم سيد حليم اذا رمى أصاب واذا سئل أجاب غير حصر ولا هياب ولا عيابة مغتاب حل من قريش فى كريم النصاب كالهزبر الضرغام الجرىء المقدام فى الحسب القمقام ليس بدعى ولا دنى لا كمن اختصم فيه من قريش شرارها فغلب عليه جزارها فاصبح الأمها حسبا وأدناها منصبا ينوء منها بالذليل ويأوى منها الى القليل مذبذب بين الحيين كالساقط بين المهدين لا المضطر فيهم عرفوه ولا الظاعن عنهم فقدوه فليت شعرى باى قدر تتعرض للرجال وباى حسب تعتد به عند النضال ابنفسك وأنت الوغد اللئيم والنكد الذميم والوضيع الزنيم أم بمن تنمى اليهم وهم أهل السفه والطيش والدناءة فى قريش لا بشرف فى الجاهلية شهروا ولا بقديم فى الاسلام ذكروا جعلت تتكلم بغير لسانك وتنطق بالزور فى غير اقرانك والله لكان أبين للفضل وأبعد للعدوان أن ينزلك معاوية منزلة البعيد السحيق فانه طالما سلس داؤك وطمح بك رجاؤك الى الغاية القصوى التى لم يخضر فيها رعيك ولم يورق فيها غصنك فقال عبد الله بن جعفر اقسمت عليك لما أمسكت فانك عنى ناضلت ولى فاوضت فقال ابن عباس دعنى والعبد فانه قد يهدر خاليا ولا يجد ملاحيا وقد أتيح له ضيغم شرس للاقران مفترس وللارواح مختلس فقال ابن العاص دعنى يا أمير المؤمنين انتصف منه فوالله ما ترك شيئا قال ابن عباس دعه فلا يبقى المبقى الا على نفسه فوالله ان قلبى لشديد وان جوابى لعتيد وانى لكما قال نابغة بنى ذبيان

وقدما قد قرعت وقارعونى * فما نزر الكلام ولا شجانى

يصد الشاعر العراف عنى * صدود البكر عن قرم هجان

قال و بلغ عاتمة بنت عاتم (١) ثلب معاوية وعمرو بن العاص ابني هاشم فقالت لاهل مكة أيها الناس ان بني هاشم سادت فجادت وملكت وفضلت وفضلت واصطفت واصطفيت ليس فيها كدر عيب ولا افك ريب ولا خسروا طاغين ولا خازين ولا نادمين ولاهم من المغضوب عليهم ولا الضالين ان بني هاشم أطول الناس باعا وأمجد الناس أصلا وأعظم الناس حلما وأكثر الناس علما وعطاء منا عبد مناف المؤثر وفيه يقول الشاعر

كانت قريش بيضة فتفلقت * فالمح خالصها لعبد مناف

وولده هاشم الذي هشم الثريد لقومه وفيه . يقول الشاعر

عمرو العلا هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف

ومنا عبد المطلب الذي سقينا به الغيث وفيه يقول أبو طالب

ونحن سنى المحل قام شفيعنا * بمكة يدعو والمياه تغور

وابنه أبو طالب عظيم قريش وفيه . يقول الشاعر

آتيته ملكا فقام بحاجتي * وترى العليج خائبا مذموما

ومنا العباس بن عبد المطلب أردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه ماله وفيه يقول الشاعر

رديف رسول الله لم تر مثله * ولا مثله حتى القيامة يولد

ومنا حمزة سيد الشهداء وفيه . يقول الشاعر

أبا يعلى بك الاركان هدت * وأنت الماجد البر الوصول

ومنا جعفر ذو الجناحين أحسن الناس حالا وأكملهم كمالا ليس بغدار ولا جبان أبدله الله بكلتى يديه جناحين يطير بهما في الجنة وفيه . يقول الشاعر

هاتوا كجعفرنا ومثل علينا * كانا أعز الناس عند الخالق

ومنا أبو الحسن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أفرس بني هاشم وأكرم من احتبى وانتعل وفيه . يقول الشاعر

علي ألف الفرقان صحفا * ووالى المصطفى طفلا صبيا

ومنا الحسن بن علي عليه السلام سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب أهل الجنة وفيه . يقول الشاعر

يا أجل الانام يا ابن الوصي * أنت سبط النبي وابن علي

ومنا الحسين بن علي حمله جبريل عليه السلام على عاتقه وكفاه بذلك فخرا وفيه يقول الشاعر

(١) هكذا في الاصل وفي نسخة عاتمه بنت عاتم . وفي المسامرات غانمه بنت غانم

حُبُّ الحسين ذخيرةٌ لمُحبِّهِ * يارَبِّ فاحشرني غداً في حزبه

يامعشر قريش والله ما معاوية كامير المؤمنين عليٍّ ولا هو كما يزعم هو والله شانئ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأني آتية معاوية وقائلة له ما يعرق منه جبينه ويكثر منه عويله وأنيته فكتب عامل معاوية اليه بذلك فلما بلغه أنها قربت منه أمر بدار ضيافة فنظفت وألقي فيها فرش فلما قربت من المدينة استقبلها يزيد في حشمه ومماليكه فلما دخلت المدينة أتت دار أخيها عمرو بن عاصم فقال لها يزيد ان أبا عبد الرحمن يأمرك أن تنتقلي الى دار ضيافته وكانت لا تعرفه فقالت من أنت كلاءك الله قال أنا يزيد بن معاوية قالت فلا رعاك الله يا ناقص لست بزائد فتغير لون يزيد وأتى أباه فأخبره فقال هي أسن قريش وأعظمهم حلماً قال يزيد كم تعدلها قال كانت تعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة عام وهي من بقية الكرام فلما كان من الغد أتاها معاوية فسلم عليها فقالت على المؤمنين السلام وعلى الكافرين الهوان والملام ثم قالت أفيكم عمرو بن العاص قال عمرو ها أنا ذا قالت انت تسب قريشاً وبني هاشم وأنت أهل السب وفيك السب واليك يعود السب يا عمرو وأني والله عارفة بك وبعيوبك وعيوب أمك وأني اذكر ذلك وُلدت من أمة سوداء مجنونة حمقاء تبول من قيامها وتعلوها اللئام وإذا لامسها الفحل فكان نطفتها أنفذ من نطفته ركبها في يوم واحد أربعون رجل وأما أنت فقد رأيتك غاوياً غير مرشد ومفسداً غير مصلح والله لقد رأيت فحل زوجتك على فراشك فما غرت ولا أنكرت وأما أنت يا معاوية فما كنت في خير ولا ربيت في نعمة فما لك ولبني هاشم انساؤك كنسائهم أم أعطى أمية في الجاهلية والاسلام ما أعطى هاشم وكفى فخراً برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال معاوية أيتها الكبيرة أنا كاف عن بني هاشم قالت فاني أكتب عليك كتاباً فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا ربه ان يستجيب لي خمس دعوات فاجعل تلك الدعوات كلها فيك فخاف معاوية فحلف أن لا يسب بني هاشم أبداً فهذا ما كان بين معاوية وبين بني هاشم من المفاخرة . قال وكان علي بن عبد الله بن عباس عند عبد الملك بن مروان فاخذ عبد الملك يذكر أيام بني أمية فبيناهو على ذلك اذ نادى المنادي بالأذان فقال اشهد ان لا إله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله فقال عليٌّ

هذي المكارمُ لا قعبان من لبنٍ * شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

فقال: عبد الملك الحق في هذا ابين من ان يكابر . عليُّ بن محمد النديم قال دخلت على المتوكل وعنده الرضي . فقال يا عليُّ من اشعر الناس في زماننا ، قلت . البحتري ، قال . وبعده . . قلت مروان بن ابي حفصة عبدك فالتفت الى الرضي فقال: يا ابن عم من اشعر الناس ، قال علي بن محمد العلوي قال وما تحفظ من شعره قال قوله

لقد فاخرتنا من قريش عصابة * بمط خدود وامتداد أصابع
فلما تنازعنا القضاء قضى لنا * عليهم بما نهوى نداء الصوامع

فقال المتوكل ما معنى قوله ـ نداء الصوامع ـ قال الشهادة . قال وابيك انه اشعر الناس ومما قيل فى هذا المعنى من الشعر قوله أيضا

بلغنا السماء بأنسابنا * ولولا السماء لجزنا السماء
فحسبك من سؤدد أننا * بحسن البلاء كشفنا البلاء
إذا ذكر الناس كنا ملوكا * وكانوا عبيداً وكانوا إماء
يطيب الثناء لآبائنا * وذكر على يطيب الثناء
هجانى رجال ولم أهجهم * أبى الله لى أن أقول الهجاء

وقال آخر

وانى من القوم الذين عرفتهم * إذا مات منهم سيد قام صاحبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم * دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
نجوم سماء كلما انقض كوكب * بدا كوكب تأوى اليه كواكبه

وقال آخر

خطباء حين يقول قائلهم * بيض الوجوه مقاول لسن
لا يفطنون لعيب جارهم * وهم لحفظ جوارهم فطن

﴿ ضده ﴾

عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفتخروا بآبائكم فى الجاهلية فوالذى نفسى بيده لما يدحرج الجعل برجله خير من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية قال وكان الحسن البصرى يقول يا ابن آدم لم تفتخر وانما خرجت من سبيل بولين نطفة مشجت باقذار . وقال بعضهم لرجل اتفتخر ويحك وأولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وانت فيما بينهما وعاء عذرة فما هذا الافتخار . وروى عن ابن عباس أنه قال الناس يتفاضلون فى الدنيا بالشرف والبيوتات والامارات والغنى والجمال والهيئة والمنطق ويتفاضلون فى الآخرة بالتقوى واليقين واتقاهم احسنهم يقينا وازكاهم عملا وارفعهم درجة . وقيل فى ذلك

يزين الفتى فى الناس صحة عقله * وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
ويشين الفتى فى الناس صحة عقله * وإن كرمت آباؤه ومناسبه

وقيل لعامر بن قيس ما تقول فى الانسان قال وما اقول فيمن اذا جاع ضرع وان شبع بغى

وطغى . وقال بعض الحكماء لا يكون الشرف بالنسب، الا ترى ان اخوين لاب وام يكون احدهما اشرف من الآخر ولو كان ذلك من قبل النسب لما كان لاحد منهم على الآخر فضل لان نسبهما واحد ولكن ذلك من قبل الافعال لان الشرف انما هو بالفضل لا بالنسب قال الشاعر

أبوك أبي والجدُّ لاشكَّ واحدٌ * ولكننا عودان آسٌ وخِرْوَعُ

و بلغنا عن المدائني انه قال: ليس السؤدد بالشرف وقد ساد الاحنف بن قيس بحلمه وحصين ابن المنذر برأيه ومالك بن مسمع بمحبته في العامة وسويد بن منجوف بعطفه على أرامل قومه وساد المهلب بن أبي صفرة بجميع هذه الخصال،، وأما الشرف بالدين فالحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم انه أتاه اعرابي فقال بابي أنت وأمي يارسول الله من أكرم الناس حسباً، قال أحسنهم خُلقا وأفضلهم تقوى فانصرف الاعرابي فقال ردُّوه ثم قال يا اعرابي لعلك أردت أكرم الناس نسباً، قال نعم يارسول الله قال يوسف الصديق صديق الله بن يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله فاين مثل هؤلاء الآباء في جميع الدنيا ما كان مثلهم ولا يكون مثلهم احد أبدا . وقال الشاعر في ذلك

ولم أرَ كالاسباطِ أبناءَ واحدٍ * ولا كابيهمْ والداً حينَ يُنْسَبُ

قال ودخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتسب له فقال أنا ابن الاشياخ الاكارم فقال صلى الله عليه وسلم انت إذاً يوسف صديق الرحمن عليه السلام ابن يعقوب اسرائيل الله او اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله،، وقال صلى الله عليه وسلم خير البشر آدم وخير العرب محمد وخير الفرس سلمان الفارسي وخير الروم صهيب وخير الحبشة بلال قال وسمع عمر بن الخطاب وهو خليفة صوتا ولغطا بالباب فقال لبعض من عنده اخرج فانظر من كان من المهاجرين الاولين فادخله فخرج الرسول فوجد بلالا وصهيبا وسلمان فادخلهم وكان أبو سفيان بن حرب وسهيل ابن عمرو في عصابة من قريش جلوسا على الباب فقال : يامعشر قريش أنتم صناديد العرب واشرافها وفرسانها بالباب و يدخل حبشي وفارسي، و رومي فقال سهيل: يا أباسفيان انفسكم فلوموا ولا تذموا امير المؤمنين دُعي القوم فأجابوا ودُعيتم فابيتم وهم يوم القيامة أعظم درجات وأكثر تفضيلا فقال أبوسفيان لا خير في مكان يكون فيه بلال شريفا (فاما صناعات الاشراف) فانه رُوي ان اباطالب كان يعالج العطر والبز وأما ابو بكر وعمر وطلحة وعبد الرحمن بن عوف فكانوا بزازين، وكان سعد بن أبي وقاص يعذُق النخل، وكان أخوه عتبة نجارا، وكان العاص بن هشام اخو أبي جهل بن هشام جزارا، وكان الوليد بن المغيرة حدادا، وكان عقبة بن أبي معيط خمارا، وكان عثمان بن طلحة صاحب مفتاح البيت خياطا ، وكان أبو سفيان

ابن حرب يبيع الزيت والادم ، وكان أمية بن خلف يبيع البرم ، وكان عبد الله بن جدعان نخاسا وكان العاص بن وائل يعالج الخيل والابل ، وكان جرير بن عمرو وقيس ابو الضحاك بن قيس ومعمر بن عثمان وسيرين بن محمد بن سيرين كانوا كلهم حدادين ، وكان المسيب أبو سعيد زياتا وكان ميمون بن مهران بزازا ، وكان مالك بن دينار وراقا ، وكان أبو حنيفة صاحب الرأى خزازا وكان مجمع الزاهد حائكا ، قيل اتخذ يزيد بن المهلب بستانا فى داره بخراسان فلما ولى قتيبة بن مسلم جعله لابله فقال مرزبان مرو : هذا كان بستانا وقد اتخذته لابلك . فقال . قتيبة أبى كان اشتربان وكان أبو يزيد بستانبان فمنها صار ذلك كذلك ، قال وذكروا ان المأمون ذكر أصحاب الصناعات فقال . السوقة سفل والصناع انذال والتجار بخلاء والكتاب ملوك على الناس والناس أربعة أصحاب الحرف وهى امارة وتجارة وصناعة وزراعة فمن لم يكن منهم صار عيالاً عليهم

﴿ محاسن الثقة بالله سبحانه ﴾

قيل خطب سليمان بن عبد الملك فقال . الحمد لله الذى أنقذنى من ناره بخلافته . وقال الوليد ابن عبد الملك لاشفعن للحجاج بن يوسف وقرة بن شريك عند ربى . وقال الحجاج يقولون مات الحجاج مه ما ارجو الخير كله الا بعد الموت والله ما رضى الله البقاء الا لاهون خلقه عليه ابليس ابليس اذ قال (رَبِّ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) وقال ابو جعفر المنصور الحمد لله الذى اجارنى بخلافته وأنقذنى من النار بها . وحدثنى ابراهيم بن عبد الله عن انس بن مالك قال دخلنا على قوم من الانصار وفيهم فتى عليل فلم نخرج من عنده حتى قضى نحبه فاذا عجوز عند رأسه فالتفت اليها بعض القوم فقال استسلمى لامر الله واحتسبى قالت امات ابنى قال نعم ، قالت أحق ما تقولون قلنا نعم فمدت يدها الى السماء وقالت اللهم انك تعلم انى أسلمت لك وهاجرت الى نبيك محمد صلوات الله عليه رجاء ان تغيثنى عند كل شدة فلا تحملنى هذه المصيبة اليوم فكشف ابنها الذى سجيناه وجهه وما برحنا حتى طعم وشرب وطعمنا معه

﴿ ضده ﴾

قال عيسى بن مريم صلوات الله تعالى عليه ، يا معشر الحواريين ان ابن آدم مخلوق فى الدنيا فى أربع منازل هو فى ثلاث منها واثق وهو فى الرابعة سيء الظن يخاف خذلان الله اياه فاما المنزلة الاولى فانه خلق فى ظلمات ثلاث ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة فوفاه الله رزقه فى جوف ظلمة البطن فاذا أخرج من ظلمة البطن وقع فى اللبن لا يخطو اليه بقدم ولا ساق ولا يتناوله بيد ولا ينهض اليه بقوة بل يكره اليه إكراها ويوجر إيجارا حتى ينبت عليه لحمه ودمه فاذا ارتفع

عن اللبن وقع فى المنزلة الثالثة من الطعام من أبويه يكسبان عليه من حلال وحرام فان ماتا عطف عليه الناس هذا يطعمه وهذا يسقيه وهذا يؤويه وهذا يكسوه فاذا وقع فى المنزلة الرابعة واشتد واستوى وكان رجلا خشى ان لا يرزق فيثب على الناس فيخون اماناتهم ويسرق امتعتهم ويغصبهم اموالهم مخافة خذلان الله تعالى إياه

(محاسن طلب الرزق)

قال عمرو بن عتبة من لم يقدمه الحزم أخره العجز ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يا ابن آدم أحدث لى سفراً أحدث لك رزقاً ، وفى بعض الحديث سافروا تغنموا ، وقال الكميت بن زيد الاسدى

وَلَنْ يُرِيحَ هُمُومَ النفسِ إنْ حَضَرَتْ * حاجاتُ مِثْلِكَ الاالرَّحْلُ والجملُ

وقال أبو تمام الطائى

وطولُ مُقامِ المرءِ فى الحىِّ مُخْلِقٌ * لِدِيباجَتَيهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ
فإنى رأيتُ الشمسَ زِيدتْ مَحبةً * إلى الناسِ أنْ ليستْ عليهمْ بسَرْمَدِ

وقال بعض الحكماء لا تدع الحيلة فى التماس الرزق بكل مكان فان الكريم محتال والدنىّ عيال ، وأنشد

فَسِرْ فى بلادِ اللهِ والتمسِ الغِنى * تَعِشْ ذا يسارٍ أوْ تموتَ فتُعذرا
ولا ترضَ من عيشٍ بدونٍ ولا تنمْ * وكيفَ ينامُ الليلَ من كانَ مُعسِرا

وتقول العامة كلب جوال خير من أسد رابض ، وتقول من غلى دماغه صائفا غلت قدره شاتيا ، ووقع عبد الله بن طاهر من سعى رعى ومن لزم المنام رأى الاحلام ، هذا المعنى سرقه من توقيعات أنوشروان فانه يقول هرك روذ جرد هرك خسبد خواب بيند ، وأنشد

كَفى حزَناً أنّ النوى قذَفتْ بنا * بعيداً وأنّ الرزقَ أعيتْ مذاهِبُهْ
ولوْ أنّنا إذْ فرّقَ الدّهرُ بيننا * غِنيٌ واحدٍ منا تموّلَ صاحبُهْ
ولكننا مِنْ دَهرِنا فى مؤونةٍ * يُكالِبُنا طَوْراً وطوراً نُكالِبُهْ

وقال آخر

وَمَنْ يكُ مِثلى ذا عِيالٍ ومُقتِراً * مِنَ المالِ يَطرحْ نفسَهُ كلَّ مَطرحِ
ليبلُغَ عُذراً أوْ ينالَ غنيمةً * ومُبلِغُ نفسٍ عُذرَها مثلُ مُنجحِ

وقال آخر

وليسَ الرّزقُ عنْ طَلبٍ حثيثٍ * ولكنِ ادْلِ دَلوَكَ فى الدِّلاءِ

تجيئك بملئها وحيناً وطوراً * تجئ بحمأة وقليل ماء

﴿ ضده ﴾

قيل،، وجد في بعض خزائن ملوك العجم لوح من حجارة مكتوب عليه كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو فان موسى عليه السلام خرج ليقتبس ناراً فنودي بالنبوة و بلغنا عن ابن السماك انه قال لا تشتغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض وكن اليوم مشغولا بما أنت مسؤل عنه غداً و إياك والفضول فان حسابها يطول . قال الشاعر

إني علمت وعلم المرء ينفعه * أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنيني تطلبه * ولو قعدت أتاني لا يعنيني

وقال آخر

لعمرك ما كل التعطل ضائر * ولا كل شغل فيه للمرء منفعة
إذا كانت الارزاق في القرب والنوى * عليك سواء فاغتنم لذة الدعة

وقال آخر

سهل عليك فان الرزق مقدور * وكل مستأنف في اللوح مسطور
أتى القضاء بما فيه لمدته * وكل مالم يكن فيه فمحظور
لا تكذبن نخير القول أصدقه * إن الحريص على الدنيا لمغرور

وقال آخر

لا تغتبن على العباد فإنما * يأتيك رزقك حين يؤذن فيه

وقال آخر .

هي المقادير تجري في أعنتها * فاصبر فليس لها صبر على حال
يوما تريش خسيس القوم ترفعه * دون السماء ويوما تخفض العالي

وقال آخر

إصبر على زمن جم نوائبه * فليس من شدة إلا لها فرج
تلقاه بالامس في عمياء مظلمة * ويصبح اليوم قد لاحت له السرج

وقال آخر

ألا رب راج حاجة لا ينالها * وآخر قد تقضى له وهو آيس
يجول لها هذا وتقضى لغيره * فتأتي الذي تقضى وهو جالس

وقال آخر

فلما أن عنيت بما ألاقي * وأعيتني المسائل بالقروض
دعوت الله لا أرجو سواه * ورب العرش ذو فرج عريض

وقال آخر

ياصاحب الهم إن الهم منفرج * أبشر بخير كأن قد فرج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه * لاتيأسن فان الصانع الله
إذا ابتليت فثق بالله وارض به * إن الذى يكشف البلوى هو الله

وقال آخر

وإذا أصابك من الحوادث نكبة * فاصبر فكل بلية تتكشف

﴿ محاسن المواعظ ﴾

قال الاصمعى حججت فنزلت ضرية فاذا اعرابى قد كور عمامته على رأسه وقد تنكب قوسا فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس انما الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر فخذوا من ممركم لمقركم ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم اسراركم ٠٠ أما بعد فانه لن يستقبل احد يوما من عمره الا بفراق آخر من أجله فاستعجلوا الانفسكم لما تقدمون عليه لا لما تظعنون عنه وراقبوا من ترجعون اليه فانه لاقوى أقوى من خالق ولا ضعيف اضعف من مخلوق ولا مهرب من الله الا اليه وكيف يهرب من يتقلب بين يدى طالبه (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) وقال بعض الاعراب ان الموت ليقتحم على بنى آدم كاقتحام الشيب على الشباب ومن عرف الدنيا لم يفرح بها فهو خائف ولم يحزن فيها على بلوى ولا طالب أغشم من الموت ومن عطف عليه الليل والنهار ارديا ومن وكل به الموت أفناه ٠٠ وقال اعرابى كيف يفرح بعمر تنقصه الساعات وبسلامة بدن معرض للآفات لقد عجبت من المرء يفر من الموت وهو سبيله ولا أرى أحدا الا استدركه الموت ٠٠ وقيل وجد فى كتاب من كتب بزرجمهر صحيفة مكتوب فيها ان حاجة الله الى عباده أن يعرفوه فمن عرفه لم يعصه طرفة عين كيف البقاء مع الفناء وكيف يأسى المرء على مافاته والموت يطلبه ، وقال كسرى لم يكن من حق علمه أن يقتل وانى لنادم على ذلك (١) . قال وحضرت الوفاة رجلا من حكماء فارس فقيل له كيف يكون حال من يريد سفرا بعيدا بغير زاد و يقدم على ملك عادل

---

(١) هكذا فى الاصل وفى العبارة نقص فليحرر

بغير حجة ويسكن قبراً موحشاً بغير أنيس

﴿ ضده ﴾

قيل ، لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز جزع أبوه عليه جزعاً شديداً فقال ذات يوم لمن حضره هل من منشد شعراً يعزيني به أو واعظ يخفف عني فأتسلى به ، فقال رجل من أهل الشام . يا أمير المؤمنين كل خليل مفارق خليله بان يموت أو بان يذهب الى مكان . فتبسم عمر بن عبد العزيز وقال مصيبتي فيك زادتني الى مصيبتي مصيبة ، وأصيب الحجاج بن يوسف بمصيبة وعنده رسول لعبد الملك بن مروان فقال . ليت اني وجدت انساناً يخفف عني مصيبتي ، فقال له الرسول أقول ، قال : قل قال كل انسان مفارق صاحبه بموت أو بصلب أو بنار تقع عليه من فوق البيت أو يقع عليه البيت أو يسقط في بئر أو يغشى عليه او يكون شيء لا يعرفه ، فضحك الحجاج وقال مصيبتي في أمير المؤمنين اعظم حين وجّه مثلك رسولا

﴿ محاسن فضل الدنيا ﴾

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها مسجد أنبياء الله ومهبط وحيه ومصلى ملائكته ومتجر أوليائه يكسبون فيها الرحمة ويربحون فيها الجنة فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ونادت بفراقها ونعت نفسها وشوّقت بسرورها الى السرور وببلائها الى البلاء تخويفاً وتحذيراً وترغيباً وترهيباً فيا أيها الذام للدنيا والمفتتن بغرورها متى غرّتك أبمصارع آبائك من البلى أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى كم عللت بكفيك وكم مرضت بيديك تبتغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الاطباء وتلتمس لهم الدواء لم تنفعهم بطلبتك ولم تشفعهم بشفاعتك ولم تستشفهم باستشفائك بطبك مثلت بهم الدنيا مصرعك ومضجعك حيث لا ينفعك بكاؤك ولا يغني عنك أحباؤك ثم التفت الى قبور هناك فقال يا أهل الثراء والعزّ الازواج قد نكحت والاموال قد قسمت والدور قد سكنت هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ثم قال لمن حضر : والله لو أذن لهم لاجابوا بان خير الزاد التقوى ، وأنشد

ما أحسنَ الدُّنيا وإقبالها * إذا أطاعَ اللهَ مَنْ نالها
مَنْ لم يُواسِ الناسَ مِنْ فضلها * عرّضَ للإدبار إقبالَها

قال أبو حازم الدنيا طالبة ومطلوبة طالب الدنيا يطلبه الموت حتى يخرجه منها وطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى توفّيه رزقه ، وقال الحسن البصري بينا أنا اطوف بالبيت اذا أنا بعجوز متعبدة فقلت من أنت ، فقالت من بنات ملوك غسان قلت فمن أين طعامك ، قالت اذا كان آخر النهار

جاءتني امرأة متزينة فتضع بين يدي كوزاً من ماء ورغيفين ، قلت لها أتعرفينها ، قالت اللهم لا ، قالت هي الدنيا اخدمت ربك جل ذكره فبعث اليك الدنيا فخدمتك

﴿ ضده ﴾

زعموا أن زياد بن أبيه مرّ بالحيرة فنظر الى دير هناك فقال لخادمه لمن هذا قيل له هذا دير حرقة بنت النعمان بن المنذر فقال ميلوا بنا اليه لنسمع كلامها فجاءت الى وراء الباب فكلمها الخادم قال لها . كلمي الامير ، فقالت أو جز أم أطيل ، قال بل أوجزي قالت . كنا أهل بيت طلعت الشمس علينا وما على الارض أحد أعز منا وما غابت تلك الشمس حتى رحمنا عدونا قال . فامر لها بأوساق من شعير فقالت ، أطعمتك يد شبعاء جاعت ولا أطعمتك يد جوعاء شبعت . فسر زياد بكلامها فقال لشاعر معه قيّد هذا الكلام ليدرس . فقال

سَلِ الخيرَ أهلَ الخيرِ قدْ ماولا تَسَلْ * فتًى ذاقَ طعْمَ الخيرِ مُنذُ قريبِ

ويقال ، ان فروة بن اياس بن قبيصة انتهى الى دير حرقة بنت النعمان فالفاها وهي تبكي فقال لها ما يبكيك ، قالت ما من دار امتلأت سروراً الا امتلأت بعد ذلك ثبوراً ثم قالت

فبينا نَسوسُ الناسَ والامرُ أمرُنا * إذا نحنُ فيهمْ سُوقةٌ نتنصّفُ

فأفٍّ لِدُنيا لا يدُومُ نعيمُها * تقلّبُ تاراتٍ بنا وتصرّفُ

قال ، وقالت حرقة بنت النعمان لسعد بن أبي وقاص لا جعل الله لك الى لئيم حاجة ولا زالت لكريم اليك حاجة وعقد لك المنن فى أعناق الكرام ولا أزال بك عن كريم نعمة ولا أزالها بغيرك الا جعلك سبباً لردها عليه ، قال وقال عبد الملك بن مروان لمسلم بن يزيد الفهمي أي الزمان أدركت أفضل وأي ملوكه أكمل ، قال أما الملوك فلم أر الا ذاما وحامداً وأما الزمان فرفع أقواماً ووضع آخرين وكلهم يذم زمانه لانه يبلي جديدهم ويهرم صغيرهم وكل ما فيه منقطع الا الامل ، قال فاخبرني عن فهم ، قال هم كما قال الشاعر

دَرَجَ الليلُ والنهارُ على فهـمِ بنِ عمرٍو فأصبحوا كالرَّميمِ

وخلتْ دارُهم فأضحتْ قِفارًا * بعدَ عِزٍّ وثروةٍ ونعيمِ

وكذاكَ الزّمانُ يَذهبُ بالنا * سِ وتبقى ديارُهم كالرُّسومِ

قال فمن يقول منكم

رأيتُ الناسَ مذْ خُلقوا وكانوا * يُحبُّونَ الغنيَّ منَ الرّجالِ

وإنْ كانَ الغنيُّ أقلَّ خيرًا * بخيلاً بالقليلِ منَ النّوالِ

فلا أدري علامَ وفيمَ هذا * وماذا يرتجون من المُحالِ
أللدُّنيا فليس هناك دُنيا * ولا يُرجى لحادثة الليالي

قال: أنا وقد كتمتها، قال ولما دخل عليّ صلوات الله عليه المدائن فنظر الى إيوان كسرى أنشد بعض من حضره. قول الاسود بن يعفر

ماذا أؤمّلُ بعدَ آلِ محرّقٍ * تركوا منازلهم وبعدَ إيادِ
أهلِ الخورنقِ والسّديرِ وبارقٍ * والقصرِ ذي الشُّرفاتِ من سنداد
نزلوا بأنقرةٍ يسيلُ عليهمُ * ماءُ الفراتِ يجيءُ من أطواد
أرضٌ تخيّرها لطيبِ نسيمِها * كعبُ بنُ مامةَ وابنُ أمِّ دُوادِ
جرتِ الرياحُ على محلّ ديارِهم * فكأنما كانوا على ميعادِ
فإذا النعيمُ وكلُّ ما يُلهى به * يوماً يصيرُ إلى بلىً ونفادِ

وقال عليّ صلوات الله عليه: أبلغ من ذلك قول الله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين). وقال عبد الله بن المعتز أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام،، وقال غيره طلاق الدنيا مهر الجنة، وذكروا ان اعرابياً ذكر الدنيا فقال هي جمة المصائب رنقة المشارب. وقال آخر الدنيا لا تمتعك بصاحب. قال أبو الدرداء من هوان الدنيا على الله تعالى انه لا يعصى الا فيها ولا يُنال ما عنده الا بتركها. وقال اذا أقبلت الدنيا على امرىء اعارته محاسن غيره واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه. وقال الشاعر

أيا دُنيا حسرتِ لنا قناعا * وكان جمالُ وجهكِ في النقابِ
ديارٌ طالما حُجبتْ وعزّتْ * فأصبحَ اذنُها سهلَ الحجابِ
وقدْ كانتْ لنا الأيامُ ذلّتْ * فقدْ قُرنتْ بايامٍ صعابِ
كأنَّ العيشَ فيها كان ظلاً * يقلّبهُ الزّمانُ إلى ذهابِ

قال الاصمعي. وُجد في دار سليمان بن داود عليه السلام على قُبة مكتوبا

ومنْ يحمدِ الدُّنيا لشيءٍ يسرُّهُ * فسوفَ لعمري عن قريبٍ يلومُها
إذا أدبرتْ كانتْ على المرءِ حسرةً * وإنْ أقبلتْ كانتْ كثيراً همومُها

وكان ابراهيم ابن أدهم ينشد

نُرقّعُ دُنيانا بتمزيقِ ديننا * فلا دِيننا يبقى ولا ما نرقّعُ

وقال أبو العتاهية

يامنْ ترفّع بالدُّنيا وزينتها * ليس الترفّعُ رفعَ الطين بالطين
إذا أردتَ شريفَ القوْم كلهم * فانظرْ إلى مَلكٍ في زيّ مسكين
ذاكَ الذي عظمتْ في الناسِ همتهُ * وذاكَ يَصلحُ للدُّنيا وللدّين

وقال آخر

هَبِ الدُّنيا تُساقُ إليكَ عفوًا * أليسَ مَصيرُ ذاكَ إلى زوالِ

وقال محمود الوراق

هيَ الدُّنيا فلا يغرُرْكَ منها * مخائلُ تستفزُّ ذوي العقولِ
أقلُّ قليلها يكفيكَ منها * ولكنْ لستَ تقنعُ بالقليل
تُشيدُ وتبتني في كلّ يومٍ * وأنتَ على التجهُّزِ للرّحيلِ
ومَنْ هذا على الأيّام تبتني * مَضارِبُهُ بمَدرَجةِ السُّيُولِ

وقال آخر

دُنيا تداولها العبادُ ذميمةً * شيبتْ بأكرَه من نقيع الحنظلِ
وثباتُ دُنيا ما تزالُ مُلمّةً * منها فجائعُ مثلُ وقعِ الجندلِ

وقال آخر

حتى متى أنتَ في دُنياكَ مُشتغلٌ * وعاملُ اللهِ بالرّحمنِ مَشغولُ

وقال أبو نواس الحسن بن هانىء

دَعِ الحرصَ على الدُّنيا * وفي العيشِ فلا تَطمعْ
ولا تجمعْ لكَ المالَ * فما تدري لِمَنْ تجمعْ
ولا تدري أفي أرضك أمْ في غيرها تُصرعْ

قال الاصمعي . سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول بينا أنا أدور في بعض البراري اذا أنا بصوت

وإنِ امرأً دُنياهُ أكبرُ همّهِ * لَمُستمسكٌ منها بحبلِ غرُورِ

فقلت آنسي أم جني فلم يجبني أحد فنقشته على خاتمي ، قال وسمع يحيى بن خالد بيت العدوي في صفة الدنيا

حُتوفُها رصدٌ وعيشُها نكدٌ * وشُربُها رنقٌ ومُلكُها دُولُ

فقال لقد نظم في هذا البيت صفة الدنيا ، قال وسمع المأمون بيت أبي نواس

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشّفتْ * له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ

فقال . لو سئلت الدنيا عن نفسها ما وصفة نفسها كصفة أبي نواس ،، وقيل للحسن البصري ما تقول في الدنيا ، قال ما أقول في دار حلالها حساب وحرامها عقاب فقيل . ما سمعنا كلاما أو جزمن هذا قال بلى كلام عمر بن عبد العزيز كتب اليه عدى بن أرطاة وهو على حمص ان مدينة حمص قد تهدمت واحتاجت الى صلاح حيطانها فكتب اليه حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم والسلام

﴿ محاسن الزهد ﴾

محمد بن الحسن عن أبي همام وكان قد عرف ضيغما قال . كنت معه في طريق مكة فلما بعدنا في الرمل نظر الى ما تلقى الابل من شدة الحر فبكى ضيغم فقلت . لو دعوت الله أن يمطر علينا كان أخف على هذه الابل قال . فنظر الى السماء وقال . إن شاء الله فعل قال فوالله ما كان الا أن تكلم حتى نشأت سحابة فهطلت ، وعن عطاء بن يسار ان أبا مسلم الخولانى خرج الى السوق بدرهم يشترى لاهله دقيقا فعرض له سائل فاعطاه بعضه ثم عرض له سائل آخر فاعطاه الباقى فاتى النجارين فملأ مزوده من نشارة الخشب وأتى منزله فالقاه وخرج هاربا من أهله فاتخذت المرأة المزود فاذا دقيق حوارى لم تر مثله فعجنته وخبزته فلما جاء قال من أين لك هذا قالت الدقيق الذى جئت به ، وعن أبي عبد الله القرشي عن صديق له قال ، دخلت بئر زمزم فاذا بشخص ينزع الدلو مما يلي الركن فلما شرب أرسل الدلو فأخذته فشربت فضلته فاذا هو سويق لو لم أر أطيب منه فلما كانت القابلة في ذلك الوقت جاء الرجل وقد أسبل ثوبه على وجهه ونزع الدلو فشرب ثم أرسله فأخذته فشربت فضلته فاذا هو ماء مضروب بالعسل لم أر شيأ قط أطيب منه فاردت أن آخذ طرف ثوبه فانظر من هو ففاتني فلما كان في الليلة الثالثة قعدت قبالة زمزم في ذلك الوقت فجاء الرجل وقد أسبل ثوبه على وجهه فنزع الدلو فشرب وأرسله وأخذته وشربت فضلته فاذا هو أطيب من الاول فقلت يا هذا أسألك برب هذه البنية من أنت . قال تكتم على حتى أموت . قلت . نعم . قال لى . أنا سفيان الثورى وكانت تلك الشربة تكفيني اذا شربتها الى مثلها لا اجد جوعا ولا عطشا ، وقال الاصمعي . رأيت اعرابيا يكدح جبهته بالارض يريد ان يجعل سجادة فقلت ما تصنع قال انى وجدت الاثر في وجه الرجل الصالح . وقال الشاعر

كيفَ يبكي لمحبسٍ في طلولٍ * مَنْ سيقضى ليوم حبسٍ طويل

إنَّ في البعثِ والحسابِ لشغلاً * عنْ وقوفٍ برسم ربع محيل

وقال آخر

إنّ الشقيّ الذي في النار منزله * والفوز فوز الذي ينجو من النار
يا ربّ أسرفت في ذنبي ومعصيتي * وقد علمت يقيناً سوء آثاري
فاغفر ذنوبا إلهي قد أحطت بها * ربّ العباد وزحزحني عن النار

وقال ذو الرمة

تعصى الإله وأنت تظهر حبه * هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته * إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

وقال أبو نواس

أيا عجباً كيف يُعصى الإلهُ * أم كيف يجحده الجاحدُ
ولله في كلّ تحريكة * وتسكينة فاعلمن شاهدُ
وفي كلّ شيء له آية * تدلّ على أنه واحدُ

وقال أيضاً

سبحان من خلق الخلـ * ـق من ضعيف مهين
يسوقهم من قرار * إلى قرار مكين
يحوز خلقاً فخلقاً * في الحجب دون العيون
حتى بدت حركات * مخلوقة من سكون

وقال آخر

أخي ما بال قلبك ليس ينقى * كأنك ما تظنّ الموت حقا
ألا يا ابن الذين مضوا وبادوا * أما والله ما ذهبوا لتبقى
ومالك غير تقوى الله زادٌ * إذا جعلت إلى اللهوات ترقى

وقال آخر

يا قلب مهلاً وكن على حذر * فقد لعمري أمرت بالحذر
مالك بالترّهات مشتغلا * أفي يديك الامان من سقر

وقال آخر

إن كنت تؤمن بالقيا * مة واجترأت على الخطيئة
فلقد هلكت وإن جحد * ت فذاك أعظم للبليّة

وقال آخر

وأفنيةُ الملوكِ مُحجَّباتٌ * وبابُ اللهِ مبذولُ الفِناءِ
فما أرجو سواهُ لكشفِ ضُرّي * ولا أفزعْ إلى غيرِ الدعاءِ
ولا أدعو إلى اللأواءِ كهفاً * سوى من لا يصمُّ عن الدُّعاءِ

﴿ ضده ﴾

قيل ، كان جندى بقزوين يصلى فى بعض المساجد فتفقده المؤذن أياما فصار اليه وقرع بابه عليه فخرج اليه . فقال له المؤذن . أبومن ، قال . أبو الجحيم ، قال . بئس ياهذا رد الباب قال وقيل للقينى ما أيسر ذنبك ، قال . ليلة الدير ، قيل له . وماليلة الدير . قال . نزلت بدير نصرانية فأكلت عندها الفشيلا بلحم خنزير وشربت خمرها وفجرت بها وسرقت كساءها وخرجت (١) . قيل أتى خمسة من الفتيان الى قرية فنزلوا على باب خان فقام احدهم يصلى والباقون جلوس فمرت بهم نبطية فقالوا دلينا على قحبة قالت نعم كم أنتم . قالوا نحن اربعة . فأومى الذى يصلى بيده سبحان الله أنا الخامس . قال الشاعر

وإنّنى فى الصلاةِ أحضرُها * ضحكةُ أهل الصَّلاةِ إن شهدُوا
أقعدُ فى سجدةٍ إذا ركعُوا * وأرفعُ الرَّأسَ إن همُ سجدُوا
أسجدُ والقومُ راكعونَ معاً * وأُسرِعُ الوثبَ إنهمُ قعدُوا
فلستُ أدرى إذا همُ فرغوا * كمْ كان تلكَ الصلاةَ والعددُ

وقال آخر

وأصلى فأغلطُ الدَّهرَ فيما * بين سبعٍ وأربعٍ وثمانِ
ومواقيتُ حينها لستُ أدرى * ما أذانٌ مُوقّتٌ من أذانِ

وقال آخر

نِعمَ الفتى لوْ كان يعرفُ ربَّهُ * ويُقيمُ وقتَ صلاتهِ حمّادُ
عدلتْ مشافرهُ الدِّنانَ فأنفهُ * مثلُ القدومِ بسنّهُ الحدّادُ
فابيضَّ من شُرْبِ المدامةِ وجهُهُ * فبياضهُ يومَ الحسابِ سوادُ

---

١) ذكر ابن قتيبة فى كتابه أخبار الشعراء هذه القصة لابى الطمحان القينى وقد نسبت هذه الخزية أيضاً للفرزدق وفيها يقول له جرير

وكنت اذا نزلت بدار قوم * رحلت بخزية وتركت عاراً

وقال آخر

إن قرأ العاديات في رجب * لم يعد منها إلا إلى رجب
بل نحن لا نستطيع في سنة * نختم تبت يدا أبي لهب

﴿ محاسن النساء النادبات ﴾

قيل ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحسن قول الخنساء في صخر أخيها

لا بد من ميتة في صرفها غير * والدهر من شأنه حول وإضرار
وإن صخراً لتأتم الهداة به * كأنه علم في رأسه نار

وقيل للخنساء صفي لنا صخراً فقالت . كان مطر السنة الغبراء وذعاف الكتيبة الحمراء قيل فمعاوية قالت حياء الجدبة اذا نزل وقرى الضيف اذا حل قيل فأيهما كان عليك أحنى قالت أما صخر فسقام الجسد وأما معاوية فجمرة الكبد . وأنشدت

أسدان محمرا المخالب نجدة * غيثان في الزمن الغضوب الأعسر
قمران في النادى رفيعا محتد * في المجد فرعا سودد متخير

وروى انها دخلت على عائشة أم المؤمنين وعليها صدار من شعر فقالت لها عائشة أتتخذين الصدار وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا أم المؤمنين إن زوجي كان رجلا متلافا فأملقنا . فقال لي . لو أتيت معاوية فاستعنتيه فخرجت وقد لقيني صخر فأخبرته فشاطرني ماله ثلاث مرات فقالت له امرأته ، لو أعطيتها من شرارها ـ تعنى الابل ـ فقال

تالله لا أمنحها شرارها * وهي حصان قد كفتني عارها
وإن هلكت مزقت خمارها * واتخذت من شعر صدارها

فلما هلك صخر اتخذت هذا الصدار ونذرت ان لا انزعه حتى أموت ، قال ثور ابن معن السلمي حدثني أبي قال ، دخلت على الخنساء في الجاهلية وعليها صدار من شعر وهي تجهز ابنتها فكلمتها في طرح الصدار فقالت يا حمقاء والله لانا احسن منك عرسا وأطيب منك درسا وأرق منك نعلا وأكرم منك بعلا ، قال عبد الرحمن بن مرة عن بعض أشياخه ان عمر بن الخطاب قال للخنساء ، ما أقرح ماقي عينيك ، قالت ، بكائي على السادات من مضر ، قال ، يا خنساء انهم في النار قالت ، ذلك أطول لعويلي . ومما اخترنا من أشعارها قولها

تعرقني الدهر قرعاً وغمزا * وأوجعني الدهر نهشاً وخزا
وأفنى رجالي فبادوا معاً * فأصبح قلبي لهم مستفزا
كأن لم يكونوا حمى يتقى * إذ الناس إذ ذاك من عز بزا

وكانوا سَراةَ بَني مالكٍ * وزَيْنَ العشيرة مجداً وعزّا
وهم في القديم صِحاحُ الاديم والكائنون من الناس حرْزا
بسُمرِ الرّماح وبيضِ الصّفاح * فبالبيض ضرباً وبالسُّمر وخزا
حززنا نواصيَ فرسانكم * وكانوا يظنّون أن لا تُحزّا
ومن ظنّ ممن يُلاقي الحروب * بأن لا يُصابَ فقد ظنّ عجزا
نَعِفُّ ونعرفُ حقّ القِرى * ونتّخذ الحمدَ ذُخراً وكنزا
ونلبسُ في الحربِ نسجَ الحديد * وفي السِّلم نلبسُ خزّاً وقزّا

وروى خبر الخنساء من جهة أخرى، ذكروا انها اقبلت حاجة فمرت بالمدينة ومعها أناس من قومها فأتوا عمر بن الخطاب فقالوا، هذه خنساء فلو وعظتها فقد طال بكاؤها في الجاهلية والاسلام فقام عمر وأتاها وقال، ياخنساء، قال فرفعت رأسها فقالت ماتشاء وما الذي تريد فقال، ما الذي أقرح مآقي عينيك، قالت، البكاء على سادات مضر، قال، انهم هلكوا في الجاهلية وهم أعضاد اللهب وحشو جهنم، قالت، فداك أبي وامي فذلك الذي زادني وجعا، قال، فانشديني ماقلت، قالت، اما اني لا أنشدك ماقلت قبل اليوم ولكني انشدك ماقلته الساعة، فقالت

سقى جَدَثاً أعراقُ غمرةَ دونهُ * وبيشةَ دِيَماتُ الرَّبيعِ ووابلُهْ
وكنتُ أعيرُ الدّمعَ قبلكَ من بكى * فأنتَ على من ماتَ قبلكَ شاغلُهْ
وأرعيهمُ سمعي إذا ذكروا الاسى * وفي الصدرِ مني زفرةٌ لا تُزايلُهْ

فقال عمر، دعوها فانها لا تزال حزينة أبدا، ليلى الاخيلية هجاها رجل من قومها، فقال

ألا حيّيا ليلى وقولا لها هلا * فقد ركبتْ إيراً أغرّ مُحجّلا

فاجابته

تُعيّرُني داءً بأمّكَ مثلُهُ * وأيُّ جوادٍ لا يُقالُ لهُ هلا

وذكروا انها دخلت على عبد الملك بن مروان فقال لها، ياليلى هل بقي في قلبك من حب توبة فتى الفتيان شيء، قالت، وكيف أنساه وهو الذي يقول ياأمير المؤمنين

ولو أنّ ليلى في ذُرى مُتمنّعٍ * بنجرانَ لالتفّتْ عليّ قصورُها
حمامةَ بطنِ الواديينِ ترنّمي * سقاكِ من الغرّ الغوادي مطيرُها
أبيني لنا لا زالَ ريشُكِ ناعماً (١ * ولا زلتِ في خضراءَ غصنٍ نضيرُها
تقولُ رجالٌ لا يضيرُكَ نأيُها * بلى كلُّ ماشفّ النّفوسَ يضيرُها

---

١) رواية أبي علي القالي في أماليه — «ولا زلتِ في خضراء غضٍّ نضيرُها»

أيذهب ريعان الشباب ولم أزر * كواعب في همدان بيضا نحورها

قال، عمرك الله أن تذكريه، ولتوبة في ليلى الاخيلية

ولو أن ليلى الاخيلية سلمت * على ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقى * إليها صدى من جانب القبر صائح
ولو أن ليلى في السماء لأصعدت * بطرفي إلى ليلى العيون اللوامح

فلما مات توبة مر زوج ليلى بليلى على قبره فقال، لها سلمي على توبة فانه زعم في شعره انه يسلم عليك تسليم البشاشة، فقالت ماتريد الى من بليت عظامه، فقال، والله لتفعلن، فقالت وهي على البعير، سلام عليك ياتوبة فتى الفتيان، وكانت قطاة مستظلة في ثقب من ثقب القبر فلما سمعت الصوت طارت وصاحت فنفر البعير ورمى بليلى فماتت فدفنت الى جنب قبر توبة، قال وسأل الحجاج ليلى هل كان بينك وبين توبة ريبة قط. قالت لا والذي أسأله صلاحك الا انه مرة قال لي قولا ظننت انه خنع لبعض الامر. فقلت له

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها * فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه * وأنت لاخرى فارغ وخليل

فما كلمني بعد ذلك بشيء حتى فرق بيني وبينه الموت قال الحجاج فما كان بعد ذلك قالت لم يلبث أن قال لصاحب له اذا أتيت الحاضر من بني عباد فقل بأعلى صوتك

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة * من الدهر لا يسري إلي خيالها

فلما سمعت الصوت خرجت فقلت

وعنه عفا ربي وأحسن حاله * تعز علينا حاجة لا ينالها

قال ودخلت ليلى على الحجاج فأنشدته. قولها فيه

إذا نزل الحجاج أرضا سقيمة * تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها * غلام إذا هز القناة ثناها
أحجاج لا تعطي العصاة مناهم * ولا الله يعطي للعصاة مناها

فوصلها الحجاج بالف دينار وقال لو قلت بدل غلام همام لكان أحسن. هند بنت عتبة أم معاوية بن ابي سفيان قيل لما قتل شيبة وعتبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة رثتهم هند. فقالت

إني رأيت فسادا بعد إصلاح * في عبد شمس فقلبي غير مرتاح
هاجت لهم أدمع تترى ومنبعها * من رأس محروبة ما إن لها لاحي

لما تنادت بنو فهر على حنق * والموت بينهم ساع لأرواح
كأنما النسج في قتلى مصرعة * سرج أضاءت على جد وألواح
يا آل هاشم انا لا نصالحكم * حتى نرى الخيل تردى كل كفاح
إن يمكن الله يوماً من هزيمتكم * يورث نساءكم داء بتقراح

فأجابتها عمرة بنت عبد الله بن رواحة الانصاري

يا هند مهلاً لقد لاقيت مهبلة * يوم الاعنة والأرواح في الراح
أسد غطارفة غر جحاجحة * أبناء محصنة بيض لجحجاح
هنالك الفوز والرضوان إن صبروا * مع الرسول فما آبوا بتقباح
الله أهلكهم والأوس شاهدة * والخزرج الغر فيهم كل مجتاح
لا تبعدن فإني غير صارخة * وكيف تصرخ ذات البعل يا صاح

﴿النساء الماجنات﴾

قال سليمان بن عبد الملك انشدوني أحسن ما سمعتم من شعر النساء فقال بعضهم يا أمير المؤمنين سار رجل من الظرفاء في بعض طرقاته اذ أخذته السماء فوقف تحت مظلة ليستكن من المطر وجارية مشرفة عليه فلما رأته حذفته بحجر فرفع رأسه وقال

لو بتفاحة رميت رجونا * ومن الرمي بالحصاة جفاء

فاجابته

ما جهلنا الذي ذكرت من الشكل ولا بالذي تراه خفاء

ودابة معها فقالت

قد بدأتيه ماذكرت وجدي * ليت شعري فهل لهذا وفاء

وسائلة في الباب فقالت

قد لعمري دعوتها فأجابت * هي داء وأنت منه شفاء

قال سليمان قاتلها الله هي والله اشعرهم

لقد جد الفراق وعيل صبري * عشية عيرهم للبين زمت

(عنان جارية الناطفي) قال السلولي دخلت يوما على عنان وعندها رجل اعرابي فقالت يا عم لقد أتى الله بك . قلت وماذاك قالت هذا الاعرابي دخل علي فقال بلغني انك تقول الشعر فقولي بيتاً فقلت لها قولي فقالت قد ارتج علي فقل انت فقلت

فقال الاعرابى

نظرتُ إلى أواخرِها ضُحَيًّا * وقد بانت وأرضَ الشامِ أمّتْ

فقالت عنان

كتمتُ هواكمُ فى الصدرِ منى * على أن الدموعَ علىَّ نمّتْ

فقال الاعرابى أنت والله اشعرنا ولولا انك بحرمة رجل لقبلتك ولكنى أقبل البساط وقال بعضهم دخلت على عنان فاذا عليها قميص يكاد يقطر صبغه وقد تناولها سيدها بضرب شديد وهى تبكى فقلت

إنَّ عنانا أرسلتْ دمعَها * كالدُّرّ إذ ينسلُّ من سِمْطِه

فقالت وأشارت الى مولاها

فليتَ من يضرِبُها ظالما * تجفُّ يُمناهُ على سوْطِه

فقال مولاها هى حرة لوجه الله ان ضربتها ظالما أو غير ظالم. قال واجتمع أبو نواس والفضل الرقاشى والحسين الخليع وعمرو الوراق ومحكم بن رزين والحسين الخياط فى منزل عنان فتناشدوا الى وقت العصر فلما أرادوا الانصراف قالوا أين نحن الليلة فكل قال عندى، فقالت عنان بالله قولوا شعراً وأرضوا بحكمى. فقال الرقاشى

عذراءُ ذات احمرار * إنى بها لا أحاشى

قوموا ندامايَ رَوُّوا * مُشاشكم من مُشاشى

وناطِحونى كؤوسا * نِطاحَ صُلْبِ الكِباشِ

وإنْ نكلْتُ فخِلٌّ * لكم دمى ورياشى

فقال أبو نواس

لا بل إلىَّ ثِقاتى * قوموا بنا بحياتى

قوموا نلذّ جميعا * بقول هاكِ وهاتِ

فإنْ أردتمْ فتاةً * أتيتكمْ بفتاتى

وإنْ أردتمْ غلاما * صادفتمونى مُواتى

فبادِروهُ مُجُوناً * فى وقتِ كلّ صلاةِ

وقال الحسين الخليع

أنا الخليعُ فقوموا * إلى شرابِ الخليعِ

إلى شرابٍ لذيذٍ * وأكلِ جدى رضيع

ونيكِ أحوىٰ رخيم * بالخندريسِ صريع
قوموا تنالوا وَشِيكا * مِثالَ مَلكٍ رفيع

وقال الوراق

قوموا إلى بيتِ عمرٍو * إلى سماعٍ وخمرِ
وساقياتٍ علينا * تطاعُ فى كلِّ أمرِ
وَبِنْسَرِيٍّ رخيمٍ * تزهو بجيدٍ ونحرِ
فذاكَ برٌّ وإنْ شئتمْ أتينا ببحرِ
هـذا وليسَ عليكم * أُولىٰ ولا وقتُ عصرِ

وقال محكم بن رزين

قوموا إلى دارِ لهوٍ * وظلِّ بيتٍ دفينِ
فيـه من الوردِ والمرْ * زنجوشِ والياسمينِ
وريحِ مسكٍ ذكيٍّ * وجيِّـدِ الزَّرجونِ
قوموا فصيرُوا جميعاً * إلى الفتى ابنِ رزينِ

فقال الحسين الخياط

قضتْ عنانُ علينا * بأنْ نزورَ حسينا
وأنْ تقرُّوا لديهِ * بالنصفِ واللهِ عينا
فما رأينا كظرفِ الـحُـسينِ فيما رأينا
قدْ قرَّبَ اللهُ منهُ * زيناً وباعدَ شينا
قوموا وقولوا أجزنا * ماقدْ قضيتِ علينا

وقالت عنان

مهلا فديتكَ مهلا * عنانُ أحرىٰ وأولى
بأنْ تنالوا لديها * أسنىٰ النعيمِ وأحلىٰ
فإنَّ عِندي حراما * منَ الشرابِ وحِلاّ
لاتطمعوا فى سوائى * منَ البريَّةِ كلا
ياسادتى خبّرُونى * أجازَ حُكمِي أمْ لا

فقالوا جميعاً : قد أجزنا حكمك وأقاموا عندها ، قال وكتبت عنان الى الفضل بن الربيع

كنْ لي هديتَ إلى الخليفةِ سُلّماً * بُورِكْتَ يا ابنَ وزيرِهِ من سُلمِ
حُثَّ الإمامَ على شراي وقلْ له * رَيحانةٌ ذُخِرتْ لأنفكَ فاشمَمِ

وكانت عنان تتوقى أبانواس وتخاف مجونه وسفهه ، وفيها يقول

عِنانُ يا منْ تشبهُ العِينا * أنتم على الحبِّ تلومونا
حُسْنُكِ حُسنٌ لا يُرى مثلُه * قد ترك الناسَ مجانينا

فتهيأت لابى نواس وتصنعت له الى أن صار اليها فرأى عندها بعض وجوه اهل بغداد فأحب أن يخجلها فقال لها

ما تأمرين لِصَبٍّ * يكفيهِ منكِ قُطيرهْ
فقالت إيَّايَ تعني بهذا * عليكَ فاجلدْ عُميرهْ
فقال إنى أخافُ ورَبى * على يدى من عُبيرهْ
فقالت عليكَ أمكَ . . . * فانها كندَ بيرهْ

فأخجلته وشاع الخبر حتى بلغ الرشيد فاستظرفها وطلبها من الناطفى فحملت اليه فقال لها يا عنان ، قالت : لبيك ياسيدى ، فقال * ما تأمرين لصب *

قالت قد مضى الجواب فى هذا يا أمير المؤمنين ، قال بحياتى كيف قلت ، قالت قلت

إيَّايَ تعني بهذا * عليكَ فاجلدْ عميرهْ

فضحك الرشيد وطلبها من مولاها فاستام فيها مالا جزيلا فردها

﴿ عريب جارية المامون ﴾

وأنتم أناسٌ فيكمُ الغدرُ شيمةٌ * لكمْ أوجهٌ شتّى وألسنةٌ عشرُ
عجبتُ لقلبي كيف يَصبُو اليكمُ * على عُظمِ ما يلقى وليس له صبرُ

﴿ فضل الشاعرة ﴾ حدثنا القاسم بن عبد الله الحرانى قال كنت عند سعيد بن حميد الكاتب ذات يوم وقد اقتصد فأتته هدايا فضل الشاعرة الف جدى والف دجاجة والف طبق رياحين وطيب وعنبر وغير ذلك فلما وصل ذلك كتب اليها ان هذا يوم لا يتم سروره الا بك وبحضورك وكان من احسن الناس ضربا بالعود واملحهم صوتا واجودهم شعرا فاتته فضرب بينه وبينها حجاب واحضر قوما ندماءه ووضعت المائدة وجيء بالشراب فلما شربنا اقداحا اخذت عودها فغنت بهذا الشعر والصوت لها والشعر والابيات هذه

يا منْ أطلتُ تفرُّسي * في وجههِ وتنفُّسي
أفديكَ من متدلِّلٍ * يزهو بقتلِ الانفسِ

هبنى أسأت وماأسا * ت بلى أقول أنا المسى
أحلفتنى أن لا أسا * رق نظرة فى مجلسى
فنظرت نظرة عاشق * أتبعتهـا بتنفسى
ونسيت أنى قد حلفت * فما يقال لمن نسى

وضربت أيضا وغنت

عاد الحبيب إلى الرضا * فصفحت عما قد مضى
من بعد ما الصدود وده * شمت الحسود فعرضا
تعس البغيض فلم يزل * لصدودنا متعرضا
هبنى أسأت وماأسا * ت فإن أسأت لك الرضا

قال فما أتى على يوم أسر من ذلك اليوم

﴿صاحبة الفرزدق﴾ ذكروا أن الفرزدق كان مع أصحاب له فاذا هو بجارية مع مولاها فقال لأصحابه هل أخجل لكم هذه ، قالوا : نعم ، فقال

إن لى . . . خبيثا * لونه يحكى الكميتا
لو يرى فى السقف صدعا * لتحول عنكبوتا
أو يرى فى الارض شقا * لنزا حتى يموتا

فقالت الجاريه

زوجوا هذا بألف * وأرى ذلك قوتا
قبل أن ينقلب الدا * ء فلا يأتى ويؤتى

فخجل الفرزدق وانصرف (١)

﴿صاحبة جعفر بن يحيي بن خالد البرمكى﴾ قالت

عزمت على قلبي بأن أكتم الهوى * فضج ونادى إننى غير عاقل
فان حان موتى لم أدعك بغصتى * وأقررت قبل الموت أنك قاتلى

﴿جارية البارقى﴾ ذكروا أنها أنشدت فى مجلس عمرو بن مسعدة

ياأحسن العالم حتى متى * يرتفع الحب وانحط
وكيف منجاى وبحر الهوى * مذ حف بى ليس له شط

(١) فى هامش الاصل . . قيل ان هذه الرواية جرت بين أبي نواس وعنان جارية الناطفى والابيات تروى على غير هذا

فاجيبت يُدْرِكُكَ الوَصلُ فتنجو به * أوْ يَقعُ البحرُ فتنحطّ

﴿المغنية المليحة﴾ قال على بن الجهم : كنت فى مجلس محمد بن عمرو بن مسعدة فأقبلت جارية كانها البدر ليلة التمام بلون كانه الدر فى البياض مع احمرار خدين كشقائق النعمان فسلمت فقال لى محمد يا أبا الحسن هذه الجنة التى كنتم توعدون ، فقالت

وما الوَعْدُ ياسُؤلى وغايةَ مُنيتى * فإنّ فؤادى من مَقالِكَ طائرُ

فقال لها محمد

أَمَا وإلهِ العرشِ ماقلتُ سيّئاً * وما كان إلّا أنّنى لك شاكرُ

فقال ابن الجهم

أَمْسِكْ فدَيتكِ عَنْ عتابِ محمّدٍ * فهوَ المصونُ لودّهِ المُتحاذرُ

فأقبلت تحدثنا فاذا هى ذات عقل كامل وجمال فاضل وحسن قاتل وردف مائل فقلت . لقد أقر الله عينا تراك ، فقالت : أقر الله اعينكم وزادكم سروراً وغبطة ثم اندفعت تغنى بنغمة لم أسمع أحسن منها

أرُوحُ بهَمٍّ من هَواكَ مُبَرِّحٍ * أُناجى به قلباً كثيرَ التفكُّرِ

عليكَ سلامٌ لازيارةَ بيننا * ولا وصلَ إلا أنْ يشاءَ ابنُ مَعْمَرِ

فما زلنا يومنا ذلك معها فى الفردوس الاعلى وما ذكرتها بعد ذلك إلا اشتقت لها وأسفت عليها ، محمد بن حماد قال . كنا يوما عند اسحق بن يحيى وعنده جارية يقال لها شادن موصوفة بجودة ضرب العود وشجو صوت وحسن خلق وظرف مجلس وحلاوة وجه وأخذت العود وغنت

ظبىٌ تكامل فى نهايةِ حُسْنهِ * فزَها ببهْجتهِ وتاهَ بصدّهِ

فالشمسُ تطلعُ من فرندِ جبينهِ * والبدرُ يغرقُ فى شقائقِ خدّهِ

مَلَكَ الجمالَ بأسرهِ فكأنما * حُسنُ البريّةِ كلّها من عندهِ

ياربِّ هب لى وصلَهُ وبقاءَهُ * أبداً فلستُ بعائشٍ من بعدهِ

فطارت عقولنا وذهلت الباننا من حسن غنائها وظرفها فقلت . ياسيدتى من هذا الذى تكامل فى الحسن والبهاء سراك ، فقالت

فإنْ بحثتُ نالتنى عيونٌ كثيرةٌ * وأضعفُ عن كتمانهِ حين أكتمُ

﴿ الاعرابيات ﴾

حدثنا ثعلب عن الفتح بن خاقان قال : لما خرج المتوكل الى دمشق كنت عديله فلما صرنا بقنسرين قطعت بنو سليم على التجار فانهى ذلك اليه فوجه قائداً من وجوه قواده اليهم فحاصرهم فلما اقربنا من القوم اذا نحن بجارية ذات جمال وهيئة وهي تقول

أميرُ المؤمنينَ سَما الينا * سُمُوَّ البدرِ مالَ بهِ الغريفُ

فإنْ نَسلمْ فعفوَ اللهِ نرجو * وإنْ نُقتلْ فقاتِلُنا شريفُ

فقال لها المتوكل . أحسنت ، ماجزاؤها يافتح ، قلت العفو والصلة فأمر لها بعشرة آلاف درهم وقال لها . مرّي الى قومك وقولي لهم لا تردوا المال على التجار فاني أعوضهم عنه ، الاصمعي قال خرجت الى بادية فاذا أنا بخباء فيه امرأة فدنوت فسلمت فاذا هي أحسن الناس وجهاً وأعدلهم قامة وأفصحهم لساناً فخارفيها بصري واعترتني خجلة فقالت ، ماوقوفك ، فقلت

هلْ عندَكُمْ منْ مخيضِ اليومِ نشربُهُ * أمْ هلْ سبيلٌ إلى تقبيلِ عينيكِ

فلستُ أبغي سوى عينيكِ منزلةً * أمْ هلْ تجودي لنا عضاً بخدَّيكِ

أو تاذنينَ بريقٍ منكِ أرشُفهُ * أوْ لمسِ بطنكِ أوْ تغميرِ ثديَيكِ

رُدِّي الجوابَ على مَنْ زادهُ كلَفاً * تكريرُهُ الطرفَ في أجدالِ ساقيكِ

فرفعت رأسها الي وقالت ، ياشيخ ألا تستحي أرجع الى اهلك وارغب في مثلك . وقال بعضهم رأيت أعرابية بالنباج فقلت لها . أتنشدين ، قالت نعم في مثلك ورب الكعبة ، قلت فأنشديني . فانشأت تقول

لاباركَ اللهُ فيمنْ كانَ يخبرُني * أنَّ المحبَّ إذاماشاءَ ينصرفُ

وجدُ المحبِّ إذامابانَ صاحبهُ * وجدُ الصبيِّ بثدْيِ أمِّهِ الكلِفُ

قال قلت لها . أنشديني من قولك فقالت

بنفسي مَنْ هواهُ على التنائي * وطولُ الدهرِ مؤتنقٌ جديدُ

ومنْ هو في الصلاةِ حديثُ نفسي * وعدلُ الرُّوحِ عنديَ بلْ يزيدُ

فقلت لها ان هذا كلام من قد عشق . فقالت وهل يعرى من ذلك من له سمع وقلب ثم أنشدتني

ألا بأبي واللهِ مَنْ ليسَ نافعي * بشيءٍ ولا قلبي على الوجدِ شاكرُهُ

ومَنْ كبدي تهفو إذاذُكراسمهُ * بشيءٍ ومَنْ قلبي على النأي ذاكرُهُ

لهُ خفقانٌ يرفعُ الجيبَ بالشجي * ويقطعُ أزرارَ الجربانِ ثائرُه

قال وكتب عمر بن أبى ربيعة الى امرأة بالمدينة

بَرَزَ البدرُ فى جوارٍ تهادى * مُخطفاتِ الخصورِ مُعتجراتِ
فتنفستُ ثمَّ قلتُ لبكرٍ * عجّلتْ فى الحياةِ لى حَيْبَاتِ
هلْ سبيلٌ إلى التى لا أبالى * بعدها أنْ أموتَ قبلَ وفاتى

فاجابته

قدْ أتانا الرَّسولُ بالابياتِ * فى كتابٍ قدْ خطَّ بالتُّرهاتِ
حائرُ الطرفِ إنْ نظرْتَ وماطر * فُلْكَ عندى بصادقِ النظراتِ
غُرَّ غيرى فقدْ عرفتُ لغيرى * عهدكَ الخائنَ القليلَ الثباتِ

﴿ المتكلمات ﴾

حدث عمر بن يزيد الاسدى قال، مررت بخرقاء صاحبة ذى الرمة فقلت لها هل حججت قط، قالت. أما علمت أنى منسك من مناسك الحج ما منعك أن تسلم على أما سمعت قول عمك ذى الرمة

تمامُ الحجّ أن تقفَ المطايا * على خرقاءَ واضعةَ اللثامِ

فقلت لها، لقد أثر فيك الدهر، قالت، أما سمعت قول العجيف العقيلى حيث يقول

وخرقاءُ لا تزدادُ إلا ملاحةً * ولو عُمِّرتْ تعميرَ نوحٍ وجلّتِ

قال ورأيتها وان فيها المباشرة وان ديباجة وجهها الطرية كانها فتاة وانها لتزيد يومئذ على المائة ولقد حدثت انه شبب بها ذو الرمة وهى ابنة ثمانين سنة، وحدث رجل من بنى أسد قال. أدركت ميا صاحبة ذى الرمة وكان الرجل أعور قال ورأيتها فى نسوة من قومها فقلت أهذه مى وأومأت اليها فقلن نعم فقلت ما ادرى ما كان يعجب ذا الرمة منك وما أراك على ما كان يصف فتنفست الصعداء وقالت انه كان ينظر الى بعينين وأنت تنظر الى بعين واحدة وروى الاصمعى عن رجل من اهل الشام قال. قدمت المدينة فقصدت منزل ابن هرمة فاذا بنية له تلعب فقلت لها ما فعل أبوك، قالت وفد الى بعض الاخوان، قلت فانحرى لنا ناقة فانا أضيافك، قالت يا عماه والذى خلقك ما عند ناشىء، قلت فباطل ما قال أبوك، قالت فما قال، قلت قال

كم ناقةٍ قدْ وجأتُ منحرَها * لِمستهلِ الشؤبوبِ أوْ جملِ

قالت يا عماه فذلك القول من ابى أصارنا الى أن ليس عند ناشىء، قال وأتى زياد الاقطع باب الفرزدق وكان له صديقا فخرجت اليه ابنة الفرزدق وكانت تسمى مكية وأمها حبشية فقال لها ما اسمك قالت مكية قال ابنة من قالت ابنة الفرزدق قال فأمك قالت حبشية فأمسك عنها فقالت

مابال يدك مقطوعة قال قطعها الحرورية قالت بل قطعت فى اللصوصية قال عليك وعلى أبيك لعنة الله . وجاء الفرزدق فاخبر بالخبر فقال أشهد انها ابنتى ، وأنشأ يقول

حام إذاما كنتَ ذا حَميه * بدارمىٍّ بنتــهُ صبيه

صَمَحْمَح مثلَ أبى مَكِيَّه

وحدث سليمان بن عباس السعدى قالَ . كان كثيّر يلقى حاجّ اهل المدينة بقديد على ست مراحل ففعل عامامن الاعوام غير يومهم الذى نزلوافيه فوقف حتى ارتفع النهار فركب جملاً فى يوم صائف ووافى قديداً وقد كلّ بعيره وتعب فوجدهم قدارتحلوا وقد بقى فتى من قريش فقال الفتى لكثيّر اجلس قال فجلس كثير الى جنبي ولم يسلم على فجاءت امرأة وسيمة جميلة فجلست الى خيمة من خيام قديد واستقبلت كثيراً فقالت أنت كثير ، قال نعم ، قالت أنت ابن أبى جمعة قال نعم ، قالت أنت الذى تقول

وكنتُ إذا ماجئتُ أجللْنَ مجلسى * وأضمرْن مِنى هيبة لاتجهُّما

قال نعم قالت فعلى هذا الوجه هيبة ان كنت كاذبافعليك لعنة الله والملائكة والناس اجمعين قال فضجر كثير وقال ومن أنت فسكتت ولم تجبه بشىء فسأل الموالى التى فى الخيام عنها فلم يخبرنه فضجر واختلط عقله فلماسكن قالت أنت الذى تقول

متى تنشُرا عنى العمامةَ تُبصرا * جميلَ المُحيَّا أغفلتْهُ الدّواهنُ

أهذاالوجه جليل ان كان كاذبافعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فاختلط وقال لو عرفتك لفعلت وفعلت فلماسكن قالت له أنت الذى تقول

يرُوقُ العُيونَ الناظراتِ كانه * هِرَقْلىٌّ وَزْنٍ أحمرُ التبرِ راجحُ

أهذا الوجه الذى يروق الناظرات ان كنت كاذبافعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قال فازداد ضجراً واختلط وقال لو عرفتك والله لقطعتك وقومك هجاء ثم قام فاتبعته طرفى حتى توارى عنى ثم نظرت الى المرأة فاذاهى قد غابت عنى فقلت لمولاة من بنات قديد لك الله علىّ ان اخبرتينى من هذه المرأة ان اطوى لك ثوبى هذين اذاقضيت حجى ثم أعطيكهما فقالت والله لو أعطيتنى زنتهما ذهباً ما أخبرتك من هى هذا كثيرمولاى لم اخبره قال القرشى فرحت وبى أشد مما بكثير ، قيل وقدم كثير الكوفة وكان شيعياً من أصحاب محمد بن الحنفية فقال دلونى على منزل قطام قيل له . وماتريدمنها قال أريدان أوبخها فى قتل على بن أبى طالب صلوات الله عليه فقيل له عدعن رأيك فان عقلها ليس كعقول النساء قال لا والله لا انتهى حتى أنظر اليها واكلمها فخرج يسأل عن منزلها حتى دفع اليها فاستأذن فأذنت له فرأى امرأة برزة قد تخددت وقدحنا الدهر من قناتها

فقالت من الرجل قال كثير بن عبد الرحمن قالت التيمي الخزاعي قال التيمي الخزاعي . ثم قال لها انت قطام قالت نعم قال أنت صاحبة علي بن أبي طالب صلوات الله عليه قالت بل صاحبة عبد الرحمن بن ملجم قال اليس هو قتل علياً قالت بل مات باجله قال والله اني كنت احب ان اراك فلما رايتك نبت عيني عنك وما مومقك قلبي ولا احلوليت في صدري قالت انت والله قصير القامة صغير الهامة ضعيف الدعامة كما قيل لان تسمع بالمعيدي خير من ان تراه فانشأ كثير يقول

رأت رجلاً أودى السفار بجسمه * فلم يبق إلا منطق وجناجن

قالت . لله درك ما عرفت الا بعزة تقصيراً بك قال . والله لقد سار لها شعري وطار بها ذكري وقرب من الخلفاء مجلسي وانها لكما قلت فيها

وإن خفيت كانت لعينيك قرةً * وإن تبدُ يوماً لم يعمك عارُها
من الخفرات البيض لم تر شقوة * وفي الحسب المحض الرفيع نجارُها
فما روضة بالحزن طيبة الثرى * يمج الندى جثجاثها وعرارُها
باطيب من فيها إذا جئت طارقاً * وقد اوقدت بالمندل الرطب نارُها

قالت: والله ما سمعت شعراً أضعف من شعرك هذا والله لو فعل هذا بزنجية طاب ريحها الا قلت : كما قال امرؤ القيس

ألم تراني كلما جئت طارقاً * وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

قال فلله در بلادك وخرج وهو يقول

الحق أبلج لا تزيغ سبيله * والحق يعرفه ذووا الالباب

قال، وقال المسيب راوية كثير انطلق كثير مرة فقال لي هل لك في عكرمة ابن عبد الرحمن بن هشام وهو يومئذ على حنظلة بن عمرو بن تميم فقلت نعم قال فخرجنا تريده حتى اذا اصدرنا عن المدينة اذا نحن بامرأة على راحلة تسير فسرت حذاءها فقالت اتروي لكثير شيأ قلت نعم قالت أنشدني فانشدتها من شعره فقالت أين هو قلت هو ذاك الذي تربين على غير الطريق فقالت بعد أن دنت منه قاتل الله زوج عزة حيث يقول

لعمرك ما رب الرباب كثير * بفحل ولا آباؤه بفحول

فغضب كثير وسار وتركها ثم نزل منزلاً فجاءت جارية لها تدعوه فابى كثير أن ياتيها فقلت ما رأيت مثلك قط امرأة مثل هذه ترسل اليك فتأبى عليها فلم أزل به حتى اتاها قال فسفرت عن وجهها فاذا هي اجمل الناس وأكملهم ظرفاً وعقلاً واذا هي غاضرة ام ولد بشر بن مروان فصحبناها حتى كنا بزبالة فمالت بنا الطريق فقالت له هل لك ان تأتي الكوفة فاضمن لك على بشر

الصلة والجائزة فابى وامرت له بخمسة آلاف درهم ولى بالفين فلما اخذ نا الخمسة آلاف قال ما اصنع بعكرمة وقد اصبت ماترى فذلك قوله حيث يقول

شَجا أظعانُ غاضرةَ الغوادي * بغير مشورةٍ عِوَضاً فؤادي
أغاضرَ لوْ رأيت غداة بنتم * حُنوّ العائداتِ على وِسادي
رَثيتِ لعاشقٍ لم تشكميهِ * جَوانحُهُ تَلذّعُ بالزِّنادِ

ـ الشكمة ـ العطية و ـ الزناد ـ جمع زند وهو عود يقدح منه النار قال الحكم ابن صخر الثقفى حججت فرأيت بأقرة امرأتين لم ار كجمالهما وظرفهما وثيابهما فلما حججت وصرنا باقرة اذا انا باحدى الجاريتين قد جاءت فسالت سؤال منكر فقلت . فلانة قالت فداك ابى وامى رايتك عاما اول شابا سوقة والعام شيخا ملكا وفى وقت دون ذلك ما تنكر المرأة صاحبها فقلت ما فعلت اختك فتنفست الصعداء وقالت قدم علينا ابن عم لنا فتزوجها فخرج بها الى نجد فذاك حيث اقول

إذا ما قفلْنا نحوَ نجدٍ وأهلهِ * فحسبي من الدنيا القفولُ إلى نجدِ

فقلت أما انى لو ادركتها لتزوجتها قالت فداك ابى وامى فما يمنعك من شريكتها فى حسنها وشقيقتها فى حسبها قلت قول كثير

إذا وصلتنا خُلةٌ كي تُزيلنا * أبيْنا وقلنا الحاجبيةُ أوّلُ

قالت : وكثير بينى و بينك أليس هو الذى يقول

هلْ وصلُ عزّةَ إلا وصلُ غانيةٍ * فى وصلِ غانيةٍ منْ وصْلها خلَفُ

قال فتركت جوابها ولم تمنعنى منه الا العى

﴿ محاسن النساء ﴾

قيل ، أحسن النساء الرقيقة البشرة النقية اللون يضرب لونها بالغداة الى الحمرة و بالعشى الى الصفرة ، وقالت العرب المرأة الحسناء أرق ما تكون محاسن صبيحة عرسها وأيام نفاسها وفى البطن الثانى من حملها ، وقيل لاعرابى أتحسن صفة النساء ، قال نعم اذا عذب ثناياها وسهل خداها ونهد ثدياها وفعم ساعداها والتف فخذاها وعرض وركاها وجدل ساقاها فتلك هم النفس ومناها و وصف اعرابى امرأة . . فقال : كان وجهها السقم لمن رآها والبرء لمن ناجاها . . وذكر اعرابى امرأة فقال أرسل الحسن الى خديها صفائح نور و رشق السحر عن لحظها بأسهم حداد ولقد تأملت فوجدت للبدر نوراً من بعض نورها . وذكر اعرابى امرأة فقال هى شمس تباهى بها شمس سمائها وليس لى شفيع اليها غيرها فى اقتضائها ولكنى كتوم لفيض النفس عند امتلائها . وذكر اعرابى امرأة فقال ما احسن من حبها نعاسا ولا انظر اليها الا اختلاسها وكل امرىء منها يرى

ما أحب وذكر اعرابى امرأة فقال لها جلد من لؤلؤ رطب مع رائحة المسك الازفر فى كل عضو منها شمس طالعة ومما جاء فى الحسن من الشعر . قال عبد الله بن المعتز انشدنى ابو سهل اسماعيل بن على لابى الصواعق

ومريض طرف ليس يصرف طرفه * نحو المدى إلا رماه بحتفه
ظبى له نظر ضعيف كلما * قصد القوى أتى عليه بضعفه
قد قلت لمّا مرّ يخطر مائسا * والردف يجذب خصره من خلفه
يامن يسلّم خصره من ردفه * سلّم فؤاد محبه من طرفه

فقلت فى هذا المعنى وعلى هذا الوزن

وحياة من جرح الفؤاد بطرفه * لاحبّرنّ قصائدى فى وصفه
قمر به قمر السماء متيّم * كالغصن يعجب نصفه من نصفه
إنى عجبت لخصره من ضعفه * ماذا تحمّل من ثقالة ردفه
هذا وما أدرى بأية فتنة * جرح الفؤاد بلطفه أم ظرفه
أم بالدلال أم الجمال أم الضيا * من وجهه أم بالقفا من خلفه

وأنشد أبو الحسين بن فهم لابى نواس

كفاك ما مرّ على راسى * من شادن قطّع أنفاسى
أكثر ما أبلغ فى وصفه * تحيّرى من قلبه القاسى
أغار أن أنعت منه الذى * ينعته الناس من الناس
ولم أر العشّاق قبلى رأوا * بوصف من يهوون من باس
كلّ أحاديثى نعت له * منكشف منى لجلاسى

فقلت فى هذا المعنى وهذا الروى والوزن

لو عشر مامرّ على راسى * مرّ بصلد حجر قاسى
لانصدعت منه صدوع كما * صدّع قلبى طول وسواسى
ياغصن آس ومحال إذا * قصّرت تشبيهك بالآس
ماذا على طرفك لو أنه * أعار لحظاً منه قرطاسى
ليتك عللت بمطل ولم * تقطع رجائى منك باليأس

وقال آخر

وزائرة يحثها الشوق طارقة * أتتنا من الفردوس لاشك آبقه
اذا ماتثنت قال للريح قدها * كذا حركى الاغصان ان كنت صادقه

وقال آخر

قد أقبل البدر في قراطقه * يسلب بالدل قلب عاشقه
يسطوا عليه بسيف مقلته * لابالذي شد في مناطقه

وقال آخر

قل للملاح الحدق * وللحسان الخلق
هل في فؤادي للقوى * أو جسدي شيء بقى
ان لم تروّوا عطشي * بخلا فبلّوا رمقي
يا مقلة أجفانها * محشوة بالارق
بقيت في رق الهوى * شقية فيمن شقى

وقال آخر

ياملاح الدلال والاغتناج * ما أرى القلب من هواك ناجي
أنت زرفنت فوق خديك صدغا * من عبير على صفائح عاج
أشرقت وجنتاك بالنور حتى * أغنتا الخلق عن ضياء السراج
فعلت مقلتاك بالقلب مني * فعلة القرمطي بالحجاج
يا هلالا انست منه بضوء * جنح ليل من الظلام الداجي

وقال آخر

نشرت غدائر فرعها لتظلني * حذر العيون من العيون الرمق
فكأنها وكأنه وكأنني * صبحان باتا تحت ليل مطبق

وقال آخر

يا غزالا وهلالا * وقضيبا وكثيبا
كم وكم أضمر وجدا * بك مكتوما عجيبا
كيف يرجى برء من قد * كتم الداء الطبيبا

وقال آخر

شمسٌ ممثلةٌ في خلق جاريةٍ * كأنما بطنها طيّ الطوامير
فالجسمُ من جوهرٍ والشعرُ من سبجٍ * والثغرُ من لؤلؤ والوجهُ من عاج

وقال آخر

تتيهُ دلالٍ حار في حسنه الطرفُ * فتفكرته قبرٌ ومنطقه لطفُ
بديعُ جمالٍ زانهُ العقلُ والظرفُ * سماويٌّ لونٍ لا يحيطُ به وصفُ
له ريقةٌ علّت بماء قرنفل * يمازجها التفاحُ والخمرةُ الصرفُ
تجسّمَ في جسمٍ من النورِ ساطعٍ * تمكّنَ في دعصٍ ينوءُ به ردفُ
على صحنِ خدّيهِ بهارٌ منوّرٌ * وورد جنيٌّ لا يليقُ به القطف
تكاملَ فيهِ الحسنُ والنورُ والبها * كبدرِ الدجى إذ تمَّ من شهرهِ النصف
يراهُ إلهي لي عذاباً وفتنةً * فما عندهُ عذلٌ ولا عندهُ عطفُ

وقال آخر

لكَ من قلبيَ المكانُ المصونُ * كلُّ لومٍ على فيكَ يهونُ
قدَّر اللهُ أن أكونَ شغيفاً * بكَ والصبرُ عنكَ مالا يكونُ
يا غزالا بلحظهِ يفتنُ النا * سَ وفي طرفهِ الردى والمنونُ
لكَ صبرٌ وليسَ لي عنكَ صبرٌ * فأنا اليومَ هائمٌ محزونُ
قد خلعتُ العذارَ فيكَ حبيبي * ما أُبالي بما رمتني الظنونُ

وقال آخر

يا نظرةً جاءت على ياسٍ * من ساحرِ المقلةِ ميّاسِ
أطرافهُ تعقدُ من لينها * وقلبهُ كالحجرِ القاسي
يلومني الناسُ على حبهِ * أعانني اللهُ على الناسِ

وقال آخر

يا ويحَ جسمٍ يذوبُ من قلقه * من حبِّ من لم أقفْ على خُلقهِ
من حبِّ ظبي مهفهفٍ لبق * يهتز مثل القضيبِ في ورقه
لم ترَ عيني ولن ترى أبداً * أحسنَ من نحره ومن عنقهِ
كأنما المسكُ حينَ تنسمهُ * بماءِ وردٍ يفوحُ من عرقه
أو خمرةٌ في الزجاج صافيةٌ * شيبت بماءِ السحاب في نسقه

وقال آخر

أربعةٌ قرَّحتْ فؤادي * فطالَ وَجدي وعيلَ صبري
مُقلةُ خشفٍ وقدُّ غصنٍ * وطيبُ وردٍ وحُسنُ بدرِ
نفسي ومالي فداءُ ظبي * أذابَ جسمي وليسَ يدري
فمنْ لصبٍّ أسيرِ شوقٍ * قتيلِ صدٍّ بسيفِ هجر

وقال آخر

وما ريحُ ريحانٍ بمسك وعنبرٍ * يُعلُّ بكافور ودُهنةِ بانِ
باطيبَ من ريا حبيبي لوَ انني * وَجدتُ حبيبي خالياً بمكان

﴿ محاسن التزويج ﴾

روى أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . يارسول الله انى اريد أن اتزوج فادع الله ان يرزقني زوجة صالحة . فقال . لودعالك جبريل وميكائيل وأنا معهما ماتزوجت الا المرأة التي كتب الله لك فانه ينادي في السماء الا ان امرأة فلان بن فلان فلانة بنت فلانة . وقال صلى الله عليه وسلم عليكم بالابكار فانهن اطيب افواها وانتق ارحاماً . وقال عمر رضى الله عنه عليكم بالابكار واستعيذوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر .

قال الشاعر

لا تنكحَنَّ عجوزاً إنْ دُعيتَ لها * وإنْ حبيتَ على تزويجها الذهبا
فإنْ أتوكَ وقالوا انها نصفٌ * فإنَّ أطيبَ نصفيها الذي ذهبا

وقال آخر

عليك اذا ما كنتَ لابدَّ ناكحاً * ذواتُ الثنايا الغُرّ والاعين النُّجْلِ
وكلُّ هضيم الكشحِ خفاقةِ الحشا * قطوف الخطا بلهاءَ وافرةَ العقل

وقال الحارث بن كلدة لا تنكحوا من النساء الا الشابة ولا تأكلوا من الحيوان الا الفتى ولا من الفاكهة الا النضيج ، وقال مغيرة بن شعبة حصنت تسعا وتسعين امرأة ما أمسكت واحدة منهن على حب ولكني أحفظها لمنصبها ولولدها فكنت استرضيهن بالباه شابا فلما ان شبت وضعفت عن الحركة استرضيتهن بالعطية ، وقال بعضهم لذة المرأة على قدر شهوتها وغيرتها على قدر لذتها ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . انه قال انما النساء لعب فاذا تزوج أحدكم فليستحسن وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال . تزوجها سمراء ذلفاء عيناء فان فركتها فعلى

صداقها وقال الحجاج بن يوسف من تزوج قصيرة فلم يجدها على ما يريد فعلى صداقها ، و روى عن علي صلوات الله عليه ان رجلا أتاه فقال انى تزوجت امرأة مجنونة فقالت المرأة يا أمير المؤمنين انه يأخذنى عند الجماع غشية ، فقال للرجل قم ما أنت لها باهل . وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . إياكم وخضراء الدمن وهى المرأة الحسناء فى المنبت السوء وقال بعضهم لا تتزوجن حنانة ولا أنانة ولا منانة ولا عُشبة الدار ولا كية القفا ـ فاما الحنانة ـ فالتى قد تزوج هارجل من قبل فهى تحن اليه ـ والانانة ـ التى تأن من غير علة ـ والمنانة ـ التى لها مال تمتن به ـ وعشبة الدار ـ الحسناء فى أصل السوء ـ وكية القفا ـ التى اذا قام زوجها من المجلس قال الناس فعلت امرأة هذا كذا وفعلت كذا ، وقال محمد بن على رضى الله عنهما اللهم ارزقنى امرأة تسرنى اذا نظرت وتطيعنى اذا أمرت وتحفظنى اذا غبت ، و روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ، اذا خطب أحدكم امرأة فلا جناح عليه ان ينظر اليها وان كانت لا تعلم ، وقال بعض الشعراء فى تزويج الشبه

إذا أردتَ حُرّةً تبغيها * كريمة فانظرْ إلى أخيها

يُنبيك عنها وإلى أبيها * فإنّ أشباهَ أبيها فيها

وقال آخر

إذا كنتَ مُرْتاداً لنفسك أيّماً * لنجلِكَ فانظرْ من أبوها وخالُها

فإنهما منها كما هيَ منهما * كما النّعلُ إنْ قِيستْ بنعلٍ مِثالِها

وقال آخر

إذا كنتَ عن عينِ الصّبيةِ باحثاً * فأبصِرْ ترى عين العصيّ فذالكا

قال خالد بن صفوان لدلال . أطلب لى امرأة بكرا أو ثيبا كبكر حصانا عند جارها ماجنة عند زوجها قد أدبها الغنى وذللها الفقر لا ضرعة صغيرة ولا عجوزا كبيرة قد عاشت فى نعمة وأدركتها حاجة لها عقل وافر وخلق طاهر وجمال ظاهر صلتة الجبين سهلة العرنين سوداء المقلتين خدلجة الساقين لفاء الفخذين نبيلة المقعد كريمة المحتد رخيمة المنطق لم يداخلها صلف ولم يشن وجهها كلف ريحها أرج ووجها بهج لينة الاطراف ثقيلة الارداف لونها كالرق وثديها كالحق أعلاها عسيب وأسفلها كثيب لها بطن مخطف وخصر مرهف وجيد أتلع ولب مشبع تثنى ثنى الخيزران وتميل ميل السكران حسنة المآق فى حسن البُراق لا الطول ازرى بها ولا القصر ، قال الدلال : استفتح أبواب الجنان فانك سوف تراها ، وقال أيضا . لا تتزوج واحدة فتحيض اذا حاضت وتنفس اذا نفست وتعود اذا عادت وتمرض اذا مرضت ولا تتزوج اثنتين فتقع فيما

بين الجمرتين ولا تتزوج ثلاثا فتقع بين اثافي ولا تتزوج أربعا فيحقرنك ويهرمنك ويفلسنك ، فقال له رجل ، حرمت ما أحل الله ، فقال ، طمران وكوزان ورغيفان وعبادة الرحمن ، وعن صالح بن حسان قال ، رأيت امرأة بالمدينة يقال لها حواء وهي التي علمت نساء المدينة التنعم وهو التخر والحركة والغربلة والزهز وكانت لها سقيفة تتحدث النهار جالات قريش ولم يكن في المدينة أهل بيت الا وتأخذ صبيانهم وتعصهم ثديها أو ثدي احدى بناتها فكان أهل المدينة يسمونها حواء ولم يكن بالمدينة شريف ممن يجلس في سقيفتها الا واوصل اليها في السنة ثلاثين وسقاوأكثر من طعام وتمر مع الدنانير والدراهم والخدم والكساء فجاءها ذات يوم مصعب بن الزبير وعمرو بن سعيد بن العاص وابن لعبد الرحمن بن أبي بكر فقالوا لها يا خالة قد خطبنا نساء من قريش ولسنا نتفع الا بنظرك اليهن فارشدينا بفضل علمك فيهن فقالت لمصعب يا ابن أبي عبد الله ومن خطبت قال عائشة بنت طلحة قالت فانت يا ابن الصديق قال ام القاسم بنت ذكرياء ابن طلحة قالت فانت يا ابن ابي احيحة قال زينب بنت عمرو بن عثمان فقالت يا جارية علي بمنقلي — تعني خفيها — فانتعلتهما فخرجت ومعها خادم لها فاتت عائشة بنت طلحة فقالت مرحبا بك يا خالة فقالت يا بنية انا كنا في مادبة لقريش فلم تبق امرأة لها جمال الا ذكرت وذكر جمالك فلم أدر كيف أصفك فتجردي لا نظرك فالقت درعها ثم مشت فارتج كل شيء منها ثم أقبلت على مثل ذلك فقالت فداك ابي وامي خذي ثوبيك واتتهن جميعا على مثل ذلك ثم رجعت الى السقيفة فقالت يا ابن أبي عبد الله ما رايت مثل عائشة بنت طلحة قط ممتلئة الترائب زجاء العينين هدبة الاشفار مخطوطة المتنين ضخمة العجيزة لفاء الفخذين مسرولة الساقين واضحة الثغر نقية الوجه فرعاء الشعر الا انني رأيت خلتين هما أعيب ما رأيت فيها اما احداهما فيواريها الخف وهي عظم القدم والاخرى يواريها الخمار وهي عظم الاذن وأما أنت يا ابن أحيحة فما رأيت مثل زينب بنت عمرو فراهة قط الا ان في الوجه ردة ولكني مشيرة عليك بأمر تستأنس اليه وهي ملاحة تعتريها وأما أنت يا ابن الصديق فوالله ما رأيت مثل ام القاسم ما شبهتها الا بخوط بانة تتثنى أو خشف يتقلب على رمل ولم أرها الا فوق الرجل واذا زادت على الرجل المرأة لم تحسن لا والله الا من يملأ المنكبين فتزوجوهن وقال اعرابي في أخت له تزوجت بغير كفؤ

ولو رَكِبَتْ ماحرَّمَ اللهُ لم يكن * باقبحَ عِندَ اللهِ مما استحلَّتِ

قال . وكان بالمدينة رجل قد أعطى جودة الرأي ولم يكن فيها من يريد ابرام أمر الا شاوره فاراد رجل من قريش أن يتزوج فاتاه فقال انا أريد أن أضم الى أهلا فاشر علي قال افعل تحصن دينك وتصن مؤونتك وإياك والجمال البارع قال ولم نهيتني وانما هو نهاية ما يطلب الناس قال لانه ما فاق الجمال الا لحقه قول أما سمعت قول الشاعر

ولنْ تصادفَ مرعىً مُونِقاً أبداً * إلاّ وَجدْتَ بهِ آثارَ ما كول

قيل وكانت جارية من بنات الملوك تكره التزويج فاجتمع عندها نسوة فتذاكرن التزويج وقلن لها ما يمنعك منه قالت وما فيه من الخير. فلن وهل لذة العيش الا في التزويج. قالت فلتصف كل واحدة منكن ما عندها فيه من الخير حتى أسمع. فقالت احداهن زوجي عوني في الشدائد وهو عائدي دون كل عائد ان غضبت عطف وان مرضت لطف. قالت نعم الشيء هذا. قالت الاخرى زوجي لما عناني كاف ولما أسقمني شاف عرقه المسك المداف وعناقه كالخلد ولا يمل طول العهد. قالت هذا خير منه. قالت الاخرى زوجي الشعار حين أبرد وأنيسي حين أفرد. فتزوجت فقلن لها. يا فلانة كيف رأيت. قالت. أنعم النعيم وسرورا لا يوصف ولذة ليس منها خلف

﴿ أمثال في التزويج ﴾

قيل أن أول من قال * لا هنكِ أنقيت ولا ماءكِ أبقيت * الضب بن أروى الكلاعى وذاك انه خرج من أرضه فلما سار أياما حار في تلك المفاوز التي تعسفها وتخلف عن أصحابه وبقى فردا يعسف فيها ثلاثة أيام حتى دفع الى قوم لا يدري من هم فنزل عليهم وحدثهم وكان جميلا وان امرأة من أفاضل أولئك دويته فارسلت اليه أن أخطبني فخطبها وكانوا لا يزوجون الا شاعرا أو رجلا يزجر الطير أو يعرف عيون الماء فسألوه فلم يحسن شيئا من ذلك فلم يزوجوه فلما رأت المرأة ذلك زوجته نفسها على كره من قومها فلبث فيهم ما لبث ثم ان رجلا من العرب أغار عليهم في خيل فاستأصلهم فتطير وابضب وأخرجوه وامرأته وهي طامث فانطلقا واحتمل ضب شيئا من ماء ومشيا يوما وليلة الى الغد حتى اشتد الحر وأصابهما عطش شديد فقالت له ادفع الى السقاء حتى اغتسل به فانا ننتهي الى الماء ونستقي فاغتسلت بما في السقاء ولم يقع منها موقعا وأتيا العين فوجداها ناضبة وأدركهما العطش فقال ضب. لا هنك أنقيت ولا ماءك أبقيت. فذهبت مثلا ثم استظلا تحت شجرة كبيرة: فانشأ ضب يقول

تاللهِ ما ظِلةٌ أصابَ بها * سوادَ قلبي فارغُ العطبِ
ظلّ كئيبَ الفؤادِ مضطرباً * وتكتسي مِنْ غدائرِ قُلبِ
أنْ يعرفَ الماءَ تحتَ صُمِ صفاً * أو يُخبرَ الناسَ منطقَ الخُطبِ
أخرجني قومُها بأن رَحا * دارتْ بشؤمٍ لهم على قُطبِ

فلما سمعت ذلك فرحت وقالت قم فارجع الى قومي فانك شاعر فانطلقا راجعين حتى انتهيا اليهم فاستقبلوهم بالسيف والعصا فقال لهم ضب اسمعوا شعري ثم ان بدا لكم أن تقتلوني بعد

فافعلوا فتركوه فصار فيهم عزيزا ، وقيل ان أول من قال * في الصيف ضيعت اللبن *
قتول بنت عبد وكانت تحت رجل من قومها فطلقها وانها رغبت في أن يراجعها فابى عليها فلما يئست خطبها رجل يقال له عامر بن شوذب فتزوجها فلما بنى بها بدا للزوج الاول مراجعتها وهوى بها هوى شديداً فجاء يطلبها ويرنو بنظره اليها ففطنت به فقالت

أتركتني حتى إذا * علقت أبيض كالشطن
انشأت تطلب وصلنا * في الصيف ضيعت اللبن

فذهبت مثلا فقال لها زوجها الاول واسمه الاشق فهل بقي شئ قالت نعم فاصله عن جميع مالك وطلاقي فان فصلته تزوجتك فرضي بذلك ثم راجع نفسه فقال لها ذلك فقالت أما اذا ضننت بمالك فانطلق الى مكان اذا أنت تكلمت سمع زوجي كلامي وكلامك ثم اقعد كانك لا تشعر به وقل

لحا الله بنت العبد إن وصالها * وصال ملول لا تدوم على بعل
تحدثني أن سوف تقتل عامرا * لان لم يكن في ماله عامر مثلي
فهيهات تزويج التي تقتل الفتى * إذا ما أبت يوما وإن كان من أجلي
فتقتلني يوما إذا هويت فتى * سواي وان اليوم من وصلها محلي

فانطلق الاشق ففعل ما أمرته به فسمعه عامر فوقع في قلبه قوله وقد كان عرف حبها له فصدق ذلك ودخل عليها فطلقها وتزوجها الاشق ، وذكروا أن بطنا من قريش اشتدت عليهم السنة وكانت فيهم جارية يقال لها زينب من أكمل نسائهم جمالا وأعمهن تماما وأشرفت فرآها شاب يقال له عروة فوقعت في قلبه فجعل يطالعها ولا يقدر على أكثر من ذلك فاشتد وجده بها فلما انقضت السنة وأرادوا الرجوع الى منازلهم دعا بعض جواري الحي فقال يا ابنة الكرام هل لك في يد تتخذين بها عندي شكرا قالت ما أحوجني الى ذلك ، قال تنطلقين الى خيمة فلانة كانك تقتبسين نارا فاذا أنت جلست فقولي حيث تسمع زينب

ألا هل لنا قبل التفرق ليلة * ويوم فتقضى كل نفس مناها

فانطلقت الجارية ففعلت ذلك فلما سمعت زينب قولها وكانت تفلي رأس زوجها وكان عنده أخ له . فقالت مجيبة لها

لعمري لقد طال المقامة ها هنا * لو ان لحب حاجة لقضاها

فسمع أخو الزوج قول الجارية وجواب زينب فقال

ألا يعلم الزوج المفلى بأنها * رسالة مشغوف الفؤاد رجاها

فانتبه الزوج لامرهم وعرف ما أرادت فقال

لَحى اللهُ مَنْ لا يستقيمُ بودّه * ومَنْ يمنحُ النفسَ الطروبَ هواها

انطلقي يازينب فانت طالق فخرجت من عنده وبعثت الى عروة فأعلمته وأقامت حتى انقضت عدتها ثم تزوجته

— في الناشزة —

ذكروا أن الاخطل كانت عنده امرأة وكان بها معجبا فطلقها وتزوج بمطلقة رجل من بني تغلب وكانت بالتغلبي معجبة فبيناهي ذات يوم جالسة مع الاخطل اذ ذكرت زوجها الاول فتنفست الصعداء ثم ذرفت دموعها فعرف الاخطل ما بها فذكر امرأته الاولى وأنشا يقول

كِلانا على وَجْدٍ يبيتُ كأنما * بجنبيهِ مِنْ مسِّ الفراشِ قُرُوحُ

على زوْجها الماضي تنوحُ وزوْجها * على الطَّلَّةِ الاولى كذاك ينوحُ

قيل، وخاصمت امرأة زوجها الى زياد فجعلت تعيبه وتقع فيه، فقال الزوج . أصلح الله الاميران شر المرأة كبرها ان المرأة اذا كبرت عقم رحمها وبذ ألسانها وساء خلقها والرجل اذا كبر استحكم رأيه وقل جهله، قال صدقت وحكم له بها، وذكروا أن امرأة أتت عبيد الله بن زياد وكانت ذات شحم وجسم وجمال مستعدية على زوجها وكان أسود دميم الخلقة فقال . ما بال هذه المرأة تشكوك، قال أصلح الله الامير سلها عما ترى من جسمها وشحمها أمن طعامي أم من طعام غيري، قالت من طعامك أفتمن عليّ بطعام أطعمتنيه والكلاب تأكل . قال سلها عن كسوتها من مالي هي أم من مال غيري . قالت من مالك أفتمن عليّ بثوب كسوتنيه قال وسلها عما في بطنها مني هو أم من غيري . قالت منك ووددت أنه في بطني من كلب . قال الرجل أصلح الله الامير فما تريد المرأة الا أن تطعم وتكسى وتنكح . قال صدقت فخذ بيدها . قال خرج رجل مع قتيبة بن مسلم الى خراسان وخلف امرأة يقال لها هند من أجمل نساء زمانها فلبث هناك سنين فاشترى جارية اسمها جمانة وكانت له فرس يسميه الورد فوقعت الجارية منه موقعاً فانشأ يقول

ألا لا أبالي اليومَ ما فعلتْ هندُ * إذا بقيتْ عندي الجُمانةُ والوردُ

شديدٌ مناطِ القُصْرَيين إذا جرى * وبيضاءُ مثلُ الرِّئْمِ زيَّنها العِقدُ

فهذا لأيّامِ الهياجِ وهذهِ * لحاجةِ نفسي حينَ ينصرِفُ الجُنْدُ

فبلغ ذلك هند فكتبت اليه

ألا أقرِهِ مني السلامَ وقلْ لهُ * غُنينا بفتيانٍ غطارفةٍ مُرْدِ

فهذا أميرُ المؤمنين أميرُهمْ * سَباناوأغنا كمْ أراذلةَ الجُندِ

إذاشاءَ منهمْ ناشئٌ مدَّ كفَّهُ * إلى كبدٍ ملساءَ أوكفلٍ نهدِ

فلماقرأ كتابهاأتى به الى قتيبة فأعطاه اياه فقال له أبعدك الله هكذا يفعل بالحرة وأذن له فى الانصراف . قال وسمع عمر بن الخطاب امرأة تنشد وتقول

فمنهنَّ من تسقى بعذبٍ مبرَّدٍ * نُقاخٍ فتلكمْ عند ذلك قرَّتِ

ومنهنَّ من تُسقى بأخضرَ آجنٍ * أُجاجٍ فلولا خشيةُ اللهِ فرَّتِ

فامر باحضار زوجها فوجده متغير الفم فخيره جارية من المغنم أو خمسة مائة درهم على طلاقها فاختار الخمسمائة فدفعت اليه وخلى سبيلها . وحكى عن الفضل بن الربيع أنه كان بمكة ومعه الفرج الرُخجي وكان الفضل صبيحا أظرف والفرج دميما قبيحا فخرجا الى الطواف ثم انصرفا الى بعض طرقات مكة وقعدا يتغديان فبينما هما كذلك على طعامهما اذ وقفت عليهما امرأة جميلة بهيئة حسنة شكلة وعليها برقع فرفعته عن وجهها فاذا وجه كالدينار وذراع كالجمار فسلمت وقعدت وجعلت تأكل معهما قال الفضل فاعجبني مارأيت من جمالها وهيئتها . فقلت هل لك من بعل . قالت لا قلت فهل لك فى بعل من أصحاب أمير المؤمنين حسن الخلق والخلق قالت وأين هو . فاشار الى فرج فقالت . جوابك عند فراغنا فلما أكلت قالت للفضل تقرأ شيئاً من كتاب الله قال نعم قالت أفتؤمن به قال نعم قالت فان الله يقول (ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً) فضحك الفضل ودخل على الرشيد فأخبره فامر باحضارها فلما نظر اليها أعجب بها فتزوجها وحملها الى مدينة السلام . قال وحج اسماعيل بن طريح فوقفت عليه اعرابية جميلة قال فقال لها . هل لك أن تزوجيني نفسك . فقالت من غير توقف

بكى الحسبُ الزّاكى بعين غزيرةٍ * من الحسبِ المنقوصِ أن يجمَعامعا

وانصرفت . قال العتبي كنت كثير التزوج فمررت بامرأة فاعجبتنى فارسلت اليها ألك زوج قالت لا فصرت اليها فوصفت لها نفسي وعرفتها موضعي فقالت . حسبك قد عرفناك . فقلت لها زوجيني نفسك فقالت نعم ولكن ها هنا شيء تحتمله قلت وما هو قالت بياض فى مفرق رأسى . قال فانصرفت فصاحت بى أرجع فرجعت اليها فاسفرت عن رأسها فنظرت الى وجه حسن وشعر أسود فقالت . انا كرهنا منك عافاك الله ما كرهت منا . وأنشدت

أرى شيبَ الرجالِ من الغوانى * بموضعِ شيبهنّ منَ الرّجالِ

وعن عطاء بن مصعب قال . جاءت امرأة الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالت . ياأمير المؤمنين لا أنا ولا زوجي فقال لها . ومالك من زوجك قالت . مر باحضاره فاحضر فاذا

رجل قذر الثياب قد طال شعر جسده وأنفه ورأسه فأمر عمر أن يؤخذ من شعره ويدخل الحمام ويكسى ثوبين أبيضين ثم يؤتى به ففعل به ذلك ودعا المرأة فلما رأت الزوج قالت الآن فقال لها عمر اتقى الله وأطيعى زوجك . قالت افعل يا أمير المؤمنين فلما ولت قال عمر تصنعوا للنساء فانهن يحببن منكم ما تحبون منهن . ويقال أن المرأة تحب أربعين سنة وتقوى على كتمان ذلك وتبغض يوما واحدا فيظهر ذلك بوجهها ولسانها والرجل يبغض أربعين سنة فيقوى على كتمان ذلك وان أحب يوما واحدا اشهدت جوارحه

نساء الخلفاء

على بن محمد بن سليمان قال : أبى يقول كان المنصور شرط لام موسى الحميرية أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى وكتبت عليه بذلك كتابا أكدته وأشهدت عليه بذلك فبقى مدة عشر سنين فى سلطانه يكتب الى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق وجهد أن يفتيه واحد منهم فى التزويج وابتياع السرارى فكانت أم موسى اذا علمت مكانه بادرته وأرسلت اليه بمال فاذا عرض عليه أبو جعفر الكتب لم يفته حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد فأتته وفاتها وهو بحلوان فأهديت اليه مائة بكر وكان المنصور أقطع أم موسى الضيعة المساة بالرحبة فوقفتها قبل موتها على المولدات الاناث دون الذكور فهى وقف عليهن الى هذا الوقت . حدثنا يحيى بن الحسن عن محمد بن هشام قاضى مكة قال كانت الخيزران لرجل من ثقيف فقالت لمولاها الثقفى أنى رأيت رؤيا . قال وما هى قالت رأيت كان القمر خرج من قبلى وكان الشمس خرجت من دبرى . قال لها لست من جوارى مثلى أنت تلدين خليفتين فقدم بها مكة فباعها فى الرقيق فاشتريت وعرضت على المنصور فقال من أين أنت قالت المولد مكة والمنشأ بجرش قال فلك أحد قالت مالى أحد إلا الله وما ولدت أمى غيرى . قال يا غلام اذهب بها الى المهدى وقل له تصلح للولد فاتى بها المهدى فوقعت منه كل موقع فلما ولدت موسى وهرون قالت ان لى أهل بيت بجرش . قال ومن لك . قالت لى أختان اسمهما أسماء وسلسل ولى أم واخوان فكتب فاتى بهم فتزوج جعفر بن المنصور سلسل فولدت منه زبيدة واسمها سكينة تزوجها الرشيد وبقيت أسماء بكرا فقال المهدى للخيزران قد ولدت رجلين وقد بايعت لهما وما أحب ان تبقين أمة وأحب أن أعتقك وتخرجين الى مكة وتقدمين فأتزوجك قالت الصواب رأيت فاعتقها وخرجت الى مكة فتزوج المهدى اختها أسماء ومهرها ألف ألف درهم فلما أحس بقدوم الخيزران استقبلها فقالت ما خبر اسماء وكم وهبت لها قال من اسماء قالت امرأتك قال ان كانت اسماء امرأتى فهى طالق فقالت له طلقتها حين علمت بقدومى قال أما إذ علمت فقد مهرتها ألف ألف درهم

و وهبت لها ألف ألف درهم ثم تزوج الخيزران قال كانت نخلة جارية الحسين الخلال قبل أن يتولى المتوكل الخلافة تقعد بين يديه وتغنيه فولدت للحسين ابناً فلما ولى المتوكل الخلافة طرقه ليلاً فقال له الحسين زرنا جعلت فداك فقال اشتهيت أن اسمع غناء نخلة فأخرجها اليه مطمومة الشعر فقال يا خلال أليس قد ولدت منك ابناً قال بلى قال فأنا أحب أن تعتقها قال فانها حرة قال فاشهد إني قد تزوجتها قومي يا نخلة فاشتد ذلك على الحسين فعوضه منها خمسة عشر ألف دينار وحول اليه نخلة قيل و وصف للمتوكل ابنة لسليمان بن القاسم بن عيسى بن موسى الهادي وعدة من الهاشميات فحملن اليه وعرضن عليه فاختارها من بينهن وصرف البواقي ونزلت منه منزلة حتى ساوى بينها و بين قبيحة في المنزلة وكانت جارية لها لياقة وملاحة ووصفت له ريطة بنت العباس بن علي فحملت اليه فتزوجها ثم سألها ان تطم شعرها وتتشبه بالمماليك فابت عليه فاعلمها ان لم تفعل فارقها فاختارت الفرقة فطلقها ووصفت له عائشة بنت عمرو بن الفرج الرخجي فوجه في جوف الليل والسماء تهطل الى عمر أن احمل الى عائشة فسأله أن يصفح عنها فانها القيمة بامره فابى فانصرف عمر وهو يقول اللهم قني شر عبدك جعفر ثم حملها بالليل فوطئها ثم ردها الى منزل أبيها قال وكان الهادي يشاور من أصحابه عبد العزيز بن موسى وعيسى بن دأب والعزيزي وعبد الله ابن مالك فخرج ذات يوم اليهم وهو مغضب كانه جمل هائج منتفخ الاوداج منتقع اللون فاقبل حتى جلس في مجلسه وكان العزيزي اجرأهم عليه فقال يا أمير المؤمنين انا نرى بوجهك ما كدر علينا عيشنا وبغض الدنيا الينا فاذ رأى أمير المؤمنين أن يخبرنا بالسبب فان كان عندنا حيلة أعملنا بها وان تكن مشورة أشرنا بها وان أمكن احتمال الغم عنه وقيناه بانفسنا وحملنا الغم عنه قال فاطرق طويلا والعزيزي قائم فقال له اجلس يا عزيزي فاني لم أر كصاحب الدنيا قط أكثر آفات وأعظم نائبة ولا أنغص عيشاً قال العزيزي وما ذاك يا أمير المؤمنين قال لبانة بنت جعفر بن أبي جعفر قد علمتم موقعها مني و إثرتها عندي كلمتني بادلال فاغلظت فلم يكن لها عندي احتمال ولا عندها اقصار حتى وثبت عليها وضربتها ضرباً موجعاً قال وسكت فقال ابن دأب يا أمير المؤمنين انك والله لم تأت منكراً ولا بديعاً قد كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤدبون نساءهم و يضربونهن هذا الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته وثب على امرأته اسماء بنت ابي بكر وهي افضل نساء اهل زمانها فضربها في شيء عتب عليها فيه ضرباً مبرحاً حتى كسر يدها وكان ذلك سبب فراقها وذلك انها استغاثت بولدها عبد الله فجاء يخلصها من ابيه فقال هي طالق ان حلت بيني و بينها تفعل و بانت منه وهذا كعب بن مالك الانصاري عتب على امرأته وكانت من المها جرات فضربها حتى حال بنوها بينه وبينها فقال

فلولا بنوها حولها لخبطتها * كخبطة فروج ولم اتلعثم

وما هندُ الاّ مُهرةٌ عربيةٌ * سليلة أفراس تجللها بغلُ
فان نُتجت مُهراً كريماً فبالحرى * وإن يكُ إقرافٌ فما أنجب الفحلُ

فخرج من عندها مغضبا ودعا ابن القرية فدفع اليه مائة الف درهم وقال . ادخل على هند وطلقها عنى ولا تزد على كلمتين وادفع اليها المال . فحمل ابن القرية المال ودخل عليها فقال . ان الامير يقول كنت فبنت وهذه المائة الف صداقك ، فقالت يا ابن القرية ما سررت به اذ كان ولا جزعت عليه اذ بان وهذا المال بشارة لك لما جئتنا به ، فكان القول أشد على الحجاج من فراقها وذكروا أن عبد الرحمن بن ابى بكر الصديق رضى الله عنه كانت عنده عاتكة بنت زيد بن عمرو ابن نفيل فاحبها حباً شديداً فأمره أبوه بفراقها وان يطلقها تطليقة واحدة ففعل ثم ندم على فعله فقال

فلم أرَ مثلى طلّقَ اليومَ مثلها * ولا مثلَها فى غيرِ جرمٍ تُطلّقُ
لها خلقٌ سهلٌ وحسنٌ ومنصبٌ * وخلقٌ سويٌّ ما يُعابُ ومنطقُ
أعاتكَ قلبى كلَّ يومٍ وليلةٍ * اليك بما تُخفى القلوبُ معلّقُ
أعاتكَ ما أنساكِ ما ذرَّ شارقٌ * وما لاحَ نجمٌ فى السماءِ مُحلّقُ

فسمع ابو بكر ذلك فرق له وأمره بمراجعتها ، وعن على بن دعبل قال : حدثنى أبى قال خرجت ومعى اعرابى ونبطى الى موضع يقال له بطياثا من أمصار دجلة متنزهين فأكلنا وشربنا فقال الاعرابى . قل بيت شعر فقلت

نلنا لذيذ العيشِ فى بَطياثا

فقال الاعرابى لمّا حثثنا أقدحاً ثلاثا

فقال النبطى وامرأتى طالقٌ ثلاثا

ومازال يبكى حتى الصباح فقلت له ، ما يبكيك . فقال . ذهبت امرأتى بثلاثية ، قال اسحق بن ابراهيم الموصلى كنت انا والحسين بن الضحاك يوما عند المعتصم وحضرت قينة تعرض عليه فاعجب بها فقال للمدنيين كيف ترونها ، فقال احدهم . امرأته طالق ان كان رأى مثلها ، وقال آخر امرأته طالق ان لم ، وسكت فقال المعتصم . ان لم ، قال ، لاشىء ، فضحك وقال له ويحك ما دعاك الى طلاق اهلك بلا سبب . فقال يا أمير المؤمنين كلنا قد طلق امرأته بلا سبب . ومما قيل فى ذلك من الشعر

رحلتْ أميّةُ بالطلاقِ * ونجوتُ من رِقِّ الوثاق
بانتْ فلم يجزعْ لها * قلبي ولم تدمعْ ماقى
لو لم أُرحْ بفراقها * لا رُحتُ نفسى بالإباق

ابنتك عن نفسها فخلت بالزباء فقالت يابنية اى الرجال أحب اليك الكهل الجحجاح الفاضل المناح أم الفتى الوضاح قالت الرموز الطماح قالت يابنية ان الشيخ يميرك ولا يغيرك وليس الكهل الفاضل الكثير النائل كالحدث السن الكثير الظن قالت ياأماه اخشى الشيخ ان يدنس ثيابى ويشمت بى أترابى و يبلى شبابى قال فلم تزل بها أمها حتى غلبتها على رأيها فتزوجها الحارث بن سليل على خمسين ومائة من الابل وألف درهم وابتنى بها ثم رحل بها الى قومه فبيناهو جالس ذات يوم وهى الى جانبه اذ أقبل فتية من بنى اسد نشاوى يتبخترون فلما نظرت اليهم تنفست الصعداء وبكت فقال ماشأنك قالت مالى وللشيوخ الناهضين كالفروخ قال ثكلتك أمك تجوع الحرة ولا تاكل بثديها فذهبت مثلا أما وأبيك لرب غارة شهدتها وخيل وزعتها وسبية اردفتها وخمرة شربتها الحقى باهلك فانت طالق . وقال

تهزأت أن رأتنى لابسا كبرًا * وغاية الناس بين الموت والكبر
فإن يكن قد علا رأسى وغيره * صرف الزمان وتغيير من الشعر
فقد أروح للذات الفتى جذلا * وقد أصيد بها عينا من البقر
عنى اليك فإنى لا توافقنى * عور الكلام ولا شرب على الكدر

قال وقال الحجاج لابن القرية : ماتقول فى التزويج ، قال . وجدت أسعد الناس فى الدنيا وأقرهم عينا واطيبهم عيشا وابقاهم سرورا وارخاهم بالا واشبههم شبابا من رزقه الله زوجة مسلمة أمينة عفيفة حسنة لطيفة نظيفة مطيعة ان ائتمنها زوجها وجدها أمينة وان قتر عليها وجدها قانعة وان غاب عنها كانت له حافظة تجد زوجها أبدا ناعما وجارها سالما ومملوكها آمنا وصبيها طاهرا قد ستر حلمها جهلها وزين دينها عقلها فتلك كالريحانة والنخلة لمن يجتنيها وكاللؤلؤة التى لم تثقب والمسكة التى لم تفتق قوامة صوامة ضاحكة بسامة إن ايسرت شكرت وان اعسرت صبرت فافلح وانجح من رزقه الله مثل هذه وانما مثل المرأة السوء كالحمل الثقيل على الشيخ الضعيف يجر فى الارض جرا فبعلها مشغول وجارها متبول وصبيها مرذول وقطها مهزول ، قال : يا ابن القرية قم الآن فاخطب لى هند ابنة اسماء ولا تزيدن على ثلاث كلمات فأتاهم فقال : جئت من عند من تعلمون والامير يعطيكم ما تسئلون افتنكحون أم تدعون ، قالوا ، انكحنا وغنمنا فرجع الى الحجاج فقال . أصلح الله الامير صلاح من رضى عمله ومد فى الخيرات اجله و بلغ به أمله جمع الله شملك وأدام طولك واقر عينك ووقاك حينك وأعلى كعبك وذلل صعبك وحسن حالك على الرفاء والبنين والبنات والتيسير والبركة وأسعد السعود وأيمن الجدود وجعلها الله ودودا ولودا وجمع بينكما على الخير والبركة فتزوجها الحجاج ثم انه دخل ذات يوم عليها وهى تقول

وما هندُ الاَّ مُهرةٌ عربيةٌ * سَليلة أفراس تجللها بغلُ
فان نُتِجت مُهراً كريماً فبالحَرى * وإن يكُ إقرافٌ فما أنجبَ الفحلُ

فخرج من عندها مغضبا ودعا ابن القرية فدفع اليه مائة الف درهم وقال . ادخل على هند وطلقها عني ولا تزد على كلمتين وادفع اليها المال . فحمل ابن القرية المال ودخل عليها فقال . ان الامير يقول . كنت فبنت وهذه المائة الف صداقك ، فقالت يا ابن القرية ما سررت به اذ كان ولا جزعت عليه اذ بان وهذا المال بشارة لك لما جئتنا به ، فكان القول أشد على الحجاج من فراقها وذكروا أن عبد الرحمن بن ابى بكر الصديق رضى الله عنه كانت عنده عاتكة بنت زيد بن عمرو ابن نفيل فاحبها حباً شديداً فأمره أبوه بفراقها وان يطلقها تطليقة واحدة ففعل ثم ندم على فعله فقال

فلم أرَ مثلي طالَقَ اليومَ مثلها * ولا مثلَها فى غيرِ جُرْمٍ تُطلَّقُ
لها خُلُقٌ سهلٌ وحسنٌ ومنصبٌ * وخَلقٌ سويٌّ ما يُعابُ ومنطقُ
أعاتِكَ قلبي كلَّ يومٍ وليلةٍ * اليك بما تُخفي القلوبُ معلَّقُ
أعاتكَ ما أنساكِ ما ذرَّ شارقٌ * وما لاحَ نجمٌ فى السَّماءِ مُحلّقُ

فسمع ابو بكر ذلك فرق له وأمره بمراجعتها ، وعن على بن عبد الله قال : حدثنى أبى قال خرجت ومعى اعرابى ونبطى الى موضع يقال له بطياثا من أمصار دجلة متنزهين فأكلنا وشربنا فقال الاعرابى . قل بيت شعر فقلت

نلنا لذيذَ العيشِ فى بَطياثا

فقال الاعرابى لمّا حثثنا أقدُحا ثلاثا

فقال النبطى وامرأتي طالقٌ ثلاثا

ومازال يبكى حتى الصباح فقلت له ، ما يبكيك . فقال . ذهبت امرأتى بقافية ، قال اسحق بن ابراهيم الموصلى كنت انا والحسين بن الضحاك يوما عند المعتصم وحضرت قينة تعرض عليه فاعجب بها فقال للمدنيين كيف ترونها ، فقال احدهم . امرأته طالق ان كان رأى مثلها ، وقال آخر امرأته طالق ان لم ، وسكت فقال المعتصم . ان لم ، قال ، لا شيء ، فضحك وقال له ويحك ما دعاك الى طلاق اهلك بلا سبب . فقال يا أمير المؤمنين كلنا قد طلق امرأته بلا سبب . ومما قيل فى ذلك من الشعر

رحلتْ أميّةُ بالطلاقِ * ونجوتُ من رِقِّ الوثاق
بانتْ فلمْ يجزَعْ لها * قلبي ولم تدمَعْ ماقي
لو لمْ أرُحْ بفراقِها * لا رُحْتُ نفسي بالإباق

وخصيت نفسى لا أريد حليلة حتى التلاقى

وقال آخر

رأيت أثاثها فطمعت فيها * وقد نصبت لغيرك بالاثاث
فطلقها وعد النفس عنها * سريعا إن نفسك فى التوات
والا فالسلام عليك إنى * سآخذ من غدٍ لك فى المراثى

(محاسن وفاء النساء)

قال الكسروى كتب بلاش بن فيروز الى ملك الهند يخطب ابنته فلم ينعم له ورد رسوله خائبا فتجشم وسار اليه فى خيله ورجله فلما اصطفت الخيلان دعاه بلاش الى المبارزة وقال انه عار على الملوك ان يوردوا جنودهم الهلاك ويفوزوا بأنفسهم فبرز اليه ملك الهند فاختلفت بينهما ضربتان قنعت بلاشا حصانة درعه وضرب بلاش الهندى على عاتقه فقطع حبله حتى انتهى السيف الى سندوته فخر ميتا وانهزمت خيله فافتتح بلاش مدينته وأمر ثقاته فاحدقوا بقصر ابنة الملك فلما احتوى على أمواله بعث الى ابنة الملك ان تأتيه فقالت للرسول وهى تبكى : قل للملك المزين بالحلم المحبب فى رعيته السعيد بالظفر انك قد ملكتنى وصرت ممن يستحق عطفك ورأفتك فان رأيت ان تطيب نفسا عن النظر الى حتى ترجع الى دار مملكتك فافعل ، فانصرف الرسول الى بلاش فاخبره فاجابها الى ما سالت وسار وحملها حتى قدم دار المملكة فهيا لها مقصورة مفردة عن سائر حرمه فانزلها فيها وأمر لها بعتيق الديباج وفاخر الجوهر واسفاط من الذهب والصلاة والجوائز والاثاث مالم يامر لغيرها من نسائه واستاذنها فى الدخول عليها فاذنت له فدخل عليها وأقام عندها سبعة أيام ولياليها اعجابا منه بها لا يحير اليها جوابا ولا يخف عن صدر مجلسها فخرج من عندها اليوم الثامن وقد وقع فى قلبه ما أظهرت من خفة مجلسه عليها ولبثت أشهرا لا يدخل عليها فقالت يوم لحاضنتها ما أعجب أمر الملك بذل دمه فى طلبى حتى اذا ظفر بى سلا عنى انطلقى حتى تسالى عن عدة نسائه وأين أكرم عليه وأتينى بعلم ذلك ، فانطلقت حتى عرفت ذلك وانصرفت فقالت انى وجدت له أربعمائة امرأة ما بين أمة وحرة وليس فيهن أكرم عليه من ابنة سائس من سواسه أعجبته فتزوجها فقالت انطلقى اليها واقرئيها منى السلام واعلمها انى أريد مؤاخاتها والانقطاع اليها فانطلقت الحاضنة الى ابنة السائس فابلغتها رسالة مولاتها فقالت لها اقرئيها منى السلام واعلميها انى قد أحببتها وأجبتها الى ما سالت فتصير الى فانصرفت فاخبرتها بما قالت فتهيأت باحسن هيئة وأقبلت اليها ودخلت عليها فرفعت مجلسها وأقبلت عليها فذكرت حبها لها ورغبتها فى مواصلتها فردت عليها ابنة السائس أحسن الرد وأعلمتها سرورها

بذلك ثم تحدثا ساعة وانصرفت وجعلت الهندية تاتيها غبا وتظهر الانس بها فلما أنست بها قالت لها . انت قد استلبت قلب الملك وقهرت جميعنا بفضلك وليس لواحدة منا نصيب فاعلمينا الامر الذى فضلتينابه لنزداد سرورا بما أوتيت ومحبة لك والانقطاع اليك ، قالت انى لما عرفت ضعف نسبى وقلة جمالى علمت انه لا يرجع الملك منى الى شىء احظى به عنده مثل المؤاتاة فى الخلوة وان أبسطه اذا هم بالحركة واستميل قلبه باللطف وفضل الخدمة فلما رآنى على ذلك مستمرة ورأى من سائر نسائه أنفة الاكفاء وزهو الجمال وخيلاء الملك وعلمت انى ان أخذت ما أخذنه مع خمول نسبى وقلة جمالى ودقة خطرى لا يليق بى مثل الذى يليق بهن ففضلنى على جميع نسائه بذلك ، فلما سمعت ابنة الملك ذلك علمت ان قلوب الرجال لا تستمال الا بالمؤاتاة وسرعة الاجابة فى الباه عند المشغلة فعزمت أن تجعل ذلك عدة لاستعطاف قلب الملك فانصرفت الى قصرها وقالت لبعض جوار يها اذهبى الى فلانة — تعنى ابنة السائس — فان رأيت الملك عندها فاعلميها انى عليلة من وجع عرض لى فانطلقت الجارية فاذا الملك عندها فأخبرتها بذلك فرق الملك لها وذكر غربتها وقتله أباها فقال لابنة السائس : مرينى فى اتيانها ، فقالت أيها الملك انه ليس فى نسائك من لها عندى مثل منزلتها فصر اليها فانها غريبة قد فارقت أهلها وهى فى موضع رحمة . فقام الملك حتى دخل عليها وانتهى الى باب مجلسها فقامت اليه تمشى باحسن هيئتها متكسرة فى حليها وزينتها عبقة بطيبها وعطرها فقبلت بين عينيه وأخذت بيده حتى أجلسته فى صدر فراشها وجعلت تقبل يديه ورجليه ضاحكة اليه مظهرة السرور به فجذبها الى نفسه ودعاها الى المضاجعة فأتته ولم يرد فى الخلوة شيئا الا أجابته اليه فلما قضى حاجته نازعها الى المحادثة فقال . أين ما ذكر رسولك من شدة وجعك ، قالت : ياسيدى كنت متوجعة لفراقك حتى شفانى لقاؤك وقلت ذلك لما نالنى من تباريح الشوق اليك وطول صدودك وسلوتك ثم أخذ معها فى المداعبة وأقام عندها سبعة أيام فبينما هما يتلاعبان ويتذاكران ويتعانقان اذ دخلت جارية لابنة السائس فحيت الملك بتحية الملوك ثم قالت للهندية ان سيدتى — تعنى ابنة السائس — تقول قد اجتمع فيك ثلاث خصال الاولى الغدر بمعلمتك والثانية فضل تطاولك والثالثة كفران النعمة للمنعم وانى عن قريب رادتك من الملك الى غصص الغيظ ، فأفحمتها وهملت عيناها ونظرت الى الملك كالمستغيثة به ، فقال لها الملك ياحبيبتى ما تنكرين من أمتك قد وهبتها لك وجميع ما تملك ، فتجلى عنها غمها فقالت لرسولتها انطلقى اليها فاعلميها ان الملك قد وهبها وما تملك لى وقولى لها ارجعك نفسك الى لؤم حسبك واهمال ادبك ائتينى الساعة بصغار المذلة ورقة العبودية فلما أبلغها الرسول ذلك أقبلت فدخلت عليها فحيت الملك وقامت بين يديه . فقالت لها الهندية ما كان أعظم زهوك فى رسالتك ، قالت ياسيدتى أتأذنين لى فى الكلام ، قالت تكلمى ، قالت أيتها السيدة

لست متوجهة اليك بشىء هو أملك بك من حلمك ولا اعطف على من فضلك ولم يظلم من رفع فوقى من هو أفضل منى وكل فرع يرجع الى أصله وكل زهر ينسب الى سنخه ، فقالت صدقت فدعى عنك كلام الادب فقد ملكتك على رغم أنفك وأنا من وجعلك من فلان خادمى فليس لك فضل عليه قالت ابنة السائس من اعتاد معالى الامور لم تطب نفسه باسفلها ومن صاحب العظماء أبت غريزته الادنياء وانما رقبت عطفك ورجوت حسن نظرك فأما اذا عزمت على هذا فقد طاب الموت وما الذى أستبقى منك ثم قالت أيها الملك ان جذل المسرة منك لا يستقر ويقع موقعه الا بعد فى المخالفة عندك فاحترس من هذه الهندية فانها لا تؤمن عليك لانها ليست من جنسك فيعطفها عليك الرحم ولا من أهل مملكتك فتعرف تطولك عليها وانما هى شبيهة بموتورة قد قتلت أباها وهدمت عزها فاحترس منها ولا يلهينك موقعها من قلبك فانها متى احتالت فى قتلك لم يكن فى أيدينا من الظفر الا قتلها كما كان من أمر الثعلب وعظيم الطير . فقال الملك وما كان من حديثهما قالت يقال ان ثعلبا جاع فى ليلة فرقى شجرة ليأكل منها فسال الوادى الذى فيه تلك الشجرة بسيل شديد فاقتلعها والثعلب عليها ثم رفعها ووضعها حتى ألقى الثعلب الى أرض بعيدة من أرضه فاصبح وقد ألقاه السيل الى سفح جبل كثير الاشجار مثمر الاغصان وعلى تلك الاشجار جنس من الطير لا يحصى عددا فاقعى الى شجرة قصبا مقشعرا لا يعرف أرضه ولا يقدر على مؤالفة الدواب فمر به عظيم الطير فقال له ما أنت فقال أنا دابة سال بى السيل فالقانى فى جبلكم وقد أصبحت غريبا فقال له عظيم الطير فهل لك حرفة قال نعم اعرف الثمار اذا بلغت حد بلوغها وأصنع للطير أكنانا فى الارض تكن فيها فراخها من الحر والبرد فقال له عظيم الطير قد أدركت عندنا بغيتك فأقم عندنا نواسك ونعرف حق مجاورتك فقام الثعلب عند ملك الطير فكان يعرفهم الثمار المدركة ويحفر لهن بمخاليبه قبورا فى الارض يفرخن فيها وكان الثعلب اذا جن عليه الليل وقرم الى اللحم أدخل يده فى جحر من تلك الاجحرة فاخرج طيرا أو فراخه فاكله ودفن ريشه وجعلت الطير تتفقد ما كان يأكل واحد بعد واحد فقال بعضها لبعض ما فقدنا أفاضلنا الا منذ صارت هذه الدابة بين أظهرنا وما كانت هذه الطير تطيل الغيبة وما ندرى ما دهاها فقال لها عظيمها ان هذا حسد منكن لهذه الدابة فلا تغفلن ما أصبحتن فيه من فضل المطعم وما فيه فراخكن من هذه الاكنان التى لا يخاف عليها برد فيها ولا حر فقالت الطير انت سيدنا وأبصر بالامور منا قال وعلى ان اقطع هذا القول وأبين حق ذلك من باطله بنفسى فلما أظلم الليل نزل من الشجرة فدخل بعض تلك الاكنان وأقبل الثعلب على العادة التى اعتادها الى ذلك الكن فادخل يده فقبض على رأس الملك فقال الملك للثعلب لقد نصحتنى الطير لو قبلت نصحها قال الثعلب انت هو قال نعم قال ما ظننت

ان يبلغ من حمقك كل هذا قال ملك الطير دعني اردك في منزلتك بحسب ما رأيت من فضل علمك ولطيف حيلتك قال له الثعلب ان أبوي أدباني ان لا اعلق انيابي بشيء واتركه اذ ليس من جهلك ان لا تتجز أمن الثمار ومن الاكنان بما كان آباؤك يكتفون به ولم ترض حتى اختبرت أمري بنفسك ولم تجعل التغرير في ذلك بغيرك ثم أكله ودفن ريشه وفقدت الطير عظيمها فاستوحشت وضربت الثعلب ضربا بمخاليها ومناقيرها حتى قتلته ولم يصلن في عظم خطر ما كهن الى أكثر من قتل الثعلب فاحترس من هذه الهندية، قالت الهندية انما تقر عين المرأة بأربعة رجال بأبيها وأخيها وولدها وبعلها وأفضل النساء المختارة بعلها على جميع أهلها والمؤثرة له على نفسها فكيف بمن ذهب أبوها وأخوها فبقي بعلها أفتحب ان تهلكه على ان مثلك في رداءة همتك وخبث نيتك مثل الغراب والحمامة، قال الملك وما كان من حديثهما، قالت زعموا ان غرابا ألف مطبخا لبعض الملوك فأخذ من أطيب اللحمان التي قد صارت فيه شيئا فظنوا ان الغراب اخذه لقلة وفائه ولؤم جوهره فطردوه عن مطبخهم وقالوا ما برجوا من هذا الغراب وهو من الطيور التي تعاف ويتطير منها فأفشى ذلك الغراب امره الى حمامة قد كان بينهما معرفة وفزع الى رأيها وأخبرها ما كان فيه من نعيم المآكل والمشرب فقالت له الحمامة انطلق بي حتى تريني هذا المطبخ فانطلق حتى اتى سطح المطبخ فقالت الحمامة اني ارى هذا البيت ليس فيه موضع مدخل فاحفر لي بمنقارك قدر ما ادخل فان منقاري يضعف عن ذلك فنقر الغراب في سقف البيت بمنقاره حتى دخلت فيه الحمامة وتوسطت في البيت فأعجبهم حسن خلقها وصفاء لونها فجعل لها خازن المطبخ موضعا تأوي اليه فلبثت في ذلك البيت قريرة عين فناداها الغراب ما هكذا قدّرت فيك فقالت الحمامة لو وفيت لك حل بي غدرك وان القوم عرفوا وفائي وحسن جواري وعرفوا غدرك وقلة وفائك ونكث عهدك فهذا مثلي ومثلك يا ابنة السائس اني لو وفيت لك ارداني غدرك وقتلني مكرك، قالت ابنة السائس أيتها السيدة ان الذي سمعت مني كان لشدة الانفة فأردت ان أنفي عن نفسي الذي أردت من انكاحي خادمك فلانا، قالت الهندية لا بد من ذلك، فقالت ابنة السائس من اعتاد معالي الامور لم تطب نفسه باسافلها الآن استعذبت الموت فعمدت الى سم كان معها فقذفته في فيها فخرت ميتة ووفت الهندية لزوجها فافلحا، ومنهن شيرين امرأة ابرويز فان شيرويه بن ابرويز لما قتل أباه وتوطد له الملك بعث الى شيرين يدعوها الى نفسه فامتنعت عليه وأبت ان تجيبه الى ذلك فغصبها ضياعها وعقارها وذخائرها وأموالها وقذفها بكل فاحشة ورماها بكل معضلة فلما بلغها ذلك هان عليها ما أخذ من أموالها مع ما رماها به فبعثت اليه وقالت أيها الرجل ان لم يكن مما سألت بد فاقض لي ثلاث حوائج حتى أتابعك على ما تريد فقال وما هذه الحوائج قالت أحدها ان ترد علي ضياعي وأموالي والثانية ان تصعد منبرك بمحضر مرازبتك وأساورتك وعظماء أهل

مملكتك وتتبرأمما قذفتني به والثالثة ان أباك أودعني وديعة فتأمر ان يفتح لي باب الناووس حتى أردها عليه فاجابها الى ذلك وأمر بفتح باب الناووس لها ومعها خاتم وفيه سم ساعة فنثرته في فيها وعاتمت قبرز وجهافمات

﴿ ضـد ﴾

قيل ، كان لكسرى ابرويز خال يقال له بسطام فخالف على كسرى وجمع جمعاً كثيراً وواقع ابرويز فلما أعيت ابرويز الحيلة فيه دعا بكردي أخي بهرام جور ويقال ان كردياً كان غلاماً لله رباه وبلغ منه مبلغ الرجال وكان من خاصته والناصحين له فقال له قد ترى ما نزل بنا من هذا العدو بسطام وقد رأيت رأياان طابقتني عليه رجوت الظفر ، قال كردي وماذاك أيها الملك اخبرني فاني عزيز بك الله به عزاً ويزيد أعدائك به ذلا إلا بادرت اليه بنصح وصدق لعظم حقك ووجوب طاعتك ، قال له كسرى قد عرفت حال كردية اختك امرأة بسطام وجراءة قلبها وبسطام يأوي اليها كل ليلة اذا انصرف عن الحرب وأنا جاعل لها عهد الله وميثاقه وذمة انبيائه ان هي أراحتني من بسطام واحتالت لي في قتله ان اتزوجها واجعلها سيدة نسائي وابلغ في اكرامها والسمو بها أفضل ما بلغ ملك بامرأته ، قال كردي يا أيها الملك ما أشك في قدرتها عليه فاكتب اليها بخطك بما رأيت لا وجه في الكتاب اليها مع امرأتي ارجية فان لها عقلا ورفقا وبصيرة فكتب كسرى بخطه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هذا كتاب لكردية بنت بهرام جسنانسب كتبه لها كسرى ابرويز بن هرمز ان لك عندي عهد الله وذمته وذمة انبيائه ورسله ان أنت قتلت بسطام وارحتيني منه اتزوج بك وأجعلك سيدة نسائي وابلغ من كرامتك ما لا يبلغ ملك من الملوك لاحد وأشهد الله على ذلك وكفى بالله شهيداً وكتب كسرى بخطه وختمه بخاتمه يوم كذا من شهر كذا فسارت ارجية حتى دخلت عسكر بسطام كهيئة الزائرة لكردية بالنظر اليها وكان بينهما قرابة فلما جلست وسكنت دفعت اليها كتاب كسرى وقالت لها يا ابنة عم اجيبي الملك الى ما سالك واغنمي بذلك الرجوع الى وطنك فرغبت لشدة شوقها الى أهلها فاجابتها الى ذلك وانصرفت ارجية الى عسكر كسرى وعرفت زوجها ما كان بينها وبين كردية فضى كردي الى كسرى فاعلمه ثم ان بسطام دخل على كردية فاتته بعشاء فتناول منه ثم أتته بشراب فسقته وجعلت تحدثه وتظهر له المحبة حتى مضى ثلث الليل فنام بسطام فلما استثقل نوما قامت اليه كردية بسيفها فوضعته على ثندؤته ثم اتكأت فاخرجته من ظهره فمات وعمدة من ساعتها الى دوابها فحملت حشمها وأثقالها على البغال وخرجت نحو عسكر كسرى وقد كانت وجهت مع أرجية الى أخيها أن يجلس لها على الطريق فلما وافته سار معها حتى أدخلها على

كسرى ففرح بذلك فرحاً شديداً فلما أصبح أصحاب بسطام ورأوه قتيلاً ولوا هاربين على وجوههم ثم انصرف كسرى الى المدائن فاتخذ لكردية تاجاً مكللاً بالدر وصنوف الجوهر وأعد لها وليمة عظيمة دعا فيها جنوده فطعموا وشربوا ثم دعا كرديا أخاها فزوجه اياها ومهرها وأعطاها خاتماً فصه من الكبريت الاحمر يضيء في الليلة الظلماء كما يضيء السراج فلما دخل بها كسرى ونظر الى جمالها وعقلها سربها وأعطاها الاموال واقطعها الضياع وأكرم أخاها كرديا وولاه أرض فارس وبلغ بها من رفعه اياها وتشريفه لها ما لم تبلغه امرأة قبلها ولا بعدها ثم ان كردية قالت لكسرى ياسيدي اخرج بنا الى الميدان لالعب بين يديك بالكرة والصولجان فخرج معها الى الميدان وخرجت امرأته شيرين وخواص نسائه ودعا بخيل فأسرجت وركبت وركب هو وجعلت تلاعبه بالصوالج وتناولت السيف وركضت في الميدان ولعبت بالسيف لعباً معجباً ثم أخذت الرمح فلعبت به فقالت شيرين أيها الملك ما يؤمنك من هذه الشيطانة . قال هيهات انها أعرف بحقنا وأشد حباً للناس من أن نخافها على أنفسنا . فلما نزلت قال كسرى . لنا في كل ربع من أرباع مملكتنا قائد في اثني عشر ألف امرأة وقد جعلتك قائدة عليهن . قالت . ياسيدي ما للنساء والفروسية وانما علينا أن نتزين لك ونتطيب ونسرك بأنفسنا وأردت بما كان مني سرورك وتسلية همومك فأمر كسرى بحمل طعامه وشرابه الى منزلها وبقي عندها أسبوعاً لم يخرج الى الناس ولم يأذن لاحد بالدخول عليه ثم خرج من عندها الى منزل شيرين فاتاه صياد بسمكة عظيمة فاعجب بها وأمر له باربعة آلاف درهم . فقالت له شيرين . أمرت لصياد باربعة آلاف درهم فان أمرت بها لرجل من الوجوه قال انما أمر لي بمثل ما أمر للصياد فقال كيف اصنع وقد امرت له . قالت . اذا أتاك فقل له اخبرني عن السمكة أذكر هي ام انثى فان قال انثى فقل لا تقع عيني عليك حتى تاتيني بالذكر وان قال ذكر فقل مثل ذلك فلما غدا الصياد على الملك قال له اخبرني عن السمكة اذكر هي أم انثى . قال بل . انثى . قال . فاتني بذكرها . فقال عمر الله الملك انها كانت بكراً لم تتزوج بعد . قال الملك . زه زه وأمر له باربعة آلاف درهم وأمر ان يكتب في ديوان الحكمة . ان الغدر ومطاوعة النساء يورثان الغرم قال وكان الموبذان إذا دخل على كسرى قال . عشت أيها الملك بسعادة الجد ورزقت على أعدائك الظفر وأعطيت الخير وجنبت طاعة النساء . فغاظ ذلك شيرين وكانت أجمل نساء عصرها وأتمهن عقلاً فقالت لكسرى . أيها الملك ان هذا الموبذان قد طعن في السن ولست مستغنياً عن رأيه ومشورته وقد رأيت لحاجتك اليه ان اهب له مسكدانة جاريتي وقد عرفت عقلها وجمالها فان رأيت أن تساله قبولها فافعل . فكلم كسرى الموبذان في ذلك . فهش للجارية لمعرفته بجمالها وفضلها

مملكتك وتتبرأ مما قذفتني به والثالثة ان أباك أودعني وديعة فتأمر ان يفتح لي باب الناووس حتى أردها عليه فاجابها الى ذلك وأمر بفتح باب الناووس لها ومعها خاتم وفيه سم ساعة فنثرته في فيها وعانقت قبر زوجها فماتت

﴿ ضده ﴾

قيل كان لكسرى ابرويز خال يقال له بسطام نخالف على كسرى وجمع جمعاً كثيراً وواقع ابرويز فلما أعيت ابرويز الحيلة فيه دعا بكردى أخي بهرام جور ويقال ان كردياً كان غلاماً الدرباء وبلغ منه مبلغ الرجال وكان من خاصته والناصحين له فقال له قد نرى ما نزل بنا من هذا العدو بسطام وقد رأيت رأياً ان طابقتني عليه رجوت الظفر قال كردى وماذاك أيها الملك اخبرني فاشيء يعز يدك الله به عزاً ويزيد أعدائك به ذلاً الا بادرت اليه بنصح وصدق لعظيم حقك ووجوب طاعتك قال له كسرى قد عرفت حال كردية اختك امرأة بسطام وجراءة قلبها وبسطام يأوى اليها كل ليلة اذا انصرف عن الحرب وأنا جاعل لها عهد الله وميثاقه وذمة انبيائه ان هي أراحتني من بسطام واحتالت لي في قتله ان اتزوجها واجعلها سيدة نسائي وابلغ في اكرامها والسمو بها أفضل ما بلغ ملك بامرأته قال كردى يا أيها الملك ما أشك في قدرتها عليه فاكتب اليها بخطك بما رأيت لا وجه في الكتاب اليها مع امرأتي ارجية فان لها عقلا ورفقا وبصيرة فكتب كسرى بخطه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هذا كتاب لكردية بنت بهرام جسناسب كتبه لها كسرى ابرويز بن هرمز ان لك عندى عهد الله وذمته وذمة انبيائه ورسله ان أنت قتلت بسطام وارحتيني منه اتزوج بك وأجعلك سيدة نسائي وابلغ من كرامتك ما لا يبلغ ملك من الملوك لاحد وأشهد الله على ذلك وكفى بالله شهيداً وكتب كسرى بخطه وختمه بخاتمه يوم كذا من شهر كذا فسارت ارجية حتى دخلت عسكر بسطام كهيئة الزائرة لكردية بالنظر اليها وكان بينهما قرابة فلما جلست وسكنت دفعت اليها كتاب كسرى وقالت لها يا ابنة عم اجيبي الملك الى ما سالك واغنمي بذلك الرجوع الى وطنك فرغبت لشدة شوقها الى أهلها فاجابتها الى ذلك وانصرفت ارجية الى عسكر كسرى وعرفت زوجها ما كان بينها وبين كردية فمضى كردى الى كسرى فاعلمه ثم ان بسطام دخل على كردية فاتته بعشاء فتناول منه ثم أتته بشراب فسقته وجعلت تحدثه وتظهر له المحبة حتى مضى ثلث الليل فنام بسطام فلما استثقل نوما قامت اليه كردية بسيفها فوضعته على ثندؤته ثم اتكأت فاخرجته من ظهره فمات وعمدة من ساعتها الى دوابها فحملت حشمها وأثقالها على البغال وخرجت نحو عسكر كسرى وقد كانت وجهت مع أرجية الى أخيها أن يجلس لها على الطريق فلما وافته سار معها حتى أدخلها على

كسرى ففرح بذلك فرحا شديداً فلما أصبح أصحاب بسطام و رأوه قتيلا ولوا هاربين على وجوههم ثم انصرف كسرى الى المدائن فاتخذ لكردية تاجاً مكللا بالدر وصنوف الجوهر وأعد لها وليمة عظيمة دعا فيها جنوده فطعموا وشربوا ثم دعا كرديا أخاها فزوجه اياها ومهرها وأعطاها خاتماً فصه من الكبريت الاحمر يضيء في الليلة الظلماء كما يضيء السراج فلما دخل بها كسرى ونظر الى جمالها وعقلها سر بها وأعطاها الاموال واقطعها الضياع وأكرم أخاها كرديا وولاه أرض فارس و بلغ بها من رفعة اياها وتشريفه لها ما لم تبلغه امرأة قبلها ولا بعدها ثم ان كردية قالت لكسرى ياسيدي اخرج بنا الى الميدان لالعب بين يديك بالكرة والصولجان فخرج معها الى الميدان وخرجت امرأته شيرين وخواص نسائه ودعا بالخيل فأسرجت وركبت وركب هو وجعلت تلاعبه بالصوالج وتناولت السيف وركضت في الميدان ولعبت بالسيف لعباً معجباً ثم أخذت الرمح فلعبت به فقالت شيرين أيها الملك ما يؤمنك من هذه الشيطانة ، قال هيهات انها أعرف بحقنا وأشد حباً لنا من أن نخافها على أنفسنا ، فلما نزلت قال كسرى . لنا في كل ربع من أرباع مملكتنا قائد في اثني عشر ألف امرأة وقد جعلتك قائدة عليهن ، قالت . ياسيدي ما للنساء والفروسية وانما علينا أن نتزين لك ونتطيب ونسرك بأنفسنا وأردت بما كان مني سرورك وتسلية همومك فأمر كسرى بحمل طعامه وشرابه الى منزلها وبقي عندها أسبوعا لم يخرج الى الناس ولم يأذن لاحد بالدخول عليه ثم خرج من عندها الى منزل شيرين فأتاه صياد بسمكة عظيمة فاعجب بها وأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت له شيرين . أمرت لصياد بأربعة آلاف درهم فان أمرت بها لرجل من الوجوه قال انما أمر لي بمثل ما أمر للصياد فقال كيف اصنع وقد امرت له ، قالت . اذا أتاك فقل له اخبرني عن السمكة أذكر هي ام انثى فان قال انثى فقل لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بالذكر وان قال ذكر فقل مثل ذلك فلما غدا الصياد على الملك قال له اخبرني عن السمكة أذكر هي أم انثى . قال بل . انثى . قال . فأتني بذكرها . فقال عمر الله الملك انها كانت بكراً لم تتزوج بعد . قال الملك . زه زه وأمر له بأربعة آلاف درهم وأمر ان يكتب في ديوان الحكمة . ان الغدر ومطاوعة النساء يورثان الغرم قال وكان الموبذان إذا دخل على كسرى قال . عشت أيها الملك بسعادة الجد ورزقت على أعدائك الظفر وأعطيت الخير وجنبت طاعة النساء . فغاظ ذلك شيرين وكانت أجمل نساء عصرها وأتمهن عقلا فقالت لكسرى ، أيها الملك ان هذا الموبذان قد طعن في السن ولست مستغنياً عن رأيه ومشورته وقد رأيت لحاجتك اليه ان اهب له مسكدانة جاريتي وقد عرفت عقلها وجمالها فان رأيت أن تساله قبولها فافعل . فكلم كسرى الموبذان في ذلك . فهش للجارية لمعرفته بجمالها وفضلها

فقال . قدقبلتها أيها الملك لايثارها إياى بافضل جواريها . فقالت شيرين لمسكدانة . انى اريد ان تاتى هذا الشيخ فتبدى له محاسنك وتجيدى خدمته فاذاهش لمضاجعتك فامتنعى عليه حتى توكفيه وتركبيه وتعلميني الوقت الذى يتهيأ لك ذلك حتى لا يعودان يزيد فى تحية الملك ـ ووقيت طاعة النساء ـ فقالت مسكدانة ، افعل ياسيدتى ، ثم انطلقت الى الشيخ فصارت عنده فى داره التى يحلها من قصر الملك فجعلت تخدمه وتبره وتظهر له الكرامة وهى مع ذلك تبرز له محاسنها وتكشف له عن صدرها ونحرها وتبدى له ساقيها وفخذيها فارتاح المو بذان وشرح صدره لمضاجعتها فجعلت تمتنع عليه فيزداد فى ذلك حرصاً فلما الح عليها قالت له . أيها القاضى ما انا بمجيبتك الى ما سالت حتى اوكفك واركبك فان اجبتنى الى ذلك صرت طوع يدك فيما تريدو يدعواليه من مسرتك فامتنع عليها اياما وبقيت تتزين له بزينتها وتكشف له عن محاسنها حتى عيل صبره فقال لها . افعلى ما احببت ، فهيأت له برذعة صغيرة وإكافاً صغيراً وحزاما وثفراً واقامته عريانا على اربع ووضعت على ظهره البرذعة والاكاف وجعلت الثفر تحت خصيتيه وهى قائمة وركبته وهى تقول خرخر وارسلت الى سيدتها شيرين لتعلمها بذلك فقالت شيرين للملك . اصعد بنا الى ظهر بيت المو بذان لننظر من الروزنة ما يكون بينه وبين الجارية فصعدا ونظرا فاذاهى قدركبته فوق الاكاف فناداه كسرى ويحك اى شئ هذا فرفع المو بذان راسه ونظر الى الروزنة ورأى الملك فقال هو ما كنت اقول لك فى اجتناب طاعة النساء فضحك كسرى وقال قبحك الله من شيخ وقبح مستشيرك بعد هذا ، حديث الزباء . ومنهن الزباء واسمها هند وملكت الشام بعد عمها الضنور وكان جذيمة الابرش قتل عمها فبعث اليها جذيمة يخطبها فاظهرت البشر والسرور لرسوله وكتبت اليه بالقدوم عليها التزوجه نفسها فاستشار نصحاءه فقالوا ايها الملك ان تزوجت بها جمعت ملك الشام وملك الجزيرة الى ملكك فاستخلف ابن اخيه عمرو بن عدى وسار فى الف فارس من خاصته فلما انتهى الى مكان يسمى بقة وهو حد مملكتها ومملكته نزل فى ذلك المكان واستشار اصحابه ايضاً فى المصير اليها والانصراف فزينوا له الالمام بها وقالوا انك ان انصرفت من ههنا أنزله الناس منك على جبن ووهن فدنا منه مولى له يقال له قصير بن سعد فقال له ايها الملك لا تقبل مشورة هؤلاء وانصرف الى مملكتك حتى يتبين لك امرها فانها امرأة موتورة ومن شان النساء الغدر فلم يحفل بقوله ومضى حتى اقتحم مملكتها فقال قصير ـ ببقة حُرِم الامر ـ ثم أرسلها مثلا ، فلما بلغ المراة قدومه عليها امرت جنودها فاستقبلت الملك فقال قصير ايها الملك انى رايت جنودها لم يترجلوا لك كما يترجل للملوك ولست آمن عليك فاركب العصا وانج بنفسك والعصا كانت فرساً لجذيمة لا يشق غبارها ـ فلم يعبأ جذيمة بقوله وسار حتى دخل المدينة وامرت هند الزباء باصحابه ان ينزلوا فانزلوا واخذت منهم

اسلحتهم ودوابهم واذنت لجذيمة فدخل عليها وهي في قصرها ولم يكن معها في قصرها الا الجواري فاومات اليهن بان ياخذنه واجتمعن عليه ليكتفنه فامتنع عليهن فلم يزلن يضربنه بالاعمدة حتى اثخنه وكتفنه ثم دعت بنطع فاجلسته فيه وكشفت عن عورتها فنظر جذيمة فاذا لها شعرة وافية فقالت كيف ترى عروسك أشوار عروس أم ماترى قال أرى بظرا ناتئا ونبتا فاشيا ولا أعلم ماوراء ذلك . قالت إماانه ليس من عدم المواسي ولا القلة الاواسي ولكنه شيمة من أناسي ثم أمرت به فقطعت عروقه فجعلت دماؤه تشخب في النطع فقالت لا يحزنك ماترى فانه دم هراقه أهله فارسلتها مثلا ، واحتال قصير للعصا حتى وصل اليها وركبها ثم دفعها فجعلت تهوى به كانها الريح وكان المكان الذي قصد فيه جذيمة مشرفا على الطريق فنظر جذيمة اليه وقد دفع الفرس فقال : لله حزم على رأس العصا فلم تزل دماؤه تشخب حتى مات ، ثم أمرت بأصحابه فقتلوا باجمعهم وكان عمرو بن عدي يركب كل يوم من الحيرة فيأتي طريق الشام يتجسس عن خبره وحاله فلم يبلغه أحد خبره فبينا هو ذات يوم في ذلك اذ نظر الى فرس مقبل على الطريق فلما دانا منه عرف الفرس وقال : ياخير ماجاءت به العصا فذهبت مثلا فلما دانا منه قصير قال له : ماوراءك قال قتل خالك وجنوده جميعا فاطلب بثارك ، قال . وكيف لي بها وهي أمنع من عقاب الجو ، فذهبت مثلا ثم ان قصيرا أمر بانف نفسه فجدع ثم ركب وسار نحو الزباء فاستأذن عليها فقيل لها ان مولى لجذيمة وقهرمانه وأكرم الناس عليه قد أتاك مجدوعا فاذنت له فدخل عليها فقالت ، من صنع بك هذا ، قال أيتها الملكة هذا فعل عمرو بن عدي اتهمني وتجنى على الذنوب وزعم اني أشرت على خاله بالمصير اليك حتى فعل بي ماترين ولم آمنه ان يقتلني فخرجت هاربا اليك وقد أتيتك لاكون معك وفي خدمتك ولي جداء وعندي غناء ، قالت . نعم اقم فعندي لك ماتحب وولته نفقتها فخف لها ورأت منه الرشاقة فيما أسندته اليه فاقام عندها حولا ثم قال لها . أيتها الملكة ان لي بالعراق مالا كثيرا فاذا أذنت لي في الخروج لحمله فافعلي فدفعت اليه مالا كثيرا وأمرته ان يشتري لها ثيابا من الخز والوشي ولآلئ وياقوتا ومسكا وعنبرا والنجوجا فانطلق حتى أتى عمرا فاخبره فاخذ منه ضعف مالها وانصرف نحوها فاسترخصت ماجاء به وردته الثانية والثالثة فكان ياخذ في كل مرة مثل أضعاف مالها فيشتري جميع ماتريد فتسترخصه ووقع قصير بقلبها فاستخلفته ثم بعثته في الدفعة الرابعة بمال عظيم وأمرته ان يشتري أثاثا ومتاعا وفرشا وآنية فانطلق الى عمرو فقال . قد قضيت ماعلي وبقي ماعليك ، فقال وما الذي تريد ، قال اخرج معي في الفي فارس من خدمك وكونوا في أجواف الجواليق على كل بعير رجلان فانتخب عمرو ألفي فارس من أصحابه فخرج وخرج جوامعه في الجواليق كل رجل بسيف وكان يسير النهار فاذا أمسى الليل فتح الجواليق ليخرجوا ويطعموا ويشربوا ويقضوا احوائجهم حتى اذا كان بينه وبين مدينتها مقدار ميل تقدم قصير حتى دخل عليها

وقال . أيتها الملكة اصعدى على القصر لتنظرى ما أتيتك به ، فصعدت فنظرت الى ثقل الاحمال على الجمال فقالت

مالِلجِمالِ مشيُها وئيدا * أجندلاً يحملن أمْ حديدا

أمْ صرفاناً بارداً شديدا

فأجابها قصير سراً وقال

بلِ الرِّجالَ جُثَّماً قُعودا

فقال . لما عليها من المتاع الثقيل النفيس فامرت بالاحمال فادخلت قصرها وكان وقت المساء فقالت . اذا كان غدا نظرنا الى ما أتيتنا به ، فلما جنَّ عليهم الليل فتحوا الجواليق وخرجوا فقتلوا جميع من فى القصر وكان لها سرب قد أعدته للفزع والهرب ان حل بها روع تخرج الى الصحراء وقد كان قصير عرف ذلك المكان و وصفه لعمرو فبادر عمرو الى السرب فاستقبلته الزباء فولت هاربة نحو السرب فاستقبلها بالسيف فمصت فصها وكان مسموما وقالت بيدى لا بيدك يا عمرو ولا بيد العبد ، فقال عمرو يده و يدى سواء وفى كليهما اشفاء وضربها بسيفه حتى قتلها واقبل قصير حتى وقف عليها فجعل يدخل سيفه فى فرجها و يقول

ولو رأونى وسيفى يومَ أُدخِلُهُ * فى جوفِ زبَّاءَ ماتوا كلهمْ فرحا

وغنم عمرو وأصحابه من مدينتها أموالا جليلة وانصرفوا الى الحيرة فكان الملك بعد خاله جذيمة وعمرو وهذا هو جد النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدى ، ومنهن صاحبة الجعد بن الحسين أبى صخر بن الجعد وكان جعد قد طعن فى السن وكان يكنى أبا الصموت وكانت له وليدة سوداء فقالت يا أبا الصموت زعم بنوك ان يقتلونى اذا أنت مت قال ، ولم ذاك قالت مالى اليهم ذنب غير حبك فاعتقنى فاعتقها فبقيت يسيرا ثم قالت يا أبا الصموت هذا اعرابية من اهل عدن يخطبنى قال ما كان هذا ظنى بك قالت انما أريد ماله لك فقال ائتنى به فجاءت به فزوجها منه فولدت منه وقربته من مال جعد وكانت تأتى الجعد فتخضب رأسه ثم قطعته فقال الجعد

أبلغْ لديكَ بنى عمرٍ مُغلغلةً * عوفاً وعمراً فما قولى بمردودِ

بأنَّ بيتيَ أمسى فوق داهيةٍ * سوداءَ قدْ وعدتنى شرَّ موعودِ

تغطى غُرابةَ بالكفين مُختضباً * منَ الخلوقِ وتُغطينى على العود

أمسى غُرابةُ ذامال وذا ولدٍ * منْ مالِ جعدٍ وجعدٌ غيرُ محمود

ومنهن . امرأة مروان بن الحكم وكانت ام خالد بن يزيد بن معاوية وهى ابنة هشام ابن عتبة فاراد مروان الخروج الى مصر فقال لخالد ، اعرنى سلاحك فاعاره فلما رجع قال له خالد ردّ على سلاحى فابى عليه وكان مروان فحاشا فقال له يا ابن الرطبة فجاء خالد الى امه فقال هذا

ماصنعت بى سبتنى على رؤس الملاوقال لى كيت وكيت قالت ، اسكت فانى اكفيك أمره فجاء مروان فرقد عندها فامرت جوار يها فطرحن عليه الشواذكين - يعنى الملاحف - ثم غططنه حتى قتلنه وخرجن يصحن: وا اميرالمؤمنيناه فدعا عبدالله بامرأة ابيه ليقتلها فقالت ان الذى يبقى عليك من العار اعظم من قتل ابيك: قال وماذاك قالت يقول الناس ان اباك قتلته امرأة فامسك عنها

﴿ محاسن مكر النساء ﴾

ذكروا ان الحجاج بن يوسف ارق ذات ليلة فبعث الى ابن القرية فقال: انى ارقت فحدثنى حديثا يقصر على طول ليلى وليكن من مكر النساء وفعالهن فقال اصلح الله الاميرذكروا ان رجلا يقال له عمرو بن عامر من اهل البصرة كان معروفا بالنسك والسخاء وكانت له زوجة يقال لها جميلة وله صديق من النساك فاستودعه عمرو الف دينار وقال .. ان حدثت بى حادثة ورايت اهلى محتاجين فاعطهم هذا المال فعاش ماعاش ثم دُعى فاجاب فمكثت جميلة بعده حينا ثم ساءت حالها وامرت خادمتها يوما ببيع خاتمها الغداء يوم اوعشاء ليلة فبينا الخادمة تعرض الخاتم على البيع اذ لقيها الناسك صديق عمرو فقال ، فلانة ، قالت: نعم قال ماحاجتك ، فأخبرته بسوء الحال وما اضطرت اليه مولاتها من بيع خاتمها فهملت عيناه دموعا ثم قال ان لعمرو قبلى ألف دينار فاعلمى بذلك صاحبتك فاقبلت الجارية ضاحكة مستبشرة وهى تقول رزق حلال عاجل من كد مولاى الكريم الفاضل فلما سمعت مولاتها ذلك سألتها عن القصة فاخبرتها فخرت ساجدة وحمدت ربها وبعثت بالجارية الى الناسك فاقبل الناسك ومعه المال فلما دخل الدار كره أن يدفع المال الى أحد سواها فخرجت فلما نظر الى جمالها وكمالها أخذت بمجامع قلبه وفارقه النهى وذهب عنه الحياء وأنشأ يقول

قد سَـلَبْتِ الجِسْمَ والقلبَ معاً * وبَرَيتِ العظمَ مما تلحظين

فازدُدِى قلبَ عميدٍ واقبلى * صِلةَ الضعفين مما ترتجين

فاطرقت جميلة لقوله طويلا ثم قالت ويحك ألست المعروف بالنسك المنسوب الى الورع قال بلى ولكن نور وجهك سل جسمى فتداركينى بكلمة تقيمين بها أودى فهذا مقام اللائذ بك قالت أيها المرائى المخادع اخرج عنى مذموما مدحورا فخرج عنها وقد هام قلبه واضحت جميلة تعمل الحيلة فى استخراج حقها فاتت الملك ترفع اليه ظلامتها فلم تصل اليه فاتت الحاجب فشكت اليه فاعجب بها إعجابا شديدا وقال . ان لوجهك صورة ارفعها عن هذا ولا يجمل بمثلك الخصومة فهل لك فى ضعفى مالك فى ستر ورفق فقالت سوأة لامرأة حرة تميل الى ريبة فانصرفت الى صاحب الشرطة فانهت ظلامتها اليه فاعجب بها وقال ان حجتك على الناسك لاتقبل الا بشاهدين عدلين وأنا مشترخصومتك ان انت نزلت عند مسرتى فانصرفت عنه الى القاضى فشكت اليه

وقال . أيتها الملكة اصعدى على القصر لتنظرى ما أتيتك به ، فصعدت فنظرت الى ثقل الاحمال على الجمال فقالت

مالِلجِمالِ مشيُها وئيدا * أجَندلاً يحملن أم حديدا
أم صرفاناً بارداً شديدا

فأجابها قصير سراً وقال

بل الرِجالَ جُثَّماً قعودا

فقال . لما عليها من المتاع الثقيل النفيس فامرت بالاحمال فادخلت قصرها وكان وقت المساء فقالت . اذا كان غداً نظرنا الى ما أتيتنا به ، فلما جنّ عليهم الليل فتحوا الجواليق وخرجوا فقتلوا جميع من فى القصر وكان لها سرب قد أعدته للفزع والهرب ان حل بها روع تخرج الى الصحراء وقد كان قصير عرف ذلك المكان ووصفه لعمرو فبادر عمرو الى السرب فاستقبلته الزباء فولت هاربة نحو السرب فاستقبلها ابالسيف فمصت فصها وكان مسموما وقالت بيدى لا بيدك يا عمرو ولا بيد العبد ، فقال عمرو بيده ويدى سواء وفى كليهما اشفاء وضربها بسيفه حتى قتلها واقبل قصير حتى وقف عليها فجعل يدخل سيفه فى فرجها ويقول

ولو رأونى وسيفى يومَ أُدخِلُهُ * فى جوفِ زبَّاءَ ماتوا كلهم فرحا

وغنم عمرو وأصحابه من مدينتها أموالا جليلة وانصرفوا الى الحيرة فكان الملك بعد خاله جذيمة عمرو وهذا هو جد النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدى ، ومنهن صاحبة الجعد بن الحسين أبى صخر بن الجعد وكان جعد قد طعن فى السن وكان يكنى أبا الصموت وكانت له وليدة سوداء فقالت يا أبا الصموت زعم بنوك ان يقتلونى اذا أنت مت قال ، ولم ذاك قالت مالى اليهم ذنب غير حبك فاعتقنى فاعتقها فبقيت يسيرا ثم قالت يا أبا الصموت هذا اعرابة من اهل عدن يخطبنى قال ما كان هذا ظنى بك قالت انما أريد ماله لك فقال ائتنى به فجاءت به فزوجها منه فولدت منه وقربته من مال جعد وكانت تأتى الجعد فتخضب رأسه ثم قطعته فقال الجعد

أبلغ لديكَ بنى عمرٍ مُغلغلةً * عوفاً وعمراً فما قولى بمردودِ
بأنَّ بيتيَ أمسى فوق داهيةٍ * سوداءَ قد وعدتنى شرَّ موعودِ
تغطى عُرابةَ بالكفين مُختضباً * منَ الخلوقِ وتُغطينى على العود
أمسى عُرابةُ ذا مالٍ وذا ولدٍ * من مالِ جعدٍ وجعدٌ غيرُ محمود

ومنهن . امرأة مروان بن الحكم وكانت ام خالد بن يزيد بن معاوية وهى ابنة هشام ابن عتبة فاراد مروان الخروج الى مصر فقال لخالد ، اعرنى سلاحك فاعاره فلما رجع قال له خالد ردّ على سلاحى فابى عليه وكان مروان فحاشا فقال له يا ابن الرطبة فجاء خالد الى امه فقال هذا

ماصنعت بى سبتنى على رؤس الملا وقال لى كيت وكيت قالت ، اسكت فانى اكفيك أمره فجاء مروان فرقد عندها فامرت جواريها فطرحن عليه الشواذكين - يعنى الملاحف - ثم غططنه حتى قتلنه وخرجن يصحن : وا امير المؤمنيناه فدعا عبد الله بامرأة ابيه ليقتلها فقالت ان الذى يبقى عليك من العار اعظم من قتل ابيك : قال وماذاك قالت يقول الناس ان اباك قتلته امرأة فامسك عنها

﴿ محاسن مكر النساء ﴾

ذكروا ان الحجاج بن يوسف ارق ذات ليلة فبعث الى ابن القرية فقال : انى ارقت فحدثنى حديثا يقصر على طول ليلى وليكن من مكر النساء وفعالهن فقال اصلح الله الامير ذكروا ان رجلا يقال له عمرو بن عامر من اهل البصرة كان معروفا بالنسك والسخاء وكانت له زوجة يقال لها جميلة وله صديق من النساك فاستودعه عمرو الف دينار وقال .. ان حدثت بى حادثة ورايت اهلى محتاجين فاعطهم هذا المال فعاش ما عاش ثم دعى فاجاب فمكثت جميلة بعده حينا ثم ساءت حالها وامرت خادمتها يوما ببيع خاتمها الغداء يوم او عشاء ليلة فبينا الخادمة تعرض الخاتم على البيع اذ لقيها الناسك صديق عمرو فقال ، فلانة ؟ قالت : نعم قال ما حاجتك ؟ فأخبرته بسوء الحال وما اضطرت اليه مولاتها من بيع خاتمها فهملت عيناه دموعا ثم قال ان لعمرو قبلى ألف دينار فاعلمى بذلك صاحبتك فاقبلت الجارية ضاحكة مستبشرة وهى تقول رزق حلال عاجل من كد مولاى الكريم الفاضل فلما سمعت مولاتها ذلك سألتها عن القصة فاخبرتها فخرت ساجدة وحمدت ربها وبعثت بالجارية الى الناسك فاقبل الناسك ومعه المال فلما دخل الدار كره أن يدفع المال الى أحد سواها فخرجت فلما نظر الى جمالها وكمالها أخذت مجامع قلبه وفارقه النهى وذهب عنه الحياء وأنشأ يقول

قد سلبتِ الجسمَ والقلبَ معاً * وبريت العظمَ مما تلحظين
فارددى قلبَ عميدٍ واقبلى * صِلةَ الضعفين مما ترتجين

فاطرقت جميلة لقوله طويلا ثم قالت ويحك ألست المعروف بالنسك المنسوب الى الورع قال بلى ولكن نور وجهك سل جسمى فتداركينى بكلمة تقيمين بها أودى فهذا مقام اللائذ بك قالت أيها المرائى المخادع اخرج عنى مذموما مدحورا فخرج عنها وقد هام قلبه واضحت جميلة تعمل الحيلة فى استخراج حقها فاتت الملك ترفع اليه ظلامتها فلم تصل اليه فاتت الحاجب فشكت اليه فاعجب بها إعجابا شديدا وقال : ان لوجهك صورة ارفعها عن هذا ولا يجمل بمثلك الخصومة فهل لك فى ضعفى مالك فى ستر ورفق فقالت سوأة لامرأة حرة تميل الى ريبة فانصرفت الى صاحب الشرطة فانهت ظلامتها اليه فاعجب بها وقال ان حجتك على الناسك لا تقبل الا بشاهدين عدلين وأنا مشترخصومتك ان انت نزلت عند مسرتى فانصرفت عنه الى القاضى فشكت اليه

فاخـذت بقلبه وكاد القاضي يجن اعجابابها وقال ياقرة العين انه لا يزهد فى أمثالك فهـل لك فى مواصلتى وغناء الدهر فانصرفت وباتت تحتال فى استخراج حقها فبعثت الجارية الى نجار فعمل لهـا تابوتا بثلاثة ابواب كل منهـم مفرد ثم بعثت الجارية الى الحـاجب ان ياتيها اذا اصبح والى صاحب الشرطة ان ياتيها ضحوة والى القاضى ان ياتيها اذا تعـالى النهار والى الناسـك ان ياتيها اذا انتصف النهار فاتاها الحاجب فاقبلت عليـه تحدثه فما فرغت من حديثها حتى قالت لهـا الجارية صاحب الشرطة بالباب فقالت للحاجب ليس فى البيت ملجأ الا هذا التابوت فادخل أى بيت شئت منه فدخل الحاجب بيتا من التابوت فأقفلت عليه ودخـل صاحب الشرطة فاقبلت جميلة عليه تضاحكه وتلاطفه فما كان باسرع من ان قالت الجارية القاضى بالباب فقال صاحب الشرطة اين أختبى فقالت لا ملجأ الا هذا التابوت وفيه بيتان فادخل أيهما شئت فدخل فاقفلت عليه فلما دخـل القاضى قالت مرحبا وأهلا وأقبلت عليـه بالترحيب والتاطيف فبيناهى كذلك اذ قالت الجارية الناسـك بالباب فقال القاضى ماذا ترين فى رده فقالت مالى الى رده سبيل قال وكيف الحيلة قالت انى مدخلتك هذا التابوت ومخاصمته فاشهد لى بمـا تسمع واحكم بينى وبينه بالحق قال نعم فدخل البيت الثالث فاقفلت عليه ودخل الناسك فقالت له مرحبا بالزائر الجانى كيف بدا لك فى زيارتنا قال شوقا الى رؤيتك وحنينا الى قربك قالت فالمال ماتقول فيه اشـهد الله على نفسك برده أتبع رأيك قال اللهم انى أشهدك ان لجميلة عنـدى الف دينار وديعة زوجها فلما سمعت ذلك هتفت بجاريتها وخرجت مبادرة نحو باب الملك فانهت ظلامتها اليـه فارسـل الملك الى الحاجب وصاحب الشرطة والقاضى فلم يقدر على واحد منهم فقعد لها وسألها البينة فقالت يشهد لى تابوت عندى فضحك الملك وقال يحتمل ذلك لجمالك فبعث بالعجلة فوضع التابوت فيها وحمل الى بين يدى الملك فقامت وضربت بيـدها الى التابوت وقالت أعطى الله عهـدا لتنطقن بالحق وتشهدن بما سمعت أو لاضرمنك نارا فاذا ثلاثة أصوات من جوف التابوت تشهد على اقرار الناسك لجميلة بالف دينار فكبر ذلك على الملك فقالت جميلة لم أجد فى المملكة قوما أوفى ولا أقوم بالحق من هؤلاء الثلاثة فاشهدتهم على غريمى ثم فتحت التابوت وأخرجت الثلاثة نفر وسألها الملك عن قصتها فاخبرته وأخذت حقها من الناسك فقال الحجاج : لله درها ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها . قال وكان يعقوب بن يحيي المدائنى ويحيي الكاتب كاتب سـهل بن رستم يتحدثان الى مهدية جارية سليمان بن الساحر فقال يعقوب يوما ليحيي أنا أشتهى ان أرى بطن مهدية فقال يحيي ماتجعل لى ان أنا احتلت لك بحيلة حتى تراه قال ماشئت قال برذونك هذا قال ، نعم ، قال ، فتوثق منه وأتى مهدية فقال لها كان لى برذون موافق فاره فنفق وأنت لوشئت لحملتنى على برذون فاره ، قالت ، انا افعل وأشتريه لك بما بلغ الثمن ، قال ، أنت قادرة عليه بغير الثمن ، قالت

كيف ذلك ، فاخبرها بالقصة فقالت ، قد حملك الله على البرذون وار بحك النظر الى بطن حسن فاذا كان غدا فتعال أنت و يعقوب فاجلسا فان سليمان يعبث بوصيفته فلانة كثيرا فاذا فعل ذلك وجئت أنا فقل أنت يامهدية لو علمت ماصنع فلان لقتلته ، قال ، نعم ، فلما جاءت مهدية قال لها ان أمر سليمان مع وصيفته اشنع مما قدر ينه ، فوثبت مستشيطة غضباً وقالت ، مثلك يا ابن الساحر يفعل هذا مرة بعد اخرى وشقة جيبها الى ان جاوزت أسفل البطن وهي قائمة فنظر الى بطنها فتاملناها ساعه وهي تشتم ابن الساحر فقام اليها يترضاها و يسكنها و يعقوب يقول وابرذوناه فاخذه منه يحيي ، وعن المساور قال كان عندنا بالاهواز رجل متاهل وكانت له ارض بالبصرة وكان في السنة يأتيها مرة أو مرتين فتزوج بها امرأة ليس لها إلا عم في الدار وكان يكثر الانحدار بعد ذلك الى البصرة فانكرت الاهوازية حاله فدست من يعرف خبره ثم احتالت و بعثت من أورد خط العم المرأة البصرية وسالت من كتب كتابا من عم البصرية الى زوجها على خطه بان ابنة أخ ، توفيت و يساله القدوم لاخذ ماخلفت ودست الكتاب مع انسان شبيه بالملاح فلما أتى بالكتاب خرج اليه فدفع الكتاب ولم يشك ان امرأته البصرية ماتت فقال لامرأته اجعلي لي سفرة قالت و لم قال اريد الخروج الى البصرة قالت وكم هذه البصرة قد رابني أمرك وما اشك ان هنالك لك امرأة فانكر ذلك فقالت ان كنت صادقا فاحلف بطلاق كل امرأة لك غيري فقال في نفسه تلك قد ماتت وليس علي ان احلف بطلاقها فارضى هذه فحلف لها بطلاق كل امرأة له سوى الاهوازية فقالت الاهوازية ياجارية هاتي السفرة فقد اغنانا الله عن الخروج قال وما ذلك قالت قد طلقت الفاسقة وقصت عليه القصة فعرف مكرها واقام

— مساوي مكر النساء —

وذكروا ان لقمان بن عاد صاحب لبد خرج يجول في قبائل العرب فنزل بحي من العماليق فبينا هو كذلك اذ ظعن القوم فظعن معهم فسمع بامرأة تقول لزوجها فلان لو حملت سفطي هذا حتى تجاوز به الثنية فان فيه من متاع النساء مالا بد لهن منه ولعل البعير يقع فيتكسر وذلك من لقمان بمنظر ومسمع فقال افعل فاحتمله على عاتقه فلما انحدر وجد بللا في صدره فشمه فاذا هو ريح بول قد جاء من السفط الذي على راسه ففتح السفط فاذا هو بغلام قد خرج منه يعدو ، فلما نظر لقمان قال يا احدى بنات طبق — و بنات الطبق ان تاتي الحية السلحفاة فتلتوي عليها فتبيض بيضة واحدة فتخرج منها حية شبرا أو نحوه لا تضرب شيئا الا أهلكته — فتبعه لقمان حتى خنقه فجاء به يحمله واجتمع الناس اليه وقالوا يا لقمان احكم فيما ترى فقال ردوا الغلام في السفط يكون له مثوى حتى يرى و يعلم ان العقاب فيما أتى وتحمله المرأة بفعلها حملوها ما حملت زوجها

شدوه عليها فان ذلك جزاء مثلها فعمدوا الى الغلام فشدوه فى السفط ثم شدوه فى عنق المرأة ثم تركوهما حتى ماتا ثم فارقهم لقمان فاتى قبيلة اخرى فنزل بهم فبيناهو كذلك اذ بصر بامرأة قد قامت عن بنات لها فسألت احداهن أين تذهبين قالت الى الخلاء ثم خرجت الى بيوت الحى فمارضها رجل فمضيا جميعاً ولقمان ينظر فوقع الرجل عليها وقضى حاجته منها فقالت المرأة هل لك ان أتماوت على أهلى فانما هو ثلاثة أيام أكون فى رجمى ثم تجىء فتستخرجنى فنتمتع فقال الرجل افعلى وكان اسمه الخلى وزوج المرأة اسمه الشجى فقال لقمان ـ ويل للشجى من الخلى فذهبت مثلا فلم تلبث المرأة الا أياما حتى تماوتت على أهلها وكان الميت منهم اذا مات تجعل فوقه الحجارة ولم تكن اذذاك قبور فلما كان اليوم الثالث جاءها خليلها فاخرجها وانطلق بها الى منزله وتحوّل الحى من ذلك المكان وخافت المرأة أن تعرف فجزّت شعرها وتركت لنفسها جمة فبيناهم كذلك اذخرج بنات المرأة فاذاهن بامرأة جالسة ذات جمة فقالت الصغرى أمى والله ، قالت الوسطى صدقت والله ، قالت المرأة كذبتما ما أنا لكما بأم ، قالت الكبرى صدقت والله لقد دفنا أمنا غير ذات جمة ما كان لامنا إلالمة ، قالت الصغرى هبك أنكرت أعلاها أما تعرفين أخراها فتعلقت بها فقالت الام صغراهن مرّاهن فذهبت مثلا واجتمع الناس وجاء زوج المرأة فارتفعوا الى لقمان فقالوا احكم بيننا فقال لقمان * عند جهينة الخبر اليقين *

فذهبت مثلا وكان يلقب بجهينة فقال لقمان للمرأة أخبرك أم تخبرينى ، قالت بل قل قال انك قلت لهذا انى متماوتة على أهلى فاذا دفنونى فى رجمى جئت فاستخرجتنى وأتنكر لهم فلا يعرفوننى فنتنعم ما بقينا فاعترفت المرأة فقيل للقمان احكم بيننا قال ارجموها كما رجمت نفسها فحفر لها حفرة وألقوها فيها ورجموها وكانت أول مرجومة فى العرب ثم ان زوجها تعلق بالخلى فقال يالقمان هذا فرق بينى وبين أهلى فقال لقمان لكل ذكرانثى ولكل اول آخر فرّق بينك وبين انثاك وتفرّق بين ذكره وبين انثيه فقطع ذكره فمات

﴿ محاسن الغيرة ﴾

روى انه اذا غير الرجل فى اهله او فى بعض مناكحه اومملوكته فلم يغر بعث الله جل اسمه اليه طيراً يقال له القرقفنة حتى يسقط على عارضة بابه ثم يمهله اربعين صباحا يهتف به إن الله غيور يحب كل غيور فان هو تغير وانكر ذلك والا طار حتى يسقط على راسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه فينزع الله منه روح الايمان وتسميه الملائكة الديوث ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء فان كانت المعاينة واللقاء كان الداء الذى لا دواء له . وروى إن امرأة ذات عقل ورأى حملت من فاجر فقيل لها فى ذلك فقالت قرب الوساد

وطول السواد . تريد قرب مضجعه منها وطول مسارته اياها ، وقال صلى الله عليه وسلم النساء حبائل الشيطان وقال سعيد ابن مسلم لان يرى حرمتي الف رجل على حال تكشف وهي لا تراهم احب إلي من ان ترى حرمتي رجلا مواجهة . وقيل لعقيل بن علفة الا تزوج بناتك فقال اجيعهن فلا ياشرن واعريهن فلا يظهرن فوافق احدى كلمتيه قول النبي صلى الله عليه وسلم . الصوم وجاء السيئة والاخرى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه . استعينوا عليهن بالعرى وغاية اموال الرجال وكسبهم وهمهم وما يملكون انما هو مصروف الى النساء فلو لم يكن الا ما يعد لهن من الطيب والحلى والكساء والفرش والآنية كان فى ذلك ما كفى ولو لم يكن الا الاهتمام بالحفظ والحراسة وخوف العار من خيانتهن والجناية عليهن لكان فى ذلك المؤونة العظيمة والمشقة الشديدة غير إن اولى الاشياء بالرجال حفظهن وحراستهن فليس شيء لهن اصلح من مباعدتهن عن الرجال وقمعهن بالعرى والجوع ومن حق الملوك ان لا يرفع احد من خاصتها وبطانتها رأسه الى حرمة لها صغرت ام كبرت فكم من فيل وطىء هامة عظيم وبطنه حتى بدت امعاؤه وكم من شريف وعزيز قوم قد مزقته السباع ونهشته وكم من جارية كريمة على قومها عزيزة فى اهلها قد أكلها حيتان البحر وطير الماء وكم من جمجمة كانت تصان وتعل بالمسك والبان قد القيت بالعراء وغيبت جثتها فى الثرى بسبب الحرم والخدم والغلمان ولم يات الشيطان احداً قط من باب حتى يراه بحيث من يهوى مستقيم اللحم والاعضاء هو أبلغ من مكيدته وأحرى أن يرى فيه أمنية من هذا الباب اذ كان من ألطف مكائده وأدق وساوسه وأجل تزايينه ، وقيل لابنة الخس لم زنيت بعبدك ولم تزن بحر قالت طول السواد وقرب الوساد . . وقيل لو أن أقبح الناس وجهاً وأنتنهم رائحة واظهرهم فقرا واسقطهم نفساً وأوضعهم حسباً قال لامرأة تمكن من كلامها ومكنته من سمعها : والله يا مولاتى لقد أسهرت ليلى وأرقت عيني وشغلتني عن مهم أمرى فما أعقل أهلا ولا ولدا ولو كانت أبرع الناس جمالا وأكملهم كمالا وأملحهم ملاحة وان كانت عينه تدمع بذلك ثم كانت تكون مثل أم الدرداء أو معاذة العدوية أو رابعة القيسية لمالت اليه وأحبته ومنها قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اضربوهن بالعرى فان النساء يخرجن الى الاعراس ويقمن فى المناحات ويظهرن فى الاعياد ومتى كثر خروجهن لم يعدمن أن يرين من هو من شكلهن ولو كان بعلهن أتم حسناً وأحسن وجها والذى رأت انقص حسنا ولكان ما لا تملكه أطرف عندها مما تملكه ولكان ما لم تملكه أو تستكثر منه أشد لها اشتغالا واجتذابا . قال الشاعر

وللعين ملهى بالنساء ولم يقد * هوى النفس شيء كاقتياد الطرائف

وكانت الاكاسرة اذا امتحنت الخاصة من أصحابها وخف الواحد عنهم على قلب الملك

وكان الرجل عالما بالحكمة موضعا للامانة فى الدماء والفروج والاموال على ظاهره فيأمره أن يتحول الى منزله وان تفرغ اليه حجرة وان لا يتحول اليه بامراة ولا جارية ولا حرمة ويقول له أريد بك الانس فى ليلى ونهارى ومتى كان معك بعض حرمك قطعك عنى فاجعل منصرفك الى منزلك فى خمس ليال فاذا تحوّل الرجل أنس به وخلا معه وكان آخر من ينصرف من عنده فيتركه على هذه الحالة أشهرا . امتحن ابرويز رجلا من خاصته بهذه المحنة ثم دس اليه جارية من بعض جواريه ووجه معها اليه بالطاف وهدايا وأمرها ان لا تقعد عنده فى اول مرة فاتته بالطاف الملك وقامت بين يديه ولم تلبث ان انصرفت حتى اذا كانت المرة الثانية امرها ان تقعد هنيهة وان تبدى عن محاسنها حتى يتاملها ففعلت ولاحظها الرجل وتأملها وجعل الرجل يحد النظر اليها ويسر بمحادثتها ومن شان النفس ان تطلب بعد ذلك الغرض من هذه المطايبة فلما ابدى ما عنده قالت اخاف ان يعثر علينا ولكن دعنى حتى ادبر فى هذا ما يتم به الامر بيننا ثم انصرفت فاخبرت الملك بذلك وبكل شىء جرى بينهما فلما كانت المرة الثالثة امرها ان تطيل القعود عنده وان تحدثه وان ارادها على الزيادة فى الحادثة اجابته اليه ففعلت ووجه اليه اخرى من خواص جواريه وثقاتهن بالطافه وهدايا فلما جاءت قال لها ما فعلت فلانة قالت اعتلت فاربدّ لون الرجل ثم لم تطل القعود عنده كما فعلت الاولى ثم عاودته فقعدت اكثر من المقدار الاول وابدت بعض محاسنها حتى تاملها وعاودته فى المرة الثالثة واطالت القعود والمضاحكة والمهازلة فدعاها الى ما فى تركيب النفس من الشهوة فقالت انا من الملك على خطا يسيرة ومعه فى دار واحدة ولكن الملك يمضى بعد ثلاث الى بستانه الذى بموضع كذا فيقيم هناك فان ارادك على الذهاب معه فاظهر انك عليل ومتمارض فان خيرك بين الانصراف الى نسائك او المقام ههنا فاختر المقام واخبره انك لا تقدر على الحركة فان اجابك الى ذلك جئت من اول الليل فاكون معك الى آخره فسكن الرقيع الى قولها وانصرفت الجارية فاخبرت الملك بكل ما دار بينهما فلما كان فى الوقت الذى وعدته ان يخرج الملك فيه دعاه الملك فقال للرسول اخبره انى عليل فلما جاءه الرسول واخبره تبسم وقال هذا اول الشر فوجه اليه محفة يحمل فيها فاتاه وهو معصب فلما بصر به قال والمحفة الشر الثانى فبين العصابة فقال والعصابة الشر الثالث فلما دنا من الملك سجد فقال له متى حدثت بك هذه العلة قال هذه الليلة قال فاى الامرين احب اليك الانصراف الى نسائك لتمريضك ام المقام ههنا لوقت رجوعى قال المقام ههنا ايها الملك أوفق لقلة الحركة فتبسم ابرويز وقال حركتك ههنا ان تركت اكثر من حركتك فى منزلك ثم امر له بعصا الزناة التى كان يرسم بها من زنى فايقن الرجل بالشر وامر ان يكتب له ما كان من امره حرفا حرفا فيقرأ على الناس اذا حضروا وان ينفى الى اقصى مملكته وتجعل العصا فى راس رمح يكون معه حيث كان

ليحذر من يعرفه منه فلما خرج الرجل من المدائن متوجها به نحو فارس أخذ مدية كانت مع بعض الموكلين به فجبّ بها ذكره وقال من أطاع عضواً صغيراً من اعضائه افسد عليه جميع اعضائه فمات من ساعته ٭ وفيما يذكر عن انوشروان انه اتهم رجلاً من خاصته فى بعض حرمه فلم يدر كيف يقتله لا هو وجد أمراً ظاهراً يحكم بمثله الحاكم فيسفك به دمه ولا قدر على كشف ذنبه لما فى ذلك من الهون على الملك والمملكة ولا وجد عذرا لنفسه فى قتله غيلة اذ لم يكن فى شرائع دينهم ووراثة سلفهم فدعا الرجل بعد جنايته بسنة فى خلوة فقال قد حزبنى أمر من اسرار ملك الروم وبى حاجة الى علمها وما اجد نى اسكن الى أحد سكونى اليك اذ حللت من قلبى المحل الذى أنت به وقد رأيت ان تحمل لى مالا الى هناك للتجارة وتدخل بلاد الروم فتقيم بها فاذا بعت ما معك حملت مما فى بلادهم من تجاراتهم وأقبلت الىّ وفى خلال ذلك تصغى الى اخبارهم وتطلع الى ما بنا الحاجة الى معرفته من أمورهم واسرارهم فقال افعل ايها الملك وأرجوا ان ابلغ فى ذلك محبة الملك ورضاه فامر له بمال وتجهز الرجل وخرج بتجارته فاقام فى بلاد الروم حتى باع واشترى وفهم من كلامهم ولغاتهم ما عرف به مخاطباتهم وبعض أسرار ملكهم وانصرف الى انوشروان بذلك فاراه الايثار به وزاد فى بروده الى بلادهم وأمره بالمقام والتربص بتجارته ففعل حتى عرف واستفاض ذكره فلم تزل تلك حاله ست سنين حتى اذا كانت السنة السابعة أمر الملك ان تصور صورة الرجل فى جام من جاماته التى يشرب فيها وتجعل صورته بازاء صورة انوشروان ويجعل مخاطباً لانوشروان ومشيراً عليه واليه ويدنى رأسه من رأس الملك فى تلك الصورة كأنه يسارّه ثم وهب ذلك الجام لبعض خدمه وقال ان الملوك يرغبون فى مثل هذا الجام فاذا أردت بيعه فادفعه الى فلان اذا خرج نحو بلاد الروم بتجارته وقل له يبيعه من الملك نفسه فانه ينفعك فان لم يمكنه بيعه من الملك باعه من وزيره أو بعض خاصته فجاء غلام الملك بالجام وقد وضع الرجل رجله فى الركاب فسأله ان يبيع جامه من الملك وان يتخذ عنده بذلك يداً وكان الملك يعز ذلك الغلام وكان من خاصة غلمانه وصاحب شرابه فاجابه الى ذلك وأمر بدفع الجام الى صاحب خزانته وقال احفظه فاذا صرت الى باب الملك فليكن مما أعرضه عليه فلما صار الى باب الملك دفع صاحب الخزانة اليه الجام فعرضه على الملك فيما عرض عليه فلما وقع الجام فى يد الملك نظر اليه ونظر الى صورة انوشروان فيه والى صورة الرجل وتركيبه عضواً عضواً وجارحة جارحة فقال للرجل أخبرنى هل يصور مع صورة الملك رجل خسيس قال لا قال فهل تصور فى آنية الملك صورة لا اصل لها ولا علة قال لا قال فهل فى دار الملك اثنان يتشابهان فى صورة واحدة حتى يكون هذا كأنه ذاك فى الصورة وكلاهما نديما الملك قال لا أعرفه قال له قم قائماً فقام فوجد صورته فى الجام فقال له أدبر فادبر فتأمل صورته فى الجام فوجدهما بحكاية

واحدة فضحك و لم يجسر الرجل أن يساله عن سبب ضحكه اجلالا له واعظاما فقال ملك الروم الشاة اعقل من الانسان اذ كانت تخفى مديتها وتدفنها وانما أهديت الينا مديتك بيدك فقال للرجل تغديت قال لا قال قربوا له طعاما قال أيها الملك أنا عبد والعبد لا يأكل بحضرة الملك قال الملك أنت عبد مادمت عند ملك الروم مطلعاً على أموره متتبعاً لاسراره ملك اذا قدمت بلاد فارس ونديم ملكها اطعموه فاطعم وسقى الخمر حتى اذا ثمل قال من سير ملوكنا ان لا نقتل الجاسوس الا فى أعلا موضع نقدر عليه ولا نقتله جائعاً ولا عطشانا فامر به فاصعد الى سطح كان يشرف منه على كل من كان فى المدينة اذا اصعد فضربت عنقه هناك وألقيت جثته من ذلك السطح ونصب رأسه للناس فلما بلغ ذلك كسرى أمر صاحب الجرس أن يضرب باجراس الذهب ويمر على دور نساء الملك وجواريه ويقول كل نفس ذائقة الموت كل أحد اذا وجب عليه القتل ففى الارض يقتل الامن تعرض لحرمة الملك فانه يقتل فى السماء فلم يدر أحد من اهل المملكة ما أراد به حتى مات

﴿ ومثله من أخبار العرب ﴾ ذكروا انه كان لطسم وجديس ملك يقال له عمليق ظلوم غشوم وكانت لا تزف جارية الى زوجها إلا بدأ أو بها فافترعها وردها الى بعلها ثم أن رجلا من جديس تزوج غفيرة بنت غفار عظيم جديس ورئيسها فلما أرادوا أن يهدوها اليه بدأوا بها عمليق فادخلوها عليه ومعها القيان يتغنين ويضربن بالدفوف ويقلن

إبدى بعمليق ومعهُ فاركبى * وبادرى الصبحَ بأمرٍ معجبِ
فسوف تلقينَ الذى لم تطلبى * ولم يكنْ منْ دونهِ منْ مذهب

فجعلت تقول وهى تزف

ما أحدٌ أذلُّ منْ جديسٍ * أهكذا يفعلُ بالعرُوس
يرْضى بهذا يا لَقومى حُرٌّ * منْ بعدِ ما أهدى وسيق المهرُ
لأن يلاقى المرءُ موتَ نفسهِ * خيرٌ لهُ منْ فعل ذا بعرسه

فلما دخلت عليه افترعها ثم خلى سبيلها فخرجت ووقفت على أخيها الاسود بن غفار وهو قاعد فى نادى قومه وقد رفعت ثوبها عن عورتها وأنشأت تقول

أيصلحُ ما يُؤتى إلى فتياتكمْ * وأنتمْ رجالٌ كثرةً عددَ الرَّمل
وترضونَ هذا يا لقومى لأختكم * عشيةَ زُفت أفى النساءِ إلى البعل
فإنْ أنتمُ لمْ تغضبوا بعدَ هذه * فكونوا نساءً فى المنازلِ والحجل
ودونكمْ طيبَ النساءِ وانما * خُلقتمْ جميعاً للتزيُّنِ والكحلِ

فلوْ أننا كنا رجالاً وكنتمُ * نساءً لكنّا لا نقيمُ على ذحل
فقبحاً لبعلٍ ليسَ فيهِ حميّةٌ * ويختال يمشي بيننا مشيةَ الفحل
فموتوا كراماً أوْ أصيبوا عدوَّكمْ * بداهية تُورى ضراماً من الجزْل
وإلا تخلُّوا داركمْ أوْ ترحَّلوا * إلى بلدٍ قفرٍ خلاءٍ منَ الاهلِ
ولا تخرُجوا للحرْبِ ياقومُ إنها * تقومُ بأقوامٍ شدادٍ على رِجْل
فيهلك فيها كلُّ وغدٍ مُواكل * ويَسلمُ فيها ذوالطعانِ وذوالقتل

فلماسمعت جديس شعرها أنفت أنفاشديدا وأخذتهم الحمية فتآمروا بينهم وعزموا على اغتيال الملك وجنوده فقالوا ان نحن بادئناهم بالحرب لم نقو عليهم لكثرة جندهم وانصارهم فاتفقوا على ذلك ثم ان الاسود أتى الملك فقال . انى احب ان تجعل غداءك عندى أنت وجنودك، فقال عمليق ان عدد القوم كثير وأحسب ان البيوت لا تسعهم فقال الاسود . فنخرج لهم الطعام الى بطن الوادى فقال لقومه اذا اشتغل القوم بالاكل فسلوا سيوفكم واعملوا على ان تحملوا حملة رجل واحد واقتلوهم عن آخرهم وهيأ الاسود ما احتاج اليه من الطعام وجاء الملك فلما أكب القوم على الاكل بادرت جديس الى سيوفهم ثم حملت على الملك وعلى جنوده والاسود يرتجز ويقول

ياصُبْحة ياصبحة العروس * حتى تمشَّتْ بدمٍ جميسِ
ياطسْم مالقيتِ من جديس * هلكتِ ياطسْم فهيسى هيسى

فقتلوه وجنوده جميعاً ، ومثله الفطيون ملك تهامة والحجاز فانه سلك مسلك عمليق فى ملك طسم وجديس فى امر النساء فأمر أن لا تزف من اليهود فى مملكته امرأة إلا بدأوه بها فلبث على ذلك عدة أحوال حتى زوجت امرأة من اليهود على ابن عم لها وكانت ذات جمال رائع وكانت أخت مالك بن عجلان من الرضاعة فلما أرادوا أن يهدوها الى زوجها خرجت الى نادى الاوس والخزرج رافعة ثوبها الى سرتها فقام اليها مالك بن العجلان فقال ويحك ومادهاك فقالت وما يكون من الداهية أعظم من ان ينطلق بى الى غير بعلى بعد ساعة فأنف من ذلك أنفا شديدا فدعا ببزة امرأة فلبسها فلما انطلقوا بالمرأة الى الفطيون صار كواحدة من نسائها اللواتى ينطلقن بها متشبها بامرأة وقد أعد سكينا فى خفه فلما دخلت المرأة على الفطيون مال مالك الى خزانة فى ذلك البيت فدخلها فلما خرج النساء ودخلت المرأة قام اليها ليفترعها فخرج اليه مالك بالسكين فوجأه فقتله ثم قال لليهود دونكم جنوده فاقتلوهم فاجتمعت عليهم فقتلوهم عن آخرهم

﴿ومنه أخبار وأمثال﴾ ذكروا ان اول من قال العجب كل العجب بين جمادى ورجب عاصم بن المقشعر الضبي وذلك ان الخنيفس بن خشرم كان اغير اهل زمانه واشجعهم

وكان لعاصم أخ يقال له عبيدة عزيز في قومه فهوي امرأة كانت تأتي الخنيفس فبلغ الخنيفس ذلك فتواعد عبيدة وركب الخنيفس فرسه وأخذ رمحه وانطلق يتربص عبيدة حتى وقف على ممره فاقبل عبيدة وقد قضى من المرأة وطراً وهو يقول

أَلا إنَّ الْخُنَيْفِسَ فاعلموه * كما سمّاهُ والدُهُ لعينُ
بَهيمُ اللونِ مُحتقرٌ ضئيلٌ * لئيماتٌ خلائقُهُ ضنينُ
أيوعدُني الخُنَيْفِسُ من بعيدٍ * ولما يلقَ ما بِضْعُهُ الوتينُ
لهوتُ بجارتيهِ وحادَعني * ويزعمُ أنَّهُ أنِفٌ شفونُ

فعارضه الخنيفس وهو يقول

أيا ابنَ المتشعّرِ لقيتَ ليثاً * له في جوفِ أيكتِهِ عرينُ
تقولُ له صدَدْتَ حِذارَ حينٍ * وأنكَ نشوةَ أبطالٍ مبينُ
وأنكَ قد لهوتَ بجارتينا * فهاكَ عُبيدَ لاقاكَ القرينُ
ستعلمُ أيُّنا أحمى ذِماراً * إذا قصُرتْ شمالُكَ واليمينُ
لهوتَ بها لقد أُبدِلْتَ قبراً * وباكيةً عليكَ لها رنينُ

فقال عبيدة أذكرك الله وحرمة خشرم فقال والله لا قتلنك فقتله فلما بلغ أخاه عاصما خرج اليه ولبس أطماراً وركب فرسه وكان في آخر يوم من جمادى فاقبل يبادر دخول رجب لانهم كانوا لا يقتلون في رجب أحداً فانطلق حتى وقف بباب خنيفس ليلا وقال أجب المرهوق قال وماذاك قال العجب كل العجب بين جمادى ورجب واني رجل من ضبة غصب أخ لي امرأة فخرج يستنقذها فقتل وقد عجزت عن قاتله فخرج الخنيفس مغضباً وأخذ رمحه وركب وانطلق معه فلما نحى به عن قومه دنا منه فقنعه بالسيف فابان رأسه ، ويقال ان أول من قال سبق السيف العذل ضمضم بن عمرو اللخمي كان يهوى امرأة فطلبها بكل حيلة فأبت عليه وطلبها عزيز بن عبيد بن ضمضمة فأتته وتأبت على ضمضم وكان ضمضم من أشد قومه بأساً فاغتاظ لذلك وانطلق ليلة وهو متقلد سيفه حتى صار بمكان يراهما اذا اجتمعا ولا يريانه فلما نام الناس وطال هدو ضمضم اذا العزيز قد أقبل على فرسه وهو يقول

أمامُ تولّيني وتأبى بنفسها * على ضمضمٍ تعساً ورغماً لضمضمِ

وضمضم يسمع فنزل وربط فرسه ونزل الى ناحية خبائها فصدح صدوح الهام وكان آية ما بينهما فخرجت اليه فعانقها وضمضم ينظر ثم واقعها فلما رآهما مشى اليهما بالسيف وهو يقول

ستعلمُ أني لستُ أعشقُ مبغضاً * فكان بنا عنها وعنكَ عزاءُ

وقتله فعلم القوم بضمضم فأخذوه فلما أصبح ابرز الى النادى ليقتل فجعلوا يلومونه على قتله ابن عمه فقال سبق السيف العذل ، ويقال ان أول من قال خير قليل وفضحت نفسى فائرة امرأة مرة الاسدى وكانت من أجمل النساء فى زمانها وكان زوجها غاب عنها أعواما فهويت عبداً له حبشياً يرعى إبلها فأمرته ان يحضر مضجعها وكان زوجها منصرفا وقد نزل تلك الليلة منها على مسيرة يوم فبيناهو يطعم ومعه أصحابه اذ نعق غراب فأخبره ان امرأته لم تعهر قط ولا تعهر الا تلك الليلة فركب فرسه ومر مسرعا وهو يرجوان هو منعها تلك الليلة أمنها فيما بقى فانتهى اليها حين قام العبد عنها وندمت وهى تقول خير قليل وفضحت نفسى فسمعها زوجها وهو يرعد لما به من الغيظ فقالت له ما يرعدك فقال يعلمها انه قد علم خير قليل وفضحت نفسى فشهقت شهقة خرت ميتة فقتل زوجها العبد وجعل يقول

لعمرُكِ ما تعتادُنى منكِ لوعةٌ * ولا أنا من وجدٍ بذكراكِ أسهدُ

قيل وكانت هند بنت عتبة تحت الفاكه بن المغيرة المخزومى وكان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت ضيافة يغشاه الناس من غير اذن فخلا ذلك البيت يوما فضجع الفاكه وهند فيه فخرج الفاكه لبعض حوائجه وأقبل رجل ممن كان يغشى ذلك البيت فولجه فلما رأى المرأة ولى هاربا فرآه الفاكه وهو خارج من البيت فاقبل الى هند فضربها برجله وقال من هذا الرجل الذى خرج من عندك قالت ما رأيت احدا ولا انتبهت حتى نبهتنى فقال لها الحق باهلك فتكلم الناس فيها فقال لها أبوها يا بنية ان الناس قد أكثروا فيك فاصدقينى فان كان الرجل فى قوله صادقا سببت له من يقتله فتنقطع عنك القالة وان كان كاذبا حاكمته الى بعض كهان اليمن فحلفت له بما يحلفون به فى الجاهلية انه لكاذب فقال عتبة للفاكه ياهذا إنك قد رميت ابنتى بامر عظيم فحاكمنى الى بعض كهان اليمن فخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف وخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم وأخرجوا معهم هنداً ونسوة معها فلما شارفوا البلاد قالوا غداً نرد على الكاهن فتغير لون هند فقال لها أبوها انى أرى ما بك فهلا كان هذا قبل خروجنا قالت لا والله يا أبتاه ما ذلك لمكروه ولكن سنأتى بشراً يخطئ ويصيب فلا نأمن أن يسومنى مما يكون فيه سبة على باقى عمرى قال انى سوف اختبره قبل ان ينظر فى أمرك فاخذ حبة من حنطة فادخلها فى احليل فرسه وأوكى عليها بسير فلما دخلوا على الكاهن قال له عتبة ما كان منى فى طريقى قال ثمرة فى كمرة قال احتاج الى أبين من هذا قال حبة بر فى احليل مهر قال صدقت فما بال حال هؤلاء النسوة فجعل يدنو من احداهن فيضرب بمنكبها حتى أتى الى هند فضرب بمنكبها وقال انهضى غير رسحاء ولا فاحشة ولتلدين ملكا يقال له معاوية فوثب اليها الفاكه فأخذ بيدها فنزعت يدها من يده وقالت اليك عنى والله لاجهدن ان يكون ذلك من غيرك فتزوجها أبو سفيان بن حرب فجاءت بمعاوية ، قيل وكان عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه يعس بنفسه فسمع امرأة تقول

ألا سبيلٌ إلى خمرٍ فأشربها * أم هل سبيلي الى نصر بن حجّاج
إلى فتىً ماجدِ الاخلاقِ ذى كرمٍ * سهلِ المحيّا كريمٍ غيرِ ملجاج

فقال عمر أما ما دام عمر إماما فلا ، فلما أصبح قال على بنصر بن الحجاج فاتى به فاذا هو رجل جميل فقال اخرج من المدينة ، قال : ولم وما ذنبي ، قال اخرج فوالله ما تساكنني فخرج حتى أتى البصرة وكتب الى عمر رضى الله عنه

لعمري لئن سيّرتني وحرمتني * ولم آتِ إثماً إنّ ذا لحرامُ
ومالى ذنبٌ غيرَ ظنٍّ ظننته * وبعضُ تصاديقِ الظنونِ إثامُ
وإن غنّتِ الذلفاءُ يوماً بمنيةٍ * فبعضُ أمانيِّ النساءِ غرامُ
فظنَّ بيَ الظنَّ الذى لو أتيتهُ * لما كان لى فى الصالحين مقامُ
ويمنعُني مما تمنّتْ حفيظتي * وآباءُ صدقٍ سالفون كرامُ
ويمنعُها مما تمنّتْ صلاتُها * وبيتٌ لها فى قومها وصيامُ
فهذان حالانا فهل أنتَ مُرجعي * فقد جُبَّ منّي غاربٌ وسنامُ

قال .. فردّه عمر بعد ذلك لما وصف من عفته ، ويروى أيضا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة اذ سمع امرأة تهتف وتقول

تطاولَ هذا الليلُ واسودَّ جانبهُ * وأرّقنى إذ لا خليلَ الاعبُه
فوالله لولا اللهُ لاربَّ غيرُهُ * لزعزعَ من هذا السريرِ جوانبهُ
ولكنَّ ربى والحياءُ يكفُّني * وأكرمُ بعلى أن تُوطا مراكبه

قال فرجع عمر الى منزله فسأل عن المرأة فاذا زوجها غائب فسأل ابنته حفصة كم تصبر المرأة عن الرجل فسكتت واستحيت وأطرقت فقال أربعة اشهر خمسة أشهر ستة أشهر فرفعت طرفها فعلم أنها لا تصبر اكثر من ستة اشهر فكتب الى صاحب الجيش ان يقفل من الغزو الرجال اذا أتت ستة أشهر الى أهاليهم ، وغزا رجل من الانصار وله جار يهودى فأتى امرأته واستلقى ذات ليلة على ظهره وأنشأ يقول

وأشعثَ غرّهُ الإسلامُ منى * خلوتُ بعرسهِ ليلَ التمامِ
أبيتُ على ترائبها ويُضحى * على جرداءَ لاحقةِ الحزامِ

فسمع ذلك جاره فضربه بالسيف حتى قطعه فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال انشد الله رجلا كان عنده من هذا علم الا قام ، فقام الرجل فحدثه فقال : أحسنت أحسنت ،

وتمام الابيات

كأنّ مجامعَ الرَّبلاتِ منها * فئامٌ قدْ جُمعنَ إلى فئامِ

﴿ومنه أخبار الشعراء﴾ قيل لما خرج امرؤ القيس بن حجر الى قيصر ملك الروم ليسأله النصرة على بني أسد لقتلهم أباه حجر بن الحارث راسل بنت قيصر وأراد ان يختدعها عن نفسها وبلغ ذلك قيصر وأراد ان يقتله فتذمم من ذلك وأمر بقميص فغمس في السم وقال لامرىء القيس البس هذا القميص فاني أحببت ان أوثرك به على نفسي لحسنه وبهائه فعمل السم في جسمه وكثرت فيه القروح فمات منها فسمي ذا القروح وقد كان قيل لقيصر قبل ذلك انه هجاه فعندها يقول

ظلمتُ له نفسي بأنْ جئتُ راغباً * إليهِ وقدْ سيَّرتُ فيهِ القوافيا

فإنْ أكُ مظلوما فقدْما ظلمتهُ * وبالصاع يُجزَى مثلَ ماقدْ جزَانيا

قيل وكان النابغة يشبب بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر وكانت أكمل اهل عصرها جمالا فبلغ ذلك النعمان فهم بقتل النابغة فهرب منه وسار حتى أتى الشام والملك بها جبلة بن الايهم الغساني فنزل عليه واقام عنده وكتب الى النعمان

حلفتُ ولمْ أتركْ لنفسكَ ريبةً * وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ

لئنْ كنتَ قدْ بُلغتَ عني خيانةً * لَمُبلغكَ الواشي أغشُّ وأكذبُ

قيل وكانت امرأة شداد أبي عنترة ذكرت له أن عنترة ارادها عن نفسها فاخذه أبوه فضربه ضرب التلف فقامت المرأة فالقت نفسها عليه لما رأت مابه من الجراحات وبكته وكان اسمها سمية فقال عنترة

أمِنْ سُميةَ دمْعُ العينِ مذرُوفُ * لوكانَ ذا منكِ قبلَ اليومِ معرُوفُ

كأنها يومَ صدَّتْ ماتُكلمنا * ظبيٌ بعُسفانَ ساجي العينِ مطرُوفُ

قامت تجالني لمّا هوَى قبَلي * كأنها صنمٌ يعتادُ معكوفُ

المالُ مالكمُ والعبدُ عبدُكمُ * فهلْ عذابكِ عني اليومَ مصرُوفُ

قيل ولما انشد عبد بني الحسحاس عمر بن الخطاب رضي الله عنه قصيدته التي يقول فيها

تُوسِّدُني كفا وتثني بمعصمٍ * عليَّ وتنحو رجلها من ورائيا

فما زالَ بردي طيباً منْ ثيابها * إلى الحولِ حتى أنهجَ البُردُ باليا

وهبَّتْ لنا ريحُ الشمالِ بقوَّةٍ * ولا بُردَ إلاَّ دِرعها وردائيا

أميلُ بهاميلَ الرَّديفِ وأتّقي * بهاالرِّيحَ والشفّانَ من عن شماليا

رأت قتياً رثّاً وأخلاقَ شملةٍ * وأسود ممّا يلبس الناسُ عاريا
تجمّعن شتى من ثلاثٍ وأربع * وواحدةٍ حتى كملن ثمانيا
سُليمى وسلمى والرّباب وتربُها * وأروى وريّا والمنى وقطاميا
وأقبلن من أقصى البلادِ يعُدنني * إلا إنما بعضُ العوائدِ دائيا

قال عمر رضي الله عنه أنت مقتول فلما قال

ولقد تحدّر من كريمةِ معشرٍ * عرقٌ على متن الفراشِ وطيبُ

وجدوه شاربا علا فعرضوا عليه نسوة حتى مرت به التي يطلبونها فأهوى اليها فقتلوه

﴿ مساوي شدة الغيرة والعقوبة عليها ﴾

حكى عن سليمان بن عبد الملك انه كان في بعض أسفاره فسمر معه قوم فلما تفرقوا عنه دعا بوضوء فجاءته به جارية فبيناهي تصب الماء على يده اذا استمدها وأشار اليها مرتين أو ثلاثا فلم تصب عليه فأنكر ذلك ورفع رأسه فاذاهي مصغية بسمعها مائلة بجسدها الى صوت غناء من ناحية العسكر فامرها فتنحت فسمع الصوت فاذا رجل يغني فانصت له حتى فهم ماغنى فدعا بجارية غيرها فتوضأ فلما أصبح أذن للناس فاجرى ذكر الغناء فلم يزل يخوض فيه حتى ظن القوم انه يشتهيه فأفاضوا فيه وذكروا ماجاء في الغناء والتسهيل لمن سمعه وذكروا من كان يسمعه من سروات الناس فقال هل بقي أحد يسمع منه فقال رجل من القوم عندي رجلان من اهل الابلة محكمان قال فاين منزلك من العسكر فاوما الى ناحية الغناء فقال سليمان ابعث اليهما ففعل فوجد الرسول احدهما واقبل به وكان اسمه سمير فسأله عن الغناء وكيف هو وفيه قال محكم قال متى عهدك به قال البارحة قال وفي اي النواحي كنت فذكر الناحية التي سمع منها الصوت قال وما اسم صاحبك قال سنان قال فاقبل سليمان على القوم فقال هدر الفحل فضبعت الناقة ونب التيس فشكرت الشاة وهدل الحمام فزافت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة ثم امر به فخصى وسال عن الغناء أين اصله قالوا بالمدينة وهم المخنثون فكتب الى عامله ان أخص من قبلك من المخنثين وحدث الاصمعي ان الشعر الذي سمعه سليمان يتغنى به هو

محجوبةٌ سمعت صوتي فأرّقها * من آخر الليل لمّا بلها السحرُ
تُدني على الخدّ منها من معصفرةٍ * والحليُ بادٍ على لبّاتها خصِرُ
في ليلة البدر مايدري مُضاجعُها * أوجهها عندهُ أبهى أم القمرُ
لم يمنع الصوتَ أبوابٌ ولا حرسٌ * فدمعها لِطُروقِ اللّحنِ ينحدرُ

لو تستطيع مُشتَ نحوي على قدمٍ * تكادُ من رقةٍ في المشي تنفطرُ

ثم دخل سليمان مضرب الخدم فوجد جارية على هذه الصفة قاعدة تبكي فوجه الى سنان فاحضره و وجهت الجارية رسولا الى سنان تحذره وجعلت للرسول عشر آلاف درهم ان سبق رسول سليمان فلما حضر أنشأ يقول

إستبقني إلى الصّباحِ أعتذرْ * إنّ لساني بالشرابِ منكسر

فأرسلِ المعروفَ في قومٍ نُكُرْ

فامر به فخصي وكان بعد ذلك يسمى الخصي ، وعن علي بن يقطين قال كنت عندموسى الهادي ذات ليلة مع جماعة من أصحابه اذ أتاه خادم فساره بشيء فنهض سريعاً فقال لا تبرحوا فمضى فابطأ ثم جاء وهو يتنفس ساعة حتى استراح ومعه خادم يحمل طبقا مغطى بمنديل فقام بين يده فاقبل يرعد وعجبنا من ذلك ثم جلس وقال الخادم ضع مامعك فوضع الطبق وقال ارفع المنديل فرفعه فاذا على الطبق رأسا جاريتين لم أر والله أحسن من وجهيهما قط ولا من شعورهما فاذا على رأسيهما الجوهر منظوم على الشعر واذا رائحة طيبة تفوح فاعظمنا ذلك فقال أتدرون ماشأنهما قلنا . لا قال بلغني أنهما تحابا فوكلت هذا الخادم بهما لينهي إلى اخبارهما فجاءني وأخبرني انهما قد اجتمعتا فجئت فوجدتهما كذلك في لحاف فقتلتهما ثم قال ياغلام ارفع و رجع في حديثه كانه لم يصنع شيئاً ، وحدثنا ابراهيم بن اسماعيل عن ابن القدّاح قال ، كانت للربيع جارية يقال لها أمة العزيز فاهداها للمهدي فلما رأى حسنها وجمالها وهيأتها قال هذه لموسى أصلح فوهبها له فكانت أحب الخلق اليه وولدت له بنيه الاكابر ثم ان بعض أعداء الربيع قال لموسى انه سمع الربيع يقول ماوضعت بيني و بين الارض مثل أمة العزيز فغار موسى فدعا الربيع فتغدى معه وناوله كاسا فيه شراب فقال الربيع فعلمت أن نفسي فيها واني إن رددتها من يدي ضرب عنقي فشربتها وانصرفت فجمع ولده وقال اني ميت فقال الفضل ابنه ولم تقول ذلك جعلت فداك قال ان موسى سقاني شربة فانا أجد عملها في بدني ثم أوصى بماله ومات في يومه ،، قيل وطرب الرشيد الى الغناء فخرج متنكراً ومعه خادمه مسرور حتى انتهى الى باب اسحاق بن ابراهيم الموصلي فقال يامسرور إقرع الباب فخرج اسحاق فلما رأى الرشيد انكب على رجله فقبلها ثم قال ان رأى أمير المؤمنين أن يدخل منزل عبده فنزل الرشيد فدخل فرأى أثر الدعوة فقال يااسحاق اني أرى موضع الشرب من كان عندك قال ما كان عندي ياأمير المؤمنين سوى جاريتي كنت أطارحهما قال فهما حاضرتان قال نعم قال فاحضرهما فدعا الجاريتين فخرجتا مع احداهما عود حتى جلستا فامر الرشيد صاحبة العود أن تغني فغنت

بُنيَ الحُبُّ على الجورِ فلوْ * أنصفَ المعشوقُ فيهِ لسمُجَ
ليسَ يُستحسنُ في وصفِ الهوى * عاشقٌ يُكثرُ تأليفَ الحُججِ
فقليلُ الحبِّ صِرفاً خالصاً * هو خيرٌ من كثيرٍ قدْ مُزِجْ

فقال الرشيد يا اسحاق لمن الشعر والغناء فيه قال لا علم لى به يا أمير المؤمنين فنكس رأسه ساعة ينكت فى الارض ثم رفع رأسه وأخذ العود من حجر هذه فوضعه فى حجر الاخرى ثم قال لها غنى فغنت

إنْ يمسِ حبلكَ بعدَ طولِ تواصُلٍ * خَلَقاً وأصبحَ بيتُكمْ مهجوراً
فلقدْ أراني والجديدُ إلى بلًى * زمناً بوصْلِكَ راضياً مسروراً
كنتَ الهوى وأعزّ من وطئَ الحصى * عندي وكنتُ بذاكَ منكَ جديراً

فقال يا اسحاق لمن الشعر والغناء فيه قال لا علم لى يا سيدى فرد المسألة على الجارية فقالت لستى قال ومن ستك قالت علية أخت أمير المؤمنين فنكس رأسه ساعة ثم وثب وقال لمسرور خادمه امض بنا الى منزلة علية فلما وقف بالباب قال استاذن يا مسرور فخرجت جارية فلما رأت الخليفة رجعت تبادر تعلم ستها فخرجت تستقبله وتفديه فقال يا علية هل عندك ما نأكل قالت نعم يا سيدى قال وما نشرب قالت نعم فدخل وجلس فقدمت اليه الطعام فأكل حاراً وبارداً ورطباً ويابساً ثم رفع الطعام ووضع الشراب والطيب وأنواع الرياحين ودعت جواريها وكان عندها ثلاثون جارية يغنين فالبستهن أنواع الثياب وصفتهن فى الايوان وتناول الرشيد الشراب فأمر الجوارى يغنين ثم سقى أخته حتى اخذ الشراب منها واحمرت وجنتاها وفترت اجفانها وكانت من اجل النساء فضرب الرشيد الى حجر بعض الجوارى فى اخذ العود وقال يا علية بحياتى غنى

بُنيَ الحُبُّ على الجوْرِ فلوْ

فعلمت انها داهية فبكت فصاح الرشيد فخرج الجوارى وبقى هو وهى فدفعها واخذ وسادة فجعلها على وجهها وجلس عليها فاضطربت اضطراباً شديداً ثم بردت فنحى الوسادة عنها وقد قضت نحبها فخرج وقال للخادم اذا كان غداً فادخل وعزنى وركب متوجهاً الى قصره فلما كان الغد عزاه مسرور فبكى فقال

قبرٌ عزيزٌ علينا * لو أنّ من فيهِ يفدَى
أسكنتُ قرّةَ عيني * ومهجةَ النفسِ لحدًا
ما إنْ أرى لي عليها * منَ التوجُّعِ بُدًّا

ومنه ماحكى عن البهائم قال شيخ من بنى قشير كنا فى نتاج فامتنع فرس من حجرة فشددنا عينه فنزا عليها فلما فرغ فتحنا العصابة فرأى الحجرة وكانت أمه فعمد الى ذكره باسنانه فقطعه ،، ومنه فى خفة الغيرة قال سليمان بن داود الهاشمى لابنه لاتكثر الغيرة على أهلك فترمى بالشر من أجلك وان كانت بريئة ولا تكثر الضحك فيستخفك فؤاد الرجل الحليم وعليك بخشية الله فانها غلبت كل شئ وقال عبد الله بن جعفر لابنته: اياك والغيرة فانها مفتاح الطلاق واياك وكثرة العتب فانه يورث البغضاء وعليك بالكحل فانه أزين الزينة وأطيب الطيب الماء ، قيل وكان كسرى ابرويز يتعشق امرأة رجل كان من مرازبته يقال له البارجان وكانت تأتيه سرا فبلغ زوجها ذلك فامسك عن امرأته واجتنبها ودخل الى كسرى ذات يوم فقال له كسرى بلغنى ان لك عين ماء عذبة وانك قد اجتنبتها فلا تقربها ، ففطن فقال له: أيها الملك بلغنى ان الاسد ينتاب تلك العين فاجتنبتها خوفا منه فاعجب كسرى بمقالته وأمر أن يتخذ له تاج لا قيمة له ثم دخل كسرى دار نسائه فقاسمهن نصف حليهن فاجتمع من الجوهر مالا يحصى فبعث به الى امرأة البارجان بالقادسية ووقع ذلك الجوهر الى السائب بن الاقرع وكان على المقسم فباعه وجُعل للمسلمين بكتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال بعضهم كنت أغار على امرأتى فاشرفت علىّ يوما وانا مع جارية لى فلقيت منها اذا حتى حلفت ان ابيع الجارية فخرجت اريد شراء حوائج لى ومعى الجارية فاتيت دكان خلال لشرى الخل فوجدته خاليا فقلت له ياهذا تاذن لى فى ملامسة جاريتى هذه فى دكانك فانى أريد بيعها قال نعم جعلت فداك ادخل حيث شئت فدخلت فاصبت من الجارية فلما خرجت اذا الخلال قد كمن ناحية وهو فى قميص قد أنعظ فقال فرغت قلت نعم قال بسم الله اتاذن لى جعلت فداك قلت وبلك ماتريد قال اقضى وطرى منها قلت يا ابن الفاعلة حرمتى قال لا يضرك شيئا فانى اسرع ثم وثب كانه السبع فضاربته حتى تخلصت الجارية بعد كل جهد ، قال ودخل رجل من بنى زهرة من اهل المدينة على قينة فسمع غناءها عند مولاها فخرج مولاها فى حاجة ثم رجع فاذا جاريته على بطن الزهرى فقامت مذعورة فقعدت تبكى فقال مايبكيك قالت لانك لا تقبل لاجله عذرا قال يا زانية لو رايتك على قفاك قلت صريع مغلوب ولو رأيتك على وجهك لقلت وعاء مكبوب اتما رأيتك فارسا مصلوبا ، وحكى عن تمامة انه قال للمهدى ان النساء شُققن شقا وان هشيمة نُقبت نقبا وكانت هشيمة امرأة تمامة فسأله المهدى ان ينزل عنها ففعل واقام المهدى حتى انقضت عدتها ثم تزوجها وبنى بها ثم طلقها وخرج الى بيت المقدس فلما انقضت عدتها راجعها زوجها وقال أبو طاهر أنشدنى بعض الشعراء يهجو بنى القعقاع

بنى القعقاعِ أكرمكم لئيمٌ * وأعظمُ مجدِكم ركبٌ حليقُ
وأنتم فى نسائِكمُ اتساعٌ * وفى أخلاقِكم نكدٌ وضيقُ

وعن عبد الله بن ياسين قال ، كان فى المهدى غزل وشدة حب للخلوة بالنساء فبلغه عن ابنة لابى عبيد الله كاتبه جمال فقال للخيزران ، استزيريها ، فزارتها وجاءت اليها فقالت لها ، هل لك فى الحمام قالت نعم فلما دخلت الحمام وافاها المهدى فبرزت له ولم تستتر عنه فقال لها المهدى انا وليك فزوجيني نفسك فقالت انا امتك فتزوجها ونال منها فلما انصرفت اخبرت اخوتها بما كان فقالوا امسكي عنه فلما كان بعد مدة قالوا لها استزيرى الخيزران فاستزارتها فلما صارت اليها قالت هل لك فى الحمام قالت نعم فلما دخلتا معا ماشعرت الخيزران الا بابنى أبى عبيد الله قد عمدوا عليها فاستترت عنهم فقالوا لو اردنا نفعل كما فعلتم بحرمتنا لفعلنا ولكنا لا نستحل ، فقالت لهم والله لو رمتم ذلك لامرت الخدم بقتلكم فانصرفوا فلما رجعت الخيزران أخبرت المهدى بذلك فكان السبب فى قتل المهدى محمد بن أبى عبيد الله على الزندقة ، وبلغه أيضا عن عونة بنت أبى عون جمال وهيئة فقال للخيزران استزيريها فاستزارتها فقالت لها الخيزران : هل لك فى الحمام قالت نعم ، فلما دخلتا ماشعرت الا بالمهدى قد وافاها فاستترت بالخيزران وقالت والله لئن دنوت منى لاضربن بالكرنيب وجهك ، فقال ويلك انما أردت ان أتزوجك قالت لا سبيل الى ذلك فانصرف عنها فاخبرت أباها فقال أحسنت فى فعلك

— محاسن القيادة —

الحسن الجرجانى قال حدثنى سهم بن عبد الحميد الحنفى قال خرجت من الكوفة اريد بغداد فلما نزلت بسط غلماننا وهيئوا غداءنا فاذا نحن برجل حسن الوجه والهيئة على برزون فاره فصحت بالغلمان فاخذوا دابته فدعوت بالغداء فبسط يده غير محتشم وما أكرمته بشىء الا قبله وكنا كذلك اذ جاء غلمانه بثقل كثير وهيئة جميلة فتناسبنا فاذا هو طريح بن اسماعيل الثقفى فارتحلنا فى قافلة منا لا يدرك طرفاها فقال طريح ما حاجتنا الى هذا الزحام وليست بنا اليهم وحشة ولا علينا خوف فاذا اخلونا بالخانات والطرق كان أروح لابدانا قلت ذلك اليك فنزلنا من الغد الخان وتغدينا والى جانبنا نهر ظليل بالشجر فقال هل لك ان تستنقع فيه فمررنا اليه فلما نزع ثيابه اذا بين جنبيه آثار ضرب كثير فوقع فى نفسى منه شر فنظر الى ففطن وتبسم وقال قد رأيناذعرك بما ترى وحديث ذلك يجرى اذا سرنا بالعشية فلما سرنا قلت له الحديث قال نعم قدمت من عند الوليد بن يزيد بالغناء واليسار وكتب الى يوسف بن عمر فلما أتيته ملأ يدى خيرا فخرجت مبادرا الى الطائف فلما امتد بى الطريق وليس يصحبنى فيه أحد عن لى اعرابى على قعود له فحدث أحسن الحديث وروى الشعر فاذا هو راوية فانشد فاذا هو شاعر فقلت ، من أين أقبلت ، قال : لا أدرى : قلت وما القصة قال : انا عاشق لامرأة قد افسدت على عيشى وقد حذرنى اهلها وجفانى لها أهلى وانما

استريح بان انحدر الى الطريق مع منحدر واصعد مع مصعد، قلت فأين هى، قال، ننزل غدا بازائها
فلما نزلنا أرانى طريقا عن يسار الطريق فقال ترى ذلك الطريق فقلت أراه قال فترى الخيم التى هناك
قلت، نعم قال، فانها فى الخيمة الحمراء فأدركتنى اريحية الحدث فقلت، والله انى آتيها برسالتك
فمضيت حتى انتهيت الى الخيم فاذا امرأة ظريفة جميلة كانها مهرة عربية فذكرته لها فزفرت
زفرة كادت تنتقض أضلاعها قالت أوحى هو قلت نعم تركته فى رحلى وراء هذا الطريق قالت
بأبى أنت وأمى أرى لك وجها حسنا يدل على الخير فهل لك فى أمر قلت نعم فقير اليه قالت البس
ثيابى فاقم مكانى ودعنى حتى آتيه وذلك عند مغير بان الشمس فانك اذا اظلم الليل أتاك زوجى
فقال لك يا فاجرة ويا هنة ابنة الهنة فيوسعك شتما فأوسعه صمتا ثم يقول فى آخر كلامه اقمعى
سقاءك يا عدوة الله فضع القمع فى هذا السقاء واياك وهذا السقاء الاخر فانه واه قلت نعم فاجبتها
الى ما سألت فجاء الزوج على ما وصفت وقال اقمعى سقاءك فخيرنى الله ان تركت الصحيح وقمعت
الواهى فما شعر الا باللبن يتسبسب بين رجليه فعدا الى كسر الخيمة وحل متاعه وتناول رشاء من قد
مدبوغ ثم ثناه باثنتين فجعل لا يتقى رأسا ولا وجها ولا رجلا حتى خشيت أن يبدو له وجهى فتكون
الاخرى فالزمت وجهى الارض فعمل بظهرى ما ترى فلما تغيب عنى جاءت المرأة باكية فرأت
ما بى من الشر واعتذرت وأخذت ثيابى وانصرفت قال وحدث بهذا الحديث محمد بن صالح بن
عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب صلوات الله عليه بسر من راى سنة أربعين ومائتين وكان
حمل من البادية الى المتوكل فاطلقه وكان اعرابيا فصيحا فعجب منه وكان حسن الوجه نجيبا قل
ما رأيت فى الفتيان مثله قال كان منا فتى يقال له الاشتر بن عبد الله وكان سيد بنى هلال وأحسنهم
وجها وأسخاهم كفا وكان معجبا بجارية يقال لها جيداء بارعة الجمال فلما اشتهر أمرهما وظهر
خبرهما وقع الشر بين اهل بيتيهما حتى قتل بينهما القتلى فافترقوا فريقين فلما طال على الاشتر
البلاء جاءنى يوما وقال يا نمير هل فيك خير قلت عندى ما أحببت قال فساعدنى على زيارة
جيداء قلب بالحب والكرامة فانهض اذا شئت قال فركبنا وسرنا يوما وليلة والغداة حتى المساء
فنظرنا الى أدنى سرب لهم فانحنار واحلنا فى شعب وقعدنا هناك وقال يا نمير اذهب وانشد
واذكر لمن يلقاك انك طالب ضالة ولا تعرض بذكرى بشفة ولا لسان الى أن تلقى جاريتها
فلانة راعية الضأن فتقرئها منى السلام وتسألها عن الخبر وتعلمها بمكانى قال فخرجت لا أتعدى
ما أمرنى به حتى لقيت الجارية فابلغتها الرسالة واعلمتها بمكانه وسألتها عن الخبر فقالت هى مشدد
عليها محتفظ بها وعلى ذلك فموعدكما عند الشجرات اللواتى عند أعقاب البيوت مع صلاة
العشاء فانصرفت فاخبرته ثم قدنا رواحلنا حتى أتينا الموعد فى الوقت الذى وعدتنا فيه
فلم نلبث الا قليلا حتى اذا جيداء تمشى فدنت منا فوثب اليها الاشتر فتصافحا وسلم

عليها و وثبت مولياً عنهما فقالا أقسمنا عليك الا رجعت فوالله ما بيننا من ريبة ولا قبيح تخلوابه دونك فانصرفت اليهما وجلست معهما فقال الاشتر ما فيك حيلة يا جيداء فنتزود منك الليلة قالت لا والله ما الى ذلك سبيل الا ان أرجع الى الذى تعلم من البلاء والشر فقال لا بد من ذلك ولو وقعت السماء على الارض قالت فهل بصاحبك خير قلت بلى وهل الخير الا عندى فاسألى ما بدا لك فانى منته اليه ولو كان فى ذلك كله ذهاب نفسى فلبستنى ثيابها وأخذت ثيابى ثم قالت اذهب الى خبائى فادخل فى سترى فان زوجى يأتيك مع العتمة فيطلب منك القدح ليحلب فيه فلا تعطه من يدك فكذلك كنت افعل فيحلب ثم يأتيك بالقدح ملآن لبناً فيقول هاك فلا تأخذه منه حتى يطيل عليك نكدك ثم خذه أوذره حتى يضعه ثم يستبد بردائه ولست تراه حتى يصبح فذهبت ففعلت ما أمرتنى به حتى جاء بالقدح فيه اللبن فاطلت نكدى عليه ثم أهويت لآخذه فاختلفت يدى و يده وانكفأ القدح فاندفق منه اللبن فقال ان هذا لطماح مفرط وضرب بيده الى جانب الخباء فاستخرج سوطاً فضربنى مقدار ثلاثين سوطاً حتى جاءت أمه وأخواته فانتزعونى منه ولا والله ما فعلوا ذلك حتى زايلتنى روحى وهممت أن أوجره بالسكين فلما خرجوا عنى وهو معهم قعدت كما كتب الله فما لبثت ان جاءت أم جيداء فحدثتنى وهى تحسبنى ابنتها فالقيتها بالسكوت وتغطيت بثوبى دونها فقالت يا بنية اتقى الله ولا تتعرضى للمكروه من زوجك فذلك أولى بك ثم خرجت من عندى فقالت سارسل اليك أختك تؤنسك وتبيت الليلة عندك فلم ألبث ان جاءت الجارية تبكى وتدعو على من ضربنى وأنا لا أكلمها ثم اضطجعت الى جانبى فلما استمكنت منها شددت يدى على فمها وقلت يا هذه تلك أختك مع الاشتر وقد قطع ظهرى بسببها وانت اولى من ستر عليها فاختارى لنفسك ولها فوالله لئن تكلمت لتكونن فضيحة شاملة ثم رفعت يدى عن فيها فاهتزت مثل القصبة من الروع وباتت معى ونلت منها الشهوة التامة و رافقتنى اصلح رفيق رافقته ولم أذق شيئاً الذ مما ذقت منها قط فلم نزل نتحدث وتضحك منى ومما بليت به حتى برق النور وجاءت جيداء فلما رأتنا ارتاعت وقالت من هذا عندك قلت أختك قالت وما السبب قلت هى تخبرك فانها عالمة به وأخذت ثيابى وأتيت صاحبى فاخبرته بما أصابنى وكشفت له عن ظهرى فاذا فيه ما الله به عليم فقال لقد عظمت منتك عندى ووجب شكرك وخاطرت بنفسك فلا حرمنى الله مكافاتك ؛؛ وعن رجل من بنى عامر انه خرج وهو غلام ما بقل وجهه وكان ذا جمال وهيئة صاحب غزل فهجم على قوم يتحملون وقد شدوا أثقالهم فبرزوا واذا امرأة جميلة قد تخلفت على جمل لها لاصلاح شأنها قال فوقفت عليها فاذا هى أحسن خلق الله وجهاً واغزله وأملحه فتلاقينا كلاماً غير كثير فقالت أسألك شيئاً فهل لك به علم قلت سلى فقالت ايهما احسن جردة الرجل أم المرأة قلت الرجل قالت بل المرأة فان احببت ان تعلم

ذلك علمته قالت وكيف اعلمه قالت اتجرد ذلك من ثيابي وارمي بها عني ثم امشي حتى ابلغ الاكمة ثم
اقبل حتى آتيك فتعطيني عهد الله وميثاقه لتفعلن كما فعلت فقلت لك عهد الله ان فعلت لافعلنه قال
فالقت ثيابها عن احسن ما نظرت اليه قط بياضا ونظافة وحسنا فلما انتهت الى قالت الوفاء قلت
الوفاء ونعمة عين فخلعت ثيابي وانا كاهي الفتيان واهياهم حتى مضيت بعد الغاية فلما انتصف بي
المدى سمعت خرخرة جملي فاذا هي قد جالت على ظهره لابسة ثيابي متنكبة قوسي قد لزمت
المحجة فناديتها فلم تعرج علي ولبست ثيابها وتخمرت بخمارها وركبت بعيرها وزجرته فانبعث
بي أثر الحي وأخذت شق الوحشي حتى ما أراها وجعلت أكف عن الجمل اذ خشيت ان ألحق
الظعن حتى رأوني من بعيد وجعلوا ينادون ويحك اقبلي وانا صامت لا أتكلم ولا أتقدم فلما طال
عليهم أمري بعثوا الجارية لهم مولدة فاقبلت تعدو حتى أتتني ونشطت خطام الجمل من يدي وأنا
متبرقع أحسن الناس وجها وعينا فنظرت الجارية في وجهي ساعة ثم قالت لقد أمسيت حديدة
الطرف وقادت الجمل حتى أتت الحي فقالت أم الجارية يا بنية لقد استحييت من الناس مما دعوتك
العشية ثم تأملت ونظرت وسائر النساء وقالت احداهن والله انه لرجل وفطن وانزلتني العجوز
وادخلتني الستر وقالت من أنت لا أفلحت قلت بل ابنتك لا أفلحت ولا انجحت وقصصت
عليها قصتها فقالت نشدتك الله الا اعرتني نفسك هزيعا من الليل فانا كنا على ان نبني بابنتي صاحبة
الجمل الليلة ومافي الحي رجل غير زوجها وهو انسان فيه لوثة ولا بد من ان أدخلك عليه فانك غلام
أمرد فلا ينكرك ولا أراه اقوى منك ان اعتركتما فلك عندي يد بيضاء وأقبلت واخت لابنتها
وخالتها فالبسنني ثوب العروس وطيبنني ثم دلفن بي نحو الرجل بعيد العتمة وقالت أمها انالك الفداء
تجلد ساعة بالامتناع فانه منصرف عنك وستأتيك الكافرة فادخلتني على مثل الاسد الا ان به
لوثة كما قالت فاعتركنا حتى اعيي وكف عني وطال بي الليل حتى سمعت خرخرة جملي فلم ألبث
الا هنيهة حتى جاءت أمها وخالتها وهي معهما فجعلنها مكاني وفتشت عن سرها فاذا هي قد ظلت مع
انسان كانت تهواه وأتيت ثيابي فنهضت مبادرا الا ألوي على شيء حذرا مما لقيت، قيل وملك
النعمان بن المنذر أربعين سنة فلم ترمنه سقطة غير هذه وهو انه ركب يوما فبصر بجارية قد خرجت
من الكنيسة فاعجبته جدا فدعا بعدي بن زيد وكان نديمه ووزيره فقال له يا عدي لقد رأيت
جارية لئن لم اظفر بها انه الموت ولا بد من ان اتلطف أو تتلطف لي حتى تجمع بيني وبينها قال ومن
هي، قال: سل عنها فقيل هي امرأة حكم بن عمر ورجل من اشرف الحيرة، قال، فهل اعلمت
احدا، قال: لا، قال: فاكتمه فاذا اصبحت فجدد لحكم كرامة وبرا فلما أذن للناس بدأ به فاجلسه
معه على سريره وكساه فاستعظم الناس ذلك فلما اصبح بدأ ايضا بالاذن له وجمله فانكر الناس
ذلك وقالوا، ما هذا الا لامر فصنع به ذلك اياما ثم قال له عدي، ايها الملك عندك عشر نسوة فطلق

احداهن ثم قل له فليتزوجها ففعل فلما دخل عليه قال يا حكم ما كانت نفسي تسمح بهذا لولد ولا لوالد فتزوج فلانة فقد طلقتها فخرج حكم الى عدى فقال يا أبا عمرو ما صنع الملك باحد ما صنع بي وما أدرى بما كافيه قال له عدى طلق امرأتك كما طلق لك امرأته ففعل وحظى بها عدى عنده وعلم حكم انه قد مكر به في امرأته وفيه يقول الشاعر

مافى البرية من أنثى تعادلها * إلا الذى أخذ النعمان من حكم

وحدث الفضل بن العباس عن الزبير بن بكار عن محمد بن بشير الخارجي قال ، قدم علينا رجلان من اهل المدينة يصيدان ومعهما نسوة والفساطيط مضروبة وكان سليمان بن عبد الله الاسلمى وابن اخ له مقيمين بناحية الروحاء فارسل النسوة الى سليمان وابن أخيه اما لكما حاجة فى الحديث فرد الرسول ان يكن لنا فيه حاجة فكيف لنا بذلك مع ازواجكن فقلن انما خرج ازواجنا للصيد وقد بلغنا ان لكم صاحبا يعرف من طلب الصيد مالا يعرفه غيره فلو طرح لهم شيئاً من ذكره لاسرعوا اليه وتخلفتم وتحدثتم ما شئتم يعنين به محمد بن بشير فضى اليه سليمان وابن اخيه فقالا ، يا أبا محمد ارسل الينا النسوة بكذا وكذا وسألونى ان اخرجك الى الصيد فقلت لا والله لا افعل ولا اتعب ولا انصب وانتم تتلهون وتتحدثون انا الذى أشد حبا وأكثر صبابة وشوقا فارسلا الى النسوة بمقالتى فارسلن الى رسولا وعاهدننى لئن أخرجتهم ليحتلن لى حتى اخلو معهن ليلة حتى الصبح فصرت اليهم وذكرت لهم الصيد فخرجوا معى فما زلت احدثهم بالصدق حتى اخذت فى الكذب مما يضارع الصدق حتى افنيته فاقمت معهم ثلاثة ايام ولياليها ثم انصرفوا من غير ان اصطدنا شيئاً فقلت فى ذلك

إنى انطلقتُ معى قومٌ ذَوُو حَسَبٍ * مافى خلائقهم زهوٌ ولا حمقُ
إنى لأعجبُ منهم كيف أخدعُهُم * أم كيف آفِكُ قوماً مابهم رَهَقُ
أظلُّ فى الارضِ أُلهيهم وأُخبرُهم * أخبارَ قومٍ وما كانوا ولا خلقوا
ولو صدقتُ لقلتُ القومُ قد دخلوا * حينَ انطلقنا وإنى ساعةَ انطلقوا
فلو أُجاهدُ ماجاهدتُ دُونكمُ * فى المشركين لأدركتُ الأُولى سبقُوا
إنْ كنتُ أبداً جارى من حلائلكمْ * والدَّهرُ ذو عَنَفٍ أيَّامهُ طُرُقُ
فإنَّ كلَّ جديدٍ عائدٌ خلقاً * فلنْ يعودَ جديداً ذلكَ الخلَقُ

قال فظفر اصحابى بالحديث والمغازلة وانا بالجهد والخيبة مع أتم القيادة والتعب وكذب المحادثة ، وحدثنا وهب بن سليمان عن عمه الحسن بن وهب قال خرج محمد بن عبد الملك الزيات من عند الواثق ومزيد بن محمد بن ابى الفرج الهارونى وكيل عبد الله بن طاهر فاذا بجارية حسناء

فى منظرة لها فلما بصرت به ورأت موكبه وكان جميلا ظريفا أومأت اليه بالسلام وأومأت بيدها الى صدرها فاعجب بها فلما صار الى منزله دخلت اليه فرأيته بخلاف ما عهدت وكان لا يكتمنى شيئا فقلت مالى أراك مدلها يا أبا الحسن قال رأيت شيئا أنا فيه مفكر ثم أنشأ يقول

وا بابى مُخَضَّبٌ * أومى الينا بيده
أومى بها يُخبرُنى * راحتهُ فى كبده
أنَّ الضنى فى جسدى * يُخبرُنى عنْ جسده
فليسَ للحاسدِ إلا * خصلةٌ من حسده

ثم شرح لى القصة ثم انصرفت من عنده ووافيت مولى الجارية فسألته أن يبيعها فقال اشتريتها للامير عبد الله بن طاهر وليس الى بيعها من سبيل فلم أزل به حتى اشتريتها بخمسين الف درهم ووجهت بها اليه وكتبت اليه

هذا محبُّك مطوىٌّ على كمده * عبرى مدامعهُ تجرى على جسده
له يدٌ تسالُ الرحمنَ راحتها * مما به ويدٌ أخرى على كبده

فقبلها وحسن موقعها عنده فولانى خراج ديار ربيعة فاصبت فيها الف الف درهم : قال السجستانى : أرق الرشيد ذات ليلة فوجه الى عبد الملك الاصمعى والى الحسين الخليع فاحضرهما وشكا اليهما مدافعة نومه وشدة أرقه وقال لهما ٠ عللانى بحادثة كما وابدأ أنت ياحسين ، قال : نعم يا أمير المؤمنين خرجت فى بعض السنين منحدرا الى البصرة وممتدحا لآل سليمان فقصدت محمد بن سليمان بقصيدتى فقبلها وأمرنى بالمقام فخرجت ذات يوم الى المربد وجعلت المهالبة طريقى فأصابنى حرّ وعطش فدنوت من باب دار كبير لاستسقى فاذا أنا بجارية أحسن ما يكون كانها قضيب يتثنى وسناء العينين زجاء الحاجبين مهفهفة الخصر حاسرة الرأس مفتوحة الجرّ بان عليها قميص لاذ جلنارى ورداء عدنى قد علات شدة بياض بدنها حمرة قميصها تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمانتين وبطن كطى القباطى وعكن مثل القراطيس لها جمة جعدة المسك محشوة وهى يا أمير المؤمنين متقلدة خرزا من ذهب والجوهر يزهر بين ترائبها وعلى صحن جبينها طرة كالسبج وحاجبان مقرونان وعينان كحلاوان وخدان أسيلان وأنف أقنى تحته ثغر كاللؤلؤ وأسنان كالدر وقد غلب جربانها سواد المسك والغالية ودابر العود النهدى على لبتها عبق الخلوق وهى والهة حيرى واقفة فى الدهليز وجائية تخطر فى مشيتها قد خالط صرير نعلها أصوات خلخالها كانها تخطر على أكباد محبيها فهى كما قال الافوه الاودى

ليس منها ما يقالُ لها * كملتْ لوْ أنَّ ذا كملا

كلُّ جزءٍ من محاسنِها * كائنٌ من حسنِها مثلا
لو تمنّت في براعتها * لم تجد في حسنها بدلا

فهبتها والله يا أمير المؤمنين ثم دنوت منها لاسلم عليها فاذا الدار والدهليز والشارع قد عبقت بالمسك فسلمت عليها فردت السلام بلسان منكسر وقلب حزين محرق فقلت لها يا سيدتي أني شيخ غريب أصابني عطش فامري لي بشربة من ماء تؤجري . قالت : اليك عني يا شيخ فاني مشغولة عن سقي الماء وادخار الاجر ، فقلت لها ، ياسيدتي لاية علة ، قالت ، لاني عاشقة من لا ينصفني وأريد من لا يريدني ومع ذلك فاني ممتحنة برقباء فوق رقباء ، قلت لها ، ياسيدتي هل على بسيط الارض من تريدينه ولا يريدك ، قالت ، انه لعمري على ذلك الفضل الذي ركب الله فيه من الجمال والدلال ، قلت لها ، ياسيدتي فما وقوفك في الدهليز ، قالت ، هو طريقه وهذا أوان اجتيازه ، قلت لها ، ياسيدتي هل اجتمعتما في خلوة في وقت من الاوقات أم حبٌّ مستحدث ، فتنفست الصعداء وأرخت دموعها على خديها كطلٍّ على ورد ، وأنشأت تقول .

وكنا كغصني بانةٍ وسْط روضةٍ * نشمُّ جنا اللذاتِ في عيشةٍ رغد
فافرد هذا الغصنَ من ذاك قاطعٌ * فيا من رأى فرداً يحنُّ إلى فردِ

قلت لها ، ياهذه ما بلغ من عشقك هذا الفتى ، قالت ، أرى الشمس على حائطهم أحسن منها على حائط غيرهم وربما أراه بغتة فابهت وتهرب الروح عن جسدي وأبقى الاسبوع والاسبوعين بغير عقل ، قلت لها ، عزيز عليَّ وأنت على ما بك من الضنى وشغل القلب بالهوى وانحلال الجسم وضعف القوى ما أرى بك من صفاء اللون ورقة البشرة فكيف لو لم يكن بك من الهوى شيء أراك كنت مفتنة في أرض البصرة ، قالت ، كنت والله يا شيخ قبل محبتي لهذا الغلام تحفة الدلال والجمال والكمال ولقد فتنت جميع ملوك البصرة وفتنني هذا الغلام ، فقلت ياهذه ما الذي فرق بينكما ، قالت ، نوائب الدهر وأوابد الحدثان ولحديثي وحديثه شان من الشان وأنبيك أمري اني كنت افتصدت في بعض أيام النيروز فامرت فزين لي وله مجلس بانواع الفراش وأواني الذهب ونضد نا الرياحين والشقائق والمنثور وأنواع الازهار وكنت دعوت لحبيبي عدة من متظرفات البصرة فيهن من الجواري جارية شهران وكان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمائة الف درهم وكانت الجارية ولعت بي وكانت اول من اجابت الدعوة وجاءتني منهن فلما حصلت عندي رمت بنفسها عليَّ تقطعني عضاً وقرصاً ثم خلونا نتمز ز القهوة الى ان يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا فتارة هي فوقي وتارة انا فوقها فحملها السكر على ان ضربت يدها على

تسكتى خلاتها ونزعت هى سراويلها وصارت بين فخذى كمصير الرجال من النساء فبينا نحن كذلك اذا دخل على حبيبى وقد التزق قرطى بخلخالى فلما نظر الينا اشمأز لذلك وصدف عنى وعنها صدوف المهرة العربية اذا سمعت صلاصل اللجم وعض على أنامله وولى خارجا فانا ياشيخ منذ ثلاث سنين أسل سخيمته واستعطفه فلا ينظر إلى بعين ولا يكتب إلى بحرف ولا يكلم لى رسولا : قلت لها . ياهذه أمن العرب هو أم من العجم . قالت . هو من جلة ملوك البصرة . قلت . من أولاد دنياها أو من أولاد تجارها . قالت . من عظيم ملوكها . قلت لها . أشيخ هو أم شاب . فنظرت إلى شزراً وقالت . انك لاحمق أقول هو مثل القمر ليلة البدر امرد اجرد وطرة رقعاء كحنك الغراب تعلو دشترة فى بياض عطر لباس ضارب بالسيف طاعن بالرمح لاعب بالنرد والشطرنج ضارب بالعود والطنبور يغنى و ينقر على أعدل وزن لا يعيبه شئ إلا انحرافه عنى لانفصالى منه بل حقد الما رآنى عليه . قلت . ياهذه وكيف صبرك عنه . فانشأت تقول

أمّا النهارَ فمستهامٌ والهٌ * وجفونُ عينى ساجفاتٌ تدمعُ
والليلُ قدأرعى النّجومَ مفكّراً * حتى الصباحِ ومُقلتى لاتهجعُ
كيف اصطبارى عنْ غزالٍ شادنٍ * فى لحظِ عينيهِ سهامٌ تصرعُ
وجهٌ يضئ وحاجبانِ تقوّسا * وكأنّ جبهتَهُ سراجٌ يلمعُ
و بياضَ وجهٍ قدْ أشيبَ بحمرةٍ * فى وجنتيهِ كأنهُ مستجمعُ
والقدُّ منهُ كالقضيبِ إذا زهى * والغُصْنُ فى قنوائهِ يترعرعُ
تمتْ خلائقهُ وأكملَ حُسنهُ * كمثالِ بدْرٍ بعدَ عشرٍ أربعُ

قلت لها ياسيدتى مااسمه وأين يكون ، قالت تصنع به ماذا قلت اجهد فى لقائه واتعرف الفضل بينكما فى الحال قالت على شريطة قلت ، وماهى قالت تلقاناذا القيته وتحمل لنااليه رقعة قلت لاأكره ذلك قالت ، هو ضمرة بن المغيرة بن المهلب بن أبى صفرة يكنى بابى شجاع وقصره فى المربد الاعلى وهو اشهر من ان يخفى ثم صاحت فى الدار ياجوارى دواة وقرطاسا وشمرت عن ساعدين كانهما طومار افضة ثم حملت القلم وكتبت بسم الله الرحمن الرحيم سيدى ترك الدعاء فى صدر رقعتى ينبئ عن تقصيرى ودعائى ان دعوت يكون هجنة فلولا ان بلوغ المجهود يخرج عن حد التقصير لما كان لما تكلفته خادمتك من كتب هذه الرقعة معنى مع ايأسها منك وعلمها بتركك الجواب سيدى جد بنظرة وقت اجتيازك فى الشارع الى الدهليز تحيى بها انفسا ميتة

اسرى وأخطط بخط يدك بسطها الله بكل فضيلة رقعة فاجعلها عوضا من تلك الخلوات التى كانت بيننا فى الليالى الخاليات التى انا ذاكرتها سيدى الست لك محبة وبك مدنفة فان رجعت مولاى الى الاشبه بك وانقذتنى من عوارض التلف كنت لك خادمة ولك شاكرة فلما افرغت من الكتاب يا أمير المؤمنين ناولته اياى فقلت لها يا سيدتى قد وجب حقك على ولزمتك حرمتى لطول وقوفى عليك وكنت قد سألت شربة ماء قالت استغفر الله ما فهمنا عنك ثم صاحت فى الدار اخرجنا الينا شرابا من ماء وغير ماء فما كان الا ان اقبل ثلاثون وصيفة بايديهن الطاسات والجامات واقداح مملوءة ماء وثلجا وفقاعا وشرابا فشربت الماء ثم قلت يا سيدتى مع قدرتك على هذا من استواء الحال وكثرة الخدم والعبيد والجوارى فلم لا تأمرين احدى الجوارى ان تقف مراعية للغلام حتى اذا مر اعلمتك فتخرجين اليه قالت لا تغلط يا شيخ فتمثلت

عَبالةَ عُنقِ الليثِ من أجلِ أنهُ * إذا رامَ أمراً قامَ فيهِ بنفسهِ

ثم انصرفت عنها يا امير المؤمنين فلما اصبحت غدوت على محمد بن سليمان فوجدت مجلسه محتفلا بالملوك وابناء الملوك ورايت غلاما قد زان المجلس وفاق من فيه حسنا وجمالا قد رفعه الامير فوقه فسألت عنه فقيل ضمرة بن المغيرة فقلت فى نفسى بالحقيقة حلّ بالمسكينة ما حل هو والله قاتلها فيما أرى ثم قمت فقصدت المربدو وقفت على باب داره فاذا هو قد وردفى موكب جليل فوثبت اليه وبالغت فى الدعاء والثناء ثم دنوت منه وفاوضته فى الذى جرى بينى وبينها وناولته الرقعة فلما قرأها ضحك ثم قال يا شيخ قد استبدلنا بها فهل لك فى ان تنظر الى البديل قلت نعم فصاح فى الدار يا جوارى اخرجن الينا الديذاقا فما كان الا ان طلعت جارية وضيئة السكمين ناهدة الثديين تمشى مشية مستوحل ترتج من دقة خصرها على كبر عجز ها ذات نخذين وعجيزتين تختطفان الانفس اختطافا على رأسها بطيخة من الكافور مكتوب على جبينها

آهٍ منَ الحُبِّ آهْ * ما أقتلَ الحبَّ وأضناهْ

ودون ذلك مكتوب

عَيّارةٌ ميّاسةٌ فى الخُطى * رخيمةُ الدَّلِّ صَيودٌ للرّجالِ

وقد كتبت بالغالية على عصابتها ثلاثة أسطر وهى

إذا غضِبتْ رأيتَ الناسَ قتلى * وإنْ رَضيَتْ فارواحٌ تعودُ

لها فى عينِها لحظاتُ سِحرٍ * تُميتُ بها وتُحيي منْ تُريدُ

وتَسْبي العالمينَ بمُقلتيها * فكلُّ العالمينَ لها عبيدُ

فناولها الرقعة وقال اقرئى واجبى صاحبتك فلما قرأت الرقعة اصفرت وعرقت ومزقتها

وضربت بها في وجه الغلام وغابت في الستر فقال لي اما انت ياشيخ فاستغفر الله مما امشيت فيه قلت بل انت استغفر الله من هجرانك اياها وتركك اتيانها والله ما ارى لها في البشر نظيرا قال لا افعل ولوانها في حسن يوسف وكمال حواء فخرجت يا امير المؤمنين وانا اجر ذيلي حتى وردت عليها فاستاذنت ودخلت فبدأت بي فقالت ما وراء الشيخ قلت البؤس والياس قالت لا عليك فاين الله والقدر ثم امرت لي بخمسمائة دينار وعشرة اثواب وخرجت من عندها وانا ممتدح لآل سليمان فلم يكن لي والله الا معرفة خبرها في العام الذي عدت فيه الى البصرة فوردت عليها فوجدت على بابها امرا ونهيا واسبابا لا تكون الا على باب الخلفاء فاستاذنت فدخلت فاذا فوق راسها ثلاثون رجلا من شيوخ وشبان وخدم وقوف بسيوفهم فلما نظرت الي عرفتني ووثبت الي وقبلت راسي وقالت ياشيخ الحمد لله الذي جعل العبيد بالصبر ملوكا وجعل الملوك بالتيه عبيدا ان الذين تراهم وقوفا اصحاب ضمرة يسلون سخيمتي ويسالونني الرجوع له والله لا نظرت اليه في وجه ولوانه في حسن يوسف وكمال حواء فسجدت يا امير المؤمنين شماتة بضمرة وتقربا الى الجارية فقال بعض حجاب ضمرة مهلا ياشيخ فمن طاب محضره طاب مولده ثم انصرفوا فناولتني خريطة فيها اوراق فقالت هذا اول ما ورد علينا منه فاذا فيها ثوب خز ابيض يقق مكتوب فيه بماء الذهب بسم الله الرحمن الرحيم لولا تغاضي عليك ادام الله حياتك لوصفت شطرا من غدرك وبسطت سوط عتبي عليك وحكمت سيف ظلامتي فيك اذ كنت الجانية على نفسك والمظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء المؤثرة علينا غيرنا فخالفت هواي وفرشت نفسك لها على حالتي جد وهزل وصحو وسكر والمستعان الله على ما كان من سوء اختيارك ولقد ضمنت رقعتي هذه ابيات شعر انت المتفضلة بالنظر اليها وهي

قَطعَ قلبي فراقُكمْ قِطعاً * وكنتُ أقضي لبينكم جزعا
ما تكحلُ العينُ بالرُّقادِ ولا * ينامُ جنبي في الليلِ مُضطجعاً
لا عيشَ لي مذ نأتْ ولا وجدتْ * عيناي في الارضِ قط متسعاً

قلت لها افلا تحدثيني كيف سليت عنه وابتلي قالت كيف لا احدثك افتصدت تفاحة جارية محمد بن سليمان فدعينا الى خورنق لمحمد بن سليمان فلما اطعمنا دعت لنا بالشراب فبينا نحن كذلك اذا بحراقة سلطانية قد وردت وفيها عدة من ابناء الملوك وفيهم هذا العيار ولا علم لي بمكانه وكنت حملت العود وغنيت

أبلى فؤادي وشفني الارقُ * والدمعُ منْ مُقلتيَّ يستبقُ
منْ حبِّ ظبي أغنَّ ذي دعجٍ * وقلبُهُ للشفاءِ مُنطبقُ

فلما وجبت العتمة انصرفنا وأبطات الجارية وأتاني هؤلاء القوم من عنده يسلون سخيمتي ويستعطفونني عليه ثم انصرفت عنها يا أمير المؤمنين ودخلت الحمام من ساعتي فما كان الا أن دخلت حتى أتاني غلامي فقال جماعة من جلة الناس قد طرقوا دارك يطلبونك فلبست ثيابي وخرجت مسرعا فاذا بضمرة قد كبس داري في عدة من الرؤساء فقال والله لا برحنا حتى تنفق علينا الخمسمائة دينار التي أخذتها من الجارية سيدتي قلت أي والله بالسمع والطاعة ثم جذبني الى نفسه فلم يزل يناظرني في أمرها حتى أقبل المساء ثم انصرف الى رحله فلما كان من الغد وردت له رقعة مع خادم وكيس فيه ألف دينار واستزارني فقبلت ذلك وصرت معه اليه فلما نظر الى تنحى عن مقعده وأقعدني ثم قال هذا قد أعددته للنيروز لسيدتي هدية وانت أولى من تجشم مع الخادم اليها قلت السمع والطاعة ثم صاح في الدار هاتوا الهدية فاذا مائة تخت من ثياب وصندوق من ذهب مقفل عليه فقال لي في التخت والصندوق مبلغ ثلاثين ألف دينار وانت أولى من تفضل بالايصال فصرنا اليها واستاذنا فلما مثلنا بين يديها انكرتني وقالت من الشيخ قلت الخليع شاعر العراق ومعي هدية عبدك ضمرة فصاحت في الدار تلك فاذا جارية كانها الظبية المنفلتة من الشبكة قالت لها خذي هذه الهدايا وفرقيها على جواري الدار ثم قالت أيطمع الخنوص من أن يجتمع معي بعد قبولي الهدية في ثلاثين سنة قلت لها العفو عند المقدرة يعدل عتق رقبة قالت ففي خمس عشرة سنة قلت لها اقتضيها أولى بك قالت ففي ثلاثة سنين قلت لها حطة أخرى وقد اجتمعنا قالت لا والله لا آكل ولا أشرب حتى آتيه وأمرت ان يسرج لها وبادرت الى باب ضمرة مبشرا فما وصلت أو سمعت صلاصل اللجم فاذا هي قد سبقتني في جواريها وخدمها فدخلت فاذا هما يتعانقان ويتعاتبان فقلت ياسيدتي ما أنتما الى شيء أحوج منكما الى خلوة قالا هو ذاك فانصرفت عنهما ثم بكرت عليهما فاذا هي في المرقد الاول جالسة عليها جبة وشي مطير وهي تعصر الماء عن ذوائبها وتصلح قرونها فاستحيتني وقالت لا تفكرن في ريبة فوالله ما صلينا البارحة حتى بعثت الى عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي فزوجت نفسي سيدي ولكن صر اليه فانه في المرقد الثاني فصعدت اليه فلما نظر الى وثب الى وقبل بين عيني وقال ياشيخ قد جمع الله بيني وبين سيدتي بك ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب الى ابن نوح الصيرفي في ثلاثة آلاف دينار فرجعت اليها فقالت بماذا برك سيدي فاقرأتها الرقعة فقالت نعجل اليك مثلها فدعت عمال وطيار ووزنت ثلاثة آلاف دينار ودعت بعشرة أثواب من ثياب مصر وقالت هذه وظيفتك علينا كل عام فخرجت من عندها وأخذت مرفوعي من آل سليمان وانصرفت الى العراق وكان الرشيد متكئاً فاستوى جالسا وقال أوه يا حسين لولا أن ضمرة سبقني اليها لكان لي ولها شان من الشان

﴿ ومنه مع الشعراء ﴾ قال استاذنت بنت لعبد الملك بن مروان في الحج فاذن لها وكتب

الى الحجاج يأمره بالتقدم الى عمر بن أبي ربيعة ان لا يذكرها في شعره فلما بلغ عمر مقدمها لم يكن له همة الا ان يتهيأ بأجمل ما يقدر عليه من الحلل والثياب وضربت لها قبة في المسجد الحرام فكانت تكون فيها نهارا فاذا أمست تحولت الى منزلها لتنظر اليه وتجلس بازاء القبة وقد خبر عمر بشانها فاذا أرادت الطواف أمرت جواريها فيسترنها بالمطاريف فكانت تتطلع الى عمر كثيرا وكانت تسال من دخل عليها عنه رجاء أن يكون قد قال شيئاً فلم يفعل حتى قضت الحج ورحلت ونزلت من مكة على أميال فأقبل راكب من مكة فسالته من أين أقبلت ، قال من مكة ، قالت عليك وعلى فرقة أنت منها لعنة الله قال ولم يا ابنة عبد الملك قالت قدمنا مكة فاقمنا أشهراً فما استطاع الفاسق عمر بن أبي ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتا كنا نلهو بها في سفرنا هذا قال فلعله قد فعل قالت فاذهب اليه واساله ولك في كل بيت تاتيني به منه عشرة دنانير فاقبل الرجل وأتى عمر ابن أبي ربيعة فاخبره الخبر فقال له قد فعلت ولكن أحب أن تكتم علي قال افعل ثم انشده

راعَ الفؤادَ تفرُّق الاحبابِ * يومَ الرَّحيلِ فهاجَ لي أطرابي

فظللتُ مكتئباً أكفكفُ عبرةً * سحًّا تفيضُ كوابلِ الاسرابِ

لمّا تنادَوْا للرَّحيلِ وقرَّبوا * بُزْلَ الجمالِ لطيَّةٍ وذهابِ

كادالاسى يقضي عليك صبابةً * والوجهُ منك لبينِ إلفِكَ كابي

قالتْ سُعيدةُ والدموعُ زوارفٌ * منها على الخدَّينِ والجلبابِ

ليتَ المُغيري الذي لم نجزهِ * فيما أطالَ تصيُّدي وطلابي

كانتْ تردُّ لنا المُنى أيامنا * إذ لا نُلامُ على هوىً وتصابي

أيامَ نكتمُ ودَّنا ونودُّهُ * سرًّا مخافةَ منطقِ المغتابِ

أُخبرتُ ما قالتْ فبتُّ كأنما * يُرْمى الحشا بنوافذِ النشّابِ

فبعثتُ جاريتي وقلتُ لها اذهبي * قولي لها في خفيةٍ وقرابِ

أسعيدُ ما ماءُ الفراتِ وطيبهُ * مني على ظمإٍ وطيبِ شرابِ

بألذَّ منكِ وإنْ نأيتِ وقلَّما * ترعى النساءُ أمانةَ الغيّابِ

إنْ تبذُلي لي نائلا أشفى به * سقمَ الفؤادِ فقدْ أطلتِ عذابي

وعصيتُ فيكِ أقاربي فتقطَّعتْ * بيني وبينهمُ عُرى الأسبابِ

فبقيتُ كالمهريقِ فضلةَ مائهِ * في حرِّ هاجرةٍ للمعِ سرابِ

ثم أتى اليها بالابيات فاعجبت بها وأمرت جواريها بحفظها ثم وفت له بما وعدت وسلمت اليه في كل بيت عشرة دنانير وقال أخبرنا محمد بن خلف قال أخبرني ابو بكر العامري قال حدثني

موسى بن عمر بن أفلح مولى فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قال حدثني بلال مولى ابن أبي عتيق قال قام الحارث بن عبد الله بن عباس بن ابى ربيعة من الحج فاتاه ابن ابى عتيق ، فقال ، كيف تركت اباالخطاب فقال هجرت الثريا عمر فقال

مَنْ رَسولى إلى الثريا فإنى * ضِقتُ ذرعاً بهجرها والكتابِ
سَلبتنى مُجاجةُ المِسكِ عقلى * فَسلوها بما يحلُّ اغتصابى
أبرزُوها مثلَ المهاة تهادى * بين خمسٍ كواعبٍ أتراب
وهى ممكورةٌ تحيَّر منها * فى أديم الخدَّين ماءُ الشباب
وتكتنفنها كواعبُ بيضٌ * واضحاتُ الخدُودِ والاقراب
فى سِخابٍ من القرنفلِ والدُّ * رِّ نفيسٍ واهاً لهُ من سِخاب
قلتُ لماضرَبْنَ بالسَّجفِ دونى * ليسَ هذا لودِّنا بثواب
فتبدَّتْ حتى إذا جُنَّ قلبى * حالَ دونى ولائد بالثيابِ
حين شبَّ القتولَ والعنقَ منها * حُسْنُ لون يلف كالزِّرْيابِ
ذكرتنى ببهجةِ الشمسِ لمّا * طلعتْ فى دُجُنَّةٍ وسحاب
دُمية عندَ راهبٍ وقسيس * صوَّرُوها فى مذبح المحراب
فارجحنّتْ فى حُسنِ خلقٍ عميم * تتهادى فى مشيها كالحباب
ثمّ قالوا تحبُّها قلت بهراً * عددَ الرّملِ والحصا والتُّراب

وقال لغلامه انطلق بكتابى هذا الى ابن ابى عتيق بالمدينة فادفعه اليه فاقبل الغلام بالكتاب حتى دفعه اليه فلما قرأه قال والله أنا رسوله اليها فسار حتى قدم مكة لا يعلم به اهله فاتى منزله فوجده غائبا فانطلق غلام عمر الى عمر ، فقال ، ان رجلا قدم وهو يطلبك من شانه وهيئته كذا ، قال ، ويحك ذلك ابن ابى عتيق اذهب اليه فقل له ان مولاى ياتيك الآن وكان عمر على فرسخين بل على راس ثلاثة اميال من مكة فاتاه الغلام فاخبره فقال اسرج لى انت برذون عمر فان دابتى قد تعبت وكلت فاسرجه له فركب واتى الحى فصهل البرذون وسمعت الثريا صهيله ، فقالت لجوار يها هذا هو برذون الخبيث عمر ثم دعت ببغلة لها فوضعت عليها رحلها فخرجت فاذا هى بابن ابى عتيق فقالت مرحبا بعمى ماجاء بك ياعم ، قال ، انت والفاسق جئتما بى قالت اما والله لو بغيرك تحمل علينا ما اجبناه ولكن ليس لك مدفع امر ربنا بحوه فاقبل حتى انتهى الى عمر فخرج عمر اليه وقبل يده ثم قال انزل جعلنى الله فداك ، فقال ماء مكة على حرام حتى اخرج منها ثم دعا ببغلته فركبها وانصرف الى المدينة وخلا عمر بالثريا . وحدث الزبير ابن بكار عن

أبي محرم عن ابراهيم بن قدامة قال قال عمر بن أبي ربيعة ألا أحدثك حديثاً حلواً ، قال قلت نعم قال بينا أنا جالس اذ جاءني خالد الخريت ، فقال يا أبا الخطاب هل لك في هند وصواحبها فقد خرجن الى نزهة ، قلت وكيف لي بذلك قال تلبس لبسة أعرابي وتعتم عمامته وتركب مركبه كانك ناشد ضالة ، قال ففعلت وجئت حتى وقفت عليهن أنشد ضالتي فقلن إنزل فنزلت وقعدت أحادثهن وأغازلهن فلما رمت النهوض قالت لي هند اجلس لا جلست أنت ألا ترى أنك وقفت علينا غريبا ونحن والله وقفنا على غربتك نحن بعثنا خالداً وخدعناه وأطمعناه في أنفسنا حتى جاء بك فقال خالد صدقن والله خدعتني وخدعنك فجلست وتحدثنا فانشدتهن ، فقالت هند ياسيدي لقد رأيتني منذ أيام وقد أصبحت عند أهلي فادخلت رأسي في جيبي ونظرت الى هني فاذا هو ملء الكف ومنية المتمني فناديت يا عمراه يا عمراه يا عمراه ، قال عمر : فقلت يا لبيك يا لبيك يا لبيك ثلاثا ومددت في الثالثة صوتي فضحكت وحادثتهن ساعة ثم ودعتهن وانصرفت فذلك قولي

عَرَفْتُ مَصيفَ الحيّ والمتربّعا * ببطن حُلَيّاتٍ دَوَارِسَ بلقعا
إلى السّفحِ منْ وادي المغمّسِ بُدِّلَتْ * مَعالِمُهُ وَبْلاً ونكباءَ زعزعا
لهندٍ وأترابٍ لهندٍ إذِ الهوى * جميعٌ وإذْ لمْ نخشَ أنْ يتصدّعا
وإذْ نحنُ مثلُ الماءِ كان مزاجُهُ * إذا صفّقَ السّاقي الرّحيقَ المشعشعا
وإذْ لا نطيعُ الكاشحين ولا نرى * لواشٍ لدينا يطلُبُ الصّرْمَ مطمعا

وقال عمر ما رأيت يوما غابت عواذله وحضرت عواذره بأحسن من يومنا ولا صبوة كصبوتنا ولا قيادة كقيادة خالد ولا أملح ولقد وصفت ذلك في شعر ، فقلت في عام ما تقدم

أتاني رسولٌ منْ ثلاثِ حرائرٍ * ورابعةٍ تزْكو لها الحسنُ أجمعا
فقلتُ لِمُطْرِيهنّ في الحسنِ إنّما * ضررْتَ فهلْ تستطيعُ نفعاً فتنفعا
لئنْ كانَ ما حدّثتَ حقّاً لما أرى * كمثلِ الاولى أطريتَ في الناسِ أربعا
وهيّجتَ قلباً كانَ قدْ ودّعَ الصِّبا * وأشياعَهُ فاشفعْ عسى أنْ تُشفّعا
فقالَ تعالَ انظرْ فقلتُ فكيفَ لي * أخافُ مَقاماً أنْ يَشيعَ ويَشنعا
فقالَ اكتفلْ ثمّ التثمْ وأتِ باغيا * فسلّمْ ولا تُكثرْ بأنْ تتورّعا
فإنّي سأخفي العينَ عنكَ ولا تُرى * مخافةَ أنْ يفشو الحديثُ فيُسمعا
فاقبلتُ أهوى مثلَ ما قالَ صاحبي * لموعدِهِ أزجي قعوداً موقّعا
فلمّا تواقفنا وسلّمتُ أشرقتْ * وُجوهٌ زهاها الحُسنُ أنْ تتقنّعا

تبالهن بالعرفان لما عرفنني * فقلن امرؤ باغ أضل وأوضعا
فلما تنازعن الاحاديث قلن لي * أخفت علينا ان نغر ونخدعا
فما جئتنا إلا على وفق موعد * على ملاء منا خرجنا له معا
رأينا خلاء من عيون ومجلسا * دميث الثرى سهل المحلة ممرعا
وقلن كريم نال وصل كرائم * وحق له في اليوم أن يتمتعا
وفيهن هند تكمل الهم والمنى * وإخداع عيني كلما رمت مهجعا

قال ولما أنشد عمر بن أبي ربيعة بن أبي عتيق قصيدته التي يقول فيها :

فاتتها طبة عالمة * تخلط الجد مرارا باللعب
ترفع الصوت إذ لانت لها * وتراخى عند سورات الغضب

قال ابن أبي عتيق امرأتي طالق ان لم يكن الناس في طلب مثل هذه منذ قتل عثمان يجعلونها خليفة فلم يقدر واعليها وأنت تريدها قوادة ، قال ولما هجا كثير بني ضمرة فقال

ويحشر نور المسلمين أمامهم * ويحشر في أستاه ضمرة نورها

اشتدت بنو ضمرة عليه وعلى عزة وأرادوا قتله ووضعوا له العيون فمكث شهرا لا يصل اليها فالتقى جميل وكثير فشكى أحدهما الى صاحبه ما يلقى ، فقال جميل أنا رسولك الى عزة فاخبرني ما كان بينكما ، قال آخر ما لقيتها بالطلحة مع أتراب لها قال فاتاهم جميل وهو ينشد ذودا له ففطنت عزة ، فقالت تحت الطلحة ألتمس ذودا هنالك فانصرف جميل فاخبر كثيرا فلما كان في بعض الليل أتيا الطلحة وأقبلت عزة وصاحبة لها فتحدثا مليا وجعل كثير يرى عزة تنظر الى جميل وكان جميلا وكثير دميما فغضب كثير وغار عليها وقال لجميل انطلق بنا قبل أن يصبح علينا الصبح فانطلقا فعند ذلك يقول

رأيت ابنة الشبلي عزة أصبحت * كمحتطب ما يلق بالليل يحطب
وكانت تمنينا وتزعم أننا * كبيض الأنوق في الصفا المتغيب

ثم قال كثير لجميل متى عهدك ببثينة ، قال في أول الصيف بوادي الدوم ومعها جوار يغسلن ثيابا فخرج كثير حتى أناخ بهم وهو يقول

وقلت لها يا عز أرسل صاحبي * على بعد دار والرسول موكل
بأن تجعلي بيني وبينك موعدا * وأن تأمريني بالذي فيه أفعل
أما تذكرين العهد يوم لقيتكم * بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل

فعلمت بثينة ما أراد فصاحت اخسأ اخسأ فقال عمها ما دهاك يا بثينة ، قالت ان كلبا يأتينا

من وراء هذا التل فيأكل ما يجد ثم يرجع فرجع كثير . وقال لجميل قد وعدتك التل فدونك فخرج جميل وكثير حتى انتهيا الى الدومات وقد جاءت بثينة فلم تزل معه حتى برق الصبح وكان كثير يقول ما رأيت مجلساً قط أحسن منه . عمر بن شبة عن اسحق ابن ابراهيم الموصلي . قال حدثني شيخ من خزاعة قال ذكرنا ذا الرمة وعندنا عصمة بن مالك الفزارى وهو يومئذ ابن عشرين ومائة سنة فقال اياى فاسألوا عنه كان من أظرف الناس خفيف العارضين آدم حلو المضحك اذا أنشد اختصر وأتانى يوماً فقال ان مية منقرية وان بنى منقر أخبث حى واعلمه بأثر فهل عندك من ناقة نزورها عليها قلت أى والله عندى اثنتان قال فسر نا فخرجنا حتى أشرفنا على الحى وهم خلوف فعرف النساء ذا الرمة فعدلن بنا الى بيت مىّ وأنخنا عندهن فقلن لذى الرمة أنشدنا يا أبا الحارث فقال أنشدهن فانشدتهن قوله

نظرتُ الى أظعان مىٍّ كأنها * ذُرى النخل أو أثلٌ تميدُ ذوائبه
فأسبلت النيرانُ والصدرُ كاتمٌ * بمغرورقٍ نمَّت عليه سواكبه
بكى وامقٌ جاء الفراقُ ولم تجلْ * جوائلها أسرارَه ومعاتبه

فقالت ظريفة منهن ابكى اليوم فمررت فيها حتى انتهيت الى قوله

إذا سرحتْ من حبّ مىٍّ سوارحٌ * على القلب آبتهُ جميعاً عوازبه

فقالت الظريفة قتلته قتلك الله فقالت ما أصحه وهنيئاً له فتنفس ذو الرمة تنفساً كادت حرارته تساقط لحيى ثم مررت فيها حتى انتهيت الى قوله

وقد حلفت بالله مية ما الذى * أقول لها إلا الذى أنا كاذبه
إذاً فرمانى الله من حيث لا أرى * ولا زال فى أرضى عدوٌّ أحاربه

فالتفتت مىّ الى ذى الرمة فقالت ويحك خف عواقب الله ثم أنشدت الى أن انتهيت الى قوله

إذا نازعتك القولَ ميّةُ أو بدا * لك الوجهُ منها أو نضا الدرعَ سالبه
فيالكَ من خدٍّ أسيلٍ ومنطقٍ * رخيمٍ ومن خلقٍ يعللُ جاذبه

فقالت تلك الظريفة أما القول فقد نازعتك والوجه فقد بدا لك فمن لنا بان ينض الدرع سالبه فقالت لها مىّ قاتلك الله ما أنكر ما تجيئين به اليوم فتحادثنا ساعة ثم قالت تلك الظريفة ما أحوج هذين الى الخلوة فنهضت وسائر النساء فصرت الى بيت قريب منهما حيث أراهما فما ارتبت بشئ ولا رأيت أمراً كرهته فلبثت ساعة ثم أتانى ومعه قارورة وثلاث قلائد فقال هذا طيب زودتناه مىّ وقلائد أتحفتك بها ابنة الجودى فكنا نختلف اليها حتى انقض المربع ودعانا الصيف فرحلوا واقبلنا وأتانى ذو الرمة فقال قد ظعنت مىّ فلم يبق الا الديار والنظر الى الآثار فاخرج

بنا الى دارها فخرجت معه حتى اذا وقفنا عليها أنشأ يقول

ألا فاسلمي يا دار مي على البلى * ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

حتى أتى على آخرها ثم انهملت عيناه بعبرة . فقلت له ماهذا فقال . انى لجليد وان كان مني ماترى فما رأيت أحداً أحسن شوقاً وصبابة وعزاء منه : وعن سليمان راوية أبي نواس . قال كنت مع ابي نواس أسير حتى انتهينا الى درب القراطيس فخرج من الدرب شيخ نصراني وخلفه غلام كانه غصن بان يتثنى كاحسن ما رأيت فقال ياسليمان اماترى الدرة خلف البعرة ثم قال هل لك ان تاخذ مني رقعة فتوصلها اليه قلت بلى فكتبها ودفعها الى فاوصلتها اليه فاذا املح غلام واخفه روحاً فقال من صاحب الرقعة قلت ابو نواس . قال أين هو . قلت على باب درب القراطيس قال فليقف مكانه حتى اروح وكان فى الرقعة

تمر فاستحييك أن أتكلما * ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلما

وبهتز فى ثوبيك كل عشية * قضيب من الريحان أضحى منعماً

فحسبك أن الجسم قد شفه الهوى * وأن جفوني فيك قد ذرفت دما

أليس عجيب عند كل موحد * غزال مسيحي يعذب مسلماً

فلولا دخول النار بعد تنصر * عبدت مكان الله عيسى بن مريما

وحدثنا الجماز قال كنت يوما على باب عدي الدراع فمر بي ابو نواس شبيها بالمجنون فاذا خلفه غلام كانه مهر عربي فقلت له مالك فقال

إن الرزية لا رزية مثلها * عوز المكان وقد تهيا المركب

فعدلت به وبالغلام فاقاما سائر يومهما قال وكان عبيد الله بن يحيي يتعشق غلاما من دار المتوكل يقال له رشيق فلا يصل اليه حتى طال ذلك عليه وكان ابو الاخطل يخلفه فى الموكب وينبسط اليه فقال له عبيد الله يوما ياابا الاخطل من لي برشيق فقال الصفر الصغار والبيض الصحاح وجعل عبيد الله يلقي رشيقا فى الدار فيخلو به ويساره ويعطيه مائة دينار فى كل لقية الى ان علم رشيق عما فى نفس عبيد الله وكان يتعذر عليهما الاجتماع لقضاء الوطر واللذة . فركب أمير المؤمنين يوما ومعه أبو الاخطل فطلب عُبيد الله وتعمد أبو الاخطل رشيقا فرده اليه فلما ظفر به فى منزله خاليا قضي حاجته منه وركب يريد أمير المؤمنين مسرعا فوصل الى الموكب وقد تصبب عرقا فقال ابو الاخطل

لا خير عندي فى الخليل ينام عن سهر الخليل

قولوا لا كفر من رأيت لكل معروف جليل

هل تشكرن لى الغدا * ة تلطفى لك فى الرسول
إذ نحن فى صيد الجبا * ل وأنت فى صيد السهول

﴿ ماقيل فيه من الشعر ﴾

وتمشيت فى الجميل فأسرعت * وإن كنت لست تات جميلا
إن من مد للقيادة رجلا * لحرى بان يكون نبيلا

وقال آخر

لهواه لا إتلاف * وملاه لا اختلاف
ليس يقرأ من كتاب الله إلا لا إيلاف

وقال آخر

إن الرقاشى من تكرمه * بلغه الله منتهى همه
تبلغ من بره ورأفته * حملا ن أضيافه على حرمه

﴿ ومن محاسن ذلك ﴾ حدثنا على بن الحسين بن على بن عثمان بن على بن الحسن قال كانت ضمير جارية مولدة لميمونة بنت الحسن بن على بن زيد فادبتها وعلمتها الغناء فبرعت فيه وكانت من أحسن الناس وجها وبدنا وأبرعهم غناء وضربا فأعطيت بها مولاتها عشرة آلاف دينار فلما رادت ان تبيعها وأحضر المال بكت وقالت ياسيدتى ربيتينى واتخذتينى ولدا ثم تريدين بيعى فاتغرب عنك ولا أرى وجهك قالت أشهد الله ومن حضر أنك حرة لوجه الله فلما ماتت ميمونة خطبها آل أبى طالب وغيرهم فغلب عليها جعفر بن حسن بن حسين فتزوجها وأحبها حبا شديدا فقدم بها البصرة فقال على بن الحسين وكان يجالسها و يسمع غناءها فأردت الخروج الى الرضى بخراسان فودعت جعفرا وخرجت فأقمت بالاهواز أياما أتهيأ للخروج على طريق فارس فورد على كتاب جعفر أنه قد وقع بينه و بين ضمير شر وأنها قد أغلظت له حتى تناولها ضربا وانها على مفارقته وسالنى القدوم لاصلح بينهما فقال على بن الحسين وكانت لى حاجة بالرضى وكنت أرجو لذلك فى وجهى منه ومن المأموم الغنى فلما قرأت كتابه لم أعط صبرا حتى انصرفت راجعا الى البصرة فجئت الى جعفر فاوقعت به شتما وعذلا ثم أرسلت اليها أقسمت عليك بحقى الا رجعت فخرجت مرهاء شعثة وسخت الثياب حتى جلست فجلست بينهما فاقبل جعفر يعطينى من نفسه لها كل ما أريد وهى ساكتة ثم قلت ياجارية هاتى العود فاخذته فأصلحت منه حتى تغنت وهى تبكى ودموعها تكف

أرتجى خالقى وأعلم حقاً * أنه مايشاء ربى كفانى

لا تلمني وارفق خليلي بشاني * إنه ما عناك يوما عناني

قال علي بن الحسين فوالله ما رأيت أحسن منها ولا أرق من غنائها بهذا الصوت فما برحت حتى اصطلحا وألهتني والله عن الغنى فقمت بالبصرة، وعن الكلبي قال بينا عمر ابن أبي ربيعة يطوف بالبيت في حال نسكه فاذا هو بشاب قد دنا من شابة ظاهرة الجمال فالقى اليها كلاما فقال له عمر يا عدو الله في بلد الله الحرام وعند بيته تصنع هذا فقال يا عماه انها ابنة عمي وأحب الناس الى واني عندها لكذلك وما كان بيني وبينها من سوء قط أكثر مما رأيت قال ومن أنت قال أنا فلان ابن فلان قال أفلا تتزوجها قال أبى علي أبوها قال ولم قال يقول ليس لك مال فقال انصرف والقني فلقيه بعد ذلك فدعى ببغلته فركبها ثم أتى عم الفتى في منزله فخرج اليه فرحا بمجيئه ورحب وقرب فقال ما حاجتك يا أبا الخطاب قال لم أرك منذ أيام فاشتقت اليك قال فانزل فانزله وألطفه فقال له عمر في بعض حديثه اني رأيت ابن أخيك فاعجبني تحركه وما رأيت من جماله وشبابه قال له اجل ما يغيب عنك افضل مما رأيت قال فهل لك من ولد قال لا الا فلانة قال فما يمنعك ان تزوجه اياها قال انه لا مال له قال فان لم يكن له مال فلك مال قال فاني اضن به عنه قال لكني لا اضن به عنه فزوجه واحتكم قال مائة دينار قال نعم فدفعها عنه وتزوجها الفتى وانصرف عمر الى منزله فقامت اليه جارية من جواريه فاخذت رداءه واتى نفسه على فراشها وجعل يتقلب فاتته بطعام فلم يتعرض له فقالت اظنك والله قد وجدت بعض ما كان يعرض لك من حكم النساء فلا تكتمها فقال هاتي الدواة فكتب

تقولُ وليدتي لما رأتني * طربتُ وكنتُ قد أقصرتُ حينا
أراكَ اليومَ قد احدثتَ شوقا * وهاجَ لك الهوى داءً دفينا
وكنتَ زعمتَ انكَ ذو عزاءٍ * إذا ما شئتَ فارقتَ القرينا
بعيشك هلْ أتاكَ لها رسولٌ * يسرُّكَ أمْ لقيتَ لها خدينا
فقلتُ شكا إليَّ أخٌ محبٌّ * كبعضِ زماننا إذْ تعلمينا
وذو القلبِ المصابِ ولوْ تعزّى * مشوقٌ حين يلقى العاشقينا
فقصَّ عليَّ ما يلقى بهندٍ * وأشبهَ ذاك ما كنا لقينا
فكم منْ خلةٍ أعرضتُ عنها * وكنتُ بودِّها دهراً ضنينا
أردتُ فراقها فصبرتُ عنها * ولو جنَّ الفؤاد بها جنونا

قال، وقال عمر بن ابي ربيعة بينا انا خارج محرما اذ اتتني جارية كانها دمية في صفاء اللجين في ثوب قصب كقضيب على كثيب فسلمت علي وقالت انت عمر بن ابي ربيعة فتى

قريش وشاعرها قلت أنا والله ذاك قالت فهل لك أن أريك أحسن الناس وجها قلت ومن لى بذلك قالت أنا والله لك بذلك على شريطة قلت وما هى قالت أعصبك وأربط عينيك وأقودك ليلا قلت لك ذاك قال فاستخرجت معجراً من قصب عجرتنى به وقادتنى حتى أتت بى مضربا فلما توسطته فتحت العجارة عن عينى فاذا أنا بمضرب ديباج أبيض مزرر بحمرة مفروش بوشى كوفى وفى المضرب ستارة مضروبة من الديباج الاحمر عليها تماثيل ذهب ومن ورائها وجه لم أحسب أن الشمس وقعت على مثله حسنا وجمالا فقامت كالخجلة وقعدت قبالتى وسلمت علىّ تخيل لى أن الشمس تطلع من جبينها وتغرب فى شقائق خدها قالت أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها قلت أنا ذلك يا منتهى الجمال قالت أنت القائل

بينما ينعتننى أبصرننى * دون قيد الميل يعدو بى الاغر
قالت الكبرى أما تعرفن ذا * قالت الوسطى بلى هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها * قد عرفناه وهل يخفى القمر

قلت أنا والله قائلها ياسيدتى قالت ومن هؤلاء قلت ياسيدتى والله ما هو عن قصد منى ولا فى جارية بعينها ولكنى رجل شاعر أحب الغزل وأقول فى النساء قالت يا عدو الله يا فاضح الحرائر أنت قد فشا شعرك بالحجاز وأنشده الخليفة والامراء ولم يكن فى جارية بعينها يا جوارى أخرجنه فخرجت الوصائف فاخرجننى ودفعننى الى الجارية فعجرتنى وقادتنى الى مضربى فبت بليلة كانت أطول من سنة فلما أصبحت بقيت هائما لا أعقل ما اصنع فمازلت ارقب الوقت فلما كان وقت المساء جاءتنى الجارية وسلمت علىّ وقالت يا عمر هل رأيت ذلك الوجه قلت أى والله قالت فتحب ان اريكه ثانية قلت اذا تكرمت فتكونين اعظم الناس علىّ منة فقالت على الشريطة فاستخرجت المعجر وعجرتنى وقادتنى فلما توسطت المضرب فتحت العصابة عن وجهى فاذا انا بمضرب دبياج احمر مدثر ببياض مفروش بفرش ارمنى فقعدت على نمرقة من تلك النمارق فاذا انا بالشمس الضاحية قد اقبلت من وراء الستر تمايل من غير سكر فقعدت كالخجلة فسلمت علىّ وقالت انت عمر بن ابى ربيعة فتى قريش وشاعرها قلت انا ذاك قالت انت القائل

وناهدة الثديين قلت لها اتكى * على الرمل فى ديمومة لم توسد
فقالت على اسم الله أمرك طاعة * وإن كنت قد كلفت مالم أعود
فمازلت فى ليل طويل ملثما * لذيذ رضاب المسك كالمتشهد
فلما دنا الاصباح قالت فضحتنى * فقم غير مطرود وإن شئت فازدد

فما ازددت منها وا تشحتُ بمِرْطها * وقلتُ لعيني اسفحا الدمع من غدِ
فقامت تعفّي بالرداء مكانها * وتطلب شذراً من جمان مبدّدِ

قلت أنا قائلها قالت فمن الناهدة الثديين قلت ياسيدتي قد سبق في الليلة الاولى والله ماهو مني قصد ولا في جارية بعينها ولكني رجل شاعر احب الغزل واقول في النساء قالت ياعدو الله انت قد فشا شعرك بالحجاز ورواه الخليفة وتزعم انه لم يكن في جارية بعينها ياجواري ادفعنه فوثبت الجواري فأخرجنني ودفعنني الى الجارية فعجرتني وقادتني الى مضربي فبت في ليلة كانت اطول من الليلة الاولى فلما اصبحت امرت بخلوق فضرب لي وبقيت ارقب الوقت هائماً فلما كان وقت المساء جاءتني الجارية فسلمت عليّ وقالت ياعمر هل رايت ذلك الوجه قلت اي والله قالت افتحب ان اريكه الثالثة قلت اذاً تكونين اعظم الناس عليّ منة قالت على الشريطة قلت نعم فاستخرجت المعجر وعجرتني به وقادتني حتى انت بي المضرب فلما توسطته فتحت العصابة عن عيني فاذا انا في مضرب ديباج اخضر مدثر بحمرة مفروش بخز احمر واذا انا بالشمس الضاحية قد اقبلت من وراء الستر كحور الجنان فسلمت عليّ وقالت انت عمر بن ابي ربيعة فتى قريش وشاعرها قلت انا ذاك قالت أنت القائل

نعب الغرابُ ببين ذات الدملجِ * ليتَ الغرابَ ببينها لم يشحجِ
مازلتُ أتبعهُمْ وأتبعُ عيسهمْ * حتى دُفعتُ إلى ربيبةِ هودجِ
قالت وعيشِ أخي وحُرمةِ والدي * لأنبهنّ الحيَّ إنْ لم تخرجِ
فلثمتُ فاها آخذاً بقرونها * شربَ النزيف ببردِ ماءِ الحشرجِ
فتناولتْ كفّي لتعرفَ مسّها * بمخضّبِ الاطرافِ غير مشنّجِ

قلت أنا قائلها : قالت : ياعدو والله أنت الذي فضحتها وفضحت نفسك وجهي من وجهك حرام ان عدت اليّ ياجواري أخرجنه فوثب اليّ الوصائف وأخرجنني ودفعنني الى الجارية فعجرتني وقادتني وقد كنت عند خروجي من مضربي ضربت يدي بالخلوق وأسدلت عليها ردائي فلما صرت الى باب مضربها اخرجت يدي ووضعتها على جانب المضرب وضعا بينا فلما أصبحت صحت بغلماني وعبيدي ولي الف عبد من اتاني بخبر المضرب الذي ضرب فيه بكذا وكذا فهو حر لوجه الله فلما كان في وقت المساء اتت وليدة سوداء ، فقالت . قد عرفت المضرب وهو لرملة اخت عبد الملك بن مروان فاعتقتها وامرت لها بمائتي دينار وامرت بمضربي فقلع وضرب بحذاء مضربها وكتب بالخبر الى عبد الملك بن مروان فكتب اليها بالرحيل فركبت هودجها وركبت فرسي فزاحمتها في بعض الطريق فاشرفت عليّ من هودجها ، فقالت . اليك

عنى أيها الرجل، قلت. خاتم أو قميص اذكرك به، فقالت، لبعض جواريها التى اليه قميصا من قمصى فاخذته وانا أقول

فلا وأبيكَ ماصوتُ الغوانى * ولاشربُ التى هى كالفصوصِ
أردتُ برحلتى وأريد حظا * ولا أكلَ الدجاج ولا الخبيصِ
قميصٌ مايفارقنى حياتى * أنيس فى المُقام وفى الشُّخوص

وجعلت أنزل بنزولها وأركب بركوبها حتى كنا من الشام على ثلاث مراحل فاستقبلها عبد الملك فى خاصته فدخل اليها، ثم قال يا رملة ألم أنهك أن تطوفى بالبيت الا ليلا يحفك الجوارى ويحف الجوارى الخدم الوكلاء لئلا يراك عمر بن ابى ربيعة، قالت والله وحياة أمير المؤمنين ما رآنى ساعة قط فخرج من عندها فبصر بمضربى، فقال، لمن المضرب قيل لعمر بن ابى ربيعة قال علىّ به فاتيته بلا رداء ولا حذاء فدخلت عليه وسلمت عليه فقال يا عمر ما حملك على الخروج من الحجاز من غير اذنى، قلت شوقا اليك يا امير المؤمنين وصبابة الى رؤيتك فاطرق مليا ينكت فى الارض بيده ثم رفع رأسه فقال يا عمر هل لك فى واحدة، قلت وماهى يا أمير المؤمنين قال رملة ازوجكها قلت يا امير المؤمنين وان هذا الكائن، قال أى ورب السماء ثم قال قد زوجتك فادخل اليها من غير أن تعلم فدخلت عليها فقالت من انت هبلتك امك فقلت ياسيدتى انا المعذب فى الثلاث فارتحلت وانا عديلها فانشأت اقول

لعمرى لقدْ نلتُ الذى كنتُ أرتجى * وأصبحتُ لاأخشى الذى كنتُ أحذر
فليس كمثلى اليومَ كسرَى وهرْمزٌ * ولا المَلكُ النُّعمانُ مثلى وقيصر

فلم ازل معها باحسن عيش وغبطة

﴿ محاسن الديب ﴾

الاصمعى. قال، اخبرنى رجل من بنى اسد انه خرج فى طلب ابل قد ضلت فبيناهو يسير فى بلاء وتعب وقد امسى فى عشية باردة اذ رفعت له أعلام. قال. فقصدت بيتا منها فاذا انا بامرأة جميلة ذات جزالة فسلمت فردت علىّ السلام ثم قالت ادخل فدخلت فبسطت لى ومهدت واذا فى حجرها صبى اطيب ما يكون من الولدان فبيناهى تقبله اذ أقبل رجل امام الابل دميم المنظر ضئيل الجسم كانه بعرة دمامة واحتقارا فلما بصر به الصبى هش اليه وعدا فى تلقائه فاحتمله وجعل يقبله ويفديه. فقلت. فى نفسى أظنه عبدا لها فجاءنى ووقف بباب الخيمة وسلم فرددت عليه السلام، فقال، من ضيفكم هذا فاخبرته فجلس الى جانبها وجعل يداعبها فطفقت أنظر اليها تارة واليه أخرى اتعجب من اختلافهما كانها الشمس حسنا وكانه القرد قبحا ففطن لنظرى . وقال.

يا اخا بنى اسد ارى عجبا . قال . تقول احسن الناس وجها واقبح الناس وجها فليت شعرى كيف جمع بينهما أخبرك كيف كان ذلك . قلت ما أحوجنى الى ذلك : قال . كنت سابع اخوتى كلهم لو رأيتنى معهم ظننتنى عبد لهم وكان أبى واخوتى كلهم أصحاب ابل وخيل وكنت من بينهم مطر وحا لكل عمل دنى للعبودية تارة ولرعى الابل أخرى فبينا أنا ذات يوم تعب مكتئب اذ ضلت لنا بعير فتوجه اخوتى كلهم فى بغائه فلم يقدروا عليه فأتوا أبى وقالوا ابعث لنا فلانا ينشد لنا هذا البعير فدعانى أبى وقال اخرج فانشد هذا البعير . فقلت والله ما أنصفتنى ولا بنوك أما اذا الابل درت ألبانها وطاب ركوبها فأنتم جماعة اهل البيت أربابها واذا ندت ضلالها فانا باغيها ، فقال قم يالكع فانى أراه آخر يومك فغدوت مقهورا خلق الثياب حتى أتيت بلادا لا أنيس بها فطفقت يومى ذلك اجول القفر فلما أمسيت رفعت لى أبيات فقصدت اعظم بيت منها فاذا امرأة جميلة مخيلة للسؤدد والجزالة فبدأتنى بالتحية وقالت انزل عن الفرس وأرح نفسك فاتتنى بعشاء فتعيشت وأقبلت هذه تسخر منى وتقول ما رأيت كالعشية أطيب ريح امنك ولا انظف ثوبا ولا اجمل وجها ، فقلت ، ياهذه دعينى وما أنا فيه فانى عنك فى شغل شاغل فابت علىّ . وقالت هل لك أن تاتج علىّ السجف اذا نام الناس فاغرانى والله الشيطان فلما شبعت من القرى وجاء ابوها واخوتها فضجعوا أمام الخيمة قمت وركزتها برجلى قالت ومن أنت قلت الضيف ، قالت لا حياك الله اخرج عليك لعنة الله فعلمت انى لست فى شئ من أمرها فوليت راجعا فوثبنى كلب لهم كانه السبع لا يطاق فأراد اكلى فانشب أنيابه فى مدرعة صوف كانت علىّ وجعل يمزقنى فردنى القهقرى وتعذر علىّ الخلاص فأهويت أنا والكلب من قبل عقبى فى بئر فاحسن الله الىّ انه لا ماء فيها فلما سمعت المرأة الواغية أتت بحبل فادلته وقالت ارتق لعنك الله فوالله لولا انه يقتص اثرى غدا لوددت انها قبرك فاعتنقت الحبل فلما كدت ان اتناول يدها قضى أن تهور ما تحت قدميها فاذا انا وهى والكلب فى قرار البئر بئرا أيما بئر انما هى حفرة لا طى لها ولا مرقاة كاشد بلية بناعضا الكلب ينبح من ناحية وهى تدعى بالويل والثبور من ناحية وانا منقبع قد برد جلدى على القتل من ناحية فلما اصبحت امها فقدتها فلما لم ترها اتت اباها فقالت ياشيخ اتعلم ان ابنتك ليس لها اثر يحس وكان ابوها عالما بالآثار تابعا لها فلما وقف على شفير البئر ولى راجعا فقال لولده يا بنى اتعلمون ان اختكم وضيفكم وكليكم فى البئر فبادروا كالسباع فمن بين آخذ حجرا وآخر سيفا أو عصا وهم يومئذ يدون ان يجعلوا البئر قبرى وقبرها فلما وقفوا على شفير البئر قال ابوهم ان قتلتم هذا الرجل طولبتم بدمه وان تركتموه افتضحتم وقد رأيت ان ازوجها اياه فوالله ما يقدح لها فى نسب ولا فى حسب ثم قال لى افيك خير فلما شممت روح الحياة وثاب الى عقلى ، قلت وهل الخير كله الا فىّ فهات اختكم فقال . مائة بكرة

و بكرة وجارية وعبد ، فقلت لك ذلك وان شئت فازدد فاخرجت أولا والكلب ثانيا وأخرجت ثالثا فاتيت أبى ، فقال لا : أفلحت فاين البعير ، قلت أربع عليك أيها الشيخ فانه كان من القصة كيت وكيت ، قال افعل والله ولا أخذلك فدعا بالابل فاعد منها مائة بكرة و بكرة وسقناها مع جارية وعبد وأخذت منه هذه غرة نفسها ، قال هى والله كذلك وجعلت تصدف عن حديث زوجها صدوف المهرة العربية سمعت لجامها ور بما قالت لا أطاب الله خبرك

— ضده مساوى الديب —

قال وقيل لخراش الاعرابى حدثنا ببعض هناتك ، قال : خرجت فى بغاء ذود لى فدفعت فى عيشة شاتية الى أخبية كثيرة فضافوا وحيوا ورحبوا فلما أردت النوم أقاموا فتاة لهم من موضع مبيتها وجعلونى مكانها الثلا أتاذى بالغنم وانى لمضطجع اذا أنا بيد انسان يجامشنى و يريد فى الظلمة مؤاتاتى فقعدت فاذا أنا برجل بيده ومعه علبة فيها أرنب مشوية فاخذتها وجعلتها فى شئ كان معى ثم مد يده ثانيا فناولته يدى فاقبضنى على غرمول كمثل الوتد فلم أنفر منه ولم أره وحشة وجردت ما عندى وتناولت يده فاقبضته على مثل ما أقبضنى عليه ففطن و رمى بملحفة خز كانت عليه ووثب مذعورا فنفرت الابل وهاجت الغنم وكدت أغشى لما بى من الضحك وأخفيت ما بى وكتمته فلما أصبحت ركبت راحلتى ومعى الملحفة والعلبة والارنب فلما امتد الضحى اذا أنا بابل فأخذت نحوها فاذا شاب حسن الهيئة فسلمت فرد السلام ثم قال ان كان معك ما نا كل نصب من هذا الوطب فاخرجت العلبة فلما رآها عرفها وقال انك هو ، قلت وما هو ، قال صاحب البارحة قلت نعم ان كنت اياه قال الحمد لله الذى أتى بك اذ لو لم تأت لظننت انى أوسوس وذلك انى لصاحبة الستر عاشق وتعلم ما فعلت وفعلت البارحة ولا تطيقت له حتى ابتلانى الله بك البارحة وجعلت أقول حين أقبضتنى عليه أتراها تحولت رجلا وانى لفى شك من أمرى حتى أتانى الله بك : فاكلت أنا وهو الارنب وشربنا من اللبن وصرنا أصدقاء : الاصمعى قال أتى خالد بن عبد الله اعرابى فأضافه وأحسن اليه و بذل له صحن الدار فلما كان فى بعض الليل أشرف عليه يتعاهد منه ما كان يتعاهد من ضيفه فاذا هو قد دب على جارية وهو على بطنها فأعرض عنه فما لبث الاعرابى ان فرغ وقام يمسح فيشلته بالحائط فضربته عقرب فصاح واستغاث وأشرف خالد عليه وهو يقول

وداري إذا نام سُكانها * تقيمُ الحدُودَ بها العقربُ

إذا غفل الناسُ عنْ دينهمْ * فإنَّ عقاربَنا تغضبُ

قال وكان اعرابى ضيفا لقوم فنظر الى جارية جميلة فدب اليها فاذا عجوز فى صحن الدار

تصلى فعاد الى فراشه ثم عاودها فنبح الكلب ثم عاد اليها فاذا القمر قد طلع فانشأ يقول

لم يخلقِ اللهُ خلقا كنتُ أكرهه * إلا العجوزَ وعينَ الكلبِ والقمرِ
هذا يصيحُ وهذا يُستضاءُ به * وهذه شيخةٌ قوّامةُ السَّحَرِ

وقال وشرب سعيد بن حميد البصرى عند راشد فدب على غلامه فكتب اليه سعيد

ما سمعنا من قبلها باديبٍ * بارع الظرف ماجدٍ قمقام
ضلّ عنه وهو المهذّبُ علما * فتكاتُ الكؤوسِ بالأحلام
أين ما جاء من حديثِ رسول الله * مولاى سيّد الحكام
ما على مثقلٍ من النوم والسكرا * نِ عيبٌ فيما أتى من آثام
ثم أين الذى به حكمَ المأ * مون فى الظرفِ منه والاسلام
أيما ماجدٍ أرادَ سرورا * باجتماعٍ من معشرِ الندّام
فعليه طىُّ البساطِ بما قدْ * سنّه السُّكرُ من قبيح وذام
حلفت بينى وبين عقلى بأرطا * لك والمترعاتِ من كلّ عام
ثم وكلتَ فى العسوفِ رشيقا * فسقانى بطرفه والمدام
ثم باكرتنى بعتبِك واللو * مِ لقد حدت عن سبيلِ الكرام
وتغضّبت أننى قد دت عمرا * ثمّ ثنيتُ بعده بغرام
هل رأيتَ الإلهَ يأخذ مجنو * نا بسكر أو حالما فى منام
لن ترانى معاشرا لك ما عشتُ * ولو دمتَ عائشا ألفَ عام
أو ترى تائبا وتستغفرَ الله * لما كان من شنيع الكلام

فأجابه راشد فقال

يا أبا جعفر سليلَ المعالى * ونجيبَ الاخوالِ والاعمام
إن يكن قد أتاك عنّى مزحٌ * لم يكن عن حقيقةٍ فى الكلام
أو أكن فيه كالذى كان يغدو * بعلامٍ عليكَ فى اللوّام
إننى عالمٌ بأنكَ لم تأ * تِ قبيحا ولا ارتكاب الإثام
هو ذنب المدام لا ذنب خلّ * لم يزل حافظا لعهد الذمام
ثم ذنبُ العيون يا ابن حميدٍ * فله الذنبُ بعدَ إنسِ غرام
قعدا فى طريق أيرك حتى * عرضاه للظنّ والإتهام

فتغمّدْ أخاكَ بالصفحِ فالصُفـحُ دليلٌ على سجايا الكرام
إنّني تائبٌ وأستغفرُ الله لِما كان منْ شنيعِ الكلام

ماقيل فى ذلك من الشعر

فما أعينٌ عشرٌ على ساقِ نرجسٍ * تُضاحكُ عينُ الشمسِ بالمقلِ الصُفر
بأحسنَ ممّنْ زارنى بعدَ هجعةٍ * يميسُ هُوَيناً فى الظلام على ذُعْر

قال ودب رجل على قينة فى مجلس فغنت

ماذا يشوّشُ طُرّتى * ياقومُ فى وقتِ السحَرْ
ماذا يُعالجُ تِكّتى * ويلاهُ عذّبنى السهَرْ

وقال علىّ بن حمزة

مُتورّدُ الخدّينِ منْ خجلٍ * مُتخاذِلُ الاعضاءِ منْ كسلِ
خاضَ الدُجاوالشوقُ يحملهُ * وأتاكَ يمشى غيرَ مُنتعلِ
ما راعنى إلا تدافعُهُ * كالغُصنِ بين الصدرِ والكفلِ

وقال عمر بن أبى ربيعة المخزومى :

قالتْ وأبثثتُها سرّى وبُحتُ به * قد كنتَ عندى تحبُّ السترَ فاستتر
ألستَ تُبصرُ منْ حولى فقلتُ لها * غطى هواكِ وماألقى على بصرى

— محاسن الباه —

حكى عن عالج جارية مكشوح أنها حدثت مولاتها أنها كانت تغتسل كل يوم فسألتها عن ذلك ، فقالت ياهذه أنه يجب على المرأة مايجب على الرجل بعد احتلامه ، قالت أوتحتلمين قالت انه لا تأتى على ليلة لا أجامع فيها الا وأحتلم ، قالت فكيف يكون ذلك قالت أرى كان رجلا جامعنى ولقد رأيت ليلة كأنى مررت بدكان أبى مالك الطحان وبغل له واقف قد أدلى ورمانى تحته وأولجه فاحتلمت ثم انتبهت وأنا أجدمعكة فى مراقّ بطنى ولذة فى سويداء قلبى وكان هذا البغل اذا أدلى حك الارض برأس ايره وضرب به فى بطنه فترى الغبار يتطاير عن يمينه وشماله ، قال وكانت مهدية بنت جبير التغلبية تقول مافى بطن الرجل بضعة أحب الى المرأة من بضعة تناط بعقد الحالبين ومنفرج الرجلين ، حدثنى جهم قال قلت لامرأة من كلب ماأحب الاشياء من الرجال الى النساء قالت مايكثر الاعداد ويزيد فى الاولاد حربة فى غلاف تناط بحقوى رجل جاف اذا غافس أوهى واذا جامع أنجى ، قال وقال أبو ثمامة لامرأة من زبيد وهى

تبكي عند قبر من الميت قالت كان يجمع بين حاجبي والساق ويهزني هز الصارم الاعناق ووالله لولا ماذكرته لك ما استهلت بالدموع عيناي وقد كذبتك امرأة تبكي على زوجها النير ما أعلمتك قال وركب الرشيد حمارا أمصر ياوطاف على جواريه ، فقالت له واحدة يامولاى ما أكثر ماتركب هذا الحمار ، قال لانه يسب طيفور ، قالت فمن يسب طيفور يركب قال نعم قالت ففي حر أم طيفور قال فنزل وواقعها وأنشد في مثله

نظرت اليها حين مرت كأنها * على ظهر عادي فتاة من الجن
ولي نظرة لو كان يحبل ناظر * بنظرته أنثى لقد حبلت مني

— ضدد في مساري العنين —

قال بعضهم تزوج العجاج امرأة يقال لها الدهناء بنت مسحل فلم يقدر عليها فشكت ذلك الى أهلها فسألوه فراقها فأبى وقال لابيها تطلب لابنتك الباه قال نعم عسى أن ترزق ولداً فان مات كان فرطا وان عاش كان قرة عين فقدموه الى السلطان فأجله شهرا ثم قال

قد ظنت الدهنا وظن مسحل * أن الامير بالقضاء يعجل
عن كسلاني والحصان يكسل * عن السفاد وهو طرف هيكل

ثم أقبل على امرأته فضمها الى صدره فقالت

تنح لن تملكني بضم * ولا بتقبيل ولا بشم
إلا بزعزاع يسلي همي * يسقط منه فتخي في كمي
يطير منه حزني وغمي

ابن أبي الدنيا ان اعرابيا أخبره ان امرأة منهم زفت الى رجل فعجز عنها فتذاكر الحي أمر الضعفاء من الازواج عن الباه وامرأة الاعرابي تسمع فتكلمت بكلام ليس في الارض اعف منه ولا ادل على عجز الرجل عن النساء فقالت متمثلة

تبيت المطايا حائدات عن الهدى * إذا ما المطايا لم تجد من يقيمها

الرقاشي قال حدثني أبو عبيدة قال سمعت ناسا من الحجاز يقولون تزوج رجل منا امرأة فعجز عنها الا انه اذا لامسها ابتأر فيها فقضى ان حملت وما مكثت الاان رأس ولدها فجلس في المجلس فقال له قائل لقد جئت من بلل قليل قال جئت من بلل لو أصاب مغيض أمك لكان كما قال الشاعر

رطب الطباع إذا حركت جوهره * وجدت أعضاءه غرقى من البلل
ولم أهجنه إلا أنه رجل * قلت سلامته من جانب الكفل

الهلالى قال رأيت وافر بن عصام يساير المهدى فحدثه بحديث فضحك فقلت له حدثنى ما حدثت به المهدى قال سألنى ماعندك للنساء فقلت مالهن عندى الاحديث ابن حزم قال وما حديثه قلت عمر حتى بلغ الثمانين فتزوج ابنة عم له فلما أهديت اليه قعد بين شعبها فاكسل وأراق على بطنها فأقبل عليها كالمعتذر فقال هذا خير من الزناء قالت كل ذلك لا خير فيه قال وشكت امرأة زوجها وأخبرت عن عجزه أنه اذا استقط عليها انطبق والنساء يكرهن وقوع الرجل على صدورهن فقالت زوجى عياياء طباقاء وكل داءله دواء وقيل فى ذلك

جزاكَ اللهُ شرًّا منْ رفيقٍ * إذا بُلغت منْ رَكبِ النساءِ
رماكَ اللهُ منْ عِرْقٍ بأفعى * ولا عافاكَ منْ جهْدِ البلاءِ
أُجبنا فى الكريهةِ حينَ تلقى * ونعظا حينَ تعبرُ فى الخلاءِ

﴿ محاسن النيروز والمهرجان ﴾

قال الكسروى كان أول من أبدع النيروز وأسس منازل الملوك وشيد معالم السلطان واستخرج الذهب والفضة والمعدن واتخذ من الحديد آلات وذلل الخيل وسائر الدواب واستخرج الدر وجلب المسك والعنبر وسائر الطيب وبنى القصور واتخذ المصانع وأجرى الانهار كياخسرو بن أبرويزجهان وتفسيره حافظ الدنيا ابن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام وكان الاصل فيه أنه فى النيروز ملك الدنيا وعمر أقاليم ايران شهر وهى أرض بابل فيكون النيروز فى اول ما اجتمع ملكه واستوت أسبابه فصارت سنة وكان فى ملكه ألف سنة وخمسين سنة ثم قتله البيوراسف وملك بعده الف سنة الى أفريدون بن أثفيان وفيه يقول حبيب

وكأنه الضحّاكُ فى فتكاتهِ * بالعالمين وأنتَ أفريدُونُ

فطلب البيوراسف وملك بعده الف سنة وخمسين سنة وأسره بارض المغرب وكبله وسجنه بجبل دنباوند واستوفى عدة ماكتب الله له من عمره واتفق لافريدون سجن البيوراسف يوم النصف من مهرماه ومهرروز فسمى ذلك اليوم المهرجان فالنيروز لجم والمهرجان لافريدون والنيروز أقدم من المهرجان بالفى وخمسين سنة وقسم جم أيام الشهر وجعل الخمسة الايام الاولى للاشراف وبعدها خمسة أيام نيروز الملك يهب فيها ويصل ثم بعدها خمسة أيام لخدم الملك وخمسة أيام لخواص الملك وخمسة أيام للجند وبعدها خمسة أيام للرعاع فذلك ثلاثون يوما وابتدع المهرجان أفريدون لما أسر البيوراسف ورزمهر وكان الملك اذا لبس زينته ولزم مجلسه فى هذين اليومين أتاه رجل رضى الاسم مختبر باليمن طلق الوجه ذلق اللسان فيقوم قبالة الملك ويقول إئذن لى بالدخول فيسأله من أنت ومن أين جئت وأين تريد ومن سار بك ومع من قدمت وما

الذى معك فيقول جئت من عند الايمنين وأريد الاسعدين وسار بى كل منصور واسمى خجسته أقبلت معى السنة الجديدة وأوردت الى الملك بشارة وسلاما ورسالة فيقول الملك ائذنوا له فيقول له الملك ادخل ويضع بين يديه خوانا من فضة قد جمع فى نواحيه أرغفة قد خبزت من أنواع الحبوب من البر والشعير والدخن والذرة والحمص والعدس والارز والسمسم والباقلى واللوبيا وجمع من كل صنف من هذه الحبوب سبع حبات فجعل فى جوانب الخوان ووضع فى وسطه سبعة من قضبان الشجر التى يتفائل بها وباسمها ويتبرك بالنظر اليها كالخلاف والزيتون والسفرجل والرمان منها ما يقطع على عقدة ومنها على عقدتين ومنها على ثلاثة ويجعل كل قضيب باسم كورة من الكور ويكتب فى مواضع ابزود وابزائد وابزون وبروار وفراخى وفراهية تأويله زاد ويزيد وزيادة ورزق وفرح وسعة ويوضع سبع سكرجات بيض ودراهم بيض من ضرب سنته ودينار جديد وضغث من أسبند ويتناول ذلك كله ويدعوا له بالخلود ودوام الملك والسعادة والعز ولا يؤامر يومه فى شىء اشفاقا من أن يبيد ومنه ما يكره فجرى على سنته وكان أول ما يقدم اليه صينية ذهب أو فضة عليها سكر أبيض وجوز هندى مقشر رطب وجامات فضة أو ذهب ويبتدىء باللبن الحليب الطرى منه قد انقع فيه تمر طرى فيتناول بالنارجيل تمرات ويتحف من أحب منه ويذوق ما احب من الحلوى وكان يرفع فى كل يوم من أيام النيروز باز أبيض وكان ممن يتيمن بابتدائه فى هذا اليوم لقمة من اللبن الصرف الطرى والجبن الطرى وكان جميع ملوك فارس يتبركون بذلك وكان يسرق له فى كل يوم نيروز ماء فى جرة من حديد أو فضة ويقول استرق هذا الاسعدين ويتحمل الايمنين ويجعل فى عنق الجرة قلادة من يواقيت خضر منظمة فى سلك الذهب ممدود فيها خرز من زبرجد أخضر ولم يكن يسرق ذلك الماء الا الابكار من أسافل دارات الارحاء وصنائع الغنى فكان متى اجتمع النيروز فى يوم سبت أمر الملك لرأس الجالوت باربعة آلاف درهم ولم يعرف له سبب أكثر من ان السنة جرت منهم بذلك فصارت كالجزية فكان يبنى قبل النيروز بخمسة وعشرين يوما فى صحن دار الملك اثنتا عشرة اسطوانة من لبن تزرع اسطوانة منها برا واسطوانة شعيرا وأخرى أرزا وأخرى عدسا وأخرى باقلى وأخرى قرطما واخرى دخنا واخرى ذرة واخرى لوبيا واخرى حمصا واخرى سمسما وأخرى ماشا ولم يكن يحصد ذلك الا بغناء وترنم ولهو وكان يوم السادس من يوم النيروز واذا حصد نثر فى المجلس ولم يكسر الى روز مهر من ماه فروردين وانما كانوا يزرعون هذه الحبوب للتفاؤل بها ويقال أجودها نباتا واشدها استواء دليل على جودة نبات ما زرع منها فى تلك السنة فكان الملك يتبرك بالنظر الى نبات الشعير خاصة وكان مؤدب الرماة يناول الملك يوم النيروز قوسا وخمس نشابات ويناول الملك قيمه على دار المملكة أترجة فكان فيما يغنى بين يدى الملك غناء

المخاطبة وأغانى الربيع وأغانى يذكر فيها أبناء الجبابرة وتوصف الانواء وأغانى أفرين والخسروانى والماذراستانى والفهلبد وكان أكثر ما يغنى العجم الفهلبد مع أيام كسرى أبرويز وكان من أهل مرو وكان من اغانيه مديح الملك وذكر أيامه ومجالسه وفتوحه وذلك بمنزلة الشعر فى كلام العرب يصوغ له الالحان ولا يمضى يوم الاوله فيه شعر جديد وضرب بديع وكان يذكر الاغانى التى يستعطف بها الملك ويستميحه لمرازبته وقواده ويستشفع لمذنب وان حدثت حادثة أو ورد خبر كرهوا انهاءه اليه قال فيه شعراً أو صاغ له لحنا كما كان فعل حين نفق مركوبه شبديز ولم يجسروا على انهاء ذلك فغنى بها وذكر أنه ممدود فى آريه ماد قوائمه لا يعتلف ولا يتحرك فقال الملك هذا قد نفق اذا قال أنت قلت ذلك أيها الملك وكان يضطر باشعاره أن يتكلم بالذى يكره عماله ان يستقبلوه به

(العلة فى صب الماء) ذكروا أن العلة فى صب الماء انه كان اول من تكلم فى المهد قبل المسيح زو بن طهماسب وكان مات أبوه على قحط شديد قد شمل الاقاليم فتكلم ودعا الله تبارك وتعالى فسقى الناس الغيث واخصبت أرضهم وعاشت مواشيهم فجعلوا صب الماء فيه سنة، وقد حكى أيضاً عن ابى جعفر محمد بن على بن الحسين صلوات الله عليه انه قال فى ذلك ان ناساً من بنى اسرائيل أصابهم الطاعون فخرجوا من مدينتهم هاربين الى أرض العراق فبلغ كسرى خبرهم فامر ان يبنى لهم حظيرة يجعلون فيها لترجع انفسهم اليهم فلما صاروا فى الحظيرة ماتوا وكانوا أربعة آلاف نفس ثم ان الله تبارك وتعالى أوحى الى نبى ذلك الزمان ان رأيت محاربة بلاد كذا فحاربهم ببنى فلان فقال يارب كيف أحاربهم بهم وقد ماتوا فاوحى الله اليه أنى أحييهم لتحاربهم وتظفر بعدوك فامطر الله عز وجل ليلة صب الماء فاصبحوا احياء فهم الذين قال الله تعالى فيهم «ألم ترالى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم» قال هؤلاء قوم أصابهم محنة من الازل فخطوا زمانا فهزلوا واجدب بلدهم فعيثوا فى هذا اليوم برشة من مطر فعاشوا واخصبت بلادهم فجعله الفرس سنة

(صفة الايام) قال كسرى يوم الريح للنوم ويوم الغيم للصيد ويوم المطر للهو والشرب وقال غيره يوم السبت يوم مكر وخديعة والاحد يوم غرس وبناء ويوم الاثنين يوم سفر وطلب رزق والثلاثاء يوم حجامة والاربعاء يوم ضنك ونحس والخميس يوم الحج والجمعة يوم مسجد ونساء وكساء

(فى البرد) سئل بعض الحكماء عن البرد أيه اشد فقال اذا اصبحت السماء نقية والارض ندية والريح شامية

﴿ محاسن الهدايا ﴾

قال وكتب الناس فى الهدايا فأكثروا من الكلام المنثور والشعر الموزون وكل يكتب ويقول بمقدار عقله وعلمه حتى قالوا أنها قرابة وصلة كالرحم الماسة والقرابة القريبة وكلحمة النسب وأكثروا من الشفيع لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم تهادوا وتحابوا وقيل الهدية تفتح الباب المصمت وتسل سخيمة القلب وروى عن عائشة أنها قالت اللطفة عطفة وتزرع فى القلوب المحبة، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ما هو خير منها وقال عليه الصلاة والسلام. لو أهدى الىّ ذراع لقبلت ولو دعيت الى كراع لاجبت، وقال عليه الصلاة والسلام. الهدية رزق من الله عز وجل فمن أهدى اليه شيء فليقبله، وقال صلى الله عليه وسلم نعم الشيء الهدية أمام الحاجة ما رضى الغضبان ولا استعطف ولا استميل الهاجر ولا توقى المحذور بمثل الهدية والبر وقال الله عز وجل (وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون) وروى أن عاملا لعلى رضى الله عنه قدم من بعض الاطراف فاهدى الى الحسن والحسين سلام الله عليهما ولم يهد الى ابن الحنفية فقال متمثلا

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمرو ❊ بصاحبِك الذى لا تصحبينا

فاهدى العامل اليه كما أهدى الى أخويه وروى من امير المؤمنين علىّ عليه السلام ان قوما من الدهاقين اهدوا اليه جامات فضة فيها الاخبصة فقال ماهذا قالوا يوم نيروز فقال نيروزنا كل يوم فاكلوا الخبيص واطعم جلساءه وقسم الجامات بين المسلمين وحسبها لهم فى خراجهم وقيل أن جلساء المهدى اليه شركاؤه فى الهدية والهدية تجلب المودة وتزرع المحبة وتنفى الضغينة وتركها يورث الوحشة ويدعوا الى القطيعة والهدية تصير البعيد قريبا والعدو صديقا والبغيض وليا والثقيل خفيفا والعبد حرا والحر عبدا وفيها قول الشاعر

ما من صديقٍ وإن أبدى مودَّته ❊ يوماً بأنجح فى الحاجاتِ من طبقِ
إذا تقنَّع بالمنديلِ منطلقاً ❊ لم يخش نبوةَ بوَّابٍ ولا غلقِ
لا تُكثرنَّ فإنَّ الناسَ مذْ خلقوا ❊ لرغبةٍ كلما يُعطون أو فرقِ

وقال آخر

إذا أردتَ قضاءَ الحاجِ من أحدٍ ❊ قدِّم لنجواك ما أحببتَ من سببِ
إنَّ الهدايا لها حظٌّ إذا وردتْ ❊ أحظى من الابنِ عند الوالدِ الحدبِ

وقد قيل كل يهدى على قدره. وذكروا أن سليمان بن داود عليهما السلام بينا يسير بالريح

اذ أتى على عش قنبرة فيها افراخ لها فامر الريح فعدلت عن العش فلما نزل وافق يومه ذلك النيروز فجاءت تلك القنبرة حتى رفرفت على رأس سليمان وألقت فى حجره جرادة فقيل له فى ذلك فقال كل يهدى على قدره . وكان مما تهديه ملوك الامم الى ملوك فارس طرائف ما فى بلدهم فمن الهند الفيلة والسيوف والمسك والجلود ومن تبت والصين المسك والحرير والسك والاوانى ومن السند الطواويس والببغاء ومن الروم الديباج والبسط وكان القواد والمرازبة والاساورة يهدون النشاب والاعمدة المصمتة من الذهب والفضة والوزراء والكتاب والخاصة من قراباتهم جامات الذهب والفضة المرصعة بالجوهر وجامات الفضة الملوحة بالذهب والعظماء والاشراف البزاة والعقبان والصقور والشواهين والفهود والسروج وآلاتها وربما أهدى الرجل الشريف سوطاً فقبله وكانت الحكماء يهدون الحكمة والشعراء الشعر واصحاب الجوهر الجوهر واصحاب نتاج الدواب الفرس الفاره والشهرى النادر والحمار المصرى والبغال الهماليج والظرفاء قرب الحرير الصينى مملوءة ماء ورد والمقاتلة القسى والرماح والنشاب والصياقلة والزرادون نصول السيوف والدروع والجواشن والبيض والاسنة وكانت نسوة الملك تهدى احداهن الجارية الناهدة والوصيفة الرائعة والاخرى الدرة النفيسة والجوهرة المثمنة وفص خاتم ومالطف وخف واصحاب البز الثوب المرتفع من الخز والوشى والديباج وغير ذلك والصيارفة نقر الذهب والفضة وجامات الفضة مملوءة دنانير واوساط الناس دنانير ودراهم من ضرب سنتهم مودعة اترجة أو سفرجلة أو تفاحة والكاتب واقف يكتب كل مهد وجائزة كل من يجيزه الملك على هديته ليودع ذلك ديوان النيروز

ومن الهدايا التى لم يسمع السامعون بمثلها هدية ابرويز الى ملك الروم بعقب محاربة بهرام جوبين وقد شارف الروم فانفذ رسولا يستنجده وبعث اليه مائة غلام من ابناء الاتراك مختارين فى صورهم ونفوسهم فى آذانهم اقرطة الذهب معلق فيها حب الدر على مراكب بسروج الذهب منظمة باليواقيت والزمرد وبعث معه بمائدة من عنبر فتحها ثلاثة اذرع مكللة المستدار بالدر لها ثلاث قوائم من ذهب احداها ساعد أسد مع كفه والاخرى ساق وعل مع ظلفه والثالثة كف عقاب فى كف الاسد ياقوتة خضراء وبين ظلفى الوعل ياقوتة حمراء وفى كف العقاب قبيحة من اللاز وردعيناها ياقوتتان حمراوان تتوقدان حمرة وفى وسط المائدة جام من جزع يمانى فاخر فتحه شبر فى شبر مملوء يواقيت حمر وسفط ذهب فيه مائة درة كل درة مثقال ومائة لؤلؤة كل لؤلؤة مثقال ومائة خاتم من ذهب مرصع بالجوهر مشبك الاعلى حشوه مسك وعنبر ووصل رسل ابرويز الى ملك الروم بهذه الهدية فانجده وارسل اليه عشرين الف فارس بالسلاح الشاك وبعث اليه بالفى ألف دينار لارزاق جنده وألف ثوب منسوج

وعشرين جارية من بنات ملوك الصقالبة باقبية الديباج المطير فى آذانهن أقرطة الذهب المزينة بالدر والياقوت وعلى رؤسهن أكلة الجوهر وأنفذ اليه عشرين مركباً على كل مركب صليب تحت كل صليب ألف فارس وألف برذون وألف شهرى والف بغلة والف نجيب بسروج مذهبة وأكف مذهبة ولجم من ذهب مصبوب وبرادع مذهبة وجلال وبراقع ديباج منسوج بالذهب واللؤلؤ وأوقر البغال من السندس والاستبرق والذهب واللؤلؤ وبعث اليه مساحة جريب ارض من ذهب فيه نخل من ذهب سعفه الزمرد وطلعه اللؤلؤ وشمار يخه الياقوت الاحمر وكربه الجزع وبعث اليه الف الف لؤلؤة كل لؤلؤة بالف دينار وبعث اليه الف الف درهم مثاقيله الف الف دينار خسروانى واتى به واعتذر اليه من التقصير فقابله ملك الروم عامة المقبل يوم النيروز بفارس من ذهب على شهرى من فضة عينا الشهرى جزع أبيض محدق بسواد وناصيته وعرفه وذنبه شعر اسود بيد الفارس صولجان من ذهب والى جانبه ميدان من فضة فى وسط الميدان كرة عقيق أحمر يحمل الميدان ثوران من فضة والشهرى يبول الماء فاذا بال انحط الصولجان على الكرة فمر بها الى اقصى الميدان فتحرك بحركتها الثوران والميدان ويركض الفارس على عجل تحت حوافر الشهرى ، فاما أهل الاسلام فلم يسمع مثل هدية حسان النبطى الى هشام بن عبد الملك فانه اهدى اليه والى امهات اولاده هدية كثيرة من الكساء والعطر والجوهر وغيرها فاستكثرها هشام وقال بيت المال احق بهذا ثم امر فنودى عليها فبلغت مائة الف دينار فبعث حسان أعانها وقال يا أمير المؤمنين قد طابت الآن هذه مائة الف دينار تحمل الى بيت المال فاقبل هديتى فقبلها ونادى على منادبه حسان سيد موالى امير المؤمنين قد طابت الآن هذه ، واستملح المامون من ابى سلمة ذكر هدية لطيفة قال اهدى الى امير المؤمنين خوانا من جزع ميلا فى ميل فقال المامون اوقبضت الهدية قيل نعم قال اهى فى دارى ام دارى فيها قال بل هى فى منديل فدعا بهديته فاذا خوان من جزع عليه ميل من ذهب قد صنع من مائة مثقال بطول الخوان وعرضه فاستملحه وقبله ، واهدت اسماء بنت داود الى اسماء بنت المنصور مائة مركن من فضة فيها انواع اللخالخ والريحان المطيب ومائة جفنة مطيبة وانواع من الاطعمة والاشربة وعشراً من الوصائف فى قد واحد فقومت هديتها فبلغت خمسين الف دينار ، وبعث الحسن بن وهب الى المتوكل بجام من ذهب فيه الفا مثقال من العنبر وكتب اليه

يا إمامَ الهدى سُعدتَ من الدّهــرِ برُكنٍ من الإلهِ عزيزِ
وبظلٍّ من النعيمِ مــديدٍ * وبحرزٍ من الليالى حريزِ
لا تزلْ ألفَ حِجّةٍ مهرجانٍ * أنتَ تُفضى به الى النيرُوز

ونعيم ألذ من نظر المعشوق من بعد نبوة و نشوز

قال خالد المهلبي أهديت الى المتوكل فى يوم نيروز ثوب وشى منسوج بالذهب ومشمة عنبر عليها فصوص جوهر مشبك بالذهب ودرع مضاعفة وخشبة بخور نحو القامة وثوبا بغداديا فاعجبه حسنه ثم دعا به فلبسه : وقال يامهلبى أما البسته لاسرك به فقلت ياأمير المؤمنين لو كنت سوقة لوجب على الفتيان تعلم الفتوة منك فكيف وأنت سيد الناس . وأحسن من جميع ما تقدم ذكره قول عبد الله العباسى والى الحرمين فانه قال هذا يوم يهدى فيه الى السادة والعظماء والواجب أن أهدى الى سيدى الاكبر ثم دعا بعشرة آلاف دينار فقسمها على اهل الحرمين فكانت فكرته فى هذا أحسن من فعله

﴿ التلطف فى الهدايا ﴾ كتب سعيد بن حميد الى بعضهم النفس لك والمال منك غير أنى كرهت أن اخلى هذا اليوم من سنة فاكون من المقصرين او أدعى ان فى ملكى مايفى بحقك فاكون من الكاذبين وقد وجهت اليك بالسفرجل لجلالته والسكر لحلاوته والدرهم لنفاقه والدينار لعزه فلازلت جليلا فى العيون مهيبا فى القلوب حلوا لاخوانك كحلاوة السكر عزيزا عند الملوك لاتحسن أفنيتهم الا بك ولازلت نافقا كنفاق الدرهم : وأهدى احمد بن يوسف الى ابراهيم بن المهدى وكتب اليه الامراء أعزك الله تسهل سبيل الملاطفة فى البر فاهديت هدية من لا يحتشم الى من لا يغتنم مالا فلا أكثره تبجحا ولا اقله ترفعا

﴿ هدايا النيروز ﴾ قال كتب الحسن بن وهب الى المتوكل فى يوم نيروز بهذه الرقعة اسعدك الله ياأمير المؤمنين بكر الدهور وتكامل السرور و بارك لك فى اقبال الزمان و بسط بيمين خلافتك الامال وخصك بالمزيد وأبهجك بكل عيد وشد بك أزر التوحيد ووصل لك بشاشة ازهار الربيع المونق بطيب أيام الخريف المغدق وقرب لك التمتع بالمهرجان والنيروز بدوام بهجة ايلول وتموز و بمواقع تمكين لاتجاوزه الامال وغبطة البهاء نهاية ضارب المثل وعمر بيلائك الاسلام وفسح لك فى القدرة والمدة وامتع برأفتك وعدلك الامة وسربلك العافية و رداك السلامة ودرعك العز والكرامة وجعل الشهور لك بالاقبال متصدية والازمنة اليك راغبة متشوقة والقلوب نحوك سامية تلاحظك عشقا وترفرف نحوك طربا وشوقا وكتب فى آخره

فداك الزمانُ وأهلُ الزمانِ * إمامَ الهدى بكَ مستبشرينا
قد ألقوا اليكَ مقاليدهم * جميعاً مطيعين مستوسقينا
ولازلتَ زيناً لاعيادنا * وللدّين كهفاً وحصناً حصينا
يَعِز بدولتكَ الصالحون * ويشقى بكَ الشركُ والمشركونا

فيا رُبَّ مشكلةٍ أبرقت * فجلّيتها السيفَ حقاً يقينا
بصدقِ عزيمةِ مستبصرٍ * وضربٍ يقدُّ الطُلى والمتونا
وسمتَ النصارى بشيطانها * وذلّتْ منها الاغرّ البطينا
وكم فعلٍ لك فى المشركين * أقرّتْ عيونا وأبكتْ عيونا

وكتب آخر

المهرجانُ لنا يومٌ نسرُّ به * يومٌ تعظمه الاشرافُ والعجمُ
وأنت فيه لنا بدرٌ يضيءُ كما * أن السماءَ ببدرِ الليلِ تتسمُ

وكتب آخر

عيدٌ جديدٌ وأنت جدّدته * يامنْ به للزمانِ تجديدُ
لا زالَ طولَ الزمانِ ترجعهُ * وظلُّ مُلكٍ عليك ممدُودُ

وقيل للمازنى أى هؤلاء أظرف فى شعره الذى يقول

جُعلت فِداكَ للنيروز حقّ * فأنتَ على أعظمُ منه حقّا
ولو أهديتُ فيه جميعَ ملكى * لكان جليلُهُ لك مُستدقا
فأهديتُ الثناءَ بنظم شعرٍ * وكنتَ لذاكَ منى مُستحقا

أم الذى يقول

دخلتُ السوقَ أبتاعُ * وأستطرفُ ما أهدى
فما استطرفتُ للاهدا * ءِ إلا طُرفَ الحمد
إذا نحنُ مدحناك * رعينا حُرمةَ المجدِ

أم الذى يقول

وكم من مُرْسلٍ لك قدْ أتانى * بما يهدى الخليلُ إلى الخليل
فأظهرتُ السرورَ وقلتُ أهلا * وسهلا بالهديةِ والرّسولِ

فقال أشعرهم جميعهم وأظرفهم الذى يقول

فوالله لا أنفك أُهدى شواردًا * اليكَ يُحمّلن الثناءَ المبجّلا
ألذَّ من السلوى وأطيبَ نفحةً * من المسكِ مفتوتا وأيسرَ محملا

وبعث سعيد بن حميد الى احمد بن أبى طاهر قارورة ماء ورد وكتب اليه

وزائرةٍ حوريّةٍ فارسيةٍ * كنشرِ حبيبٍ حادثٍ ماعن الصدّ

تردُّ ربيعاً فى مصيفٍ بنفحةٍ * إذا فقدت ورداً تنوبُ عن الورد
حكى نشرُها منهُ خلائقَ نشرهِ * كنشر نسيم الرَّوض فى جنةِ الخلد
وشبَّهتُها فى صفوها بصفائه * لإخوانه فى القربِ منهُ وفى البعدِ
وأهدت لنا منهُ النسيمَ نسيمهُ * وإنْ كان إنْ حالت يدوم على عهدْ

وعن اسحاق بن ابراهيم الموصلى . قال دار كلام بين الامين و بين ابراهيم بن المهدى . قال فوجد عليه الامين فهجره فوجه اليه ابراهيم بوصيفة مغنية مع عبد هندى فابى الامين أن يقبلهما فكتب اليه

هتكتَ الضميرَ بردِّ اللطفْ * وكشفتَ هجرَكَ لى فانكشفْ
فإنْ كنتَ تحقدُ شيئاً مضى * فهبْ للخلافةِ ماقدْ سلفْ
وجدْ لى بعفوكَ عنْ زلتى * فبالفضلِ تاخذُ أهلَ الشرف

فرضى عنه ودعاه للمنادمة

﴿ هدايا الفصد ﴾ قال ابن حمدون النديم افتصد المأمون فاهدى اليه ابراهيم بن المهدى جارية معها عود ورقعة فيها

عفوتَ وكانَ العفوُ منكَ سجيةً * كما كانَ معقوداً بمفرقكَ الملكُ
فإنْ أنتَ أتممتَ الرضى فهوالمنى * وإنْ أنتَ جازيتَ المسيءَ فذا الهلكُ

فقال المأمون خرف الشيخ يوم مثل هذا يذكر الثواب والآخرة فلم يقبل الوصيفة واغتم ابراهيم وكتب اليه مع الوصيفة

لا والذى تسجدُ الجباهُ لهُ * مالى بما دونَ ثوبها خبرُ
ولا بفيها ولا هممتُ بها * ما كانَ إلاَّ الحديثُ والنظرُ

فقال المأمون نعم الآن أقبلها فقبلها ، قال أبوالقاسم بن أبى داود كنت عند أحمد بن محمد العلوى وقد افتصد فخرج بعض الخدم ومعه طبق من فضة عليه تفاح طيب مكتوب حواليه بالذهب

سرَّ الغداةَ بوجهكَ اللعبُ * وجرى بيُمنِ فصادكَ الطربُ
وتداعتِ العيدانُ فى زجلٍ * وتناولتْ راحاتها النخبُ
فاشربْ بهذا الجام يا ملكى * شرباً حثيثاً إنهُ عجبُ
واجعلْ لمنْ قدْ خفَّ فى لطفٍ * منْ زورهِ يخشى ويرتقبُ

فقال للخادم اخرجها الى الستارة فخرجت وخلا ليلته بها . وقيل افتصد المعتصم فاهدت

اليه شمائل صينية عقيق عليها قدح أسبل عليهما منديل مطيب مكتوب عليه بالعنبر فى كل ربع منه بيت شعر

خَضَبَ الخليفةُ كفهُ من فصدِهِ * بدمٍ يحاكى عَبْرَةَ المشتاقِ
تاهَ الفصادُ فما يقامُ لتيهِهِ * إذ صارَ مفتصِداً أبو إسحاقِ
وتوافتِ العيدانُ عند حضورهِ * قُبَّ البطونِ ذوابلَ الاعناقِ
مَلِكٌ إذا خطرَ الشرابُ ببالهِ * لبسَ السرورُ غلائلَ الإشراقِ

فلما قرأه أمر باحضار اسحق بن ابراهيم الموصلى وأمره أن يجعل له لحنا وأمر مسرورا باخراجها من وراء الستارة ثم لم يزل اسحاق يردد هذه الابيات حتى أحكمتها شمائل وغنت فكأن سفط الدر يتناثر من فيها وأمر لاسحاق بمال وللجارية بخمس وصائف وخمسة آلاف دينار المبرد قال أهدى اليزيدى الى الرشيد يوم فصد جام بلور وشمامات غالية وكتب اليه يا أمير المؤمنين تفاءلت فى الشرب فى الجام بجمام النفس ودوام الانس والغالية للغلو فى السرور والازدياد من الخير والحبور وقلت

دمُ الفصدِ من يدِكَ العاليهْ * يُداعى لجسمكَ بالعافيه
كسا الدهرَ ثوباً من الارجُوانِ * بديعَ الطرازينِ والحاشيه
وعصفرَ صفحةَ وجهِ الربيعِ * بصبغٍ من أسرارِهِ الجاريه
فكم روضةٍ نشرتْ وشيها * وزهرةِ روضٍ غدتْ زاهيهْ
إمامٌ أسالَ دمَ المكرماتِ * فشجّجَ أقنائها الحاميهْ
فلا زالَ فى عيشةٍ راضيه * ودامتْ لهُ النعمةُ الكافيهْ

قال اليزيدى افتصد المأمون فاهدت اليه رباح أترجة عنبر عليها مكتوب بماء الذهب

تعالجَ من هَوِيتُ بفصدِ عرقٍ * فأضحى السُّقمُ فى خلعِ الخضوعِ
وجاءتْ تحفةُ الألبابِ تسعى * بوردٍ فائضٍ فيضَ الدموعِ

فقال المأمون لليزيدى ويحك ما تقول فيمن كتب هذين البيتين قال يكافأ بالدنيا وما استدق منها فأمر لها بمال كثير ووصلنى ببعضه . قال وافتصد عبد الله بن طاهر فاهدى له أبو دلف جميع ما أصاب فى السوق من الورد وكتب اليه

تضاحكَ الوردُ فى وجهى فقلت له * لِمْ ذا فقالَ أبو العباس مفتصدُ
فقمتُ أطلبُ ما أهديهِ من طرفٍ * للفصدِ فى السوقِ حتى خاننى الجلدُ

يوم الفصاد له أزر مطيبة * محجوبة لا يراها الجرد والزرد
فاشرب على الورد مسروراً بطلعته * يا ابن الكرام فأنت السيد النجد

قال عمر بن بانة اعتل المعتصم فأشار اليه بختيشوع بالفصد وأنا عنده فأخرجت اليه هدايا الفصد وكان فيما أخرج طبق صندل مكتوب عليه بجزع كابدو رعليه شمامات مسك وعنبر فأمر بقراءة ما عليه فاذا هو

فصد الإمام لعلة في جسمه * فشفى الإله السقم بالفصد
وجرى الى الطشت السنام مبادراً * وجرى الشفاء إليه بالسعد
يا مالكا ملك العباد بجوده * إسلم سلمت بعيشة رغد

فقال يا عمر ومن يلومني على حب هذه الجارية والله ما أراها الا تزايدت في عيني وخليق أن تنجب فان لها همة فولدت له غلاما وكانت آثر جوار به عنده واحظاهن لديه، وأخبرنا ابراهيم القارى قال كنت عند المأمون فاحتاج الى الفصد فقال له الاطباء البلد بارد فقال لا بد لي منه ففصدوه فلما كان وقت الظهر حضروا فراموا فجر العرق فاذا هو قد التحم فشدوا الرباط وفيهم ميخايل فبا ظهر الدم فقال له المأمون عثرتموني فحلوا الرباط وعلى رأسه بختيشوع وابن ماسويه فقال ما تقولون . قالوا ما ندري ما نقول . قال فاشاروا هناك أن جلالة الخليفة ربما أدهشت الحاذق بالصناعة والمتقدم في الرياسة فاعتزلوا ناحية وأبطؤا عليه فقال لا سود كان على رأسه ادن فمص الجرح ففعل فثار الدم فقال ادع هؤلاء الحاكة فجاؤا وشهدوا خروج الدم قال أين كنتم . قال ابن ماسويه لو فعل جالينوس ما زاد عليه . قال وافتصد أحمد بن عيسى بالري وهو أميرها فكتب اليه جعفر الشيباني

فصدت بأرض الري طاب لك الفصد * وفارق نجم النحس طالعك السعد
فأعقبك الحسنى التي لا مدى لها * ولا زال بردبك الجلالة والحمد
تورّدت الدنيا بفصدك مثل ما * بفصدك يا ابن المصطفى ضحك الورد
فلا أبصرت عيناك ما عشت شانياً * ومن كل ما تهواه لا خانك العهد

وفي مثله

يا فاصداً من يد جلت أياديها * ونال منه الذي يرجوه راجيها
يد الندى هي فارفق لا ترق دمها * فإن آمال طلاب الندى فيها

قال وكتب الحمدوني الى الفضل بن جعفر وقد افتصد

ألا يا طبيب الفصد هل أنت عالم * بما صنعت كفاك في كف ذي المجد

أسلت دماً من ساعد ينثني بها * حياء ندى فاقصد بذرعك فى الفصد
فداويت كفاً يعلم الناس أنها * دواء من الاعمال فى الزمن النكد
ولما أتانا المخبرون بفصده * أردت بأن أهدى على قدر ماعندى
وشاورت فاستصحبت آلى وجيرتى * فلم أر أمرى من ثناء ومن حمد

وقال آخر

توثق من ثنائك فى الهدايا * غداة أردت فصد الباسليق
فلم أر كالدعاء أتم نفعاً * وأجمل فى مكافاة الصديق
وأكثرت الدعاء وقلت ربى * يقيك شرور آفات العروق

وقال آخر

على طيب أيام التمتع بالورد * فصدت فأصحبت السلامة فى الفصد
ولا زلت لا زالت من الله أنعم * عليك قرير العين مغتبط الحسد
لقد رمت جهدى طرفة وهدية * إليك فكان الشكر أكثر ماعندى

وقال آخر

أيها الفاصد العليل الصحيح * بأبى ذلك الجراح الجريح
إن من علق الذراع من الفصد إلى الجيد ذاك شيء مليح
أيها الفاصد المهنا له الورد * وفى وجنتيه ورد يلوح

وقال آخر

أيها السيد الذى فصد العرق * وأرخى دونى ذيول السرور
كم تمنيت أن أكون طبيباً * ومنى الصب ترهات الغرور

وقال آخر

أجمل جعلت فداك بالجلد * وامنن على بأجمل الرد
لو عاينت عيناك مضطربى * وتمردى بالمد والشد
وتخشعى عند الطبيب كأنه * مولى يريد عقوبة العبد
كالنار مبضعه يقلبه * ويدير مقلة حازم جلد
حتى اعتزمت على محاجزة * وصددت عنه أيما صد
ما كان من ألم شعرت به * إلا كموقع شرطة الجلد

اذ سالَ مُنبعثاً سوابقُهُ * كالنارِ خارجة من الزَّندِ
فسلِمتُ والرحمنُ سلّمني * ذوالمنّ والآلاء والحمدِ
مابعدَ طباخي لمفتخر * فخرٌ لمنْ قبلي ومنْ بعدي
نَصبَ القدُورَ بنفسه كرماً * لِنَصيبَ شهوَتنا على عمدِ
فاجادَ صنعتَها وعجّلها * من غيرِ ماتعب ولا جُهدِ
ونبيذُنا صافٍ ومجلسنا * في الطيبِ يحكي جنة الخلدِ
فهلُمّ وأحضرْ غيرَ محتشمٍ * واجعل غداءك سيدي عندي
لا تجمعنّ عليّ محتسباً * ضعفَ العليلِ ووحشةَ الفرد

— محاسن الوصائف المغنيات —

قال الاصمعي بعث الىّ هرون الرشيد وهو بالرقة فحملت اليه فانزلني الفضل بن الربيع ثم دخلني عليه وقت الغروب فاستدناني وقال. ياعبد الملك وجهت اليك بسبب جاريتين اهديتا الىّ وقد أخذتا طرفامن الادب احببت ان تبرز ماعندهما وتسير على الصواب فيهما ثم أمر باحضارهما فحضرت جاريتان مارأيت مثلهما قط فقلت لاحداهما ماعندك من العلم قالت ماأمر الله في كتابه ثم ماينظر فيه الناس من الاشعار والاخبار فسألتها عن حروف القرآن فاجابتني كانها تقرأ في كتاب الله ثم سالتها عن الاشعار والاخبار والنحو والعروض فما قصرت عن جوابي في كل فن أخذت فيه فقلت لها فانشدينا شيئا فانشدت

ياغياثَ البلادِ في كل محلٍ * ما يريدُ العبادُ إلاّ رضاكَ
لا ومن شرّفَ الإمامَ وأعلى * ماأطاعَ الإلهَ عبدٌ عصاكَ

فقلت ياأمير المؤمنين مارأيت امرأة في نسك رجل مثلها وخبرت الاخرى فوجدتها دونها فامر ان تصنع تلك الجارية لتحمل اليه في تلك الليلة ثم قال لي ياعبد الملك انا ضجر واحب ان تسمعني حديثا مما سمعت من أعاجيب الزمان تفرج به فقلت ياأمير المؤمنين كان لي صاحب في بدو بني فلان وكنت أغشاه وأتحدث معه وقد أتت عليه ست وتسعون سنة وهو أصح الناس ذهنا وأقواهم بدنا فغبت عنه ثم أتيته فوجدته ناحل البدن كاسف البال فسألته عن سبب تغيره فقال قصدت بعض القرابة فالفيت عندهم جارية قد طلت بالورس بدنها وفي عنقها طبل تنشد عليه

محاسنُها سهامٌ للمنايا * مُريّشةٌ بأنواع الخطوبِ
ترى ريبُ المنون بهنّ سهماً * تصيبُ بنصلهِ مُخَّ القلوبِ

فقلت

قِفي شفتي من موضع الطّبل ترتعي * كما قد أبحتِ الطّبلَ في جيدِك الحسن
هبيني عودًا جوفُهُ تحت متنهِ * يُغنّي ما بين نحرِكِ والذقن

فلما اسمعت شعري رمت بالطبل في وجهي ودخلت الخيمة فوقفت حتى حميت الشمس على مفرقي ولم تخرج فانصرفت قريح القلب فهذا التغير من عشقي لها فضحك الرشيد حتى استلقى وقال ويلك يا عبد الملك ابن ست وتسعين يعشق فقلت قد كان هذا فقال يا عباس أعط عبد الملك مائة ألف درهم ورده الى مدينة السلام فانصرفت ثم أتاني خادم فقال أنا رسول ابنتك – يعني الجاريه – تقول لك ان أمير المؤمنين قد أمر لها بمال وهذا نصيبك فدفع الى ألف دينار ولم تزل تواصلني بالبر الواصل حتى كانت فتنة محمد وانقطع خبرها وأمر الفضل لي بعشرة آلاف درهم ٭

علي بن الجهم لما افضت الخلافة الى المتوكل اهدى اليه الناس على اقدارهم فاهدى اليه ابن طاهر جارية اديبة تسمى قبيحة تقول الشعر وتلحنه وتحسن من كل علم احسنه فحلت من قلب المتوكل محلا جليلا فدخلت يوما للمنادمة وخرج المتوكل وهو يضحك وقال يا علي دخلت فرايت قبيحة قد كتبت على خدها بالمسك جعفر فما رايت احسن منه فقل فيه شيئا فسبقتني محبوبة واخذت عودها فغنت

وكاتبةٍ بالمسكِ في الخدِّ جعفرًا * بنفسي خطُّ المسكِ من حيث أثرا
لئن أودعت سطرًا من المسك خدَّها * لقد أودعت قلبي من الوجدِ اسطرا
فيا منْ لمملوكٍ يظلُّ مليكُهُ * مُطيعاً له فيما أسرَّ وأجهرا
ويا منْ لعيني من رأى مثل جعفر * سقى اللهُ صوبَ المسكرات لجعفرا

قال فبقيت خواطري حتى كاني ما احسن حرفا من الشعر وقلت للمتوكل أقل فقد والله غرب عني ذهني فلم يزل يعيرني به ثم دخلت عليه للمنادمة بعد ذلك فقال يا علي اعلمت اني قد غاضبت محبوبة وامرتها بلزوم مقصورتها ومنعت اهل القصر من كلامها فقلت يا سيدي ان غاضبتها اليوم فصالحها غدا فدخلت عليه من الغد فقال ويحك يا علي رايت البارحة في النوم كاني صالحت محبوبة . فقالت جاريته شاطر ياسيدي لقد سمعت الآن في مقصورتها هينمة فقال تنظر ماهي فقام حافياً حتى وصلنا مقصورتها فاذا هي تغني

أدورُ في القصرِ كي أرى أحدًا * أشكو اليه فلا يكلمني
فمنْ شفيعٍ لنا إلى ملكٍ * قدْ زارني في الكرا يعاتبني
حتى إذا ما الصّباحُ عادَ لنا * عادَ إلى هجرهِ ففارقني

فصفق المتوكل طربا فلما سمعته خرجت تقبل رجليه وتمرغ خدها في التراب حتى اخذ

بيدها راضيا عنها ، حدث أبو على بن الإسكرى المصرى واسكر هى القرية التى ولد فيها موسى عليه السلام – قال كنت من جلاس تميم بن تميم وممن يخفف عليه فأتى من بغداد بجارية رائعة فائقة الغناء فدعا بجلسائه وقدمت الستارة فغنت

وَبدا لهُ من بعد ما اندمل الهوى * برقٌ تألقَ مُوهِناً لمعانهُ
يبدُوا كحاشيةِ الرِّداءِ ودُونهُ * صعْبُ الذُّرى متمنّع أركانهُ
وبدا لينظرَ كيف لاحَ ولم يطق * نظراً اليهِ وهدَّهُ هيجانهُ
فالنارُ ما اشتملتْ عليهِ ضلوعهُ * والماءُ ما سحّتْ بهِ أجفانهُ

قال فأحسنت ماشاءت فطرب تميم ومن حضر ثم غنت

سينيليكَ مما دُونَ دَولةِ مفضلِ * أوائلهُ محمودةٌ وأواخرهْ
ثنى اللهُ عطفيهِ وألّفَ شخصهُ * على البرِّ مذْ شدّتْ عليهِ مآزرهْ

فطرب تميم ومن حضر ثم غنت

أستودِعُ اللهَ فى بغدادَ لى قمراً * بالكرْخِ منْ فلكِ الأزرارِ مطلعُهُ

فافرط تميم فى الطرب جدا وقال لها تمنى ماشئت فلك مناك قالت أتمنى أيها الامير عافيته وسلامته فقال والله لابد أن تتمنى ، فقالت على الوفاء أتمنى أن أغنى هذه النوبة ببغداد فتغير وجه تميم وتكدر المجلس وقمنا فلحقنى بعض خدمه فردنى فلما وقفت بين يديه قال ويحك أرأيت ماامتحنا به ولا بد لنا من الوفاء ولم أثق فى هذا بغيرك فتأهب لحملها الى بغداد فاذا غنت هناك فاصرفها فقلت سمعا وطاعة ثم أصحبها جارية سوداء تخدمها وتعادلها وأمر بناقة لى فحمل عليها هودج وادخلت فيه وسر نامع القافلة الى مكة فقضينا حجنا ثم لما وردنا القادسية اتتنى السوداء فقالت تقول لك سيدتى أين نحن ، فقلت لها نحن الآن بالقادسية فاخبرتها فسمعت صوتا قد ارتفع ناشدا

لمّا رأينا القادسيّةَ حيثُ مجتمعُ الرِّفاقِ
وشممتُ من أرضِ الحجا * زِ نسيمَ أنفاسِ العِراقِ
أيقنتُ لى ولمنْ أُحِبُّ بجمْعِ شملٍ واتفاق
وضحكتُ من فرحِ اللقا * ءِ كما بكيتُ من الفراقِ

فصاح الناس من أقطار القافلة اعيدى بالله فلم يسمع لها كلمة فلما نزلنا الناصرية على خمس أميال من بغداد فى بساتين متصلة تبيت الناس فيها ثم يبكرون ببغداد فلما اقرب الصباح اذ السوداء قد اتتنى مذعورة فقالت ان سيدتى ليست بحاضرة فلم أجدها ولا وجدت لها ببغداد خبرا فقضيت حوائجى وانصرفت الى تميم وأخبرته خبرها فلم يزل واجما عليها واخبار القينات

كثيرة فنقتصر منها على هذا القدر

— محاسن الجوارى مطلقا —

قيل كان يقال من أراد قلة المؤونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالاماء دون الحرائر ، وكان مسلمة بن مسلمة يقول: عجبت لمن استمتع بالسرارى كيف يتزوج المهائر ، وقال ، السرور باتخاذ السرارى وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الاماء أمهات أولادهم حتى نشأ فيهم على بن الحسين بن على رضى الله عنهم وفاق أهل المدينة فقها وعلما وورعا فرغب الناس فى اتخاذ السرارى قال وليس من خلفاء بنى العباس من أبناء الحرائر الا ثلاثة السفاح والمنصور والامين والباقون كلهم أبناء الجوارى وقد علقت الجوارى لانهن يجمعن عز العرب ودهاء العجم

— ضده —

إذا لم يكنْ فى منزلِ المرْءِ حرَّةٌ * رَأى خللاً فيما تولى الولائدِ
فلا يتخذْ منهنَّ حرٌّ قعيدةً * فهنَّ لعمرُ اللهِ شرُّ القعائدِ

وكان يقال ، الجوارى كخبز السوق والحرائر كخبز الدور ، ومن أمثال العرب لا تمازح أمة ولا تبك على اكمة . وقال بعضهم لا تفترش من تداولتها أيدى النخاسين ووقع ثمنها فى الموازين وقال لا خير فى بنات الكفر وقد نودى عليهن فى الاسواق ومرت عليهن أيدى الفساق

— محاسن الموت —

فى الحديث المرفوع الموت راحة وقال بعض السلف مامن مؤمن الا والموت خير له من الحياة لانه ان كان محسنا فالله يقول « وما عند الله خير للابرار » وان كان مسيئا فالله تعالى جدّه يقول أيضا « ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خير لانفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » وقال ميمون بن مهران أتيت عمر بن عبد العزيز فكثر بكاؤه ومسئلته الله الموت فقلت يا أمير المؤمنين تسأل ربك الموت وقد صنع الله على يدك خيرا كثيرا أحييت سننا وأمت بدعا وفعلت وصنعت وليقائك رحمة للمؤمنين ، فقال ، الا اكون كالعبد الصالح حين اقر الله عينه له امره قال « ربّ قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تاويل الاحاديث » الى قوله « والحقنى بالصالحين » فما دار عليه اسبوع حتى مات رحمه الله قالت الفلاسفة لا يستكمل الانسان حد الانسانية الا بالموت لان حد الانسانية انه حد ناطق ميت وقال بعض السلف ، الصالح اذا مات استراح والطالح اذا مات استريح منه قال الشاعر

وما الموتُ إلا راحةٌ غيرَ انه * منَ المنزلِ الفانى إلى المنزلِ الباقى

وقال آخر

جزا اللهُ عنا الموتَ خيرًا فإنَّهُ * أبرُّ بنا من كلِّ برٍّ وأرأفُ
يُعجّلُ تخليصَ النفوسِ من الاذى * ويُدنى من الدارِ التى هى أشرفُ

وقال منصور الفقيه

قد قلتُ إنْ مدحوا الحياةَ فاسرفوا * فى الموتِ ألفُ فضيلةٍ لا تُعرفُ
منها أمانُ بقائه بلقائهِ * وفراقُ كلِّ معاشرٍ لا يُنصفُ

وقال أحمد بن أبى بكر الكاتب

منْ كان يرْجو أن يعيشَ فإننى * أصبحتُ أرْجو أنْ أموت فاعتقا
فى الموْتِ ألفُ فضيلةٍ لو أنها * عُرفتْ لكانَ سبيلهُ أن يَعشقا

وقال لنكك البصرى

نحنُ واللهِ فى زمانٍ غشومٍ * لوْ رأيناهُ فى المنام فزِعْنا
أصبحَ الناسُ فيه من سوءِ حالٍ * حقُّ منْ مات منهم ان يُهنا

— ضده —

فى الحديثَ المرفوع أكثروا ذكرهاذم اللذات يعنى الموت ، قال الشاعر

ياموْتُ ما اجفاكَ من نازلٍ * تنزلُ بالمرْءِ على رغمه
تستلبُ العذْراءَ من خدرِها * وتأخذُ الواحدَ من أُمِّهِ

وقال

وكلُّ ذى غيبةٍ لهُ إيابٌ * وغائبُ الموْتِ لا يؤوبُ

وقال بعضهم الناس فى الدنيا اغراض تنتضل فيها سهام المنايا وقال ابن المعتز الموت كسهم مرسل اليك وعمرك بقدر سفره نحوك وقال بعضهم الموت أشد مما قبله وأهون مما بعده ونظر الحسن رضى الله عنه الى ميت يدفن فقال ان شيئا أوله هذا لحقيق ان يخاف آخره وان شيئا هذا آخره لحقيق أن يزهد فى أوله وسئل بعض الفلاسفة عن الموت فقال مفازة من ركبها ضل خبره وعفى اثر والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب

﴿ تم الكتاب بعون الملك الوهاب ﴾

﴿ فهرس كتاب المحاسن والاضداد ﴾

صحيفه

٠٢ مقدمة الكتاب
٠٣ محاسن الكتابة والكتب
٠٥ ضده
٠٦ محاسن المخاطبات
٠٨ ضده
٠٩ محاسن المكاتبات
١١ ضده
محاسن الجواب
١٢ ضده
١٣ محاسن حفظ اللسان
١٤ ضده
١٥ محاسن كتمان السر وضده
١٨ محاسن المشورة وضده
١٩ محاسن الشكر
٢٠ ضده
٢٢ محاسن الصدق
٢٣ ضده
٢٥ محاسن العفو
٢٦ ضده
٢٧ محاسن الصبر على الحبس
٢٩ ضده
٣٠ محاسن المودة
٣١ ضده
٣٢ محاسن الولايات
٣٣ ضده
٣٣ محاسن الصحبة
٣٤ ضده
٣٥ محاسن التطير
ضده

صحيفه

٣٦ محاسن الوفاء
٣٨ ضده
٣٩ محاسن السخاء
٤٤ مساوى البخل
٥١ محاسن الشجاعة
٥٦ ضده
٥٩ محاسن حب الوطن
٦٣ ضده
٦٤ محاسن الدهاء والحيل
٦٧ ضده
٦٨ محاسن المفاخرة
٨٠ ضده
٨٢ محاسن الثقة بالله سبحانه
ضده
٨٣ محاسن طلب الرزق
ضده
٨٥ محاسن المواعظ
٨٦ ضده
٨٦ محاسن فضل الدنيا
٨٧ ضده
٩٠ محاسن الزهد
٩٢ ضده
٩٣ محاسن النساء النادبات
٩٦ محاسن النساء الماجنات
١٠٢ محاسن النساء الاعرابيات
١٠٢ محاسن النساء المتكلمات
١٠٦ محاسن النساء مطلقاً

صحيفه

١١٠ محاسن التزويج
١١٣ أمثال فى التزويج
١١٥ فى الناشزة من النساء
١١٨ ماجاء فى نساء الخلفاء
١١٩ ماجاء فى المطلقات
١٢٢ محاسن وفاء النساء
١٢٦ ضده
١٣١ محاسن مكر النساء
١٣٣ مساوى مكر النساء
١٣٤ محاسن الغيرة
١٣٨ أخبار الشعراء فى الباب
١٣٩ أخبار وأمثال فى الباب
١٤٤ مساوى شدة الغيرة
١٤٨ محاسن القيادة
١٦٩ محاسن الدبيب
١٧١ ضده مساوى الدبيب
١٧٣ محاسن الباه
١٧٤ ضده فى مساوى العنن
١٧٥ محاسن النيروز والمهرج
١٧٨ محاسن الهدايا
١٨١ التلطف فى الهدا
هدايا النيروز
١٨٣ هدايا القصد
١٨٧ محاسن الوصا المغنيات
١٩٠ محاسن الجوارى مطلقا
ضده
محاسن الموت . وضده

VETVS & TESTA-
NOVVM MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
Restored through
a grant from
The Cartwright Foundation

VETVS & TESTA-
NOVVM MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

BOUND BY
HNM

الجاحظ

راي ابي عثمان عمرو بن بحر
الجاحظ

LIB.
13 JUN 1994

892.74
J25rA
297.09
J25rA
C.1

رأى أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
في معاوية والأمويين

رسالة عني بنشرها، وصححها، وكتب هوامشها
وترجم لمؤلفها

السيد عزت العطار الحسيني
مؤسس ومدير مكتب نشر الثقافة الإسلامية
من أقدم عصورها إلى الآن

رجب الفرد سنة ١٣٦٥هـ يونيه سنة ١٩٤٦م

اهـداء الرسالة :

لسيادة – نجل حفيـــد خاتم النبيين ، واشرف المرسلين ، فرع الدوحة الهاشمية المباركة ، الامام العادل يحي بن حميد الدين – صاحب السمو الملكى الأمير المعظم سيف الاسلام عبد الله .

سيدى

هذه الرسالة خطت فى القرن الثالث للهجرة النبوية بقلم زعيم من زعماء كتاب العصر العباسى وادبائه وهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . كتبها الى احد ابناء عمومتكم من الامراء العباسيين . قد اعتزمت نشرها ورأيت من شرف المكانة لها ان تتوج باسم سموكم الكريم ، راجياً أن تنال الرضى والقبول ؟

الناشر

عزت العطار الحسينى

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر :

لا إله الا الله الحليم الكريم ، سبحانه وتعالى رب العرش العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين وبعد :

لم يكن قصدى من نشر هذه الرسالة – التى عثرت عليها فى ضمن مجموعة من المخطوطات القديمة المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة المقيدة بفن التاريخ تحت رقم ٢٨٥٥ – ان اثير جدلا مذهبياً ، وتعصباً طائفيا مضت عليه قرون عديدة ، وكان سبباً من الاسباب التى أدت إلى تشعب المسلمين ، وتفرق كلمتهم فاحدثت بينهم جدلا لاتزال آثاره عالقة بأذهان بعض الناس إلى الآن ، ولسنا بصدد بيان المصيب والمخطىء فى المتسبب فى تلك الفتن فهذا موكول أمره والحكم فيه الى علام الغيوب واحكم الحاكمين .

ولـكن الذى دعانى إلى نشرها هو مكانة ناثرها العلمية والادبية ، فانه احد زعماء البيان العربى ، ومن شيوخ المعتزلة ورؤسائهم . لنعطى القـارىء صورة حقيقية عن الـكتابة والنثر فى ذلك العصر الذهبى للامة العربية . عصر العلوم والمعارف . عصر الخليفتين هارون ، والمأمون . عصر الحضارة العربيـة التى كانت بلغت الذروة القصوى من المجد ، والفخر ، والسؤدد لاسيما وان كاتبها من المنتجين الذين اربت مؤلفاتهم على المـاية والستين فى مختلف العلوم والفنون .

لهذا ولما توخيته من القصد الحسن من نشر هذه الرسالة نذكر للقراء الـكرام بعض ما قاله المؤرخون والعلماء فى مقدرة الجاحظ العلمية من اقوال المعجبين به من أقوال المعجبين به ومن أقول خصومه .

الجاحظ : هو عمرو بن بحر الجاحظ المعتزلى صاحب المنزلة العالية عند أهل الأدب . كان ابن حزم يثق بنقله توفى سنة ٢٥٦ هـ .

قال أبو الحسين الملطى : كان الجاحظ صاحب تصانيف ولم يكن صاحب جدل .

عاصر الجاحظ ثلاثة ممن اشتهروا بالتأليف وهم :

أبو الحسن على بن المدائنى صاحب المؤلفات المشهورة : روى الجاحظ عنه فى كتابيه البيان ، والحيوان روايات كثيرة . وأبي عبيدة معمر بن المثنى الذى قال عنه صاحب الوفيات : ان مؤلفاته تقارب مأتى مصنف ، وقال عنه الجاحظ فى كتابه البيان : لم يكن فى الأرض خارجى ولا جاعى اعلم من ابى عبيدة بجمع العلوم . والثالث : العلامة الاديب هشام بن محمد الكلبى الكوفى الذى لهماية وتسعة وثلاثون مؤلفاً .

قال ياقوت : وحسبك بها فضيلة لابى عثمان الجاحظ أن يكون مثل ابن الاخشيد وهو من هو فى معرفة علوم الحكمة وهو رأس عظيم من رءوس المعتزلة يستهام بكتب الجاحظ حتى ينادى عليها بعرفات والبيت الحرام .

وقال المسعودى وهو من خصوم الجاحظ : وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلوا أصداء، الاذهان، وتكشف

بواضح البرهان لانه نظمها احسن نظم ، ورصفها احسن رصف ، وكساها كلامه اجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارىء ، وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة ثم قال : ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر من الجاحظ كتباً .

وذكر صاحب وفيات الاعيان : ان أبا القاسم السيرافى قال : حضرنا مجلس الاستاذ ابي الفضل بن العميد فجرى ذكر الجاحظ فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به ، وسكت الوزير عنه . فلما خرج الرجل قلت له : سكت أيها الأستاذ عن هذا الرجل فى قوله ما عهدتك فى الرد على امثاله تتوانى ؟ فقال : لم اجد فى مقابلته أبلغ من تركه على جهله ، ولو وافقته وبينت له لنظر فى كتبه وصار بذلك انساناً . يا أبا القاسم . فكتب الجاحظ تعلم العقل أولا ، والادب ثانيا ولم استصلحه لذلك .

وقال أبو المظفر الاسفرايني فى كتابه التبصير فى الدين : عمرو بن بحر الجاحظ ، وقد اغتر اصحابه بحسن بيانه فى

تصانيفه ولو عرفوا ضلالته وما احدثه فى الدين من بدعة لكانوا يستغفرون عن مدحه ، ويستنكفون عن الانتساب إلى مثله فمن بدعه قوله ان الله تعالى لا يدخل احداً النار ولكن النار بطبعها تجذب أهلها ثم تمسكهم فى جوفها خالداً مخلداً . وقال عن الجنة نفس قوله عن النار . فابطل بهذا القول ، الرغبة والرهبة ، والثواب ، والعقاب من الله تعالى وقد افتخر به الكعبى وعده من مشايخ المعتزلة .

وذكر ابو الفداء فى حوادث سنة ٢٥٥هـ فقال : وفى محرم هذه السنة توفى أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ صاحب التصانيف المشهورة وكان كثير الهزل وخالط الخلفاء ونادمهم أخذ العلم عن المتكلمين وكان الجاحظ قد تعلق بأسباب ابن الزيات فلما قتل ابن الزيات قيد الجاحظ وسجن ثم اطلق .

قال الجاحظ : ذكرت للمتوكل لتعليم ولده فلما مثلت بين يديه بسامرا استبشع منظرى فامر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى . وصنف الجاحظ كتباً كثيرة ، منها كتاب البيان والتبيين جمع فيه بين المنثور والمنظوم ، وكتاب الحيوان ،

وكتاب الغلمان ، وكتاب الفرق الاسلامية وكان جاحظ العينين كاسمه .

قال المبرد : دخلت على الجاحظ فى مرضه فقلت كيف أنت ؟ فقال كيف يكون من نصفه مفلوج لو نشر ما أحس به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب به آلمه وقد جاوز التسعين ثم أنشد :

اترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

وقد روى أن موته كان بوقوع مجلدات العلم عليه . وكان من عادته أن يضعها قائمة كالحائط محيطة به وهو جالس اليها وكان عليلا فسقطت عليه فقتلته .

هذا ملخص وجيز لحياة هذا العالم الفذ وإذا اردت أن ابين حياته العلمية والأدبية وأستوعب ماقاله العلماء عنه لاحتاج إلى تصنيف كبير لاتتسع له هذه الرسالة والله سبحانه وتعالى حسبي ونعم الوكيل ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الجاحظ :

أطال الله بقاءك ، واتم نعمته عليك وكرامته لك : اعلم ارشد الله أمرك ان هذه الأمة قد صارت بعد اسلامها والخروج من جاهليتها الى طبقات متفاوتة ، ومنازل مختلفة .

فالطبقة الأولى : عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وابى بكر ، وعمر رضى الله عنهما ، وست سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه كانوا على التوحيد الصحيح ، والاخلاص المحض مع الألفة ، واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولا بدعة فاحشة ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا حسد ، ولا غل ، ولا تأول حتى كان الذى كان من قتل (١) عثمان رضى الله عنه ،

---

(١) قتل رضى الله عنه يوم الجمعة لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٣٦ هـ .

بطنه

وما انتهك منه ، ومن خبطهم اياه بالسلاح ، وبعج بنطه بالحراب ، وفرى أوداجه بالمشاقص ، وشدخ هامته بالعمد مع كفه عن البسط ، ونهيه عن الامتناع مع تعريفه لهم قبل ذلك من كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة ، وصلى الى القبلة ، وأكل الذبيحة ، ومع ضرب نسائه بحضرته ، واقتحام الرجال على حرمته ، مع اتقاء نائلة بنت [1] القرافصة عنه بيدها حتى أطنّوا [2] اصبعين من أصابعها . وقد كشفت عن قناعها ، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك ردعاً لهم ، وكاسراً من غربهم ، مع وطئهم فى أضلاعه بعد موته ، والقائهم على المزبلة جسده مجرداً بعد سحبه . وهى الجزرة التى جعلها رسول الله ﷺ كفؤا لبناته ، وأياماه ، وعقائله . بعد السب والتعطيش ، والحصر الشديد ، والمنع من القوت ، مع احتجاجه عليهم ، وافحامه لهم ، ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرام كدم المؤمن إلا من

---

(١) هى زوج عثمان بن عفان رضى الله عنه كانت نصرانية .
(٢) أى قطعوا .

ارتد بعد اسلام ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل مؤمناً على عمد ، أو رجل عدا على الناس بسيفه . فكان فى امتناعهم منه عطبة ، ومع اجتماعهم على أن لايقتل من هذه الامة مول ، ولايجهز على جريح ثم مع ذلك كله ذفروا عليه وعلى ازواجه وحرمه وهو جالس فى محرابه ومصحفه يلوح فى حجره لن يرى أن موحداً يقدم على قتل من كان فى مثل صفته وحاله .

لاجرم لقد احتلبوا به دما لاتطير رغوته ، ولا تسكن فورته ، ولايموت ثائره ، ولا يكل طالبه . وكيف يضيع الله دم وليه والمنتقم له ! وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا عليهما السلام غلى غليانه ، وقتل سافحه ، وأدرك بطائلته ، وبلغ كل محبته كدمه رحمة الله عليه .

ولقد كان لهم فى أخذه ، وفى اقامته للناس والاقتصاص منه ، وفى بيع ماظهر من رباعه ، وحدائقه وسائر امواله ، وفى حبسه بما بقى عليه ، وفى طِمْره حتى لايحس بذكره مايغنيهم عن قتله إن كان قد ركب كل ما قذفوه به وادعوه عليه وهذا كله بحضرة جلة المهاجرين ، والسلف المتقدمين ،

والانصار والتابعين [1] ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة ومراتب متباينة. من قائل، ومن شاد على عضده، ومن خاذل له قاعد عن نصرته، والعاجز ناصر بارادته، ومطيع بحسن نيته، وإنما الشك منا فيه وفى خاذله ومن اراد عزله والاستبدال به.

فاما قاتله والمعين على دمه والمريد لذلك منه فضلال لاشك فيهم، ومراق لا امتراء فى حكمهم. على أن هذا لم يعد منهم الفجور اما على سوء تأويل، واما على تعمد للشقاء، ثم مازالت الفتن متصلة، والحروب مترادفة كحرب الجمل، وكوقائع صفين [2] وكيوم النهروان، وقبل ذلك يوم الزابوقة،

---

(١) فات الجاحظ ان يذكر دفاع امير المؤمنين الأمام على كرم الله وجهه وارساله ولديه سيدى شباب أهل الجنة الحسن والحسين للدفاع عنه والوقوف فى بابه حتى أثخنا بالجراح.

(٢) صفين موضع على الفرات من الجانب الغربى بطرف الشام مقابل قلعة نجم كانت فيها الوقعة المشهورة بين الأمام على ومعاوية.

وفيه اسر ابن حنيف ، وقتل حكيم بن جبلة إلى أن قتل اشقاها علي[1] بن ابي طالب رضوان الله عليه فأسعده الله بالشهادة واوجب لقاتله النار واللعنة . إلى ما كان من اعتزل الحسن عليه السلام الحروب ، وتخليه الامور عند انتشار اصحابه ، وما رأى من الخلل فى عسكره ، وما عرف من اختلافهم على ابيه ، وكثرة تلونهم عليه . فعندها استوى معاويه على الملك ، واستبد على بقية الشورى ، وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين فى العام الذى سموه عام الجماعة ، وما كان عام جماعة بل عام فرقة وقهر ، وجبرية ، وغلبة ، والعام الذى تحولت فيه الامامة ملكا كسروياً والخلافة غصباً قيصرياً ، ولم يعد ذلك اجمع الضلال والفسق ، ثم ما زالت معاصيه من جنس ماحكينا ، وعلى منازل مارتبنا حتى رد قضية رسول الله ﷺ رداً مكشوفاً ، وجحد حكمه جحداً ظاهراً فى ولد

---

(١) قتله الملعون عبد الرحمن بن ملجم المرادى غيلة فى ليلة ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ .

الفراش[1]. وما يجب للعاهر مع اجتماع الأمة أن سمية لم تكن لابى سفيان فراشاً وانه إنما كان بها عاهراً فخرج بذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار، وليس قتل حجر بن عدى[2]، واطعام

---

(١) الحديث: الولد للفراش وللعاهر الحجر.

(٢) هو: حجر بن عدى بن معاوية الكندى وهو المعروف بحجر الخير وفد على النبى ﷺ هو واخوه هانىء ابن عدى فكان من فضلاء الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين. كان حجر من اصحاب على بن ابى طالب كرم الله وجهه وامرائه على جنده فقد ولاه امارة كنده، وحضر موت، ومهرة، وقضاعة يوم صفين وجعله على الميمنة يوم النهروان وحضر وقعة الجمل. وكان حديث قتله صبراً ما ملخصه: لما ولى زياد ابن ابيه العراق وأظهر من الغلظة وسوء السيرة حدثت مرة ان زياد اطال فى الخطبة فقال له حجر: الصلاة. فمضى زياد فى الخطبة فحصبه حجر وناس من اصحابه بالحجارة حتى نزل فكتب زياد الى معاوية واخبره بما يلقاه من حجر واصحابه

عمرو بن العاص خراج مصر، وبيعة يزيد الخليع، والاستئثار بالفيء، واختيار الولاة على الهوى، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة من جنس جحد الاحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسنن المنصوبة، وسواء في باب ما يستحق من الكفار جحد الكتاب، ورد السنة إذ كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره إلا ان احدهما أعظم، وعقاب الآخرة عليه أشد. فهذه أول كفرة كانت من الامة. ثم لم تكن إلا فيمن يدعى امامتها، والخلافة عليها على أن كثيراً من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك اكفاره.

فكتب اليه معاوية ان ارسله الى هو واصحابه فبعث بهم مع وائل بن حجر الحضرمي فلما اشرفوا على مرج عذراء وهي قرية عند دمشق أمر معاوية بقتلهم. فشفع اصحابه في بعضهم فشفعهم ثم قتل حجر وستة من اصحابه، ولما ارادوا قتله صلى ركعتين ثم قال: لولا أن تظنوا بي غير الذي بي لاطلتهما وقال: لاتنزعوا عني حديداً، ولاتغسلوا عني دماً فاني ملاق معاوية على الجادة واني مخاصم.

وقد اربت عليهم نابتة عصرنا ، ومبتدعة دهرنا فقالت : لاتسبوه فان له صحبة ، وسب معاوية بدعة ، ومن يبغضه فقد خالف السنة . فزعمت أن من السنة ترك البرآة ممن جحد السنة . ثم الذى كان من يزيد ابنه ، ومن عماله ، وأهل نصرته ثم غزو مكة ، ورمى الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام فى أكثر أهل بيته مصابيح الظلام . واوتاد الاسلام بعد الذى اعطى من نفسه من تفريق اتباعه والرجوع إلى داره وحرمه أو الذهاب فى الأرض حتى لايحس به ، أو المقام حيث أمر به ، فابوا إلا قتله والنزول على حكمهم . وسواء قتل نفسه بيده أو اسلمها إلى عدوه وخير فيها من لا يبرد غليله الا بشرب دمه .

فاحسبوا قتله ليس بكفر ، واباحة المدينة وهتك الحرمة ليس بحجة كيف تقولون فى رمى الكعبة ، وهدم البيت الحرام وقبلة المسلمين ؟ فان قلتم ليس ذلك ارادوا بل إنما ارادوا المتحرز به ، والمتحصن بحيطانه فما كان فى حق البيت وحريمه ان يحصروه فيه إلى أن يعطى بيده . وأى شىء بقى من رجل

قد اخذت عليه الارض إلا موضع قدمه ؟ واحسب مارووا عليه من الاشعار التى قولها شرك ، والتمثل بها كفر شيئا مصنوعا . كيف تصنع بنقر القضيب بين ثنتى الحسين عليه السلام ، وحمل بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسر على الاقتاب العارية ، والابل الصعاب ، والكشف عن عورة على بن الحسين عند الشك فيه فى بلوغه على انهم ان وجدوه وقد انبت قتلوه ، وان لم يكن انبت حملوه كما يصنع امير جيش المسلمين بذرارى المشركين . وكيف تقول فى قول عبيد الله ابن زياد لاخوته وخاصته دعونى اقتله فانه بقية هذا النسل . فاحسم به هذا القرن ، واميت به هذا الداء ، واقطع به هذه المادة !

خبرونا على ما تدل هذه القسوة وهذه الغلظة بعد أن شفوا انفسهم بقتلهم ، ونالوا ما احبوا فيهم ! اتدل على نصب وسوء رأى ، وحقد ، وبغضاء ، ونفاق وعلى يقين مدخول وايمان مخروج ؟ أم تدل على الاخلاص ، وعلى حب النبى صلى الله عليه وسلم ، والحفظ له ! وعلى براءة الساحة ، وصحة السريرة ؟ فان كان على ما وصفنا لا يعدو الفسق والضلال وذلك ادنى منازله

فالفاسق ملعون ، ومن نهى عن لعن الملعون فملعون .

وزعمت نابتة عصرنا ، ومبتدعة دهرنا أن سب ولاة السوء فتنة ، ولعن الجورة بدعة ، وان كانوا يأخذون السمى بالسمى ، والولى بالولى ، والقريب بالقريب ، واخافوا الاولياء ، وامنوا الاعداء ، وحكموا بالشفاعة والهوى واظهار القدرة والتهاون بالامة ، والقمع للرعيـــة ، وأنهم فى غير مداراة ولا تقية ، وانه عدا ذلك الى الـكفر وجواز الضلال إلى الجحد فذلك اضل ممن كف عن شتمهم ، والبراءة منهم .

على أنه ليس من استحق اسم الـكفر بالسنة بالقتل كمن استحقه برد السنة ، وهدم الـكعبة ، وليس من استحق اسم الـكفر بذلك كمن شبه الله بخلقه ، وليس من استحق الـكفر كمن استحقه بالتجريد والنابتة فى هذا الوجه أكفر من يزيد وابيه ، وابن زياد ، وابيـه ولو ثبت ايضاً على يزيد أنه تمثل بقول ابن الزبعرى :

ليت اشياخى ببـدر شهدوا　　جزع الخزرج من وقع الاسل
لاستطالوا واستهلوا فرحا　　ثم قالوا يا يزيد لاتسل

قد قتلنا الغر من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل

كان تجوين النابتى لربه وتشبيهه بخلقه اعظم من ذلك ، واقطع. على انهم مجمعون على أنه ملعون من قتل مؤمنا متعمداً أو متأولا . فاذا كان القاتل سلطانا جائراً ، أو اميراً عاصيا ، لم يستحلوا سبه ، ولا خلعه ، ولا نفيه ، ولا عيبه . وإن اخاف الصلحاء ، وقتل الفقهاء ، واجاع الفقير ، وظلم الضعيف ، وعطل الحدود والثغور ، وشرب الخمور ، وأظهر الفجور ، ثم ما زال الناس يتسكعون مرة ، ويداهنونهم مرة ، ويقاربونهم مرة . ويشاركونهم مرة ، الا بقية ممن عصمه الله تعالى ذكره . حتى قام عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ، وعاملهما الحجاج بن يوسف ، ومولاه يزيد بن ابى مسلم فاعادوا على البيت بالهدم ، وعلى حرم المدينة بالغزو . فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحرمة ، وحولوا قبلة واسط ، وأخروا صلاة الجمعة الى مغربان الشمس .

فان قال رجل لاحدهم اتق الله فقد اخرت الصلاة عن وقتها قتله على هذا القول جهاراً غير ختل ، وعلانية غير سر

ولا يعلم على ذلك الا أقبح من انكاره فكيف يكفر العبد بشيء ولا يكفر باعظم منه . وقد كان بعض الصالحين ربما وعظ بعض الجبابرة ، وخوفه العواقب وأراه ان في الناس بقية ينهون عن الفساد في الأرض حتى قام عبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف فزجرا عن ذلك ، وعاقبا عليه ، وقتلا فيه فصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه .

فاحسب تحويل القبلة كان غلطا ، وهدم البيت كان تأويلا ، واحسب مارووا من كل وجه انهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء في أهله ارفع عنده من رسوله اليهم باطلا ومسموعا مولدا ، واحسب وشم ايدى المسلمين ، ونقش ايدى المسلمات وردهم بعد الهجرة إلى قراهم ، وقتل الفقهاء ، وسب أئمة الهدى ، والنصب لعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون كفراً ، كيف تقول في جمع ثلاث صلوات فيهن الجمعة ولا يصلون أولاهن حتى تصير الشمس اعالى الجدران كالملأ المعصفر ؟! فان نطق مسلم خبط بالسيف ، واخذته العمد ، وشك بالرماح ، وان قال قائل : اتق الله اخذته العزة بالاثم ثم لم يرض إلا بنثر

دماغه على صدره ، وبصلبه حيث تراه عياله .

ومما يدل على أن القوم لم يكونوا إلا فى طريق التمرد على الله عز وجل، والاستخفاف بالدين ، والتهاون بالمسلمين ، والابتذال لأهل الحق . أكل امرائهم الطعام ، وشربهم الشراب على منابرهم أيام جمعهم وجموعهم . فعل ذلك حسن بن دجلة ، وطارف مولى عثمان ، والحجاج وغيرهم ذلك ان كان كفر كله فلم يبلغ كفر نابتة عصرنا ، وروافض دهرنا لان جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك . كان اختلاف الناس فى القدر على أن طائفة تقول كل شىء بقضاء وقدر ، وتقول طائفة اخرى كل شىء بقضاء وقدر الا المعاصى ، ولم يكن احد يقول ان الله يعذب الابناء ليغيظ الاباء ، وإن الكفر والايمان مخلوقان فى الانسان مثل العمى والبصر .

وكانت طائفة تقول ان الله يرى لاتزيد على ذلك فان خافت ان يظن بها التشبيه قالت بلى كيف يتقزز (١) أمن

---

(١) التقزز التنطس والتباعد من الدنس .

التجسيم والتصوير حتى نبتت هذه النابتة ، وتكلمت هذه الرافضة فقالت جسما وجعلت له صورة وحداً ، وكفّرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير ، ثم زعم أكثرهم ان كلام الله حسن ، وبين ، وحجة ، وبرهان . وان التوراة غير الزبور ، والزبور غير الانجيل ، والانجيل غير القرآن ، والبقرة غير آل عمران ، وان الله تولى تأليفه وجعله برهانه على صدق رسوله ، وانه لوشاء ان يزيد فيه زاد ، ولو شاء أن ينقص منه نقص ، ولو شاء أن يبدله بدله ، ولو شاء أن ينسخه كله بغيره نسخة ، وانه انزله تنزيلا ، وانه فصله تفصيلا ، وانه بالله كان دون غيره ولايقدر عليه الا هو . غير ان الله مع ذلك لم يخلقه فاعطوا جميع صفات الخلق ومنعوا اسم الخلق .

والعجب ان الخلق عند العرب إنما هو التقدير نفسه فاذا قالوا خلق كذا وكذا ولذلك قال : « أحسن الخالقين » . وقال : « وتخلقون[1] إفكا » . وقال : « وإذا تخلق من الطين كهيئة

---

(١) سورة المؤمنون .

الطير[1]» . فقالوا : صنعه ، وجعله ، وقدره ، وانزله ، وفصله ، واحدثه ومنعوا خلقه وليس تأويل خلقه اكثر من قدره ولو قالوا بدل قولهم قدره ولم يخلقه خلقه ولم يقدره ما كانت المسأله عليهم الا من وجه واحد . والعجب ان الذى منعه بزعمه ان يزعم انه مخلوق انه لم يسمع ذلك من سلفه وهو يعلم انه لم يسمع أيضا عن سلفه انه ليس بمخلوق وليس ذلك بهم ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف ، وعلى جهة تقطيع الحروف وإعمال اللسان والشفتين وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام .

ولما كنا عندهم على غير هذه الصفة ، وكنا لكلامنا غير خالقين وجب ان الله عز وجل لكلامه غير خالق إذ كنا غير خالقين لكلامنا فانما قالوا ذلك لأنهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فرقا وان لم يقروا بذلك بالسنتهم فذلك معناهم وقصدهم ، وقد كانت هذه الأمة لاتجاوز معاصيها الاثم

(١) سورة الصافات .

والضلال الا ما حكيت لك عن بنى امية ، وبنى مروان وعمالهم من لم يدن باكفارهم حتى نجمت النوابت ، وتابعتها هذه العوام فصار الغالب على هذا القرن الكفر وهو : التشبيه ، والجبر ، فصار كفرهم أعظم من كفر من مضى فى الاعمال التى هى الفسق وشركاء من كفر منهم بتوليهم وترك اكفارهم قال الله عز من قائل : « ومن[1] يتولهم منكم فانه منهم » .

وارجو ان يكون الله اغاث المحقين ورحمهم ، وقوى ضعفهم ، وكثر قلتهم حتى صاروا ولاة امرنا فى هذا الدهر الصعب ، والزمن الفاسد اشد استبصارا فى التشبيه من عليتنا ، وأعلم بما يلزم فيه منا ، واكشف للقناع من رؤسائنا وصادفوا الناس وقد انتظموا معانى الفساد اجمع ، وبلغوا غايات البدع ثم قرنوا بذلك العصبية التى هلك بها عالم بعد عالم ، العصبية لاتبقى دينا الا افسدته ، ولادنيا الا اهلكتها وهى ما أصار اليه العجم من مذهب الشعوبية ، وما قد أصار

---

(١) سورة المائدة .

اليه الموالى من الفخر على العجم والعرب .

وقد نجمت من الموالى ناجمة ، ونبتت منهم نابتة تزعم ان المولى بولائه قد صار عربيا لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « مولى القوم منهم » ولقوله : « الولاء لحمة كلحمة النسب لايباع ولا يوهب » . قال فقد علمنا ان العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا اشرف من العرب ، ولما حول ذلك الى العرب صارت العرب اشرف منهم قالوا : فنحن معاشر الموالى بقديمنا فى العجم اشرف من العرب ، وبالحديث الذى صار لنا فى العرب اشرف من العجم . وللعرب الحديث دون القديم وللعجم القديم دون الحديث ولنا خصلتان جميعا وافرتان فينا وصاحب الخصلتين افضل من صاحب الخصلة . وقد جعل الله المولى بعد ان كان عجميا عربيا بولائه كما جعل حليف قريش من العرب قرشيا بحلفه وبعد ان جعل اسماعيل وكان اعجميا عربيا ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ان اسماعيل كان عربيا » . ما كان عندنا الا اعجميا لان العجمى لايصير عربيا كما ان العربى لايصير عجميا فانما علمنا

ان اسماعيل صيره الله عربيا بعد ان كان عجميا بقول النبي صلى الله عليه وسلم « ان اسماعيل كان عربيا » فكذلك حكم قوله : « مولى القوم منهم » وقوله : « الولاء لحمة » .

قالوا وقد جعل الله ابراهيم صلى الله عليه وسلم ابا لمن لم يلد كما جعله ابا لمن ولد ، وجعل ازواج النبي صلى الله عليه وسلم امهات المؤمنين ولم يلدن منهم احدا ، وجعل الجار والد من لم يلد فى قول غير هذا كثير قد اتينا عليه فى موضعه وليس ادعى الى الفساد ولا اجلب للشر من المفاخرة وليس على ظهرها فخور « الا قليل » وأى شىء اغيظ من ان يكون عبدك يزعم انه اشرف منك وهو مقر بانه صار شريفا بعتقك اياه .

وقد كتبت مد الله فى عمرك كتبا فى مفاخرة قحطان ، وفى تفضيل عدنان ، وفى رد الموالى الى مكانهم فى الفضل والنقص والى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف وارجو ان يكون عدلا بينهم ، وداعية الى صلاحهم ومنبهة عليهم ولهم . وقد اردت ان ارسل بالجزء الأول اليك ثم

رأيت ألا يكون الا بعد استئذانك واستئمارك والانتهاء فى ذلك الى رغبتك فرأيك فيه موفق ان شاء عز وجل وبه الثقة .

﴿ انتهت الرسالة ﴾

المختار من مطبوعات

السيد عزت العطار الحسيني

مؤسس ومدير مكتب نشر الثقافة الإسلامية

من أقدم عصورها إلى الآن

تطلب من مكتبة الخانجي بشارع عبد العزيز تليفون ٤٣١٤٨

ومن مكتبة المثنى في بغداد لصاحبها الاستاذ السيد قاسم الرجب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
الصادح والباغم	ابن الهبارية
يتيمة الدهر	للوزير السيد أبي الحسين بن احمد ابن الحسن بن علي رضي الله عنه
الاكتساب في الرزق المستطاب	الامام محمد بن الحسن الشيباني
لمتشابه في نظم النثر وحل الشعر	السيد عزت العطار الحسيني
الرسول العربي محمد بن عبد الله	» » » »
كشف اسرار الباطنية	محمد بن مالك الحمادي اليماني

اللمعة	الامام ابراهيم الحلبي المذارى
التبصير	الامام الاسفرينى
الاحكام	الامام القرافى
مناظرات فى الادب	لابن نباتة والمباردينى واليمانى
النبذ	الامام ابن حزم الأندلسى
قانون التأويل	للامام الغزالى
الثمرة البهية فى الصحابة البدرية	الشيخ سالم الحفنى
الانتصار والترجيح	يوسف بن فرغل
العزلة	الامام الخطابى البستى
اصلاح خطا المحدّثين	« « «
الفروسية	الامام ابن قيم الجوزية
تأنيب الخطيب	الامام محمد زاهد السكوثرى
احاديث الموطأ	الدارقطنى
كشف المغطى فى فضل الموطا	ابن عساكر

السيد عزت العطار الحسيني

DATE DUE

30 JUN 2008
Circulation Dept. 3

30 JUN 2009
Circulation Dept. 3

JAFET LIB.
07 FEB 2011
Circulation Dept. 2

892.74:J25rA:c.1
الجاحظ ،ابو عثمان عمرو بن بحر
رأي ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038348

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

892.74
J25rA

General Library

297.09
J25rA
c.1

L06284

كتاب
الدلائل والاعتبار
على الخلق والتدبير

تأليف الامام ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
المتوفى سنة ٢٥٥

الطبعة الاولى
سنة ١٣٤٦ هجرية و١٩٢٨ ميلادية

طبعه محمد راغب الطباخ الحلبي على نفقته
في مطبعته العلمية بحلب

حقوق الطبع محفوظة له

893.7J19 P5

Columbia University
in the City of New York
LIBRARY

Bought from the
Alexander I. Cotheal Fund
for the
Increase of the Library
1896

AUG 1 1930

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY
7686

كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير

تأليف الأمام ابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
المتوفى سنة ٢٥٥

الطبعة الاولى
سنة ١٣٤٦ هجرية و١٩٢٨ ميلادية

طبعه وصححه محمد راغب الطباخ الحلبي على نفقته
في مطبعته العلمية بحلب

حقوق الطبع محفوظة له

Jahiz, ʿAmr ibn Baḥr al-,
Kitāb al-dalāʾil...
30-62336
COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY
Goth
893.7J19
P5

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله وعلى جميع انبيائه

قال ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ان ناساً حين جهلوا الأسباب والمعاني وقصروا في الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا الى الجحود والتكذيب حتى انكروا خلق الاشياء وزعموا ان كونها بأهمال لاصنعة فيه ولا تقدير فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت اتقن بناء وفرشت احسن فرش واعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والمآرب ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير فجعلوا يسعون فيها محجوبة ابصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما اعد فيها وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع موضعه واعد لشأنه وهو جاهل بالمعنى فيه فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها

فهذه حال هذا الصنف في انكارهم ما انكروا من الخلقة وانهم لما غيبت اذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الاشياء صاروا يجولون فى هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه في اتقان خلقته وصواب هيئته وربما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه والأرب فيه فيسرع الى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والأحالة كالذى اقدمت عليه وجاهرت به المنانية الكفرة واشباههم من اهل الضلال .

فحق على من انعم الله عليه بمعرفته ووفقه لتأمل هذه الخلقة والوقوف على ما في خلقها من لطف التدبير وصواب التقدير بالدلائل القائمة فيها ان لا يقصر في اظهار ما بلغه علمه من ذلك. بل يجهد في نشره واذاعته وايراده على المسامع والاذهان لتقوى دواعى الأيمان وتخيب مكيدة الشيطان فى تضليل الوهم محتسباً

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

للثواب في ذلك واثقا بعون الله تعالى وتأييده اياه .

فقد تكفلنا جميع ما وقفنا عليه من العبر والشواهد على خلق هذا العالم وتأليفه وصواب التدبير فيه وشرح الأسباب والمعانى في ذلك بمبلغ علمنافى كتابناو توخينا ايضاح القول فيه وتنويره والايجاز فيماشرحناليسهل فهمه ويقرب مأخذه على الناظر فيه ورجونا ان يكون فى ذلك شفاء للناكر المرتاب وزيادة في يقين الموفق وبالله التوفيق.

فأول العبر بهيئة هذا العالم وتأليف اجزائه ونظمها على ما هي عليه. فأنك اذا تأملت العالم بفكرك وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع عتاده. السماء مرفوعة كالسقف والارض ممدودة كالبساط والنجوم منضودة كالمصابيح والجواهر مخزونة فى معادنها كالذخائر وكل شئ منها لشأنه وما يراد به. والانسان كالمالك للبيت المخول لما فيه وضروب النبات مهيأة لمآربه وصنوف الحيوانات مصرّفة فى مصالحه ففي هذا دلالة واضحة على ان العالم مخلوق بتدبر وتقدير ونظام. وان الخالق له واحد هو الذى الفه ونظم بعضه الى بعض وذلك مما قال فيه الأولون فأحسنوا القول ولكنا ننصرف الى فن آخر من دقايق الخلقة فنبين عما فيه من الصواب والحكمة مع النظام والملائمة وفى ذلك توبيخ للقائلين بالأهمال والقائلين بأصلين متضادين (١) لان الأهمال لا يأتى بالصواب والتضاد لا يأتي بالنضاير

(فكر فى لون هذه السماء) وما فيها من صواب التدبير فأن هذا اللون اشد الالوان موافقة للابصار وتقوية لها حتى ان من صفات الأطباء لمن اصابه شئ اضر ببصره ادمان النظر الى الخضرة ما قرب منها الى السواد. وقد وصف الحذاق منهم لمن كل بصره الأطلاع فى اجانة خضراء مملوءة ماء.

(١) الأصلان المتضادان هما الذكر والانثى والحار والبارد اوالحركة والسكون او الجنة والنار اوالعلم واللوح او طريقا الاعلي والاسفل اهـ من هامش الاصل

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARY

فانظر كيف جعل هذا الاديم اديم السماء بهذا اللون الاخضر الى السواد لتمسك الابصار المتقلبة عليه فلا ينكى فيها بطول مباشرتها له فصار هذا الذى ادركه الناس بعد التفكر والتجارب يوجد مفروغاً منه فى الخلقة .

(فكر فى طلوع الشمس وغروبها) لاقامة دولتى النهار والليل فلولا طلوعها لبطل امر العالم كله فكيف كان الناس يسعون في حوائجهم ومعايشهم ويتصرفون في امورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بلذة العيش مع فقدهم لذة النور وروحه . فالارب فى طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الاطناب فيه. ولكن تأمل المنفعة فى غروبها فأنه لولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار مع عظم حاجتهم الى الهدو لراحة ابدانهم وجموم حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء الى الاعضاء كالذى تصف كتب الطب من ذلك . ثم كان الحرص سيحملهم الى مداومة العمل ومطاولته على ما تعظم نكايته في ابدانهم فأن كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل بظلمته عليهم لما هدؤا ولا قروا حرصاً على الكسب والجمع ثم كانت الارض ستحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت بتدبير الله تطلع وقتاً وتغيب وقتاً بمنزلة سراج يرفع لاهل البيت ملياً ليقضوا حوائجهم ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤا ويقروا فصار الظلمة والنور على تضادهما متعاونين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه .

ثم فكر بعد هذا فى ارتفاع الشمس وانحطاطها لاقامة هذه الأزمنة الاربعة من السنة وما في ذلك من المصلحة ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات فتتولد فيه مواد الثمار ويستكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر وتشتد ابدان الحيوان وتقوى الافعال الطبيعية . وفى الربيع تتحرك الطبايع وتظهر المواد

المتولدة في الشتاء فيطلع النبات وينوِّر الشجر ويهيج الحيوان للسفاد . وفي الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار وتتحلل فضول الابدان ويجف وجه الارض فيتهيأ للبناء والاعمال . وفي الخريف يصفو الهواء فترفع الامراض وتصح الابدان ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الاعمال الطويلة الى مصالح اخرى لو تقصّي ذكرها طال الكلام فيها .

(فكر في تنقل الشمس) في هذه البروج لاقامة دور السنة وما في ذلك من التدبير فهذا الدور هو الذى يضم الازمنة الاربعة من الشتاء والربيع والصيف والخريف ويستوفيها على التمام لانه فى هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهى الى غاياتها من النضج والصلاح ثم يعود فيستأنف النشو والنمو . فما احسن ما قال الاولون الزمان مقدار الحركة الا ترى ان السنة مقدار مسير الشمس من الحمل الى الحمل فبالسنة واجزائها يكال الزمان وتوزن الاوقات من لدن خلق الله العالم الى كل وقت وعصر وبها يحسب الناس الاعمار والاوقات الموقتة للديون والاجارات والمعاملات وغير ذلك من امورهم وبمسير الشمس تكمل السنة ويقوم حساب الزمان على الصحة .

[فاما مسير القمر] ففيه دلالة واضحة جليلة تستعمله العامة فى معرفة الشهور ولا يقوم عليه حساب السنة لان دوره لا يستوي فى الازمنة الاربعة ونشو الثمار وتصرمها ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها وصار الشهر من شهور القمر يتنقل فيكون مرة فى الشتاء ومرة فى الصيف .

(تأمل) شروق الشمس على العالم كيف دبر ان يكون فانها لو كانت تبزغ فى موضع من السماء فتقف فيه لا تعدوه لما وصل شعاعها الى كثير من الجبال لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها فصارت بتدبير الله تطلع اول النهار من

المشرق فتشرق على ما قابلها من المغرب ثم لا تزال تدور وتغشي جهة بعد جهة حتى تنتهى الى المغرب فتشرق على ما استتر عنها فى اول النهار فلا يبقي موضع من المواضع الا اخذ بقسط من الارب فيها .

(فكر في مقادير الليل والنهار) كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق فصار منتهى كل واحد منهما اذا امتد خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك ارأيت لو كان النهار مقدار مائة ساعة اومائتين الم يكن فى ذلك بوار ما على الارض من حيوان او نبات. اما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة من العمل ولا البهائم كانت تمسك عن الرعى لو دام لها ضوء النهار ولا الانسان كان يفتر عن العمل والحركة فكان ذلك ينهكها اجمع ويؤديها الى التلف .

واما النبات فكان يدوم عليه حر النهار ووهج الشمس حتى يحترق ويجف وكذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق اصناف الحيوان عن الحركة والتصرف وطلب المعاش حتي تموت جوعاً وتخمد الحرارة الطبيعية من النبات حتى يعفن ويفسد كالذي نراه يحدث على النبات اذا كان فى موضع لا تقع عليه الشمس (فكر فى انارة القمر) والكواكب فى ظلمة الليل والأرب فى ذلك فأنه مع الحاجة الى الظلمة لهدو الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح فى ان يكون في الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها فلا يمكن فيه شئ من العمل لأنه ربما احتاج الناس الى العمل لضيق الوقت عليهم في بعض الأعمال او لشدة الحر وافراطه بالنهار فيعمل في ضوء القمر اعمالٌ شتى كحرث الأرض وضرب اللبن وقطع الحطب وما اشبه ذلك فجعل ضوء القمر بالليل معونة للناس على هذه الأعمال اذا احتاجوا الى ذلك وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض ونقص مع ذلك عن نور الشمس وضيائها لكيلا ينبسط الناس فى العمل بالليل فيه انبساطهم بالنهار ويمتنعوا من الهدو والقرار فينهكهم ذلك

وجعل في الكواكب جزءً يسيراً من الضوء ليسد مسداً اذا لم يكن قمر ويمكن فيه بعض الحركة اذا احدثت ضرورة كما قد يحدث على المرء من الحوادث التي يحتاج معها الى النجاة والسعي في جوف الليل المظلم فأن لم يكن شئ من الضوء يهتدي به لم يستطع المرء ان يزول عن مكانه. فتأمل لطف الحكمة في هذا التقدير حيث جعلت للظلمة دولة ومدة للحاجة اليها وجعل خلالها شيءٌ من النور للمآرب التي وصفنا ثم في النجوم مآرب اخري فأن فيها علامات ودلالات على اوقات كثيرة من من الأعمال كالزراعة والغراسة والسفر في البر والبحر واشياء مما تحدث في الأزمنة من الرياح والحر والبرد وبهذا يهتدي الساري في ظلمة الليل ويقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة مع ما في ترددها في هذه السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة وفي تصريف القمر خاصة فى مهلّه ومحاقه وزيادته ونقصانه وكسوفه من التنبيه على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصريف لاصلاح العالم.

ومما يدل عليه القياس ان هذه المصابيح تسير اسرع السير واحثه وذلك انها تدور في كل يوم وليلة دوراً تاماً حتى ترجع الى مراجعها فتطلع منها فلولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في مقدار اربعة وعشرين ساعة. افرأيت لو كانت الشمس والنجوم بالقرب منا حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه الم تكن تستخطف الابصار بوهجها وشعاعها كالذى يحدث احيانا من البروق اذا توالت واضطربت في الجو وكذلك ايضاً لو ان ناساً كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دوراناً حثيثاً لحارت ابصارهم حتى يخروا بوجوههم فانظر كيف قدر ان يكون مسيرها في البعد البعيد لكيلا تضر الابصار وينكأ فيها النور وبأسرع السرعة لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة من سيرها.

(فكر في هذه النجوم) التي تظهر فى بعض السنة وتحتجب في بعضها كمثل

الثريا والجوزاء والشعري فأنها لو كانت بأسرها تظهر فى وقت واحد وتحتجب وقتاً واحداً لم يكن لكل واحد منها على حياله دلالات يعرفها الناس ويهتدون بها لبعض امورهم كمعرفتهم الآن بما يكون فى طلوع الثريا والجوزاء اذا طلعت واحتجابها اذا احتجبت . فصار ظهور كل واحد منها واحتجابه في وقت غير وقت الآخر لينتفع الناس بما يدل عليه كل واحد منها على حدته . فكما جعلت الثريا واشباهها تظهر حيناً وتحتجب حيناً لضروب من المصلحة كذلك جعلت بنات نعش ظاهرة ولا تغيب لضرب آخر من المصلحة فأنها بمنزلة الأعلام التى يهتدي بها الناس للطرق المجهولة فى البر والبحر معاً وذلك انها لا تغيب ولا توارى اصلا فهم ينظرون اليها متى ارادوا ويهتدون بها الى حيث شاؤا وصار الامران جميعا على اختلافهما من جهتين نحو الأرب والمصلحة .

(فكر فى النجوم) واختلاف سيرها ففرقة منها لا تديم مراكزها من الفلك ولا تسير الا سيراً ضعيفا مجتمعة . وفرقة مطلقة تتنقل في البروج وتفترق في مسيرها فكل واحد منها يسير بسيرين مختلفين احدهما عام مع الفلك نحو المغرب وآخر خاص لنفسه مع المشرق . وقد شبه الأولون هذه المطلقة بنملة تدب على رحى والرحا تدور ذات اليمين والنملة تدور ذات الشمال فأن النملة في تلك الحال تتحرك حركتين مختلفتين احداهما بنفسها متوجهة امامها والاخرى مستكرهة مع الرحى تجتذبها الى خلفها فليسأل الزاعمون ان النجوم صارت على ما هي عليه بالاهمال ومن غير عمد ما منعها ان تكون كلها راتبة او تكون كلها متنقلة فأن الأهمال معنى واحد فكيف صار بحركتين مختلفتين على تقدير ووزن فهذا بيان ان مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدبير وليس بأهمال كما تزعم المعطلة .

فأن قلت ولما صار بعض النجوم راتباً وبعضها متنقلا قلنا انها لو كانت كلها

راتبة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقل المتنقلة منها ومصيرها فى كل واحد من البروج زماناً محدوداً كما قد يستدل على اشياء مما يحدث فى العالم بتنقل الشمس والقمر والنجوم في منازلها ولو كانت كلها متنقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه لأنه انما يقاس مسير المتنقلة بتنقلها فى البروج الراتبة كما يقاس سير السائر على الأرض بالمنازل التى يجتاز عليها .

وجملة القول انها لو كانت بحالة واحدة لأختل نظامها وبطلت المآرب فيها ولساغ لقائل ان يقول ان كينونتها على حال واحدة يوجب عليها الاهمال من الجهة التي وصفنا . ففي اختلاف مسيرها وتصرفها وما في ذلك من الارب والمصلحة ابين دليل على العمد والتدبير فيها .

(فكر) لم صار هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه يدور على العالم هذا الدوران الدائم بهذا التقدير والوزن الا لما في اختلاف النهار والليل وهذه الازمان الاربعة من السنة على الارض وما عليها من اصناف الحيوان والنبات من ضروب المصلحة كالذي بينّا ولخصنا آنفا وهل يخفى على ذى لب ان هذا تقدير مقدر لصواب وحكمة من مقدر حكيم .

فان قلت ان هذا شيء اتفق ان يكون هكذا فما يمنعك ان تقول هذا في دولاب تراه يدور لسقي حديقة فيها شجر ونبات فترى كل شيء من آلته مقدراً بعضها تلقاء بعض على ما فيه صلاح تلك الحديقة وما فيها وبماذا كنت تثبت هذا القول لو قلته وما ترى الناس كانوا قائلين لك لو سمعوه منك سوى تسفيه رأيك وتضليل عقلك . افتنكر ان تقول هذا فى دولاب خسيس مصنوع بحيلة قصيرة لمصلحة قطعة من الارض انه كان بلا صانع ومقدر وتقدم علي ان تقول هذا الدولاب الاعظم المخلوق بحكمة تقصر عنها اذهان البشر لصلاح جميع الارض وما عليها انه شيء اتفق ان يكون بلا

صنعة ولا تقدير لو اعتل هذا الفلك كما تعتل هذه الآلات التي تتخذ لرفع الماء وغيرها ما كان عند الناس من الحيلة في صلاحه ولو تخلفت عنهم مقدار عام او بعض عام كيف تكون حالهم بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء افلا ترى كيف كفى الناس هذه الامور الجليلة التى لم يكن لها فيها عندهم حيلة فصارت تجرى على مجاريها لا تعتل ولا تختل منافعها ومصالحها ولا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه .

(فكر) فى هذا الحر والبرد وكيف يتعاوران العالم ويتصرفان هذ التصرف فى الزيادة والنقصان والأعتدال لأقامة رسوم هذه الأزمنة الأربعة من السنة ومافيها من المصالح ثم هما بعدُ دباغ الأبدان عليهما بقاؤها وفيهما صلاحها فأنه لولا الحر والبرد وتداولهما الأبدان لفسدت الأبدان وانتكثت قواها وانتقضت في اسرع مدة .

(ثم فكر) في دخول احدهما علي الآخر بهذا التدريج والترسل فأنك تجد احدهما ينتقص شيئاً بعد شئ والآخر يتزيد مثل ذلك حتى ينتهى كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان ولو كان دخول احدهما في الآخر مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان واسقمها كما ان امرأ لو خرج من حمام حار الى موضع مفرط البرد لضره ذلك واسقم بدنه فلم كان هذا الترسل في دخول الحر والبرد الا للسلامة من ضرر المفاجاة ولم جري ذلك الأمر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجاة لولا تدبير المدبر في ذلك

فأن زعمت ان هذا الترسل في دخول الحر والبرد انما يكون لأبطاء مسير الشمس في ارتفاعها وانحطاطها سألت ايضاً عن العلة في ابطاء مسير الشمس في الارتفاع والانحطاط فأن اعتللت في الابطاء ببعد ما بين المشرقين وسئلت عن العلة في ذلك فلا تزال هذة المسئلة ترتقى معك الى حيث رقيت من هذا القول حتى تستقر

على العمد والتدبير . اولا الحر لما كانت هذه الثمار الجاسية المرة تنضج فتلين وتعذب حتى يتفكه بها رطبة ويابسة ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ ويريع الريع الكثير الذي يتسع للقوت وما يردّ في الارض افلا تري ما في الحر والبرد من عظيم الغناء والمنفعة وكلاهما مع عظم غنائه والمنفعة فيه يؤلم الابدان ويمضها فأعتبر بهذا في كثير من الامور التى تمض الناس وتخالف اهوائهم وهى من التدبير الحكيم في مصلحتهم.

فتأمل حكمة الباري في التدبير فى خلق النار على ماهى عليه فأنه لم يكن يصلح ان تكون مبثوثة كالنسيم والماء اذاً كانت تحرق العالم بما فيه ولم يكن بد من ظهورها فى الأحايين لعنايتها فى كثير من المصالح فجعلت كالمخزونة فى الاجسام الحافظة لها تستبعث عند الحاجة اليها فتمسك بالمادة والحطب ما احتيج الى بقائها ثم تخبوا فلا هى تمسك ابداً بالمادة والحطب فتعظم المؤنة فى ذلك ولا هي تظهر مبثوثة فى العالم فتحرق كلما هى عليه بل هى على هيئة وتقدير اجتمع فيه الاستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها .

ثم فى النار خلة اخرى وهي انها مما خص به الانسان دون جميع الحيوان لما فيه من المصلحة فأنه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الخلل فى معاشه .

فأما البهائم فلا تستعمل النار ولا تستمتع بها ولما قدر ان يكون هكذا خلقت للانسان كف واصابع مهيأة لقدح النار واستعمالها ولم تعط البهائم مثل ذلك لكنها اعينت بالصبر على الجفا والخلل فى المعاش لكيلا ينالها من فقد النار ما ينال الانسان.

وانبهك من مصالح النار على خلة صغير قدرها عظيم موقعها وهى هذا المصباح الذي يتخذه الناس فيقضون به حوائجهم ما شاؤا من ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف اعمارهم بمنزلة من فى القبور . فمن كان يستطيع ان يكتب او يحفظ او ينسخ فى ظلمة الليل وكيف تكون حال من عرض له وجع فى وقت

من اوقات الليل فاحتاج الى ان يعالج ضمادا او سفوفا او شيئاً مما يستشفي به .
فأما منافع النار فى نضج الأطعمة ودفئ الابدان وتجفيف اشياء وتحليل اخرى واشباه هذا فانه اكثر من ان يحصى واظهر من ان يخفي حسبك بهذا النسيم المسمي هواء عبرة وما فيه من المصالح فأنه حياة هذه الابدان والممسك لها من داخل بما تستنشي منه ومن خارج بما يباشر من روحه وفيه تطرد هذه الاصوات فيؤديها من البعد البعيد وهو الحامل لهذه الأرابيح ينقلها من موضع الى موضع الا ترى كيف تأتيك الرائحة من حيث تهب الريح وكذلك الصوت وهو القابل لهذا الحر والبرد اللذين يعتقبان على العالم لصلاحه ومنه هذه الريح الهابة فالريح تروّح عن الاجسام وتزجي السحاب من موضع الى موضع ليعم نفعه وتركمه حتى يستكثف فيمطر ويفيضه حتى يستجف فتنفش وتلقّح الشجر وتسيّر السفن وتذرى الاطعمة وتبرد الماء وتشب النار وتجفف الاشياء الندية . وفي الجملة انها تحي كل ما على الارض فانه لولا الريح لذوى النبات وموّت الحيوان وخمت الأشياء وفسدت . الست تري ركود الريح اذا ركدت كيف يحدث الكرب الذي يكاد يأتى على النفوس وتمرض الاصحاء وتنهك المرضى وتفسد الثمار وتعفن البقول ويعقب الوبا فى الابدان والآفة في الغلات . فنى هذا بيان ان هبوب الريح اكثر الأيام من التدبير الحكيم في صلاح هذا الخلق .
وانبئك عن الهواء بخصلة اخري فأن الصوت فيما ذكرت الحكماء اثر يؤثره اصطكاك الأجسام فى الهواء والهواء يؤديه الى المسامع والناس يتكلمون في حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلهم فلو كان اثر هذا الكلام يبقى في الهواء كما يبقي الكتاب في القراطيس لأمتلأ العالم منه حتي يكربنا ويقدحنا ونحتاج فى تبديله والاستبدال به الى اكثر مما نحتاج اليه فى استبدال القراطيس

لأن الذى يلغى من الكلام ولا يكتب اضعاف مايكتب فجعل الخلاق العليم هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل كلامنا ريثما يبلغ حاجتنا ثم يمحي فيعود جديداً نقيا بلا كلفة منا ولا عزم ويحمل ما حملناه ابداً بلا انقطاع .

(فكر فى خلق هذه الارض) على ماهى عليه حين خلقت راتبة راكدة لتكون وطاء ومستقراً للأشياء ويتمكن الناس والأنعام من السعى عليها فى مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوهم والأتقان لاعمالهم فأنها لو كانت رجراجة منكفئة لم يكونوا يستطيعون ان يتقنوا البناء والنجارة والحدادة والصياغة والحياكة بل كانوا لا يتهنون بالعيش والارض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس فى الزلازل على قلة مكثها حتى يصيروا الى ترك منازلهم والهرب عنها. فأن قلت ولم صارت الارض تزلزل (قلنا) ان الزلزلة وما اشبهها ترهيب يرهب بها الناس ليرغبوا وينزعوا عن المعاصى وكذلك ماينزل بهم من البلايا فى ابدانهم واموالهم من نقمة ومصيبة وقحط تجري فى التدبير الى مافيه صلاحهم واستقامتهم ويدخر لهم ان صلحوا من الثواب والعوض فى الآخرة ما لا يعدله شيء من امور الدنيا وربما عجل ذلك فى الدنيا اذا كان فيه صلاح لعامة اوخاصة ثم ان الارض فى طباعها باردة يابسة وكذلك الحجارة وانما الفرق بينها وبين الحجارة فضل يبس فى الحجارة افرأيت اوان اليبس ان افرط على الارض قليلاً حتى تكون حجراً صلداً أكانت تكون تنبت هذا النبات الذي فيه حياة الحيوان او كيف كان يمكن فيها حرث او خضرة او بناء فلا تري كيف نقصت من يبس الحجارة وجعلت على ماهى عليه من اللين والرخاوة لتتهيأ للاعمال.

ومن التدبير الحكيم في خلقة الارض ان مهب الشمال ارفع من مهب الجنوب وما كان ذلك الا لتنحدر المياه علي وجه الارض فتسقيها وترويها ثم تفيض

الى البحر آخر ذلك فكما يرفع احد جانبي السطح ويخفض الآخر لينحدر الماء عنه ولا يقوم عليه فيفسد كذلك جعل مهب الشمال ارفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقي الماء متحيراً على وجه الارض فمنع الناس من اعمالها وقطع الطرق والمسالك.

[انظر الى هذه الجبال] المركومة من الطين والحجارة التى قد يحسبها الغافلون فضلاً لا حاجة اليه والمنافع فيها كثيرة فمن ذلك ان الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها لمن يحتاج فى القيظ اليه ويذوب ما ذاب منه فتجرى منه العيون الغزيرة التى تجتمع منها الانهار العظام وينبت منها ضروب من النبات والعقاقير التى لا ينبت مثلها في السهل . ويكون فيها كهوف ومعاقل للوحش من السباع والعادية وتتخذ فيها الحصون والقلاع المنيعة لتتحرز من العدو وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر وعسى ان يكون فيها خلال اخرى لا يعرفها الا المقدر لها في سابق علمه .

(فكر فى هذه المعادن) وما يخرج منهـا من الجواهر المختلفة الالوان كمثل الجص والكلس والجير والجبصين والزرنيخ والزاج والمرتك والتوتيا والفضة والذهب والزبرجد والياقوت والزئبق والنحاس والرصاص والخرز والحجارة وكذلك ما يخرج منها من القار والزفت والموميا والكبريت والنفط وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم ومصالحهم وكيف اختلفت طبائعها والوانها واحوالها فمنها ما هو سم قاتل ومنها ما ينفع من السم ويقطعه ومنها مايقويه ويزيل في فعله فهل يخفى على ذي عقل ان هذه كلها ذخائر ذخرت للانسان فى هذه الأرض ليستخرجها فيستعملها عند حاجته اليها.

(ثم فكر في عزة هذا الذهب) والفضة وقصور حيلة الناس عما حاولوا من صنعتها على حرصهم واجتهادهم في ذلك فانهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا

العلم لكان لا محالة يستظهر ويستفيض فى العالم حتى يكثر الذهب والفضة ويسقط عند الناس فلا تكون لهما قيمة ويبطل الانتفاع بهما فى الشراء والبيع والمعاملات والأتاوة تجبى للسلطان والذخر تذخر للاعقاب وقد اعطى الناس مع هذا صنعة الشبة من النحاس والزجاج من الرمل وما اشبه ذلك مما لا مضرة فيه. فانظر كيف اعطوا ارادتهم فيما لا ضرورة عليهم فيه ومنعوا ذلك فيما كان ضاراً لهم لو نالوه. اخبرنا اناس ممن يزاول المعادن انهم اوغلوا في بعضها فانتهوا الى موضع رأوا فيه امثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد عظيم يجري متصلاً بماء غزير لا يدرك غوره ولا حيلة في عبوره ثم عادوا يطلبونه فلم يقفوا عليه فانصرفوا آسفين. (فكر) فى هذا من تدبير الخالق فأنه اراد جل ثناؤه ان يرى العباد قدرته وسعة خزائنه ليعلموا انه لو شاء ان يمنحهم كالجبال من الفضة لفعل لكن لا صلاح لهم فى ذلك لأنه كان يكون كما ذكرنا من سقوط هذا الجوهر عند الناس وقلة انتفاعهم به واعتبر ذلك بانه قد يظهر الشيء الطريف يحدثه الناس من الأواني والأمتعة فما دام عزيزاً قليلا فهو نفيس جليل آخذ للثمن فاذا فشا وكثر في ايدي الناس سقط عندهم وخست قيمته وفى هذا مصداق قول القائل ان نفاسة الاشياء من عزتها.

(فكر) في كثرة ما خلق الله من هذه الجواهر الاربعة ليتسع الناس بما يحتاج اليه من ذلك فمن ذلك سعة هذه الارض وامتدادها فلولا ذلك كيف كانت تتسع لمساكن الانس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت اعشابهم واحطابهم والعقاقير العظيم موقعها منهم والمعادن الجسيم غناؤها عنهم ولعلك تنكر هذه الفلوات الخالية والقفار الموحشة فتقول ما المنفعة فيها أفنسيت انها مستكن هذه الوحوش ومحالها ومراعاها ثم فيها متنفس ومضطرب للناس اذا احتاجوا الى الاستبدال باوطانهم فكم من بيداء سملق (١) قد حالت قصوراً وجناناً بانتقال الانسان

(١) السملق كجعفر القاع الصفصف اهـ قاموس

اليها وحلولهم فيها ولولا سعة الأرض وفسحتها لكان الناس كمن كان في حصار ضيق لا يجد مندوحة من وطنه اذا حزبه امر يضطره الى الانتقال عنه وكذلك الماء لولا تدفقه وجريانه في العيون والاودية والانهار لضاق عما يحتاج الناس لشربهم وشرب انعامهم ومواشيهم وسقي زروعهم واشجارهم واصناف غلاتهم وشرب مايرده من الوحش والطير والسباع ويتقلب فيه من الحيتان وذوات الماء. وهكذا الهواء ايضاً لولا كثرته وسعته لاختنق هذا الانام من الدخان والبخار الذي يتبخر فيه ولعجز عما يحول الى الضباب والسحاب اولاً فأولاً .

والنار ايضاً كذلك فأنها وان لم تكن مبثوثة في كل مكان فأنها عتيدة متى احتيج اليها واسعة لكل ما يحتاج اليها منها انها مخزونة في الاجسام للسبب الذى ذكرنا آنفا.

واذكرك من منافع الماء خلالا انت بها عارف وعن عظيم موقعها غافل فأن سوى الامر الجليل المعروف في عنائه في احياء جميع ما على وجه الارض من حيوان او نبات به تمزج الاشربة فتلين وتعتدل وتطيب لشاربيها وبه ترحض الأبدان والأمتعة من الدرن الذى يغشاها وبه يبل التراب ويصلح للاعتمال به. وبه يكف عادية النار اذا اضطرمت واشفى الناس منها على الهلاك والمكروه وبه يسيغ الغاص ماغص به فينجو من الموت وبه يستحم التعب الكال فيجد الراحة فى اوصاله الى اشباه هذا من المآرب التي يعرف عظم موقعها في وقت الحاجة اليها.

فان شككت في منفعة هذا الماء الكثير المتراكم في البحار فقلت ماالارب فيه فاعلم انه مسكن ومضطرب لما لايحصى من اصناف السمك ودواب البحار ومعدن اللؤلؤ والمرجان والياقوت والعنبر واصناف شتى تستخرج من البحر ومن سواحله منابت العود واليلنجوج وضروب من الطيب والعقاقير ثم بعده هو مركب للناس ومحمل لهذه التجارات التى تحمل من البلدان البعيدة كما يجلب من الصين

الى العراق ومن العراق الى الصين وان هذه التجارات لو لم يكن لها محمل الا على الظهر لبارت وبقيت في بلدانها وايدى اهلها لأن اجرة محملها كان يجاوز اثمانها فلا يتعرض احد لحملها وكان يجتمع في ذلك امران احدهما فقد اشياء كثيرة تعظم الحاجة اليها والآخر انقطاع معاش من يجلبها ويتعيش بفضلها .

(فكر في نزول المطر) على الأرض والتدبير فيه فأنه جعل ينحدر عليها من اعلا ليغشى ما غلظ منها وارتفع فيرويه ولو كان انما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها ولقل ما يزرع من الأرض الا ترى الذى يزرع سيحا اقل من ذلك والأمطار هي التى تطبق الأرض وبها تزرع هذه البرارى الواسعة وسفوح الجبال وذراها فتغل الغلة الكثيرة وبها يسقط على الناس في كثير من البلاد مؤنة بسياق الماء من موضع الى موضع وما يجري بينهم في ذلك من التشاح والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء .

ثم انه حين قدر ان ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيها بالوش ليغور في قعر الأرض فيرويها ولو كان ينسكب انسكاباً كان يظل على وجه الأرض فلا يغور فيها ثم كان يحطم الزروع القائمة اذا اندفق عليها فصار ينزل نزولاً رفيقا فينبت الحب المزروع ويحيي الزرع القائم ثم في نزوله ايضاً مصالح اخرى فأنه يلين الأبدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء المسمى باليرقان الى اشباه هذا من المنافع فيه .

(فان قلت) او ليس قد يكون منه في بعض السنين الضرر العظيم لشدة وقع منه او برد يكون فيه تحطم الغلات او بخثورة يحدثها الهواء فيولد كثيرا من الأمراض فى الأبدان والآفات في الغلات (قلنا) بلى قد يكون ذلك فى الفرط لما فيه صلاح الأنسان بكفه عن ركوب المعاصى والتمادى فيها فتكون المنفعة له فيما

يصلح له من دينه ارجح مما عسى ان يرزأ في ماله .

(فكر في المطر والصحو) كيف يعتقبان على العالم لما فيه صلاح ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساده الا ترى ان الأمطار اذا توالت عفنت البقول والخضر واسترخت ابدان الحيوان وخثر الهواء(١) فأحدث ضروباً من الأمراض وفسدت الطرق والمسالك. وان الصحو اذا دام جفت الأبدان وتصوح النبات ويبطئ نضج الثمار وغيض ماء العيون والأودية فأضر ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضروباً من الأمراض فأذا تعاقبا على هذا العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر فصلحت الأمور والأشياء واستقامت .

(فأن قلت) ولم يكون في شيء منهما مضرة البتة قلنا ليمض ذلك الأنسان ويؤلمه بعض الألم فيرعوى وينزع عن المعاصى فكما ان الأنسان اذا سقم بدنه احتاج الى الأدوية الكريهة المرة المنيعة لتقوم طباعه وتصلح ما فسد منه كذلك هو اذا طغى واشر احتاج الى ما يمضه ويؤلمه بعض الألم ليرعوى ويقصر عن بعض مساويه وينتبه على ما فيه حظه ورشده .

ولو ان ملكاً من الملوك قسم في اهل مملكته قناطير من ذهب وفضة الم يكن ذلك سيعظم عندهم ويذهب له به الصيت والذكر فأين ذلك من مطر واحد يعم البلاد وقيمته ما يزيد في الغلات من قناطير الذهب والفضة في اقاليم الارض كلها افلا ترى المطرة الواحدة ما اكثر قدرها واعظم النعمة على الناس فيها وهم عنها ساهون وربما عاقت احدهم عن الحاجة لاقدر لها فتذمر وتسخط ايثاراً للخسيس قدره على نفعه العظيم .

(فكر في هذا النبات) وما فيه من ضروب المآرب الثمار للغذاء والأتبان

---

(١) القاموس الخثر محركة العكر

للعلف والحطب للوقود والخشب لكل شيء من اعمال النجارة واللحاء والورق والزهر والأصول والفروع والصموغ لضروب من المنافع . افرأيت لو كنا نجد الثمار التى منها نتغذى مجموعة على وجه الأرض ولم يكن ينبت على هذا السوق والأغصان الحاملة لها كم كان سيدخل علينا من الخلل فى معايشنا وهل كانت طيبة اذا اخذناها فى الارض فالتدبير فى كونها على ماهى عليه بيّن النفع والحكمة . وان كان الغذاء موجوداً فأن المنافع فى الحطب والحشيش والاتبان وسائر ما عددنا عظيم موقعها جليل فقدها هذا مع ما فى النبات من التلذذ بحسن منظره ونضارته التى لا يعدلها شيء من مناظر العالم وملاهيه فسبحان الذي احسن كل شيء خلقه .

(ثم فكر فى هذا الريع) الذي جعل في الارض حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مئة حبة واكثر واقل وكان يجوز ان تكون الحبة تأتى بحبة مثلها فلم صارت تريع هذا الريع كله الا ليكون فى الغلة متسع لما يردّ في الارض من الحب ومما يقوّت الزارع وغيره الى ادراك زرعه الا ترى ان الملك لو اراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل فى ذلك ان يعطى اهله ما يبذرونه فى ارضهم وما يقوتهم الى ادراك زروعهم . فانظر كيف تجد هذا المثال قد تقدم في تدبير الحكيم فصار الزرع يريع هذا الريع ليفي بما يحتاج اليه للقوت والزراعة وكذلك الشجر والنخل يريع الريع الكثير فأنك ترى الاصل الواحد حوله من الشكل امر عظيم فلم كان ذلك الا ليكون فيه ما يقطعه الناس ويستعملونه في مآربهم وما يرد فيغرس في الارض ولو كان الاصل منه يبقى منفرداً لا يفرخ ولا يربع لما امكن ان يقطع منه شيء لعمل ولا لغرس ثم كان ان اصابته آفة انقطع اصله فلم يكن منه خلف .

(تأمل نبات هذه الحبوب) من العدس والمج والدجر والجرجير وما اشبه

ذلك فأنها تخرج في اوعية شبه الخرائط لتصونها وتحجبها من الآفات الى ان تشتد وتستحكم كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه .

فأما البر وما اشبهه فأنه يخرج مدرجاً في قشور صلاب على رؤسها امثال الأسنة من السفا ليمنع الطير منه . فأن قلت او ليس قد ينال الطير منه على حال من البر والحبوب قلنا بلى لعمري وعلى هذا قدّر الامر فيها لان الطير ايضاً خلق من خلق الله تعالى وقد جعل الله له فيما يخرج من الارض حظاً ولكن حصنت الحبوب بهذه الحجب لكيلا يتمكن الطائر منها كل التمكن فيعبث فيها ويفسد الفساد الفاحش فأنه لو كان الحب يصاب والحب بارز ليس عليه شيء يحول دونه لأكب عليه حتى ينشفه اصلاً فكان يعرض من ذلك ان يبشم الطير فيموت ويخرج الزارع من زراعته صفراً فجعلت هذه الوقايات لتصونه فتنال الطير منه شيئاً يسيراً ويتقوت به ويبقى اكثره للانسان لانه اولى به اذا كان هو الذي طرح فيه وسقاه وكان الذي يحتاج اليه اكثر مما يحتاج اليه الطائر .

تأمل الحكمة فى خلق الشجر واصناف النبات فأنها لو كانت تحتاج الى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ولم تكن لها افواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت اصولها مركوزة فى الارض لينزع منها الغذاء فتؤديه الى الاغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الارض كالام المربية لها وصارت اصولها التى هى لها كالأفواه الملتقمة للارض لتنزع منها الغذاء كما ترضع اصناف الحيوان من امهاتها . الم تر الى عمد الفُسطاط والخيم كيف تمد بالأطناب من كل جانب لتثبت منتصبة فلا تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة فى الارض وممتدة الى كل جانب لتمسكه وتقيمه ولولا ذلك كيف كان يثبت هذا النخل الطوال والدوح العظام فى الريح العاصف .

فانظر الى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة فصارت الحكمة التى تستعملها الصناعة فى ثبات الفساطيط والخيم متأخرة لأن خلق الشجر قبل صناعة الفساطيط والخيم (١) الا ترى ان عمودها ودعائمها وعيدانها من الشجر فيحق ما قال الاولون (الصناعة تحكى الطبيعة)

تأمل خلق الورق فأنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فيها اجمع فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً رقيقاً معجباً لو كان مما يصنع بالأيدي كصنعة البشر لما فرغ من ورق شجرة فى عام كامل ولا احتيج فيه الى آلات وحركة وعلاج وكدح فصار يأتى منه في ايام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهول وبقاع الارض كلها بلا حركة ولا كلام الا الارادة النافذة فى كل شيء . واعرف مع ذلك العلة في تلك العروق فأنها جعلت تتخلل الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل اليها المادة بمنزلة العروق المبثوثة في البدن لتوصل الغذاء الى كل جزء منه وفى الغلاظ ايضاً معنى آخر فأنها تمسك الورقة بصلابتها ومتانتها لكيلا تنتهك وتتمزق فترى الورقة شبيهة بورقة معمولة بالصنعة من خرق قد جعلت فيها عيدان ممدودة فى طولها وعرضها لتتماسك فلا تضطرب فالطبيعة وان كانت تمثل بالصناعة فأن الصناعة هى التى تشبه الطبيعة .

(فكر فى هذه العجم والنوى) والعلة فيه فأنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقام الغراس ان قام دون الغرس عائق كما قد يخزن الشىء النفيس الذي تعظم الحاجة اليه في مواضع شتى فأن حدث على الذى في بعض المواضع منه حدث وجد في آخر . ثم هو بعد يمسك بصلابته رخاوة الثمار ورقتها ولولا ذلك لتشدخت

(١) العبارة فى كتاب الحكمة في مخلوقات الله للغزالى هكذا فانظر الى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة واقتدى الناس فى اعمالهم بحكمة الله فى مصنوعاته اه وهي اوجز واجمل

وتفسخت واسرع اليها الفساد وفي بعضه حب يؤكل ويستخرج دهنه فيستعمل في ضروب من المصالح .

واذ قد تبين لك موضع الارب من العجم والنوي ففكر الآن فى هذا الذي يخرج فوقه من المأكل الذي يجده فوق النواة من الرطب وفوق العجم من العنبة ما العلة فيه ولماذا يخرج بهذه العلة (١) وقد كان يمكن ان يكون مكان ذلك ما ليس فيه مأكل كمثل ما يكون في السرو والدلب والطرفا وما اشبه ذلك فلم صار يخرج وفوقه هذه المطاعم اللذيذة الا ليستمتع بها الانسان وينال منها بعض الانعام والهوام .

(فكر فى ضرب من التدبير فى الشجر) فانك تراه يموت فى كل سنة موتة فتحتبس الحرارة الطبيعية فى غوره وتتولد مواد الثمار ثم تحي وتنتشر فتأتيك بهذه الفواكه نوعاً بعد نوع كما تقدم اليك انواع الأخبصة التى تعالج بالايدي واحداً بعد واحد فترى الاغصان في الشجر تلقاك بالثمر حتى كأنها تناولكها عن يد وترى الرياحين تلقاك في افنانها كانها تحييك بأنفسها . فلمن هذا التقدير الا لمقدر حكيم . وما العلة فيه الا تفكيه الأنسان بهذه الأنواع افلا تعجب من اناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها .

(فكر في خلق الرمانة) وما ترى فيها من اثر العمد والتدبير فأنك ترى فيها كأمثال التلال من شحم مركوم من نواحيها وحب مرصوف رصفاً كنحو ما ينضد بالأيدى وترى الحب مقسوماً اقساماً كل قسم منها مقسوم بلفايف من حجب منسوجة اعجب نسيج والطفه وقشره يضم ذلك كله فمن التدبير في هذه الصنعة انه لم يجز ان يكون حشو الرمانة من الحب وحده وذلك ان الحب لا يمد بعضه

(١) هكذا ولعل الصواب بهذه الهيئة كما يتبادر من العبارة فى كتاب الحكمة للغزالى

بعضاً فجعل ذلك الشحم خلال الحب ليمده بالغذاء الاتري ان اصول الحب مركوزة في ذلك الشحم ثم لف الحب في تلك اللفايف ليضمه ويمسكه فلا يضطرب وغُشّي فوق ذلك بالقشرة المستحصفة لتصونه وتحفظه من الآفات فهذا قليل من كثير من وصف الرمانة وفيه اكثر من هذا لمن اراد الاطناب والتذرع في الكلام ولكن في هذا الذي ذكرنا منه كفاية في الدلالة والعبرة .

(فكر في حمل اليقطين) الضعيف مثل هذه الثمار الثقال كالدبا والقثاء والخربز وما في ذلك من التدبير فأنه لما قدر ان تحمل مثل هذه الثمار جعل نباته منبسطاً على الارض ولو كان منبسطاً قائماً كما ينتصب الزرع والشجر لما استطاع ان يحمل مثل هذه الثمار الثقيلة ولتقصفت قبل ادراكها وانتهائها الى غاياتها . فانظر كيف صار يمتد على وجه الارض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه فترى الاصل من القرع والبطيخ مفترشاً على الارض وثماره مبثوثة حواليه كانها هرة متمددة قد اكتنفها اجزاؤها لترضع منها فانظر كيف صارت هذه الاصناف توفي في الوقت المشاكل لها من خمارة الصيف ووقده الحر فتلقاها الطبيعة بأنشراح وتشوق اليها ولو كانت توافي في الشتاء لوافقت من الناس كراهة لها واقشعراراً منها مع مايكون منها من المضرة للأبدان الا ترى انه ربما ادرك شيءٌ من القثاء في الشتاء فامتنع الناس من اكله الا الجشِع الذي لا يمتنع من اكل مايضره ويستوخم مغبته .

(فكر في خلة تجدها في النخل) فأنه لما صار منها اناث تحتاج الى التلقيح جعلت فيها ذكور تلقح فصار الذكر من النخل بمنزلة الذكر من الحيوان الذي تلقح الأناث لتحمل وهو لا يحمل .

تأمل خلقة الجذع فأنك تراه منسوجاً نسجاً من خيوط ممدودة كالسدى واخرى معترضة كاللحمة كنسج ماينسج بالأيدي وذلك ليشتد ويصلب ولا يتقصف

من حمل القنوان الثقيلة وهبوب الرياح العواصف اذا كان نخلة وليتهيأ للسقوف والجسور وغير ذلك مما يتخذ منه اذا كان جذعا فكذلك ترى فى الخشب منه شبه النسج فأنك ترى بعضها متداخلا بعضها طولاً وعرضاً [١] كتداخل اجزاء اللحم وفيه مع ذلك متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات فأنه لو كان مستحصفاً كالحجارة لم يكن ان يستعمل في السقوف وغير ذلك مما يستعمل فيه الخشب كالابواب والاسرة والتوابيت وما اشبه ذلك

ومن جسيم المصالح فى الخشب انه يطفو على الماء فكل الناس يعرف هذا وليس كلهم يعرف خلاله والنفع فيه فلولا هذه الخلة كيف كانت هذه السفن والاطواف تحمل امثال الجبال من الحمولة وانى كان ينال الناس هذا المرفق وخفة المؤنة في حمل التجارات من بلد الى بلد بل كانت ستعظم المؤنة عليهم في حملها حتى تلقي كثيراً منها في بعض البلدان مفقوداً اصلاً او عسيراً وجوده

(فكر في هذه العقاقير) وما خص به كل واحد منها من العمل في بعض الأدواء فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة مثل الشيطرج وهذا ينزف المرة السوداء مثل الافيتمون وهذا ينفى الريح مثل السكبينج وهذا يحلل الاورام مثل الرازيانج واشباه هذا من افعالهم. فمن جعل هذه القوى فيها الامن خلقها للمنفعة ومن فطّن الناس لها الامن جعل هذا فيها ومتى كان يوقم على هذا منها بالعرض والاتفاق كما قال قائلون وُهب الانسان فطنة لهذه الاشياء بذهنه ولطيف رويته فالبهائم كيف فطنت لها حتى صار بعض البهائم تتداوى من جراحة ان اصابته ببعض العقاقير فتبرأ وبعض الطير يحتقن من الحصر يصيبه بماء البحر فيسلم واشباه ذلك مما يذكر في كتب الطب والطبيعة .

---

(١) هكذا ولعل الصواب بعضها متداخلاً طولاً وبعضها عرضاً

ولعلك تشك في هذا النبات النابت في الصحارى حيث لا انس ولا انيس تظن انه فضل لا حاجة اليه وليس كذلك بل هو طعم لهـذه الوحوش وحبة علف الطير وسوقه وافنانه حطب يستعمله الناس وفيه بعد اشياء يعالج بها الابدان واخرى يدبغ بها الجلود واخرى يصبغ بها الامتعة واشباه هذا من المصالح.

الست تعلم ان من اخس النبات واحقره هذا البردي والخلفا واشباهه وفيه مع هذا ضروب من المنافع فقد يتخذ منه القرطاس الذي يحتـاج اليه الملوك والسوقة والحصر التى يستعملها كل صنف من الناس ويعمل منها الغلف التى توقي بها الاواني يجعل حشواً بين الظروف في الاسفار كيلا يعيب ولا يتكسر واشباه هذا من المآرب في صغير الخلق وكبيره وذوي القيمة منه ومالا قيمة له.

واخس من هذا واحقر الزبل والعذرة التى اجتمعت فيها الخساسة والنجاسة معاً وموقعها من البقول والزروع وجميع الخضر الموقع الذي لا يعدله شئ حتى ان كل شئ من الخضر لا يصلح ولا يزكو الا بالزبل والسماد الذى يستقذره الناس ويكرهون الدنو منه انه ليست منزلة الشئ في العلم على حسب قيمته في السوق بل هما قيمتان مختلفتان لسوقين مختلفين وربما كان الخسيس فى سوق الكسب نفيسا فى سوق العلم فلا تستصغر العبرة فى الشئ لصغر قيمته.

فكر فى بنية ابدان الحيوان وتهيئتها على ما هى عليه فلا هى صلاب كالحجارة اذا كانت لا تنثني ولا تتصرف فى الاعمال ولا هى على غاية اللين والرخاوة اذا كانت لا تتحامل ولا تستقل فجعلت من لحم رخو ينثنى بتداخله عظام صلاب تمسكه وعصب وعروق تشده ونظم بعضه الى بعض ثم غلفت فوق ذلك بجلد يشتمل على البدن كله.

ومن اشباه ذلك هذه التماثيل التى تعمل من العيدان ويلف عليها الخرق وتشد

بالخيوط ويطلى فوق ذلك بالصمغ فتكون العيدان بمنزلة العظام والخرق بمنزلة اللحم والخيوط بمنزلة العصب والعروق والطلى بمنزلة الجلد. فان جوزت ان يكون الحيوان الحي المتحرك حدث بالاهمال او من غير صانع فجواز ذلك اولى فى هذه التماثيل الميتة وان اغناك هذا في التماثيل ففي الحيوان احرى ان يتعذر عليك.

وفكر بعدها فى اجسام الأنعام فأنها حين خلقت كما خلقت ابدان الأنس من اللحم والعظم والعصب اعطيت ايضاً السمع والبصر ليبلغ الانسان حاجته فأنها لو كانت عميا صما لما انتفع بها الانسان ولا تصرفت في شئ من مآربه ثم منعت الذهن والعقل لتذل للأنسان فلا تمتنع عليه اذا كدها الكد الشديد وحملها الثقيل ولعلك تقول انه قد يكون للانسان عبيد من الأنس يذلون ويذعنون بالكد الشديد وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن فنقول فى جواب ذلك ان هذا الصنف فى الناس قليل فاما اكثر الناس فلا يذعنون بما يذعن به الدواب من الحمل والطحن وما اشبه ذلك ولا يفون بما يحتاج اليه منه ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذا العمل بأبدانهم لشغلوا بذلك عن سائر الأعمال لانه يحتاج مكان الجمل الواحد والبغل الواحد الى عدة اناس فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لا يكون فيهم عنه فضل بشئ من الصناعات والمهن الى ما كان سينالهم من التعب الفادح في ابدانهم والضيق والنكد فى معايشهم

فكر فى خلقة هذه الاصناف الثلاثة من الحيوان وتهيئتها على ما فيه صلاح كل واحد فالانس لما قدر ان يكونوا ذوى ذهن وفطنة وعلاج لمثل هذه الصناعات من البناء والنجارة والحياكة والجزارة وما اشبه ذلك خلقت لهم اكف كبار ذوات اصابع غلاظ تتمكن من القبض على الأشياء ومزاولة هذه الصناعات. وآكلات اللحم لما قدر ان يكون معاشها من الصيد خلقت لها اكف لطاف

مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لاخذ الصيد ولا تصلح للصناعات. وآكلات النبات لما قدر ان تكون لا ذات صنعة ولا ذات صيد خلقت لبعضها اظلاف تقيها خشونة الارض اذا حالت فى طلب المرعى ولبعضها حوافر ململمة ذوات قعر كأخمص القدم لينطبق على الارض ويتهيأ للركوب والحمولة .

تأمل التدبير فى خلقة آكلات اللحم من الحيوان حين جعلت ذوات اسنان حداد وبراثن شداد وافواه واسعة فأنه لما قُدِّر ان يكون طعمها اللحم خلقت خلقة تشاكل ذلك واعينت بسلاح وادوات تصلح للصيد فكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير ومخالب مهيأة لفعلها لو كانت الوحوش ذوات مخالب كانت قد اعطيت ما لا تحتاج اليه لأنها لا تصيد ولا تأكل اللحم ولو كانت السباع ذوات اظلاف كانت قد منعت ما تحتاج اليه اعنى السلاح الذي به تصيد وتتعيش. افلا ترى كيف اعطي كل واحد من الصنفين ما يشاكل صنعته وطبيعته بل ما فيه بقاؤه وصلاحه

انظر الى اولاد ذوات الاربع كيف تتبع امهاتها مستقلة بأنفسها لا تحتاج الى الحمل والتربية كما تحتاج اولاد الانس فمن اجل انه ليس عند امهاتها ما عند امهات البشر من الترفق والعلم والتربية والقوة عليها بالأكف والأصابع المهيأة لذلك اعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها . وكذلك ترى فراخ كثير من الطير كمثل الدراج والدجاج والقبج يدرج ويلقط حين ينقات عنها البيض (١) .

فأما ما كان منها ضعيفاً لا نهوض به كمثل فراخ الحمام والهام والحمر فجعل فى الامهات فضل عطف فصارت تمج الطُعم في فيه بعد ما توعبه حواصلها ساعة ليلين ويسهل قبول الفرخ ولا تزال تغذوه حتى ينهض ويستقل بنفسه وكل اعطي بقسطه من التدبير الحكيم.

انظر الى قوائم الحيوان كيف تأتى ازواجاً لتتهيأ للمشي ولو كانت افرادا لم تصلح

(١) فى القاموس النقت استخراج المخ اه مصححه

لذلك لأن الماشي ينقل بعض قوايمه ويعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحداً ويعتمد على واحد وذو الاربع ينقل اثنين ويعتمد على اثنين من خلاف لان ذا الاربع لو كان ينقل قائمتين من احد جانبيه ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الارض كما لا يثبت السرير وما اشبهه على قائمتين من احد جانبيه على انه ليس فى السرير روح والروح حمل الحيوان فصار ينقل اليمنى من مقاديمه مع اليسري الاخرى من مآخيره ويقر الاخيرتين ايضاً من خلاف فيثبت على الارض ولا يسقط اذا مشى .

اما ترى كيف يذل للحمولة والطحن وهو يرى الفرس مودعا منعما والبعير الذي لا يطيقه عدة رجال لو استعصي كيف ينقاد للصبى . والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه فيحرث الأرض به والفرس الكريم يركب بالسيوف والأسنة بالمواتاة لفارسه وكيف يتصرف فى الكر والفر والنأي والبعد ورد طوع عنانه والجمه على السيوف لغشيها(١) والقطيع من الغنم يرعاه رجل واحد ولو تفرقت الغنم فاخذت كل واحدة منها في ناحية لم يلحقها وكذلك جميع الأصناف المسخرة للأنسان فبم كانت ذلك الا بانها عدمت العقل والروية فانها لو كانت تروّى في الأمور كانت خليقة ان تلتوي على الأنسان فى كثير من مآربه حتى يمتنع الجمل على قائده والثور على صاحبه والغنم على راعيها واشباه هذا من الأمور وكذلك هذه السباع لو كانت ذوات عقل وروية فتواردت على الناس كانت خليقة ان تجتاحهم فمن كان يقوم للأسد والذئاب والنمور والضباع والدببة والهوام والحيات لو تعاونت وتظاهرت على الناس .

الا ترى كيف حجر ذلك عنها فصارت مكان ما كان يخاف من اقدامها ونكايتها

[١] هكذا العبارة ويظهر ان هنا نقصا كلمة او كلمتين وان كان المعنى مفهوما اه مصححه

تهاب مساكن الناس وتحجم عنها ثم لا تظهر ولا تنتشر في طلب قوتها الا بالليل فهي مع عداوتها وصولتها كالخائفة للأنس بل هي مقموعة ممنوعة منهم ولولا ذلك لساورتهم في مساكنهم وضيقت عليهم مسالكهم .

اما ترى الكلب وهو كبعض السباع العادية كيف يتوقل على الحيطان والسطوح في ظلمة الليل لحراسة منزل صاحبه وذب الدعار عنه ويبلغ من محبته لصاحبه ان يبذل نفسه للموت دون ماشيته وماله ويألفه غاية الالف حتى يصبر معه على الجوع والعطش فلم طبع الكلب على هذا الالف والمحبة للانسان الا ليكون حارساً للانسان حافظاً لماله في اوقات غفلته . ثم انه حين جعل حارساً للانسان اعين بأنياب ومخالب ونباح هائل ليذعر منه السارق والمريب ويتجنب المواضع التي تحميها كلاب وله شجاعة لا تثنيه وصبر لا يخونه وسعي يلحق به الضياء وشم يستروح به انفاس الطير والارانب والثعالب في مكانها وغير ذلك.

ثم انظر لم صار ظهر الدابة مسطحاً مبطوحا على قوائم اربع الا لتتهيأ للركوب والحمولة. ولم صار حياها بارزاً من ورائها الا ليتمكن الفحل من ضرابها فأنه لو كان من اسفل البطن كما كان الفرج من المرأة لم يتمكن الفحل منها . الا ترى انه لا يستطيع ان ياتيها كفاحاً كما ياتي الرجل المرأة وقد ذكر ارسطاطاليس في كتاب الحيوان ان حيا الانثى من الفيلة في اسفل بطنها فان كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من ضرابها .

فانظر كيف جاء الحيا في الانثى من الفيلة على خلاف ماهي عليه في غيرها من الانعام ثم جعلت فيه هذه الخلة ليتهيأ للامر الذى به قوام النسل .

انظر الى هذه البهائم كيف كسيت اجسامها هذه الكسوة من الشعر والوبر ليقيها من البرد وكثير من الآفات والبست قوائمها الاظلاف والحوافر لتقيها

من الحفا فانها لما كانت بهايم لا اذهان لها ولا اكف ولا اصابع مهيأة للغزل والنسج كفيت ذلك بأن جعلت كسوتها في خلقتها باقية عليها مابقيت لا تحتاج الى تجديدها ولا استبدالها. فاما الانسان فهو ذو حيلة وكف مهيأة للعمل فهو يغزل وينسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال وله في ذلك صلاح من جهات (منها) انه يشتغل بصنعة اللباس عن العبث وما تخرجه اليه الكفاية (ومنها) انه يستريح الى خلع كسوته اذا شاء ويلبسها اذا شاء (ومنها) انه يتخذ لنفسه ضروباً من الكسوة لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها (ومنها) انه يتلذذ تارة بالعري وتارة يتنعم باللباس وكذلك يتخذ بالترفق والصنعة ضروباً من الخفاف والنعال يقي بها قدميه فصار الشعر والوبر يقوم للبهائم مقام الكسوة واظلافها والحوافر مقام الحذاء .

(فكر في خلقة عجيبة) جعلت في البهائم الوحشية فانها توارى انفسها كما توارى الناس موتاهم والا فأين جيف هذه الوحوش والسباع وغير ذلك لا يرى منها شيء وليست شيئاً قليلا فتخفى لقلتها بل لو قال قائل انها اكثر من جيف الانس لصدق واعتبر ذلك بما تراه في هذه الصحارى من اضرب الظباء والمها والحمر والوعول والايايل وغير ذلك من الوحوش واصناف السباع من الاسد والضباع والذئاب والنمور وغيرها وضروب الهوام من الحشرات ودواب الارض وكذلك اسراب الطير من الغربان والقطا والاوز والكراكي والحمام وسباع الطير اجمع فأين هذه كلها لا ترى منها شيئاً ميتاً الا الواحد بعد الواحد يصيده قانص او يفترسه سبع فما يدل عليه القياس انها اذا احست بالموت تكمن في مواضع خفية فتموت فيها فلو لا ذلك لامتلات الصحاري منها حتى تفسد رائحة الهواء وتحدث الامراض والوباء فانظر الى هذه الذي تخاص الناس اليه بالفكر والروية كيف جعل طبعاً في البهائم

ليسلم الناس من مغبة ذلك . واما ما جعل بين الناس عيشه من الانعام والطير والهوام فلقدرة الناس على نقله والتدبير فى دفع اذيته فقد نزع منه ما جعل في الوحوش وهو دليل على ان العالم ليس باهمال .

تأمل وجه الدابة كيف هو فأنك ترى العينين شاخصتين امامها لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطاً ولا تردي في حفرة وتحرس نفسها وفارسها وترى الفم مشقوقاً شقاً في اسفل الخطم لتتمكن من العض على العلف فأنه لو كان فوها في مقدم الخطم كمكان الفم من الانسان في مقدم الذقن لما استطاعت ان تتناول شيئاً من الارض الا تري ان الانسان لا يتناول الطعام بفيه ولكن بيده فلما لم يكن للدابة يد تتناول به العلف جعل خطمها مشقوقاً من اسفله لتضعه في العلف ثم تقضمه من مقضمه واعينت بالجحفله لتقمقم بها ما قرب منها وما بعد فلا يفوتها شئ من طعام وان شك شاك في الذنب والمنفعة فيه فقلنا بمبلغ علمنا ان لذنب الدابة اسبابا منها انه بمنزلة الطبق على الدبر والحيا جميعا يواريهما ليسترهما ومنها ان ما بين الدبر ومراق البطن من الدابة وضراً بذا تجتمع عليه الذباب والبعوض والقردان والحامة فجعل لها الذنب كالمذبة تذب بها على ذلك الموضع ومنها ان الدابة تستريح الى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة فأنه لما كان قوامها على الاربع بأسرها وشغلت المقدمتان بحمل البدن على التصرف والتقلب والتلفت كان لها في تحريك الذنب مسرة وراحة . وعسى ان يكون فيه اسباب اخري يقصر عنهم الوهم ويزدرى بها السامع اذا سمعها لانه لا يعرف موقعها الا في وقت الحاجة اليها فمن ذلك ان الدابة ترتطم في الوحل فلا يكون شئ اعون على نهوضها من الاخذ بذنبها .

انظر الى مشفر الفيل وما فيه من لطف التدبير فأنه صار يقوم له مقام اليد فى تناول

تناول العلف والماء وايراده الى جوفه ولولا ذلك لما استطاع ان يتناول شيئاً من الارض لانه ليست له عنق يمدها كسائر الانعام فلما عدم العنق اخلف عليه مكان العنق ذلك الخرطوم الطويل ليسدله فيتناول به حاجته وجعل اجوف لانه وعاء لما يحمل الى صدره من طعامه وشرابه وايضاً فهو سلاحه وبه يعطى ويتناول ويقابل ويصول فمن الذي عوضه مكان العضو الذي عدمه ما يقوم له مقامه الا الرؤف بخلقه كيف يأتي مثل هذا بالاهمال كما قال الظلمة .

فان قلت ما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الانعام اجبنا بمبلغ علمنا فقلنا ان رأس الفيل واذنيه ونابيه امر عظيم وثقل ثقيل فلو كان ذلك على عنق لهدها واوهنها فجعل رأسه ملصقاً لكيلا يناله ما وصفنا وخلق له مكان هذا المشفر ليتناول به غذائه فصار مع عدمه العنق مستوفيا ما فيه بلوغ حاجته . وليكون اختلاف الخلق ادل على القدرة والتدبير فيتناول العلف بمشفره وآخر بعنقه وآخر بيده وآخر بمنقاره ويكون لبعض معقفا (١) كالصولجان الى زوره (٢) وآخر معقفا الى جانبه وآخر عريضاً وآخر كالطبرزين وآخر كالمحلب وذلك على مقدارما يصلح لمعاشهم في لقط او صيد وغير ذلك . ومن الحيوان من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على اربع اقتداراً من رب العالمين على خلق ما يريد كيف يريد وهو على كل شي قدير .

(فكر في خلق الزرافة) واختلاف اعضائها وشبهها بأعضاء اصناف من الحيوان فرأسها وجلدها جلد نمر وعنقها عنق جمل واظلافها اظلاف بقرحتى ان ناساً زعموا ان نتاجها من فحول شتى وسبب ذلك ان اصنافا من حيوان البر

---

(١) فى القاموس عقفه عطفه (٢) الزور وسط الصدر وما ارتفع منه الى الكتفين او ملتقى عظام الصدر حيث اجتمعت اه مصححه .

فيما ذكروا اذا وردت على بعض الماء تنزو على بعض السائمة فتنتج مثل الشخص الذى هو كالملتقط من اصناف شتى. وهذا مما لا يصح فى القياس لأنه ليس كل صنف من الحيوان يلقح كل صنف فلا الفرس تلقح الجمل ولا الجمل يلقح البقر وانما يكون هذا من بعض الحيوان فيما يشاكله ويقرب من خلقه كما يلقح الفرس الحمار فيخرج من بينهما البغل ويلقح الذئب الضبع فيخرج من بينهما السمع (٣) على انه ليس يكون في الذى يخرج من بينهما عضو من كل واحد منهما كما يكون فى الزرافة عضو من الفرس وعضو من الجمل بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما كالذي تراه فى البغل فأنك ترى رأسه واذنيه وكفله وحوافره وسطاً بين هذه الأعضاء من الفرس والحمار حتى شحيجه (١) ايضاً كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار فهذا دليل على انه ليست الزرافة من لقاح اصناف شتى من الحيوان كما زعم الزاعمون بل هي خلق عجيب من خلق الله الدالة على قدرته التى لا يعجزه شيء وليعلم انه خالق اصناف الحيوان كلها بجميع ما شاء منها في الأعضاء في ايها شاء ويفرق بين ما شاء منها فى ايها شاء. فأما طول عنقها فالمنفعة لها فى ذلك فلأن منشأها ومرعاها كما يذكر اهل الخبرة بها غياطل ذوات الأشجار شاهقة ذاهبة طولاً فهي تحتاج الى طول العنق لتتناول تلك الأشجار فتقوّت من ثمارها .

(تأمل خلقة القرد) وشبهه بالأنسان فى كثير من اعضائه اعنى به الرأس والوجه والصدر والمنكبين وكذلك احشاؤه ايضاً شبيهة بأحشاء الأنسان كالذى يصف ارسطاطاليس فى كتاب الحيوان وشهد به كتب الطب من ذلك ثم

---

(٣) السمع بالكسر ولد الذئب من الضبع قاموس

(١) في القاموس شحيج البغل والغراب صوته كشحاجة بالضم اه مصححه

ما خص به من الذهن والفطنة التي بها يفهم عن سائسه ما يريد منه ويقبل التأديب ويعرف ما يومي اليه ويحكي كثيراً مما يرى الأنسان يفعله حتى انه يقرب من خلق الأنسان في شمائله فمن التدبير في خلقه على ما هو عليه ان يكون عبرة للأنسان فيعلم انه من طينة البهائم وسخنتها اذ كان يقرب من خلقها هذا القرب فلا يطغى ولا يتمرد على خالقه فأنه لولا فضيلة فضله الله بها في الذهن والعقل كان كبعض البهائم الا ان في جسم القرد فصولاً اخرى تفرق بينه وبين الأنسان كالخطم والناشر والذنب المسبل والشعر المجلل للجسم كله لكن هذا لم يكن بالمانع للقرد ان يلحق بالأنسان لو اعطى مثل ذهن الأنسان وعقله فالفاصل بينه وبين الأنسان بالصحة هي النقص في الذهن .

(وهل سمعت ما يتحدث به عن التنّين) والسحاب فأنه يقال ان السحاب كالموكل به يختطفه حيث ما يثقفه كما تخطف حجر المغناطيس الحديد حتى صار لا يطلع رأسه من بطن الأرض (١) خوفاً من السحاب ولا يخرج في القرط الامرة اذا اصحت السماء فلم يكن فيها نكتة من غيم . فلم وكل السحاب بالتنين يرصده ويختطفه اذا وجده الاليدفع عن الناس ضره . فأن قلت ولم خلق التنين اصلا قلنا للتخويف والترهيب وللتنكال في موضع ذلك فهو كالسوط المعلق يخوف به اهل الريب احياناً للتأديب والموعظة .

(فكر في ضروب من الفطن) جعلت في البهايم لمصلحتها بالطبع والخلقة لا بعقل وروية فقد يقال ان الأيّل تأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً ويمتنع من شرب الماء خوفاً من ان يدب في جسمه فيقتله . وانه يقف على الغدير وهو

---

(١) هنا بخط دقيق بدل قوله من بطن الارض من بطن الماء فهو ملازم لقعر البحر دائماً خوفاً من السحاب الخ وفي حياة الحيوان التنين ضرب من الحيات كاكبر ما يكون منها وهو ايضاً نوع من السمك اه مصححه

مجهود عطشاً فيمج مجيجاً غاليا ولا يشرب منه حتى يعلم ان السم قد تفرق وان الذى اكل قد انهضم وحينئذ يشرب .

فانظر الى ما جعل فى طباع هذه البهيمة من الصبر على الظمأ الغالب خوفاً من المضرة فى الشرب وذلك مما لا يكاد الأنسان العاقل ان يضبطه من نفسه .

ومن الحديث المستفيض ان الثعلب اذا اعوزه الطُعم تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتاً فأذا وقعت عليه لتنهشه وثب عليها فأخذها فمن اعان الثعلب العديم العقل والنطق والروية بهذه الحيلة الا من كان توجه بتوجيه الرزق له من هذا وشبهه فأنه لما كان الثعلب يضعف عن كثير مما يقوى عليه السباع من مساورة الصيد اعين بالذهن والفطنة والأحتيال لمعاشه . ويتحدث عن الدلفين انه يلتمس صيد الطير فتكون حيلته فى ذلك ان يأخذ السمك فيقتله ويشدخه حتى يطفو على الماء ثم يكمن تحته ويثير الماء الذى حوله حتى يتبين شخصه فأذا وقعت الطير على السمك الطافى وثب عليها فاصطادها . فانظر الى هذه الحيلة اللطيفة كيف جعلت طبعاً فى هذه البهيمة لبعض المصلحة . واسمع ما يحدث به عن التمساح من انه يجمع فتات اللحم الذى يأكله فى تضاعيف اسنانه وتدود فيتأذى فيخرج الى الساحل فيفتح فاه كالميت فيحسبه الطير ميتا فيسقط على فيه فيلتقط الدود فأذا علم ان فاه قد نظف انطبق فيه على الطير فابتلعه فقالوا (اكافيك مكافاة التمساح) .

(تأمل الذرة الحقيرة) هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها فى طبقتها فمن اين هذا التقدير والصواب فى خلق الذرّة الا من التدبير القائم فى صغير الخلق وكبيره وترى الذر يلتقي فى طريقه فيتوافق الذرتان كما يسلم الرجل على صاحبه اذا لقيه ويسأله عن حاله وخبره .

(انظرا الى النمل) واحتشاده فى جمع القوت واعداده للشتاء لأنها تستتر فيه فلا تخرج فأنك ترى الجماعة منها اذا نقلت الحب الى بيتها بمنزلة جماعة من الناس تنقل طعاماً او غيره بل ترى للنمل فى ذلك من الجد والتشمير ما ليس للأنسان مثله وتراه يتعاون على النقل كما يتعاون الناس على العمل . ثم انه يعمد الحب فيقطعه كيلا ينبت فيفسد عليه وان اصابه ندىً اخرجه فيبرّزه حتى يجف ثم لا يتخذ الزبية الا في نشز من الأرض لكيلا يفيض عليها السيل فيغرقها وكل هذا منه بلا عقل ولا روية بل بخلقة خلق عليها لمصلحته .

(انظر الى هذا الذى يقال له الليث ١) ويسمى بالسريانية اسد الذباب وما اعطى من الحيلة والرزق فى طلب معاشه فأنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع بالقرب منه تركه مليا حتى كأنه ميت لاحراك به فأذا رأى الذباب قد اطمأن وغفل عنه دب دبيباً رفيقاً حتى يكون بحيث يناله وثبة ثم وثب عليه فأخذه فاشتمل عليه بجسمه كله مخافة ان ينشب الذباب فينجو منه وتجده ايضاً يتحرى غمز جناحيه وقبضهما بيديه ورجليه ليبطل فعلهما فلا يزال قابضاً عليه حتى يحس بأنه قد ضعف واسترخى ثم يقبل عليه فيبرشقه ويحى بذلك منه .

(فأما العنكبوت) فأنه ينسج ذلك النسج شركاً لا يقدر على مثله الآدميون ومصيدة للذباب ثم يكمن فى جوفه فأذا نشب فيه الذباب احال عليه يلدغه ساعة بعد ساعة ويمصه ويجعله قوتا فيتعيش بذلك فذلك يحكى صيد الكلاب والفهود وهذا يحكى صيد الأشراك والحبائل فانظر الى هذه الدويبة الضعيفة كيف جعل فى طبعها ما لا يبلغه الأنسان الا بالحيلة واستعمال الآلات فيها. ولاتزرى بالشيء عندك ان تكون العبرة فيه بالذرة والنملة وما اشبه ذلك فأن المعنى

(١) الليث ضرب من العناكب يصطاد الذباب وهو اصغر من العنكبوت اه حياة الحيوان

النفيس قد يتمثل بالمثل الحقير ولا يقصر به بذلك كما لا يقصر بالدينار وهو من ذهب ان يوزن بمثقال من الحجر والحديد .

(تأمل جسم الطائر وخلقته) فأنه حين قدّر ان يكون طائراً في الجو خفف جسمه وادمج خلقه واقتصر به من القوائم الأربع على ثنتين ومن الأصابع الخمس على الأربع ومن منفذي الزبل والبول على واحد يجمعها . ثم خلق ذاجوّ محدود محس (١) ليسهل عليه ان يخرق الهواء كيفما توجه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات متان لينهض به للطيران وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيقله ولما قدر ان يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقة الانسان وخلق له منقار صلباً جاسياً يتناول به طعمه فلا يتشجج من لقط الحب ولا يتقصف من نهش اللحم ولما عدم الأسنان وصار يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريضاً اعين بفضل حرارة في الجوف يطحن له الطعام طحناً فيستغنى عن التقدم فى مضغه واعتبر ذلك بان عجم العنب وغيره يخرج من اجواف الأنس صحيحاً ويطحن فى اجواف الطير حتى لا يرى له اثر

ثم جعل ايضاً مما يبيض بيضا ولا يلد ولادة لكيلا يثقل عن الطيران فأنه لو كانت الفراخ تنجل في جوفه وتمكث فيه حتى تستحكم وتكبر لأثقلته وعاقته عن النهوض والطيران

افلا ترى كيف يوجد كل شيء من خلقه مشاكلاً للأمر الذى قدر ان يكون عليه ثم صار الطير المسخر السابح في هذا الجو يقعد على الطير فيحضنه اسبوعاً واسبوعين

(١) هكذا وفيه تحريف ولعل الصواب ذاحوّية محدودب محنى ليسهل عليه الخ وبه يستقيم المعني والحوية كغنية استدارة كل شيء كما فى القاموس اه مصححه

ومن الطير من يلقط الطُعم بعد ان يستقر في حوصلته فيغذو به فراخه لأي معنى يحتمل هذه المشقة وليس بذى روية ولا تفكير في عاقبة ولا يؤمل في فراخه ما يؤمل الانسان في ولده من العز والبر والرفد وبقاء الذكر . فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعلة لا يعرفها هو ولا يفكر فيها وهى دوام النسل وبقاءه .

(انظر الى الدجاجة) كيف تهيج لحضن البيض والتفريخ وليس لها بيض مجتمع ولا وكر قط بل تنبعث لذلك بعثة فتنفخ وتقاقى وتمنع الديك نفسها وتمتنع من الطعام حتى يجتمع لها البيض وتحضنه وتفرخ فلم كان ذلك منها الا لأقامة النسل ولا روية لها ولا فكر فى عاقبة .

(فكر فى خلق البيضة) وما فيها المح الأصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق فبعضه لينشو به الفرخ وبعضه ليغتذى به الى ان تنجاب عنه البيضة وما في ذلك من التدبير فأنه لما كان نشو الفرخ في تلك القشرة المستحصفة التى لا مساغ لشيء اليها جعل معه فى جوف البيضة من الغذاء ما يكفى به الى خروجه منها كمن يحتبس فى حصن حصين لا يوصل الى ما فيه فيجعل معه من القوت ما يكتفي به الى خروجه منه .

(فكر في حوصلة الطائر) وما قدرت له فأن مسلك الطعم الى القانصة ضيق لا ينفذ فيه الطُعم الا قليلا قليلا فلو كان الطائر لا يلتقط حبة ثانية حتى تصل الأولى الى القانصة لطال ذلك عليه فمتى كان يستوفى طعمه وانما يختلسه اختلاساً لشدة الحذر فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة امامه ليوعى ما ادرك فيها من الطعم بسرعة ثم ينفذ الى القانصة على مهل . وفى الحوصلة ايضاً خصلة اخرى فأن من الطير ما يحتاج ان يزق فراخه فيكون رده الطعم من قرب اسهل عليه .

فأن كان اختلاف الألوان والأشكال فى الطير انما يكون من قبل امتزاج الأخلاط واختلاف مقاديرها بالمرج والأهمال . فهذا الوشي الذى تراه فى الطواويس

والتدرج والدراج على استواء ومقابلة كنحو ما يخط بالأقلام كيف يأتي به الأمتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف .

تأمل ريش الطير كيف هو فأنك تراه منسوجا كنسج الثوب من سلوك دقاق قد قد الف بعضها الى بعض كتأليف الخيط الى الخيط والشعرة الى الشعرة ثم ترى ذلك النسج اذا مددته ينفتح قليلا ولا ينشق ليتداخله الريح فيقل الطائر اذا طار . وترى وسط الريشة عموداً غليظاً متيناً قد نسج عليه ذلك كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته وهي القصبة التي تكون فى وسط الريشة وهو مع ذلك اجوف ليخف على الطائر فلا يعوقه عن الطيران .

هل رأيت هذا الطائر الطويل الساقين وعرفت المنفعة له فى طول ساقيه فأنه يرعى اكثر ذلك فى ضحضاح فتراه يركز على تينك الساقين كأنه زبية فوق مرقب فيتأمل ما يدب فى الماء فأذا رأى شيئاً من حاجته خطا خطاً رفيقا حتى يتناوله . ولو كان قصير القائمتين كان حين يخطو نحو الصيد ليأخذه يشق بطنه الماء فيثوره ويذعر منه الصيد فيتفرق عنه فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه .

تأمل ضرباً من التدبير فى خلق الطير فأنك تجد كل طائر طويل الساقين طويل العنق وذلك ليتناول طعامه من الأرض ولو كان طويل الساقين قصير العنق لما استطاع ان يتناول شيئاً من الأرض وربما اعين مع طول العنق بطول المنقار ليزداد المطلب عليه سهولة وله امكاناً افلا ترى انك لا تفتش شيئاً من الخلقة الا وجدته على غاية الصواب والحكمة .

(انظر الى العصافير) كيف تطلب اكلها بالنهار كله فلا هى تفقده ولا هي تجده مجموعاً معداً بل تناله بالحركة والطلب وكذلك تجد الرزق كله فسبحان

الذى قدره كيف فرقه وبعده ولم يجعله مما لا يقدر عليه اذ جعل بالخلق الحاجة اليه ولم يجعله مبذولاً فينال بالهوينا اذا كان لا صلاح للخلق فى ذلك . فأنه لو كان يوجد مجموعاً معداً كانت البهائم ستكب عليه ولا تقلع عنه حتى تبشم فتهلك وكان الناس سيصيرون بالفراغ والكفاية الى غاية الأشر حتي يكثر الفساد وتظهر الفواحش. اعلمت ما طُعم هذه الأصناف من الطير التى لا تخرج الا ليلا كمثل البوم والخفاش والهام فأنه يقال ان معاشها فى هذ الجو من البعوض والفراش واشباه الجراد واليعاسيب وغيرها وذلك ان هذه الضروب مبثوثة فى الجو لا يخلو منها موضع واعتبر ذلك بأنك اذا وضعت السراج بالليل فى صدَح او عرصة دار اجتمع عليه من هذه الضروب شئ كثير فمن اين يأتى ذلك كله الا من القرب .

فأن قيل انه يأتي من الصحارى والبرارى قيل له كيف يوافى تلك السرعة من موضع بعيد وكيف يبصر من ذلك البعد سراجاً فى دار محفوفة بالدور فيقصد اليه مع ان هذه الضروب ترى عياناً تتهافت على السراج من قرب فيدل ذلك على انها منتشرة فى كل موضع من الجو . وهذه الأصناف من الطير تلتمسها اذا خرجت فتتقوت بها فانظر كيف وجه الرزق لهذه الطير التى لا تخرج الا بالليل من هذه الضروب المنتشرة فى الجو . واعرف مع ذلك المعنى في خلق الله تعالى هذه الضروب التي عسى ان يظن ظان انها فضل لا معنى لها . خلق الخفاش خلقة عجيبة بين خلقة الطير وذوات الأربع بل هي الى ذوات الأربع اقرب فأنه ذواذنين ناشرتين واسنان ووبر وهو يحيض ويحبل ويلد اولاداً ويرضع ويبول ويمشى اذا مشى على اربع وكل هذا خلاف صفة الطير . وهو ايضاً مما يخرج بالليل ويتقوت بما يسرى في الجو من الفراش وما اشبهه .

وقد قال قائلون لا طعم للفراش وما اشبهه وقال قائلون لا طعم للخفاش وان

غذاءه من النسيم وحده وهذا ينكر من وجهين احداهما خروج ما يخرج من الثفل والبول فأن هذا لا يكون الا من طعم . والأخرى انه ذو اسنان ولو كان لا يطعم لم يكن للأسنان معنى وليس من الخلقة شيء لاطعم له .

فاما المآرب فيه فموصوفة في كتب الطب حتى ان زبله يدخل في بعض الاكحال ومن اعظم الارب فيه خلقته العجيبة الدالة على قدرة الخالق جل ثناؤه وتصرفها في كل ما شاء لضروب من المصلحة .

تحدث رجل صدوق عن هذا الطير الصغير الذى يقال له ابن تمرة هو الدخل انه قد كان عشش في بعض الشجرة فنظر الى حية عظيمة قد اقبلت نحو عشها شاحية فاغرة فاها لتبتلعه فبينا هو يتقلب ويضطرب في طلب الحيلة المنجاة منها اذ وجد حسكة فحملها فالقاها في فم الحية فلم تزل تلتوى وتتقلب الى ان ماتت افرأيت لو لم يُحَدّث بهذا الحديث اكان يخطر ببالك ان يكون من حسكة مثل هذه المنفعة العظيمة فاعتبر بها في كثير من الاشياء يكون فيها منافع لا تعرف الا عند الحادث يحدث والخبر يسمع .

(انظر الى النحل) واحتشاده فى صنعة العسل وتهيئة البيوت المسدسة على عمل ما يصلح لصنعته وما يرى في ذلك من دقايق الفطنة التى وصفها المتكلمون في الطبايع فانك اذا تأملت العمل رأيته عجيباً لطيفاً واذا نظرت الى المعمول وجدته شريفاً عظيماً موقعه من الناس واذا رجعت الى العامل وجدته غبيا جاهلاً بنفسه فضلاً عما سوى ذلك . ففى هذا اوضح الدلالة على ان الصواب والحكمة فى هذه الصنعة ليس للنحل بل للذى طبعه عليها وسخره فيها لمصلحة الانسان .

(انظر الى هذا الجراد) ما اضعفه واقوى فعله فأنك اذا تأملت خلقته رأيته كأضعف الاشياء واذا ازدلفت عساكره نحو بلدة من البلدان لم يستطع احد ان

يحميها منه . الا ترى ملكاً من ملوك الارض لو جمع خيله ورجله ليحمى بلادة من الجراد لم يقدر على ذلك افليس ذلك من الدلائل على قدرة الخالق انه يبعث اضعف خلقه على اقوى خلقه فلا يستطيع دفعه .

ثم انظر اليه كيف ينساب على وجه الارض مثل السيل فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته فلو كان هذا مما يصنع بالايدي كصنعة البشر متى كانت تجتمع منه مثل هذه الكثرة وفي كم من سنة كانت ترتفع فاستدلل بذلك على القدرة التي لا يؤدها شيء ولا يكبر عليها .

(تأمل خلق السمك) ومشاكلته للأمر الذي قدر ان يكون عليه فأنه خلق غير ذي قوايم لأنه لا يحتاج الى المشي اذ كان مسكنه الماء وخلق غير ذى رية لأنه لا يستطيع ان يتنفس وهو منغمس فى اللجة وجعلت له مكان القوايم اجنحة شداد يضرب بها من جانبيه كما يضرب النوتى بالمجاذيف من جانبي السفينة وكسى جسمه جلوداً متاناً متداخلة كتداخل الدروع والجواشن لتقيه من الآفات واعين بفضل حسٍ في الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعم من بعد بعيد فينتجعه والا فكيف يعلم به وبموضعه . وقد ذكر ارسطاطاليس ان بين فيه الى صماخيه منافذ فهو يعب الماء بفيه ويرسله من صماخيه فيتروح الى ذلك كما يتروح غيره من الحيوانات التى تنسم هذه النسيم .

فكر في كثرة نسل السمك وما خص به من ذلك فأنك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى عدده كثرة والعلة في ذلك ان يتسع لما يغتذى به من اصناف الحيوانات فان اكثرها تاكل السمك حتى السباع ايضاً فانك ترى في حافات الآجام عاكفة على الماء الصافي لتصيد السمك فاذا مر بها خطفته فلما كانت السباع تاكل السمك والطير تاكل السمك والناس ياكلون

السمك والسمك ياكل السمك وكان في البحر ذوات لاطعام لها الا السمك فالتدبير فيه ان يكون على ماهو عليه من الكثرة .

واذا اردت ان تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين فانظر الى ما في البحار من ضروب السمك ودواب الماء والأصداف التي لا تحصى كثرة ولا يعرف منافعها الا الشئ بعد الشئ يدركه الناس باسباب تحدث كما قد يقال في صبغ القرمز انه انما عرف بان كلبة كانت تجول على شاطئ البحر بصور فوجدت شيئاً من الذى يسمى الحلزون فاكلته فاختضب حطمها بدمه فنظر الناس الى حسنه فاتخذوه صبغاً للقز واشباه هذا مما يقع الناس عليه حالاً بعد حال.

(انصرف الآن الى خلق الانسان) وما فيه من الحكمة وما فيه من الدلالة على التدبير والعمل فأول ذلك ما يدبر فيه من الجنين من الوحم حين لا حيلة عنده في تلمس غذاء ولا دفع اذى فأنه يجري اليه من دم امه ما يغذوه كما يغذوالماء النبات فلا يزال ذلك غذاءه حتى اذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوى اديمه على مباشرة الهواء وبصره على ملاقاة الضوء هاج الطلق بأمه وازعجه اشد ازعاج واعنفه حتى يولد فأذا ولد صرف ذلك الذي كان يغذوه من دم امه الى ثدييها فانقلب الى ضرب آخر من الغذاء هو اشد موافقة للمولود من الدم اعنى اللبن فيوافيه اللبن في وقت حاجته اليه فأنه حين يولد فقد تلمض وحرك شفتيه للرضاع فيجد ثدي امه كالاداوتين المعلقتين لحاجته فلايزال يغتذى باللبن مادام رطب البدن رقيق الامعاء حتى اذا تحرك واحتاج الى غذاء فيه صلابة ليشتد عظمه ولحمه طلعت عليه الطواحين التي هي الاسنان ليمضغ بها الطعام فيلين عليه ويسهل اساغته فلا يزال كذلك حتى يدرك فأذا ادرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه وكان ذلك هو علامة الذكر وعز الرجل الذي يخرج به من حد الصبي

وشبه النساء وان كانت انثى بقي وجهها نقياً من الشعر لتبقى لها البهجة والنضارة التي تحرك الرجال لما فيه من دوام النسل .

(وفكر الآن في امر الانسان) وما يُدَبَّر به في هذه الاحوال المختلفة هل ترى مثله يمكن ان يكون عليه بالاهمال افرأيت لو لم يجر اليه ذلك الدم وهو في الرحم ألم يكن سيذوي ويجف كما يجف النبات اذا فقد الماء ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن يستبقي في الرحم كالموؤد في الارض ولو لم يوافه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعاً او يغتذي بغذاء لا يلائمه ولا يصلح عليه بدنه ولو لم تطلع له الاسنان في وقتها ألم يكن سيمتنع عليه المضغ للطعام واساغته او يقيم على الرضاع ولا يشتد بدنه ولا يصلح لعمل ثم يشغل امه بنفسه عن تربية ولد غيره ولو لم يكن شعر يخرج في وجهه في وقته ألم يكن سيبقى في هيئة الصبيان والنساء فلا يري له جلالة ولا هيبة ولا وقار فمن الذي كان يرصده حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآرب في وقته الا الذي انشاه خلقاً بعد اذ لم يكن ثم توكل بمصلحته بعد اذ كان ولئن كان الاهمال يأتي بمثل هذا التدبير فقد نجد في القياس ان يكون العمدة والتقدير يأتي بالخطا والمحال لانه ضد الاهمال وهذا خلف من القول .

(فكر في امر الانسان في باب آخر) وهو ولادته حين يولد غبيا غير ذي عقل وفهم فأنه لو كان يولد عاقلاً فاهماً لانكر العالم عند ولادته حتى يبقى حيران تائه العقل اذا رأي ما لا يعرفه وورد على ما لم ير مثله فاعتبر ذلك بان من سبي من بلد الى بلد وهو متحنك عاقل يكون كالواله الحيران ولا يتشرع في تعليم الكلام وقبول الادب كما يتشرع الذي ينشأ صغيرا . ثم لو كان يولد عاقلا وجد غضاضة ان يرى نفسه محمولا ومرضعاً ومعصباً بالخرق ومسجى في المهد على انه لا يستغني عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد ثم كان لا

يوجد له من الحلاوة والموقع فى القلوب ومن الرحمة والفرح ما يوجد للطفل فصار المولود يدخل العالم غبياً عاقلا عما فيه الناس فتلقى الاشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزيد في المعرفة قليلا قليلا وشيئاً بعد شئ حتى يألف الاشياء ويتمرن عليها فيخرج من حد التأمل لها والحيرة الى التصرف فى الامور والاضطراب في المعاش .

وفي هذا وجوه أخر فانه لو كان يولد تام العقل مستقلا بنفسه لذهب موضع تربية الاولاد وما دبر ان يكون للوالدين في الاشتغال به من المصلحة وما توجب التربية للآباء على البنين من المكافاة بالبر والعطف عند حاجتهم الى ذلك منهم ثم كان الاولاد لا يألفون آباءهم ولا الآباء يألفون ابناءهم لانه كان الاولاد يستغنون عن تربية الآباء وحياطتهم فيتفرقون عنهم حين يولدون حتى لا يعرف الرجل اباه ولا امه ولا يعرفه ابوه وامه ولا يمتنع من نكاح امه واخته اذا كان لا يعرفها واقل ما يكون من ذلك ان يخرج من بطن امه وهو يعقل فيرى منها ما يحل له ولا يحسن به ان يراه .

اوَلا يرى كيف اقيم كل شئ من الخلقة على غاية الصواب وتنكب فيه الخطأ دقيقه وجليله . وتخبر كتب الطب والطبايع ان الجنين يخلق من ماء الذكر والانثى جميعا فالذكر يقذف ماءه في رحم الانثى والانثى تقذف ماءها فى رحمها لا يعدوها ثم يختلطان في الرحم فيكون منهما الجنين باذن الله وقدرته .

وانظر كيف جعلت آلات الجماع فى الذكر والانثى جميعاً على ما يشاكل ذلك فجعلت للذكر اذا كان يحتاج ان يقذف ماءه فى غيره آلة ناشزة تمتد حتى توصل النطفة الى الرحم وجعلت للانثى اذا احتاجت الى ان تشتمل على المائين جميعا وتحمل الولد حتى يستحكم وعاء قعيراً يصلح لذلك.

فكر فى اعضاء البدن اجمع وتقدير كل عضو منها اللارب فيها فاليدان للعلاج والرجلان للسعى والعينان للاهتداء والاذنان للسمع والانف للشم والفم للاغتذاء والمعدة للهضم والكبد للتخليص والمنافذ لنفض الفضول والاوعية لحملها والفرج لاقامة النسل . وكذلك جميع الاعضاء اذا تاملتها وجدت الكل منها قد قدّر على صواب وحكمة .

فان زعمت ان هذا من فعل الطبيعة سألناك عن هذه الطبيعة اهى شيء له علم وقدرة على هذه الافعال ام ليست كذلك فان اوجبت لها العلم والقدرة فما امتناعك من اثبات الخالق فان هذه هى صفة الخالق . فان زعمت انها تفعل هذه الافعال بغير علم وعمد فهو محال لان افعالها ماقد ترى من الصواب والحكمة . فعلم ان هذا الفعل للخلاق العظيم وان الذي سميته طبيعة هى سنته . سببه من خلقته الجارية على ما اجراها عليه (١)

(فكر في وصول الغذاء الى البدن) وما فيه من التدبير فان الطعام يصير الى المعدة فتطحنه المعدة وتبعث بصفوه الى الكبد فى عروق دقاق واشجة بينهما قد جعلت كالمصفاة للغذاء لكيلا يصل الى الكبد منه شىء غليظ خشن فينكؤها وذلك ان الكبد رقيقة لا تحتمل العنف ثم ان الكبد تقلبه دما وتنفذه الى البدن كله فى مجار مهيأة لذلك بمنزلة المجاري التي تهيأ للماء حتى يطرد في الارض كلها وينفذ ما يخرج من الخبث والفضول الى مغايض قد اعدت لذلك فما كان منه من جنس المرة الصفراء اجري الى المرارة التى هى مقرونة بالكبد وما كان من

(١) هنا في الهامش مانصه • والطبيعة على قولك تقتضى اما فاعلاً او مفعولاً فأن اردت الفاعل لزم ان تجعلها متقدمة لمفعولاتها وهذا كقولنا فى البارى • وان اردت مفعولاً فلكل مفعول فاعل فما ينكر ان يكون الله • وان قلت ان الطبيعة والطبايع لم يزالا اتيت بمحال وقلت بأثنين قد يمين •

جنس السوداء اجري الى الطحال وما كان منه من البلة والرطوبة اجري الى المثانة [تامل حكمة التدبير] في تدبير تركيب البدن ووضع هذه الاعضاء مواضعها واعداد هذه الاوعية فيه لتحمل تلك الفضول ولا تنتشر في البدن فتسقمه ولو اخذت تمثالا صغيرا من شبه او نحاس اوشمع فاردت ان تجعله كبيرا هل كان يمكنك ذلك الا بان تكسره وتصوغه من الرأس صياغة اخرى .

افلا ترى جسم الصبي كيف ينمو بجميع اعضائه وهو ثابت على شكله وعينه وهيئته لا يتزيد ولا ينتقص واعجب من هذا تصويره في الرحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد يخرج سويا مستويا بجميع ما به قوامه وصلاحه من الاحشاء والجوارح والعوامل والحوامل الى ما في تركيب اعضائه من العظام واللحم والشحم والمخ والعصب والعروق والغضاريف من دقائق التركيب والتقدير والحكمة .

انظر الى ماخص به الانسان في خلقه تشريفاً وتفضيلا له على البهايم فانه خلق ينتصب قائما ويستوي جالسا ليستقبل الاشياء بيديه وجوارحه ويمكنه العلاج والعمل فيها ولو كان مكبوبا على وجهه كذوات الاربع لما استطاع ان يعمل شيئاً من الاعمال. ولهذا المعني صار الانسان اسمه باليونانية مشتقاً من النظر الى العلو كما قال فاثلون او من تأمل الامور العلوية كما قال افلاطون .

انظر الى هذه الحواس التي منها تشرف النفوس على الاشياء كيف جعلت في الرأس كالمصابيح فوق المنارة ليتمكن من مطالعة الاشياء ولم يجعل في الاعضاء التي تمتهن كاليدين والرجلين فتعرض للآفات التي تصيبها من مباشرة العمل والحركة . ولا في الاعضاء التي تجئ وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر تلقيها واطلاعها نحو الاشياء فلما لم يكن لها في شيء من هذه الاعضاء مواضع كان الرأس اهنا المواضع لها . وقد احسن في وصف الرأس بعض الحكماء فقال هو

صومعة الحواس . من جعل الحواس خمساً الا من جعل المحسوسات مثل ذلك قدّرها خمساً تلقى خمساً لكيلا تفوت الحواس شيء من المحسوسات .

فأن قلت فلعل في الاجسام محسوسات اخرى ليس تلقاها حواس تدركها (قلنا) محال ان يكون محسوسات ليس تلقاها حواس تدركها لانها كانت تكون فضلا لا معنى له وليس في الخلقة شيء لا معنى له كالذي حكمت به الحكماء وشهدت عليه المحنة . لم خلق البصر الا ليدرك الالوان والاشكال والاضواء . ولم خلق السمع الا ليدرك الاصوات فلو كانت الالوان ولم يكن بصر يدركها هل كانت تكون في الالوان منفعة ولو كانت الاصوات ولم يكن سمع يدركها هل كان في الاصوات ارب وكذلك سائر الحواس . ثم هذه كلها ايضا ترجع متكافئة فانه لو كان بصر ولم يكن الوان لم يكن للبصر معنى ولو كان سمع ولم يكن اصوات لم يكن للسمع موضع .

انظر كيف قدر بعضها تلقاء بعض فجعل لكل حاسة محسوساً تعمل فيه ولكل محسوس حاسة تدركه . وفكر مع هذا في اشياء جعلت متوسطة بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس الا بها كمثل الضياء والهواء فانه لو لم يكن ضياء يظهر اللون للبصر لم يكن البصر يدرك اللون ولو لم يكن هواء يؤدى الصوت الى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت فهل يخفى على من صح نظره ان مثل هذا الذي وصفنا من تهيئة الحواس والمحسوسات بعضها تلقاء بعض وتهيئة اشياء اخرى بها تتم الحواس لا يكون الا بعمد وتقدير .

فكر في الذي عدم البصر من الناس وما يناله من الخلل في اموره فانه لا يبصر موضع قدمه ولا يعرف ما بين يديه ولا يفرق بين الالوان ولا بين المنظر الحسن والقبيح ولا ينذر بحفرة ان هجم عليها ولا بعدوّ ان يبعد ولا يعرف ان اهوى

اليه بسيف ولا يكون له سبيل الى تعلم شيء من هذه الصناعات كالنجارة والكتابة والصياغة حتى اولا بقاء ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقي . وكذلك من عدم السمع قد يختل في امور كثيرة فأنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة الاصوات واللحون الشجية والمطربة وتعظم المؤنة على الناس حتى يتبرموا به ولا يسمع شيئاً من اخبار الناس واحاديثهم حتى يكون كالغائب وهو شاهد وكالميت وهو حي .

فأما من عدم العقل فانه يلحق بمنزلة البهائم بل يجهل كثيراً مما تهتدى اليه البهائم افلا ترى كيف صارت هذه الجوارح والعقل وسائر الخلال التى بها صلاح الانسان والتي او فقد منها شيء لعظم ما يناله في ذلك من الخلل فيوافى في خلقه على التمام حتى لا يفقد منها شيئاً ولم كان ذلك اولا ان خلقه بعمد وتدبير .

والقول المجمل ان الصانع جل ثناؤه اذا ثبت انه حكيم عدل زالت عنه التهمة فيما فعله اذ هو اعرف بمنافع الانسان ومصلحته وعواقب اموره وان الصانع جل عن التمثيل كطبيب حاذق مأمون الخطا يعالج بما فيه مضض والم ولا ينسب الى قساوة قلبه ولا الى جوره واضراره بالعليل ولا الى الخطأ (١)

فان قلت ولم صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح حتى يناله مثل هذا الخلل قلنا للتأديب والموعظة لمن يحل ذلك به ولغيره بسببه كما قد يؤدب ملوك الارض باشياء التنكيل والموعظة فلا ينكر ذلك عليهم بل يحمد ويستصوب من تدبيرهم . ثم ان الذين بهم هذه البلايا من الثواب فى الآخرة ان صبروا وشكروا وانابوا ما يستصغرون معه ما ينالهم منها حتى انهم لو خيروا بعد البعث لاختاروا ان يردوا الى البلاء ليزدادوا من الثواب .

(١) من قوله والقول المجمل الى هنا مثبت في الهامش ويظهر انه من الأصل بعد قوله بعمد وتدبير اه مصححه .

(فكر في الاعضاء) التى خلقت افراداً وازواجاً وما فى ذلك من الصواب والحكمة فالرأس مما خلق فرداً ولم يكن خيراً ان يكون اكثر من ذلك الا ترى انه لو اضيف الى رأس الانسان رأس آخر كان ثقلا عليه من غير حاجة اليه لان جميع الحواس التى يحتاج اليها مجتمعة فى رأس واحد. ثم كان اللسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان فأن تكلم من احدهما كان الآخر معطلا لا ارب فيه وان تكلم منهما جميعا بكلام واحد كان احدهما فضلاً وان تكلم من احدهما بغير الذي يتكلم به من الآخر لم يدر السامع بأي ذلك يأخذ واشباه هذا من الاختلاط. واليدان مما خلق ازواجاً ولم يكن للانسان خير ان يكون له يد واحدة لان ذلك يخل به فيما يعالج من الاشياء . الا ترى ان النجار والبناء لو شلت احدى يديه لم يستطع ان يعالج صناعته فأن تكلف ذلك لم يحكمه ولم يبلغ به ما يبلغه اذا كان له يدان يتعاونان على العمل .

(فكر في الصوت) وتهيئة آلاته والكلام وانتظامه والحروف وما هي لها من المخارج واعينت به من الهواء وكيف جعل شيء من الآلات لما خلق له(١) فكر فى تهيئة آلات الصوت والكلام فى الانسان فالحنجرة كالأنبوب لخروج الصوت واللسان والشفتان والاسنان لصياغة الحروف والنغم الا ترى ان من سقطت اسنانه لم يقم السين ومن تقضب شفته لم يصح الفاء ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء فما احسن ما مثل الاولون مخرج الصوت بالمزمار الاعظم فشبهوا الحنجرة بقصبة المزمار وشبهوا الرئة بالزق الذي ينفخ به من تحته ليدخله الريح وشبهوا العضلات التى تقبض على الرئة لخروج الصوت من الحنجرة بالاكف الذى تقبض على الزق حتى تجرى الريح فى المزمار وشبهوا الشفتين والاسنان

[١] من قوله فكر فى الصوت الى هنا مثبت فى الهامش ايضاً

التي تصوغ الصوت حروفاً ونغماً بالاصابع التي تختلف على فم المزمار فيصوغ صفيره الحاناً غير انه وان كان مخرج الصوت يشبه المزمار للدلالة والتعريف فان المزمار بالحقيقة هو المشبه بمخرج الصوت لان المزمار صناعى والصوت طبيعى والصناعة هي التي تحكى الطبيعة . ولكنه لما كانت الصناعة اظهر واعرف عند العامة من الطبيعة صارت افعال الطبيعة تمثل بأفعال الصناعة ليفهم ويوقف عليها . فاذا كانت الصناعة هي التي تتعجب من اللطف والحكمة فيما يحكى الطبيعة فبالحري ان يتعجب من الطبيعة ولطف افعالها ولئن كان الاهمال يضعف عما تأتي به الصناعة لهو عما تأتي به الطبيعة اضعف قد انبأنا عما فى هذه الاعضاء من الغناء في صفة الكلام واقامة الحروف . وفيها مع الذي ذكرنا مآرب اخرى في الحنجرة يسلك هذا النسيم الى الرئة فيروح عن الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع وباللسان تذاق الطعوم فيميز بينها ويعرف كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على اساغة الطعام والشراب وبالاسنان يمضغ الطعام فيلين ويسهل ابتلاءه وهى بعد كالسند للشفتين تمسكهما وتدعمهما من داخل الفم فاعتبر ذلك بأنك ترى من سقطت اسنانه مسترخى الشفة مضطربها وبالشفتين يترشف الشراب حتى يكون الذي يدخل منه بقصد وقدر لا يثج ثجا فيغص به الشارب وينكا فى الجوف ثم هما بعد كالباب او كالطبق على الفم يفتحهما الانسان اذا شاء ويطبقهما اذا شاء وبهما حسن منظر الفم الا ترى الذى قطع شفتاه قبح منظره غاية .

ففيما وصفنا من هذا بيان ان كل واحد من هذه الاعضاء تنصرف الى وجوه من المآرب كما تنصرف الاداة الواحدة الى اعمال شتى وذلك كالفاس يستعمل في عمل النجارة والحفر والقتال وغيرهما من الاعمال . وكذلك الشفة تصلح للتقبيل ولمص الماء واقامة بعض الحروف وجمع المخارج ودفعها ولغير ذلك .

(اما رأيت الدماغ) اذا كشف عنه كيف تجده قد لف بحجب بعضها فوق بعض لتصونه عن الاعراض وتمسكه من ان يضطرب ثم اطبقت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة لتقيه حد الصدمة والصكه تقع بالرأس ثم جلب الجمجمة بالجلد والشعر الذى هو فروة الرأس ليسترها من افراط الحر والبرد. فمن خص الدماغ بهذا التحصين وقدره هذا التقدير الامن خلقه فعلم انه ينبوع الحس والمستحق لكل هذه الحيطة بمنزلتها من البدن ومحل العقل فيه .

من جعل الجفن على العين كالغشاء والاشفار كالاشراج واولجها فى هذا الغار واظلها بالحجاج وما عليه من الشعر .

من غيب الفؤاد في جوف الصدر وكساه المدرعة التى هي غشاوة وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب يقى ولا يثقل وجعل شغافه في حق يصونه وامره على الجوارح والحواس فأليه ينتهى ما يؤديه بل من جعله مسكناً لجوهر الروح .

من جعل فى الحلق منفذين احدهمـــا للصوت وهو الحلقوم الواصل الى الرئة والآخر للغذاء وهو المرى الواصل الى المعدة وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام ان يصل الرئة فيبتل به. من جعل الرئة مروحة للفؤاد لا تفتر ولا تخل لكيلا تنحصر الحرارة في الفؤاد فيؤدى الى التلف .

من جعل لمنافذ البول والغائط اشراجا يضمها ويضبطها لكيلا تجري جرياً دائمـا فيفسد على الانسان عيشه وكم عسى ان يحصى المحصى من هـذا بل الذى لا يحصى منه اكـثر .

لم صارت المعدة عصبانية شديدة الاانها قدرت لهضم الطعام الغليظ ولم صارت الكبد رقيقة ناعمة انهـا قدرت لقبول صفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمـل هو الطف من عمل المعدة .

لم صار المخ الرقيق محصناً فى انابيب العظام الا لتحيطه وتصونه . لم صار الدم السيال محصوراً فى العروق منزلة الماء فى الظروف الا لتضبطه فلا يغيض . لم صار الأظفار على اطراف الاصابع الا وقاية لها ومعونة على العمل . لم صار داخل الأذن ملتويا كهيئة اللولب الا ليطرد فيه الصوت حتى ينتهى فيه الى السمع ولتنكسر حمية الريح فلا تنكأ فى المسامع كما قال آخرون . لم حمل الانسان على فخذيه هذا اللحم الوثير الا ليقيه من الأرض فلا يألم من الجلوس عليها كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه اذا لم يحل بينه وبين الأرض حائل .

من جعل الأنسان ذكراً وانثى الا من خلقه متناسلاً . من جعله متناسلاً الا من جعله ميتاً . من اعطاه آلات العمل الا من جعله عاملاً من جعله عاملا الا من جعله محتاجا من ضربه بالحاجة الا من توكل بتقويمه من خصه بالفهم الا من اوجب له الجزاء . من وهب له الحيلة الا من ملكه من ملكه الخلق الا من الزمه الحجة من يكفيه مالا تبلغه حيلته الا من لا يبلغ مدى شكره تبارك وتعالى لا تحصى نعمه . ذكر ارسطاطاليس فى صنعة خلق الأنسان ان فى الفؤاد ثقبا مواجهة نحو الثقب التى فى الرئة سواء ليحمل الريح من الرئة فتروح عن الفؤاد حتى انه لو اختلف الثقب وتزايل بعضها عن بعض لما وصلت الريح الى الفؤاد فكان في ذلك هلاك الأنسان . افيستجيز ذوفكرة وروية ان يزعم ان مثل هذا يكون بالاهمال اولا يجد شاهداً من قلبه يزعه عن هذا القول . لو رأيت فرداً من مصراعي باب فيه كلوب اكنت تتوهم انه كان هكذا بلا معنى بل كنت ستعلم انه مصنوع تلقاء فرد آخر فيه رزة ليكون فى اجتماعهما ضرب من المصلحة وهكذا تجد الذكر من الحيوان كانه فرد من زوج قد جعل له فرج مهىء تلقاء فرج الانثى يلتقيان لما فيه دوام النسل وبقاؤه . فتباً وخيبة لأفيقوروس واشباهه حين عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة

حتى انكروا التدبير والعمد فيها. لو كان فرج الرجل مسترخياً ابداً كيف كان يصل الى قعر الرحم حتى يقر النطفة فيه . ولو كان منعظا ابداً كم يكون الرجل يتقلب في الفراش ويمشى بين الناس وشيء شاخص امامه ثم كان في ذلك مع قبح المنظر تحريك الشهوة فى كل وقت من النساء والرجال جميعا فيدعوهم تحريكهما الى المباضعة وهـذا على الاوان يؤديهم الى الهلاك فقدر ان يكون مسترسلا في اكثر ذلك لكيلا يبدو للبصر في كل وقت ولا يكون على الرجل فيه موءنة وجعلت فيه قوة الانتصاب عند الحاجة الى ذلك لما فيه من دوام النسل وبقائه.

اليس من حسن التقدير في البناء ان يكون الخلاء في استر موضع من الدار فهكذا تجد المنفذ المهيأ للخلاء من الانسان فى استر موضع منه فأنه ليس بارزاً من خلفه ولا ناشزاً بين يديه بل هو مغيب فى موضع غامض من البدن يلتقى عليه الفخذان بما عليهما من اللحم فتواريانه فأذا حضرت الحاجة الى الخلاء وجلس لها الانسان تلك الجلسة القى ذلك الموضوع منه منتصبا متهيأً لانحدار الثفل .

(فكر فى هذه الطواحن) التي خلقت للأنسان كيف جعلت الأسنان منها حداداً لقطع الطعام وهتكه وجعلت الأضراس عراضاً لرضه ومضغه فلم ينقص واحد من الصنفين اذا كان يحتاج اليهما جميعا .

[تأمل التدبير فى خلق الشعر والأظفار] فأنهما اذا كانا مما يطول ويكبر حتى يحتاج الى تخفيفه اولاً فأولا جعلا عديمى الحس لكيلا يؤلم الأنسان الأخذ منهما ولو كان قص الشعر وتقليم الاظفار مما يوجد له حس والم كان الأنسان من ذلك بين امرين كريهين اما ان يدع كل واحد منهما يطول حتى يفدحه ويثقل عليه واما ان يخففه بوجع والم يناله منه. لو نبت الشعر في العين الم يكن سيعمي البصر ولو نبت فى الفم الم يكن سينغص علي الأنسان طعامه وشرابه

ولو نبت في باطن الكف لم يكن سيعوقه عن صحة اللمس وبعض الأعمال التي تعمل بالراحة كالمصافحة وشبهها. ولو نبت على فرج المرأة وعلى عوف الرجل لم يكن سيفسد على الانسان لذة الجماع فانظر كيف تنكب بالشعر هذه المواضع لما في ذلك من المصلحة وانبته في المواضع التي هو لها زين. ثم ليس هذا في الانسان فقط بل هو في البهيمة ايضاً فأنك ترى هذه المواضع خالية منه لهذا السبب بعينه. افلا ترى الخلقة كيف تتخلى وجوه الخطأ والمضرة وتقع بوجوه الصواب والمنفعة ان المنانية واشباههم حين اجتهدوا في عيب الخلقة عابوا الشعر النابت في الركب والأبطين والفخذ والعانة وانما يكون هذا من الرطوبة تدفعها الطبيعة الى هذه المواضع فينبت فيها الشعر كما ينبت العشب في مستنقع الماء اولا ترى ان هذه المواضع استر واهيأ لقبول تلك الفضلة من غيرها.

ثم ان هذا بعد حمل الانسان من مؤنة هذا البدن وتكاليفه لما في ذلك من المصلحة فأن اهتمامه بتنظيف بدنه وكسح ما يعلوه من الشعر والدرن مما يكسر شرته ويكف عاديته وشغله عن بعض ما يخرجه اليه الفراغ والبطالة.

[فكر في الريق] والمنفعة فيه فأنه جعل يجري دائما الى الفم ليبل الحلق واللهوات فلا يجف فأن هذه المواضع لو جفت كان في ذلك هلاك الانسان ثم كان لا يستطيع ان يسيغ طعاماً اذا لم يكن في الفم بلة تنفذه يشهد بذلك قول ابقراط الرطوبة مطية الغذاء وقد يجري مثل هذه البلة الى مواضع أخر من المِرة فيكون في ذلك رجاء فعل من الافعال الطبيعية.

[اعلمت ما في الاطفال من المنفعة في البكاء] فان من قول الاطباء ان في ادمغتهم رطوبة ان بقيت فيها احدثت عليهم احداثاً جليلة وان البكاء يسيل تلك الرطوبة من رؤسهم فيعقبهم ذلك الصحة في ابدانهم افليس قد جاز ان

يكون الطفل ينتفع بالبكاء وانت لا تعرف ذلك فهكذا يجوز ان يكون فى كثير من الاشياء منافع لا تعرفها فلا تقصر على الشيء انه لا منفعة فيه من قبل انك لا تعرفها فان كثيراً مما لا تعرفه انت يعرفه غيرك وكثيرا مما يقصر عنه علم المخلوق يحيط به علم الخالق سبحانه

طاش الوهم طيشة فقال لو كان بطن الانسان مشققا مثل القبا لفتحه الطبيب اذا شاء فيعاين ما عرض من داء فيه ويدخل يده فيعالج ما اراد اصلاحه منه الم يكن اصلح من ان يكون مصمتا محجوبا عن البصر واليد لا الطبيب يعرف ما يعرض فيه الا بدلالات غامضة كمثل البول والجسة وما اشبه ذلك مما يكثر فيه الغلط والشبهة حتى يكون سبباً للموت . فقيل له لو هذا هكذا كان اول ما فيه انه كان يسقط على الانسان الوجل من الامراض وانتظار الموت فيستشعر البقاء والسلامة فيخرجه ذلك الى العتو والاشر وقساوة القلب كما ذكرنا مراراً. ثم كانت الرطوبات التى في البطن سترشح وتتحلب فيفسد علي الانسان مقعده ومرقده وثياب فضلته وزينته بل كان يفسد عليه عيشه . ثم ان المعدة والكبد والفؤاد انما تفعل افعالها بالحرارة الطبيعية المحتبسة في الجوف فلو كان فى البطن فروج تنفتح حتى تصل العين الى رؤيته واليد الى علاجه لوصل برد الهواء الى الجوف فباخت الحرارة الطبيعية وبطل عمل الاحشاء وكان في ذلك هلاكه. افلا تري ان كل ما تذهب اليه الاوهام سوي ما جاءت به الخلقة خطأ وخطل

(فكر فى هذه الأفعال الطبيعية) التى جعلت فى الأنسان تحمل من الطعم والنوم والجماع (١) وما دبر فيها فأنه قد جعل لكل واحد منها في الطباع لنفسه محرك

(١) هكذا ويظهران في العبارة تحريفاًوهي فى كتاب الحكمة فى المخلوقات للغزالي هكذا ثم فيما اى انظر فيما جبل عليه الانسان من الاحتياج الى المطعم والنوم والجماع ٠ وهي ظاهرة اه

يقتضيه ويستحث به فالجوع يقتضي الطعم الذي به حياة البدن وقوامه والكرى يقتضي النوم الذي هو راحة البدن وجموم قواه والشبق يقتضى الجماع الذي يكون به دوام النسل وبقاؤه . فلو كان الأنسان انما يصير الى اكل الطعام لمعرفته بحاجة بدنه اليه ولم يجد من طباعه شيئاً يحفزه لذلك كان خليقاً ان يتوانى عنه احيانا لشغل او كسل حتى ينحل بدنه فيهلك كما قد يحتاج المرء الى الدواء والعلاج او شيء مما يصلح بدنه فيدافع به حتى يؤديه ذلك الى المرض او الموت.

وكذلك لو كان انما يصير الى النوم بالفكر في حاجته الى راحة البدن واجمام قواه كان عسى ان يتثاقل عن ذلك ويدفعه حتى ينهك بدنه . ولو كان انما يتحرك للجماع بالرغبة فى الولد كان غير بعيد من ان يفتر عنه حتي يقل النسل او ينقطع فأن من الناس من لا يرغب في الولد ولا يحفل به .

فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التى بها قوام الأنسان وصلاحه محرك من نفس الطبيعة يحركه له ويحدوه عليه .

وقد وصفت الأطباء في كتب الطب القوى الأربع التى في البدن وافعالها فالجاذبة هي التى تتولى قبض الغذاء وايراده على المعدة . والممسكة هي التى تحبس الطعام ريثما يفعل الطعام فيه فعله . والهاضمة هي التى تطبخه وتستخرج صفوه وتبثه في البدن. والدافعة هي التى تحدر الثفل الفاضل بعد اخذ الهاضمة منه حاجتها. ففكر في تقدير هذه القوى للحاجة اليها والأرب فيها وما في ذلك من التدبير والحكمة فلولا القوة الجاذبة بم كان الانسان يتحرك لطلب الغذاء الذى به قوام البدن . ولولا الممسكة كيف كان الطعام يلبث فى الجوف حتي تهضمه المعدة ولولا الهاضمة كيف كان ينطبخ حتى يخلص منه الصفو الذى يغذو به البدن ويسد خلله . ولولا الدافعة بم كان الثفل الذى تخلّفه الهاضمة يندفع

ويخرج منه اولاً فأولاً .

افلا ترى كيف وكلت هذه القوى بالبدن والقيام بما فيه صلاحه فصار البدن بمنزلة دار الملك فيها له حشم وقوّام موكلون بالدار فواحد لاقتضاء حوايج الحشم وايرادها عليهم وآخر لقبض ما يرد وخزنه الى ان يعالج ويهيأ وآخر لعلاج ذلك ولتهيئة وتفرقته في الحشم وآخر لكسح ما في الدار من الاقذار والاقذاء واخراجه منها .

فالملك في هذا المثل هو الخلاق العليم مالك العالمين والدار هي البدن والحشم وهي الاعضاء والقوام هم هذه القوى الأربع . ولعلك ترى ذكرنا لهذه القوى وافعالها بعد الذى وصف في ذلك من كتب الطب فضلاً في القول وترديداً لأمر معروف وليس ذكرنا لهذه القوى على الجهة التى ذكرت في كتب الطب ولامذهبنا فيه ذلك المذهب لأن ذكرها هناك على مايحتاج اليه في صناعة الطب وتصحيح الأبدان وذكرها ههنا على ما يحتاج اليه فى صلاح الدين وشفاء النفوس وتصحيح الدين كالذى اوضحنا بالوصف الشافي والمثل المضروب من التدبير والحكمة فيها.

تأمل هذه القوى التى في النفس وموقعها من الأنسان اعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ وسائر ذلك افرأيت لو نقص الأنسان من هذه الخلال الحفظ وحده كيف كانت تكون حاله وكم من خلل كان سيدخل عليه في اموره اذا لم يكن يحفظ ماله وما عليه وما اخذ وما اعطى وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من احسن اليه ومن اساء اليه وما نفعه وماضره ثم كان لا يهتدى لطريق ولو سلكه مراراً لاتحصى ولا يعقل علماً لو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع ان يعبر شيئاً على ما مضى بل كان خليقا ان ينسلخ من الأنسية الى البهيمية .

(انظر الى النعمة على الانسان) كيف موقع الواحدة منها دون الجميع . واعجب

من هذه النعمة على الانسان فى الحفظ النعمة عليه في النسيان فأنه لولاه ماسلا احد عن مصيبة ولا نقصت له حسرة ولا مات له حقد ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ولا رجا غفلة من سلطان ولا فترة من حاسد افلا ترى كيف جعل فى الانسان الحفظ والنسيان هما مختلفان متضادان وجعل له فى كل واحد منهما ضرب من المصلحة وما عسى ان يقول الذين قسموا الاشياء بين خالقين متضادين وجعل له في هذه الاشياء المتضادة التى تراها تجتمع على ما فيه الصلاح والمنفعة .

فكر في هذا الخلق الذى خص به الانسان دون جميع الحيوان اعنى الحياء ما اكبر قدره واعظم غناه فلولا الحياء لم يقر الضيف ولم يوف بالعدات ولم تقض الحوائج ولم ينجز الجميل ولم يتنكب القبيح فى شيء من الاشياء حتى ان كثيراً من الامور المفترضة ايضاً انما تفعل للحياء فأن من الناس من لولا الحياء لم يرع حق والديه ولم يؤد امانة ولم يعف عن فاحشة . افلا ترى كيف وفّى الانسان جميع الخلال التى فيها صلاحه ورجاء اموره .

فكر فيما انعم الله تعالى به على الانسان فى هذا المنطق الذي يعبر به عما فى ضميره ويفهم عن غيره ما في نفسه ولولا ذلك كان بمنزلة البهيمة التى لا تخبر عن نفسها بشيء ولا تفهم عن مخبر شيئاً . وكذلك الكتاب الذى به تقيد اخبار الماضين الباقين واخبار الباقين للآتين وبه تجلد الكتب والعلوم والآداب وبه يعلق الناس ذكر ما يجرى بينهم من الحساب والمعاملات فلولا الكتاب انقطعت اخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست العلوم وضاعت الآداب وعظم ما يدخل على الناس من الخلل في امورهم والمعاملات التى تجرى بينهم واختل نظام العالم .

ولعلك ان تقول ان الكتاب مما يخلص الناس اليه بالحيلة والفطنة وليس مما اعطيه الانسان في خلقه وطباعه وكذلك الكلام انما هو شيء يصطلح عليه الناس

فيجرى بينهم فلذلك ما صارا يختلفان فى الامم المختلفة فلسان هؤلاء غير لسان او لئك وكتاب اولئك غير كتاب هؤلاء والامور الطبيعية ليس بين الناس فيها اختلاف. فنقول فى جواب ذلك انه وان كان للانسان فى الامرين جميعا فعل وحيلة فان الشئ الذى يبلغ ذلك الفعل والحيلة عطية وهبة من الله تعالى فى خلقته فانه لو لم يكن لسان مهيئ للكلام وذهن يهتدى به للأمور لم يكن ليتكلم ابداً . ولو لم يكن له كف واصابع مهيأة للكتاب لم يكن ليكتب ابداً واعتبر ذلك من البهايم التى لا كلام لها ولا كتاب .

(فكر فيما اعطى الانسان علمه) وما منع منه فأنه اعطى جميع ما فيه صلاح دينه ودنياه ومما فيه صلاح دينه معرفة الخالق بالدلايل والشواهد القائمة فى الخلق ومعرفة الواجب عليه من العدل على الناس وبر الوالدين واداء الامانة ومواساة اهل الخلة واشباه ذلك مما قد توجد معرفته والاقرار به في الطبع والفطرة في كل امة. وكذلك اعطى الانسان علم مافيه صلاح دنياه كالزراعة والغراسة واقتناء الاغنام والانعام واستنباط المياه ومعرفة العقاقير التى يستشفى بها من ضروب الاسقام والمعادن التى يستخرج منها انواع الجواهر وركوب السفن والغوص في البحر وضروب الحيل فى صيد الوحوش والطير والسمك والتصرف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب وغير ذلك مما فيه صلاح امر محياه في هذه الدنيا فاعطى كل ما وصفناه من علم ما يصلح به دينه ودنياه ومنع ما سوى ذلك مما ليس من شأنه ولا في طبعه ان يعلمه كعلم الغيب وما هو كائن وبعض ما قد كان ايضاً كعلم ما فوق السماء وما تحت الارض وفي لجج البحار واقطار العالم وما في قلوب الناس وما في الارحام واشباه ذلك مما حجب عن الناس علمه فأنه وان كان اناس ادعوا علم هذه الامور فقد تبطل دعواهم بمايتبين من

خطئهم فيما يقضون عليه ويدعون علمه . فانظر كيف اعطى الانسان علم جميع ما يحتاج اليه لدينه ودنياه وحجب عنه ما سوى ذلك ليعرف قدره ونقصه وكلا الامرين لما فيه صلاحه .

(ومما ستر على الانسان علمه مدة حياته) فأنه لو عرف مقدار عمره وكان قصيراً لم يتهن بالعيش مع ترقب الموت بل كان بمنزلة من قد فنى ماله اوقارب الفناء فقد استشعر الفقر والوجل منه على ان الذي يدخل على الانسان من فناء العمر اكثر مما يدخله من فناء المال لأن من فقد ماله يؤمل ان يستخلف عليه منه فيسكن الى ذلك ومن ايقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس . وان كان طويل العمر عرف ذلك ووثق بالبقاء فانهمك في اللذات والمعاصى وعمل على انه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب في آخر عمره وهذا مذهب لا يرضاه الله سبحانه من العباد ولا يقبله . الا ترى ان العبد لو عمل على ان يسخط مولاه سنة ويرضيه يوماً او شهراً لم يقبل ذلك منه ولم يحل عندك محل العبد الصالح دون ان يضمر طاعتك ونصحك فى كل الاوقات وعلى كل الحالات

فأن قلت اوليس قد يقيم الانسان على المعصية حيناً ثم يتوب فيقبل ذلك منه قلنا ان ذلك شيء يكون من الأنسان بغلبة له من الشهوات ونزوعه عنها من غير ان يقدره فى نفسه ويبنى امره عليه فيصفح الله عنه ويتفضل عليه بالمغفرة لمعرفته بضعف جوهره فأما من قدّره امرُه على ان يعصى الله تعالى ما بداله ثم يتوب في آخر ذلك فأنما يحاول خديعة من لا ينخدع بأن يتسلف التلذذ فى العاجل ويعد بالتوبة في الآجل لعله لا يفى بما يعد من ذلك فأن النزوع عن الترفه والتلذذ آيس من معاناة التوبة ولا سيما عند الكبر وضعف البدن فأنه امر صعب فكان لا يؤمن على الأنسان ان يدافع التوبة حتى يرهقه الموت (او يعوقه عائق)

فيخرج من الدنيا غير تائب كما قد يكون على المرء دين الى اجل وهو يقدر على قضائه ولا يزال يدافع حتى يحل الأجل وقد نفد المال فيبقى الدين قائما عليه. فكان خير الأشياء للأنسان ان يستر عنه مبلغ عمره فيكون طول عمره يترقب الموت فينكل عن المعاصى ويؤثر العمل الصالح .

فأن قلت فها هو الآن وقد ستر عنه مقدار حياته وصار يترقب الموت كل ساعة يقارف الفواحش وينتهك المحارم قلنا ان وجه التدبير فى هذا الباب هو الذي جرى عليه الأمر فيه فأن كان الأنسان مع هذا لا يرعوى ولا ينصرف عن المساوى فأنما ذاك من مرحه وقساوة قلبه لا من خطأ التدبير كما ان الطبيب قد يصف للمريض ماينتفع به فأن كان المريض مخالفا للطبيب لا يعمل بما يأمره ولا ينتهى عما ينهاه عنه فلم ينتفع بصفته لم تكن الأساءة فى ذلك للطبيب بل للمريض حين لم يقبل ذلك منه . ولئن كان الانسان مع ترقبه الموت كل ساعة لا يمتنع من المعاصي فأنه لو وثق بطول البقاء كان احرى ان يخرج الى الكبائر الفظيعة فترقبُ الموت على كل حال خير من الثقة بالبقاء .

ثم ان ترقب الموت وان كان صنف من الناس ينهون عنه ولا ينتفعون به فقد ينتفع به صنف آخر من الناس فينزعون عن المعاصى ويؤثرون العمل الصالح ويجودون بالأموال والعقد النفيسة فى الصدقة على الفقراء والمساكين فلم يكن من العدل ان يحرم هؤلاء من الأنتفاع بهذه الخلة لتضييع اولئك حظهم منها

(فكر في الأحكام كيف دبر امرها) فمزج صادقها بكاذبها فانها لو كانت كلها تصدق كان الناس كلهم انبياء ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة بل كانت فضلاً لا معنى لها فصارت تصدق احيانا لينتفع بها الناس فى مصلحة يهتدى بها او مضرة يتحرز منها وتكذب كثيراً لئلا يعتمد عليها كل الأعتماد .

فكر فى هذه الأشياء التى تراها موجودة معدة فى العالم من ارب الأنسان فالتراب للبناء والحديد للصناعات والخشب للسفن والحجارة للأرحاء والنحاس للأوانى والفضة للمعاملة والجواهر للذخر والحبوب للغذاء والثمار للتفكه واللحوم للمآكل والطيور للتلذذ والأدوية للتصحح والدواب للحمولة والحطب للوقود والرماد للكلس والزبل للأرض وكم عسى ان يحصى المحصى من هذا وشبهه

افرأيت لو ان رجلاً دخل داراً فنظر الى خزائن مملوءة من كل ما يحتاج اليه الناس ورأى كل ما فيها مجموعة معدّة لأنسان معروف ما كان يتوهم ان هذا يكون بالأهمال من غير عمد فكيف يستجيز قائل ان يقول هذا فى العالم وما اعد فيه من الأشياء .

فكر فى اشياء خلقت لمآرب الأنسان وما فيها من التدبير فأنه خلق الحب لطعامه وكلفه طحنه وعجنه وخبزه وخلق له القطن والوبر لكسوته وكلفه بندفه وغزله ونسجه وخلق له الشجر لفواكهه وكلف غرسه وسقيه والقيام عليه وخلقت العقاقير لأدويته وكلف القطها وخلطها وصنعتها وكذلك تجد الأشياء على هذا المثال.

فانظر كيف كفى الخلقة التي لم تكن عنده فيها حياة وترك عليه فى كل شيء من الأشياء موضع الحركة لما له في ذلك من الصلاح لأنه لو كفى هذا كله حتى لا يكون له في الأشياء موضع شغل وعمل لما حملته الأرض اشراً وبطراً وابلغ ذلك كله به الى ان يتعاطى اموراً فيها تلف نفسه ولو كفى الناس كل ما يحتاجون لما تهنوا بالعيش ولا وجدوا له لذة . الا ترى ان امرأً او نزل بقوم فأقام حتى يكفى جميع ما يحتاج اليه من مطعم ومشرب وخدمة تبرم بالفراغ ونازعته نفسه الى التشاغل بشيء فكيف لو كان طول عمره يكفى لا يحتاج الى شيء .

فكان من صواب التدبير فى هذه الاشياء التى خلقت للانسان ان يجعل له فيها موضع شغل لكيلا تبطره البطالة وليكفه الشغل عن تعاطي ما لا يناله ولا خير له فيه ان ناله.

قال ابن شبرا في حكمته رأس معاش الانسان الخبز والماء . وهذا كما قال ولكن انظر كيف دبر الامر فيهما فأن حاجة الانسان الى الماء اشد من حاجته الى الخبز وذلك ان صبره على الجوع اكثر من صبره على العطش والذى يحتاج اليه من الماء اكثر مما يحتاج اليه من الخبز فأنه يحتاج الى الماء لشربه ووضوءه وغسل ثيابه واوانيه وسقى انعامه وزروعه فجعل الماء مبذولاً لا يشترى بثمن لتسقط عن الانسان المؤنة فى طلبه وتكلفه وجعل الخبز مقدراً لا ينال الا بالحيلة والحركة ليكون للانسان فى ذلك شغل يكفه عما يخرجه اليه الفراغ من الاشر والعبث .

اما ترى الصبي يدفع الى المؤدب وهو طفل لما يكامل ذهنه فيعلم ذلك ليشغل عن اللعب والعبث الذى ربما خشي عليه وعلى اهله المضرة العظيمة وهكذا الانسان لو خلا من الشغل يخرج من العبث والأشر الى ما يعظم ضرره عليه وعلى من قرب منه واعتبر ذلك بمن نشأ فى جدة ورفاهية العيش وما يخرجه اليه الترفه والكفاية ولو كان الأنسان لا يصيبه الم ولا وجع أكان يرتدع عن الفواحش ويتواضع لله ويعطف على الناس . الا ترى انه حين يعرض له وجع تخضّع واستكان ورغب الى ربه فى العافية وبسط يده بالصدقة فلو كان لا يألم من الضرب بم كان السلطان يعاقب الدعار ويذل العتاة المردة وبم كان الصبيان يتعلمون العلوم والصناعات وبم كان العبيد يذلون لاربابهم ويذعنون لطاعتهم افليس في هذا توبيخ للمعطلة الذين جحدوا التدبير والمنانية الذين نقموا الالم والوجع .

اولم يلد من الحيوان الاذكور فقط او اناث فقط الم يكن سينقطع النسل وتبيد اجناس الحيوان فلم صار بعض الاولاد يأتي ذكراً وبعضها اناثاً الا ليدوم التناسل ولا ينقطع .

لو رأيت تمثال انسان مصور في حائط فقال لك قائل أن هذا ظهر من تلقاء نفسه ها هنا لم يصنعه صانع الم تكن تستهزئ به فكيف ينكر هذا فى تمثال كالخيال

ولا ينكره في الانسان الحي الناطق . لم صارت ابدان الحيوان وهى تغتذي ابداً لا تنمو ابداً بل تنتهي الى غاية من النمو ثم تقف لولا التدبير في ذلك فأن من التدبير الحكيم فيها ان يكون ابداً ان كل صنف منها على مقدار معلوم غير متفاوت في الكبر والصغر فصار ينمو حتى ينتهي الى غاياتها ثم يقف والغذاء مع ذلك قائم لا ينقطع ولو كانت تنمو نموّا دائما لعظمت ابدانها واشتبهت مقاديرها حتى لا يكون لشيء منها حد معروف . ثم كانت اجسام الانس خاصة تستثقل عن المشي والحركة وتجفو عن الصناعات اللطيفة وتعظم المؤنة فيما يحتاج اليه الملابس والمضجع والتكفين فحسم هذا كله بأن جعلت تنمو حتى تنتهي الى مقاديرها فتقف عندها ولا تعدوها .

لم لا يتشابه الانسان واحداً بالآخر كما تتشابه الطير والوحش وغير ذلك فانك ترى السرب من الظباء او القطا تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر. وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم حتى لا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة . والعلة في ذلك ان الناس يحتاجون الى ان يتعارفوا بأعيانهم وحليتهم لما يجرى بينهم من المعاملات وليس يجرى بين البهايم مثل هذا فيحتاج الى معرفة كل واحد بعينه وحليته الا ترى ان المتشابه فى الطير والوحوش لا يضرها شيء وليس كذلك الانسان فأنه ربما تشابه التوأمان تشابها شديداً فتعظم المؤنة على الناس في معاملتهما حتى يعطى احدهما مال الآخر ويؤخذ احدهما بذنب الآخر. وقد يحدث مثل هذا فى تشابه الاسماء فضلا عن تشابه الصور. فمن لطف هذه الدقايق التى لا تكاد تخطر بالبال حتى وقف بها على الصواب الامن وسعت حكمته كل شيء .

لم صار الرجل والمرأة اذا ادركا جميعا نبت لهما العانة ثم تنبت للرجل اللحية وتتخلف عن المرأة لولا التدبير في ذلك فأنه دبر ان يكون الرجل قيما ورقيبا

على المرأة وتكون المرأة عرساً دخولاً له .

اعطى الرجل اللحية لما له فيها من العز والجلالة والهيبة ومنعت المرأة ليبقى فيها نضارة الوجه والبهجة التي تشاكل المفاكهة والمباضعة . افلا ترى الخالقة كيف يتم لها الصواب في الاشياء فتعطى وتمنع على حسب الارب والمصلحة .

وصف الحكماء بأن الطبيعة لا تفعل شيئاً لغير معنى ولا تقصر عما فيه تمام الشيء في طبقته والمحنة تشهد له بذلك فمن اعطي الطبيعة هذه الحكمة والوقوف على حدود الاشياء فلا تجاوزة لها ولا تقصر عنها وهذا ما قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب . فأن اوجبت للطبيعة الحكمة والقدرة على مثل هذه الافعال فقد اقررت بما انكرت لان هذه هى صفة الخالق وان انكرت ان تكون هذه للطبيعة بدا وجه الحق يهتف بأن الفعل للخلاق العظيم الحكيم .

وقد كانت من القدماء طائفة انكرت العمد والتدبير فى الاشياء وزعموا ان كونها بالعرض والاتفاق كمثل دياغوروس وافيقوروس واناس من الطبيعيين فكان مما احتجوا بها هذه الآيات التى تولد على مجرى الطبيعة كالأنسان الذى يولد ناقصاً يداً او زائداً اصبعا او يولد مشوها مبدل الخلق . قالوا فهذا دليل على ان كون الانسان ليس من تعمد ولا تقدير بل لعرض وكيف اتفق ان يكون .

فرد عليهم ارسطاطاليس وغيره من الفلاسفة فقالوا ان الذى يكون بالعرض والاتفاق انما هو شيء يأتى فى الفرط مرة لاعراض تعرض للطبيعة فتزيلها على سبيلها وليس بمنزلة الامور الطبيعية الجارية على شكل واحد جريانا دائما متتابعاً ونحن نرى اصناف الحيوان تجرى على اكثر ذلك على مثال ومنهاج واحد كالأنسان يولد وله يدان ورجلان وخمس اصابع وغير ذلك مما عليه الجمهور من الناس . فأما ما يولد على خلاف ذلك فأنما هو لعلة تكون فى الرحم او في المادة

التى منها ينشق الجنين كما قد يعرض فى الصناعات حتى تعمد الصانع الصواب فى صنعته فيعوق دون ذلك عائق من الفساد في الاداة او في الآلة التى يعمل بها الشئ وقد يحدث مثل ذلك فى اولاد الحيوان للاسباب التى وصفنا فيأتى الولد ناقصاً او زائداً او مشوها ويسلم اكثرها فيأتى سويا لا علة فيه فكما انه يحدث على بعض اعمال الصناعة لاعراض تعرض فيه ولا يجوز عليها اجمع الاهمال وعدم الصنعة. كذلك ما يحدث على بعض الافعال الطبيعية العايق يدخل عليه لا يوجب على جميعها ان يكون بالعرض والاتفاق. وقول القائل في الاشياء ان كونها بالعرض والاتفاق من قبل ان شيئاً منها يأتى على خلاف الطبيعة حتى لعرض يعرض له خطأ وجهل.

فأن قلت ولم صار هذا الحدث فى الاشياء قلت انه ليس كون الاشياء ايضاً باضطرار من الطبيعة حتى لا يمكن ان يكون سواه كما قال القائلون بل هو بتقدير وعمد من الخالق اذ جعل الطبيعة تجرى اكثر ذلك على مجرى منهاج معروف وتزول احيانا عن ذلك لاعراض تعرض لها فيستدل بذلك على انها مصرّفة مدبرة فقيرة الى ارادة الخالق وقدرته في بلوغ غايتها واتمام عملها.

اتخذ اناس هذه الآفات الحادثة في بعض الازمان كمثل الوبا واليرقان والبرد والجراد ذريعة الى جحود الخالق والتدبير. فيقال في جواب ذلك انه ان لم يكن خالق مدبر فلم لا يكون اكثر من هذا وافظع من ذلك ان تقع السماء على الارض وتهوى الارض فتذهب سفلا وتتخلف الشمس عن الطلوع اصلاً وتجف الانهار والعيون حتى لا يوجد ماء لشفة وتركد الريح حتى تختمر الاشياء وتفسد ويفيض ماء البحار على الارض فيغرقها وهذه الآفات التى ذكروا من الوبا والجراد وما اشبه ذلك ما بالها لا تدوم وتمتد حتى تجتاح كل ما في العالم بل تحدث فى الاحايين

ثم لا تلبث ان ترفع. افلا ترى ان العالم يصان ويحفظ من تلك الآفات الجليلة التي ان حدث شيء عليه منها كان فيه بواره ويلدغ احيانا بهذه الآفات اليسيرة لتأديب الناس وتقويمهم ثم لا تترك هذه الآفات ان تدوم بل تكشف عنهم عند القنوط منهم فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة .

قد تنكر المعطلة ايضاً ما انكرت المنانية من المكاره والمصائب التي تصيب الناس فكلاهما يقول ان كان للعالم خلاق رؤف رحيم فلم تحدث فيه هذه الامور المكروهة والقائل بهذا القول يذهب الى انه ينبغي ان يكون عيش الانسان فى هذه الدنيا صافياً من كل كدر ولو كان هذا هكذا لقد كان الانسان سيخرج من الاشر والعتو الى ما يصلح له معه دين ولا دنيا كالذي ترى كثيراً من الامراء المترفين ومن نشأ فى الجدة والامن يمرحون حتى ان احدهم ينسى نفسه انه بشر مربوب وان ضيرا يمسه او مكروها ينزل به وانه يجب عليه ان يرحم ضعيفا او يواسي فقيرا او يرثى لمبتلي او يتعطف على مكروب. فأذا عضته المكاره ووجد مضضها اتعظ وابصر كثيراً مما قد كان غافلا عنه ورجع الى كثير مما كان يجب عليه. والمنكرون لهذه الامور المؤذية بمنزلة الصبيان الذين يذمون الادوية المرة البشعة ويتسخطون المنع من الاطعمة الضارة ويتكرهون الادب والعمل ويحبون ان يفرغوا للهو والبطالة ويباحوا كل مطعم ومشرب ولا يعرفون ما تؤديهم اليه البطالة من سوء النشؤ والسيرة والعادة وما تعقبهم الاطعمة الضارة من الادواء والاسقام وما لهم في الادب من الصلاح وفي الادوية البشعة من المنفعة وان شاب ذلك بعض الكراهة. فأن قالوا ولم لم يكن الانسان معصوما حتى لا يحتاج الى تلديغه بهذه المكاره قلنا اذا كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها ولا يستحق للثواب

عليها . فان قالوا وما كان يضره الا يكون محموداً على الحسنات مستحقاً للثواب بعد ان يصير الى غاية النعم واللذة قلت اعرضوا على امرئ صحيح الجسم والعقل ان يجلس منعما ويكفى كل ما يحتاج اليه بلا سعى واستحقاق فانظروا هل تقبل نفسه ذلك بل ستجدونه بالقليل مما يناله بالسعى والحركة اشد سروراً واغتباطاً منه بالكثير مما يناله بلا استحقاق. وكذلك نعيم الآخرة انما يكون لاهله بأن ينالوه بالسعى والاستحقاق له والنعمة على الانسان مضاعفة بان فى هذا الباب اعدله الثواب الجزيل على سعيه فى هذه الدنيا وجعل له السبيل الى ان ينال ذلك بسعى واستحقاق فيكمل له السرور والاغتباط بما يناله .

فأن قالوا اوليس قد يكون من الناس من يركن الى ما نال من خير وان كان لا يستحقه فما الحجة فى منع ذلك من رضي ان ينال نعيم الآخرة على هذه الجهة (قلنا) ان هذا باب لو فتح للناس لخرجوا الى غاية الكلب والضراوة على الفواحش وانتهاك المحارم فمن كان يكف نفسه عن فاحشة او يتحمل المشقة في باب من ابواب البر لو وثق انه صائر الى النعيم لا محالة او من كان يأمن على نفسه واهله وماله لو امن الناس والحساب والعقاب فكان ضرر هذا الباب سينال الناس فى هذه الدنيا قبل الآخرة ثم كان يستوى الأبرار والفجار في الدنيا والآخرة فيكون في ذلك تعطيلا للعدل والحكمة معاً وموضعا للطعن على التدبير بخلاف الصواب ووضع الأمور في غير مواضعها .

وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التى تصيب الناس تعم البر والفاجر ايضاً ويبتلى البر ويسلم منها الفاجر فيقولون كيف يجوز هذا فى التدبير من الحكيم وما الحجة فى ذلك . فنقول في جواب ذلك ان الآفات وان كانت تنال الصالح والطالح جميعا بلا تمييز فأن الله تعالى يجعل في ذلك صلاحاً للصنفين كليهما .

اما الصالحون فلأن الذى لمسهم من هذا يذكرهم نعم ربهم عندهم في سالف ايامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر . واما الطالحون فأن مثل هذا اذا نالهم كسر شرتهم وورعهم عن المعاصى وعن الفواحش . وكذلك يجعل لمن سلم منها من الصنفين صلاحا في ذلك .

اما الأبرار فأنهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح . واما الفجار فأنهم يعرفون رحمة ربهم وتطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس والصفح عمن اساء اليهم .

ولعلك تقول اترك هذا فى الآفات التى تصيب الناس فى اموالهم ارأيت ما يبتلون به في ابدانهم فيكون فيه تلفهم كمثل الحريق والسيل والخسف ما الحجة في ذلك فنقول ان الله تعالى يجعل في هذا ايضا صلاحا للصنفين جميعا اما الأبرار فلما لهم فى مفارقة هذه الدار من الراحة من تكاليفها والنجاة من مكارهها . واما الفجار فلما لهم في ذلك من تمحيص اوزارهم وحسمهم عن الأزدياد منها .

وجملة القول ان الخالق تعالى يصرف هذه الأمور كلها الى الخير والمنفعة فكما انه اذا قلعت الريح شجرة او قصفت نخلة اخذها الصانع الرفيق فاستعملها الى ضروب المنافع كذلك يفعل المدبر الحكيم في الآفات التى تنزل بالناس في ابدانهم واموالهم فيصرفها اجمع الى الخير والمنفعة .

فأن قلت ولم يحدث على الناس مثل هذه الاحداث قلنا لكيلا يركنوا الى طول السلامة فيغلو الفاجر في الركون الى المعاصى ويفتر الصالح عن الأجتهاد في البر فأن هذين الأمرين جميعا يغلبان على الناس فى حال الخفض والدعة وهذه الحوادث التى تحدث عليهم تذعنهم وتنبههم على ما فيه رشدهم ولو خلوا منها لغلوا في الطغيان والمعصية كما غلوا في اول الزمان حتي وجب عليهم البوار بالطوفان وتطهير الأرض منهم .

ومما ينقمه الجاحدون للتدبير في الموت والفناء فأنهم يذهبون الى انه ينبغي ان يكون الناس مخلدين في هذه الدنيا مبرئين من الآفات فقد ينبغي ان نسوق هذا القول الى غايته فننظر ما محصوله افرأيت لو كان كل رجل دخل العالم ويدخله يبقون فلا يموت احد منهم الم تكن الأرض ستضيق بهم حتى تعوزهم المساكن والمزارع والمعايش افليس لو كانوا لا يفنيهم اولاً فأولاً يتنافسون في المساكن والمعاش وحتى تنشب بينهم في ذلك الحروب وتسفك فيه الدماء وكيف تكون حالتهم لو كانوا يولدون ولا يموتون. هذا الى ما كان سيغلب عليهم من الحرص والشره وقساوة القلوب فأنهم لو وثقوا بأنهم لا يموتون لما قنع احد بشيء يناله ولا يفرح احد عن شيء ينيله ولا يفرح عن شيء سيناله . ولا يسألون عن شيء يحدث عليهم ثم كانوا يملون الحياة وكل شيء من امور الدنيا كما قد يمل الحياة من طال عمره حتي يتمنى الموت والراحة من الدنيا .

فأن قالوا انه كان ينبغي ان ترفع عنهم المضار والأوصاب حتى لا يتمنوا الموت فلا يتوقوا اليه فقد وصفنا ما كان هذا مخرجهم اليه من العتو والأشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدين والدنيا .

فأن قالوا انه كان ينبغي ان لا يتوالدوا كي لا يضيق عليهم المساكن والمعايش قلنا اذاً كانوا يحرم اكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله ومواهبه في الدارين جميعا اذا لم يدخل العالم الاقرن واحد لا يتناسلون ولا يتوالدون .

فأن قالوا كان يخلق في ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ويخلق الى انقضاء العالم رجع الأمر الى ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعاش عنهم ثم لو كانوا لا يتوالدون ولا يتناسلون ذهب موضع الأنسان بالقرابات وذوى الارحام والانتصار بهم عند الشدائد وموضع تربية الاولاد والسرور بهم ففي هذا دليل

على ان ماتذهب اليه الاوهام سوى ماجرى به التدبير خطأ وسفال من الرأى والقول.
ولعل طاعناً يطعن على التدبير من جهة اخرى فيقول كيف يكون ههنا تدبير ونحن نرى الناس في هذه الدنيا من عزيز وضعيف فالقوى يظلم ويغضب والضعيف يُظلم ويسام الخسف والصالح فقير مبتلى والفاسق معافي موسع عليه فمن ركب فاحشة وانتهك محرما لم يعاجل بالعقوبة فلو كان فى هذا العالم تدبير لجرت الامور على القياس القائم وكان الصالح هو المرزوق والطالح هو المحروم وكان القوي يمنع من ظلم الضعيف والمنتهك للمحارم يعاجل . فنقول في جواب ذلك ان هذا لو كان هكذا لذهب موضع الاختيار والتجربة التي فضل بها الانسان وحمل النفس على البر والعمل الصالح احتساباً للثواب وثقة بما وعد الله منه ولصار الناس بمنزلة الدواب التي تساس بالعصا والعلف ويلمع لها لكل واحد منها ساعة فساعة فتستقيم على ذلك ولم يكن احد يعمل على يقين بثواب او عقاب حتى كان يخرجهم من حد الأنسية الى حد البهايم التى لا تعرف ما غاب ولا تعمل الا على الحاضر وكان يحدث منها ايضاً ان يكون الصالح انما يعمل الصالحات للرزق والسعة فى هذه الدنيا ويكون الممتنع من الظلم والفواحش انما يعفو عن ذلك لترقب عقوبة نازلة تنزل به من ساعة حتى تكون افعال الناس كلها تجرى على الأمر الحاضر لا يشوبها شيء من اليقين بما عند الله ولا تستحق ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها مع ان هذه الامور التى ذكرها الغنا والفقر والعافية والبلا ليست بجارية على افعال القياس ابداً بل قد تجرى احياناً على القياس والأمر المفهوم فقد نرى كثيراً من الناس الصالحين يرزقون المال لضرب من التقدير ولكن لا يسبق الى قلوب الناس ان الفساق هم المرزوقون والأبرار هم المحرومون فيؤثرون الفسق على الصلاح ونرى كثيراً من الفساق يعاجلون بالعقوبة اذا تفاقم

طغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى انفسهم كما عوجل فرعون بالغرق وبنو اسرائيل بالتيه وبختنصر بالقتل. وان امهل بعض الأشرار بالعقوبة وأخر بعض الأخيار بالثواب الى الدار الآخرة لأسباب تخفى على العباد لم يكن هذا مما يبطل التدبير فأن مثل هذا قد يكون من ملوك الأرض ايضاً فلا يبطل تدبيرهم بل يكون تأخيرهم ما اخروا وتعجيلهم ما عجلوا داخلاً في صواب الرأي والتدبير.

ثم نقول ايضاً انه كان القياس يوجد والشواهد تشهد بأن للأشياء خالقاً حكيما قادراً فما يمنعه ان يدبر خلقه فأنه لا يصح في القياس ان يكون الصانع يهمل صنعته الا لأحدى خلال ثلاث اما عجز واما جهل واما شرارة وكل هذا محال فى صفة الخالق القديم تعالى ذكره وذلك ان العاجز لا يستطيع ان يأتى بمثل هذه الخلائق العجيبة الجليلة والجاهل لا يهتدى لما فيها من الصواب والحكمة والشرير لا يتطول بخلقها وانشائها.

فاذا كان هذا هكذا وجب ان يكون الخالق لهذه الخلائق يدبرها لا محالة وان كنا لاندرك كنه ذلك التدبير ومجاريه فأن كثيراً من تدبير الملوك ايضاً لا يفهمه العامة ولا تعرف اسبابه لأنه لا يعراف داخلة امر الملوك واسرارهم فأذا عرف سببه وجد صوابا قائماً على القياس والمحنة

لو شككت في قوة بعض الادوية والأطعمة فتبين لك من وجهين او ثلاثة انه حار او بارد الم تكن تقضى عليه بذلك وتنفى الشك فيه عن نفسك فمابالك لا تقضى على العالم بالخلق والتدبير مع هذه الشواهد الكثيرة واكثر منها مالا يحصى كثرة. لو كان نصف مافى العالم مشكلا صوابه لما كان من حزم الرأي وسنة الادب ان تقضي على العالم بالأهمال لانه لو كان فى النصف الآخر وما يظهر من فيه الصواب والاتقان ما يزع الوهم عن التسرع الى هذه القضية فكيف

وكل ما فيه اذا فتش وجد علي غاية الصواب حتى انه لا يخطر بالبال شيء الا وجد ما عليه الخلقة اصح واصوب منه .

اعلمت ما اسم العالم بلسان اليونانية فأن اسمه جارى المعروف باليونانية قُوسْموس وتفسير قوسموس الزينة وكان المسمى له بهذا الاسم فيما يزعمون فيثاغوروس الفيلسوف ثم جرى عليه الفلاسفة والناس من بعد .

افكان الحكماء والفلاسفة يسمونه بهذا الاسم الا لما رأوا فيه من التقدير والنظام مع انهم لم يرضوا ان يسموه تقديراً ونظاماً حتى سموه زينة ليخبروا انه مع ما هو عليه من الصواب والأتقان في غاية الحسن والبهاء .

العجب من قوم لا يقضون على صناعة الطب بالخطأ وهم يرون الطبيب يخطئ ويقضون على العالم بالأهمال ولا يرون شيئاً مهملاً . لا تتعجب من الجلف الجافى (دوسى) حين جهل موضع الحكمة فى الخلق حتى ارسل لسانه بالذم له ولكن تعجب من المخذول (مانى) الذى ادعى انه اوتي علم الأسرار حيث عمي عن دلائل الحكمة في الخلق حتى نسبه الى الخطأ ونسب خالقه الى الجهل تبارك وتعالى الحكيم الكريم .

واعجب من هذين جميعا المعطلة الذين راموا ان يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل فلما اعوزهم ذلك خرجوا الى الجحود والتكذيب قالوا ولم لا يدركه العقل قلنا لأنه فوق مرتبة العقل كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته . فأنك لو رأيت حجرا يرتفع في الهواء لعلمت ان راميا رمى به وكان الذي ادرك البصر من ذلك ذهاب الحجر علوا فأما علمك ان راميا رمى به فليس من قبل البصر بل من قبل العقل لأن العقل هو الذى يميز فيعلم ان الحجر لا يذهب علوا من تلقاء نفسه افلا ترى كيف وقف البصر علي حده فلم يتجاوزه فكذلك يقف

العقل على حده من معرفة الخالق فلا يعدوه .

قالوا فلسنا نعقله اذاً قلنا بلى عقل اقرار وليس عقل احاطة كما قد يعلم الانسان ان فيه نفسا وهو لا يعاينها ولا يدركها بحاسة من الحواس ومن امثال ذاك ايضاً النقطة التي لا جزء لها فأنها تجب في العقل بأضطرار من قبل انه لا بد من ان يكون بدء الخط من نقطة ولا يمكن ان تظهر للحس لأن النقطة الواقعة تحت الحس متجزئة لا محالة . وكذلك يقول اصحاب علم الهندسة ان المثلثة الصحيحة هي التي يوجبها القياس باضطرار فأما المخطوطية فالخطوط الواقع عليها الحس فلا يخلو من ان يدخلها شيءٌ من الخلل وان اجتهد مجتهد في اقامتها . وعلى حسب هذا نقول ان العقل يعرف الخالق من جهة العبرة والدلالة لا من جهة الحس والأحاطة وبالجملة انه يعرفه من جهة ما يوجب عليه الأقرار به ولا يعرفه من جهة ما يوجب الأحاطة بصفته .

قالوا فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته والعقل اللطيف لا يحيط به (قلنا) انما يكلف العباد من ذلك ما في طاقتهم ان يبلغوه وهو ان يوقنوا به ويقفوا عند امرهم ولم يكلفوا الاحاطة به وبصفاته كما ان الملك لا يكلف رعيته ان يعلموا اطويل هو ام قصير وابيض هو ام اسمر انما يكلفهم الاذعان لسلطانه والانتهاء الى امره . الا ترى ان رجلاً لو اتى باب ملك فقال اعرض عليَّ نفسك حتى اتقصى معرفتك والا لم اسمع لك كان قد احل بنفسه العقوبة فهكذا القائل انه لا يقر بالخالق حتى يحيط بكنهه متعرض لسخطه .

قالوا افليس قد نصفه فنقول هو العزيز الحكيم الجواد قلنا كل هذا صفات اقرار واعتراف وتثبيت وليست بصفات احاطة فأنا نعلم انه حكيم ولا نحيط بكنه ذلك منه . وكذلك قدير وجواد وسائر صفاته كما قد نرى السماء ولا ندري ما جوهرها ونرى البحر ولا ندري اين منتهاه بل هو فوق هذه الامثال لانهاية له

لأن الامثال كلها تقصر عنه ولكنها تقود العقل الى معرفته .

قالوا فلم نختلف فيه قلنا لقصر الاوهام عن مدى عظمته وتعديها اقرارها في طلب معرفته وانما تروم الاحاطة به وهى تعجز عن ذلك فيما دونه .

فمن ذلك هذه الشمس التى نراها تطلع على العالم كل يوم ولا نقف على حقيقة امرها ولذلك كثرت الاقاويل فيها واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها فقال اركمندروس هى فلك اجوف مملوء ناراً له فم يجيش بهذا الوهج والشعاع وقال كسيومانيس هو اجتماع اجزاء نارية يدفعها البخار الرطب . وقال اركسمانيس هو سحابة ملتهبة . وقال فيلاغوس الفيثاغورى هو جسم زجاجي يقبل نارية العالم ويرسل عليها شعاعه وقال الاسطوانقون هو جوهر لطيف يتصعد من البحر وقال افلاطون هو اجزاء كثيرة مجتمعة من النار وقال ارسطاطاليس هو من جوهر خامس سوى الجواهر الاربعة .

ثم اختلفوا فى شكلها ايضاً فقال اركسمانيس هو بمنزلة صفيحة عريضة وقال الاسطوانقون هى كالكرة المدحرجة وقال ارسطاطاليس مثل ذلك .

وكذلك اختلفوا في مقدارها فزعم انكسمندوس انها مثل الارض سواء . وقال انكسيمانس بل هي اقل من ذلك . وقال انكساغورس هى اعظم من الجزيرة العظيمة وقال ابرقليطوس هى مقدار قدم الانسان وقال اصحاب الهندسة هى اضعاف مائة وسبعين مرة من الارض .

ففى اختلاف هذه الاقاويل منهم في الشمس التى يقع عليها البصر ويدركها الحس دليل على انهم لم يقفوا علي الحقيقة من امرها . فأذا كانت هذه الشمس التى يقع عليها البصر ويدركها الحس قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها منكم فكم فبالحري ما لطف عن الحس واستتر عن الوهم .

قالوا ولم استترقلنا انه لم يستتر بحيلة تخلص اليها كمن يحتجب عن الناس بالابواب والستور انما معنى قولنا انه استتر انه لطف عن مدى ما يبلغه الاوهام كما لطفت النفس وارتفعت عن ارتفاعها بالبصر .

فأن قلت لم لطف وتعالى كان ذلك خطأً من القول لانه لا يليق بالذى هو علة كل شيء الا ان يكون فائقاً لكل شيء متعاليا عن كل شيء . قلنا ان الذى تطلب معرفته من الاشياء اربعة اوجه اولها ان ينظر اموجود هوام ليس موجوداً والثاني ان يعرف ما هو في ذاته وجوهره والثالث ان ينظر كيف هو وما صفته والرابع لماذا ولأية علة فليس في هذه الوجوه شيء يمكن المخلوق ان يعرفه من الخالق حق معرفته خلا انه موجود فقط فأما ما هو وكيف هو فيمتنع عليه كنهه وكمال المعرفة به . واما لماذا فهو ساقط في صفة الخالق لانه علة كل شيء وليس شيء بعلته . ثم ليس علم الانسان بأنه موجود وجب له ان يعلم ما هو وكيف هو كما ان علمه بوجود النفس لا يوجب له ان يعلم ما هي وكيف هي وكذلك الامور الروحانية اللطيفة .

قالوا افرطتم فيما تصفون من قصور العلم عنه حتى كأنه غير معلوم قلنا كذلك هو من جهة اذا رام العقل معرفة كنهه والأحاطة به وهو من جهة اخري اقرب من كل قريب اذا استدل عليه بالدلائل الشافية . وقد قال ارسطاطاليس فى الجواب شبيها بهذا القول في كتابه الذى سماه مابعد الطبيعة فأنه وصفه بهذه الصفة فقال هو قريب بعيد فأنه من جهة كالواضح لايخفى على احد ومن جهة كالغامض لا يدركه احد فكذلك العقل ايضاً ظاهر شواهده ومستتر في ذاته فلا ينكر احد ان يقول فى صانعه وبارئه نحو ماقيل فيه .

فهذا منتهى جميع ماني هذا الكتاب من الدلائل على الخلق والتدبير وهو قليل

من كثير وجزء من كل فأما العلم الكامل فعند الخلاق العليم الحكيم له الشكر كثيراً دائماً مباركاً فيه تم الكتاب

قال كاتبه فى آخره ما نصه

وهذا حين اتينا على آخر كتاب الدلائل والاعتبار تأليف ابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ والحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على رسوله محمد وآله الطيبين الطاهرين وكان الفراغ من رقمه في شهر ربيع الآخر سنة ثلاثة وعشرين بعد الالف اه

تم بتوفيقه تعالى طبع هذا الكتاب الجليل الذى يرشدك الى حكمته تعالى في هذه المخلوقات لتتدبر معنى قوله فى الكتاب المبين (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) وتعي معني قول الشاعر

وفي كل شيء له آية ✫ تدل على انه واحد

وقد عثرت على نسخته فى مكتبة المدرسة العثمانية في مدينة حلب فاستنسختها بخطى ولم آل جهداً فى تصحيحه وكان تمام طبعه فى التاسع والعشرين من شهر شعبان سنة ١٣٤٦ وبالله التوفيق

ناشره

محمد راغب

الطباخ

فهرس كتاب الدلائل والأعتبار على الخلق والتدبير للأمام ابي عثمان الجاحظ

٣ اول العبر بهيئة هذا العالم وتأليف اجزائه
٣ فكر في لون السماء
٤ فكر في طلوع الشمس وغروبها
٥ فكر في تنقل الشمس
٥ فأما مسير القمر
٥ تأمل شروق الشمس على العالم
٦ فكر في مقادير الليل والنهار
٦ فكر في انارة القمر
٧ فكر في هذه النجوم
٩ فكر لم صار هذا الفلك بشمسه وقمره وبروجه يدور على العالم
١٠ فكر في هذا الحر والبرد
١١ تأمل حكمة الباري في خلق النار
١٣ فكر في خلق هذه الارض
١٤ انظر الى هذه الجبال
١٤ فكر في هذه المعادن
١٥ فكر في كثرة ما خلق الله من هذه الجواهر الاربعة
١٧ فكر في نزول المطر
١٨ فكر في هذا النبات
١٩ في هذا الربيع
١٩ تأمل نبات هذه الحبوب
٢٠ تأمل الحكمة في خلق الشجر
٢١ فكر في هذا العجم والنوي
٢٢ فكر في ضرب من التدبير في الشجر
٢٢ فكر في خلق الزمانة
٢٣ فكر في حمل اليقطين
٢٣ فكر في خلة تجدها في النخل
٢٤ فكر في هذه العقاقير
٢٦ فكر في اجسام الانعام
٢٦ فكر في خلقة هذه الاصناف الثلاثة من الحيوان الانسان وآكلات اللحم وآكلات النبات
٢٩ انظر الى هذه البهائم كيف كسيت اجسامها هذه الكسوة
٣٠ فكر في خلقة عجيبة جعلت في البهائم الوحشية
٣١ تأمل وجه الدابة كيف هو
٣١ انظر الي مشفر الفيل
٣٢ فكر في خلق الزرافة
٣٣ تأمل خلقة القرد
٣٤ وهل سمعت ما يتحدث به عن التنين
٣٤ فكر في ضروب من الفطن جعلت في البهايم
٣٥ تأمل الذرة الحقيرة
٣٦ انظر الى النمل
٣٦ انظر الى هذا الذى يقال له الليث
٣٦ فأما العنكبوت
٣٧ تأمل جسم الطائر وخلقته
٣٨ انظر الي الدجاجة
٣٨ فكر في حوصلة الطائر
٣٩ انظر الي العصافير
٤١ انظر الي النحل
٤١ انظر الى هذا الجراد
٤٢ تأمل خلق السمك

٤٣ انصرف الآن الى خلق الانسان
٤٤ فكر الآن في امر الانسان
٤٦ فكر في اعضاء البدن
٤٦ فكر في وصول الغذاء الى البدن
٤٧ تأمل حكمة التدبير في تدبير تركيب البدن
٤٧ انظر الي هذه الحواس
٤٨ فكر في الذي عدم البصر من الناس
٥٠ فكر في الصوت
٥٢ اما رأيت الدماغ الخ
٥٤ تأمل التدبير في خلق الشعر والاظفار
٥٥ فكر في الريق
٥٥ اعلمت ما في الاطفال من المنفعة في البكاء
٥٦ فكر في هذه الافعال الطبيعية التي جعلت في الانسان
٥٩ فكر فيما انعم الله تعالى به على الانسان في هذا المنطق
٦٠ فكر فيما اعطي الانسان علمه
٦١ وما ستر على الانسان علمه مدة حياته
٦٢ فكر في الاحكام كيف دبر امرها
٦٤ قال ابن شبرا في حكمته رأس معـاش الانسان الخبز والماء
٦٥ لم لا يتشابه الانسان واحداً بالآخر
٦٦ وقد كانت من القدماء طائفة انكرت العمد والتدبير في الاشياء
٦٩ قد تنكر المعطلة ايضاً ما انكرت المنانية من المكاره الخ
٧٠ وجملة القول ان الخالق تعالي يصرف هذه الامور كلها الي الخير
٧١ ومما ينقمه الجاحدون للتدبير في الموت والفناء
٧٣ كان القياس يوجد والشواهد تشهد ان للاشياء خالقاً حكيما
٧٤ اعلمت ما اسم العالم بلسان اليونانية فاسمه جاري المعروف باليونانية فوسموس
٧٤ واعجب من هذين جميعاً المعطلة الذين راموا ان يدركوا بالحس مالا يدرك بالعقل
٧٥ قالوا فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته
٧٦ قالوا فلم نختلف فيه
٧٦ فمن ذلك هذه الشمس التي تراها تطلع علي العباد
٧٧ ولم استتبر قلنا الخ
٧٧ قالوا افرطتم فيما تصفون من قصور العلم عنه

This book is due two weeks from the last date stamped below, and if not returned at or before that time a fine of five cents a day will be incurred.

Coth

893. 7J19 P5

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58974903
893.7J19 P5
Kitab al-dalail wa-a

المطبوع من مؤلفات ناشر هذا الكتاب في مطب

(اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) وهو تاريخ مطول في سبعة مجلدات الثلاثة الاول في ذكر من ملكها من الملوك وحكمها من الأمراء من حين الفتح الأسلامي الى سنة ١٣٢٥ هجرية والأربعة الباقية في تراجم اعيانها من الأمراء والمحدثين والفقهاء والادباء والوجهاء الخ من القرن الثاني الى سنة ١٣٤٥ هجرية ومجموع الأجزاء في ٤٠٣٥ صحيفة وثمن كل جزء غير مجلد ثلاثة مجيديات .

(عظة الأبناء بتاريخ الأنبياء) كتاب مدرسي اعتمدنا فيه على تأييد الحوادث التي اوردناها بالآيات القرآنية وهو في ٦٠ صحيفة وثمنه ١٠ قروش دارجة يحسم لطالب الكمية عشرون في المئة .

(المطالب العلية في الدروس الدينية) ثلاثة كتب متسلسلة سهلة المأخذ جداً القسم الأول في ٢٢ صحيفة وثمنه ٥ قروش والثاني في ٣١ صحيفة وثمنه ٦ وربع والثالث في ٧٥ صحيفة وفيه رسم الحرم المكي وجبل عرفات والحجاج على الجبل ومنى والبقيع وثمنه ١٢ قرشاً ونصف قرش رائجة يحسم لطالب الكمية كما سبق .

(تمرين الطلاب في صنعة الأعراب) رسالة في ١٦ صحيفة تسهل على المبتدئين كيفية الأعراب وتعلمه في وقت قريب وثمنها قرشان ونصف.

المطبوع على نفقته من الكتب

(القرب في فضل العرب) للحافظ العراقي في (١٦) صحيفة ثمنه قرش وربع

(بيان السنة والجماعة) المعروف بعقيدة الطحاوي للامام ابي جعفر الطحاوي هو كتاب صغير الحجم كثير العلم سهل العبارة جداً ثمنه قرشان ونصف

(منظومة اللوامع الضيائية في نظم السراجية) في علم الفرائض للشيخ عبدالله الميقاتي الحلبي المتوفي سنة ١٢٢٣ ثمنها ثلاثة قروش وثلاثون باره دارجة

(كتاب الطب النبوي) للامام ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ وهو في ٢٧٩ صحيفة وثمنه مجيدي ونصف في البلاد السورية و ١٢ قرشاً مصرياً في البلاد المصرية

(كتاب الأعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار) للحافظ الحازمي المتوفي سنة ٥٨٤ وهو في ٢٦٠ صحيفة وثمنه كسابقه

رسائل الجاحظ

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

39141

au Boug 8
1 June 45
PT25-1070
© 246

لجنة التأليف والترجمة والنشر

مجموع رسائل الجاحظ

وهى رسائل لم تنشر

لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

نشرها

باول كراوس   محمد طه الحاجرى

AMERICAN
UNIVERSITY
LIBRARY

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٣

893.7J19
S6

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

مقدمة

هذه هى الطائفة الأولى من رسائل الجاحظ التى لم تنشر واعتزمنا نشرها ، مما أبقت عليه الأحداث المختلفة التى منيت بها آثار كاتبنا العظيم . وما زال الجاحظ — وقد مضى عليه أحد عشر قرناً — فى طليعة أدباء العربية ، وأول المثل التى يتطلع إليها كتابها وطلاب البيان فيها ، كما لا يزال من أصدق المصوّرين للنزعات الإنسانية ، وأبرع المستشفّين لخفايا النفوس وحنايا الضمائر وحركات القلوب ، ثم هو مع هذا من أقدر الكتاب على عرض التيارات العقلية المختلفة فى عصره ، فلا جرم أخذت العناية بنشر آثاره تتجه فى هذا العصر اتجاها صادقا دائبا مصمما . وقد أردنا بنشر هذا المجموع أن نأخذ بنصيبنا من هذه العناية ، وأن نساهم — قدر الطاقة — فى إحياء ما كاد يدرس ويمحى من هذه الآثار ، وتجديد ما كاد يطمس وينبهم من قسمات ذلك الكاتب

وقد اخترنا أن نجلو فى هذا المجموع الرسائل المفردة . وعندنا أن هذه الرسائل — على قصر الكثير منها — أبلغ فى الدلالة على صاحبها من الكتب المطولة ، إذ كانت بطبيعتها معينة الموضوع محدودة الغرض . لا تأذن لعادة الاستطراد أن تداخلها وتشتت عناصرها . فكل رسالة منها وحدة قائمة بذاتها ، قد توفر الكاتب عليها ، ووجه فنه إلى غايتها ، فمضى فيها نشيطا موفور القوة ، لا تأخذ طبعه فترة يضعف فيها ، فيتكلف ويتصنع ، ولا يناله ملل يرهقه ويقف به ، فيلتمس ما يبعث نشاطه ، فيغيّر سبيله ، ويحوّر منهجه

وهذه الطائفة الأولى التى يضمها هذا الجزء تتألف من أربع رسائل :

المعاد والمعاش ، وكتمان السر وحفظ اللسان ، والجد والهزل ، والحسد والعداوة . وكل منها يمثل ناحية من نواحى الجاحظ الفنية ، كما أنها من خير ما يعين على تصور حياته الظاهرة والباطنة . ولسنا الآن بصدد تحليل هذه الرسائل و بيان عناصرها ودلالاتها المختلفة ، فذلك أمر لا تتسع له هذه المقدمة ، و إنما نكتفى هنا بالإشارة إلى هـذا الوجه من أوجه خطورتها ، إلى جانب ما يجده القارئ فيها من جمال فنى خالص ، ومتاع روحى كبير

المصادر

اعتمدنا فى نشر هذه الرسائل على المصادر المخطوطة الآتى ذكرها :

(ﮦ) نسخة مكتبة داماد إبراهيم باشا رقم ٩٤٩ ، وتوجـد صورتها الفتوغرافية فى مكتبة الجامعة المصرية . وهذه المخطوطة تحتوى على ٢١٩ ورقة فى حجم المثمن العادى ، وفى كل صفحة منها تقريبا ٢٣ سطراً . بخط نسخى أشبه بخط القرن الثامن . وهى لا تحمل أى إشارة تدل على تاريخ نسخها ، وكل ما عليها هو خاتم وقف داماد إبراهيم باشا لها ، وقد وصف فى هذا الخاتم بأنه وزير السلطان الغازى أحمد خان (١٠١٢ — ١٠٢٦) ، وهذه هى الرسائل التى تحتوى عليها :

(١) كتاب فضائل الأتراك (ورقة ١ وما يليها)

(٢) رسالة كتبها إلى محمد بن عبـد الملك فى الأخلاق المحمودة والمذمومة (ورقة ٢١) ، وهى الرسالة الأولى فى هذا المجموع

(٣) كتاب كتمان السر وحفظ اللسان (ورقة ٣٥) ، وهى الرسالة الثالثة فى هذا المجموع

(٤) رسالة المعاد والمعاش فى الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم كتب بها إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد (ورقة ٤٧) وهى رواية ثانية مستقلة لرسالة الأخلاق المحمودة المذمومة التى سبق ذكرها

(٥) كتاب فخر السودان على البيضان (ورقة ٦٠)

(٦) رسالة فى الجد والهزل إلى محمد بن عبد الملك الزيات (ورقة ٧٤)، وهى الرسالة الثانية فى هذا المجموع

(٧) رسالة فى نفى التشبيه إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد (ورقة ٨٨)

(٨) رسالة إلى أبى عبد الله أحمد بن أبى دؤاد الايادى يخبره فيه بكتاب الفتيا (ورقة ٩٦)

(٩) رسالة إلى أبى الفرج ابن نجاح الكاتب (ورقة ٩٩)

(١٠) رسالة فصل ما بين العداوة والحسد (ورقة ١٠١)، وهى الرسالة الرابعة فى هذا المجوع

(١١) رسالة فى ذم القواد (ورقة ١١٣)

(١٢) رسالة فى النابتة إلى أبى الوليد محمد بن أحمد أبى دؤاد (ورقة ١٢٠)

(١٣) كتاب الحجاب (ورقة ١٢٦)

(١٤) كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان (ورقة ١٤٤)

(١٥) كتاب القيان (ورقة ١٥٨)

(١٦) كتاب ذم أخلاق الكتاب (ورقة ١٧١)

(١٧) كتاب القول فى البغال (ورقة ١٧٨)

(١٨) رسالة فى الحنين إلى الأوطان (ورقة ٢١٢ إلى ٢١٩)

وفى كتاب مخطوطات الموصل للدكتور داود الچلبى (مطبعة الفرات ببغداد سنة ١٣٤٦ — ١٩٢٧ ص ٢٦٤) ذكر لمجموعة من رسائل الجاحظ كانت محفوظة فى مكتبة أمين بك ابن أيوب بك الجليلى ، وهى شبيهة بمجموعة داماد التى فى أيدينا ، إذ تحتوى على نفس الرسائل بنفس الترتيب . إلا أن فى أولها (أى قبل كتاب فضائل الأتراك) قطعة عنوانها : « حكاية عثمان الخياط فى اللصوص ووصاياهم » ، ولعلها مأخوذة من كتاب الحيوان (٢ : ١٣٣ ط الساسى) أو هى منتخبة من كتاب اللصوص للجاحظ الذى لم يعثر عليه بعد ، ولا ريب أنه كان لهذه المجموعة شأن كبير فى تصحيح الرسائل الواردة فى مجموعة داماد ، وقد اتجهنا إلى الدكتور داود الچلبى لسؤاله عنها فكتب إلينا بأن مكتبة الحاج أمين الجليلى قد تشتتت بعد وفاة صاحبها ، وأنه افتقد هذه المجموعة ولكنه لم يهتد أخيراً إليها . ونحن نأسف أشد الأسف لعدم تمكننا من الاستفادة منها ، وإن كنا لا نزال نرجو أن يعثر عليها ويستفاد منها فى تصحيح هذه الرسائل

(م) مجموعة عنوانها : مختارات فصول الجاحظ محفوظة فى مكتبة المتحف البريطانى برقم ١١٢٩ ملحق (.Suppl) ، وتوجد صورتها الفتوغرافية فى مكتبة الجامعة المصرية . وهذه المخطوطة تحتوى على ٢٩٩ ورقة . وهى مكتوبة بخط نسخى حديث ، وفى آخرها : « انتهاء الفصول التى اختارها عبد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة يوم الجمعة المبارك الثامن عشر من شهر صفر الخير من شهور سنة أربع وتسعين ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية على يد كاتبها الفقير عبد الله المنصورى ، اللهم اغفر له

ولوالديه أمين أمين أمين » . وقد كتبت النسخة « برسم خزانة الأمير الفاضل موسيو كريمر (A. v. Kremer) النمساوى بمحروسة مصر سنة ١٨٧٧ » كما يقرأ على صفحتها الأولى

وهذه المجموعة تحتوى على فصول مختارة من الرسائل الآتية :

(١) من كتاب الحاسد والمحسود (ورقة ١ وما يليها)

(٢) من كتابه فى المعلمين (ورقة ٨)

(٣) من كتاب التربيع والتدوير (ورقة ١٩)

(٤) من رسالته إلى الحسن بن وهب فى مدح النبيذ وصفة أصحابه (ورقة ٤١)

(٥) من كتابه فى طبقات المغنين (ورقة ٤٩)

(٦) من كتابه فى البناء (ورقة ٥٢)

(٧) من رسالته إلى الفتح ابن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة (ورقة ٦٢)

(٨) من كتابه فى حجج النبوة (ورقة ٨٨)

(٩) من كتابه فى خلق القرآن (ورقة ١٢١)

(١٠) من كتابه فى الرد على النصارى (ورقة ١٢٩)

(١١) من كتابه فى مقالة العثمانية (ورقة ١٦١)

(١٢) من كتاب المسائل والجوابات فى المعرفة (ورقة ١٧٥)

(١٣) من كتابه فى المعاد والمعاش (ورقة ١٨٥)

(١٤) من رسالته إلى محمد بن عبد الملك فى الجد والهزل (ورقة ١٩١)

(١٥) من كتابه فى الوكلاء (ورقة ١٩٤)

(١٦) من كتابه فى الأوطان والبلدان (ورقة ١٩٩)

(١٧) من رسالته فى البلاغة والايجاز (ورقة ٢١٩)

(١٨) من كتابه فى تفضيل البطن على الظهر (ورقة ٢٢٠)

(١٩) فى كتابه فى النبل والتنبل وذم الكبر (ورقة ٢٢٧)

(٢٠) من رسالته إلى أبى الفرج الكاتب فى المودة والخلطة (ورقة ٢٣٨)

(٢١) من كتابه فى استحقاق الأمانة (ورقة ٢٤٠)

(٢٢) من رسالته فى استنجاز الوعد (ورقة ٢٥٠)

(٢٣) من رسالته فى تفضيل النطق على الصمت (ورقة ٢٥٤)

(٢٤) من كتابه فى فضيلة الكلام (ورقة ٢٦٠)

(٢٥) من رسالته فى مدح التجار وذم عمل السلطان (ورقة ٢٦٥)

(٢٦) من كتابه فى الشارب والمشروب (ورقة ٢٦٨)

(٢٧) من كتابه فى الجوابات فى الإمامة (ورقة ٢٧٨)

(٢٨) من كتابه فى مقالة الزيدية والرافضة (ورقة ٢٩١ إلى ٢٩٩)

وتوجد من هذه المجموعة نسخة أخرى مطابقة لها فى الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية

(ب) كتاب المختار من كلام أبى عثمان الجاحظ وهو محفوظ بمكتبة برلين برقم ٥٠٣١ ، وهو فى حجم المثمن الصغير فى ١٤٣ ورقة مكتوب بخط نسخى حديث ، وتاريخ نسخه ٤ شعبان المكرم سنة ١٠٦٠ ، واسم كاتبه الجم (؟) محمد (محمد الجم) المقرى (أو المصرى)

وهذه المجموعة تحتوى على مختارات مختلفة من كلام الجاحظ ، ولكن لم يشر فيها إلى عناوين الرسائل التى اختيرت منها ، ومنها ما لا يزال مجهول النسبة

إلى ما اختيرت منه من رسائل الجاحظ . وكأن هذه المختارات لم يعن فيها بإعطاء صورة من رسائل الجاحظ ، و إنما عنيت بإعطاء بعض النماذج البليغة من كلامه ، حتى إنها تقتصر فى بعض الأحيان على جمل مفردة . ومع هذا فقد كانت قيمتها كبيرة فى تصحيح كثير من المواضع وفى تكملة بعض ما سقط من عبارات الجاحظ فى سائر مصادرنا

ولم يكن حظ رسائل هـذا المجموع واحدا فى مصادرها التى اعتمدنا عليها فى نشرها فبينما توفرت للرسالة الأولى أربع مصادر لم تظفر الرسالة الأخيرة إلا بمصدرٍ واحد ، وتوسطت الثانية والثالثة بين الطرفين

والرسالة الأولى ترد فى نسخة داماد مرتين بعنوانين مختلفين ، وروايتين مختلفتين أيضا . أما الرواية الأولى فعنوانها : « الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة إلى محمد بن عبد الملك » ، وقد رمزنا لهذه الرواية بالرمز د كسائر ما جاء فى نسخة داماد . وأما الرواية الثانية فعنوانها : « رسالة المعاد والمعاش إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد » ، وقد أشرنا إليها بالرمز ء

وترد سبعة فصول مختارة من هذه الرسالة فى مجموعة المتحف البريطانى التى أشرنا إليها بالرمز م ، كما ترد قطعة واحدة من أولها فى مخطوطة برلين التى أشرنا إليها بالرمز ب

وأما الرسالة الثانية وهى رسالة كتمان السر وحفظ اللسان فقد وردت بتمامها فى د ، وتوجد قطعة صغيرة من أولها فى ب

والرسالة الثالثة وهى رسالة الجد والهزل مصدرها الأصلى نسخة د ، وقد ساعدت فى تصحيحها المختارات الواردة فى م و ب

وأما الرسالة الرابعة فلم ترد إلا فى نسخة د كما قلنا

وبعد فهذه هى مصادرنا المباشرة التى رجعنا إليها واعتمدنا عليها فى نشر هذه الرسائل ، وقد اتخذنا من نسخة ى المصدر الأول لنا ، وقد تحرينا قدر ما مكن لنا التأمل والمقارنة أن نظفر بالنص الصحيح لعبارة الجاحظ ، بالرغم مما اعتور هذه المخطوطات من تحريف وتشويه وخلط ونقص ، وبالرغم من أننا فى كثير من المواضع لم نظفر بأكثر من أصل واحد وقراءة واحدة ظاهرة الفساد

ومع ذلك بقيت فى هذه الرسائل مواضع على فسادها ونقصها لم نوفق إلى تصحيحها ، ولم نجد العون على إقامة عوجها فى أصل آخر أو قراءة أخرى . ولكننا آثرنا أن تظهر هذه الرسائل على ما فيها ، مما فات طوقنا ، فذلك خير من أن تظل حبيسة مقيدة . وما يزال أملنا كبيراً فى أن يُتاح لنا من الوسائل ما يمهد لنا السبيل إلى تصحيحها ، أو أن نجد من نقد الناقدين ما عسى أن يجلو هذه المواضع المغشاة فيها

وأخيراً بقيت لنا كلمة صغيرة فى المنهج الذى أخذنا أنفسنا به فى نشر هذه الرسائل فسيجد القارئ فى هذه النشرة شيئاً لم يألفه ، وهو خلو الصفحات من الأرقام الكثيرة التى تشير إلى القراءات المختلفة ، وهى كثيراً ما تشتت خاطره فى متابعة القراءة فاكتفينا بالإشارة إلى الأسطر مع وضع نجمة صغيرة هكذا * قبل الكلمات التى يعلق فى الهامش عليها . وكذلك اقتصدنا فى عبارات التعليق معرضين عن الكلمات الكثيرة التى تعتبر نوعا من الفضول والتى ترد كثيراً فى النشرات العربية ، فوضعنا الرمز المشير إلى المخطوطة بعد الكلمة المشار إليها . فإذا وجدت — مثلا — فى هامش الصفحة الثانية العبارة الآتية : « (٢) والعالم والجاهل م » كان معنى هذا أن العبارة المذكورة هى قراءة نسخة م فى مقابل

« والعالمون والجاهلون » الواردة فى السطر الثانى من تلك الصفحة والمشار إليها بنجمة ، وهى قراءة نسخة الأصل ه وهكذا .

وكذلك اصطلحنا على استعمال نوعين من الإشارات دلالة على النقص والزيادة وهما قوسان مربعان [ ] علامة على النقص ، وقوسان مثلثان < > علامة على الزيادة . فإذا وجدت — مثلا — فى هامش الصفحة الثانية الإشارة : « (٧) [كلها] م » كان معنى هذا أن الكلمة « كلها » الواردة فى السطر السابع والمعلم عليها بنجمة ، وهى قراءة نسخة الأصل ه ، محذوفة فى نسخة م . وإذا وجدت ، بعد هذا التعليق التعليق الآتى : « < تكاد > م ب » فمعنى ذلك أن كلمة « تكاد » ناقصة فى الأصل ه وأنها مأخوذة من الروايتين الأخريين م ، ب

أما العبارة الواردة فى ص ٦١ : « (١٠) م : [ ] ه » فمعناها أن الكلمة « نعم » وضعت فى المتن عن نسخة م وإن كانت محذوفة فى نسخة ه . وكذلك العبارة الواردة فى ص ٦٣ : « (١٠) < ... > ب : سهمك فى صدك ه » معناها أن الكلمات الواردة فى المتن فى السطر العاشر بين هاتين العلامتين مأخوذة من نسخة ب ، ناقصة فى نسخة ه

وكذلك استعملنا هاتين العلامتين « < > » فى ص ٥٠ : ١٢ ، مثلا ، إشارة إلى ما سقط فى الأصل واقترحنا إضافته

١

رسالة المعاد والمعاش

فى الأدب وتدبير الناس ومُعاملاتِهم

كتب بها الى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد

بسم الله الرحمن الرحيم

حَفِظَكَ الله وأبقاك وأمتعَ بك . (*) إنّ جماعاتِ أهلِ الحكمة قالوا : واجبٌ على كلّ حكيم أن يُحسِنَ الارتيادَ لِموضع البُغية *وأن يتبيّنَ أسبابَ الأمور ويَمهَدَ لعواقبها . فإنّما حُمدت العلماء بحُسن التثبُّت فى أوائل الأمور *واستشفافِهم بعقولهم ما تجىءُ به العواقبُ ، فيَعلمون عند استقبالها ما تؤول به الحالاتُ فى استدبارها ، وبقدرِ تفاوُتِهم فى ذلك تَستبين فضائلُهم . فأمّا معرفةُ الأمور

(١ - ٣) رسالة المعاد . . . أبى دؤاد ى (وتدبّر !) ، وكذلك مخطوطة الموصل (<و> فى الأدب !) : رسالة إلى محمد بن عبد الملك فى الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ عفى الله عنه ن (ورقة ٢١ فى عنوان الرسالة) ، رسالة أبى عثمان عمرو بن بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك فى الأخلاق المحمودة والمذمومة ن (ورقة ٢١ *) ، من صدر كتابه فى المعادوالمعاش م ، (لا عنوان فى ب) . راجع إرشاد الأريب لياقوت ج ٦ ، ص ٧٧ : ٢ : « كتاب المعاد والمعاش » — (٥) الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى جميع المرسلين ، أما بعد فان جماعات ن ، أما بعد فان جماعات م — (٦) وأن يبين ن — (٧) واستشرافهم ى

(*) ابتداء رواية م (١)

عند تكشُّفها وما يَظهر مِن خَفيّاتهـا ، *فذلك أمرٌ يَعتدل فيه الفاضلُ والمفضول *والعالمون والجاهلون

(*) وإنّى عرفتُك — *أكرمك الله — فى أيّام الحَداثة وحيث سلطانُ اللهو *المُخلِق للأعراض أغلبُ على نُظَرائك وسُكرُ الشباب والجِدَة المتحيِّفين للدِّين والمُروءةِ *مستولٍ على لِداتك ، فاختُبرتَ أنت وَهُم ببَسطة المقدُرة وحُمَيّا الحَداثة *وطولِ الجِدَة ، مع ما تقدّمتَهم فيه مِن الوَسامة فى الصورة والجمالِ فى الهيئة . وهذه *كلّها أسبابٌ* < تكاد > توجِب الانقيادَ لِلهَوَى *ولُجَجٌ مِن المهالك لا يَسلَمُ منها إلّا المنقطعُ القرينِ فى صحّة الفِطرة وكمالِ العقل . فاستعبدَتهم الشهواتُ حتى أعطوها أزِمّةَ أديانهم وسلّطوها على مُروءاتهم وأباحوها أعراضهم ، *فآلت بأكثرِهم* الحالُ إلى ذُلّ العُدم وفَقدِ عزّ الغِنَى فى العاجل مع النَدامةِ الطويلة *والحسرةِ فى الآجل

وخرجتَ نسيجَ وَحدِك *أوحديًّا فى عصرك ، حَكّمتَ وكيلَ الله عنـدك — وهو عقلك — على هواك وألقيتَ إليه أزِمّةَ أمرك ، فسلَكَ بك *طريقَ السَلامة وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل *اللذّات أكثرَ* ممّا بلغوا *ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا* وصرّفك مِن *صنوف

(١) فذاك ۞ — (٢) والعالم والجاهل م — (٣) [وإنى] قد عرفتك ب — [أكرمك الله] ب — (٤) المحلّق للأعراض ء — (٥) استولى ب — (٦) وفضل الحدة م — (٧) [كلها] م — < تكاد > م ب — (٧-٨) وتلجج فى المهالك < و > لا يسلم م ، ولجج المهالك < التى > لا يسلم ب — (١٠) فآلت بهم ب — (١١) [والحسرة] فى الآجل ء — (١٢) أوحديا فى نفسك ۞ م — (١٤) طريق م ب : طرق ۞ ، سبيل ء — اللذات < إلى أكرمها و > أكثر ب — (١٥) [ونال ... نالوا] ب — (١٥) صنوف التنعم ۞ ، صنوف الشهوات ب

(*) ابتداء رواية ب

النعَمِ فى أكثرَ مما *تصرّفوا ، وربَطَ عليك مِن نعَمِ الله التى خوّلك ما أطلقه مِن أيديهم *إيثارُ اللهوِ وتسليطهم الهوى *على أنفسهم ، *نخاض بك تلك اللُجَجِ واستنقذك من تلك المعاطب ، فأخرجك سليمَ الدينِ وافرَ المروءة نقى العِرض *كثيرَ البِرِّ آمِنَ الجِدَة . وذلك سبيلُ مَن كان مَيله إلى الله أكثرَ مِن ميله إلى هواه

*ولم أزَل فى أحوالك تلك كلّها بفضيلتك عارفاً ولك *بنِعَم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهرَ أمورك *المحمودةِ *فتدعونى إلى الانقطاع إليك وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدُنى رغبةً فى الاتّصال بك ، *ارتياداً مِنّى لموضع الخِيَرة فى الأُخوّة ، والتماساً لإصابةِ *الاصطفاء فى المودّة وتخيُّرًا لمستودَعِ الرجاءِ فى النائبة . فلمّا محّضتك الخِبرةُ *وكشَفَك الابتلاءُ عن المحمَدة *وقضَت لك التجاربُ بالتقدِمة وشَهِدَت لك قلوبُ العامّة بالقبول والمحبّة وقطَعَ الله عُذرَ *كلِّ مَن كان يطلبُ الاتّصالَ بك ، *طلبتُ الوسيلةَ إليك والاتّصال بحبلك ، فمتَتُّ بحُرمة الأدب وذِمام كرَمك . *وكان مِن نعمة الله عندى أن جعل *أبا عبد الله — *حَفِظه الله — وسيلتى إليك ، فوجدتُ المطلبَ سهلاً *والمرادَ محموداً ، وأفضيتُ إلى ما يجوز الأُمنيةَ *ويفوت الأملَ . فوصلتَ *إخائى بمودّتك وخلطتَنى

---

(١) تصرفوا <فيه> ء (٢) إيثار الهوى ء ، <من> إيثار اللهو م — [على أنفسهم] ن م ب — نخاض بهم <سبل> تلك ء ، نخاض بهم تلك ب — (٤) كثيرالبر آمن الجدة ، صححنا : كثيرالبر من الجدة م ، كثير الثراء من الجدة ن ، كثير الثراء من الحال ب ، كثير الثراء ء — (٦) فلم أزل ن م ، فلم أزل <أبقاك الله> ب — بنعمة ب — (٧) المحمودة <فيك> ء — تدعونى ء م — (٨) <و> ارتيادا ء — (٩) الاصطفاء : المصطفى ب — وكشف الابتلاء م — (١٠) وقضت لناب — (١١) [كل] ب — (١٢) طلبنا الوسيلة لك ب — (١٣) فـكان ب — أبا فلان ب — (١٤) [حفظه الله] ء م — والمرام ب — (١٥) بفوت الأمل ن — إخائى : رجائى ء

بنفسك وأَسْمَتنى *فى مَراعِى ذَوِى الخاصّة بك ، تفضُّلاً لا مجازاةً *وتطوُّلاً لا مكافأةً . فأمِنتُ الخطوبَ وأعتليتُ على الزّمان ، وأتّخذ تُك للأحداث عُدّةً ، ومِن نوائب الدهر حِصناً منيعاً . فلمّا حُزتُ المؤانســةَ ، وتقلّبتُ مِن فضلك فى صُنوف النِعمة ، *وزاد بَصَرِى مِن مواهبك *فى السرور والحَبرة ، أردتُ خِبرة المشاهدة فبلَوتُ *أخلاقَك ، وأمتحنتُ شِيَمَك ، وعجمتُ مذاهبَك على حين غَفَلاتك وفى الأوقات التى يَقِلّ فيها تحفُّظُك ، *أُراعِى حركاتِك وأُراقِب مخارجَ أمرك* ونهيك ، فأرى *< مِن > استصغارك لِعظيم *النِعمة التى تُنعِمُ بها وأستكثارك لِقليل الشُكر مِن شاكريك ، *< ما > أعرفُ < به > — *بما قد بَلَوتُ من غيرك وما قد شَهِدَت *لى به التجاربُ — أنّ ذلك *مِنك طَبعٌ *غيرُ تكلُّفٍ . هَيهاتَ ما يكاد ذو التكلُّف أن يَخفَى *على الغُباة فكيف على مِثلى مِن المتصفحين(*) . فزادَتنى المؤانسةُ فيك رَغبةً وطُولُ العِشرة لك محبّةً ، وأمتِحانى أفاعيلَك لك تفضيلاً وبِطاعتك دَينونةً . *وكان تمام شُكرى لِرَبِّى ولِىِّ كلّ نِعمةٍ والمبتدئ بكلّ إحسانٍ ، الشُكرَ لك* والقيام بمكافأتك بما أمكن من قولٍ *وفعل . لأنّ *الله تبارك وتعالى نَظَمَ الشكر له بالشكر *لِذِى النِعمة مِن خَلقه ، وأبَى أن يَقبَلهما إلّا معاً ، لأنّ أحدهما دليلٌ

---

(١) فى دواعى الخاصة بك ب — (١-٢) وتكرماً ى — (٤) وزاد تصرفى فى مواهبك م — فى مذاهبك ب — (٥) [أخلاقك] ى — (٦-٧) أراقب حركاتك وأراعى مخارج أمرك ب — (٧) < مِن > ب : [ ] ن ى م — النعم ن — (٨-٩) < ما > أعرف < به > ب : أعرف ن ى م — بما : ما ب — (٩) [لى] ى — (١٠) منك عن غير تكليف ب — (١٠-١١) على أهل الغباوة م — (١٢-١٣) وكان < من > تمام لذتى < أن سألت الله > ولى كل نعمة والمبتدىء بكل إحسان < العون على > الشكر لك ى — (١٤) وعمل ى — الله سبحانه ب — (١٥) لذوى النعم ب

(*) اه رواية م (١)

على الآخَر *وموصولٌ به . فمَن ضيَّع شُكرَ ذِى نِعمةٍ مِن الخَلق فأَمرَ الله ضيَّع *و بشهادته استخفّ . *ولقد جاء بذلك الخبرُ عن الطاهر *الصادق صلى الله عليه وسلّم *فقال : *مَن لم يَشكُر للناس لم يَشكُرِ الله . ولعَمرى إنّ ذلك لَموجودٌ فى الفِطرة قائم فى العقل ، أنّ مَن كفر نِعَمَ الخَلق كان لنِعَمِ الله أكفر . لأنّ الخَلق يُعطِى بعضُهم بعضاً بالكُلفة والمشقّة وثِقَل العطيّة على القلوب ، والله يُعطِى *بلا كُلفة . ولهذه العِلّة جَمَعَ بين الشُكر له والشكر لِذَوِى النِعَم مِن خَلقه

فلمّا وجبَت *علىّ الحُجّةُ *لِشُكرك *وقُطِعَ عُذرِى فى مكافأتك ، اعترفتُ بالتقصير عن تقصّى ذلك . إلّا أنّى بسطتُ لسانى بتقريظك ونَشرِ محاسنِك ، موصولٌ *ذلك عندى لِآذانِ السامعين بالاعتراف بالعَجز عن إحصائها . وقد رُوى *عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه قال : « مَن أُودِعَ عُرفاً فليَشكُره ، فإن لم يمكنه فلينشُره ، فإذا نَشَرَه فقد شَكَرَه وإذا كَتَمَه فقد كَفَرَه »(*)

*ثم قد رأيتُ أن قد بقى علىّ أمرٌ مِن الأمور يمكننى فيه بِرُّك *هو عندى عَتيدٌ وأنت عنه غير مستغنٍ والمنفعةُ لك فيه عظيمة عاجلةً وآجلةً ، *إنْ شاء الله

(**) ولم أزل — أبقاك الله — بالموضع الذى قد علمتَ مِن جَمعِ الكُتُب

(١) [و] موصول ب — (٢) وبشاهده ى — [و] لقد ب — (٢-٣) الصادق عليه السلام ى — فقال <صلى الله عليه وسلم> ۞ ، [فقال] ب — من لم يشكر الناس لم يشكر الله ب — (٦) بلا كلفة <ولا مشقة> ى — (٨) [على] ب — لشكرك ب : بشكرك ۞ ، فى شكرك ى — وقطع ذكرى ب — (١٠) ذلك عندى لآذان السامعين ب : ذلك عندى عند السامعين ۞ ، ذلك منى عند السامعين ى — (١١) عن النبى ... وسلم ب — (١٣) ثم [قد] رأيت ۞ — <و> هو عندى ى — (١٥) [إن شاء الله] ۞

(*) اهـ رواية ب (**) ابتداء رواية م (٢)

ودِراستِها والنظرِ فيها ، ومعلومٌ أنّ طُول دراستها إنما هو تصفُّح عقولِ العالِمين والعلمُ بأخلاق *النبيّين وذَوِى الحكمة من الماضين والباقين ، مِن جميع الأُمَمِ وكُتُبِ أهل المِلَل . فرأيتُ أن أجمع لك كتاباً مِن الأدب جامعاً لِعلمٍ كثيرٍ مِن *المعاد والمعاش ، أَصِفُ لك فيه عِلَلَ الأشياء وأُخبرك بأسبابها وما اتّفقَتْ عليه محاسنُ الأمم . وعلمتُ أنّ ذلك مِن أعظمِ *ما أَبَرُّك به وأرجحِ ما أتقرّب به إليك . وكان الذى حدانى على ذلك ما رأيتُ اللهَ قَسَم لك مِن *العقل والفهم وركّب فيك مِن الطبع الكريم . وقد أجمعت الحكماء *أنّ العقل المطبوع والكرم الغريزىّ لا يبلُغان غايةَ الكمال إلّا بمعاوَنة العقل المكتسَب ، ومثّلوا ذلك بالنار والحَطَب والمِصباح والدُهن . وذلك أنّ العقل الغريزىّ آلة والمكتسبَ مادّة ، وإنما الأدبُ عقلُ غيرِك تَزيده فى عقلك

ورأيتُ كثيراً من واضعى الآداب قَبلِى قد عهِدوا *إلى الغابرين بعدَهم فى الآداب عهوداً *قارَبوا فيها الحقَّ وأحسَنو فيها الدلالة . إلّا أنّى رأيتُ أكثرَ ما رسموا مِن ذلك فروعاً لم يبيِّنوا عِلَلَها وصفاتٍ حسنةً لم يكشِفوا أسبابَها وأموراً محمودةً لم يدُلّوا على أصولها . فإن كان *ما فعلوا من ذلك *رواياتٍ رَوَوها عن أسلافهم ووِراثاتٍ *وَرِثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلةَ مَن *يَستنبِط . وإن كانوا تركوا الدَلالة *على أعيان الأمور *التى بمعرفة

---

(٢) النبيين < صلوات الله عليهم أجمعين > م — (٤) من < أمر > المعاد م — (٥) ما أبرك به ن : ما أترك به م ، ما أسرك به ى — (٧) من الفهم والعقل ن — < على > أن العقل م — (١١) إلى الغابر ى — (١٢) قاربوا [فيها] ى — (١٤) ما فعلوه [من ذلك] ى — (١٤-١٥) [روايات رووها عن أسلافهم و] وراثات ن — (١٦) استنبط ن — على علل الأمور ن م — التى بمعرفة م : التى فى معرفة ن ، اللاتى على معرفة ى

عِلَلها يُوصَل إلى مباشَرة اليقين فيها ويُنتهَى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَعدُوا فى ذلك منزلةَ الضِنّ بها . *ولن تجد وصايا أنبياء الله *أبداً إلّا مبيَّنةَ الأسباب مكشوفةَ العلل مضروبةً معها الأمثال(*)

فألفتُ لك كتابى هـذا إليك ، وأنا واصفٌ لك فيه الطبائع *التى رُكّب عليها الخَلق وفُطرت عليها *البرايا كلهم ، فهم *متساوون فيها وإلى وجودها فى أنفسهم مضطرّون وفى المعرفة بما يتولّد عنها متّفقون . ثم مُبيِّنٌ لك كيف *تفترق بهم الحالاتُ وتتفاوت بهم المنازلُ ، وما العللُ التى يوجب بعضُها بعضاً وما الشىء الذى يكون سبباً لغيره متى كان الأوّل كان ما بعده ، وما السببُ الذى لا يكون الثانى فيه إلّا بالأوّل وربما كان الأوّل ولم يكن الثانى ، *وفَرقَ ما بين الطبع الأوّل وبين الاكتساب والعادة* التى تصير طبعاً ثانياً ، ولِمَ اختلف ذلك وكيف دواعى قلوبِ الناس وما منها يمتنعون منه وما منها لا يمتنعون منه وما أسبابُ نوازعِ شهواتِهم ، وما الشىء الذى يُحتال *لقلوبهم به حتى تُستمال وحتى تؤنِس بعدَ الوَحشة وتَسكُنَ بعد النفار ، وكيف يُتأتّى لِيُنقَضَ ما فيهم من الطبائع المذمومة حتى تُصرَف إلى الشِيَم المحمودة . وراسِمٌ لك فى ذاك أصولاً ومُبيِّنٌ لك مع كل أصل منها عِلّتَه وسَبَبَه

وقد علمتَ أنّ فى كثيرٍ *مِن الحقّ مُشتبهاتٍ لا تُستبان إلّا بَعدَ *النظر والتأمُّل . وهناك *يَختِل الشيطانُ أهلَ الغَفلة ، *وذلك أنّه لا يجد سبيلاً إلى

(٢) ولن تجـدوا ن — [أبدا] ن — (٤) اللائى ركب ى — (٥) البرايا كلها ى — فيها مستوون ى — (٧) تفرق ى — (١٠) وفرق ما بين الأول والثانى وما بين الاكتساب والعادة ى — (١٢) لقلوبهم به ، صححنا : لقلوبهم له ن ، فيه لقلوبهم ى — (١٦) من الخلق ى — (١٦-١٧) النظر [والتأمل] ن — (١٧) يخيل الشيطان ن — وذاك ن

(*) اهـ رواية م (٢)

اختداعهم عن *الأمر الظاهر . (*) *فلم أَدَع من تلك المواضع الخفيّة موضعاً إلّا أقمتُ *لك بإزاء *كل ّشُبهةٍ دليلاً ومع كلّ خفيٍّ مِن الحقّ حُجّةً ظاهرةً ، *تستنبط بها غوامض البرهان وتستبين بها *دفائن الصّواب *وتستشفّ بها سرائر القلوب ، فتأتى ما تأتى عن بيّنةٍ وتَدَعُ ما تَدَع عن خِبرة ، ولا يكونُ بك وَحشة إلى معرفة كثير مما يَغيبُ عنك إذا عرفتَ العِللَ والأسباب ، حتى كأنك مشاهدٌ لِضمير كلّ امرئ ، لِمعرفتك بطبعه وما رُكّب عليه(*) وعوارضِ الأمور *الداخلة عليه . ثم غيرُ رَاضٍ لك بالأصول حتى أتقصّى لك ما بلغه عِلمى من الفروع . ثم لا أرسِمَ لك من ذلك *< إلّا > الأمرَ *المعقول فى كلّ طبيعة والموجودَ فى فِطرة البرايا كلّها . فإن أحسنتُ ذلك وأقمتُه على حدوده *ونزّلتُه منازلَه ، كان عُمركـ — وإن قَصُرت أيّامُه — طويلاً وفارقتَ ما لا بُدّ لك *من فِراقه محموداً ، إن شاء الله

وأُعلم أنّ الآدابَ إنما هى آلاتٌ تَصلُح أن تُستعمل فى الدين وتُستعمل فى الدنيا ، وإنما وُضِعَت الآدابُ على أصول الطبائع ، وإنما أصول *أمور التدبير فى الدين والدنيا واحدة . فما فسدت فيه المعاملةُ فى الدين فسدت *فيه المعاملة فى الدنيا ، وكل أمرٍ لم يَصِحّ فى معاملات الدنيا لم يصحّ فى الدين

وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلافُ الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكمُ هاهنا الحكم هناك . ولولا ذلك ما قامت مملكةٌ ولا ثبتت

(١) الأمور الظاهرة ى — ولن أدع م — (٢) لك <بها> بازاء م — كل شبهة < منها > ى ، كل شبهة < منه > م — تستنبط لها ن ، يستنبط به م — (٣) دقائق ى — وتستشف بها م : وتستشفها ن ، ويستقى بها ى — (٧) الداخلة فيه ى — (٨) [إلا] ن ى — المعقول : لعلها المعقود — (١٠) وانزلته على منازله ى — (١١) من مفارقته ى — (١٣) أمر التدبير ى — (١٤) فيه [المعاملة] فى الدنيا ى

(*-*) (١-٦) رواية م (٣)

دولة ولا استقامت سياسةٌ . ولذلك *قال الله عزّ وجلّ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا . قال ابنُ عبّاسٍ فى تفسيرها : مَن كان ليس له مِن العقل ما يَعرفُ به كيف دُبِّرت أمورُ الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين ، فإنما ينتقلُ بذلك العقل ، فبقدرِ جَهلِه فى الدنيا يكون جهلُه بالآخرة أكثرَ ، لأنّ هـذه شاهدةٌ وتلك غيبٌ ، *فإذا جَهِلَ ما شاهدَ فهو بما غاب عنه أجهل

فأوّلُ ما أوصيك به ونفسى تقوَى اللهِ ، فإنه جماع كلّ خير وسببُ كلّ نجاة ولِقاح كل رُشد ، هى أحرزُ حِرز وأقوى مُعين وأمنعُ جُنّة ، هى الجامعة *محبّةَ قلوبِ العباد *والمستقبلةُ بك محبّةَ من لا تجرى عليهم *نِعَمُك . فاجعلها *عُدّتك وسِلاحك واجعل أمرَ الله ونهيه نُصب عينيك

وأُحذّرك ونفسى *اللهَ والاغترارَ به والإدهانَ فى أمره والاستهانة *بعزائمه والأمن لِمكره . فقـد رأيتَ *آثاره فى أهل وَلايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضين عِبرةً وللغابرين مثلاً

واعلم أنّ خَلْقه كلّهم بَرِيّتُه ، لا *وُصلةَ بينه و بين أحدٍ منهم إلّا بالطاعة . فأولاهم به أكثرهم تزيُّدًا فى طاعته ، وما خالف هذا فإنّه أمانىُّ وغرورٌ . *وقد مكّن الله لك مِن أسباب المقدرة ومهد لك *فى تمكين الغِنَى والبَسطة ما لم

---

(١) قال الله جل ذكره ء — (٥) فان جهل ء — (٩) قلوب محبة ? — والمستقبلة بك قلوب من ? — نعمتك ء — (١٠) عونك ء — (١١) [الله و] الاغترار به ء ، [به] ? — بعزمته ء — (١٢) أثره ء — (١٤) وصيله ء — (١٥) فقـد ء — (١٦) من ء

(١-٢) سورة الإسراء : ٧٢

*تُنحِلهُ بحيلةٍ *ولم تُلَقّنهُ بقوّة ، لولا فضلُه وطَوله . ولـكنه مكّنك ليبلوَ خَبرَكَ ويختبرَ شُكرَك ويُحصِيَ سعيك ويكتب أثرَك ، ثم يُوفّيَك أجرَك ويأخذَك بما اجترحَت *يدُك ، أو يعفوَ فأهلُ العَفوِ هُو . ولله أُبتلاءان فى خَلقه — والابتلاءُ هو الاختبار — أُبتلاء بنعمة وأُبتلاء بمصيبة . وبقدرِ عِظَمها يجب التكليف *من الله عليها . فبقدرِ ما خوّلك مِن النعمة يَستأدِيك الشُكرَ . ولو تقصّى اللهُ على خَلقِه لعَذّبهم . ولذلك *قال وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ . ولـكنه قَبِلَ التوبة وأقال العَثرَةَ وجَعَلَ بالحسَنَة أضعافَها

وأعلم أنّ الحُكم فى الآخرة هو الحُكمُ فى الدنيا ، ميزانُ قِسط وحَكَمٌ عَدلٌ . وقد قال اللهُ تعالى فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُه فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . وهـذا مَثَلٌ ضرب به الله لأنّ الناس يعلمون أن لو وُضع فى إحدى كِفّتَى الميزان شىءٌ ولم *يَكُ فى الأخرى قليلٌ ولا كثير ، لم يكن للوزن معنًى يُعقل . وذلك أنّ أحدًا مِن الخلق لا يخلو مِن هَفوة أو زَلّة أو غفلة ، فأَخبر أنّ مَن كانت حَسَناتُه الراجحة على سَيِّئاته ، مع النَدَم على السيّئات ، كان على سبيل النجاة وطريق الفوز بالإفلاح ، ومَن مالت سيئاتُه بحسَناتِه كان العَطَبُ والعذابُ أولى به . وكذلك حُكمُهُ فى الدنيا ، لأنه *قد تولّى أولياءَ مِن خلقِه وشَهِدَ لهم بالعَداله . وقد عاتبهم فى بعض الأمور لِغَلَبة الصلاح *فى أفعالهم وإن هَفَوا وتبرّأ من آخرين

---

(١) تنله ء — ولم يلقنه ن ، ولا بلغة ء — (٣) يداك ء — (٥) [من الله] ء —
(٦) قال <جل ذكره> ء — (١٢) يكن ء — (١٧) [قد] ء

(٦-٧) سورة فاطر ٤٥ (١٠-١١) سورة المؤمنون ١٠٣

وعاداهم لغلبة الجور* على *أفاعيلهم وإن أحسنوا فى بعض الأمور . وكذلك جَرَت مُعامَلاتُ *الخلق بينهم ، يعدِّلون العادلَ *بالغالب مِن فعله وربما أساء ويفسِّقون الفاسق وربما أحسن . وإنما الأمورُ بعواقبها وإنما يُقضى على كلّ امرئٍ* بما شاكل أحواله

فهذه الأمورُ قائمةٌ فى العقول جَرَت عليها المعاملة واستقامت بها السياسة لا اُختلافَ بين الأمّة فيها . فلا *تَغبِنَنّ حَظَّك مِن دِينك . *وإن استطعتَ أن تَبلغ من الطاعة غاياتِها فَلِنَفسِك تمهد ، وإلاّ فاُجهد أن يكون أغلبَ *أفعالك عليك الطاعة مع الندامة عند الإساءة ويكونَ ميلُك *عند الإساءة إلى الله أكثرَ ، والله يوفّقك

*اِعلم أنّ الله جلّ ثناؤه خَلَقَ خَلقَه ثم طبعهم على *حُبِّ اجترارِ المنافع ودَفعِ المضارّ *وبُغضِ ما كان *بخلاف ذلك . هذا فيهم طَبعٌ مركَّب وجبِلّةٌ مفطورة ، لاخلاف بين الخلق فيه موجودٌ فى الأنس والحيوان ، لم يَدّعِ غيرَه مدّعٍ مِن الأوّلين والآخِرين . وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تزيد المحبّةُ والبَغضاء *< . . . . > كزيادته تميل الطبيعة *معها كميل كَفّتَى الميزان *قلّ ذلك أو كثر

*وهاتان خَلّتان داخلٌ فيهما جميعُ محابّ العباد ومكارِههم . والنفسُ فى طَبعها حُبُّ الراحة والدعَة والازديادِ والعُلُوِّ والعِزِّ والغَلَبةِ والاستطرافِ

(١) [فى أفعالهم ... لغلبة الجور] ن — أفعالهم ى — (٢) الناس ى — (٢-٤) [بالغالب ... كل امرى] ى — (٦) تعتبر ن — فان ى — (٨) أفاعيلك [عليك] ن — ميلك [عند الاساءة] ى — (١٠) <و> اعلم ى — [حب] اجترار ى — (١١) ونقض من كان ن — خلاف ى — (١٤) <...> : سقط فى ى ن كما يظهر — معه ى — كثر ذلك أو قل ى — (١٦) وهاتان جملتان ن

*والتنوُّقِ وجميعِ ما تَستلِذّ الحواسُّ مِن المناظر الحسنة والروائح العَبِقة *والطعوم الطيِّبة والأصواتِ المُونِقة والملامِسِ اللذيذة ومما *كراهتُه فى طباعهم أضدادُ ما وصفتُ لك وخلافُه

فهذه الخلالُ التى يجمعها *خَلّتانِ غرائزُ فى الفِطَر وكوامِنُ فى الطبع ، جِبِلّة ثابتة وشِيمة مخلوقة . *على أنّها فى بعضٍ أكثرُ منها فى بعض ، ولا يعلمُ *قدرَ القلّة فيه والكثرة إلّا الذى دبّرهم . فلما كانت هذه طبائعَهم أنشأ لهم مِن الأرض أرزاقَهم وجعلَ فى ذلك ملاذّ لجميع حواسّهم ، فتعلّقت *به قلوبُهم وتطلّعت إليه أنفُسهم . فلو تركهم وأصلَ الطبيعة — مع ما مكّن لهم من الأرزاق المشتهاة فى طبائعهم — صاروا إلى طاعة الهوى وذهب التعاطفُ والتبارُّ . وإذا ذهبا كان ذلك سببا للفساد وانقطاع التناسُل وفَناءِ الدنيا وأهلِها . لأنّ طبع النفس لايَسلسَ بعَطيّةٍ قليلٍ ولا كثيرٍ مما حوته ، حتى تُعوَّض أكثرَ مما تُعطِى إمّا عاجلاً وإمّا آجلاً مما تَستلذُّه حواسُّها

فعَلِمَ اللهُ أنهم لايتعاطفون ولا يتواصَلون *ولا ينقادون إلّا بالتأديب ، وأنّ التأديب ليس إلا بالأمرِ والنهى ، *وأن الأمرَ والنهى غيرُ ناجعَين *فيهم إلّا بالترغيب والترهيب اللذين فى *طباعِهم . فدعاهم بالترغيب إلى جنّته وجعلها عِوَضاً مما تركوا فى جَنبِ *طاعته ، وزَجَرَهم بالترهيب بالنار على مَعصيته وخوّفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تركهم جلّ ثناؤه *والطبع الأوّل جَرَوا على

---

(١) التنوق ، صححنا : التلون ن ء — (٢) والطعم ذو الطيبة ن — كراهيته فى طبائعها ء — (٤) فهذه الخلال التى < وصفت لك > تجمعها ء — (٥) إلا أنها ء — (٦) [قدر] القلة [فيه] والكثرة ء — (٧) [به] ن — (١٣) [ولا ينقادون] ء — (١٤) [وأن الأمر والنهى] ن — [فيهم] ء — (١٥) طبائعهم ء — (١٦) طاعتهم ن — (١٧) والطباع ن

سَنَن الفِطرة *وعادةِ الشيمة ، ثم أقام الرَّغبة والرَّهبة على حـدود العَـدل وموازين النَّصَفة ، وعدَّلهم تعديلاً متفقاً فقال فَمَنْ يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

ثم أخبر *الله تبارك وتعالى أنّه غيرُ داخلٍ فى تدبيره الخَلَلُ ولا *جائز عنـده المحاباة ، لِيَعمل كلُّ عامل على ثِقَة مما وَعَده وأوعده . فتعلّقَت قلوبُ العباد بالرَّغبة والرَّهبة ، فاُطّرد التدبير واستقامت السياسة ، لموافقَتها ما فى الفِطرة وأخذِهما بمجامع المصلحة

ثم جعل أكثر طاعته فيما تَستثقِل النفوسُ وأكثرَ معصيته فيما تلَذّ . ولذلك قال النبىُّ صلّى الله عليه وآله وسلم : « حُفّت الجنّة بالمكاره والنّار بالشهوات » ، *يخبر أنّ الطريق إلى الجنة احتمالُ المكاره والطريقَ إلى النار اُتّباعُ الشهوات* . *فإذ كانوا لم يَصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلّا بما وصفتُ *لك من الرغبة والرهبة ، فأعجزُ الناس رأياً وأخطأُهم تدبيرًا وأجهلُهم بموارد الأمور ومصادرها مَن أمّل أو ظنّ أو رجا أنّ أحداً مِن الخلق — فوقَه *أو دونَه — يَصلح له ضميرُه أو يصِحّ له بخلاف ما دبَّرهم الله عليه فيما بينه وبينهم . فالرغبة والرَّهبة *أصلا كل تدبير وعليهما مدارُ كلّ سياسة عَظمَت أو صَغُرَت . فاُجعلهما مِثالك الذى يُحتذَى عليه ورُكنكَ الذى يُستند إليه

---

(١) وعادات ى — (٤) [الله] ى — جائزة ى — (١٠-١١) [يخبر . . . الشهوات] ن — (١١) فاذا ى — (١٢) [لك] ن — (١٤) أو دونه <أو من يظن أن> يصلح ن ، أو دونه يصح له ضميره بخلاف ى — (١٥) أصل لـكل ى

(*)*وأُعلم أنك *إن أهملتَ ما وصفتُ لك ، عرّضتَ تدبيرك للاختلاط . وإن *آثرتَ الهوينا واتّكلت على الكُفاة فى الأمر الذى لا يجوز فيه إلّا نظرُك ، *وزجّيت أمورَك على رأى مدخول وأصل غير محكم ، رجع ذلك عليك بما لو *حُكِّم فيك عَدُوُّك كان ذلك غاية أمنيته وشِفاء غيظه

وأُعلم أنّ إجراءك الأمورَ مجاريَها واستعمالك الأشياء على وُجوهها ، يجمعُ لك أُلفة القلوب ويُعاملك كلٌّ مَن عاملك بمودّةٍ *أخذاً وإعطاءً ، وهو على ثِقَة مِن *بَصَرِك *بمواضع الإنصاف وعلمِك بموارد الأمور(*)

وأُعلم أنّ أَثَرَتَك على غير النَصيحة والشَفَقَة والحُرمة والكِفاية *توجِب المباعَدة وقلةَ الثِقة ممن آثرتَه أو آثرتَ عليه . فأُعرف *لأهل البلاء ممن جرَت بينك وبينه مودّةٌ أو حُرمة — ممن فوقك أو دونك أو نظراءك — أقدارَهم ومنازلَهم ، *ثم لِتَكُن أمورُك معهم على قدر البلاء والاستحقاق . *ولا تُؤثر فى ذلك أحداً بهوى ، فإنّ الأَثَرَة على الهوى توجبُ السَخطة وتوجبُ استصغارَ عظيم النعمة *ويُمحق بها الإفضالُ *وتفسُد بها الطائفتان مَن *آثرت ومَن آثرتَ عليه

---

(١) اعلم م — إذا أهملت م — (٢) آثرت الهوينا على الكفاية التى لا يجوز فيها ى — على الكفاية فى الأمر م — (٣) وركبت أمورك ى ، ورجيت أمرك م — (٤) حكم < به > فيك ى — (٦) أخذا واعطاء ، صححنا : أو أخذ أو اعطاء ن ، وأخذ واعطاء م ، فى أخذ أو اعطاء ى — (٧) نصرك ى م — بمواقع ى — (٨) توجب <لك> ى — (٩) لأهل البلد ن — (١١) ثم لم تكن أمورك معهم بقدر ن — (١٢) ولا تؤثر فى ذلك أحدا بهوى ، صححنا : ولا تؤثر فى ذلك أخذ الهوى ن ، ولا تؤثر أحدا فى ذلك بهوى ى — (١٣) ويمحى ى — وتفسد عليها ن — (١٤) آثرته ى

(*-*) (١-٧) واعلم ... الأمور : رواية م (٤)

أمّا مَن *آثرت فإنه يعلم أنّك لم تؤثره باُستحقاق بل لِهوًى فهو مترقّب أن ينتقل هواك إلى غيره *فتحول أَثَرَتُك حيثُ مالَ هواك . فهو مدخول القلب فى مودّتك غيرُ آمِنٍ لِتغيُّرك

وأمّا من آثرتَ عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلتَ له السبيلَ إلى الطعن عليك وأعطيتَه الحُجّة على نفسك . فكلٌّ من يعمل على غير ثِقةٍ *عاد ما أراد به النفعَ ضَرَراً *والإصلاحَ فساداً . وربما آثرَ الرجلُ المرءَ مِن إخوانه بالعطيّة السنيّة *على بلاء أبلاه ، فيعظُمُ *قدرُه عنده ، حتى لعلّه تطيب نفسُه ببذل *ماله ودمه دونَه . *فإن أعطى مَن أبلى كبلائه وكانت له مثلُ *دالّته أكثر مما أعطاه ، انتقل *كلٌّ محمود مِن ذلك مذمومًا وكلٌّ مستحسن *قبيحًا . *وكذلك الأمرُ فى العُقوبة يجريان مجرى واحداً . *فاجعل العدلَ والنَصَفة فى الثواب والعقاب *حَكَمًا بينك وبين إخوانك ، فمن قدّمتَ منهم فقدِّمه *بالاستحقاق وبصحة النيّة فى مودّته وخلوص *نصيحته مما قد بلوتَ من أخلاقه وشِيَمه وعلمتَ بتجربتك له أنّه يعلمُ أن صلاحَه موصولٌ بصلاحك وعطبَه كائنٌ مع عطبك . ففوّض الأمرَ إليه وأشرِكه فى خواصّ *أمورك وخفيّ أسرارك . ثم اُعرف له قدرَه فى مجلسك *ومُحاورتك *ومُعاملتك ، فى كلّ حالاتك ومُزاولاتك ، فى خَلَواتك معه* وبحضرة جُلسائك . فإنّ ذلك

---

(١) آثرته ى — (٢) فتتحول ى — (٥) خال ما أراد ى — (٦) والاصلاح ⟨فيه⟩ فسادا ى — (٧) بلا بلاء ن — فيعظم قدرها ن — (٨) ماله ونفسه ى — فان ⟨من⟩ أعطى ن — دلالته ن — (٩) كل مذموم من ذلك محمودا ن — مستقبحا ن — (١٠) وكذلك ذلك ن — واجعل ن — (١١) حاكما ن — (١٢) على الاستحقاق بصحة ن — نصيحته ⟨لك⟩ ممن قد بلوت فى أخلاقه ن — (١٤) أمرك ى — (١٥) ومحادثتك ى — (١٥-١٦) [ومعاملتك . . . معه] ى

*زيادةً فى نيّته وداعيةً لمن دونه إلى التّقرب إليك بمثل نصيحته . (*)فإن *ابتُليتَ فى بعض الأوقات بِمَن *يتقرّب بحرمة ويمُتُّ بدالّة ، يطلبُ المكافأة بأكثرَ مما يَستوجب ، فدعاك الكرمُ *والحياء إلى تفضيله على من *هو أحقّ منه ، إما *خَوفاً من لسانه أو مُداراةً لغيره ، فلا تدع الاعتذارَ إلى *من فوقَه من أهل البلاء والنصيحة وإظهارَ ما أردتَ من ذلك لهم . فإنّ أهلَ خاصتك والمؤتمنين على أسرارك ، هم شركاؤك فى العَيش ، *فلا تستهيننّ بشىء من أمورهم . فإنّ الرجل قد يترك الشىء من ذلك اُتّكالاً على حُسن رأى أخيه ، فلا يزالُ *ذلك يجرحُ فى القلب *وينمو ، حتى يولِد ضِغناً ويحولَ عداوة . فتحفّظ من هذا الباب واحمل إخوانَكَ عليه بجُهدك

وستجدُ *فيمن يتصل بك مَن *يغلبه إفراطُ الحرص وحُميًّا الشره ولينُ جانبك له ، على أن يَنقم العافية ويطلبَ *اللحوق بمنازل *مَن ليس مثلَه ولا له مثل دالّته ، فتلقاه لما *تصنع به مُستقلّا ولمعروفك مستصغراً . وصلاحُ مَن كانت هـذه حالهُ بخلاف ما فَسَد عليه أمره . فاعرف طرائقهم وشِيَمهم ، وداوِ كلَّ مَن لابدّ لك مِن مُعاشرته بالدواء الذى هو أنجعُ فيه : إنْ ليناً فليناً ، وإن شدّةً فشدّة . فقد قيل فى المثل :

مَن لا يؤدّبه الجميـــلُ ففى عُقوبته صلاحُه(*)

---

(١) زائد فى نيتك وداع ى — (٢) بليت ى — يضرب ى — (٣) [والحياء] ى — [هو] ف — (٤) تخوفا ف — من <هو> فوقه م — (٦) فلا تستهن ى ، لا تستهينن م — (٨) كذلك م — وينمى ى — (١٠) ممن يتصل بك ممن ف ، من يتصل بك ممن م — من يعطيه ى — (١١) اللحاق ى — من ليس <هو> مثله ف — (١٢) تصنع [به] مستقلا ى

(*-*) (١-١٦) فان ابتليت . . . صلاحه : رواية م (٥)

*وقال بعضُ الحكماء : ليس بحكيمٍ مَن لم يُعاشر *مَن لا يجدُ مِن مُعاشرته بدًّا* بالعدل والنَّصَفة ، حتى يجعل الله *له من أمره فرجاً ومخرجاً

*فاحفظ هذه الأبوابَ التى يوجِبُ بعضُها بعضاً . وقد ضَمِنتَ *لك أوائلُها كونَ أواخرها ، *فاعرِفها واقتبسها ، وأعلم أنّه متى كان الأوّلُ منها وَجَب ما بعده لا بُدّ منه . فاحذرِ المقدّمات التى يَعقُبها المكروه ، وأحرِص على توطيد الأمور التى على أثرها السلامة ، *وألقح فى البدىّ أمورًا* *نِتاجها العافية . فمِن الأمور التى يوجبُ بعضُها بعضاً : المنفعةُ توجب المحبّة والمضرّةُ توجب البَغضاء والمُضادّةُ توجب العَداوة ، وخلافُ الهوى يوجب الاستثقال *ومتابعتُه توجب الأُلفة ، والصدقُ يوجب الثقة والكذبُ يورث *التهَمة والأمانةُ توجب الطُّمأنينة ، والعدلُ يوجب اجتماعَ القلوب والجَورُ يوجب الفُرقة ، وحُسنُ الخُلُق يوجب المودّة وسُوء الخُلُق يوجب *المباعدة ، والانبساطُ يوجب المُؤانسة والانقباضُ يوجب الوَحشة ، *والكِبرُ *يورث المقتَ والتواضعُ يوجب المِقة ، *والجودُ بالقصْد يوجب الحمد والبخلُ يوجب المذمّة ، والتَوانى يوجب التضييع والجِدُّ يوجب رخاء *الأعمال ، والهُوينا تورث الحَسرة والحزمُ يورث السُرور ، والتغريرُ *يوجب النَدامة والحَذَرُ يوجب العُذر *وإصابةُ التدبير توجب بقاءَ النعمة ، والاستهانةُ توجب التَباغى والتباغى *مقدّمة الشرّ وسببُ البوار

---

(١) وقد قال ء — (١-٢) من لا بد له من معاشرته ء — (٢) له [من أمره فرجا [ومخرجا] ن — (٣) واحفظ ء — [لك] ء — (٤) [فاعرفها] واقتبسها — (٦) والقمح فى يدى الأمور التى ن — نتائجها ء — (٨) والمتابعة ء — (٩) النميمة ن — (١١) التباعد ء — (١٢) موضع أكلة فى ن وكأنها « والتكبر » — يوجب ء — (١٣) والجود والفضل يوجبان ء — (١٤) [الأعمال] ء — (١٥) يورث ء — (١٦) [وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة] ن — (١٧) مقدمات ن

ولكلّ شيء *من هذه إفراط وتقصير . وإنّما تصحّ نتائجها إذا أقيمت على حـدودها . وبقدر ما يَدخلُ من الخلل فيها يَدخل فيما يتولّد منها ، لا بدّ منه ولا مَزحَلَ عنه ، عليـه عادةُ الخَلق وبه جرَت طبائعُهم ، وتمامُ *المنفعة بها إصابةُ *مواضِعها . فالإفراطُ فى الجُود يوجب التبذير ، والإفراط فى التواضُع *يورث المذلّة ، والإفراطُ فى الـكِبر *يدعو إلى مَقتِ الخاصّـة ، والإفراطُ فى المؤانَسة يدعو خُلَطَاءَ السُوء ، *والإفراطُ فى الانقباض يوحشُ *ذا النَصيحة ، وآفةُ *الأمانة ائتمانُ الخانة ، وآفةُ الصدق تصديق الـكَذَبة ، والإفراط فى الحَذَر *يدعو إلى أن لا يُوثَق بأحد وذلك ما لا سبيل إليه ، *والإفراطُ فى المضرّة مَبعثـة على حَرْبك* ، والإفراطُ فى جرّ المنفعةِ غِنًا لمن أفرطتَ فى نفعه عنك .

وأُحذر كلّ الحَذَر أن *يختدعك الشَيطان عن *الحزم ، فيُمثِّلَ لك التَوانى فى صورة التوكّل ويسلبَك الحَذَر ويورثَك الهُوينا بإحالتك على الأقدار . *فإنّ الله إنّما أمرَ بالتوكّل عند انقطاع الحِيَل والتسليم للقَضاء بعد الإعذار . بذلك أنزل كتابه وأمضى سُنّته ، فقال خُذُوا حِذْرَكُمْ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَة . وقولُ النبىّ صلّى الله عليه *وآلِه وسلّم « اِعقِلها وتوكّل » . وسُئل ما الحزمُ ؟ قال الحذر . فتحفّظ من هذا الباب وأحكِم معرفتَه إن شاء الله تعالى

(١) من هذا ن — (٤) النعمة — موضعها ء — (٥) يوجب ء — يدعو العقب ن — (٦) والإفراط فى < الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد و > الانقباض ن — (٧) ذوى النصيحة ء — الائتمان ن — (٨) يدعو [إلى] ألا يثق ء — (٩) [والإفراط فى المضرة ... حربك] ن — (١١) يخدعك ء — الحرص ن — (١٣) فإن الله < عز وجل > ء — (١٥) [وآله] ء

(١٤) سورة النساء ٧١ والبقرة ١٩٥

وأُعلم أنّ أكثرَ الأمور إنما *هو على العادة وما تُضَرّى عليه النُفوس، ولذلك قالت الحكماء : العادةُ أملكُ بالأدب . فَرُضْ نفسَك على كل أمرٍ محمود العاقبة *وضَرِّها بكلّ ما لاَ يُذَمُّ من *الأخلاق ، يَصِرْ ذلك *طِباعًا ويُنسبْ إليكَ منه أكثرُ مما أنت عليه

وأُعلم أنّ الّذى يُوجب لكَ اسمَ الجود القيامُ بواجب الحقوق عند النوائب مع بعض التفضّل على الراغبين ، وإذا وجب لك اسمُ الجود زالَ عنك اسمُ البُخل

وأُعلم أنّ تثميرَ المال آلةٌ للمكارم وعَونٌ على الدين ومُتَألَّف للإخوان ، *وأنّ مَن قد فقد المال قلّت الرغبةُ إليه والرهبةُ منه ، ومن لم يكنْ بموضع رَغبةٍ ولا رهبةٍ استهان الناسُ *به . فاُجهدْ الجَهدَ كلّه ألّا تزالَ القلوبُ معلّقة منك برغبةٍ *أو رهبةٍ فى دينٍ أو دنيا

وأُعلم أنّ السَرَف لا بقاءَ معه لِكثير ولا تثميرَ معه لِقليل ولا تَصلحُ عليه دُنيا ولا دين . *وتأدّب بما أدّب الله نبيّه* فقال وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا . وقالت الحكماء : القَصدُ أبقَى للجِمام . فداوِم حالكَ وبقاءَ النعمة عليك بتقدير *أمورِكَ على قَدرِ الزمان *بقدر الإمكان . فقد قال الشاعر

مَن سابق الدهرَ كبَا كبوةً لم يَسْتَقِلْها مِن خُطى الدهرِ

(١) هى ء — (٣) ورضها ء — الاخلاص يصير ت — (٤) طبعا ء — (٩) و[أن] من [قد] فقد ء — (١٠) بقدره ء — (١١) ورهبة ء — (١٣) وتأديب الله فيه ما أدب به نبيه صلى الله عليه وسلم ت — (١٥) أمرك ء — (١٦) وبقدر ء

(١٣ — ١٤) سورة الإسراء ٢٩

فأخْطُ مَعَ الدهر* إذا ما خَطَا   وأجرِ مَعَ الدهر كما يجرى

وأعلم أنّ الصمت فى موضعه ربّما كان أنفعَ من الإبلاغ بالمنطق فى *موضعه وعند إصابة فُرصته ، وذلك صمتُك عند مَن يعلم أنّك لم تصمتْ عنه عِيًّا ولا رَهبةً . فليَزِدْك فى الصمت رغبةً ما ترى من *كثرةِ فضائح المتكلّمين فى غير الفُرَص وهَذَرِ مَن أطلق لسانه بغير *حاجة

وأعلم أنّ الجبنَ جُبنان والشجاعةَ شجاعتان ، *وليس تكونُ الشجاعة والجبنُ إلّا فى كلّ أمرٍ لا يُدرَى ما عاقبتُه يُخاطَر فيه بالأنفسِ والأموال . فإذا أردتَ الحزمَ فى ذلك فلا تَشجُعَنَّ نفسُك على أمرٍ أبداً إلّا والذى ترجو من نفعه فى العاقبة أعظمُ ممّا تبذلُ فيه *فى المُستقبَل ، ثمّ يكونُ *الرَجاء فى ذلك أغلبَ عليك من الخوف . وهاهنا موضعٌ يُحتاج فيه إلى النَظر : فإن كان ذلك أمراً واجباً فى الدين أو خوفاً لعارٍ تُسَبُّ به الأعقابُ فأنت معذورٌ *بالمُخاطرة فيه بنفسِك ومالِك . وإن كان *أمراً تعظُمُ منفعتُه للدُّنيا إلّا أنّك لا تنالهُ إلّا بالخِطار بمُهجة نفسك أو بتعريضِ كلّ مالِك للتَلَف ، فالإقدامُ على مثل هذا ليس بشجاعةٍ ولكن حماقة بيّنة عند جميع الحكماء . وقد قالت *علماء أوائل الناس : لا تُرسِل الساقَ إلّا *مُمسكاً ساقاً . وقالوا : لا تُخرج الأمرَ كلّه من يدك وخذ بأحد جانبيه . ثمّ الشجاعةُ والجبنُ فى ذلك بقدر الحالات والأوقات

وأعلم أنّ أصلَ ما أنت مُستظهرٌ به على عدوّك ثلاثُ خِلال : أشرفُها أن

---

(١) على ما خطا ى — (٣) فى <غير> موضعه ɔ — (٤) [كثرة] ى — (٥) حاجته ى — (٦) وليست الشجاعة ى — (٩) من المستقبل ɔ — (٩-١٠) الرجاء أعظم ذلك ɔ — (١٢) فى المخاطرة ى — أمر ى — (١٥) علماء الأوائل ى — ممسك ɔ

تأخذَ عليه بالفَضل وتبتدئه بالحُسنى ، فتكونَ عليه رَحمةً ولنفسك ناظراً ، فإنّ كثرةَ الأعداء تنغيصٌ للسرور . وقد قال الله تبارَكَ وتعالى اُدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . فإن كان عدوُّك ممَّن لا يصلُح على ذلك ، فحصِّن عنهُ أسرارَكَ وعَمِّ عليه *آثارَ تدبيرك ولا يطَّلِعنَّ على شىء من *مَكايدِكَ له بقولٍ ولا فعلٍ ، فيأخذَ حِذْرَه ويعرفَ مواضعَ عوارك . فإنّ تحصينَ الأسرار أخذٌ بأزمّة التدبير *وإكثارُ الوعيد للأعداء فَشَلٌ ، ولكنْ داجِ عدوَّك ما دَاجاك وأحصِ معايبه *ما لاحاك . وقال الشاعر :

كلٌّ يُداجى على البَغضاء صاحبَه ‌ ‌ زَكِنتُ منهم على مِثل الذى زَكِنوا*

وأعلم أنّ أعظمَ أعوانك عليه الحججُ *ثم الفُرصة . ثم لا تُظهرنّ عليه حُجّةً ولا تهتبلْ منه غِرّةً ولا تطلبنّ له عَثرةً ولا تهتكنّ له سِترًا ، *إلاّ عند الفُرصة فى ذلك كلّه وفى المواضِع التى يجبُ لك فيها العذرُ ويعظمُ فيها ضَرَرُه . هــذا إن كان العفوُ عنهُ شرًّا له . وإن كان ممّن يُظهر لك العَداوة ويكشفُ لك قِناعَ المحاربة وكان ممّن أعياكَ استصلاحُه بالحِلم والأناة ، فلتكن فى أمره بينَ حالين : *استبطانِ الحَذَر منه والاستعدادِ له ، وإظهارِ الاستهانةِ به . ولستَ مستظهراً عليه بمثل طَهَارتك من الأدناس وبراءتِك من المعايب . فلتكن هذه سيرتُك فى أعدائك

(٤) [آثار] ء — (٥) مكايدتك ﮋ — (٦) والاكثار من الوعيد للأعداء ء — (٧ - ٩) [ما لاحاك . . . زكنوا] ء — (١٠) [ثم الفرصة] ﮋ — (١١) [إلا] ﮋ — (١٥) استظهار ء

وأُعلم أنّ إشاعة الأسرار فسادٌ فى كلّ وجهٍ من الوجوه *من العـدوّ والصّديق . وقد رُوىَ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال « اسْتعينوا عَلَى الحَوائج بسَترها ، فإنّ كلّ ذى نِعمةٍ محسود »

وإذا أفشيتَ سرّك فجاءت الأمورُ على غير ما تُقدِّر كان ذلك منكَ فضلاً من قولك على فعلك . وقد قيـل *فى الأمثال : مَن أفشى سرّه كثُر *المتآمِرون عليه . *فلاتضَعْ سرّك إلاّ عندَ من يضرُّه *نَشرُه كما يضرّك وينفعُه *سَترُه بحسب ما ينفعُك

وأُعلم أنّك تَستصحِبُ من الناس *أجناساً متفرّقةً حالاتُهم متفاوتةً منازلهُم ، *وكلُّهم بك إليه حاجة وكلُّ طائفةٍ تسـدّ عنك كثيراً من المنافِع لا تقومُ به مَن فوقها ، ولعلَّهم مجتمعون على نصيحتك والشَفَقةِ عليك . فمنهم من تريدُ منه الرأىَ والمشُورة *ومنهم مَن تريده للحفظِ والأمانة* ومنهم مَن تريدُه للشدّة والغلظة ومنهم مَن تريدُه للمِهنة ، وكلٌّ يسدّ مَسدّه على حِياله . وقد قيل فى الحـكمة : إنّ الخِلالَ تنفعُ حيثُ لا ينفعُ السيف . ولا تُخلينّ أحداً *منهم — عظُم قدرُه أو صغُرت منزلتُه — مِن عِنايتك وتعهُّدك ، بالجزاءِ *على الحَسَنة والمعاتبةِ عند العَثْرة ، لِيَعلموا أنّهم منك بمرأًى ومسـمعٍ . ثم لا تجوزنّ بأحدٍ منهم حدّه ولا تُدخلْه فيما لا يصلُح له ، يسـتقمْ لك حالُه *ويتّسق لك أمرُه

---

(١) والعـدو ن — (٤ - ٥) [وإذا أفشيت . . . على فعلك] ى — (٥) فى < مثل من > الأمثال ى — (٦) المتمادون ى — ولا ى — [نشره] ى — (٧) نشره ن — (٨) أصنافا ى — (٩) [و] كلهم ى — (١١) [ومنهم . . . والأمانة] ن — (١٤) [منهم] ى — (١٥) عند ى — (١٧) يتفق ن

وأُعلم *أنْ سيمرُّ بك *فى معاملاتِ الناس حالاتٌ تحتاجُ فيها إلى مُداراةِ *أصنافِ الناس وطبقاتِهم ، يبلغُ بك غايةَ الفضيلةِ فيها وكمالَ العقل والأدب منها ، أن تسالمَ أهلَها وتملكَ نفسَك عن هواها *وتكفَّ عن جِماحها ، *بأمرٍ لا يُحرجُك فى دينك ولا عِرضك ولا بدنك ، بل يفيدك *عِزَّ الحِلم وهَيْبة الوقار . وهى أمورٌ مختلفة تجمعها حالٌ واحدة : منها أن تأتىَ محفلاً فيه *جمعٌ من الناس ، فتجلسَ منه دونَ الموضع الذى تستحقّه ، حتّى يكونَ أهلُه *الذين يرفعونك فتظهرَ جلالتُك وعِظَمُ قدرِك . ومنها أن يُفيضَ القومُ فى حديثٍ عندك منه مِثلُ ما عندهم أو أفضل ، فيتنافسون فى إظهارِ ما عندهم . فإن نافستَهم كنتَ واحداً منهم ، وإن أمسكتَ اقتَضوْكَ ذلك ، فصِرتَ كأنّك ممتنٌّ عليهم بحديثِك ، وأنصتوا لكَ ما لم يُنصِتوا لغيرك . ومنها أن *يتَمارى جُلَساؤك ، والمِراء نتاج اللّجاجة وثمرةُ أصلها الحَميّة ، فإن ضبطتَ نفسَك كان تحاكُمهم إليك ومعوَّلُهم عليك

وأُعلم أنّ طبعَ النُفوس — *إذ كان على حُبِّ العُلوِّ والغَلَبة — أنّ فى تركيبها بُغضَ مَن استَطالَ عليها . فأستدعِ محبّةَ العامّة بالتواضع ومودّةَ الأخلاّء بالمؤانَسةِ والاستشارةِ والثقةِ والطُمأنينة

وأُعلم أنّ الذى تُعامِل به صديقَك هو ضدُّ ما تُعامِل به عدوّك ، فالصديقُ وجهُ معاملتِه المسالمة والعدوُّ وجه مُعاملته المُداراة *والموارَبة ، *والمسالمة والمُداراةُ

(١) أنه ى — مع معاملات ت — (٢) اختلاف ت — (٣) لعل الصواب : وتكف من — (٣ - ٤) بالأمر الذى لا ى — (٤) عن ت — (٥) جماعة ى — (٦) [الذين] ت — (١٠) تمارى ى — (١٣) إذ كان ، صححنا : إن كان ت ، إذا كان ى — (١٧) [والموارَبة] ى — [والمسالمة والمداراة] ت

هما ضدّان يتنافيان *يُفسدُ هذا ما أصلَحَ هذا* ، *وكلما نقصتَ من أحد البابين* زادَ فى صاحبه ، إنْ قليلٌ فقليل وإن كثيرٌ فكثير . فلا تسلمْ *بالموار بة صداقة *ولا تظفرُ بالعدوّ مع الاستسلام إليه . فضع الثقةَ موضِعَها وأقِم الحذرَ *مُقامه وأسرِعْ إلى التفهُّم بالثّقة *ولا تبادر إلى التَّصديق ولا سيّما بالمحال من الأمور

وأُعلم أنّ كلّ علمٍ *بغائب — كائناً ما كان — إنّما يُصابُ مِن وُجوه ثلاثة لا رابعَ لها ، ولا سبيلَ لك ولا لِغيرك إلى *غايةِ الإحاطات لاستِئْثار الله بها . ولن تَهنأ بعيشٍ مع شدّة التحرّز ولن يتّسق لك أمر مع التَّضييع . فاُعرف أقدار ذلك

فما غاب عنك ممّا قد رآه غيرك *مما يُدرَك بالعِيان ، فسبيلُ العلم به الأخبارُ المتواترة التى يحملها الولىُّ والعدوُّ والصالح والطالح المُستفيضةُ فى الناس ، فتلك لا كُلفةَ على سامعها من العِلم بتصديقها . فهذا الوجهُ يستوى فيه العالِم والجاهل

وقد يجىء خبرٌ *أخصّ من هذا ، إلاّ أنه لا يُعرَف إلاّ بالسُّؤال عنه والمفاجأةِ لأهله . كقومٍ *نقلوا خبراً ، *ومثلُك يحيطُ علمُه أنّ مثلهم فى تفاوتِ أحوالهم وتباعدِهم من التَّعارف *لا يمكنُ فى مِثله التواطؤ ، وإن جَهِلَ ذلك أكثرُ النَّاس . وفى مثلِ هذا الخبر *يمتنعُ الكَذِب ولا يتهيّأ الاتّفاق فيه على الباطل

---

(١) صلاح هذا ما أفسد هذا ى — وكلما نقص من أحدهما ى — (٢) بالمداراة ن — (٣) فلا ن — (٤) مكانه ى — ولا تبادرن ى — (٦) [بغائب] ى — (٧) غايات ى — (١٠) [مما يدرك] ى — (١٤) أصح ن — (١٥) فعلوا خيرا ن — وعلمك محيط ى — (١٦) لا يكون ى — (١٧) يشنع ى

وقد يجىء خبرٌ أخصُّ من هذا يحمله الرّجلُ والرّجلان ممن *يجوز أن يَصدُقَ ويجوز أن يكذب . فصِدقُ هذا الخبر فى قلبك إنما هو بحسنِ الظنّ بالمُخبِرِ والثِقة بعدالَته . ولن يَقومَ هذا *الخبر من قلبك ولا قلبِ غيرك مَقامَ الخبرين *الأوّلين . ولو كان ذلك كذلك بَطَل التصنُّع بالدّين واستوى الظّاهرُ والباطنُ من العالمين

ولمّا أن كان موجوداً فى العُقول أنّه قد يُفتَّشُ بعضُ الأُمَناء عن خِيانة وبعضُ الصادقين عن كَذِب ، *وأنّ مثلَ الخبرين الأوّلين لم يتعقّب الناسُ فى مِثلهما كذباً قط ، *عُلِمَ أنّ الخبرَ إذا جاء *من مِثلهما جاء *مجىءَ اليقين ، وأنّ ما عُلِم من خبر الواحد فإنّما هو بحسن الظنّ والائتمان . *هذه الأخبارُ عن الأمور التى تُدركها الأبصارُ

فأمّا العلمُ بما غابَ ممّا لا يُدركه أحدٌ بعيان ، مثلُ سرائرِ القلوب وما أشبهها ، فإنما يُدرَكُ علمُها بآثار أفاعيلها *وبالغائبِ من أمورها على غير إحاطة كإحاطة الله بها

*وأوّل العلمِ بكلّ غائب الظنون . والظُنونُ إنّما تقعُ فى القلوب بالدلائل ، فكلّما زاد الدّليلُ قَوِىَ الظَنُّ حتّى ينتهىَ إلى غايةٍ تزولُ معها الشُكوكُ عن القلوب ، وذلك لِكثرة الدلائل *ولِترادُفها

---

(١) < لا > يجوز ء — (٣) [الخبر] ن — (٤) الأولين < أبدا > ء — (٧) أو مثل ن — (٨) على ن — مجىء ء — على اليقين ء — (٩) بهذه ن — (١٢) وبالغائب ن — (١٤) وأوائل ء — (١٦) [ولترادفها . . . الغائبة] ن

فهذا غايةُ علم العباد بالأمور الغائبة* . (*)فمن عَرَفَ ما طُبع عليه الخلقُ وجرت *به عاداتُهم وعَرَفَ أسبابَ اتصالِهم واتّصالِه بهم وتقصَّى *عِلَلَ ذلك ، كان خليقاً — إن لم يُحِطْ بعلمِ ما فى قلوبِهم — أن يقعَ مِن الإحاطةِ *قريباً

(**)واعلم أنّ المقاديرَ ربَّما جرَت بخلافِ ما يُقدِّر الحكماء ، فنالَ *بها الجاهلُ فى نفسه المختلِطُ فى تدبيره ، ما لا ينالُ الحازمُ الأريبُ الحذِر . فلا يدعُوَنّك ما ترى من ذلك إلى التَضييع والاتّكال على مثلِ تلك الحال ، فإنّ الحُكماء قد أجمعتْ أنّ مَن أَخَذَ بالحزمِ وقدَّم الحَذَرَ ، فجاءتْ المقاديرُ *بخلاف ما قدَّر ، كان عندهم أحمدَ رأياً وأوجبَ عُذراً ممَّن عَمِل بالتفريط ، وإن اتّفقت له الأمور على ما أراد . *ولعمرى ما يكاد *ذلك يجىء إلاّ فى أقلّ الأمور . *وما كثُر مجىء السّلاماتِ إلاّ لِمَن أتى الأمورَ* مِن وجوهِها . وإنّما الأشياء بعوامّها*

فلا تكونَنّ بشىء ممّا فى *يدَك أشدَّ ضِنًّا ولا عليه أشدَّ حَدَبًا منك بالأخِ الذى قد بلوْتَه *فى السَرّاء والضَرّاء ، *فعرَفتَ مذاهبه *وخبرتَ شِيَمه وصحّ لك غيبُه وسَلِمَت لك ناحيتُه . فإنما هو *شقيقُ رُوحك وباب

(٢) عليه ء — (٣) على ذاك ن — (٣ - ٤) قريبا من الإحاطة ء — (٥) [بها] ن — (٩) خلاف م — (١٠ - ١٢) [ولعمرى ... بعوامها] م — (١٠) يجىء ذلك ء — (١١) [وما كثر ... الأمور] ن — (١٣) يديك ن — (١٤) بالسراء م — [فعرفت مذاهبه] ن — واختبرت ء — (١٥) شق ء

(*) ص ٢٦ ، ١ — ٢٧ ، ١١ [فمن عرف ... والله يوفقك] : انتقل فى ن إلى ما يلى « والمواظبة عليه » ٣٦ ، ٢

(**) واعلم ... المهذب (ص ٢٧ س ٧) رواية م ٦

الرَّوْح إلى حياتك ومُسْتَمَدُّ رأيك *وتَوأَمُ عقلك . ولستَ منتفعاً بعَيشٍ مع الوحدة ولا بدّ من *مؤانســةٍ . وكثرةُ الاستبدالِ تهجُم بصاحبه على المكروه . *فإذا صفا لك أخٌ فكُنْ به أشدَّ ضِنًّا منكَ بنفائس أموالك ، ثمّ لا يُزْهِدنّك فيه أن ترى منه خُلقًا أو خُلُقين تَكرَهُهما ، فإنّ نفسَك التى هى أخصُّ النُفوسِ بك لا تُعطِيك المَقادةَ فى كلٍّ ما تُريد ، فكيف بنفسِ غيرِك . وبِحَسبِك أن يكون لك من أخيك أكثرُه ، وقد قالت الحُكماء : مَن لكَ بأخيك كلّه ، وأىُّ الرّجال المهذَّب . ثمّ *لا يمنعْك ذلك من الاستِكثار مِن *الأصدقاء ، فإنّهم جُنْدٌ مُعَدُّون لك ينشرون محاسنَك ويُحاجُّون عنك . ولا يحملنّك استطرافُ *صديقٍ ثانٍ على* مَلالة الصديق الأوّل ، فإنّ ذلك سبيلُ أهل الجَهالة ، مَع ما فيها من الدّناءة *وسُوء *التَدبير وزُهدِ *الأصدقاء جميعاً فى إخائك ، والله *يوفِّقك

وستجدُ فى الناس مَن قد جرَّبته الرجالُ قبلَك ومَحّضَه اختبارُهم لك . فمن كان مَعروفاً بالوفاءِ فى أوقاتِ الشِدّة وحالاتِ الضَرورة فنافِس فيه وأسبُق إليه ، فإنّ اعتقادَه أنفسُ *العُقدة . ومَن بلاهُ غيرُك فكُشِف عن كُفر النعمة والغَدر عند الشِدّة ، فقد حَذّرك نفسَه وإن آنسَك ، وكما غدَر بغيرك يغدر بك . فإنّ مَن شِيمتُه الوفاء يَفِى للصَديق والعدوّ ، ومَن طبيعتُه الغَدرُ *لا يدوم ، وإنّما يميلُ مع الرُجحان ، *يَذِلُّ عند الحاجة ويَشمَخُ مع الاستغناء . فاحذَر ذلك أشدَّ الحذَر

---

(١) يوم غفلتك ى — (٢) المؤانســة م — (٣) فان م — (٧) لا يمنعك ى — (٨) الصديق ى — (٩) الصديق على ن — (١٠) سوء ى : تفن ن — التذير ى — الصديقين ن — (١١) موفقك ى — (١٤) العقد ى — (١٧) لا يفى لأحد ى — [يذل] فى وقت الحاجة ى

وأُعلم أنّ الحكماء لم تَذُمّ شيئاً *ذمَّها أربعَ خِلال : الـكذبَ ، فإنه جِماعُ كلّ شرّ . وقد قالوا : لم يكذبْ أحـدٌ قطُّ إلاّ لصِغرِ قَدرِ نفسـه عنده . والغضبَ ، فإنّه لُؤمٌ وسُوءُ مَقدُرة . وذلك أنّ الغضب ثمرةٌ لخلافِ ما تهوى النَفس ، فإن جاء الإنسانَ خلافُ ما يهوى مِمّن فوقه أغضى وسمّى ذلك حُزْناً ، وإن جاءه ذلك مِمّن دونه حمله لؤمُ النَفس وسوءُ الطِباع على الاستطالة بالغضب والمقدرة *بالبَسطة . والجزَعَ عند المُصيبة التى لا ارتجاعَ لها ، فإنهم لم يجعلوا لصاحبِ الجزعِ فى *مِثل هذا عُذراً ، لِما يتعجّل من غمّ الجزع ، مع عِلمِه بفوتِ المجزُوعِ عليـه . وزعموا أنّ ذلك من إفراطِ الشرَه ، وأنّ أصلَ *الشرَه والحسَـد واحد وإن افترق فرعاهما . وذمّوا الحسَدَ كذمِّهم الجزَع ، لِما يتعجّل صاحبُه من *ثِقَل الاغتمام وكُلفةِ مُقاساة الاهتمام ، من غير أن يكون عليه فى ذاك شىء . فالحسـدُ اُغتِمامٌ والغَدْرُ لؤمٌ . وقال بعضُ الحكماء : الحسدُ خُلقٌ دَنِىء ، ومِن دَناءته أنه يبدأُ بالأقربِ فالأقرب . وزعموا أنه لم يَغدر غادِرٌ قطّ إلاّ لِصغَر همّته عن الوَفاء وخمولِ قَدرِه عن احتمالِ المكاره فى جنب نَيل المكارم

و بقدرِ ما ذمّت الحكماء *هذه الأخلاق الأربعة* فـكذلك حَمِدتْ أضدادَها من الأخلاق ، فأَ كثرتْ فى تفضيلِها *الأقاويل وضرَبَت فيها الأمثالَ ، وزعمتْ أنها أصلٌ لكلّ كَرَم وجِماعٌ لكلّ خَير ، وأنّ بها تُنالُ جِسام الأمور *فى الدُنيا والدين* . فاُجعل هذه الأخلاق إمامًا لك ومَثَلاً بين

---

(١) < قط > ى — (٦) بالبطش ى ، العبارة غيرمستقيمة ولعل صوابها : « والمقدرة والبسطة على البطش » — (٧) [مثل] ى — (٩) الشر ى — (١٠) [ثقل] ى — (١٥) من هذه الأخلاق الثلاثة ن — (١٦) الأوائل ى — (١٨) فى الدين والدنيا ى

عينيك ورُض عليها نفسَك وحَكِّمها فى أمرِك ، تَفُزْ بالرَاحة فى *العاجل والكرامة فى الآجل

والصبرُ صَبران ، فأعلاهما أن تَصبِرَ *على ما ترجُو فيه الغُنْمَ فى العاقبة . والحِلمُ حِلمان ، فأشرفُهما حِلمُك عمّن هُوَ دونَك . والصِدقُ صِدقان ، *أعظمُهما صِدقُك فيما يَضرُّك . والوَفاء وفاءان ، *أَسناهُما وفاؤُك لِمَن لا ترجوه ولا تخافه . فإنّ مَن عُرِفَ بالصِدق صار الناسُ له أتباعاً ، ومن نُسِبَ إلى الحِلم أُلبس ثَوبَ الوقار والهيبةِ وأُبَّهَةِ الجلالة ، ومن عُرِف بالوفاء *استنامت إلى الثقة به الجماعاتُ* ، ومَن *استعزَّ بالصَبر نال جسيماتِ الأمور . ولعَمرى ما *غلِطَت الحكماء حينَ سَمَّتْهـا أركانَ الدّين والدُنيا . فالصِدقُ والوفاءُ *توأمانِ والصبرُ والحِلمُ *توأمان ، *فبِهِنّ تمامُ كلّ دين وصلاحُ كلّ دنيا ، وأضدادُهنّ سَبَبُ كل فُرقةٍ وأصلُ كلّ فسادٍ

واُحذرْ خَصلةً رأيتُ الناسَ قد استهانوا بها وضيّعوا النظرَ فيها ، مع اشتمالها على الفساد وقدحِها البغضاءَ فى القُلوب والعداوةَ بين الأوِدّاء : المُفاخرةَ بالأنساب . فإنّه لم يَغلط فيها عاقلٌ قَطُّ ، مع اجتماعِ *الإنسِ جميعاً على الصُورة وإقرارِهم جميعاً بتفرُّق الأمور المحمودة *< والمذمومة > ، من الجمالِ والدَمامة واللؤمِ والكَرَم والجُبنِ والشجاعةِ فى كلّ حين ، وانتقالِها من أُمّة إلى أُمّة ، ووجودِ كلّ محمودٍ ومذموم فى أهل كلّ جنس من الآدميّين .

(٢) العاجل < والآجل > ن — (٣) فى كل ما ترجو د — (٤) فأعظمهما د —
(٥) أشناهما ن — (٧ - ٨) استقامت بالثقة به الجماعة ن — (٨) استعان د —
(٩) غلطت < فيها > د — (١٠) توأم ن (مرتين) — (١٠) منهن د —
(١٤) الألسن د — (١٥) < والمذمومة > ، أضفنا : [ ] ن د

وهـذا غيرُ مدفوعٍ عند الجميع . فلا *تجعلنّ لهُ من عَقلِك نصيباً ولا من لسانك حَظًّا ، *تَسْلَمْ بذلك على الناس أجمعين مع السّلامة فى الدين

(*)واُعلم أنّك موسومٌ بسيما مَن قارنتَ ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ مَن صاحبتَ ، فتحرّز من دُخلاء *السُّوء ومجالسـةِ* أهلِ الرِيَب . وقد جرَتْ لك فى ذلك الأمثال وسُطِّرت *لك فيه الأقاويل ، فقالوا : المرءُ حيثُ يجعلُ نفسَـه . وقالوا : يُظَنّ بالمرء *ما يُظَنّ بقرينه . وقالوا : المرءُ *بشِـكله والمرءُ بأليفه . ولن تقدرَ على التحرُّز من *جماعة الناس ، ولـكنْ أقِلِّ المؤانسـةَ إلاّ بأهل البَراءة من كلّ دَنَسٍ

واُعلم أنّ المرءَ بقدرِ ما يَسـبِقُ إليه يُعرَف وبالمستفيض مِن أفعالهِ يوصف ، وإن كان بينَ ذلك كثيرٌ من *خلافِه ألغاهُ الناس وحكموا عليـه بالغالب من أمره . فاُجهدْ أن يكونَ أغلبُ الأشياء *على أفاعيلك ما* تَحمَدُه العوامُّ ولا تذمُّه الجماعاتُ ، فإنّ ذلك يُعَفِّى على كلّ خَلَلٍ إنْ كان . فبادِرْ ألسنَةَ النَاس فاُشغلها بمحاسِنك فإنّهم إلى كلّ *شىء سِراعٌ . واُستظهِرْ على مَن دُونك بالتفضُّل *وعلى نُظَرائك بالإنصاف وعلى *مَن فوقَك بالإجلال ، تأخذْ بوثائقِ الأمور وأزمّةِ التَدبير

واُعلم أنّ كثرةَ العِتاب سَبَبٌ للقطيعة واطّراحَه كلّه دليـلٌ على قلّةِ

---

(١) تجعل ء — (٢) فتسلم ء — (٤) السوء <وأظهر> مجانبة ء — (٥) [لك] م — (٦) ما ظن ۞ — بشكيله ء — (٧) جماعات ء ، [جماعة] م — (١٠) أفعاله ء — (١١) عليك أفاعيلك كلما ۞ ، على أفعالك ما م — (١٣) شر م — (١٤) [وعلى نظرائك] ۞ — <كل> من م

(*) (٣ - ١٥) واعلم ... التدبير : رواية م (٧)

الاكتراث *بأمرِ الصديق ، فكُنْ فيه بينَ أمرين : عاتِبْه فيما تشتركان فى نفعِه وضُرِّه وذلك فى *الهَنات ، وتجافَ له عن بعضِ غَفَلاتِه تَسْلَمْ لك ناحيتُه . وبحسَبِ ذلك فكُنْ فى زيارته ، فإنّ الإلحاحَ فى الزيارة يَذهبُ بالبهاء وربّما أورثَ *الملالة ، وطولُ الهِجرانِ يُعقِبُ الجَفوةَ ويَحُلُّ عقدةَ الإخاء ويجعلُه صاحبُه *مَدرجةً لِلقطيعة . وقد قال الشاعر :

إذا ما شئتَ أن تَسلَى حبيباً فأكثِرْ دونَه عَدَدَ الليالى
فما يُسلِى حبيبَك مثلُ نأيٍ ولا يُبلِى جديدَك كابتذالِ

*واقتصدْ فى مِزاحك ، فإنّ الإفراطَ فيه يَذهبُ بالبهاء ويُجَرِّئُ عليك أهلَ الدناءة ، وإنّ التقصير *فيه يقبضُ عنك المؤانسين . فإن مزحتَ فلا تمزح *بالذى يسوءُ مُعاشريك

وأنا أوصيك بخُلُقٍ قَلّ مَن رأيتُه يتخلّقُ به ، وذاك أنّ محمِلَه شديد ومُرتقاه صَعب ، وبحسَبِ ذلك يورِثُ الشرفَ وحميدَ الذِكر : ألاّ يُحدِثَ لك انحطاطُ مَن حطّت الدنيا من إخوانك استهانةً *به ولا لحقّه إضاعةً ولِما كنتَ *تعلمُ من قَدْره استصغاراً ، بل إنْ زدتَه *قليلاً كان أشرفَ *لك وأعطفَ للقلوب عليك . ولا يُحدِث لك ارتفاعُ من رَفَعَت الدنيا منهم تذَلُّلاً وإيثاراً له على نُظَرائه فى الحفظ والإكرام ، بل لو انقبضتَ عنهُ كان مادحُك أكثرَ من ذامِّك وكانَ هُو أولَى بالتعطّف عليك . إلاّ أن يكونَ مُسلَّطًا تخافُ *شذاتَه

---

(١) إلا من ى — (٢) الهينات ى — (٤) الملال ء — (٥) درجة ى —
(٧) فما يسلى . . . كابتذال :

وزر غبا إذا أحببت خلا فتحظى بالوداد مع اتصال ء

(٨) واقصد ء — (٩) عنه ء — (١٠) إلا بالذى يسر ء — (١٣) [به] ء —
(١٤) تعرف ء — [قليلا] ء — [لك] ء — (١٧) شذاه ى

ومَعَرَّته وترجو عنده جرَّ منفعةٍ لصديق أو دفعَ مضرَّةٍ عنه أو كَبتاً لعدوٍّ و إنزالَ هوانٍ به . فإنّ السُلطانَ وخيَلاءه وزهوه يُحتمَلُ فيه ما لا يجوزُ فى غيره ويُعذَرُ فيه ما لا يُعذَرُ فى سِواه

*واُعلم أنّ نشرَ محاسِنك لا يليقُ بك ولا يُقبَلُ فيك ، إلاّ إذا كان القولُ لها على ألسُنِ أهلِ المُروءاتِ وذَوى الصِدق والوفاء ، ومَن ينجعُ قولُه فى القُلوب ، ممّن يُستنامُ إلى قوله ويُصدَّقُ خبرُه ، وممّن إن قال صَدَق أو مَدَح اقتصد ، يثنى بقدر البلاء ، فإنّ إسرافَ الثَناء على قدر النِعمة يولِّد فى القلوب التكذيب ويَدُلُّ على طلب *التزايُد . *فأمّا ثَناء المادحين لك فى وجهك ، فإنّما تلك أسواق *أقاموها للأرباح وساهَلوك فى المُبايعة ، ولم يكنْ فى الثَناء عليهم كُلفة ، لِـكسادِ أقاويلهم عند الناس . أولئك الصادّون عن طُرُق المكارم والمثبِّطون عن ابتناء المعالى . فارْتَدْ لِنِعَمِك مَغرِسًا تنمو فيه فروعُها وتزكو ثمرتُها ، لا تَذهبْ نفقتُـك ضَياعاً ، إمّا لعاجلٍ تُقدِّمُه أو لآجلِ ثناءٍ تَنتفعُ به*

ولن تعْدَمَ أن يَفجأك فى بعض أحوالِك حقوقٌ تبهظك *وأحوال تَفدحُك وأمورٌ كلُّها تتَقسَّمُ *عِنايتَك وفى التثبُّت فى مثلهـا تُعرَفُ فضيلتُك . *فلا تستقبلْها بالتضجُّع *وتَغبين الرأى ، *واُبدأ منها بأعظمِها مَنفعةً وأشدِّها خوفَ ضَرَرٍ ، وَكِلْ ما أعجزَك إلى الـكُفاة واُعتذِر مِن تقصيرٍ إن كان ، *فإنّ الاعتذار يكسِرُ حُمَّى *اللائمة ويردَع شَذاةَ الشِرّة . ثمّ تَلافَ بعدَ *انكسار ذلك *عنك ما فاتك*

(٤ - ١٣) [واعلم ... تنتفع به] ى — (٨) التزايد ، صححنا : المزايد ن — فأثناء ن — (١٤) وأشغال ى — (١٥) عليك ى — (١٦) ولا ن — وتغير ن — فابد ى — (١٨) فان العذر يكسر حميا ى — (١٩) الانكساف ن — [عنك ما فاتك] ى

وأجهد الجهدَ كله أن تكون مخارجُ الحقوق اللازمة لك من عندك سهلةً موصولة *لأصحابها ببِشرك وطلاقةِ وَجهك ، فقد زعمت الحكماء أنّ القليلَ مع طلاقة الوجه أوقعُ بقلوب ذوى المروءات مِن الكثير مع العبوس والانقباض . *وقد قال بعضُ الحكماء غايةُ الأحرار أن يَلقَوا ما يحبّون ويُحرَموا أحبُّ إليهم مِن أن يَلقَوا ما يَكرهون ويُعطَوا* . *وما أبعدُوا من الحقّ

ولا يَدعُونّك كُفرُ كافرٍ لبَعضِ نِعَمِك ممّن آثرَ هواهُ على دينه ومروءتِه *أوغدرِ غادرٍ تصنّعَ لك وختَلَك عن مالِك ، أن تَزهد فى الإنعام وتُسيء بثقاتِك الظّنونَ . فإنّ هذا موضعٌ يجدُ الشيطانُ فى مثلِه الذَّريعة إلى استفساد *الطبائع وتعطيل المكارم

وأعلمْ أنّ استصغارَك نعمَك *يُكبّرها عند ذوى العُقول وسَترك لها نَشرٌ لها عِندَهم . فأُنشرْها بسَترها *وكبِّرْها باستِصغارها

وأُعلم أنّ من *الفعل أفاعيل و إنْ عَظُمت منافعُها ومنافعُ أضدادها *فلإيثارها فضيلةٌ على كلّ حال . فأجعَل صمتَك أكثرَ مِن كلامِك ، فإنّه أدلُّ على حكمتِك . وأُجعلْ عَفوَك أكثر من عُقوبتك ، فإنّ ذلك أدلُّ على كرمِك . ولا تفْرِطنّ فيه كلَّ الإفراط حتى تطرحَ الكلام فى موضعه والتأديبَ فى أوانه

وأُعلمْ أنّ لكلّ امرئٍ سيدًا من عملِه ساهَلَتْه فيه نفسُه وسَلِس له فيه هواه . فتحفّظ ذلك من نفسك وتقاضَها الزّيادة فيه ورُضها على تَثْميره والمواظبة عليه(*)

---

(٢) لاصحابك ء — (٤-٥) [وقد قال ... ويعطوا] ء — (٥) [وما أبعدوا من الحق] ه — (٧) او عذره ه — (٩) الصنائع ء — (١٠) يكثرها ه (١١) وكثرها ه — (١٢) الافاعيل أفاعيل ء — فالايثار لها ء

(*) يتلو فى ه الفصل المشار إليه فى تعليقة ص ٢٦

وأحذَر الحذَرَ كلَّه الاغترارَ بأمُور ثلاثة ، فإنَّ مَن عَطب بها كثير وتَلافيها صعبٌ شَديد : أحدُها أن *لا تُوَلِّيَ جسائمَ تصرُّفك *وتُقلِّدَ مُهِمَّ أمورك وَوَثائقَ تدبيرك *إلا امرءًا صلاحُه موصولٌ بصلاحك *وبقاء النعمة عليك هو بقاء النعمة عليه . *وأن لا تأنس أو تغترّ بمَنْ تعلمُ أنَّ بصلاحِك فساده وبارتفاعِك انحطاطه وبسلامتك عَطبَه ، فإنّ من كان هكذا فأنت مَلَاكُ مَوْتِه ، فَبِحَسَبِ ذلك فليكنْ عِندَك . *وأنْ تجعلَ مالَكَ كله فى عُقْدةٍ واحدة أو حيّزٍ واحدٍ *أو وجهٍ منفردٍ إن اجتاحتْهُ جائحةٌ أو نابتْهُ نائبة بتّ بميت حَسيراً . وقد قال بعضُ الحكماء : فرِّقوا المنية واُطلبوا الأرباح بكل شِعب

*واُعلم أنّه ليسَ من الأخلاق التى ذَمّتها الحُكَماء خلقٌ إلّا وقد يَنفعُ فى بعض الحالات *ويُرَدُّ به شكلُهُ *ويقامُ بإزاء مثله ويدافَع به نظيره .

*إنّك ستُمنَى بصُحبة السُّلطان الحازم العادل وبصحبة السُّلطان الأخرق الجَهول الغَشوم ، فالحازمُ العادل يَسوسه لك الأدبُ والنُصح والأخرقُ يسوسهُ لك الحِيلةُ والرِفق . العادلُ يَعضُدُكَ منه ثلاث وتصبرُ نفسُه لكَ على ثلاث ، فاللواتى يعضُدنك : تسليطُ العدل وإنفاذُ الحكومة — وفى ذلك صلاحُ الرعيّة — وإثابة المحسنين الذين إثابتهم تحصينُ البيضة والسُّبُل ، والعفوُ ما بُلغَ به الاستصلاحُ واكتُفِيَ به من *البسط . واللواتى تصبرِ نفسه لك عليهنّ الهوى

---

(٢) [لا] ء — تقليدهم ن — (٣) الى من ء — (٣-٤) وبقاء النعمة عليه هو بقاء النعمة عليك ء — (٤) وان تأنس ء — (٦) وان تجعل ، صححنا : أو أن تجعل ن ء — (٧) أو [وجه منفرد] <و> ان ن — (١٠) واعلموا ن — (١١) ويرديه شكله ويقاوم ن — (١٢-ص ٣٥ ، ٢) [انك ستمنى ... النصحاء] ء — (١٧) لعل الصواب : البطش ؟

> . . . . < إلى ما وافق الرأى وأمضى الرأى إلّا بعـد التثبُّت حتى تعاونه عليه النُّصحاء

*ولـكنى أُوصيك برياضةِ نفسك حتى تذلِّلها على الأمور المحمودة ، فإنّ *كلّ أمرٍ ممدوح *هو مما تَستثقلُ النُفوسُ ، *ومما تسرُّ به وتنقلبُ إليه الأخلاق المذمومة . فإن أهملتها و إياها غلبت *عليك لأنّها فيها طبيعة مركبة* وجبلّة مفطورة . فلتكُن المساهَلةُ فى أخلاقك أغلبَ عليك من المعاسرة والحِلمُ أولى بك من العجلة والصبرُ الحاكمَ عليك دون الجزَع والعفو أسبقَ إليك من المجازاةِ بالذُنوب والمكافأةِ بالسوء ، *وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة فلتكن محموداتها غالبةً على أفعالك مُحكَمةً فى أمورك* . فإنّك إن ضبطتَ *ذلك وقوّمتَ عليك نفسَك عشتَ رَخِيَّ البال قليلَ *الهم كثيرَ الصديق قليلَ العدوّ *سليمَ الدين نقيَّ العِرض محمود الفِعال* جميلَ الأحدُوثة فى حياتك و بعـد وفاتك ، وكنتَ بموضع *الرجاءِ أن يصلَ الله لك *السلامة الآجلة بالنّعمة *العاجلة

أسألُ الله المبتدئَ بكلّ نعمة والمولّىَ لـكل إحسان أن يُصلّىَ على محمدٍ خيرته من خَلقه وصَفوته من بَريته ، وأن *يتمِّ عليك نعمته ويَشفَعَ لك

---

(١) > ... ... < : سقط فى الأصـــل — (٣) ولـكن ء —
(٤) كان امر ن — هو ما ن — [ومما تسر ... المذمومة] ن — (٥) عليك لا فيها
طبيعة [مركبة] ن — (٨-٩) [وكذلك سائر ... فى أمورك] ن — (١٠) [ذلك ...
عليك] ن — الهموم ن — (١١) [سليم ... الفعال] ن — (١٢) ترجو ء —
(١٣) الـكرامة ء — العاجلة > إن شاء الله عز وجل < ء — (١٥) يتم ء —

ما خوّلك من [1] نعمته بالنعمة التى يؤمَنُ معها الزوالُ فى جِواره ومُرافقَة أنبيائه [2] ،

والسلام عليك ورحمةُ الله(*)

---

(١) نعمه ى — (٢) صلى الله عليهم أجمعين ى

(*) تمت الرسالة فى الأخلاق المحمودة والمذمومة بعون الله ومنه والله الموفق للصواب والحمد لله أولا وآخرا وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه يتلو هذه الرسالة إن شاء الله تعالى « كتاب كتمان السر وحفظ اللسان » من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضا والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته ن ، تمت الرسالة فى كتمان السر وحفظ اللسان (!) من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله والله المحمود على ذلك كثيرا برحمته ى

٢

كتاب كتمان السر وحفظ اللسان

بسم الله الرحمن الرحيم

أمّا بعدُ ، فإنّى تصفّحتُ أخلاقَك وتدبّرتُ أعراقَك وتأمّلتُ شِيَمَك ، وَوَزَنْتُكَ فعرَفتُ مقدارَكَ وقوّمتُكَ فعلمتُ قيمتَك ، فوجدتُكَ قد ناهزتَ الكمال وأوفيتَ على التمام وتوقّلتَ فى دَرَج الفضائل ، وكِدتَ تكونُ مُنقطِع القرين وقاربتَ أن تُلفَى عديمَ النظير ، لا يطمع فاضلٌ أن يَفوتك ولا يأنف شريفٌ أن يُقصِّر دونك ولا يخشع عالمٌ أن يأخذ عنك. ووجدتُك فى خِلال ذلك على سَبيل تضييعٍ وإهمالٍ لأمرين هما القُطبُ الذى عليه مَدارُ الفضائل ، فكنتَ أحقّ بالعَذل وأقمنَ بالتأنيب ، مِمّن لم يَسبِق شأوَكَ ولم يَتَسنّم رُتبتَك ، لأنه ليس مَلومًا على تضييع القليل مَن قد أضاع الكثير *ولا يَهتمّ بإصلاح يومه وتقويم ساعته مَن قد استحوَذ الفسادُ على دَهره ولا يُحاسَبُ على الزَّلّة الواحدة مَن لا *يُعَدُّ منه الزَّلَلُ والعِثار ولا يُنكَر المنكَرُ على مَن ليس من أهل المعروف ، لأنّ المنكَر إذا كثُر صار معروفاً ، وإذا صار المنكَرُ معروفاً صار المعروفُ منكَراً . وكيف يُعجَبُ مِمّن أمرُه كلُّه عَجَب . وإنّما الإنكارُ والتعجُّب مِمَّن خَرَج عن مَجرَى العادة وفارق السُّنّة والسَّجيّة ، كما قال الأوّل : خالِفْ تُذكَرْ ، وقيل :

---

(١٢) ولا يسم اصلاح ت — (١٣) يعدم ت

الكاملُ مَن عُدَّت سَقطاتُه ، وقيل : مَن استوى يَوْماهُ فهو مغبون ومَن كان يومُه خَيراً من غدِه فهو مفتون ومَن كان غَدُه خيراً من يومه فذلك السعيدُ المغبوط . وفى هذا المعنى قال الشاعر :

رأيتُكَ أمْسِ خيرَ بنى مَعَدٍّ وأنت اليومَ خيرٌ منك أمْسِ
وأنت غداً تَزيدُ الضِعفَ خيراً كذاكَ تزيدُ سادةُ عبدِ شمسِ

وقال آخَرُ فى مَعْنٍ :

أنت امرؤٌ همُّكَ المعالى ودَلْوُ معروفِكَ الرَبيعُ
وأنت مِن وائلٍ صَميمٌ كالقلبِ تَحْنِى به الضُلوعُ
فى كلِّ عامٍ تَزيدُ خيراً يُشيعُه عنك مَن يُشيعُ

والأمرانِ اللذانِ نَقِمتَهما عليك : وَضعُ القَول فى غير موضعه وإضاعةُ السِرّ بإذاعته . وليس الخطرُ فيما أسومُك وأُحاولُ حَملَكَ عليه بسهلٍ ولا يسير . وكيف وأنا لا أعرفُ فى دَهْرى — على كثيرِ عَدَدِ أهْلِه — رجلًا واحداً مِمَّن يَنتحلُ الخاصَّة ويُنسبُ إلى العِلْيَة ويَطلبُ الرياسة ويَخطُب السيادة ويَتَحلّى بالأدب ويُديم الثَخانة والزَماتة والحِلمَ والفخامة ، أرضى ضَبْطَه للسانِه وأحمَدُ حِياطَتَه لسرّه . وذلك أنّه لا شىء أصعبُ مِن مُكايَدَة الطبائع ومُغالبَة الأهواء ، فإنَّ الدَولةَ لم تزَلْ للهوَى على الرأى طولَ الدَهر ، والهوَى هو الداعيَةُ إلى إذاعَة السرّ وإطلاق اللسان بفَضلِ القول . وإنّما سُمِّيَ العقلُ عقلاً وحِجْرًا — قال الله تعالى هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ — لأنّه يَزُمُّ اللسانَ ويَخطِمُه ويَشكُله ويزبنه ويقيّد الفَضلَ ويَعقِلُه عن أنْ

---

(١٨) سورة الفجر : ٥

يَمضِى فُرُطاً فى سَبيل الجهل والخَطإ والمضرّة ، كما يُعقَلُ البعيرُ ويُحجَرُ على اليتيم . وإنّما اللسانُ ترجُمان لِلقلب والقلبُ خِزانةٌ مُسْتحفَظةٌ لِلخواطر والأسْرار وكُلٌّ ما يَعيه ذلك عن الحواسّ من خير وشرّ وما تُولّده الشهوات والأهواء وتنتجُه الحكمةُ والعِلم . ومِن شأنِ الصدر — على أنّه ليس وِعاءً لِلأجرام ، وإنّما يَعِى بقدرة الله لا يَعرفُ العبادُ كيف هى — أن يَضيقَ بما فيه ويستثقلَ ما حمل منه ، فيَستريحَ إلى نَبْذه ويَلَذَّ إلقاءه على اللسان ، ثم لا يَكادُ أن يَشفِيَه أن يُخاطِبَ به نفسَه فى خَلَواته حتّى يُفضىَ به إلى غيره مِمّن لا يَرعاه ولا يَحوطُه ، كلٌّ ذلك ما دامَ الهوَى مُستولياً على اللسان واستعمل فضول النظر فدَعَتْ إلى فُضولِ القول

فإذا قهَر الرأىُ الهوَى فاستَوْلَى على اللسان مَنعَه مِن تلكَ العادة وردّه عن تلكَ الدُرْبَة وجَشّمه مؤونةَ الصَبر على ستر الحِلم والحِكمة . ولا شىء أعجبُ مِن أنّ المنطِقَ إحدى مَواهبِ اللهِ العِظام ونِعَمِه الجِسام ، وانّ صاحِبَها مَسؤولٌ عنها ومحاسَبٌ على ما خُوِّل منها ، أوجبَ اللهُ عليه استعمالَها فى ذِكره وطاعتِه والقِيامِ بقِسْطه وحُجّته ووَضعَها مواضِعَ النَفعِ فى الدينِ والدُنيا والإنفاقَ منها بالمعروفِ لفظةً لفظةً وصَرْفَها عن أضدادِها . فلم يَرْضَ الإنسانُ أنْ عطّلَها عمّا خُلِقتْ له ممّا ينفعُه حتّى استعملها فى ضدّ ذلك مِمّا يضرّه ، فاجتَمعَ عليه الإثمانِ اللّذان اجتمعا على صاحبِ المال الذى كنَزَه ومَنَعه مِن حقّه ، فوجبَ عليه إثمُ المنع وإن كان لم يَصْرِفْه فى معصِيَة ، ثم صرفَه فى أبوابِ الباطل والفِسق ، فوَجَب عليه إثمُ الإنفاقِ مِنها . وهذه غايةُ الغَبنِ والخُسران ، نَعوذُ بالله مِنها

فاللسانُ أداةٌ مُستعمَلة لا حمدَ له ولا ذمَّ عليه ، وإنما الحمدُ للحِلْم واللومُ على الجَهل ، فالحلمُ هو الاسمُ الجامعُ لكلِّ فَضل وهو سُلطان العقلِ القامعُ لِلهوى . فليسَ قَمْعُ الغضَب وتسكينُ قُوَّة *الشرِّ وإسقاطُ طائرِ الخُرق بأحقَّ بهذا الاسم ولا أوْلَى بهذا الرَّسم *من قمعِ فَرطِ الرِضا وغلبةِ الشَّهوات والمنعِ من سُوءِ الفَرَح والبَطَر ومن سُوءِ الجزَع والهلع وسُرعةِ الحمد والذمّ وسُوءِ الطبع والجَشَع وسُوءِ مُناهزةِ الفُرصة *وفرط الحِرصِ على الطَّلِبة وشِدَّة الحنين والرِقّة وكثرةِ الشكوى والأَسَف وقربِ وقتِ الرِضا من وقتِ السخط ووقتِ السخط مِن وقت الرضا ومِن اتِّفاق حرَكاتِ اللسان والبدَن على غير وَزْنٍ معلوم ولا تَقْدير موصوف وفى غير نفعٍ ولا جَدَى

واُعلم يقيناً أنّ الصمتَ سَرْمَدًا أبداً أسْهَلُ مَراماً — على ما فيه من المشقّة — من إطلاقِ اللسانِ بالقوْل على جِهةِ التحصيل والتمييز والقَصْدِ للصَواب ، لِما قدَّمنا ذكرَه من عِلّة مجاذَبة الطباع ولأنّ من طَبعِ الإنسان محبَّةَ الإخبارِ والاُسْتخبار . وبهذه الجِبِلّة التى جُبلَ عليها الناس نُقلت الأخبارُ عن الماضين إلى الباقين < و > عَن الغائب إلى الشاهد ، وأحبَّ الناسُ أن *يُنقَل عنهم ونَقَشوا خَواطرَهم فى الصُخور واُحتالوا لِنَشر كلامهم بِصُنوفِ الحِيَل . وبذلك ثبَتت حجَّةُ الله عَلَى مَن لم يُشاهِدْ مخارجَ الأنبياء ولم يحضُرْ آياتِ الرسول . وقامَ مجىءُ الأخبارِ عن غير تشاعرٍ ولا تواطُىءٍ مَقام العِيان ، وعُرِفتَ البُلدانُ والأقطارُ والأمم والتجاراتُ والتدبيراتُ

---

(٣) الشره ى — (٤) مع ى — (٧) فرض ى — (١٦) يعقل ى

والعَلامات ، وصار ما ينقله النَاسُ بعضُهم عَن بعضٍ ذريعةً إلى قبولِ الأخبار عن الرُسُل وسُلّماً إلى التصديق وعَوْناً على الرِضا بالتقليد . ولولا حلاوةُ الإخبارِ والاستِخبار عندَ الناس لما انتقلت الأخبار وحلّت هذا المَحَلّ . ولكنّ الله عزّ وجلّ حبّبَها إليهم لهذا السَبب ، كما جعَل عِشقَ النِساء داعيةً للجِماع ولذّةَ الجِماعِ سبيلا للنَسل والرِقّةَ على الوَلَدِ عَوْناً على التربيَة والحَضَانة وبهما كان النُشوء والنَماء ، وحُبَّ الطَعام والشراب سبباً للغذاء والغذاءَ سبباً للبقاء وعمارةِ الدُنيا

فعَسُر على الإنسانِ الكِتمانُ لإيثارِ هذه الشهوة والانقيادِ لهذه الطبيعة ، وكانت مزاولةُ الجبالِ الراسياتِ عن قواعدِها أسهلَ مِن مجاذبَة الطبائع . فاعتراه الكَرْبُ لكِتمانِ السِرّ وغَشِيَه لذلك سُقمٌ وكَمَدٌ يُحِسُّ له في سُوَيْداء قلبه بمثلِ دَبيبِ النَمل وحِكّة الجرَب ومِثل لَسْع الدَبْر ووَخْزِ الأشافيّ ، على قَدْر اختلافِ مقادير الحُلوم والرَزانة والخِفّة . فإذا باح بسرِّه فكأنّه أُنْشِطَ من عِقالٍ . ولذلك قيل : الصدرُ إذا نفثَ بَرَأ ، مثلاً مَضروباً لهذه الحال . وقيل :

* ولا بُدَّ من شكوى إذا لم يكن صبر *

وليس قولُنا : طُبِعَ الإنسانُ على حبِّ الإخبارِ والاسْتِخبار ، حجةً له على الله ، لأنّه طُبع على حبِّ النِساءِ ومُنِع الزِنا وحُبِّبَ إليه الطعامُ ومُنِع من الحرام ، وكذلك حُبِّب إليه أنْ يُخبر بالحقِّ النافع ويَسْتخبرَ عنه ، وجعلتْ فيه استطاعةُ هذا وذاك ، فاختارَ الهوَى على الرأى

ومما يؤكِّد هذا المعنَى فى كَرْبِ الـكِتمانِ وصُعوبَته على العُقلاء فَضْلاً عن غيرهم *ما رَواه عن بعضِ فُقَهائهم أنَّه كان يحملُ أخباراً مَسـتورةً لا يحتملُها العَوامُّ ، فضاق صَدرُه بها ، فكان يبرُزُ إلى *العَرَى فيحتفِرُ بهـا حَفيرةً يُودِعُها دَناً ثم ينكبُّ على ذلك الدَنِّ فيحدِّثه بما سَمِـع فيُروِّح عن قلبه ويرَى أن قد نقَل سرَّه من وعاء إلى وِعاء

وكان الأعمشُ سَـيِّئَ الخُلُق غَلِقاً ، وكان أصحابُ الحديثِ يُضْجِرونه ويَسُومونه نَشْرَ ما يحبُّ طيَّه عنهم وتكرارَ ما يحدِّثُهم به ويتعنَّتونه ، فيحلفُ لا يحـدِّثُهم الشَهرَ والأكثرَ والأقلَّ . فإذا فَعَـل ذلك ضاق صدرُه بمـا فيه وتطلَّعت الأخبارُ إلى الخُروج منه ، فيُقبلُ على شاةٍ كانت له فى منزله ، فيحدِّثُها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعضُ أصحابِ الحديث يقول : ليت أنى كنتُ شاةَ الأعمش

وشكا هِشامُ بنُ عبدِ الملك ما يجدُ من فقد الأنيسِ المأمون على سرِّه ، فقال : أكلتُ الحُلو والحامض حتى ما أجـدُ لهما طعماً ، وأتيتُ النِّساء حتَّى ما أبالى امرأةً لقِيتُ أم حائطاً ، فما بَقيتْ لى لذَّة إلاّ وجودَ أخٍ أضعُ بينى و بينه مؤونة التحفُّظ

وقال مُعاوية لعَمْرِو بنِ العاص : ما اللذّة ؟ قال : تأمرُ شـبابَ قريشٍ أن يَخرُجوا عنَّا ، ففعل . فقال : اللذَّةُ طرحُ المُروءة . وقد صَـدَق عَمْرو ، ما تكونُ الزَمانةُ والوَقارُ إلاّ بحملٍ على النَفس شديد ورياضةٍ مُتعِبة . وقال بعض الشُعراء :

---

(٢) كذا فى الأصل — (٣) لعل الصواب البرارى

ألم ترَ أنّ وُشاةَ الرجا   ل لا يَدَعُون أديمًا صحيحا
فلا تُفشِ سرّك إلاّ إليـ   ـك فإنّ لكلّ نصيحٍ نصيحا

والسرُّ — أبقاك الله — إذا تجاوزَ صدرَ صاحبه وأفلتَ من لِسانه إلى أذُن واحدة ، فليس حينئذٍ بسرّ بل ذاكَ أوْلَى بالإذاعة ومِفتاحُ الشرّ والشُهرة . وإنّما بينَه وبينَ أن يَشيعَ ويَستطير أن يُدفعَ إلى أذُن ثانية ، وهو مع قِلّة المأمونين عليه — وكربِ الكِتمان — حريٌّ بالانتقال إليها فى طَرْفة عَين . وصَدرُ صاحبِ الأذُن الثانية أضْيَق وهو إلى إفشائه أسرع وبه أسخَى وفى الحديثِ به أعذر والحجّة عنه أدْحَض ، ثمّ هكذا منزلةُ الثالثِ من الثانى والرابع من الثالث أبدًا إلى حيثُ انتهَى . هـذا أيضاً إذا استعْهد المحدّثَ واستكتم وكان عاقلا حليما وناصحاً وَادًّا ، فكيف إذا أُخْبِر ولَم يُؤمر بالكتمان وكانَ ممّنْ يَمشى بالنمائم ويحبُّ إفشاءَ المعايب ، وكان ممن يَنْطوى على غِشّ أو شحناء أو كان له فى إظهاره *اجتلاب نفعٍ أو دفعُ ضرر . فاللوم إذ ذاكَ على صاحبِ السرّ أوجب *وعمّن أفضى به إليه أدلّ* ، لأنّه كانَ مالكا لسرّه فأطلقَ عِقالَه وفتح أقفاله وسَرّحه ، فأفلتَ من قَيْده ووِثاقه وصار هو العبدُ القنُّ المملوكُ لمن ائتمنَه على سرّه وملّكه رقَّ رقبته . فإن شاء أحسنَ مِلكتَه بحفظِ ذلك السرّ فجزَّ ناصيتَه وجعله رَهينةً ليومٍ *عتبه عليه . وقلَّ مَن يُحسنُ المِلكة ويحرسُ الحرّيّة أو يضبطُ نفسَه ، فإنّه ربّما لم يُخرجْه غِشًّا فأخرجَه سُخفاً وضَعفاً . وإن أساءَ المِلكة وخترَ الأمانة *أطلقَ السرّ واسْتَرْعاه مَن هو أشدُّ له إضاعةً فسَفَكَ الدم وأزالَ النِعم وكشفَ

---

(١٢) اختلاف ن — (١٣) كذا ن — (١٦) لعله : غضبه — (١٨) فاطلق ن

العَورة وفرّق بين الجميع ، وإن كان المُضيع لسرّه *ألوَمَ . قال الشاعر :

إذا ضاق صدرُ المرء عن سرّ نفسه   فصدرُ الّذى يُستودَعُ السرّ أضيقُ

فمَنْ أسوأُ حالاً وأخسرُ مكاناً وأبعدُ من الحزم ممّن كان حُرّاً مالكا لِنَفسه فصيّرَ نفسَه عبداً مملوكا لغيره مختاراً للرقّ من غير أَسْر ولا قَسْر . والعبيدُ لم يَصبرُوا على الرقّ إلا بذُلّ الأسْرِ والسِّبَاء . ومن كان سِرُّه مَصوناً فى قلبه ، يُطلبُ إليه فى الحديثِ به فأخرجَه عن يده ، *صار هو الطالب الراغب إلى من لا يُوجبُ له طاعة ولا يُفكر له فى عاقِبة ولا يتحرَّز له بمصيبة . وكلّما كانت إذاعَتُه لأسراره أكثرَ كانَ عَدَدُ مَواليه أكثر وشقاؤه بخدمتهم أدْوَم . فإذا كان أصلُ السرّ معلوما عند عِدّة أو أقلّ من العدّة فما أعسرَ استِتارَه ، غير أنّه لا لَوْمَ على صاحبِ الجناية فيه ، *إذ كان ليس هو الذى أفشاه ولا مِنْ قِبَلِه عُلِم

ولو أنّ أوْزنَ الناس حِلماً مَلَكَ لِسانه وحصّن سرّه وقلّل لفظَه ، ما قدر على أن يملكَ لحظَ عينيه وسَحْنَة وجهِه وتغيُّر لونه وتبسُّمَه أو قُطوبَه ، عندما يجرى به من ذكر ذلك السرّ أو خَطَر بباله منه ، فيبدُو فى وَجهِه ومخايِلِه إذا عَرَض ذِكره أو سنح له نظيرٌ أو مِثل أو حَضَرَ مَن له فيه سَبَب ، إلاّ بعدَ التصنّع الشديد والتحفّظِ المُفرط . فإذا كان يُعرَف مِن هذه الجِهات وما أشبَهَها ويُطّلعُ عليه بتظنُّن *المرجّين والمتعقّبين للأفعال والأقوال *والنظر فى مَصادِرِ التدبير ومَخايِلِ الأمور ، فيفشُو مِن هذه

---

(١) اليوم ى — (٦) وصار ى — (١١) إذا ى — (١٧) المرجمين ى — (١٨) والنظائر ى

الجهات أكثر مما تفشيه ألسنُ المذاييع ⁽¹⁾ المبذر ، فكيفَ إذا أطلق به اللسانُ وعوِّدَ إذاعتَه القلبُ والعادةُ أملَكُ بالأدَب . وربَّما أدركه الحَدْسُ وقيضه الظنّ ، فنالتْ صاحبَه فيه خُدعة بأنْ يُذكَر له طَرَفٌ منه ويُوهَمَ أنّه قد فشا وشاع فيُصدِّق الظنَّ فيجعله يقيناً ويفسِّرُ الجملةَ فيصيِّرها تفصيلا فيُهلك نفسَه ويُوبقها . ورُبَّ كلامٍ قد ملأَ بطونَ الطوامير قد عُرِف جملتُه وما فيه الضَّررُ منه بسَحاءةٍ أو ⁽⁶⁾ طابَعٍ أو لَحْظةِ مُطَّلعٍ في الكتاب أو حرفٍ تبيَّن من ظَهْره . فاسْتيقِظْ عِندَ هذه الأحوال واستعملْ سُوءَ الظَنِّ بجميع الأنام . فإنّه رُوِىَ عن النبى صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : الحزمُ سوءُ الظنّ . وقِيل لثقيف : بِمَ بلغتُم ما بلغتُم من الشَرف والسُؤدد ؟ قالوا : بسُوء الظنّ . فلا تعتمد على رجل فى سرّك تحمد عقله دونَ أن تحمَد وُدَّه ونصحه ، فإنّ الأمر فى ذلك كما قال الشاعر :

وما كلُّ ذى لُبٍّ بمؤتيك نُصحه ولا كلُّ مُؤتٍ نصحه بلبيب

ولقد استحسَن الناسُ من بعض رجال العراق أنّه دخل على عبد الملك بنِ مروان فأوْقَع بالحجّاج عنده وسبَّه . فلمَّا خرج من عندِه خبَّر بما كان منه لبعض أصحابه فلامه وأنّبه ، وقال : ما يؤمنُك أن يُخبر أميرُ المؤمنين عبدُ الملك الحجّاجَ بما قلتَ فيه — ومرجعك إلى العراق — فيَضْغَنه عليك ؟ قال : كلا والله إنى ما رَطَلتُ بيدى قطُّ أحداً أرزنَ منه .

وهذا واللهِ — أبقاك الله — الغلطُ البيِّن والغدرُ الملصق وتحسينُ فارطِ الخطأ ، لأنّه ليس كلُّ راجحٍ وعاقلٍ بناصحٍ لصاحبِ السرّ ، ولو كان

---

(١) كذا فى الأصل ولعله : المبذرين ، او البياذير — (٦) طائر ؟

أخوه كذلك كان أمرُه إليه أهمّ وشأنُه أولى . والأعلَى من الناس لا يكلَّفُ الأدنى هذه المؤونة ، وإنما يفعلها الأدْنَون بالأعْلَين رَغبةً ورَهبةً وتحسُّنًا عندَهم لحاجتهم إليهم

وأكثرُ من يُذيعُ أسرارَ الناس أهلوهم وعبيدُهم وحاشيتُهم وصبيانُهم ، ولهم عليهم اليدُ والسلطان . فالسرُّ الذى يودعه خليفةٌ فى عامل له يلحقُهُ زَينُه وشَينُه أحرى أن لا يكتمه . وهذا سبيلُ كلِّ سرٍّ يُستودَعُه الجِلّة والعظماء ومَن لا تبلغُه العُقوبة ولا تلحقُه اللائمة

وقال سليمانُ بنُ داود فى حِكمته : ليكنْ أصدقاؤُك كثيراً ، وصاحب سرِّك واحداً من ألف . وليس معنى الحديث أن تعُدَّ ممَّن تعرِف ألفاً وتُفضِىَ إلى واحدٍ بسرِّ إن لم يكنْ ذلك الواحدُ موضِعًا للأمانة فى السرّ ، لكنَّه قيل : رجلٌ يساوى ألفَ رجل ورجلٌ لا يُساوى رجلاً ، وكقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا يوجَدُ فيها راحِلة . فكلُّ ذلك يُرادُ به أنّ الفضل قليلٌ والنقص *قليل لا على نِسَب ما يتلقّاه الاجتماعُ من هذه الأعداد ، لأنّا قد نجدُ الرجل يوزن بالأمّة ونجدُ الأمّة لا تساوى قُلامة ظُفرِ ذلك الرجل . فإذا كان من تقعُ عليه هذه الشريطةُ معدوماً سيّما مَن يُوثَق بحلمِه وعقله وأمانته ونُصحه ومن لا ضررَ عليه ولا نفعَ له فى السرّ الذى يُضمرُ ولا يحرُم عليه كتمانُه ، ومن قد رَأى على نفسِه بالسرِّ والحِفظ ، فإنه ليس كلُّ من ضُمِّن فلمْ يَضمنْ ضامناً ولا من استُودِع فلم يَقبلْ *مُستحفَظا ولا من استخْلِف فلم يَخلف خائناً ، وإنّما يلحقُه الحمدُ والذمُّ والأجر والإثم إذا

(١٣) كذا ، ولعل الصواب : كثير — (١٨) كذا فوق السطر ، وفى المتن : مستحفظا

ضَمِن الأمانةَ ثمّ خترَها . فكأنّ القومَ قالوا : لا تُودِعَنّ سرّك أحداً ، وإلّا فمتى تجدُ رجلاً فيه الصِفة التى وصف بها مِسكينٌ الدارميُّ نفسَه حيثُ يقول :

إنى امرؤٌ منّى الحياء الذى ترى أنوء بأخلاقٍ قليل خداعُها
أواخى رجالاً لستُ أُطلِعُ بعضَهم على سرّ بعضٍ غير أنى جِماعُها
يظلّون شتّى فى البلاد وسرُّهم إلى صخرةٍ أعيا الرجال انصِداعُها

وقيل لرجلٍ : كيفَ كِتمانُك للسرّ ؟ قال : أجعلُ قلبى له قبراً أدفِنُه فيه إلى يوم النشور . وقال الآخر :

* واكتمُ السرّ فيه ضربة العنق *

وهذه صِفاتٌ موجودةٌ بالأقوال معدومة بالأفعال ، والمغرورُ من اغترّ بما يعدُه الواعدُ منها دونَ أن يَبْلوَ الخبَرَ . والذى جرّبناه ووجدناه أنّ أكثرَ مَن يُفضَى إليه بالشىء يبلغُ من إذاعته ونشره ما لا يبلغُه الرسولُ المُستحفَظ المعنِىُّ بتبليغ الرسالة المحمودُ المُجازى على أدائها ، حتّى ربّما كان لا يبلغُ فى الإذاعة لمن أرادها أن يقصِدَ للبلاغة من الرجال المعروف بالنميمةِ والتقْتيت فيوهِمُه أنّه قد استحْفَظَه السرّ فيشيعُ على لِسانه كما يَشيع الضَوْء فى الظُلمة . وهذا فعلُ عمرَ بنِ الخطّاب رضى الله عنه حينَ أحبّ أن يشيع إسلامُه ، فقال : مَن أنمُّ أهل مكّة ؟ قيل له : جميلُ بن النُحيت ، فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتُمَه عليه ، فلم يُمسِ وبمكة أحدٌ لم يعلمْ بإسلام عمرَ رضى الله عنه . ثم يكون من أكثرِ الأعوان على إظهار السرّ الاستعهادُ فيه والتحذيرُ من نشره ، فإنّ النهى أغرى لأنّه تكليفُ مشقّة ، والصبر على التكليف شديد وهو خطِر ، والنفسُ طيّارة متقلبة تعشق الإباحة وتُغرَمُ

بالإطلاق . ولعلّ رجلاً لو قيل له لا تمسحْ يدَكَ بهذا الجِدار ، وهو لم يمسحها به قطُّ ، غُرِىَ بأن يفعل . وكذلك ما حُدِّث به من السرّ فلم يؤمر بستره لعلّه ألاّ يخطرَ بباله ، لأنّه موجودٌ فى طبائع الناس الوُلوعُ بكل ممنوع والضَجَرُ بكلّ محصول . فنريدُ أن نعلمَ لِمَ صار الإنسانُ على ما مُنِع وإنْ كان لا ينفعُه أحرصَ مِنه على ما أبيحَ مِن غير عِلّةٍ ولا سببٍ *إلاّ امتهانِ ما كثُر عليه واستطرافِ* ما قلَّ عندَه ، ولِمَ أقبلَ على مَن ولّى عنه وولّى عمّن أقبل عليه ، ولِمَ قالوا : إذا جَدَّت المسألةُ جَدَّ المنع . وقال الشاعر :

الحُرُّ يُلْحَى والعصا للعبدِ وليسَ للمُلحفِ مِثلُ الرَدِّ

ولِمَ صار يتمنّى الشىءَ وينذُرُ فيه النُذور وينقطعُ إليه شَوقاً ، فإذا ظَفِر به صدَّ عنه وأخلق عندَه ، ولِمَ زَهِد الملوكُ فيما فى أيديهم ورَغِبوا فيما فى أيْدى الناس . فنقول : إنّ الله تبارَكَ وتعالى جعل لِكلّ نفسٍ مبلغاً من الوُسع لا يُمكنُها تجاوُزُه ولا تتّسِع لأكثرَ منه ، فكان معها فيما دُون الوُسع الفقْرُ وخوفُ الإخوان وفيما تجاوَزَه عزُّ الغنى *وأمنُ العدم . وبهذا وبمثلِه مِن البُخل والحِرص استخفّتْ مَن أُحتاجَ إليها وأعْظمتْ مَن استغنى عنها ، وجعَلها توّاقة مُشْتاقة مُطرفة ملاّلة كثيرةَ النِزاع والتقلُّب *يستحكم عليها العنَتَه ويتلى خبرها وصبرها من جزعها* . ولولا هذه الخلالُ سَقَطت المِحَن ، فهى تُعَظِّم القليلَ بالضرورة إليه إنْ كان مِن أقْواتِها ، أو لشدَّة النِزاع والشَوق إنْ كانَ مِن طُرَف شَهَواتِها ، فانّ صنوفَ الشَهَوات كثيرة ولكل صِنفٍ منها أهلٌ لا يَحفِلون بما سِواه ، ويتعجَّبُ مِن الغريبِ النَادر ويُضحِكُها البديعُ

(٥-٦) ولا امتهان بما ... واستطرف ى — (١٣)و(١٥-١٦) كذا فى الأصل

الطارئ ، إلاّ أنّه إذا كثُر الغريبُ صار قريباً ، وإذا تجاوزَ المطلوبُ مقدارَ وُسعِها وحاجتِها فصار ظهريًّا وفضلاً استخفّت به وقلّ في أعينِها كثيرُه . وأعظمُ الأشياءِ عندَها قدرًا ما اشتدَّ إليه الفقرُ والحاجة وإن قلَّ ضررُه ، وأهونُها عليها ما استُغنيَ عنه وإن عظُم خطرُه ، وجَعل لِما يتوقُ إليه ويشتاقُه مكاناً مِن قُواها له ، فإذا امتلأ ذلك المكانُ سروراً وقضى ذلك الأرب [وَطراً ممّا كان طمح إليه ورَوِيَ ممّا كان ظامِئًا إليه ، انصرَف عنهُ وقلاه وحالَ عشقُه بُغضاً وشوقُه مَلالاً .

والعِلّة في ذلك أنّ الدُّنيا دارُ زَوال ومَلال ليس في كِيانها أن تثبُت هي ولا شيءٌ ممّا فيها على حالٍ واحدة ، وإنّما الثُّبوتُ الدائمُ لدار القَرار . فالسآمةُ تلحقُها في محبوبِها كما تلحقُها في مكروهها ، كما يُصيبُ المنتهيَ مِن الطعامِ والشَّرابِ والباه ، فإنّه ليس شيءٌ أبغضَ إلى مَن يَتناهى فيه إلى غايتِه من النظَر إلى ناحيته فضلاً عن مُلابَستِه ، إلى وقتِ عَودةِ السَّبَبِ الأوّل .

فإذا كانت الطبائعُ تَتَشابَه ولِكلِّ حاسّةٍ قُوّة ، فإذا امتلأتْ تِلكَ القوّةُ من محسوسها لم تجد لها وَراءَه *طعْمًا ولا رِيحًا وعادَ عليها بالضَرَر . فبعضُ النظرِ يُعْمِي والصوتُ الشديدُ يُصِمّ والرائحةُ المنتِنةُ تُبطِل المَشَمّ والأطعمةُ الحارّة المُحرِقةُ تُبطِل حاسّةَ اللسان . وتتطرّف كلّ واحدةٍ مِنها ، فبينَ الطيب عند مَن بَعُدَ *عهدُه <به> أو الجِماع والسَماع وبينه <عند> مَن* هو مغموسٌ فيه بَونٌ بعيدٌ جدًّا في الحلاوةِ وحُسنِ الموقع . كلّ ذلك ما لم يأتِ المالُ والعلمُ ، فإنّه كلّما كثُر كان أشهى وأعجَب . لأنّ قصدَ

---

(١٤) طمعاً ن — (١٧) صححنا العبارة : عهدُه والجماع والسماع وبين من ن

الناسِ له ليس لطَلَب مِقدارِ الحاجة وسَدِّ الخَلّة كما يريدُه أهلُ القَناعةِ والزَّهادة ، وإنّما يُرادُ لِقَمعِ الحِرص ، والحِرصُ لا حدَّ له ولا نِهاية ، لأنّه سعىٌ لا لِحاجةٍ وإيضاعٌ لا لِبغيةٍ . وهكذا قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : لو أنَّ لابنِ آدمَ واديَين من ذهبٍ لابتغى إليهما ثالثاً ، ولا يملأُ جوفَ ابنَ آدمَ إلاَّ التُرابُ . وقال بعضُ الحكماء

مَن كانَ لم يَغنَ بما يُغنيه ◊ فكلُّ ما فى الأرضِ لا يُغنيه

قال الله عزّ وجلّ وَيُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا . وقال وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ . وقال الشاعر

والناسُ إن شَبِعَت بُطونُهُمُ ◊ فعيونُهُمْ فى ذاكَ لا تَشبع

فأمّا الحديثُ الذى جاء : لايَشبعُ أربعٌ مِن أربعةٍ : أرضٌ مِن مَطَر وعينٌ من نَظَر وأُنثى من ذَكَر وعالمٌ من علمٍ ، فإنّ العينَ لا تشبعُ فى الجُملة كما لايشبعُ الخيشومُ من الاستِنشاق . فأمّا مَن * <يَشبع مِن> صِنفٍ ممّا يَراهُ دونَ صِنفٍ فإنّه يشبَعُ ويَروَى ويَصُدُّ ويَصدِفُ إلى غيرِه . وأمّا العلمُ فإنّه أوسعُ مِن أن يُحاطَ به ، فمَن طَلَبه لشرفِهِ ونخرِه فإنّه لا حدَّ له ولا نِهاية ، ولم يَزدَدْ له طَلَباً إلاَّ ازدادَ فيه رَغبةً ، ومَن طلبَ منه مِقدارَ كفايته وحاجَتِه كَفاهُ مِنه اليَسير . على أنّه لايملكُ مَن كثُرعلمُه أن يرَى فيه الغِنَى والكِبرياء أيضًا ، وَقَد يُمَلُّ كما يُمَلُّ كلُّ شَىءٍ وتَمَلُّ العينُ أيضاً منه ومِن المال

وقِيل : اثنانِ مَنهومان طالبُ علمٍ وطالبُ دُنيا . وهذه * النَّهمة تدلّ على

(٧-٨) الفجر : ٢٠ والعاديات : ٨ — (١٢) < يشبع من > : سقط من الأصل وأضفناه — (١٩) النهمة ، صحناه : القصة ◌

الخروج عن العقل لأنّ *النَهَم تجاوُز القدرِ . *وأمّا الحِرصُ على الممنوع الذى لا يُنتَفَع به والعجبُ ممّا لا يُتعجَّب مِن مِثله ، فليس من أخلاقِ العُقلاء ، وما لم يكنْ فى أخلاقِهم فلا نظَرَ فيه ولا قياس عليه . و إنّما ذلك مِن فِعل مَن أُستَوحش من الحُجّة وشرَد عن علم العِلَل والأسباب

و إفشاء السرّ إنما يوكَّل بالخبَر الرائع والخَطْبِ الجليل والدفين المغمور والأشنَعِ الأبلق ، مِثلِ سرّ *الأديانِ لِغَلَبَةِ الهوَى عليها وتَضاغُنِ أهلها بالاختِلاف والتضادّ والوَلاية والعداوة ، ومثل سرّ الملوك فى كيدِ أَعدائهم ومَكنُون شَهَواتهم ومَستور تدبيراتهم ، ثمّ مَن يَليهم من العُظَماء والجِلّة ، لِنَفاسة العَوامّ على الملوك وأنّهم سماءٌ مُظِلّة عليهم أعيُنهم إليها سامية وقلوبُهم بها مُعلَّقة ورَغَباتُهم ورَهَباتُهم إليها مَصروفة . ثم عداوات الإخوان ، فإنّما صارت العداوةُ بعدَ المودَّة أشدَّ لأُطّلاع الصديقِ على سرّ صديقِه وإحصائه معايبَه ، وربّما كان فى حالِ الصداقة يجمعُ عليه السَقَطات ويُحصِى العيوب ويحتفظ بالرقاع ، إرصاداً ليوم النَبْوَة وإعداداً لحالِ الصَريمة . وقد شكا بعضُ الملوكِ تنقُّبَ العوامّ عن أسرار المُلوك فقال

ما يُريدُ الناسُ منّا ما يَنامُ الناسُ عنّا
لو سَكنّا باطنَ الأر ضِ لكانوا حيثُ كُنّا
إنّما هَمُّهُمُ أنْ يَنشروا ماقد دَفنّا

*ولم نَرَ حُبَّ الطعنَ على الملوك والتجسُّسَ عن أخبارهم وعِشقَ نَشرِ المعايب واستِحلالَ الغِيبة ظاهراً فى طِباع الناس لا يكادُ يَنجو منه

(١) الفهم تجاوز الغـدر ◌ — وإنما الحرص ◌ — (٦) الإدمان ◌ — (١٨) ولم نوجب ◌

أحدٌ منهم ، إلّا مَن رَجَح حِلمُه وعَظُمت مُروءته وظهر سُؤْدُده واُشتَدَّ وَرَعُه ، حتى قال بعضُهم : الغِيبَة فاكهة النُسّاك . ورَوَوا عن بعضهم أنّه قال : الفاسِقُ لا غِيبةَ له . وقال آخر : *أتراعون مِن ذكرِ الفاسق ؟ أذكروه يَعرِفْه الناسُ

ولم نرَ الله جلّ ثناؤه رَخّصَ فى اغتياب مؤمنٍ ، بل ضَرَبَ المثَلَ فى الغِيبة بأكْره ما تكرَهُه النفوس وما تختارُ منه الموتَ على الحياة ، فقال وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ . واغتيابُ الناسِ جميعاً خُطّةُ جَوْرٍ فى الحُكم وسقوطٍ فى الهِمّة وسَخافةٍ فى الرأى *ودناءة فى القيمة وكُلفة عريضة وحَسَد ونَفاسَة قد استَحْوَذت على هذا العالمَ وغلبت على طَبائعهم وتوكّدت لسوءِ العادة عندهم ولعُلوّ الشرِّ على الخير وكثرةِ الدغَل والنغَلِ والحَسَدِ فى القُلوب . فلستَ ترى منها ناجياً ، امّا ناظرٌ *بعين عَدلٍ وإنصافٍ فهُوَ يرى ما يُنكِر فيبدو فى وجهه ولسانه ، وامّا *ناظِرٌ بعينِ البغْضاء والعَداوة فهو كثيراً مّا يجدُ من العُيوب فى عدوّه ما يُعينه على التخرّص عليه فيقويها ويزيد فيها ، وإن عدم الحق تقوّل وقبّح الحسَنَ وزادَ فى قُبْح القبيح . والحديثُ كلّه إلّا ما لا بالَ به ذكرُ الناس ولغوٌ وخَطَلٌ وهُجْرٌ وهُذاء وغِيبَة وهَمزٌ ولمزٌ . وقال بعضُ الحكماء لأبنه : يا بُنَيَّ إنّما الإنسانُ حديثٌ فإن استطعتَ أن تكونَ حديثاً حَسَناً فافعل .

وكلُّ سرٍّ فى الأرض إنّما هو خبرٌ عن إنسانٍ *وطَيٌّ عن إنسانٍ ، فله فى

(٣) أترعون ב — (٩) دناء ב — (١٢) بغير عدل ב — (١٣) نظر ב — (١٤) كثير ما ב — (١٩) او طى ב

(٦-٨) سورة الحجرات : ١٢

الغيبةِ أكثرُ الحظّ ، وجُلُّها كُلفة لا ضرورةٌ . يرَى صاحبُها أنّه قد أهملَ مُحاسَبَة نفسِه وغفرَ ذنوبها وألغى عُيوبَها ، وقصَدَ قصدَ غيره فتشاغل عما يَعنيه بما لا يعنيه ، فأنكرَ أقوالَه وأفعالَه *وهَجّن تدبيرَه وتعجّب مِن مَقابِحه وجَهَد نفسَه فى تفقُّد أمورِه ، ليس ذلك عن عِنايةٍ بصَلاحِه ولا محبّةٍ لتقويمه وتهذيبه ولا أنه مُسيطِر عليه ولا محمودٌ عنده على ما عُنِى به مِن شأنه ، بل هو عنده عينُ المذموم . وهذا جُلّ حديثِ البَشر وشُغلهم فى الليل والنهار

قال بعضُ الحُكَماء : فُضول النَّظَر تدعُو إلى فَضْل القَول وفُضول الخواطِر تبعثُ على اللهو والخَطَل . ولو كان الرجلُ لا يتكلّم إلاّ بمــا يَعنيه ولا يتكلّفُ ماقد كُفِيَه ، قلّ كلامُه . ولو حَكّم *العدل فى أمورِه وفيما بينه و بين خالقه و بينه و بين إخوانه ومُعامليه ، لطاب عيشُه وخَفّت مؤونتُه والمؤونةُ عليه . فإنّ الله تبارَك وتعالى لم يخلُقْ مَذاقاً أحلى مِن العدل ولا أروَحَ على القُلوب من الإنصاف ، ولا أمرَّ من الظُلم ولا أبشَعَ من الجَور

وقال بعضُ المتقدّمين : إنّما يعرفُ الظلمَ مَن حُكِم به عليه . ومن استعمل العدلَ دلّه على أنّ الناسَ يجِدُون مِن طَعْمه وطَعْم الظُلم إذا فَعَله بهم مثلَ الذى يجدُ إذا ظُلِم ، فكَرِهَ لهم ما كرِه لنفسه فأنصَف ولم يَظلِم . و يتظالمُ الناسُ فيما بينهم بالشَرَه والحِرص المركّب فى أخلاقِهم ، فلذلك احتاجُوا إلى *الحُكّام وقد أطلق لهم تصريفها ، وأخلاقهم وأماناتهم التى ردّت إليهم الأحكام فيها ما جنايته عليهم أكثر مما يطالبهم به الخصوم

وقال بعضُ الحكماء . إنّ من أصعبِ الأعمــالِ إنصافَك فى نفسِك ،

---

(٣) وهجر ن — (٩) العِـدَى ن — (١٦) لعل الصواب : الأحكام ؟

ومُؤاساتَك أخاكَ فى مالِك ، وذِكرَ الله ، أَمَا إنّى لا أعْنى قولَ : سُبحانَ الله والحمدُ لله ولا إلَهَ إلاّ اللهُ واللهُ أكبر — وإنَّ ذلك لَمِنْ ذِكر الله — ولكنْ ذِكرَه عندَ ما يعرِضُ من الأمور ، فإن كان طَاعةً لله فعلتَه وإن كانَ مَعصيةً لله اجتَنَبْتَه

ورُوِىَ عن بعضِهم أنه قال : ثلاثةٌ فى ظِلّ عَرشِ الله يومَ لا ظلَّ إلاّ ظلُّه : رَجلٌ لم يَعِبْ أخاهُ بعَيبٍ فيه مِثلُه حتّى يُصلِح ذلك العيبَ من نفسه فإنّه لا يُصلِحه حتى يَهجُم على آخَر فتشغَلُه عيوبُه عن عيوبِ الناس ، ورجلٌ لم يُقدِّم يَداً ولا رِجْلاً حتّى يعلمَ [8] أفى طاعةِ الله هُوَ أم فى مَعصيتِه ، ورَجلٌ لم يَلتمس مِن الناس إلّا مِثلَ ما يُعطِيهم من نفسه . أَمَا تُحِبّون أن تُنصِفوا ؟

وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : رحم اللهُ عبداً أنفق الفَضلَ من مالِه وأمسَكَ الفضلَ من قَوله وشغَله عيبُه عن عيوبِ الناس

وقال عيسى بنُ مَرْيَم : يا بَنى إسْرائيلَ أيَرَى أحدُكم القَذاةَ فى عين أخيه ويَعْمَى عن الجِذْع المعترِض فى عَينِه

وقيل لعيسى بن مَرْيم : ما أفضَلُ أعمالك ؟ قال : ترْكِى ما لا يَعنينى

وقال عَمْرُو بنُ عُبَيد : أعْيَتْنى ثلاثُ خِلال : ترْكِى ما لا يَعنينى ودِرهمٌ من حِلّه وأخٌ إذا احتجتُ إلى ما فى يديْه بَذَلَه لى

وما أحَقَّ مَن أُحصِيَت ألفاظُهُ وليس من قولٍ يَبدُرُ منه إلّا لَدَيه رقيبٌ عَتيد ، ومَن أُحصِيَت عليه مثاقيلُ الذرِّ واستُشْهِد عليه جِلدُه وجوارحُه ، أن يَضبُطَ لسانَه . وقد جاء فى بعضِ الآثار : مَن عَدَّ كلامَه مِن عملِه قلّ كلامُه

---

(٨) انه فى طاعته ۞

إلّا فيما يَعنيه

وكلُّ امرئٍ فحسيبُ نفسِه غيرُ مأخوذٍ بغيره ، وهو الوحيدُ دونَ الأهل والوَلَد والقَرابة . وقال اللهُ جلّ ثناؤه — وقَوْلُه الحقّ — : كلُّ أمرِئٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ . وقال : يَأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ

وليس الأمرُ بالمعروف والنهيُ عَن المُنكَر إلّا مَع السَيف والسَوطِ . وقال بعضُ الحُكماء : شيْآنِ لا صَلاحَ لأحَدِهما إلّا بالآخر : اللسانُ والسيف

وأنت إذا تأمّلتَ أكثرَ ما يَتَناجى به المتحدّثون ، وَجَدتَ أكثرَ السائلين يسألُ عمّا لا يَعنيه ويكترثُ لِما لا يَكرُثُه ويُعنى بما لا ينفعُه ولايضرُّه ، وأكثرَ المُجيبين يجيبُ ولمَ يُسْأَل ويتكلّفُ ما لا يَعلم ، ولو قال له قائلٌ مَن سألَكَ لافتَضح ولو حاجَّه فيما ادَّعى وَوَقَفه لانقطع . قال الله عزّ وجلّ : قُلْ مَا أَسْئَلُكُم عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِن الْمُتَكَلِّفِينَ

ومرّ هشامُ بنُ عبدِ الملِك ببعضِ أهل الكُلْفة والفُضول وعليه حُلّةٌ ذَيّالة يسحبها فى التُراب ، فقالَ له المتكلِّفُ : يا هذا إنّكَ قد أفسدتَ ثوبَك ، قال وما يضرُّكَ مِن ذلك ؟ قال : لَيتكَ ألقيتَه فى النار ، قال : وما ينفعُكَ من ذلك ؟ فأفحمَه أقبحَ الإفحام . ولو تهيّأ للمتكلّفين فى كلّ وقت مثلُ صَرامةِ هِشام لازدَجَر مَن بهِ حياءٌ مِنهم وَلَقلّت الفُضولُ والكُلَفُ والغِيبة

قالوا : وليس مِن أحَدٍ أذلَّ مِن مُغتابٍ ، لأنّه يُخفِي شخصَه ويُطامِن

(٣-٤) سورة الطور : ٢١ — (٤-٥) سورة المائدة : ١٠٥ — (١٢) سورة ص : ٨٦

حِسّه ويَغُضّ مِن صَوتِه ، ولا يريدُ بما ينالُه مِن ذلك إلا بأن يرفعَ مِن قَدْرِ خَصمِه ويُعظّمَ من شأنه

قال مُعاوية : أتدرى مَن النبيلُ ؟ هُو الذى إذا رأيْتَه هِبْتَه وإذا غاب عَنك أغْتَبْتَه . وهى لعَمْرى سبيلُ العُظماء عندَ العوامّ والملوكِ عند الرَعيَّة والسادة عند العَبيد ، فلم يأخُذ المغتابُ ممّن اغتابَه شيئاً بعَضِيهتِه إيّاه إلاّ والذى أعطى مِن الهيْبة عند حُضوره أكثر منه . ولو كان المُغتابُ لا يستَتِر من الغِيبة إلّا مِمّن يخافُ سَطْوتَه كان أعْذر ، ولكنّ اللُؤمَ المتمكّنَ منه يحمِلُه على اغتيابِ عبدِه وأَمَتِه فضلاً عن كُفُوِه ونظيره ، ويغتابُ الرجلَ عندَ عدوِّه والمُشاحن له مُساعَدَةً له بالسُخف وتقرّباً إليه بالمهانة والضَعف ، مِن غير أن يكونَ له عليه طَوْلٌ أو يلتمسَ مِنه على ما تقرّب به إليه جزاءً أو شُكورًا . ثمّ لعلّه ينكفِئ إلى الذى اغتابَه وقصَبَهُ من ساعَتِه ويومه ، فيعطيه فى عدوّه الذى اغتابه عندَه أيضا مِثلَ ذلك وأكثر منه ، لا لِعلّةٍ أيضاً ولا مرفقٍ ولا رِبحٍ أكثرَ من الذلّة التى يجدُها فى نفسِه والضَعفِ فى منّته ، كما يُعظِم الغنىّ بغير ثَمَنٍ ويحتقر الفقير بغير سَبَبٍ ، فمتى كوشِفَ أو عُوتِبَ لَبِسته ذِلّةٌ أخرى من الكَظّة بالمعاذير الكاذبة والاعتِصامِ بالأيمان الفاجِرة ، وَمَن كانت هذه *دُرْبَتهُ فهو *حَرِىٌّ أن يُطّلَعَ على دِخلة أمْره فلا يُقبل منه عُذرٌ ولا يُصدَّق فى قولٍ ولا حَلِفٍ ، وقد *تسَربَلَ الذلّة وتدرّعَ الخُضوعَ .

وليسَ مِن سُوس النفسِ الكريمة الشَهْمة أن تَلقَى الناسَ بِخلافِ ما *يخلقون بِه ، ما لَم تأتِ ضَرُورةٌ يُحتاجُ فيها إلى كَيدٍ وغِيلة أو مكرٍ وحِيلة . ويُثار

---

(١٦) لعل الأصح : دريئته — جرى ب — (١٧) مستديل ب —
(١٨) يخلفون ب

بالغيبةِ فيها الرأىُ الأصيل مِن مَكانِه ، فيَفعلُ ذلك العاقل فيما يحلّ له ويَحسُن به ، بعدَ أن تُعيِيه الحيلةُ فى أستصلاح ذلك العـدُوِّ بالرِفق والمُلاينة . وإنما قيل : قلَّ مَن أعْتذر إلّا كذَبَ ، لِـكثرةِ النطَفِ فى الناس وضَعفِ أنفسهم *على الإقرار بالذنب . فلا ذِلّةُ الضعف الثانى فى الاعتذار نهَت عن كُلفة الضَعفِ الأوّل فى الاغتياب ، ولا كُلفةُ الضعفِ *الأوّل صانَت عن ذِلة الضعف الثانى . وعلى أنّ أكثرَ مَن يُعْتذَرُ إليه ليسَ بقابلٍ للعُذر على حقيقةٍ ، وإن أظهرَ القَبولَ ، لِمَا جرَّب مِن سَخاء *النَفسِ بالأيمان وبُعدِهم من الإقرارِ بالذنب ، ما لم تأتِ حُجّةٌ واضحة ودليلُ شاهدٍ عَدلٍ

وإذا كانتُ هذه سبيلَ المعتذَر إليه ، فيحِقُّ عَلَى المعتذِر — إنْ كانت فى نفسِه قيمة — أن لا يعتذِرَ إلّا إلى مَن يُحبُّ أن يجدَ له عُذْراً ، ولا يَعجَلَ إلى الهين وهو يجدُ للحُجّة مكاناً . وأكثرُ مَن نعتذِرُ إليه إنما نفعل ذلك به خَوفاً *من سقطته وإبقاءً لسُلطانه . والمتفقّهون يتأوَّلون فى الأيمان السُلطانية ما يُلحِقُ بها عندَ السُلطان التُهمَةَ ويُلزمُهم الظِنَّةَ ، سِيَّما فى الأمور التى فى الإقرارِ بهـا إباحةُ الدمِ والمـالِ وهَتْكِ السِتر . ولا حَسْمَ لهذا الداء إلّا بأُطِّراح الفُضول وسلامةِ اللسان مِن أن *يَلـغَ فى الأعراض ويستسرَّ بالعضيهة والبُهتِ

قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمون من لِسانه ويده ، ومَن لم يَسلم الناسُ منه فليسَ سالِمًا من نفسه . وقال القائل : أُحرُسْ أخاكَ إلّا مِن نفسِه . وقالوا مقتلُ الرجُل بين فـكّيه . وكُتِب على بعضِ أبواب المُدُن *بالمُسند : أُحفظ رأسَك . وقال الأول : قد تَصِل النِصالُ إلى الإخوان

---

(٤) لعل الصواب : عن — (٥) الأولى ن — (٧) لعل الصواب : الناس —
(١٢) لعل الصواب : من سخطته — (١٥) يبلغ ن — (١٩) بالسند ن

فتستخرج ، وأمثالُ النِصال من القول إذا وَصَلت إلى القلب لم تُستخرَج أبداً . وقال بَهرام ، وسَمِع فى الليـل صَوتَ طائرٍ فتحدّاه بسَهْمٍ وهو لا يراه إلّا أنه تتَبّعَ الصوتَ فصرعَه ، فلمّا صار بين يديه قال : والطيرُ أيضاً لو سَكت كانَ خيرًا له . وقيـل : ما شىءٌ أحَقّ بطُولِ سِجنٍ من لسان . وقيل : إنه يسألُ اللسانُ الأعضاءَ فى كلِّ يومٍ فيقول : كيف أنتُنّ ، فيَقُلن : بخيرٍ إنْ تركتَنا . وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم لمُعاذِ بنِ جَبَل : وهل يُكِبُّ الناسَ على مَنَاخِرِهم فى النار إلاّ حَصائدُ ألْسِنتهم

وقال عيسى عليـه السلام : أعمالُ البرِّ ثلاثة : المنطِقُ والنظرُ والصمت ، فمَن كان منطِقهُ فى غيرِ ذكرِ الله تعالى فقد لغا ، ومَن كان نظرُه فى غير اعتبارٍ فقد سَها ، ومَن كان صمتُه فى غيرِ تفكّرٍ فقـد لها . فانظر بأىِّ الأمرين قطعتَ عُمرك : أبالحِكمة أمْ باللغو . وانظُر كيف وَصَفَ اللهُ تعالى مَن أثنى عليه بخيرٍ مِن عباده فقال : "وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وقال : وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ . وقال : وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وصانَ عنهُ أسماعَ أهل الجنّة وألسِنتهم فقال : لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا

وقال رَسول الله صلّى الله عليه وسلّم : العبادةُ عشرةُ أجزاء تسعةٌ منها فى الصَمت . وقال علىُّ بنُ أبى طالبٍ رضوانُ الله عليه : أفضلُ العبادة الصبرُ وانتظارُ الفرَج

وقال بعضُ الحكماء : لو لم يكن للصامتِ فى صمتِه إلاّ الكِفاية لأن يتكلّم بكلامٍ ويُحكَى عنه مُحرَّفاً فيضطرّ إلى أن يقولَ : ليس هكذا قلتُ إنّما قلتُ كذا وكذا فيكونَ إنكارُه إقرارًا واعترافُه بما حُكِى عنه شاهدًا لِمَن

---

(١٢) سورة المؤمنون : ٣ — (١٢-١٣) سورة القصص : ٥٥ — (١٣) سورة الفرقان : ٧٢ — (١٤) سورة الواقعة : ٢٥-٢٦

وَشَى به وادّعاءُ التَّحريف غير مقبولٍ منه إلاّ أن يأتىَ ببيِّنةٍ * بها ، لـكانَ ذلك مِن أكثر فضائلِ الصَّمت . وربما ذكرَ رجلٌ اللهَ تباركَ وتعالى ، فـكانَ ذلك الذكرُ إثماً له ، لأنَّه قد يُدخِله فى باب تفخيمِ الذَّنبِ الحقير والإغراء والتَّحريض ، فيَسفكُ الدمَ الحرام أو يعظِّم الجُرحَ الصغير ، بل ربَّما ضحِك وتبسَّم فأغرى وحرَّض وأثمَ وأوبق . قال بعضُ الشُّعراء :

فإن شئتُ أدلَى فيكما غير واحدٍ مُجاهَرةً أو قال عِندىَ فى سرِّ
فإن أنا لم آمُرْ ولم أَنْهَ عنكُما ضحِكْتُ له حَتى يلجَّ ويَستَشرِى

وقالت العرب : مَن كُفِى شرَّ لَقْلَقِه وذَبْذَبِهِ وقبقَبِهِ فقد كُفِى الشرَّ

وهذا بابٌ لَولا أن نشغَلَ القارىءَ لهذا الـكتاب بغير ما قَصَدنا إليه وعزَمنا عليه لأتينا عليه ، وهو كثيرٌ موجودٌ لِمَن طَلَبه . وجُمْلةٌ واحدةٌ فيها كِفايةٌ ، فإنّما تختلفُ الألفاظُ التى تجْعَل كُسْوةً لتلك المعانى . وإلّا فإنك إذا نظرتَ إلى جميعِ شُرور الدُنيا وجدتَ أوّلَها كلمةً * غارت فجَنَتْ حَرْباً عَواناً كحربِ بَكرٍ وتغلبَ ابنَىْ وائلٍ وعبسٍ وذُبيانَ ابنَىْ بَغيض والأوْسِ والخَزرج ابنَىْ قَيْلة والفِجار الأوّلِ والفجارِ الثانى وعامّةِ حُروب العَرب والعَجم . وإذا تأمّلتَ أخبارَ الماضين لم تُحْصِ عَدَدَ مَن قتله لسانُه وكان هلاكُه فى كلمةٍ بَدَرَت منـه . وليس العجبُ ممَّن أفضى بسرِّه إلى مَن ليس له بموضعٍ ممَّن تقدَّمت مَعرِفَتُه وزالت الشكوكُ عنه فى أمره ، ولـكنَّ العجبَ عينَ العَجَب ممَّن استَنام بسرِّه إلى مَن لم يقدِّم معرفَته ومن أنِسَ إليه * عن اللقاء واللقائين دون معرفة العَين والاسمِ والسَبَبِ والنَسَب ، فانخدَع فى أوّل وَهلةٍ وغبن عقلَه قبلَ أن يَغْبَن دينَه ومالَه وتضاعفت عليه البليّة بطولِ الحسرة ، فإنّ

(١) لعله : له — (١٢) كذا فى الأصل ولعلها : ثارت أو بدرت — (١٨) عن اللغاة واللغاتين ؟

البلاء عارضٌ ومُكتسَب ، فكأنّ العارضَ السماوىّ وما خوّلته الأقدارُ سرًّا بعدَ اجتهادِ صاحبه رأيَه وحيلتَه فى طَلَبِ الخير . وصوابُ تدبيرِه فيه أسهلُ وأيسرُ على العاقل المعتاد للصَواب ، وإن كان كلُّ مكروهٍ مُرًّا بَشِعاً . وإنما الكربُ اللازم والداء العَياء ما اجتمع على صاحبه مع الفجيعةِ والحاجةِ والنَقص والذِلّة غمُّ الندامة والأسفُ على ما فرّط منه ، إذ كانَ الجانى على *نفسه بيده . ولهذا الكلام نظرٌ نَكرهُ التطويلَ به والمعنى واحد . وإنما نحتاجُ من هذا ومِثله مما قدّمنا ذكرَه فى الكتاب إلى حفظ السرّ ووزن القول ، وإلى هذا أجرَينا وله قصَدنا . ولو اقتصَرنا فى هذا الكتابِ على حَرفٍ مما فيه لكان بإذْن الله كافياً لِمَن كان له لُبٌّ وعقلٌ ، لكنّ الاحتجاجَ أوكدُ والإيضاحَ أبلغُ ، والحظُّ فى هذا القولِ كلّه لِمَن عَقَله والآخذِ به أوْفَرُ *<منه> لمن قاله ولم يعمل بقوله ، لأنّه إنما يجتنى ثمرةَ الصَواب *ويختلف برفقه مَن صَدق قوله بفِعله . فإنّ الحِكمةَ قولٌ وعمل ، وإنما حَظُّ القائل ما لم يَستعمِل علمه وقوله حظُّ الواصِفين ، وحسنُ الصِفة تزولُ بزَوالها وتنقطعُ بانقِطاعها ، ومُدّتها — إلى أن يملّها القائل والسامع — *يسيرةٌ . والأفعالُ المحمودةُ متّصِلةُ النَفع والشَرفِ والفضيلة فى الحياةِ وبعدَ الوفاة ومَذخورةٌ للأعقاب وحديثٌ جميلٌ ونَشْرٌ باقٍ على مَرِّ الجديدَين . وأكثرُ من ذلك كلّه توفيقُ الله وتسديدُه ، فإنّ القلوبَ فى يده والخيرات مقسوماتٌ من عندِه . وحَسبُنا الله ونعمَ الوكيل (*)

(٦) نفعه ن — (١١) <منه> : أضفناه — (١٢) لعله الصواب : ويجتلب نفعه — (١٤) بسيره ن

(*) تم كتاب كتمان السر من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعون الله وتأييده ومشيئته وتوفيقه والله الموفق للصواب برحمته ، والحمد لله أولا وآخرا وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

٣

رسالة فى الجدّ والهزل

من تصنيف

أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الى محمد بن عبد الملك الزيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(*)جُعلتُ فِداكَ ، ليس من °أجلِ اختيارى النَخلَ على الزرع أقصيتَنى ولا على مَيلى إلى الصَدَقة دون إعطائى الخراج عاقبتَنى ولا لبُغضى دَفعَ الإتاوة والرِضا بالجزية حرمتَنى ، (†)ولستُ° أدرى لِمَ كرهتَ قُربِى وهَويتَ بُعدِى واستثقلتَ روحى ونفسى واستطلتَ عُمرى وأيّامَ مُقامى ، ولِمَ سَرَّتك سيِّئتى ومُصيبتى وساءتك حَسَنتى وسلامتى ، °نعم حتى ساءك °عزائى وتجمُّلى بقدر ما سَرَّك جَزَعى وتَضجُّرى ، وحتى تمنّيتَ أن أُخطِئَ عليك فتجعل خطأى حُجّةً لك فى إبعادى وكرهتَ صوابى فيك خوفاً من أن تجعله ذريعةً °لك إلى °تقريبى . °فإن كان ذلك هو الذى أغضبك وكان هو السبب لِمَوجدتك° ،

---

(٦) [اجل] م — (٨) رأيتك أبقاك الله قد كرهت ب (فى ابتداء الرواية) — (١٠) نعم م : [ ] ن — مزائى م : [ ] ن — (١٢) [لك] م — (١٣) تقربى م — فان كان ... لموجدتك م : [ ] ن

(*) (٦-ص ٦٢ ، ٢) جعلت ... الجريمة : رواية م ١

(†) (٨-٩) ولست ... مقامى : رواية ب ١

فليس — جُعلتُ فِداك — هذا الحِقد فى طبقة هذا الذنب ولا هذه المطالبة من شَكل هذه الجريمة . ولو كان إذ لم يكن فى وزنه وقع قريباً وإذ لم يكن عِدلَهُ وقع مشبهاً ، كان أهون فى موضع الضرر وأسهل فى مَخرج السماع .

(*)فأىّ شىء بقّيتَ للعدوّ المُكاشِف وللمنافق المُلاطِف وللمعتمِد المُصِرّ وللقادر المُدِلّ ؟ ومَن عاقب على الصغير بعقوبة الكبير وعلى الهفوة بعقوبة الإصرار وعلى الخطأ بعقوبة العَمد وعلى معصية المُسِرّ بعقوبة معصية المُعلِن ؟ ومَن لم يُفرّق بين الأعالى والأسافل وبين الأقاصى والأدانى عاقب على الزنا بعقوبة السَرِقة وعلى القتل بعقوبة القَذف . ومَن خرج إلى ذلك فى باب العِقاب خرج إلى مِثله فى باب الثواب ، ومَن خرج من جميع الأوزان وخالف جميعَ التعديل كان بغاية العقاب أحقّ وبه أولى

والدليلُ على شِدّة غيظك وغَلَيان صدرك ، قوةُ حركتِك وإبطاء فَترتك وبُعدُ الغاية فى احتيالك . ومِن البرهان على ثبات الغضب وعلى كظم الذنب تمكّنُ الحِقد ورسوخُ الغيظ وبُعد الوَثبة وشِدّة الصولة . وهذا البرهانُ صحيحٌ ما صحّ النظم وقام التعديل واستوت الأسباب .

(†)ولا أعلم ناراً أبلغ فى إحراق أهلها من نار الغيظ ولا حركة أنقض لِقوّة

(١) أبقاك الله م — (٢) من شكل م : شكل من ن — (٤) أبقيت م — وللمتعمد ب — (٥) [وللقادر المدل] ولمن عاقب ب — (٦) المسر ب : المتستر م ، المستتر ن — (٧) المعلن م ب : المعاند ن — (٨) السرقة م : السرق ن — (١٠) وبه أولى م : به وأولى ن — (١٢-١٣) على ثبات ... الذنب ن : على بيان الغضب وعظم الذنب م ، وكلتا القراءتين محرفة —

(*) (٤) ابتداء رواية م ٢ — (٤-٧) فأى ... المعلن : رواية ب ٢

(†) (١٥-ص ٦٣ ، ٤) ولا أعلم ... دون العام : رواية ب ٣

الأبدان من طلب الطوائل *مع قلّة الهدوء والجهلِ بمنافع الجمام وإعطاء الحالات أقسامها من التــدبير . *ولا أعلم تجارةً أكثر خسراناً ولا أخفّ ميزاناً ، من عداوة العاقل *العالم وإطلاق لسان الجليس المُداخِل والشِعار دون الدِثار والخاصّ دون العامّ . والطالبُ — *جُعلتُ فِداك — بعَرَض ظَفَر ما لم يخرج المطلوب وإليه الخيار ما لم تقع المنازلة . ومِن الحزم ألاّ تخرج إلى العدوّ إلّا ومعك من القُوى *ما يغمر الفَضلةَ التى *يُنتجها له الإخراج . ولا بدّ أيضا من حزمٍ يحذِّرك مُصارِعَ البغى *ويُخوِّفك ناصرَ *المظلوم(*)

(†)و بعدُ — *أبقاك الله — فأنت على يَقين من *موضع ألم الغيظ *من نفسك ، والغيظُ عذابٌ ، *ولربما زاد التشفِّى فى الغيظ ولم ينقص منه . ولستَ على يَقين من نفوذ سَهمك فى *<صيدك كما أيقنتَ بموضع الغيظ من> صدرك . والحازم *لا يلتمس شِفاء غيظه باُجتلاب ضِعفه *ولا يُطفِئ نارَ غضبه *تأخُّرُ عقوبةِ مَن أغضبه ولا يســدِّد سهمَه إلّا والغرضُ ممكن والغايةُ قريبة ولا يهرب *والمهرب معجزه . إنّ سلطان الغيظ غَشوم وإنّ حُـكم الغضب جائر ، وأضعف ما يكون العزم عن التصرُّف أضعف ما يكون الحزِم .

(**)والغضب فى طِباع شيطان والهوَى يتصوّر فى صورة امرأة ، فلا يُبصِر

(١-٢) [مع قلة... من التدبير] ب — (٣) العالم م : [ ] ن — (٤) أبقاك الله م — (٦) ما يغمر م : ما <لا> يغمر ن — يفتحها م — (٧) ويخوفك م : ويحرك ن — المطلوب م — (٨) [أبقاك الله] ب — موقع ب — [من نفسك] ب — (٩) وربما ب — (١٠) <...> ب : سهمك فى صدك ن — (١١) لا يجتلب ب — [ولا يطفى ... أغضبه] ب — تأخر ، لعل الصواب : بأمرٍ — (١٣) والهرب معجز ب ، <إلا> والمهرب معجزة ن

(*) اھ رواية م ٢ — (†) (٨-١٣) وبعد ... معجزة : رواية ب ٤

(**) ابتداء رواية ب ٥

مَساقطَ العَيب ومواقعَ الشرف إلاّ كلُّ معتدل الطِباع ومعتدل الأخلاط ومستوِى الأسباب . (*) والله لقد كنتُ أكره لك سَرَفَ الرضا مخافةَ جواذبه إلى سرف الهوى ، فما ظنُّك بسرف الغضب و بغلبة الغيظ ، ولا سيما ممن *قد تعوّد إهمالَ النفس ولم يُعوّدها الصبرَ ولم يُعرفها موضعَ الحظّ فى تجرُّع *مَرارة العفو . *و إنما المراد من الأمور عواقبها لا عواجلها . ولقد كنت أُشفِق عليك من إفراط السرور فما ظنّك بإفراط الغيظ . وقد قال *بعض الناس : لا خير فى طول الراحة إذا كان يورث الغفلة ولا فى *طول الكفاية إذا كان يؤدّى إلى المَعجزة ولا فى كثرة *الغنى إذا كان يخرج إلى البلدة

(†) جُعلتُ فِداك ، إنّ داء الحُزن و إن كان قاتلا فإنه داءٌ مُماطِل *وسقمه سقم مُطاول ومعه من *التمهُّل بقدر قسطه من *أناة المِرّة السوداء . وداء الغيظ سفيه *طيّاش وعجول فحّاش يعجل عن التوبة *ويقطع دون الوصية (**) ومعه *مِن الخرق بقدر قسطه من ألتهاب المِرّة الحمراء . *< والعجول يُخطئ و إن ظفر ، فكيف به إذا أخفق . على أنّ إخفاقه يزيد فى حقيقة خطئه كما أنّ ظفَره لا ينتقص من مقدار زَلَله > . وأنت روحٌ كما

(٣-٤) [قد] تعود [إهمال] م — (٥) مرارته [العفو] م — وإنما م : وان خ — (٦) [بعض] م — (٧) [طول] الكفاية ى — (٨) الغنى م : العى ى — (١٠) و <ان> سقمه ب — من التمهيل م ، من التمسك ب — آثار ب — (١١) طائش ب — (١١-١٢) ويقتطع عن التوصية ب — (١٢) من الخوف ب — (١٣-١٤) <...> ب فقط

(*) ابتداء رواية م ٣ ، وانتهاء رواية ب ٥

(†) (٩-١٤ زلله) رواية ب ٦

(**) اهـ رواية م ٣

أنت وحشىّ مِن قرنك إلى قدَمك ، وعمـــل الآفة فى الدِقاق والعِتاق أسرع وحدّها عن العلاظ الُجفاة أكلّ . فلذلك اشـتدّ جزَعى لك من سلطان الغيظ وغلبتِه

والله لو كنتُ ابتلعتُ مِرارَ بابَك وأبطلتُ *عمر الباطل ورددتُ الفظائع كلها ونقضتُ الشروط بأسرها وأفسدتُ نِتاجَك وقتلتُ كل شطرنجىّ لك ورفعتُ من الدنيا فراهة الخيـل وجعلتُ المروج كلها حِمىً وكنتُ *جُذام المردان و رسام الأولاد ومسختُ جميع الجوارى فى صورة أبى رملة ورددتُ شطاط خلقك إلى جعودة *أبى حثة وكنتُ أوّل مَن سَنّ بيعَ الرجال فى النخّاسين وفتَحَ باب الظُلم لأصحاب المظالم وحوّلتُ إليك عقل أبى دينار وطُبِعتُ على بيان مانويه (*) *وأعَنْتُ على موت المعتصم وغضبتُ *لمصرع الأفشين واستَجبْتُ *للديك الأفرق وأحببتُ صالح بن حُنَين *وأحوجتُكَ إلى حاتم الريش وكان أبو *الشماخ صديقى والفارسىّ من شيعتى < *ورفستُ حمزة رفسةً شديدة وركلتُ عُمَرَ ركلةً صعبة ، > لـكان *ما تركبُنى به سَرَفاً ولـكنتَ فى هذا العقاب *متعدّياً

جُعلت فِداك ، لا تتعرّض لعـــداوة عقلاء *الرواة ولضغينة حُفّاظ المثالب وللسان مَن قد عُرِف *بالصدق والتوخّى و بقلّة الخَطَل *والتكسُّب ،

---

(٤) كذا فى ن وكلتا الـكلمتين محرفة — (٧) جذام المردان ، صححنا : صداق المرادين ن — (٨) ابى حثة ن ولعله محرف — (١٠) والله لو كنت احتلت على موت ب — (١١) لصرع ب — للديك الأفرق ب : للدين الأبيض ن — (١٢) وأخرجتك إلى حاتم الرئيس ب — أبو السماح ب — (١٣) <ورفست ... صعبة> ب — (١٤) ما تركبنى ، صححنا : ما تركتنى ن — معتديا ب — (١٥) الرجال ب — (١٦) عرف العضد ب — كذا ، ولعلها : التكذب ، أو التنكب

(*) (١٠-١٦ عرف بالصدق) رواية ب ٧

ما وجدتَ عن ذلك مندوحة ووجدتَ المذهب عنـه واسعاً . ولا تُعاقِب وَادًّا وإن اضطرّك الوادّ ، ولا تجعل طول الصُحبة سبباً للتضجُّر . وأصبر على خَلَقه فإنّ خَلَقه خير من جديد غيره . وصـداقة المستطرف *غَرَرٌ وملالة الصديق أفنٌ . والعلم *بأقدار الذنوب غامض وحدود الذنوب فى العقاب خَفِيّة . ولن يعرف العقاب مَن يجهل قدر الذنب ، والأجرام كثيرة الأشكال ومتفاوتة فى *الأقدار . وإذا أردتَ أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقـدار عقابك عليه ، فأُنظر فى علّته وفى سببه وإلى معدنه الذى منه نجم وعُشّه الذى منه دَرَجَ ومغرسه الذى فيه نَبَتَ ، وإلى جهة صاحبه فى التتايُع *والتبرع وفى النزوع والثبات ، وإلى قِحته عند التقريع وإلى حيائه عند التعريض وإلى فطنته عند *الرشق والتودية . فإنّ فضل الفطنة ربما دلّ على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . (*)فكل ذنبٍ كان سببه الدالّة وضيق *صدرٍ وغلظ طباعٍ وحدّة مرارٍ ، *من جهة تأويل أو من جهة *غلطٍ فى المقادير أو من طريق < *فرط > الأَنَفَة وغَلَبَة طباع الحَمِيّة *من بعض الجفوة أو لبعض *الأثرة ، أو مِن جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زُيّن له مِن عمله ، وأنه مُقصّر به مؤخّر عن مرتبته ، أو كان مُبلّغاً عنه أو مكذوباً عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه ، فإذا كانت ذنوبه من هـذا

(٣) غرر ، صححنا : غرور ى — (٤) باقدار ، صححنا : باقرار ى — (٦) الاقدار صححنا : الأقدام ى — (٨) لعل الصواب : التسرع — (١٠) كذا ولعلها : الرمز والتورية — (١٢) الصدر وعلو الطباع ب — [من جهة تأويل] ب — (١٣) الغلط ب — < فرط > ب — (١٣-١٦) [من بعض الجفوة ... ممتنع فيه] ب — (١٤) الاثرة ، صححنا : الاتوة ى

(*) (١١ - ص ٦٧ ، ٢) فـكل ذنب ... حليم : رواية ب ٨-٩

الشكل وعلى هذه الأسباب وفى هذه المجارى ، فليس يقف عليها كريم < *ولا يلتفت لها حليم > . ولست أسميه بكثرةِ معروفه كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعلمه وعلمه غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك وعارفاً بما أخذ . واُسم الحليم جامع للكظم والقدرة والفهم . فإذا وجدتَ الذنب بعد ذلك لا سبب له إلّا البِغضة ، فلو لم تَرضَ لصاحبه بعقابٍ دون قَعر جهنم ، لعَذَرَك كثير من العُقلاء ولصوّب رأيك عالم من الأشراف . ومتى كانت علّته طبيعة الداء وخُلقه الشرارة والتسرّع ، فاُقتله قتلَ العقارب واُدمغه دمغَ رؤوس الحيّات . وإذا كان ممن لا يُسيء فيك القولَ ولا يرصدك بالمكروه ، إلّا لتعطيه على الخوف وتمنع عِرضك من جهة *التقيّة ، فاُمنعه جميل رفدك واُحتلْ فى منعه من قبل غيرك ، فإنك إن أعطيته على هذه الشريطة وأعظمته من هذه الحكومة ، فقد شاركته فى سبّ نفسك واستدعيتَ الألسنةَ البَذيئة إلى عِرضك وكنتَ عوناً لهم عليك . وكيف تُعاقبه على ذنبٍ لك شطرُه وأنت فيه *قسيمُه ، إلّا أنّ عليك غُرمُه وله غُنمه

(*) ومِن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن *تحطّ عن الحسود نصف عقابه وأن *تقتصر < منه > على < بعض > مقداره ، لأنّ ألم حَسَده لك قد كفاك مؤونة *شطر غيظك عليه

*وأمّا الوادّ فلا تعرض له البتة < *ولا تلتفت لِفتَه > ولو أتى على الحرث

---

(١) < ولا يلتفت لها حليم > ب — (٩) التقية ، صححنا : النقبة ﻫ — (١٣) قسيمه ، صححنا : قسمه ﻫ — (١٤) يحط من ب — (١٥) يقتصر على مقداره ﻫ — (١٦) شطر ب: سطو ﻫ — (١٧) فأما ب — < ولا تلتفت لفته > ب

(*) (١٤-٦٨ ، ٣) ومن العدل ... قوله : رواية ب ١٠

والنسل وجنى على الروح والقلب ، ولا تغترّ بقوله إنّى وادّ *ولا تحكم له بدعواه : إنى جدّ وامق* ، وانظر أنت فى حديثه وإلى مخارج لفظه *وإلى لحن قوله(*) وإلى طريقته وطبيعته وإلى خُلقه وخليقته وإلى تصرّفه *وتضمّنه وإلى توقّفه وتهوّره ، وتأمّل مقدار جزعه من قلة اكتراثه وانظر إلى غضبه فيك ولك وإلى انصرافه عمّن انصرف عنك وميله إلى من مال إليك وإلى تسلّمه من الشرّ وتعرّضه له وإلى مُداهنته وكشف قناعه . بل لا يقضى له بجماع ذلك ما كان ذلك فى أيّام دولتك ومع إقبالٍ من أمرك ، وإن طالت الأيّام وكثرت الشهود حتى تنتظم الحالات وتستوى فيه الأزمان . نعم ثم لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورة على محبّتك ومحنوة على نصيحتك بالعِلَل التى توجب الأفعال والأسباب التى تسخر القلوب المودّات ، كالعلل الثابتة فى الصنيعة والأسباب الموجودة مع مولى العَتاقة . فإنّ عللهما خلاف علل مولى الكلالة ، وخلاف علل الصديق الذى لم يزل يرى أنه مثلك وأنه يستوجب منك استيجابك ، ولا سيّما إذا كانت الصنيعة أنت ابتدأتها وأنت أبو عُذرتها . فإن أنت لم تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ومع توافيها إليه ، ولم تقض له بأقصى النهاية مع ترادُف هذه الأسباب وتكامُل هذه الدلائل وتعاوُن هذه البرهانات ، فكل خبرٍ بيّنة زور وكل دلالة فاسدة . وقد قال الأول : دلائل الأمور أشدّ تثبيتاً من شهادات الرجال . إلّا أن يكون فى الخبر دليل ومع الشهادة برهان ؛ لأنّ الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبدل ، وشهادة الإنسان

(١-٢) [ولا تحكم ... وامق] ب — وفى لحن ب — (٤) وتصميه ى

لا تمتنع من ذلك وليس معها أمان من فساد ، ما كان الإمكان قائماً

وبعد ، متى صار اختيار النخل على الزرع يُحقد الإخوان ومتى صار تفضيل الحَبّ وتقريظ التمر يورث الهجران ، ومتى تميّزوا هذا التميز وتهالكوا هذا التهالُك ومتى صار تقديم النَخلة مِلّةً وتفضيل السنبلة *نِحلةً ، ومتى صار الحكم للنعجة نَسَبًا وللكرمة صهراً ، *ومتى تكون فيها دِيانة وتستحكم فيها بصيرة وتحدث عنها حَمِيّة

وقد كنا نعجب من حرب البسوس فى ضرع نابٍ ومن حرب بُعاث فى مِخرف تمرٍ ومن حرب غطفان فى سبق دابّة ، فجئتنا أنت بنوعٍ من العجب أبطلَ كلّ عجب وآنَسَنا بكل غريب وحسَّن عندنا كل قبيح وقرّب عندنا كل بعيد . فإن جهلتُ — أعزّك الله — غضبك فمثلى جهل ما لا علة له ، وإن عجزتُ عن احتمال عقابك فمِثلى ضجّ مما لا يُطيق حمله ، ولا عارَ على جازع إلّا فيما يمكن فى مثله الصبر ولا لومَ على جاهل فيما لا ينجح فى مثله الفكر . وليس هذا أوّل شَرَكٍ نصبتَه ولا أوّل كيدٍ *أرَغتَه ، ولا هى بأوّل زُبيَةٍ غطّيتَها وسترتَها وحيلةٍ أكمنتَها وربصتها . وقد كانت التقيّة والاقتصاد أسلم ، بل كان العفو أرحم والتغافل أكرم . ولا خير فى عقوبةٍ تُشمِت العدوَّ القادم ويُنادى بها العدوُّ الحادث ، والأناة أبلغ فى الحزم وأبعد من الذمّ وأحمد مغبّةً وأبعد من خُرْق العجلة . وقد قال الأول : عليك بالأناة فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعُه أقدر منك على ردِّ ما قد أوقعتَه . *وقد أخطأ من قال :

---

(٤) نحلة ، صححنا : محنة ﻫ — (٥) وحق ﻫ — (١٣) ارعتة ﻫ — (١٨) فقد ﻫ

قد يُدرِكُ المتأنّى بعضَ حاجته   وقد يكونُ مع المستعجل الزَّلَلُ

بل لو قال : والمتأنى بدركِ حاجاتِه أحقّ والمستعجل *بفَوتِ حاجاتِه أخلق ، لكان قد وفّى المعنى حقه وأعطى اللفظ حظَّه ، *و <إن> كان القولُ الأوّل موزوناً والثانى منثوراً . ولولا أنه اشتقّ المستعجلَ من العَجَلة لما قرَنه بالمتأنّى ، وينبغى أن يكونَ الذى غلّطه قولُهم : رُبَّ عجلةٍ تَهَبُ رَيْثاً ، فجعلَ الكلام الذى خرج جواباً عندما يعرضُ من السبب كالكلام الذى خرج ارتجالاً ، وجعله صاحبُه مَثَلاً عامًّا . فإذا سمَّيتَ العمل عجلةً ورَيْثا فاقضِ على الريث بكثرة الفوت وبقدر ذلك مِن العجز ، وعلى العجلة بقلّة النُجح وبقدر ذلك مِن الخُرق . والريثُ والأناة فى بلوغ الأمل *وإدراك النعمة كانتهاز الفرصة واهتبال الغِرّة ، *والأناة وإن طالت* وانتهاز الفرصة وإن كان فى غاية السرعة ، فليس من جنس العجلة . (*)ورُبَّتَ كلمةٍ لا توضَع إلّا على معناها الذى جُعلت حظَّه وصارت هى حقه *والدالّة هى* عليه دون غيره ، *كالحزم والعلم والحلم* والرفق والأناة والمدارة والقصد والعدل والانتهاز *والاهتبال وكاليأس والأمن وكالخُرق والعجلة والمداهنة والتسرُّع والغلوّ والتقصير . *ورُبَّتَ كلمةٍ تدور مع *خُلّتها وتتقلّب مع *جارتها وبإرادة *صاحبتها وعلى قدر ما تقابل من الحالات وتلاقى من الأسباب ، كالحُبّ والبُغض والغضب والرِضا والعزم *والإرادة والإقبال والإدبار والجِدّ *والفتور ، لأنّ هذا الباب الأخير يكون

---

(٢) لفوت ن — (٣) وكان ن — (٩) ودراك ن — (١٠) والهناة ن — لعله سقط بعد « وإن طالت » : <فليست من جنس الريث> — (١٢) والدالة [هى] عليه م — كالعزم والحلم والعلم م — (١٣) والابتهال م — (١٤) ورب م — (١٥) مع واصلتها م — جاراتها ن — صاحبها م — (١٧) والإرادة ، كذا ن م — والفتوة ن

(*-*) (١١ — ص ٧١ ، ٦) وربت كلمته ... ونبل صوابه : رواية م ٤

فى الخير والشرّ ويكون محموداً ويكون مذموماً . وصاحب العجلة — *أعزّك الله — صاحب تغرير ومخاطرة : *إن ظفر لم يحمده *عالمٌ و إن لم يظفر قطعته الملاوِمُ . والريث أخو المَعجزة ومقرونٌ بالحَسرة وعلى مَدرَجة اللائمة . وصاحب الأناة *إن ظفر نفع غيره بالغُنم ونفع نفسه بثمرة العلم ، *وطاب ذكره ودام شكره وحُفظ فيه ولدُه ، و إن حُرِم فمبسوطٌ عُذرُه ومُصوَّبٌ رأيه ، مع انتفاعه بعلمه وما يجدُ من عِزِّ حَزمه *ونبل صوابه(*) ، ومع علمه بالذى له عند العقلاء ويعذره عند الأولياء والأعداء

وما عندى لك إلّا ما قال الدِهقان لأسَد بن عبد الله — وهو على خُراسان — حين مرّ به وهو يدهق فى حَبّه : إن كنتَ تُعطى مَن ترحم فأُرحم مَن تظلم . إنّ السموات تنفرج لدعوة المظلوم ، فأُحذر مَن ليس له ناصر إلّا الله ، ولا جُنّة إلّا الثِقة بِنزول التغيُّر ، ولا سلاحَ إلّا الابتهال إلى مولًى لا يعجزه شىء . يا أَسَدُ إنّ البغى يصرع أهله ، و إنّ الظُلم مصرعُهُ وَخيمٌ ، فلا تغترّ بإبطاء العِقابِ من ناصرٍ متى شاء أن يُغيث أغاثَ ، وقد أملى لقوم كى يزدادوا إثماً . وجميعُ أهل السعادة إمّا سالمٌ من ذَنبٍ وإمّا تاركٌ الإصرار . ومَن رَغب عن التمادِى فقد نال أحدَ الغُنمَين ، ومَن خرجَ من السعادة فلا غاية له إلّا دار *الشقْوَة . وسَواءٌ — جُعِلتُ فِداكَ — ظلمتَ بالبطش والغَشم أو ظلمتَ بالدَحسِ *والدسّ ، فشاوِر لُبّك ، وناظِر حَزمك ، وقِف قبل الوثبة ، وأُحذر

(١ - ٢) أبقاك الله م — (٢) وان ظفر ﻫ — عاقل م — (٤) وان ظفر ﻫ — واطاب ذكره دوام شكره ﻫ — (٦) وقبل صوابه ﻫ — (١٦) الشقوة ، صححنا : الندوه ﻫ — (١٧) لعل الصواب : الدعس

زَلَّة العالم . وقد قال صاحبكم : مَن استشار الملالة وقلّد طبيعتَه الاستطراف وجعل الخطرةَ ذنبًا والذنب ذنوباً ومقدارَ الطرفة إصراراً والصغيرَ كبيراً والقليل كثيراً ، *عاقب على المتروك الذى لا يُعبأ به وبلغَ بالبطش إلى حيثُ لا بقيَّةَ معه ، ورأى أنّ القطيعة التى لا صِلة معها والتخليج الذى لا تَجمُّل معه الحزمُ المحمود ، وأنّ الاعتزام فى كل موضع هو الرأى الأصيل .

وقال أيضاً : (*)مَن* كانت طبيعته مأمونةً عليه عند نفسه ، وكان هواه رائدَهُ الذى لا يكذبه والمتأمّر عليه دون *عقله ، *ولم يتوكّل لما يهواه على ما لا يهواه* ، ولم ينصر تالدَ الإخوان على الطارف ، ولم يُنصف *المملول المبْعَد من المستطرف *المُقرَّب ، ولم يَخَفْ أن *تجتذبه العادةُ وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حُجَجهما ويُصوّرهما فى كتابٍ *مقروء أو لفظٍ مسموع ، ثم يعرضهما على جهابذة المعانى وأطبّاء أدواء العقول ، على ألّا يختارَ *إلّا مَن لا يدرى أىّ النوعين يبغى *وعلى أيّهما يُحامى ، وأيّهما داؤهُ* . فإن لم يستعمل ذلك ، *بما فضل له مِن سُكر سُوء العادة* ، لم يزل متورّطاً فى الخطأ مغموراً *بالذمّ

سمعتُك وأنت تريدنى وكأنّك تريد غيرى ، *أو كأنك تُشير علىّ من غير أن *تَنُصَّنِى ، وتقول : إنّى لأعجب ممّن ترك دفاتر عملِه متفرّقةً

---

(٣) وعاقب ن — (٦) ومن كانت م — (٧) حقه م — (٧ - ٨) ولم يتوكل لما يهواه ن ، ولم يتوكل لما لا يهواه على ما يهواه م — (٨) المملول : المملوك ن م — (٩) والمقرن م — تجذبه م — (١٠) مقروء صححنا : مفرد ن ، مقرر م — (١١-١٢) إلا من [لا] يدرى أى النوعين يتق و [على] أيهما يحامى وأيهما يداوه وأيهما دواؤه م — وعلى ، لعل الصواب : وعن — (١٣) [بما فضل . . . العادة] م — بالذنب م — (١٤) أو كأنك م : وكأنك ن — (١٥) سصبى ن م

(*-*) (٦ - ص ٧٣ ، ٧) ومن كانت ... فى الضعف قوة : رواية م .

*مبثوثةً وكراريسَ درسِه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرضها للتخرّم وكيف لا يمنعها من *التفرّق ، وعلى أنّ الدفتر إذا انقطعت حِزامته وانحلّ *شِداده وتخرّمت رُبُطه ولم يكن دونه وِقاية *ولاجُنّة تفرّق ورقه ، *وإذا تفرّق ورقه *اشتدّ جمعُه وعسر نَظْمُه وامتنع تأليفه ، *وربما ضاع أكثره . والدفّتان أجمع وضمّ الجلود *لها أصونُ *والحَزم لها أصلح . وينبغي للأشكال أن *تنظم وللأشباه أن تؤلّف ، فإنّ التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حُسناً والاجتماع يحدث للمتساوى فى الضعف قوةً(*) . فإذا فعلتَ ذلك صِرتَ متى وجدت بعضها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ، فإن نشطت لقراءة جميعها مضيت فيها . وإذا كانت منظومةً ومعروفة المواضع معلومةً ، لم تحتج إلى تقليب القماطر على كثرتها ولا تفتيش الصناديق مع تفاوُت مواضعها ، وخَفَّت عليك مؤونتها وقلّت فكرتك فيها ، وصرفتَ تلك العناية إلى بعض أمرك وادّخرتَ تلك القوة لنوائب غيرك . وعلى أنّ ذلك أدلّ على حُبّك للعلم واصطناعك للكتب ، وعلى حُسن السياسة والتقدّم فى إحكام الصناعة . وقلتَ : لأمرٍ ما جمعوا أسباع القرآن وسُوَرَه فى مُصحفٍ ، ولم يَدَعوا ما فيه مُفرّقاً فى الصدور ولا مُبدّداً فى الدفاتر ومفرّقاً فى القماطر ، على ذلك أجمعَ المسلمون والسابقون الأوّلون والأئمة الرشيدة والجماعة المحمودة ، فتوارثه خَلَفٌ عن سَلَفٍ وتابعٌ عن سابق وصغيرٌ عن كبير وحديثٌ عن قديم . ولم أشكّ فى أنها نصيحةُ حازمٍ ومشورةُ وامقٍ ،

---

(١) [مبثوثة] م — (٢) التحرق م — (٣) سداده م — ولا < دونه > جنة م — (٣-٤) و [إذا تفرق ورقه] اشتد م — (٤) و [ربما] ضاع م — (٥) إليها أصون ن — والحرز ن — (٦) تنظم < وللدفتان > ن

أو رأىٌ حَضَرَ أو حكمةٌ نَبَغَت أو صدرٌ جاشَ فلم يُملكْ أو علمٌ فاضَ فلم يُرَدّ ، استعمله مَن استعمله وتركه مَن تركه . فلمّا أخذتُ بقولك وصِرتُ إلى مشورتك ، وأكثرتُ حمدَ الله على إفادتك من العلم وحظِّ *عِنايتك من النقل ، وجمعتُ البعضَ إلى البعض والشِكل إلى الشِكل ، وتقدّمتُ فى استجادَة الجلود وفى تمييز الصُــنّاع وفى تخيُّر الساعات ، وغَرِمتُ المالَ وشَغَلتُ البالَ ، وجعلتُها مُصحفاً مُصحفاً وأجملتُها صِنفاً صِنفاً ، ورأيتُ أنّى قد أحكمتُ شأنى وجمعتُ إلىّ أقطارى ، ورأيتُ أن أنظرَ فيها وأنا مستلقٍ ولا أنظرَ فيها وأنا مُنتصِب ، استظهارًا على تعب البدن ، إذ كانت الأسافلُ مُثقَلةً بالأعالى ، وإذ كان الانتصابُ يُسرع فى إدخال الوَهَن على الأصلاب ، ولأنَّ ذلك أبقى على نُور البصر وأصلحُ لقوّة الناظر ، *إذا كلُّ واحد من هذه المصاحِف قد أعجز يدى بثِقَل جِرمه وضيّق صدرى بجفاء حَجمه ، وإذا ثقُل أنكأَ الصدرَ وأوهنَ العَظمَ . وإذا أنا إن نظرتُ فيها وأنا جالسٌ سَدِرَت عينى وتقوّس ظهرى وأُجتمع الدمُ فى وجهى وأكرهتُ بصرى على غير جهته وأجريتُ شُـعاع ناظرى فى غير مُجراه . وقد علمتَ — أبقاك الله — مع خِبرتِك بمصالح الأمور ومواقِـع المنافع والمضارّ ثم بمصالح العباد والبلاد ، أنّ من كان على مَقطع جبلٍ أو على شُرُفات قصرٍ ، فأراد رُؤية السماء على بُعدها وجد ذلك على العين سهلاً خفيفاً ، وإن أراد أن يرى الأرض على قُربها وجد ذلك على العين عِبأً ثقيلاً . فإن بدَا لى أن يقابلَ عينى به العبدُ أو تواجِهَنى به الأَمَةُ كلّفتُ أخرقَ الناس كَفًّا وأقلّهم وَفقاً وأكثرهم ٱلتفاتاً وأحضرهم نُعاساً وأقلّهم على حالٍ واحدةٍ ثباتاً

---

(٣) عناية ن — (١٠) إذا ، صححنا : اذ ن

وأجهلهم بمقدار الموافقة ولمقادير المقابلة وبحطّ اليد *ورفعها وإمالتها ونصبها ، ثم رأيتُ فى تضجُّرهم وتكرُّههم وفرارهم منه ما صيّر تجشّمى لثِقَل وزنه ومقاساتى لجفاء حَجمه أهونَ على يدى وأخفَّ على قلبى . فإن تعاطيتُه عند ذلك بنفسى فشقاءٌ حاضرٌ وإن ألزمته غيرى فغَيظٌ قاتلٌ ، وحتى صارت الحال فيها داعيةً إلى ترك درسها والمُعاودةِ لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة والمنافع الجامعة ، ومِن شَحذِ الطبيعة وتمكين حُسن العادة . ولو لم يكن فى ذلك إلّا الشُغل عن خَوض الخائضين والبُعد عن لهو اللاهين ، ومن الغِيبة للناس والتمنّى لِما فى أيديهم ، لقد كان نفع ذلك كثيراً وموقعه من الدين والفرض عظيماً . ومتى ثقل الدرس تثاقلت النفس وتقاعست الطبيعة ، ومتى دام الاستثقال أحدث الهِجران ، وإذا تطاول الكَدّ رسخ الزُهد ، وفى ترك النظر عَمَى البصر ، وفى إهمال الطبيعة كلالُ حدّ الطبيعة ، وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما أنه على قدر غريزة العقل تصحّ *الجوانح وتسقم ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرّك الجارحة ويتصرّف اللسان ، ومع قِلّة الحركة وبُعد العهد بالتصرّف يحدث العِىّ ويظهر العجز ويُبطئ الخاطر ، ومع ذهاب *البيان يفسد البرهان ، وفى فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين . فقد بلغتَ ما أردتَ ونلتَ ما حاولتَ ، فحسبك الآن مِن شجٍّ مَن يأسوك ومِن قَتل من يُقتَل فيك

(*) جُعلتُ فِداك ، *إنه ليس *يُومى منك *بواحدٍ وأنا *على عقابك أوحدُ ،

---

(١) فدفعها ں — (١٣) لعلها : الجوارح — (١٥) البيان ، صححنا : البرهان ں — (١٨) [انه] ب — بُومى ؟ — واحدا ب — فى عقابك واحد ب

(*) (١٨- ص ٧٦ ، ٣) جعلت ... ممطورة : رواية ب ١١

وليس يُنجينى منك مَعقلُ وَعلٍ ولا *مغارةُ سَبُعٍ ، ولا قعرُ بحرٍ ولا رأسُ طَودٍ ، *< ولا سَنًى > ولا *دَغَلٌ ، ولا *دخلٌ ولا نَفَقٌ ، ولا *مغارةٌ ولا مَطمورة . وليس يُنجينى منك إلّا مفازة المهلّب ، فإن أعرتَنى قلبَه وعلّمتَنى حيلتَه وأمكنتنى من سِكّينه ، وإلّا فأنا أوّل مَن ابتلعته تلك الحيّةُ . (*) ولا والله *إنّ بى قوة على الثعبان فكيف التِنّين ، *<ولا على القُرَة فكيف الأَصَلَة > . أعفِنى من حيّة المهلّب ثم اُقتلنى أىّ قِتلةٍ شئتَ . إن احترستُ منك ألفيتُ لنفسى كدًّا شديداً وغمًّا طويلاً ، وطال اغترابى *وافتراق أُلّافى ، وتعرّضتُ للعدوّ وتحرّشتُ *بالسباع ، *وإن استرسلتُ إليك لم ترَ أن تقتلنى إلّا شرَّ قِتلةٍ *وآلمها ولم تُعذّبنى إلّا بأشدّ النِقَم وأطولها ، ولو أردتَ *ذَبحى لأخترتَ *الكليل على المُرهَف *والتطويل على التذفيف ، حتى كأنى *علّمت عليك *شاه مات أو أكلتُ *سَبعةً وأطعمتُك واحدةً

ولقد تقدّمتَ فى المكر واستظهرتَ علىّ فى الكيد ، حتى تولّيتَ ذلك فى صِغار كتبى وفيما لا تحفل به من دوام أمرى ، وعلمتَ أنّ الدرس للّيل وأنّ *الا ... ... للنهار ، وأنّ الكتاب لا يُقرأ ليلاً إلّا والنيران

---

(١) مغار ب — (٢) < ولا سنى > : كذا فى ب فقط ويظهر أنه محرف — وعل (= وغل) ب — ولا وحل < ولا لثق > ولا نفق ب — (٣) مغار ب — (٥) أرى قوة ب — (٥ - ٦) < . . . > : كذا فى ب فقط — (٨) وفراقى ب — للسباع ب - وإن ب : فان ب — (٩) وألأمها ب — (١٠) [ذبحى] ب — الكايل المرتدف ب — والطويل على الدقيق ب — (١١) عملت ب — شافعان ب — عشرة ب ، ولعل الصواب : تسعة — (١٥) بياض كلمة أو كلمتين فى الأصل ، وعلى الهامش : حراو به (؟) ، ولعل الصواب : « وأن الاعراض عنه » أو ما يشبهه

(*) (٥-١٢) ولا والله ... واحدة : رواية ب ١٢

زاهرة والمصابيح مُقرَّبة ، وعلمتَ أنّ كلّ مَن ضعف بصرُه وكلّ نظرُه ، فإنه أبداً أقربُ مصـــباحاً وأعظمُ ناراً ، *وأنّ المحرور المحترق والممرور الملتهب واليابس المتهافت ، إذا كان صاحب كتبٍ ودرسٍ *فإنه لا يجد بُدًّا من الصبر على ما يُحرّقه ويعمّيه ، *أو الترك للقراءة فيها والتعرّض لها ، فخيّرتَنى بين العمَى والجهل ، وما فيهما حظٌّ لمختارٍ

وقلتَ : إذا *سَخن بدنه سُجِن بوله ، وإذا سُجن بوله جَرح مثانته وأحرق كُليَتَه وطبخ فضول غذائه وجفّف ما فضل عن استمرائه ، فأحاله *حصًا قاتلاً وصَخراً جامداً ، وهو دقيق القضيب ضيّق الإحليل ، *فإذا حَصاهُ يورثه الأسر ، وفى ذلك الأسر تلفُ النفس أو غاية التعذيب . وقلتَ : فإن ابتليتُ بطولِ عمره أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وإن ذهب عنّا فقد كفانا مؤونة الحيلة فى أمره

جُعلت فِداكَ ، ما هـذا الاستقصاء وما هذا البلاء ، وما هذا التتبُّع لغوامض المسألة والتعرّض لدقائق المكروه ، وما هـذا التغلغل فى كل شىء يُخمِل ذِكرِى وما هذا الترقّى إلى كل ما يَحُطّ من قدرى ، وما عليك أن تكون كتبى كلها من *الورق الصينىّ ومن الكاغد الخُراسانىّ . قُل لى لِمَ زيّنتَ النَسخَ فى الجلود ولِمَ حثثتَنى على الأدَم ، وأنت تعلم أنّ الجلود جافية الحجم ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بطلَت وإن كان يومٌ لَثِقٍ استرخَت ، ولو لم يكن فيها إلّا أنها تُبغِّض إلى أربابها نزولَ الغيث وتُكرّه إلى مالكيها الحَيَا لكان فى ذلك ما كفى ومنع منها ، *وقد علمتَ أنّ الورّاق لا يخطّ فى

---

(٢) فان ن — (٣) انه ن — (٤) والترك ن — (٦) سجن ن — (٧) جصا ن — (٨) فارى خصاه ن — (١٥) ورق الصينى ن — (١٩) قد ن

تلك الأيّام سطراً ولا يقطع فيها جلداً . وإن نَدِيَت فضلاً عن أن تُمطَر وفضلاً عن أن تغرق ، استرسلت وامتدّت ، ومتى جفّت لم تَعُدْ إلى حالها إلّا مع تقبُّضٍ شديد وتشنُّجٍ قبيح . وهى أنتن ريحاً وأكثر ثمناً وأحمل للغِشّ : يُغَشّ الكوفىّ بالواسطىّ والواسطىّ بالبصرىّ ، وتعتّق لكى يذهب ريحها وينجابَ شَعرها ، وهى أكثر عُقَداً وعُجَرًا وأكثر خَباطاً وأسقاطاً ، والصُفرة إليها أسرع وسرعة انسحاق الخطّ فيها أعمّ . ولو أراد صاحبُ علمٍ أن يحملَ منها قدرَ ما يكفيه فى سَفَره لما كفاه حِملُ بعيرٍ ، ولو أراد مثلَ ذلك من القُطنىّ لكفاه ما يحملُ مع زاده . وقلتَ لى : عليك بها فإنها أحمل للحكّ والتغيير ، *وأبقى على تعاوُر العارية وعلى تقليب الأيدى ، ولِرَدِيدها ثمنٌ ولطِرْسها مرجوعٌ ، والمُعاد منها ينوب عن الجُدُد . وليس لِدفاتر القُطنىّ أثمانٌ فى السوق وإن كان فيها كلُّ حديثٍ طريف ولطفٍ مليح وعِلمٍ نفيس ، ولو عرضتَ عليهم عِدلَها فى عَدَد الورق جلوداً ، ثم كان فيها كلّ شِعرٍ بارد وكلّ حديث غَثٍّ ، لكانت أثمن ولكانوا عليها أسرع . وقلت : وعلى الجلود يُعتمدُ فى حساب الدواوين وفى الصِكاك والعهود وفى الشروط وصُوَر العَقارات ، وفيها تكون نموذجات النقوش ومنها تكون خرائط البُرد ، وهنّ أصلح للجُرُب ولعِفاص الجَرّة وسِداد القارورة . وزعمتَ أن الأَرَضة إلى الكاغد أسرع ، وأنكرت أن تكون الفارة إلى الجلود أسرع ، بل زعمتَ أنّها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنتَ سببَ المضرّة فى اتّخاذ الجلود والاستبدالِ بالكاغد ، وكنتَ سبب البليّة فى تحويل الدفاتر

(١ - ٢) على أن ن (مرتين) — (٩) وأبقاه ن

الخِفاف فى المحِمل إلى المصاحف التى تُثقل الأيدى وتَحطِم الصدور وتموّس الظهور وتعمى الأبصار . وقد كان فى الواجب أن يدَعَ الناسُ اسمَ المُصحفِ للشىء الذى جَمَع القرآن دون كلّ مجلّد ، وألا يروموا جمع شىء من أبواب التعلم بين الدفّتين فيُلحقوا بما جعله السلفُ للقرآن غيرَ ذلك من العلوم

دَع عنك كلّ شىء . ما كان عليك أن يكون لى ولدٌ يُحيِي ذكرى ويَحوى ميراثى ، ولا أخرجُ من الدنيا بحسرتى ، ولا يأكله مُراءٍ يرصُدنى وابن عمّ يحسدنى ، *ولا يرتَعُ فيـــه المُعَدِّلون فى زمان السوء ، *ولا تُصطنع فيه الرجال ويقضى به الذِمام ، فقد رأيتَ صنيعهم فى مال المفقود *والمناعة والوارث الضعيف ومن مات بغير وصيّة

جُعلتُ فِداك ، إنّ النفوس لا تجود لمولى الكلالة بما تجود به لأولاد الأصلاب وما مسّ تلك الأصلاب ، لأنّ الرحمَ الماسّة والقرابة الملتصقة واللُحمة الملتحمة وإن أمّلت التَرِكة ونازعت إلى *الوِرْث فمعها ما يَأطُرها *ويثنيها ويحزُنها ويُبكيها *ويحرّك دمَها ويَستغزر دمعها . وقد يَشفع للولد إلى أبيه *حال أبيّه كانت من أبيـه وابن العمّ الذى ليس بالبعيد *فيحتك من حسده وليس بالقريب المحنوّ على رحمه . *وسببه الجاذب له إلى تمنّى مماتى أمتن من سببه إلى تمنى بقائى ، فهو إلى الحال الموجِبـــة للقَسْوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرِقّة والعطف ، وليس ينصُرك إذا نصرك ولا يُحامى عليك لقرابته منك ، ولـكن لعلمه بأنه متى خذلك حلّ به

---

(٧) ولا يرقع ن — ولا يصطنع فيه الرحال ن — (٨) والضاعة ، لعل الصواب : و < مولى > التباعة — (١٢) المورث ن — (١٣) ويثبتها ن — ويحول ن — (١٤) كذا فى ن وظاهر أنه محرف — لعل الصواب : فيفتكّ — (١٥) وسبب الجاذب ن

ضَعفَك وأُجترأ بعـد ضَعفِك عليه عَدوُّه ، فهو يريد بنصره من لا يجب عليه شكره ، ويُقوِّى ضعفَ غيره يدفع الضعف عن نفسه

جُعلت فِداك ، ما كان عليك من بُنَىٍّ صغيرٍ يكون لى ، ولا سيّما ولستُ عندك ممَّن يُدرِكُ كسبه أو تبلغ نصرته أو يُعايَن برُّه أو يؤمَّل إمتاعه . وما كان عليك مع كِبَرِ سِنّى وضعف رُكنى أن يكون لى ريحانةً أشمها وثمرةً أضمها ، وأن أجد إلى الأمانى به سبباً وإلى التلهِّى سُلّما ، وأن تـكثر لى من جنس سرور الحالم وبقدر ما يُمتع به راجى السراب اللامع ، حتى حبَّبتَ قِصرَ عمرى إلى وليّى وشوَّقته إلى ابن عمّى ، وحتّى زدتَ فيما عِنده مع كثرة ما عنـده ، وحتى صيّرنى حُبُّه لموتى إلى حبِّ موته وتأميلُ مالى *<إلى> تأميل فقره ، وحتى شَغلتنى *عمَّن كان يشغلُ عدوّى عنّى . وسواءٌ أعِبتَ علىَّ أن لا يكونَ لى ولد قبل أن يكون ، أو عِبتَ علىَّ أن لا يكون بعد أن كان — فإنما يعذّب الله على النيّة والقصـد وعلى التوخّى والعمـــد — *كما أنّه سواءٌ أن تحتال فى ألّا يكونَ لى مالٌ قبل أن أملكه أو احتلتَ فى ألّا يكون بعد أن ملـكته . وكنتُ لا أدرى ما كان وجهُ حُبِّك لإعناتى وللتشييد بذكر تُراثى والتنويهِ باُسمى ، ولا لم زهَّدتنى فى طلب الولد ورغّبتنى فى سِيرة الرُّهبان ، فإذا أنتَ لم ترفع ذكرى فى الأغنياء إلاّ لتعرُّض ذنبى للفقراء ، ولم تُـكثر مالى إلاّ لتقوّى العلّة فى قتلى ، فيالها مكيدةً ما أبعدَ غَوْرَها ويالها حفرةً ما أبعدَ قعرَها ، (*)لقـد جمع هذا التدبيرُ لطافةَ الشخص *ودِقة المسلك وبُعدَ الغاية*

(١٠) <إلى> سقط من ت — (١٣) وكما ت — (١٩) وبعد الغور ودقة المسلك ب

(*) (١٨- ص ٨٢ ، ٤) لقد جمع ... تعاشر : رواية ب ١٣

والله لو دبَّرها الإسكندرُ على دارا بن دارا ، وأُستخرجها المهلَّب على سفيان ابن الأبرد ، *وفتحت على هرثمة فى مكيدة خازِم بن خزيمة ، *ولو دبّرها لُقيم *ابنُ لقمان على لقمانَ بن عادٍ ، *ولو أذاعها قيس بن زُهَير على *حِصن بن حُذَيفة ، *ولو توَجَّهت لـكُهّان بنى أسـد على دُهاة قريش ، *لقـد كان ذلك من تدبيرهم *نادراً < بديعاً > ولـكان فى مكايدهم شاذًّا غريباً* ، وإنها لتَرتفع عن قَصير فى كيد الزَبّاء *وعن جذيمة فى *مشاورة قصير ، *وما إخالها إلّا وتَدِقُ *على ابن العاص وتغمُضُ على ابن هندٍ ويكلّ عنها أخو ثقيفٍ ويستسلم لها ابنُ سُميَّة . هـــذا والله التـدبيرُ ، لا مخاريق العرّاف *وتزاوير *الكاهن وتهاويل *الحاوى ، ولا ما *ينتجها صاحبُ الزَرق (؟)* ، بل تضلّ فيها رُقَى الهند وتقربها سَحَرة بابل .

*فلو كنتَ — *إذ أردتَ ما أردتَ وحاولتَ ما حاولتَ — رفعتَ قبل كلّ شىءٍ المؤانسة ، *ثم أبيتَ المؤاكلة ، ثم قطعتَ البِرّ ، ثم أذنت مع العامّة* ، ثم أعملتَ الحِرمان ، ثم صرّحتَ بالجفوة ، ثم أمرتَ بالحجاب ، ثم صرمتَ الحبل ، *ثم عاديتَ واقتصدتَ ، ثم من بعـد ذلك كلّه أسرفتَ واعتديتَ* ، لـكنتُ واحداً ممن يصبِر *أو يجزَع . فلعلّى كنتُ أعيش بالرِفق وأتبلّغ بحُشاشة النفس وأعلّل نفسى بالطمع الـكاذب* . ولـكنّ فُجاءات الحوادث

---

(٢) وفتحت ن ، وسحب ب — أو دبرها ب — (٣) [بن لقمان] ب — وأذاعها ب — حصين ب — (٤) و [لو] توجهت ب — [لقد] ب — (٥) [بديعاً] ن ، نادراً <بديعاً> وشاذا غريبا ب — (٦) وعن ب . عن ن — مساورة ب — وتدق ب : ستدق ن — (٨) وتراويق ن — (٩) الـكهان ب — الحان ب — ينتجها صاحب الدين ب ، ينتحلها صاحب الرى ن ، ونرجح أن يكون الصواب «الزَرق» أى الخدعة — (١١) ولو ب — إذ ، صححنا : إذا ن ب — (١٢) [ثم أبيت ... العامة] ب — (١٤) [ثم عاديت ... واعتديت] ب — (١٥ - ١٦) [أو يجزع ... الـكاذب] ب

وبَغتاتَ البلاء ، لا يقوم لها الحجرُ القاسى ولا الجبَل الراسى ، *فلم تدع غايةً فى صَرفٍ ما بين طبقات التعـذيب إلّا أتيتَ عليها ولا فضول ما بين قواصِم الظهر إلّا بلغتَها* ، فقد مِتُّ الآن *فمع مَن تعيش ، < بل قد قتلتَنى فمَن الآن تُعاشر ! > . كما قال ديوست المغنّى لـكِسرى حين أمر بقتله لقتله تلميذه *بلهبذ : قتلت أنا بلهبذ وتقتلنى ، فمن يُطربك ؟ قال : خَلُّوا سبيلَه فإنّ الذى بقى من عمره هو الذى أنطقه بهذه الحجَّة . ولـكنى أقول : قد قتلتنى فمع من تعيش ؟ أمعَ الشطرنجيين ؟ فقـد قال جالينوس : إياك والاستمتاع بشىء لا يعمُّ نفعُه

(*) [*إنّ الـكلام إنّما صار أفضلَ من الصمت لأنّ نفع الصمت لا يكاد يعدو الصامتَ ونفع الـكلام يعمُّ القائلَ والسامعَ والغائب والشاهِد والراهِن والغابر . قالوا : وممـا يدلُّ *من فضلِ الـكلام على الصمت *أنك بالـكلام تُخبر عن الصمتِ وفضلِه ولا تخبرُ بالصمت عن فضل الـكلام . ولوكان الصمتُ أفضلَ لـكانت الرسالةُ صمتاً ولـكان عدمُ القرآن أفضلَ من القرآن ، وقد فرّق بينهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم وفصّل وميّز وحصّل حيث قال : رحِم الله امرءاً قال خيراً فغنِمَ أو سكت فسلِمَ . فجعل حظّ السكوت السلامة وحدَها ، وجعل حظَّ القول الجمعَ بين الغنيمة والسلامة ، وقد يَسلَمَ من لا يغنم ولا يغنم إلّا من سَلِمَ]

(١-٣) [فلم تدع ... بلغتها] ب — (٣) فمن يعيش ب — (٤) < بل قد . . . تعاشر > ب — (٥) بلهند ن (مرتين) — (٩) إنما الـكلام ن — (١١) لعل الصواب : على فضل — لأنك بالـكلام ن

(*) نرجح أن الفصل من سطر ٩ (إن الـكلام) إلى سطر ١٧ (من سلم) ليس فى مكانه ولعله مأخوذ من رسالة أخرى للجاحظ

فأمّا الدوابّ فمن يضع المركَبَ الكريم إلى الصاحب الكريم ، ومَن يعدِل إمتاعَ بهيمة بإمتاع أديب ؟ قالت أُبنةُ النعمان . لم نر فيما جرّبْنا من جميع الأصناف أبلغَ فى خيرٍ وشرٍّ من صاحبٍ . ولما عزم ابنُ زيادٍ على الحُقنة بعد أن كان تفحّشَها قال له حارثةُ بنُ بدر : ما أجد أولى بتولّى ذلك من الطبيب . قال عُبَيد الله : كلا ، فأين الصاحب !

(*) والله *لو نتجتَ فى كل عام ألف *شَبدِيز *وقهرتَ فى كل ليلة أربعة *آلاف رَبْرَبٍ *وصار لك كل *نهر المرك بدلاً من بعض مالك* ، وأكلتَ رأس الجنيد بن حاق الأشيم* *واحتلت بين الغر من إفراط الشبق* ، لما كان ينبغى لك *أن تُعاملنا بهذه المعاملة ولا كان ينبغى أن* *تقتلنا هـذه القتلة . ولو اقتصرتَ *مِن العقوبة على شىء دون شىء *لكان أعدل ولو عفوتَ البتة* لكان أمثل (*) . إنّ الاعتزام على قليل العِقاب يدعو إلى كثيره ، ومتبدئ العِقاب بعرض لجاج ، وليس يُعاقِب إلّا غضبانُ ، والغضب يغلب العزم على قدر ما مكّن ويحيِّر اللُبَّ بقدر ما سلط ، والغضب يُصوِّر لصاحبه مثلَ ما يُصوّر السُكرُ لأهله ، والغضبانُ يشغَله الغضب ويغلِى به الغيظ وتستفرغُه الحركة ويمتلئُ بدَنه رِعدةً وتتزايلُ أخلاطُه وتنحلّ عُقَدُه ولا يعتريه من الخواطر إلّا ما يزيدُه فى دائه ولا يسمع مِن جليسه إلّا ما يكونُ مادّةً

(٦) الو نتجت ن — شبديز ب : سبدين ن — وقهرت ن : وأحبلت ب — (٧) الف ن ب — (٧-٨) [وصار لك ... الاشيم] ب — (٧) نهر المرك ... مالك : كذا ن ولم نوفق إلى تصحيحه ، راجع ص ٦٥ ، ٤ ؟ — (٨) واحتلت ... الشبق ن : واحملت ابن الغر مع إفراط السبق ب ، وكلتا الروايتين ظاهرة التحريف — (٩) [أن تعاملنا ... ينبغى أن] ب — تقتلنى ب — (١٠) مع <هذه> العقوبة ب — [لكان أعدل ... البتة] ب

(*-*) (٦-١١) والله ... أمثل : رواية ب ١٤

لمساده ، وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يَسمع واحترق حتى لا يفهم . ولولا أنّ الشيطانَ يريد ألاّ يخلوَ من عمله ولا يقصِّر فى عادته ، لما وَسْوَس إلى الغضبان ولا زيّن له ولمَا أغراه ولا فَتح عليه ، إذ كان قد كفاه وبَلغ أقصى مُناه . وليس يُصارع الغضبَ أيّام شبابه وغرب نابه شىء إلاّ صَرَعه ولا يُنازعه قبل انتهائه وإدباره شىء إلاّ قَهَرَه ، وإنما يُحتال له قبل هَيْجه ويُتوثّق منه قبل حركته ويُتَقدَّم فى حسم أسبابه وفى قطع عِلله . فأمّا إذا تمكن واستفحل وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قدرةً ومن أعوانه سَمعاً وطاعةً ، فلو سعطتَه بالتوراة ووجَرْتَه بالإنجيل ولددته بالزبور وأفرغت على رأسه القرآن إفراغاً وأتيتَه بآدم عليه السلام شفيعاً ، لما قصر دون أقصى قوّته ولتمنّى أن يعار أضعافَ قدرته . وقد جاء فى الأثر : إنّ أقربَ ما يكونُ العبدُ مِن غضبِ الله إذا غضب . قال قتادة : ليس يُسكِّن الغضبَ إلاّ ذِكرُ غضبِ الرحمن عز وجل . وقال عمرو بن عُبيد : ذِكرُ غضبِ الربّ يمنعُ من الغضب . إلاّ أن يريد الذكر باللسان ، ويسمّى المتوجد غضبانَ والذكورُ حقوداً

(*) فلا تقف — حفظك الله — بعد مُضِيّك فى عقابى التماساً للعفو عنّى ، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة لى . ولكن قف وقفة مَن يتّهم الغضبَ على عقله والشيطانَ على دِينه ، ويعلم أنّ للعقل خصوماً وللكرم أعداءً ، وأنّ من النَصَف أن تنتصف لعقلك من خصمه وتنتصف لكرمك

(١) كذا ن ، ولعلها : استغرق — (١٤) غضبانا ن — (١٥) جعلنى الله فداك ب — [فى عقابى] ب — (١٦) فى إفراطك ب — (١٧) وتعلم ب — (١٨) النصفة ب — و [تنتصف] لكرمك ب

(*-*) (١٥ - ص ٨٥ ، ٦) فلا تقف ... المعانى : رواية ب ١٥ .

من عدوّه ، وتُمسِكُ إمساكَ مَن لا يُبَرِّئ نفسَه من الهوى *ولا يبرِّئ الهوى من الخطأ ، ولا تُنكر لنفسك أن تَزِلّ *ولعقلك أن يهفو ، فقد زلّ آدم *عليه السلام وهفا *وعصى ربَّه وغوى وغرّه عدوُّه وخدعه خصمُه وعِيبَ باُختلال عزمه وسكون قلبه إلى خلاف *ثِقَتِه ، هذا وقد خلقه الله بيده وأسكنه فى دار أمنه وأسجد له ملائكته ورفع فوق العالمين درجته وعلّمه جميع الأسماء بجميع المعانى (*) . ولا يجوز أن يعلّمه الاسم ويدع المعنى ، ويعلّمه الدلالة ولا يضَع له المدلول عليه . والاسمُ بلا معنًى لَغوٌ كالظَرْف الخالى ، *والاسم فى معنى الأبدان والمعانى فى معنى الأرواح ، اللفظُ للمعنى بَدَن والمعنى للفظ رُوح . ولو أعطاه الأسماء بلا مَعانٍ لكان كَمَن وَهَب شيئاً جامداً لا حَرَكَةَ له وشيئاً لا حِسَّ فيه وشيئاً لا منفعةَ عنده . ولا يكونُ اللفظُ اُسماً إلاّ وهو مضمَّن بمعنًى ، وقد يكونُ المعنى ولا اُسم له ولا يكون اُسمٌ إلاّ وله معنًى . فى قوله جلّ ذكره : وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ، إخبارٌ أنّه قد علّمه المعانى كلّها . ولسنا نعنى معانىَ تراكيبِ الألوان والطُعوم والأرابيح وتضاعيف الأعداد التى لا تنتهى ولا تتناهى . وليس لِما فَضَل عن مقدار المصلحة ونهاية الوهم اُسمٌ ، إلاّ أن تُدْخله فى باب العلم فتقولَ شىء . ومعنى الأسماء التى تدور بين الناس إنّما وُضِعت علاماتٍ لخصائص الحالات لا لنتائج التركيبات . وكذلك خاصُّ الخاصِّ لا اسمَ له ، إلاّ أن نجعلَ الإشارة الموصولةَ *باللفظ اُسماً . وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ،

(١) ولا [يبرى] ب — (٢) و <لا> لعقلك ب — (٣) [عليه السلام] ب — و <قد> عصى ب — (٤) ثقته ب : نعته ⊙ — (٨) لعله : والأسماء — (١٨) اللفظ ⊙

(*) (١٢-١٣) سورة البقرة : ٣١

ولعمرى إنّها لَتُحيطُ بها وتشتمل عليها . فأمّا العلوم المبسوطة[١] فإنما تبلغ الأسماء مبالغ الحاجاتِ ثم تنتهى . فإذا زعمتَ أنّ الله تبارك وتعالى عَلَّمَ آدَمَ ٱلأَسْمَاءَ كُلَّهَا بمعانيها فإنما يعنى نهاية المصلحة لا غيرَ ذلك

(*) هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماوىّ وأنت أرضىّ ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحقّ بالقوة والفرع أولى بالضَعف . فلستُ أسألك أن تمسك إلاّ ريثما تسكنُ إليك نفسُك ويرتدُّ إليك ذِهنُك ، وحتى تُوازنَ بين شفاء الغيظ والانتفاعِ بثواب العفو(*) ، وترى الحِلم وما يجلب من السلامةِ وطيبِ الأُحدوثة ، وترى تصرّم[٨] الغرض وما يُفضِى لأهله مِن فضل القوة . على أنّ العقلَ إذا تخلّص من سُكر الغضب أصابه ما يصيب المخمورَ إذا خرَج من سُكر شرابه والمنهزمَ إذا عاد إلى أهله والمبرسَمَ إذا أفاق من برسامه . وما أشكّ أنّ العقل حين يُطلق من إساره كالمقيّد حين يُفَكّ من قيوده ، فإنّه يمشى كالنزيف ويَحجِل كالغُراب . فإذا وجب عليك أن تحذرَ على عقلك مخامرةَ داءِ الغضب بعد تخلُّصه وأن تتعمّده بالعلاج بعد مباينته له وتخلُّصه من يده ، فما ظَنُّك به وهو أسير فى مِلكه وصريع تحت كلكله ، وقد غطّه فى بحره وغمره بفضل قوته

وقد زعموا أنّ الحسن حضر أميراً قد أفرط فى عُقوبة بعض المذنبين ، فكلّمه فلم يَحفِل بكلامه وخوّفه فلم يتّعظ بزجره ، فقال إنك إنّما تضربُ نفسك ، فإن شئتَ الآنَ فأقِلَّ وإن شئتَ فأكثِر . ومعاذ الله أن أقولَ لك كما قال الحسن لذلك الظالم المعتدى والمصمِّم القاسى . ولكنى أقول : أعلم

(١) فانها ت — (٨) لعله : الغيظ ، أو الغضب ؟

(*-*) (٤-٧) هذا ... العفو : رواية ب ١٦

أنك تضرب مَن قد جعلك من قتلِه فى حِلٍّ . وإن كان القتلُ يحلُّ بإحلالِ المقتول ويَسقطُ عنه عِقابُه بهبة المظلوم ، ولو أمكن فى الدين تواهُب قِصاص الآخرة فى الدنيا ، وإن كان ذلك مما تجودُ به النفس يومَ الحاجة إلى الثواب وإلى دفع العِقاب ، وكان الوفاء مضموناً ، لكنتُ أولَ مَن أسمحَت *بذلك نفسُه وانشرح به صدره

(*) جُعلتُ فداك ، أُعلِمُ *أنى قد أحصيتُ جميعَ أسباب التعادى وحصّلت جميعَ علل التضاغن ، إلاّ علّةَ عداوة الشيطان للإنسان ، فإنّى لا أعرف *إلاّ مجازها فى الجملة ولا أحقّ* خاصّتها على التحصيل ، وعلى *< كل > حالٍ فقد عرفتُها من طريق الجملة وإن جهلتُها من طريق التفصيل . فأمّا هذا التجنّى فلم أعرفْه *فى خاصٍّ ولا عامٍّ

فمن أسباب العداوات تنافسُ الجيران والقرابات وتحاسُد الأشكال فى الصناعات ، ومن أمتن أسبابهم إلى الشرّ وأسرعها إلى المروءة والعقل وأقدحها فى العِرض وأحطّها على الدين ، التشاحُّ على المواريث والتنازُع فى تخوم الأرضين ، فإن اتفق أن يكون بين المتشاكلَين فى القرابة كان السبب أقوى والداء أدوى ، وعلى حساب ذلك إن جُمعت هذه الخصومة مع الجوار والقرابة واستواءِ الحظّ فى الصناعة . ولذلك كتب عُمَرُ — رضى الله عنه — إلى قُضاته أن رُدّوا القراباتِ عن *حر القضاء ، فإنّ ذلك يورث التضاغُن

ولم أعجب من دوام ظلمك وثباتك على غضبك وغلظ قلبك ، ودُورُنا

(٥) ذلك ى — (٨) [إلا] ب — < كل > : أضفناه ، وقد سقط من ى و ب — (١٠) فى عام ولا خاص ب — (١٧) كذا ى

(*-*) (٦-١٠) : رواية ب ١٧

بالعسكر متجاورة ومنازلنا بمدينة السلام متقابلة ، ونحن ننظر فى علمٍ واحد ونرجع فى النِحلة إلى مذهبٍ واحد ، (*)ولكن اشتدّ تعجُّبى منك اليوم وأنا بفرغانة وأنت بالأندلس ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب نِتاج ، وصناعتك جودة الخطّ وصناعتى جودة *المحوِ ، وأنت كاتب وأنا أُمِّى ، وأنت خَراجىّ وأنا عُشْرىّ ، وأنت زَرعىّ وأنا نخلىّ . فلو كنتُ *إذ كنتَ من بكر كنتُ من تميم* كان لك إلى العداوة *سببٌ وإلى المنافسة *سُلَّمٌ

(†)أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويل وأنا قصير ، وأنت أصلع وأنا *أنزع ، وأنت صاحب براذين وأنا صاحب حمير ، وأنت ركين وأنا عَجول ، وأنت تدبِّر لنفسك وتقيم أَوَدَ غيرك وتتسع لجميع الرعيّة *وتبلغ بتدبيرك أقصى الأُمّة ، وأنا أعجز *عن تدبير نفسى وعن تدبير أَمَتى وعبدى ، وأنت مُنعِمٌ وأنا شاكر ، *وأنت مَلِكٌ وأنا سوقة* ، وأنت مصطنع وأنا صنيعة وأنت تفعل وأنا أصِفُ ، وأنت *مقدم وأنا تابع ، وأنت إذا نازعتَ الرجالَ وناهضتَ الأكفاء ، لم تَقُلْ بعد فراغك وانقطاع كلامك لو كنتُ قلت كذا* كان أجود ولو تركتُ قول كذا *لكان أحسن ، *أمضيتَ الأمور على حقائقها وسلّمتَ إليها *أقساطها على مقادير حقوقها ، فلم تندم بعد قولٍ ولم تأسَف بعد سكوتٍ ، وأنا إن *حكمتُ ندمتُ

---

(٤) المحو ب : النجوم ن — (٥-٦) إذ كنت من تميم كنت مز بكر ب — (٦) سبباً ن — سلما ن — (٨) أقرع ب — (١٠) ويبلغ تدبيرك م — عن تدبيرى م ، عن نفسى ن — (١١) [وأنت ملك وأنا سوقة] ب — (١٢) متقدم م — (١٤) لكان م — كان ب — (١٥) وأمضيت ن — أقاسيطها ب — (١٦) حكمت م : تكلمت ن ، جملت ب

(*-*) (٢ - ص ٨٩ ، ٢) ولكن اشتد ... لا أحد : رواية ب ١٨

(†-†) (٧ - ص ٨٩ ، ١) أنت أبقاك ... بدعت : رواية م ٦

°وإن جاريتَ أبدعتَ(†) ورأيى كلّه دبَرِىّ . وأنت °تُعـدّ فى الشطرنج °زبرب وأنا فى الشطرنج °لا أحد(*)

وما أعرف ههنا اجتماعًا على مشاكلة ، إلاّ فى الإيثار بخُبز الخُشكار على الحُوّارى والباقلّى °على الجوزينج ، وأنا جميعاً ندّعى الهندسة . فقد بلغ الآن من جُرمى فى مُساواتك فى خُبز الخشكار وإيثارى الباقلّى والمعرفة بتقدير المُدُن وإجراء القُنِىّ ، أن أُنفَى من جميع الأرض وأن تُجعَل فى دمى الجعائل . فإنّى قد هجرتُ الخبز البتة إلى مواصلة التمر °ونزلتُ الوبَرَ بدَلاً من المَدَر

دَعْنا الآن فإنّك فارغ . إنّ الله يعلم وكفى به عليماً وكفى به شهيداً وكفى به حفيظاً ووكيلاً وكفى بجُرأةِ مَن يعلّمه ما لا يعلم جراءةً وتعرُّضًا وكفى بحالِهِ عند الله بُعداً ومَقتاً . لقد أردتُ أن أفديك بنفسى فى بعض كتبى ، وكنت عند °نفسى فى عداد الموتَى وفى حيّز الهلكى ، فرأيتُ أنّ مِن الخيانة لك ومن اللُؤم فى معاملتك ، أن أفديك بنفسى مَيتةً وأن أُريك أنّى قد جُدتُ لك بأنفس عِلقٍ والعِلقُ معدومٌ . ليس أنّ مَن قد فداك فقد جُعل فِداك ، ولكنها نهايةٌ من نهايات التعظيم ودليل من دلائل الاجتهاد ، ومَن أعلن الاجتهاد لك واستسرّ خِلاف ذلك ، فقد نافق وخان وغشّ وألام ، وأخلِقْ بمن أخَلّ بهذه ألاّ يرعى حقًا ولا يرجع إلى صحةٍ ولا إلى حقيقةٍ

ثم أنت لا يشفيك منّى السمّ المُجهز ولا السمّ السارى فإنّه أبعدُ غايةً

---

(١) وإن جازيت بدعت م : وإن حاريت هربت ب ، سقط من ن — [تعد] ب — (٢) زبزب ن ، زبرب ب — لا جد ب — (٤) عن ن — (٧) ونزلت ، صححنا : وتركت ن — (١٢) بنفسى ن

فى التطويل وأبلغُ فى التعذيب ، لا ولا لُعاب الأفاعى وداهيةُ الدواهى ، فإنه يُعجِزُ الرُّقَى ويفوتُ ذَرعَ الأطبّاء ، لا ولا نارُ الدنيا ، بل لا يشفيك من نار الآخرة إلّا الجحيم ، ولا يشفيك من الجحيم إلّا أن أُرمَى فى سَوائه وفى أُصْطُمَّةِ ناره وفى مُعظم حريقه وفى موضع الصميم من لهيبه ، بل لا تكتفى بذلك دون الدرك الأسفل ، بل لا يُرضيك شىء سوى الهاوية ، بل لا تَرضى إلّا بعذابِ آل فرعونَ أشدَّ العذاب ، بل لا يُرضيك إلّا عذابُ إبليس الذى زيَّن الخَتْر للعباد وبثّه فى البلاد ، والذى خطّأ الربَّ وعانده وردّ قوله وغيّر عليه تدبيره ، ولم *يزدَدْ إلّا شكًّا ولجاجةً* وتماديا وإصراراً ، ثم لم يرض من الجِدّ فى مخالفة أمره وخَلعِ العِذار فى شدّة الخلاف عليه ، إلّا بأن يحلف على شدّة اجتهاده فى ذلك بعزّته ، فجعل العِزّة المانعة من إسخاطه سبيلاً إلى إسخاطه ، والقَسَمَ الحاجز دون إغضابه وسيلةً إلى إغضابه ، حيث قالَ : *فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين

فعليك — عافاكَ الله — بإبليسَ إن كنتَ لله تغضب ، أو عليك بالأكفاء إن كنت لنفسك تتشفّى . لا ولكنك استغمرتَنى واستضعفتَنى ، وجعلتنى فرّوج *الرقا ، (*)وتريد أن تتعلّم فىّ معاقبة الأعداء(*) . فإن كنتَ إلى هذا تذهب فجعفر بن معروفٍ أضعف منّى وعبد الله بن عيسى أسوأ خُبراً منى سبحان الله يسلمُ عليك حَيْدرُ *الأفشين ويهلكُ عليك عمرو الجاحظ ،

---

(٨) يرده ن — وتباينا ن — (١٢) وعزتك ن — (١٥) كذا فى ن ولعله الرفاء — (١٧) الافشينى ن

---

(١٢) سورة ص : ٨٢

(*-*) (١٥) رواية ب ١٩ : أنت جعلنى الله فداك تريد أن تتعلم بى عقوبة الأعداء

ويسودَ بك أبعدُ البُعَداء ويشقى بك أقرب القُرَباء ، وتتغافلُ عن *مِثـلِ الجبال التماساً للتسلُّم وحُبًّا للسلامة ، *وتتغلغل إلى المحقَّرات طلباً للتعرُّض وحُبًّا للشرّ . ومتى قدرتَ على عدوّك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ، ومتى لم تتغافل عنه تكرُّماً أو تدعه إحقاراً ، ومتى اكترثتَ لكبير أو ضاق صدرك عن شىء عظيم ، فهأنا ذا بين يديك فكُلْنى بخلٍّ وخَردلٍ ، فوالله إنك لتأكله غثًّا غيرَ مَرِىّ وَخبيثاً غيرَ شهىّ

لا (*)والله لكأنك وقعتَ على مطمورة وظَفِرتَ برأس خاقان(*) .

كنتُ أظنّ أنّ الرّشاقة والحِلم لا يجتمعان وأنّ *ظَرفَ الإنسان *وإصابة الرأى لا *يقترنان ، وأنّ النَزَق والخِفّة مقرونان بخِفّة البدن وأنّ الركانة والأناة مجموعان لصاحب السِمَن . حتى رأيتُك فاعتقدتُ بك خلاف ذلك الرأى واستبدلتُ فيك ضدّ ذلك الظنّ ، فتركتَنى حتى إذا نازعتُ الرجال وتعرّضتُ للشَجَى وشغلتُ نفسى بثَلب *الخصام وانقطعتُ إلى أصحاب القدود وجعلتُ عداوتى فى تقديم القِضاف ، وطال لسانى بك وأظهرت الاستبصار فى فضلك ، (†)*وجعلتُ مزاج أخلاطك هو الحُجّة *واعتدالَك هو النهاية وطبيعتَك هى المسكنة ، وزعمتُ أنّ منظرك يُغنى عن مَخبرك وأنّ أوّلك *يُحلى عن آخرك ، *شددتَ علىّ شَدّةَ المُهر الأرِن وتسرّعتَ إلىّ

---

(١) مثلك الجبال ن — (٢) وتغلغل ن — (٨) طرف ن — وإطالة الراى ن — (٩) لا يعترفان ن — (١٢) لعل الصواب : القصار ؟ (١٤) جعلت < فداك > مزاج أخلاطك ب — واعتدال< طبائعك > هو ب — (١٦) يحكى ب — < و > شددت ب

(*-*) (١٠) رواية ب ٢٠

(†-†) (١٤ - ص ٩٢ ، ١) جعلت ... الحنق : رواية ب ٢١

تسرُّعَ الغرِّ النَزِق وألححتَ [1]< علىّ > إلحاحَ الحَنِق (†) . كأنك لم تحفل بما يشيع لك مِن أُسم المتسرّع وبما تُضافُ إليه مِن سُخف [2]المتبرّع ، بعد أن تُكذِّب قولى وتُفسد خَبرى . (*)[3]وقد تقدّمَت التجربة فى أنّ الحديد لا يكون حَقوداً [4]وأنّ المصطنِع لا يكون للصنيعة حاسداً[4] ، فقصدتَ على رأسى إلى [5]القياس الممتحن فأفسدتَه وإلى الطبائع المعتدلة فنقضتَها وإلى القضايا الصحيحة فرددتَها(*)

وقد قالوا بأجمعهم : حالانِ لا يقبلان الحَسَد ولا يخلُوانِ من الرَشَد ، حالُ الصنيعة لمُصطَنِعِه وحالُ المولى لمُعتِقِه . فكيف إذا كان الصنيعةُ صديقاً وكان للخاصّة محتملاً . وإنما صارت — أبقاكَ الله — أجزاء النفس وأعضاء الجسد — مع كثرة عددها واختلاف أخلاطها وتباعدُ أماكنها — نفساً واحدة وجَسَداً واحداً ، لأستواء الخواطر ولإيقافها على الإرادة . فأنتَ وصديقُك الموافق وخليلُك ذو الشِكل المطابق ، مستويان فى المحابّ متّفقان فى الهوى متشاكلان فى الشهوة ، وتعاوُنكما كتعاوُن جوارح أحدِكما وتسالُمكما كتسالُم المتّفق من طبائعكما ، فإذا بان منك صديقُك فقد بان منك شَطرُك ، وإذا اعتلّ خليلك فقد اعتلّ نِصفك . بل النفوس المضمَّنة كالمعانى المضمَّنة ، فذهاب بعضها هو ذهابُ جميعها ، فموتى هو موت صديقى وحياتى هى حياة صديقى ، فلا تُبعدنّه من قلبك بُعدَ بدنه من بدنك ، فقد يقرب البغيض وينأى الحبيب . ولعل بعض طبائعك المخالِط لروحك أن يكون أعدى من كل

---

(١) <على> ب — (٢) لعله : المتفرغ ؟ — (٣) وقد تقدمت <إلى> التجربة لأن الحديد ب — (٤) [وإن المصطنع ... حسوداً] ب — (٥) [القياس] ب

(*-*) (٣-٦) وقد تقدمت ... فرددتها : رواية ب ٢٢

عدوّ وأقطع من كل سيفٍ وأخوف عليك من الأسد الضارى ومن السُمّ السارى

ثم اُعلم أنّ *الموثق بمودّته قليل . وقد صار اليوم المعتمَدُ عليه فى صحة العُقدة وفى كرم الغيب والعشرة عنقاءَ مُغرب . ولا أعلم الكبريت الأحمر إلّا أوجد منه ، وإنّى لأظنّ القناعة أكثر منه ، وما أكثر مَن جعل انقطاعَ سببه وضعفَ طمعِه لانقطاع سببه قناعةً . وقيل ليحيى بن خالد : أىّ شىء أقلّ ؟ قال : قناعة ذى الهمّة البعيدة بالعيش الدون ، وصديقٌ قليل الآفات كثير الإمتاع شكور النفس يصيب مواضع المرَح . لا والله *لن تعرف على ظهرها موضعاً للسرّ ولا مكاناً للشكوى ولا رُوحاً تأنس بها ولا نفساً تسكن إليها . ولو أردت أن تُعرّفنى من جميع العالمين رجلاً لما قدرتَ على أحدٍ يحتمل الغِنَى ، ومحتمل الفقر قليل ومحتمل الغِنَى عديم

إنّ الخير — أبقاك الله — فى أيّام كثرته كان قليلاً فما ظنّك به فى أيّام قلّته ، وإنّ الشرّ فى أيّام قلّته كان كثيراً فما ظنّك به فى أيّام كثرته . وأنت غريب فى المصطنعين وأنا غريب فى الصنائع ، والغريب للغريب نسيبٌ ، ونَسَب المشاكلة وقرابة الطبيعة الموافقة أقرب من نسب الرَحِم ، لأنّ الأرحام مولعة بالتحاسُد لَهِجة بالتقاطُع ، وإن التحابَّ على طَبع المشاكلة والتلاقى على وفاقٍ من الطبيعة ، أبعدُ من التَفاسُد وأبعدُ من التعادى ، وسَبَبُ التعادى عَرَضٌ فى طبائع الغُرَباء وجوهرٌ فى طبائع الأقرباء

واُعلم أنك لا تزال فى وحشةٍ إلى وحشةٍ وفى غربةٍ إلى غربة ، وفى تنكُّر العيش وتسخُّط الحال ، حتى تجد مَن تشكو إليه بَثَّك ، وتُفضى إليه

(٣) لعل الصواب : المتوثق — (٨) أن تعرف ؟

بذات نفسك . ومتى رأيتَ عجباً لم تُضحكك رُؤيتك له بقدر ما يُضحك إخبارك إيّاه . فمَن أغلب عليك ممن كانت هذه حاله منك وموقعه من نفسك . ولوأنّ شيبتى التى بها استعطفتُك وكبرة سنّى التى بها استرحمتُك ، اللتان لم يحدثا علىّ إلّا وأنا فى ذرَاك ولم يحلّا بى إلّا وأنا فى ظِلّك ، لكان فى شفاعة الكبرة واسترحام الضعف والوَهنة ما يردعك عنّى أشدَّ الرَدع ويؤثر فى طباعك أبين الأثر ، فكيف وقد أكرمتَنى جديداً ثم تريد أن تُهيننى خَلَقاً ، وقوّيتَ عَظمى أغلظَ ما كان ثم تريد أن تُوهنه أرقَّ ما كان . وهل هرِمتُ إلّا فى طاعتك وهل أخلقنى إلّا مُعاناة خِدمتك

قال علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه : رأىُ الشيخ الضعيف أحبّ إلينا من جَلَد الشابّ القوىّ . وأنا أقول كما قال أخُو ثقيفٍ : مودّة الأخ التالد وإن أخلق خيرٌ من مودّة الطارف وإن ظهرت بشاشته وراعتك جِدّته . وقال عبد الملك بن مروان : رأىُ الشيخ أحبُّ إلينا من مشهد الغلام . وقال بعضهم : ليس بغائبٍ مَن شهد رأيه وليس بفانٍ مَن بقى أثره ، وما كمّل العقلَ *ولا وفّر التجربة شىء كنقصان البدن وكأخذ الأيّام مِن قُوَى الأعضاء . وقال آخر : ما قبّح الرجالَ شىء كالوِكال ، ولا أفسد الكريمَ شىء كحبّ الاستطراف . وخير الناس مَن أتبع الغضب مواقع الذنوب ، وأتبع العِقاب مواقع الغضب ، ولم يتبع الغضب مواقع الهوى

(*) ولقد منحتُك جَلَد شبابى كَمَلاً وغرب نشاطى مقتبلاً ، *وكان لك مهناه وثمرة *قواه ، واحتملتُ دونك غُرامه *وعدمه وكان لك غُنمه

---

(١٣) الا ن — (١٨) فكان م — (١٩) قوله ن — وعزبه م

(*-*) (١٨ - ص ٩٥ ، ٧) ولقد ... المغنى : رواية م ٧

وعلى غُرمه ، وأعطيتُك عند إدبار بدنى قوةَ رأيى وعند تكامُل معرفتى نتيجة تجربتى ، واحتملتُ دونك وَهنَ الكِبَر وأسقام الهَرَم . وخير شركائك مَن أعطاك مَا صَفا وأخذ لنفسه ما كدُر ، وأفضل خُلطائك مَن كفاك مؤونتَه وأحضرك معونتَه ، وكان كلاله عليه ونشاطه لك . وأكرم دُخلائك وأشكر *مُؤمِّليك مَن لايظنّ أنك تُسمِّى جزيلَ ما تحتمل فى بَذلِك *ومؤاساتك مؤونةً ولا تَتَابُعَ إحسانك إليه نِعمةً ، بل يَرى أنّ نعمة الشاكر فوق نعمة الواهب ونعمة الوادّ المخلص فوق *نعمة الجواد المغنى (*) ، وأنه لا يبلغ فى إعطاء المجهود من نفسه فى خلع جميع ماله إلى مؤمِّليه والمتحرمين به ، حُسنَ نِيّة الشاكر الوامق وحقّ تمنّى الوادّ العارف . ولو اقتضيتَ جميع حقوقك علىّ وأنكرتَ جميع حقوقى عليك ، أو جعلت حقّى عليك حقًّا لك ، ثم زعمتَ أنّ حقك لا يؤدِّى إلى شكره وأنّ حقّى لا يلزم حكمه وأنّ إحسانى إساءة وأنّ الصغير من ذنوبى كبير وأنّ اللمَمَ منّى إصرارٌ وأنّ خطأى عمدٌ وأنّ عمدى كلّه كفرٌ وأنّ كفرى يوجب الطمع ويمنع من النزوع ، لما كان عندك* ، وما اتّسع قولى لأكثر من هذا العقاب ولا أشدّ من هذا الغضب . وما ينبغى أن يكون هذا المقدار من النقم إلاّ لبارئ النَسَم ، فى دار البقاء لا فى دار الفناء ، *والذى يجوز بين العباد إنما هو تعزيرٌ أو حدّ أو قوَدٌ أو قِصاص أو حبسٌ أو تغريبٌ أو *إغراق أو إسقاطُ عدالة أو إلزامُ اسم العداوة أو عِقابٌ يجمع الألم والتقويم والتنكيل ، فيكون مضض الألم أجراً له ومُعدِّلاً أسبابه . ورُبما قصر الإيقاع

---

(٥) مواليك م — (٦) وموانستك م — (٧) [نعمة] م — (١٤) يظهر أنه سقط بعد « عندك » عدة كلمات — (١٦) الذى ن — (١٨) لعله : إغرام

على السُخط وجاوز حدّ الغضب ، وربُما كان مقصوراً على مقدارهما ومحبوساً على نهاية حالهما . وليس كل عقابٍ نتيجة سُخط ، وقد لا يُسمَّى ذلك المُو قع والمُعاقِب واجداً كما يسمّى ساخطاً ، ولا يسمى عاتباً كما يسـمّى غضبان ، فيخرج كما ترى من أن يسمَّى سُخطاً أو موجدةً وغضباً ، كما خرج عقاب آدم عليه السلام من هاتين الصفتين ومن جميع القسمين ، وعلى أنه كان إخراجاً من دار الخُلد والـكرامة إلى دار الابتلاء والمحنة . مع ما فى ذلك من إعراء الجلد والتسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم والاغترار بيمين الخصم

والعجب أنك تضـجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجل عفوك ، ولا تضجر بطول تشاغُلك بظُلم صـديقك مع استغنائك عن ظلم صديقك . فلو كنتَ إنما تفعل ذلك لأنك تلذّ ضرب السِياط ورَضّ العِظام ، فجَنبُ دَنَدَن أحمل والسوط فى ظهر قاسمٍ أحسن وأبدانهما تحت السـياط أثبت و إنّ أرواحهما أبقى وهى بأرواح الـكلاب أشبه و إلى طبائع الضِبَاب أقرب وأرحامهم بالحمير أمسّ ومن يشير فيهم بذلك أكثر والأجر فى ضربهم أعظم . فاستدِم اللذةَ بطريق اللذة وضع الأمور فى مواضعها يَطُلْ سرورك بها

إنّ عِتاق الخيل وأحرار الطير أدقّ حِسًّا وأشدّ اكتراثاً ، والـكوادن الغلاظ والحمار الثقال أكلّ حِسًّا وأقلّ اكتراثاً . وليس الصبر بالصمت والسكوت ولا بقلّة الصِـياح والضمور ، وقد يصيح تحت السوط مَن لا يُقرّ على صاحبه ولا يدلّ على عَورة نفســه . والـكلب المضروب يجمع الصياح والهرب والفرس العتيق يَعدُو ولا يصيح ، والحافر كله كظومٌ ضاغنٌ والمِخلب كله ضَجور صَيّاح ، والضجر فى الخُفّ عامّ والبخاتى أضجر ، فسمن الظِلف عامّ

---

(١٩) ضاغن ، صححنا : ضامن ـ

وهو فى الضأن أخفى . وكل مضروب هارب صَيّاح ، ومنهـا ما يجمع الخصال كالكلب والبعير . والهرب من المكروه محمود والمُقام عليه مذموم ، كالذى يعترى *عين السقم ، وتجده فى الفرس الكريم ، من قلة الاكتراث وشدّته . وصبر البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ولا يدل على الكرم . وفى المثل : ما رُوح فلانٍ إلاَّ روح كلب . ويقول العرب : الضبّ أطول شىء ذماء ، والكلب لئيم والضبِ غير كريم . والبازى أكرم من الصقر وأشـد وأكثر ثمناً وأجمل جمالاً وأعفَى صيداً وأنبل نُبلاً ، إن قَبَض عليه قتله وإن لم يُنح كَندْرته* عن قربه *أوهق نفسه . ثم يبلغ من دقة طمع البازى وعتقه أنه ينقطع بَرده للباز يار له إلى مسقطه من يده ، والصقر يتعلّق بساقيـه من رجل حمل *بذرع فيضطرب منكساً إلى الصبح ثم يجده وكأنه لم يزل على كندَرته وعلى مسقطه الذى يؤتى له

فليس بدنى مِن أبدان الاحتمال فأُمتِعك بِطُول ثباته لك ، ولا أُثبُت لك ثباتَ العير الكليل الحسّ ولا أجعل الصياح دليلاً على الإقرار ، فيكون ذلك أحد ما تتمتّع به وتُدرك به حاجة نفسك . وقد دللتك على ناسٍ يجمعون لك الخصال التى فيها دوام لذّتك وتمام شهوتك . فإن زعمتَ أنّ الذى يُثبت روح دَندَن فى بدنه وروح القاسم فى جسمه ، سرورُهما بمـا قد أُحتجَناَ مِن كنوز الخلافة وأموال الرعيّة ، وليس ذلك من رسوخ أرواحهما فى أبدانهما ومن شدّة الاحتجان وقوة الاكتناز ، ففرّق بينهما و بين تلك الأموال التى

(٣) كذا ۞ ولعله : العير السقيم — (٩) اوهق ، صححنا : ارهق ۞ — (١٠) كذا ۞

تمسك أرواحَهما بالحيل اللطيفة والتـدبير النافذ ، و بأن تُمضى فيهما حُـكم
الـكتاب والسُنّة . فإنه سيَحل عُقدة أرواحهما عَقداً عَقداً ، فيعظم أجرك
٣ ويطيب ذكرك وتطيع الخليفة وتتحبّب به الأُمّة ، فتكون قد أحسنت فى
صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير أهله . والسـلام عليك ورحمة
الله و بركاته[٥]

---

(٥) تمت الرسالة بعون الله ومنه وتوفيقه والله الموفق بالصواب برحمته . والحمد لله أولا وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه ۞

٤

رسالة فصل ما بين العداوة والحسد

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

أصْحَبَ اللهُ مُدّتك السعادةَ والسلامةَ وقَرَنها بالعافية والسُرور ووَصَلها بالنِعمة التى لا تزول والكرامة التى لا تحُول

هذا كتابٌ — أطال اللهُ بقاءك — نبيلٌ بارعٌ ، فُصِلَ فيه بين الحسد والعداوة ، لم يسبِقنى إليه أحد ، ولا إلى كتابِ فضل الوعد الذى تقدّم هذا الكتاب ، ولا إلى كتاب أخلاقِ الوزراء الذى تقدّم كتابَ فضل الوعد . وإنّما نَبُلَت هذه الكتبُ وحَسُنت وبَرَعت وبذّت غيرَها ، لمشا كلتها شَرَفَ الأشراف ، بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة والآثار الحسنة اللطيفة والأحاديثِ الباعثة على الأخلاق المحمودة والمكارم الباقية المأثورة ، مع *ما تضمَّنته من سِيَرَ الملوك والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم وما جَرَت عليه

(١٤) ما تضمنته ، صححنا : ما تضمنها ن

(*) الجاحظ رحمه الله ن — أول الرسالة فى ن : الحمد لله رب العالمين كما هو أهله وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به وعلى آل محمد كما سنه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيرا

أحوالهم . فأنا *أسألك بساطع كرمك وناصع فَضلك ، لمّا امتَنَنْت علىّ بصَرْف عنايتك إلى قراءتها ، فإن لم يمكنك تبحُّرها والتقصّى لجميعها ، للأشغال التى تعروك ، *فبحسبك أن تقف على حدودها وتتعرّف معانىَ أبوابها ، بتصفُّح أوائلها . فإنّ معك قلباً به من اليقظة والذكاء والتوقد والحِفظ ما يكفى مَعَه نظرُ الخاطف

إنه لم يخلُ زمنٌ من الأزمان فيما مَضَى من القُرون الذاهبة إلّا وفيه علماء مُحقّون ، قد قرأوا كُتُب مَن تقدَّمهم ودارسوا أهلها ومارسوا* . . . . لهم وعابوا المخالفين عليهم ، فمَخَضُوا الحكمة وعَجَموا عيدانها ، ووقفوا على حدود العلوم ، فحَفِظوا الأُمّهات والأصول وعَرَفوا الشرائع والفروع ، فقرَنوا ما بَين الأشباهِ والنظائر ، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ، ووَصَلوا بين *المتجاور والمتوازى ، واستنبطوا الغامِضَ الباطن بالظاهرِ البيّن ، واستظهروا على الخفىّ المشكل بالمكشوف المعروف ، وعرفوا بالفهم الثاقِب والعلم الناصع ، وقضَت لهم المحنةُ بالذكاء والفِطنة . فوضعوا الكتبَ فى ضُروب العلوم وفُنون الآداب ، لأهل زمانهم والأخلاف مِن بَعدهم ، يزدلِفون بذلك إلى الممتنّ عليهم بفضلِ المعرفة التى ركّبها الله فيهم *وأبانَهم من غيرهم وفضّلهم عليهم ، ويُباهُون به الأممَ المخالفةَ لهم ، ويتبارَون فيما بينهم

ولهم حُسّادٌ معارضون من أهل زمانهم فى تلك العلوم والكتب منتحلةٌ يدَّعون مثل دَعاويهم ، قد وَسَموا أنفسهم بسِمات *الباطلَ *وتسَمَّوا

---

(١) أسلك ن — (٣) فبحسبك ، صححنا : وبنفسك ن – (٧) بياض كلمتين فى ن — (١١) المتجاوز والمتوارى ن — (١٥) لعل الأشبه : فأبانهم — (١٨) لعله : بسمات <العلماء> بالباطل ؟ – وسموا ن

بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة ولبِسُوا لِباسَ الزور متزخرفين متشبِّعين بما لا محصولَ له ، يحتذون أمثلة المحقِّين فى زيِّهم وهَديِهم ويقتفون آثارهم فى ألفاظهم وألحاظهم وحرَكاتِهم وإشاراتهم ، ليُنسَبوا إليهم ويَحلّوا مَحلَّهم . فاُستمالوا بهذه الحيلة قلوبَ ضُعَفاء العامّة وجُهلاءِ الملوك ، *واتّخذهم المُعادون للعُلَماء المحقِّين عُدّةً يستظهرون بهم عند العامّة . وحَمَلَ المدّعية للعلم المزوَّر الحسدُ على بَهتِ العلماء المحقِّين وعَضهِهم والطعن عليهم ، وجرّأهم على ذلك *ما رأوا مِن صَغوِ ضَعَفة القلوب وأذِلّة الناس إليهم ومَيْل جُهلاء الملوك معهم عليهم . وأمّلوا أن ينالوا بذلك بَشاشةَ العامّة ، وتستوىَ لهم الرياسة على طَغام الناس ورَعاعِهم ، ويَستخولوا *رَعاعهم وقومهم . فهمزوا وهددوا ، *وتوردوا على أهل العلم بغَباوتهم وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم وهتكوا سِتراً كان مُسدَلاً عليهم بالصمت — فقد قيل الصمتُ زَينُ العالم وسِتر الجاهل — طمعاً فى الرياسة وحبًّا لها . وقد قيل :

حُبُّ الرياسة داءٌ لا دواءَ له وقَلَّ ما يجد الراضين بالقسَمِ

ولم يخلُ زمنٌ من الأزمنة من هـذه الطبقة ، ولا يخلو . وهلاكُ مَن هلك من الأمم فيما سَلَف بحبِّ الرياسة ، وكذلك مَنْ يهلِك ، إلى انقضاء الدهر ، فبحبِّ الرياسة :

هَلاكُ الناس مُذ كانوا إلى أن تأتى الساعة
بحُبِّ الأمرِ والنَهى وحُبِّ السمع والطاعة

فأشْكلَ على العامّة أمرُ العالم الحقيقىّ والمدَّعى *المجادل والمنتحلِ

---

(٤) وابجدهم ن — (٧) ما ، صححنا : من ن — (٩) كذا فى ن ولعلها : رعاياهم أو ما يشبهها ؟ — وتوددوا ن — (١٩) صححنا : المحادى ن

للزُور والباطل . ثم تَرادَفَ عليهم مِن هـذه العِلَل التى يَعمى لها السبيلُ الواضِح والطريقُ *المنشأ على الجاهِل المستَضعف وذِى الغنا المستَرهف ولستُ آمَنُ — جعلنى اللهُ فِداك — أن تـكونَ هذه الـكتب التى أُعنى بتأليفها وأتأنّق فى ترصيفها ، يتولى عَرضها عليك مَن قد لبِس لِباس الزور فى أنتحال وضع مِثلها ، ونَسَب نفسه إلى القوّة على نظائرها والمعرفة بما يُقاربها إن لم يكن أخاها فأبنَ عمِّها ، ويشبَعُ بما لم يُطعمه اللهُ منها . ولعلّ بعضَ *من حوله أو بعض مَن يهزِل به ويرتع فى عقله ويلهو بلُبِّه ويضمُّه على *طَبطابَةِ اللعب وفى أرجوحة العبث *يوهمه الحسدُ له على مايدّعى من ذلك ، ويتقدَّم إلى آخرين فى إيهامهم إيّاه ذلك ، فيزيدُه فِعلهم ضراوة بادّعاء ماليس معه وهو منه عارٍ ، فإذا رجَع إلى الحقائق علِم أن مثله كما قد قيل :

ومَن يسكنِ ٱلبَحرين يعظُمْ طِحالُه ويُغبَطْ بمـا فى البطنِ والبطنُ جائعُ

وقد قيل *الذِئب يغبط وهو جائع ، فيلتوِى فى قراءتها ويقبضُ لسانه عن بسط ما يحتاج أن ينشره منها ويقصّر فى تفخيم حروفها ولا يملأ فمه منها بل لا آمَنُ أن يتجاوزَ ذلك إلى الطعن عليها بقولٍ أو إشارة ، فيُوهِم فسادَ معانيها ويُومىء إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يظهرَ *المعاداةَ لها والحسدَ لمؤلِّفها والحملَ عليها بقولٍ يكونُ دليلا على ما يُضمر ، وهو أبلغُ ما يكونُ من قلبِ المستمع *وأنجعه فيه ، فيقعُ ذلك بخَلَده . وقد قيل : من يسمع يَخَلْ . وليس يقابله أحدٌ *برد ولا يوازيه بنزاع ، فيزدادُ نشاطا عنـد ما يَرَى من خلاء الأمر . وقد قيل : كلُّ مُجرٍ فى الخلاء يسبق وكل مناظرٍ

---

(٢) المشا ن — (٦) من ، صححنا : ما ن — (٨) طيطاب ن — فيوهمه ن —
(١٢) الذنب ن — (١٥) المغادلة ن — (١٧) وانجعه ن — (١٨) بود ن

متفردٍ بالنظر مسرور . وإنما يعرف جَرىُ الخيل عند المسابقة وبراعةُ النظر عند المخاصمة

وقال لى بشرٌ المريسىّ : عُرض كتابى على المأمون فى تحليل النبيذ ، وبحضرته محمدُ بنُ أبى العباس الطوسىّ . فانبرى محمدٌ للطعن عليه والمعارضة للحُجَج التى فيه ، وأسهب فى ذلك وخَطَب وأكثر وأطنب ، *فغلِقَ المأمونُ واحتدم وهاج واضطرم ، *لاستحقار الطوسىّ وخلاء المجلس له . وكان يحبُّ أن يزَعَه وازع يكفُّهُ بحجةٍ تسكتُه ، فلمّا لم ير أحداً بحضرته يذبُّ عن كتابي قال متمثّلا :

يا لكِ من قنـــبرة بمَعْمَر   *خلا لك الجو فبيضى واُصفرى
ونقّرِى ما شئتِ أن تنقّرى

فما كان إلّا رَيْثَ فراغهِ من التمثُّل بهذه الأبيات ، حتى اُستُؤذِنَ لى ، فدخلتُ عليه . فقال : يا أبا عبد الرحمن ما تقولُ فى النبيذ ؟ فقلت : حِلٌّ طَلْق يا أمير المؤمنين ، فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ، قلت : لعَنَ الله قليله إذا لم يُسكر كثيرُه . ثم قال : إنّ محمداً يخالفك . فأقبلتُ على ابن أبى العبّاس ، فقلت له : ما تقول فيما قال أميرُ المؤمنين ؟ قال : لا خلافَ بينى و بينك ، كلاما يُوهِم به أهلَ المجلس ، حُبًّا للتّسلم مِنِّى والتخلصِ من مناظرتى ، لا على حقيقة التحليل له . فاستغنمتُ ذلك منه ، وقلتُ له : فمالى لا أرى *أثَرَ قواه فى عقلك ؟ فضحك المأمون ، فلما رأيتُ ضحكه أطنبتُ فى معانى تحليل النبيذ ، وابنُ أبى العباس ساكتٌ لا ينطق ، وكان قبل دخولى ناطقا لا يسكت . فلمّا رأى

---

(٥) فغلق ، صححنا : فقلق ت — (٦) كذا ت — (٩) جلات ت — (١٧) أشر ت

المأمون سكوتَه عنـد حضورى ، مع كثرة كلامه فى ثَلْب كتابى وعيبه — كان — قبلَ دخولى ، قال متمثِّلا :

مالكَ لا تنبحُ يا كلبَ الدومْ قد كنتَ نباحاً فما لك اليَومْ

ثم نظر إلىّ فقال : إنّ الـكتب عقول قوم وراءها عندهم حُجَجٌ لها ، فما ينبغى أن يُقضى على كتاب إلّا إذا كان له *مدافع عنه وخَصم يبيِّن عمّا فيه فإن أبناء النِعَم وأولاد *الأسد محسودون . ثم قال : يا أبا عبـد الرحمن بإزاء كل حاسد *راهن ، وقد قيل فى مَثَلٍ من الأمثال : *الحسن محسود ، وفى مثل آخر : لن تَعدمَ الحسناء ذامًّا ، وقال الأحنفُ بنُ قيس :

ولن تُصادفَ مرعًى مُمرِعاً أبداً إلا وجدتَ به آثارَ مأكولِ

*يقال يعـاب فى كلّ حسن ويؤكل منه فيعيبُه ذلك . وقال عمرُ بنُ الخطّاب رضى الله عنه : ما أحدَثَ اللهُ لعبدٍ نعمةً إلّا وجدتَ له عليها حاسداً ، ولو أنّ امرءاً كان أقوَمَ من القِدح لوجدتَ له غامِزاً . وقال عمرُ بن عبد العزيز رضى الله عنه : الحاسدُ لا يملكُ عِنان حَسَده ، لأنه مغلوبٌ على نفسه . وقال الخطابُ بن نُمَير السـعدىّ : الحاسدُ مجنون يحسُد الحسَن والقبيح . وقال المهلّبُ بنُ أبى صُفرة : الحسدُ شِهابٌ ، لا يُبالى مَن أصاب وعلى مَن وَقَع والعداوةُ لها عقلٌ تسوسُ به نفسها ، فينجُمُ قَرنها وتُبدِى صَفحتها ، فى أوقات الهتر ، وإلّا فإنها كامنةٌ تنتظر أزمنة الفرص ، والحسدُ مسلوبُ المعقول بإزاء الضمير فى كلّ حينٍ وزمانٍ ووقت . ومن لؤم الحسد أنّه موكَّل بالأدنى فالأدنى والأخصِّ فالأخصّ ، والعداوةُ وإن كانت تقبِّح الحسَن فهى

---

(٥) دافع ن — (٦) كذا فى ن — (٧) كذا ن ولعل فى العبارة سقطا تأويله : بازاء كل <حسن> حاسد راهن — الحسن ، صححنا : الحسد ن — (١٠) كذا ، وفى الجملة تحريف ، ولعل يعاب صحتها : العاب

دون الحسَد ، لأنّ العدوّ *المباينَ قد يحول وليًّا منافقا ، كما يحول الوليُّ المنافق عدواً *مبايناً ، والحاسدُ لا يزولُ عن طريقته إلّا بزوال المحسود عليه عندَه . والعداوةُ تَحدُثُ *لعلّةٍ ، فإذا زالت العلّةُ زالت معها ، والحسد تركيب لعله *يحسد عليه ، فهو لا يزول إلّا بزواله

ومن هذا قال مُعاويةُ رحمه الله : يمكننى أن أرضىَ الناسَ كلهم إلّا حاسدَ نِعمةٍ ، فإنّه لا يُرضيه منها إلّا زوالُها . وأعداء النعمة إذا شُوركوا فيها ونالوا منها ، تزَحزجوا عن عداوتها وكانوا من أهلها المحامِين عنها والدافِعين عن حماها

ومن هذا قال المغيرة بن شُعبة : النعمةُ التى يُعاش فيها نِعمة محروسة ، ليس عليها ثائرٌ يغتالها ولا ذو حَسَد يحتال فى غيرها

وقال قُتيبة بن مُسلِم : خيرُ الخير وأحصَنُه خير عيش فيه . وكلُّ خير كان يوضح بدلاً *؛ كان من المتالف ممنوعا ومن الغِيَر آمناً

وحُسّاد النعمة إن أعطوا منها *وتبحبحوا فيها ، ازدادوا عليها غيظاً وبها إغراء . والعداوةُ تخلُق وتَمَلّ والحسد غضٌ جديد *حرام إذا عطى* لا يبيد . فكلّ حاسدٍ عدوٌّ وليس كل عدوّ بحاسد . و إنما حملَ اليهودَ على الكفر بمحمّد صلّى الله عليه وسلم — وهم يعرفونه كما يعرِفون أبناءهم ، أنه نبىّ صادق ورسول محقٌّ يقرّون بعثه فى توراتهم ويتدارَسونه فى بيتِ *مدراسهم — الحسدُ ، وحَجَزَ بينَ علمائهم والإيمان به ، ثم نتج لهم الحسدُ عداوته

(١-٢) كذا ، ولعلها المبارز ، مبارزا — (٣) لعلة ، صححنا : العلة ق — كذا ، ولعله ، لعلة ما يحسد عليه — (١٢) كذا ، ولعله : يرضخ بذلا — (١٣) ومحو ق — (١٤) كذا ، ولعلها : حرم أو أعطى — (١٨) مدارستهم ق

ومن الدليل على أنّ الحسدَ آلمُ وآذى وأوجعُ وأوضعُ من العداوة ، أنه مُغرىً بفعل الله عزّ وجلّ ، والعـداوةُ عارية من ذلك لا تتصلُ إذا اتصلت إلّا بأفعال العباد ، ولا يُعادى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع بأحدٍ عادَى أحداً لأنّه حسنُ الصورة جميلُ المحاسن فصيحُ اللسان حسنُ البيان ، وقد رأيتَ حاسدَ هـذه الطبقة وسمعتَ به ، وهم كثيرٌ تعرفهم بالخَبَر والمشاهدة . فهذا دليلٌ على أنّ الحسَد لا يكونُ إلا عن فساد الطبع واُعوِجاج التركيب واضطراب السُوس .

والحسد أخو الـكذب يَجريان فى مضمارٍ واحد ، فهما أليفان لا يفترقان وضجيعانِ لا يتباينان . والعـداوةُ قد تَخلو من الـكذِب ، ألا ترى أنّ أولياءَ الله قد عادَوا أعداءَ الله ، إذ لم يستحلّوا أن يكذِبوا عليهم . والحسَدُ لا يبرأ من البهت ، وكيف يبرأ منه وهو عَموده الذى عليه يعتمد وأساسه الذى به البناءُ يعقَد . وأنشد :

كضرائر الحسناء قُلن لوجهها كَذِباً وزُوراً إنّه لدَميم

والحسَدُ نارٌ وَقوده الروح لا يبوخ أبداً ، ويفنى الوقود والحسدُ لا يبلى إلّا ببلى المحسود أو الحاسد . والعـداوة جمر يوقِدُه الغضب ويطفئه الرضا ، فهو مؤمَّل الرُجوع مرجوٌّ* الإنابه . والحسَدُ جوهرٌ والعداوة اكتساب . وقال بعضُهم الحسدُ أنثى لأنّه ذليل والعداوةُ ذكرٌ فَحلٌ لأنها عزيزه والحسدُ وإنْ كان موكلا بالأدنى فالأدنى ، فإنّه لم *يعر منه الأبعد فالأبعد

فقد رأينا وشاهدنا مَن كان يسكنُ العِراق ويَنتحلُ العلمَ والأدب ، انتهى

---

(١٦) الابانة ظ — (١٨) لم يعز منه إلا بعد ما لا بعد ظ

إليه خبر مشاركٍ له فى الصناعة ، من أهل خراسان *وحمه بلخ ، من اتّساق الرياسة له فى بلده وجميل حاله ونبل محلّه عند أهل مصره وطاعة العامّة له *وترادف النّاس عليه ، فطار قلبُه فرَقاً وأخذته الأُرَباء وتنفّس الصُعداء وانتفض انتفاض المعلَّس المطور ، فقال لِى رجل من إخوانى كان عن يمينى حين رأى ما رأى منه : بحقٍّ قال مَن قال : لم يُرَ ظالمٌ أشبهُ بمظلومٍ من حاسدِ نعمة ، فإن نَفَسه متصلٌ وكربه دائم وفكرته لا تنام

وهو فى أهل العلم أكثر وعليهم أغلب وبهم أشدُّ لصُوقا منه بغيرهم من الملوك والسوقة . وكأنَّ مَن ناله التقصيرُ فى صِناعة العلم عن *غايته القُصوى ، قد استشعرَ حسَدَ كلّ ما يردُ عليه ، من طريف أدب أو أنيق كلام أو بديع معنًى ، بل قد وقَع بخلده لضعفه وقرّ فى رُوعه *لخساسته ، أنّه لا ينالُ أحدٌ منهم رياسة فى صناعة ولا يتهيّأ له سياسةُ أهلها ، إلّا بالطعن على نواصيهم والعيب لجلّتهم والتحيُّف لحقوقهم

قال لى مسلمُ بنُ الوليد الأنصارى الشاعِر الذى يُعرف بصَريع الغوانى : خُيِّل إلى نوْكى الشعراء أنّهم لا يقضى لهم بجودة الشعر ، إلّا بهجائى والطعنِ فى شعرى ولسان يهجى به عرضى ، لا أنفكُّ *متّهما من غير جُرم ، إلّا ما سَبَق إلى قُلوبهم من وَساوس الظُنون والخواطر التى أوهمتهم أنّه لا يسجل لهم بجودة الشعر ، إلّا إذا استعملوا فىّ ما خُيّل إليهم

وأخْبرنى أشياخُنا من أهل خراسان أنَّ أبا الصلت الهروى كان عند الفضل ابن سهل ذى الرياستين بمَرو ، فقرأ عليه كتابا ألّفه النضرُ بن شميل ، فطعن أبو الصلت فيه . وكان الفضلُ عارفاً بالنَضر الشُميْلى واثقاً بعلمه مائلاً إليه .

---

(١) كذا ، ولعله : وقصبة (٣) فترادف ن — (٨) غاية ن — (١٠) لحاسته ن — (١٥) فى الأصل : منهما

فأقبل على أبى الصلت وقال له : إنّ يحيى بنَ خالد قال يوما : إنّ كتبى لتُعرض على من يغلُظ فهمُه عن معرفتها ويجسو ذهنه عنها ولا يبلغُ أقصى علمه أمانيها — *يعرِّض باسماعيل بن صبيح — *فيطعن فيها ولا يدرى ما يُقرأ عليه منها ، إلّا أنّ نار الحسد تلهبه ، فيهذى هذيان المريض ويهمز همزان *المعزى ثم لا يرضَى أن يقِف عند أوّل الطعن ويُمسك عنه ، حتى يستقصيَ على نفسه إظهارَ جهله عند أهل المعرفة باستيعابه الطعنَ على ما لم يبلغْ درايتَه ولم يحط به علمُه ، ثم يُنسيه جهلُه الطعنَ الذى تقدَّم فيها ، ويحملُه نَوكُه على استعمال معانيها وألفاظها ، فى كتبه إلى إخوانه وأعوانه الذين شَهِدوه فى أوان طعنه عليها وحين ثَلبِه لها

فقد عرفتُ حقيقةَ ما قال يحيى بنُ خالدٍ بالتجربة والابتلاء ، وإنى ربّما ألّفتُ الكتابَ المحكمَ المتقنَ ، فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخُطَب والخراج والأحكام وسائر فنون الحِكمة ، وأنسبُه إلى نفسى ، فيتواطأ على الطعنِ فيه جماعةٌ من أهْل العلم ، بالحسَدِ المركَّب فيهم ، وهم يعرفون براعَتَه ونصاعَتَه . وأكثرُ ما يكون هذا منهم إذا كان الكتابُ مؤلَّفا لملكٍ معه المقدرةُ على التقديم والتأخير والحطّ والرفع *والترهيب ، فإنّهم يهتاجُون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة . فإن أمكنتهم حيلةٌ فى إسقاطِ ذلك الكتاب عند السيّد الذى أُلّف له ، فهو الذى قصدُوه وأرادوه . فإن كان السيِّدُ المؤلّفُ فيه الكتابُ نِحريراً نقاباً ونقريساً بليغاً وحاذقاً فَطِناً ، وأعْجزَتهم الحيلة ، سرَقوا معانيَ ذلك الكتاب ، وألّفوا من أعراضه وحَواشيه كتابا ، وأهدوه

(٣) يعرض ، صححنا : فعرض ن — فيطعن ، صححنا : فطعن ن — (٤) المعزى : صححنا ، العنزى ن — (١٥) لعلها ، كما يشير السياق < والترغيب > والترهيب

إلى مَلِكٍ آخر ، ومتّوا إليه به . وهم قد ذمّوه وثلبوه ، لمّا رأوه منسوبا إلىّ وموسوماً بى

وربّما ألّفتُ الكتابَ الذى هو دُونَه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمهُ باسم غيرى ، وأحيله على من تقدّمنى عصرُه ، مثل ابنِ المقفّع والخليلِ وسَلمٍ صاحبِ بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتّابى ومَن أشبه هؤلاء ؛ من مُؤلّفى الكتب . فيأتينى أولئك القومُ بأعيانِهم الطاعنونَ على الكتاب الذى كان أحكمَ من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتابِ وقراءته علىّ ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيّرونه إماماً *يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ويتأدّبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخِطاباتهم ، ويَروُونه عنّى لغيرهم من طلّاب ذلك الجنس . فيثبت لهم به رياسة ، يأتمّ بهم قوم فيه لأنّه لم يترجم باسمى ولم ينسب إلى تأليفى

ولربما خرج الكتابُ من تحتِ يدى مُحصَفاً كأنّه متنُ حجرٍ أملس ، بمعانٍ لطيفة محكمة وألفاظٍ شريفة فصيحة ، فأخافُ عليه طعن الحاسدين إن أنا نسبتُه إلى نفسى ، وأحسُد عليه مَن أهتمُّ بنسبته إليه ، لجوْدة نِظامه وحسن كلامه ، فأظهرُه مُبْهما غُفلاً ، فى أعراض أصولِ الكتب التى لا يعرف وُضّاعها فينهالون *عليه انهيال الرمل ويستبقون إلى قراءته استباق الخيلِ يوم الحَلْبَة إلى غايتها

وحسد الجاهل أهونُ شَوْكةً *وأذلّ مِحناً ، من حَسَد العارف الفطِن . لأنّ الحاسدَ الجاهل يبتدرُ إلى الطعن على الكتاب فى أوّل وَهلةٍ يُقرأُ عليه ؛ من قبل استِتْمام قراءته وَرَقةً واحدة . ثمّ لا يرضَى بأيسر الطعن وأخفه حتى

---

(٨) يعتدون ن — (١٦) عليها ن — (١٨) كذا ن ، ولعلها : وأقل

يبلغَ منه إلى أشَدّه وأغلظه ؛ من قبل أن يقفَ على فصوله وحروفِه . وليس يثلُبه مفسَّراً مفصَّلا ؛ ولـكنّه يُجملُ ذلك ويقول : هـذا خطأٌ من أوّله إلى آخره وباطلٌ من ابتدائه إلى انقضائه . *ويحسب أنّه كلما ازداد *إغراقاً وطعناً وإطناباً فى الحمل على وضع الـكتاب ؛ كانَ ذلك أقربَ إلى القبول منه . وهو لا يعلم أنّ المستمعَ إليه إذا ظَهَر منه على هذه المنزلة استخفّ به وبكّته بالجهل ، وعلِم أنّه قد حكم من غير استبراء وقضى بغير رَويّة ؛ فسقط عنه فبطل . والحاسد العارف الذى فيه تقيّة ومعه مُسكة وبه *طمع أو حياد ، إذا أراد أن يغتال الـكتاب ويحتال فى استعماله ، تصفّح أوراقه ووقف على حـدوده ومفاصله وردَّد فيه بصرَه وراجع فـكرَه وأظهر عند السيّد الذى هو بحضرته وجلسائه من التثبُّت والتأنّى ، حُبالةً يقتنص بهـا قلوبهم وسبباً يستدعى به ألبابهم وسُلّما يرتقى به إلى مُراده منهم وبساطاً يفرشُ عليه مَصارع الخُدَع ، فيُوهِمُ به القصدَ إلى الحقّ والاجتباءَ له . فربّما استدعَى بهذه المخاتل والخُدع قلبَ السيِّد الحازم

فمن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مُؤلِّفى الـكتب ، إذا كان العارضُ لها على السيِّد الذى منه تُرجى أثمانها وعندَه تَنفُقُ بضائع أهلها ، على هـذه الصفة التى وصفتُها ، من الحسَد والحِذق بأسبابه والمعرفةِ بالوجوهِ التى تثلم المحسود وتهدّه وتضعُ منه ومِن كتبه ، لا سيما إن كان مَعَ استبطان الحسَـد وأُستعمالِ الدهاء والذكاء ، جليساً لازماً وتابعاً لا يفارق ومُحدِّثاً لا يَريم ، وليست له رِعَةٌ تحجزه عن الباطل ولا مَعه حذرٌ يبعثُه على الفِكر فى العواقب . فإنّ هذا ربّما وافق فَترة السيِّد ، بطول تَرداد الكلام وكثرةِ تـكراره عليه ،

(٣) ويحسب ، صححنا : وبحسبه ٯ — اغراقا ، صححا : غرقا ٯ — (٧) كذا ، ولعل حياد صوابها حياء

من تأكيد خِطابه ونصرته قوله وذيادِه *عنه واحتجاجه *له فيؤثر فى قلبه ويضجّع رأيه . فليس للسيِّد الذى يحبُّ أن تصيرَ إليه الأمور على حقائقها وتصوَّر له الأشياء على هيآتها ، حيلةٌ فى ذلك إلّا حسم مادّة هذا من أهل الحسَد ، بالإعراض عنهم والاحتجاز دونَهم

وربّما بلغ من الحاسد جَهدُ الحسد ، إذا لم يُعمَل بشهوته ولم تنَفذ سِهام لطائفه ، أن يُقِرَّ على نفسِه بالخطأ ويعترف أن الطعن الذى كان منه فى فى الكتاب عن سهوٍ وغفلةٍ ، وأنّه لم يكن بلغ منه فى الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر مقسّم الذهن ، فلما فرغ له ذهنه وانفرد له همّه ، *راجع وكان بدر منه عن وهمٍ وخطأٍ ، لتُظنّ به الرِعَة ، ويقالَ إنه لم يرجعْ عن قوله واعترف بالخطأ ، إلّا من عقلٍ وازع ودينٍ خالصٍ . وإنما ذلك حيلة مِنه ودهاء قدّمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه ويوطِّد لها ، من قبول القول فى سائر ما يَرِد عليه من الكتب ، عن غير موافقة على مواضع . ويجعل ما قد تقدّم له من الرجوع عن قوله عند التبيُّن له خلاف ما قال ، أوثقَ أسباب عدالته وأحكم عُرى نَصَفته

وكان يقال : من لطيف ما يُستدعى به الصدق إظهار الشكّ فى الخبر الذى يشك فيه . وكان يقال : من غامض الرياء أن تُرى بأنك لا ترائى . ومن أبلغ الطعن على ما تريد الطعن عليه ، أن تطعنَ ثم تستغفرَ الله ، ثم تمهَّل *فترةً ، ثم تعود *لطعن هو أعظم منه وأطم من الأول ، ليوثق بك فيه ، ويقال : إنّ هذا لو كان عن حسدٍ ما رجع عن الطعن الأوّل . وقد قيل : ذو الغِيبه المشهورُ بها المنسوبُ إليها ، يقل ضرره ويضعف كيده ، لما ساغ

(١) عمه ن — فيه ن — (٨) لعله : راجع <قوله> — (١٨) فترد ن — الطعن ن

له فى النـاس وانتشر منه . فكان عندهم ظنيننا متهماً ومطبوعاً عليها ، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذذ به ، من غير *قبول ولا اصطفاء له . و إنما البلية فى غيبة حذّاق المغتابين الذين يسمعون فيضحكون ولا يتكلمون . وأحذق منهم الذين يستمعون و يُسكتون القائل ، و يدعون *إليه بالصلاح للمقول فيه . فهم قد أسكتوا القائل المغتاب ، ودعوا للمقول فيـه ، وأوكدوا قول القائل ، لأنه لو حلّ عندهم محلّ البراءة مما قيل له ، لجُبه القائل ورُدع عن قوله

ومُظهر التوقّى قليلهُ عند العامّة كثير ، والمتورِّد المتقحم لا تكاد العامة تقبل منه . وقد قال بعض العلماء : إنّ *عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المغتابين وحذّاقهم حيث يقول :

مسّا تراب الأرض منه خلقتما   وفيها المعاد والمصير إلى الحشر
ولا تعجبا أن تؤتيا وتُعظما   فما حُشى الإنسان شراً من الـكبر
فلو شئت *أدلى فيكما غير واحد   علانيـــةً أو قال ذلك فى سرّ
فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما   ضحكت له حتى يلج فيستشرى

ومن هذا سرق العتّابى المعنى حيث يقول :

إن كنتَ لا تحذرُ شتمى لما   تعرف من صفحى عن الجاهل
فاخش سكوتى سامِعا ضاحكا   فيك لمشنوع من القائل
مقالة الســوء إلى أهلها   أسرعُ من منحدَر السائل
ومَن دعا النـاس إلى ذمّه   ذموه بالحق و بالبـــاطل

---

(٢) قول ن — (٤) لعلها مقحمة — (٩) عبد ن — (١٣) أدلى ، صححنا : أذى ن

وقال القاسم بن معن : كان أبو حنيفة رحمه الله يبلغ *بالتبسّم من الثورى ما لا يبلغ الثورى بالتصريح منه

وسُئل القاسم بن معن عن ابن أبى ليلى ، فقلب كفه وقال :

من الناس مَن يَخفى أبوه وجدُّه   وجدُّ أبى ليلى لكالبدرِ ظاهرُ

فلم تثبت عليه به حجة فى ذم له ولا مدح ، وقد بلغ ما أراد

وسئل يوما عن علمه فقال : أوعوه وطباً ، فإن كان محضاً أو مشوباً أظهره الوطب *وما خضوه

فإن قَدَحَ — جعلنى الله فداك — بالحسد قادحٌ ، فيما أؤلِّفه من كتابى لك وسبق إلى وهمك شكٌّ فيه ، أعلمتنى النكتة التى قدح فيها ، ثم قابله بجوابى ، فإنّى أرجو ألاّ يُحتاج إلى حاكم عند تجانى القولين بين يديك ، لعلوّ الحق على الباطل ودموغه إيّاه

والحسد أذلّ نفساً من أن يُجانى أحداً ، والعداوة إنما قُدّمت عليه لأنها عزيزة منيعة . ويقال : الحسد لا يبدو إلاّ فى العين وعلى اللسان المقصور عند المؤتلفين على *.... ، والعداوة تبدو وتنجم قرونها وينبسط لسانها ، عند الموافقين له والمخالفين عليه

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبة فقال : ذاك امرؤٌ سيط بالحسد وجُبل عليه ، فليس له أخٌ فى السرّ ولا عدوّ فى العلانية

وسئل العتّابى عن أهل بغداد فقال : حُسَّاد ، إخوان العلانية وأعداء السريرة ، يعطونك الكلّ ويمنعونك القُلّ

---

(١) بالتبسم ، صححنا : من التبسم ن

(٧) وما حضوه ن — (١٤) بياض فى الأصل بقدر كلمة

ومما يدلك على أن الحسد أخسّ وأغبن من العداوة أنّ الملل كلها ذمّته وعابته . ولا نعلم أن شاذًّا من الشواذّ وشارداً من الشُرّاد ، فضلاً عن جيلٍ من الأجيال ، أمر بالحسد ، كما قد قيل : عادِ مَن عاداك ، وقارع بالعداوة أهلها

ثم عظُم شأن العداوة عندهم وجلّ قدرها لديهم ، حتى اختلفوا فى سُبُلها ووجوه العمل فيها ، فمنهم مَن أمر بها على الحزم والعقل . وقال الشعبى لبشر بن مروان : لو وجهت إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الزبير ، وكان شتمه ، مَن يأتيك به سَحباً وجرًّا . فقال بشر : إنّى مستعمل فى عدوّى قول القائل :

وعادِ إذا عاديتَ بالحزم والنُهى تَنَلْ ظَفراً مِمّن تريد وتغلب

فكان هذا ممن يرى المعاداة بالحزم * ويغتالها بالعقل والتأنّى

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرُّ العداوة ما سُتر بالمداراة وأشفاها للأنفس ما قُرِع بمثلها باديا . وكان ينشد :

لا أتّقى حَسَكَ الضغائن بالرُقى فعلَ الذليل ولو بقيتُ وحيدا

لكن أعدُّ لها ضغائنَ مثلَها حتّى أداوىَ بالحُقود حُقودا

كالخمر خيرُ دوائها منها بها تشفى السقيم وتبرئ المنجودا

فانتهى قوله إلى ابن شُبرمة فقال : لله درّ عروةَ هذه أنفسُ العرَب . فهؤلاء رأوا كشفَ المعاداة ولم يروا التأنّى

ومنهم مَن رأى المعاداة بعد الفِرار منها والإعذار فيها ، فإن هى أبت إلاّ المقارنة قارنوها بمثلها . قال شبيب بن شيبة : إذا رأيت الشرّ قد أقبل

---

(١٠) كذا ت

إليك فتطامن له حتى يتخطاك ، ولا تهجْه ولا تبحث عنه ، فإن أبى إلاّ أن ينزل عليك فكن من الأرض ناراً *ساطعةً تتلقى . وأنشد :

إذا عاداكَ مُحتَنِكٌ لبيب   فعادِ النومَ واحترس البياتا
ولا تثر الرَّبُوض وخلِّ عنها   وإن ثارت فكن شبحاً مواتا
*تحول إلى سواك ونح *عنها   فخير الشرِّ أسرعه فواتا
وإن مالت عليك وخفت منها   فواجهها مجاهرةً صِلاتا

ومنهم مَن أمر بقبول الإنصاف وترك المحاسبة . قال عُبيد الله بن عبد الله ابن مسعود : إن الملامات والمذمّات كلها قبيحة ، وأقبح الملامة والمذمّة ما كانتا فى ترك نصفةٍ أو شدّة منافسةٍ فى تعداد الذنوب . وأنشأ يقول :

منافسة العدوّ أو الصديق   تجرُّ إلى المذمّة والملامه
إذا أعطاك نصفاً ذو ودادٍ   و بعض النصف فانتهز السلامه

ومنهم من قال : لا ترض من عدوّك إلاّ بالظلم ، ولا تقبل إنصافه ونافسه . من ذلك قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النصف منهم   ولو أنصفوا حتى تعق وتظلما

ومنهم من أمر بمعونة الدهر على العدوّ إذا حمل عليه . قال : حدثنى إبراهيم بن شعبة المخزومى ، قال : سمعت مَن حكى لى عن مصعب بن الزبير قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمت عدوّك فبادره برجلك ، فإن سلم من الدهر لم يسلم منك . وأنشد :

إذا برك الزمان على عدوّ   بنكبته أعنتُ له الزمانا

(٢) ساطعا ن — (٥) تحول . صححنا : تجزل ن — عنها ، صححنا : عليها ن

قال العتابى : قلت *لطوق بن مالك : إن من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السلب ، فإذا حملت الأيّام على عدوّك ثقلا وأمكنتك منه ، فزِدْهُ ثِقلاً إلى ثِقله . قال : فقال لى طوق : من لم ينتهز من عدوّه انتهز منـه ، وحالت الأيام التى كانت بيضاً عليه سوداً . وأنشد :

لله درُّك ما ظننتَ بثـــائرٍ حرّانَ ليس على التراب براقد
أحقدتَه ثم اضطجعت ولم ينم أسفاً عليك وكيف نوم الحاقد
إن تمـكنِ الأيامُ منك وعلّها يوماً توفك بالصُّــواع الزائد
ولئن سـلمتَ لأتركنّك عارضاً بعـدى لكلّ مسالمٍ ومعاند

ومنهم من كان يرى جبرَ كسرِ العدوّ وإقالةَ عثرته ونصرتَه عند نوب الدهر عليـه . قال : حدثنى ابنُ عبد الحميد ، قال ابن شبرمة : كانت الحربُ يومَ صفّين بين العرب محضةً لا شَوْبَ فيها ، فكانت محاربتُهم *كرّاً واعتناقاً ، وكانوا إذا مرّوا برجـل جريح كانوا يقولون : خـذله قومه فانصروه وألقاه دهره بمضِيعة فردّوه إلى أهله

وقال ابن شبرمة : ما زلنا نسـمع أنّ المصيباتِ تنزع السجيات . قال : وأنشدنى بعض أهل العلم فى هذا المعنى :

فلو بى بدأتُم قبلَ من قد دعوتُم لفرّجتُها وحدى ولو بلغت جهدى
إذا المرءُ ذو القربى وذو الجند أجحفتْ به سَنَةٌ سـلّت مصيبته جعـدى

ومنهم مَن رأى الإفضال على عدوّه وتركَ مجازاته ، وهذا كثير لا يحتاج فيه إلى استقصاء شواهده

---

(١) على الهامش ، وفى المتن : لمالك بن طوق — (١١) كرا ، صححنا : كراما ن

قال غيلان بن خرشنة الضبى ، وقال بعضهم بل الأحنف بن قيس : لا يزالُ العربُ بخير ما لبست العمائم وتقلّدت السيوف وركبت الخيل ولم تأخذها حميَّـة الأوغاد . قيل : وما حميَّـةُ الأوغاد ؟ قال : أن يرَوا الحلمَ ذلاًّ والتواهب ضيما

وقال الشـعبى لرجل قال له : ألا تنتقم من فلان ؟ فقد عاداك ونَصَب لك . فقال :

ليست الأحلامُ فى حال الرضا   إنما الأحلام فى حال الغضب

وأنشدنى بعض العلماء بيتين ، وقال : إن الزهرى كان كثيراً ما يتمثل بهما :

وإنى لأعدائى على المقت والقلى   بنى العم منهم كاشح *وحسود
أذُبُّ وأرمى بالحصا من ورائهم   وأبدأ بالُحسـنى لهم وأعود

وكان عبد الله بن مَرْوان إذا أنشد :

إنى وإن كان ابنُ عمى كاشحاً   لمراجمٌ من دونه وورائه
ومُعيرُه نصرى وإن كان امرءًا   متزحزحا فى أرضـه وسمائه
وإن اكتسى ثوبا نسيساً لم أقل   يا ليت أنّ علىّ حسنَ ردائه
وإذا تخرَّق فى غنـاه وفرته   وإذا تصعلك كنت من قرنائه

قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسد واللؤم والانتقام عند الإمكان والمسألة عند الحاجة

ومنهم من أمر بالسـفه فى العداوة ، واستعمال الخرق فيها . حدثنى نوح ابن أحمد ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن ابن عباس ، قال : جاء النابغة الجعدى

(٧) كذا على الهامش ، وفى المتن : وصديق

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشعر ما عفى الله عنه ؟ قال : نعم ، قال : أنشدنى منه ، فأنشده :

وإنّا لقوم ما نعوِّد خيلنا   إذا ما التقينا أن تحيدَ وتنفرا
وتنكر يوم الروع ألوان خيلنا   من الطعن حتى يحسب الجون أشقرا
وليس بمعروفٍ لنا أن نردها   صِحاحا ولا مستنكراً أن نُعفّرا
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا   وإنّا لنبغى فوق ذلك مظهرا

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى الجنة إن شاء الله . ثم رجع فى قصيدته فقال :

ولا خير فى جهلٍ إذا لم يكن له   حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا
ولا خير فى حلمٍ إذا لم يكن له   بوادر تحمى صفوه أن يُكدَرَا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا فضّ الله فاك . فأتت عليه عشرون ومائة سنة ، كلما سقطت له سن أثغرت أخرى مكانها ، لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهذا أحسن ما روى فى البادرة التى يُصان بها الحلم

وقال الشاعر الجاهلىّ :

صفحنا عن بنى ذهل   وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجع   ن حياً كالذى كانوا
فلما صرخ الشرُّ   وأمسى وهو عريان
مشينا مشية الليث   بدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين   وتضجيع وإذعان
وطعنٍ كفم الزِقّ   وها والزق ملآن

وفى الشرِّ نجاة حيـ ـن لا ينجيك إحسان

حدثنا أبو مسهر ، عن أبيـه ، عن خالد بن عمرو الكلبى ، قال : كنا مع أبى برزة الأسلمى فى غزاة ، فكان منّا رجل يمتار لنا المِيرة ويقوم بحوائجنا ، فإذا أقبل قلنا : جزاك الله خيراً ، فغضب لدعائنا ، فشكونا ذلك إلى أبى برزة ، فقال أبو برزة : كنا نسـمع أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ، فاقلبوا له . فـكنا نقول له إذا أتانا بالحوائج : جزاك الله شراً وعسراً ، فيضحك لذلك

وأنشدنى رجل عن بعض الأعراب :

أرى الحلم فى بعض المواطن ذلّة وفى بعضها عزاً يشرّف فاعله
إذا أنت لم تدفع بحلمك جاهلا سفيهاً ولم تَقرن به من يجاهله
لبستَ له ثوب المذلة صاغراً فأصبح قد أودى بحقك باطله
فأبق على جهـال قومك إنه لكل حكيم موطن هو جاهله

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : استوصوا بالغوغاء خيراً ، فإنهم يطفئون الحريق ويسدّون البثوق

وقال أبو سلمى فى الجاهلية :

لا بد للسؤدد من رماح ومن عداء يُتّقى بالراح
ومن كلابٍ جمة النباح

وقال مسلم بن الوليد :

حلفت لئن لم تكفنى سفهاءها خزاعة والحيّان عوف وأسلم
لأرتجعن الوُدّ بينى وبينهـا بقافيـة تقرِى العروق فتحسم
من اللاء لا يرجعن إلاّ شوارداً لهنّ بأفواه الرجال تهمهـم
أصابوا حليما فاستعَدوا بجاهل إذا الحلم لم يمنعك فالجهل أحزم

ولم نستقص الأبواب كلها المعارضة فى هذا الكتاب ، ولو استقصيناه لطالت بنا الأيام وتراخت الليالى ، إلى بلوغ الغاية فى تمام الكتاب . وإنما ذكرنا من كل باب عرضَ ما دل على معناه الذى إليه قصد

ولم نر الحسد أمر به أحد من العرب والعجم فى حالٍ من الأحوال ، ولا ندب إليه ونبَّه عليه . وقد نُبِّه على العداوة ، وفُصل بين أحوالها بما قد بيّنّاه ، فظهر فضلها على الحسد بذلك

وكنتُ امرءاً قليل الحُسّاد ، حتى اعتصمت بعروتك واستمسكت بحبلك واستذرأت فى ظلّك ، فتراكم علىَّ الحُسَّاد وازدحموا ، ورمونى بسهامهم من كل أوْبٍ وأفقٍ ، وتتابعوا علىَّ تتابعُ الدَبْر على مشتار العسَل . ولئن كثروا لقد كثر بهبوب ريحك إخوانى ، وبنَضرة أيامك وزهرة دولتك خُلاّنى . وأنا كما قلت :

فأكثرتَ حُسّادى وأكثرتَ خُلّتى   وكنتُ وحُسّادى قليلٌ وخُلاّنى

فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب ، دخل علىَّ عشرة نفَرٍ من الكتّاب ، قد شملهم معروفك ورفع مراتبهم جميل نظرك ، فهم من طاعتك والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك وجزيل فوائدك . فأفاضوا فى حديث من أحاديث الحسد ، فشعَّب لهم ذلك الحديث شعوبا افتنّوا فيها ، والحديث ذو شجون . فما برحوا حتى أتتنى رُقعة أناسيَة من الحُسّاد ، فيها سهام الوعيد ومقدّمات التهديد والتحذير والتخويف للطعن على ما أُؤلِّف من الكتب ، إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يجرى علىَّ . فدفعت رقعتهم إلى

مَن قرب إلىّ منهم ، فقرأها ثم قال : قاتلهم الله أبظُلمٍ يرومون النيْل ويلتمسون الشركة فى المعروف . لنَزْعُ الروح بالكلاليب أهون من بذل معروفٍ بترهيبٍ . وأنشأ يقول :

أما الحوادث من خليلك مثل جندلة المراجم
قد رامنى الأعداء قبلك فامتنعت من المظالم

ودفعها إلى مَن قرب منه فقرأها ، وقال الثانى : صكة جلمود لكل مُرعِد حسود يستمطر العُرف بالتهديد ، خَلِّ الوعيد يذهب فى البيد . وأنشأ يقول :

أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيدك لى بضائر

ودفعها إلى الثالث فقرأها وقال : سألوا ظلماً وخوّفوا هضما ، لقوا حربا ولقيت سلماً . وأنشأ يقول :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع

ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال : قول الذليل وبوله سِيّانِ . وأنشأ يقول :

ما ضَرَّ تغلب وائل أهجوتها أم بُلت حيث تناطح البحران

ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : نهيق الحمار ودم الأعيار ، جُبّار جُبار . وأنشأ يقول :

ما أبالى أنبّ بالحزن تيس أم لحانى بظهر غيب لئيم

ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : إذا علقتك الأمجاد فليَهن عليك الُحسّاد . وأنشأ يقول :

إذا أهل الكرامة أكرمونى فلا أخشى الهوان من اللئام

ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : كيف يخاف الصرعة   مَن هو فى ذى المنعة . وأنشأ يقول :

كم تنبحون وما يغـــنى نباحكم   ما يملك الكلبُ غير النبح من ضرر

ودفعها إلى العاشر فقرأها وقال : نَوكى هَلكى ، لم يعرفوا خبرك   ولا دروا أمرك . وأنشأ يقول :

فلو علم الكلاب بنو الكلاب   بحالك عنـــد سيّدنا لذلّوا

وعندى صديق لى من السوقة له أدب ، فقال لى بعقب فراغهم مُسِرًّا : إنّ هؤلاء الكتاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الُحسّـــاد ، وضربوا الأمثال فى هوانهم عليك ، وعرفوا أنك فى منعةٍ من عِزٍّ أبى الحسن — أطال الله بقاءه — ومعقل لا يُسامَى ولا ينال ، وأنا أقول بالشفقة :

تَوَقَّ قوماً من الحُسّاد قد قصدوا   لحطّ قدرك فى سِرٍّ وفى عَلَنِ

فقلت له : إنى أقول بيتين هما جوابك وجواب الحُسّاد :

إنّ ابن يحيى عبيـد الله أمّننى   من الحوادث بعد الخوف من زمنى
فلست أحذر حُسّادى وإن كثروا   ما دُمتُ مُمسكَ حبل من أبى الحسن

فلما رأى صديقى اقتفائى آثار الكُتّاب ، باستهانتى *بالحسّـــاد عند اعتلاقى حبائلك — أعزك الله — أنشأ متمثلا* يقول بشعر نصر بن سيّار :

إنّى نشأت وحُسّادى ذوو عددٍ   يا ذا المعارج لا تنقص لهم عددا
إن يحسدونى على ما قد بنيت لهم   فمثل حسن بلائى جرَّ لى الحسدا

وليس العجب أن يكثروا ، وأنا أنعق بمحاسنك   وأهتف بشكرك ، ولكن العجب كيف لا تتفقت أكبادهم كمداً . وكان بعضهم يقول : اللهم كثّر حُسّاد

(١٥) للحساد ن — (١٦) كذا فى ن ، ولعلها مقحمة

ولدى ، فإنهم لا يكثرون إلاّ بكثرة النعمة . فإن كان والدى سبق منه هـذا الدعاء ، فإنّ الإجابة كانت مخبوءة إلى زمان عزك ، فقد رأينا تباشيرها وبدت لنا عند عنايتك غايتها

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعـل ولدى محسودين ولا تجعلهم مرحومين ، فإنّ يوم المحسود يوم عزّه ويوم *الحاسد يوم ذلّه

ويقال إنه لما مات الحجاج سمعوا جاريةً خلف جنازته وهى تقول :

اليوم يرحمنا مَن كان يحسدنا　　واليوم نتبع مَن كانوا لنا تبعا

ويقال إن زياد بن أبيه قال لحُرقة ابنـة النعمان : أخبرينى بحالكم ، قالت : إن شئتَ أجملتُ وإن شئتَ فسرت ، فقال لها : أجملى ، فقالت : بتنا نُحسَد وأصبحنا نُرحم . فخطبها زياد — وكانت فى ديرلها — فكشفت عن رأسهـا ، فإذا رأس محلوق ، فقالت : أرأس عروس كما ترى يا زياد ؟ وأعطاها دنانير فأخذتها وقالت : جزتك يد افتقرت بعد غنًى ، ولا جزتك يد استغنت بعد فقر

ولا نعلم الحسد جاء فيـه شىء أكثر من حديثٍ رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلاّ فى اثنين ، رجل أتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به آناء الليـل وآناء النهار ، ورجل أتاه الله مالاً فهو ينفقه فى وجوه البر آناء الليل وآناء النهار . فهذا الحسـد إنما هو فى طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم

---

(٥) كذا فى ن ، ولعلها : المرحوم

وقال بعض الأشراف :

احسُد على نيل المكارم والعُلاَ إذ لم تكن فى حالة المحسود
حسد الفتى فى المكرمات لغيره كرم ولكن ليس بالمعدود

فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد . وزادك الله شرفا وفضلا وعلماً ومعرفة ، ولا زلت بالمكان الذى يُهدى إليك الكتب ، ويُتحف بنوادر العلوم وفرائد الآداب إنه قريب مجيب*

(٦) تم الكتاب ولله المنة وبيده الحول والقوة .

فهرس الرسائل

التى يحويها هذا المجموع

صفحة

١ — رسالة المعاد والمعاش ٩

٢ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان ٣٧

٣ — رسالة فى الجد والهزل ٦١

٤ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد... ... ... ٩٩

تصحيحات

ص ٣٨ : وردت القطعة « وقيل من استوى » (سطر ١) إلى آخر سطر ٩ فى نسخة ب أيضا وفيها رواية أخرى للأبيات المذكورة فى سطر ٤-٥ :

رأيتك أمس سُدْتَ بنى مَعَدّ ......

وأنت غداً تزيد الضعف منه ......

أما بقية التصحيحات التى نقترحها فهى :

صفحة	خطأ	صواب
٣٨ : ٨	تحي به	تُحنَى له (كذا ب)
٣٩ : ٥	بقدرة الله	بقدرة لله
٤١ : ١٢	الأشافىّ	الأشافى
٤٣ : ٩	المحدّثَ	المحدّثُ
٤٣ : ١٨	لم يُخرجه	لم يخرجه
٥١ : ١٨	الطعنَ ... والتجسسَ	الطعنِ والتجسسِ
٥١ : ١٨	وعشقَ	وعشقُ
٥١ : ١٨	واستحلالَ	واستحلالُ
٥١ : ١٨	ظاهراً	ظاهر ؟
٥٦ : ٨	كُفُؤه	كفئه
٦٠ : ١	فكائن العارضَ	فكان العارضُ
٦٠ : ١٠	والآخذِ	والآخذُ
٦٠ : ١١	< منه > لمن	ممن
٦٥ : ٢	العلاظ	الغلاظ
٦٥ : ٥	الفظائع	القطائع ؟
٦٧ : ١٣	غرمُه	غرمه
٦٨ : ٤	اكتراثه	اكتراثك ؟
٧١ : ٧	وبعذره	وبعذره
٧٢ : ٥	الاعتزام	الاعترام ؟
٧٥ : ١٥	يُومى	يومى
٧٦ : ٤	سكينه	سَكينته ؟
٨٠ : ١٧	لتعرُض	لتعرض
٩٠ : ٥	بدلك	بذلك
٩١ : ٨	واصابة	واصالة
٩١ : ١٨	والتهاية	والنهاية
٩١ : ١٨	المسكنة	المُسْكِتة
٩٢ : ١٠	وتباعدُ	وتباعُدِ
٩٧ : ١	اخفى	أخظى
٩٧ : ٦	والضبِ	والضَّبِّ

DATE DUE

NOV 20 2008			

GAYLORD PRINTED IN U.S.A.

FEB 4 1946

893.7J19 S6

0921360

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58871985
893.7J19 S6
Majmu rasail al-Jahi
RECAP